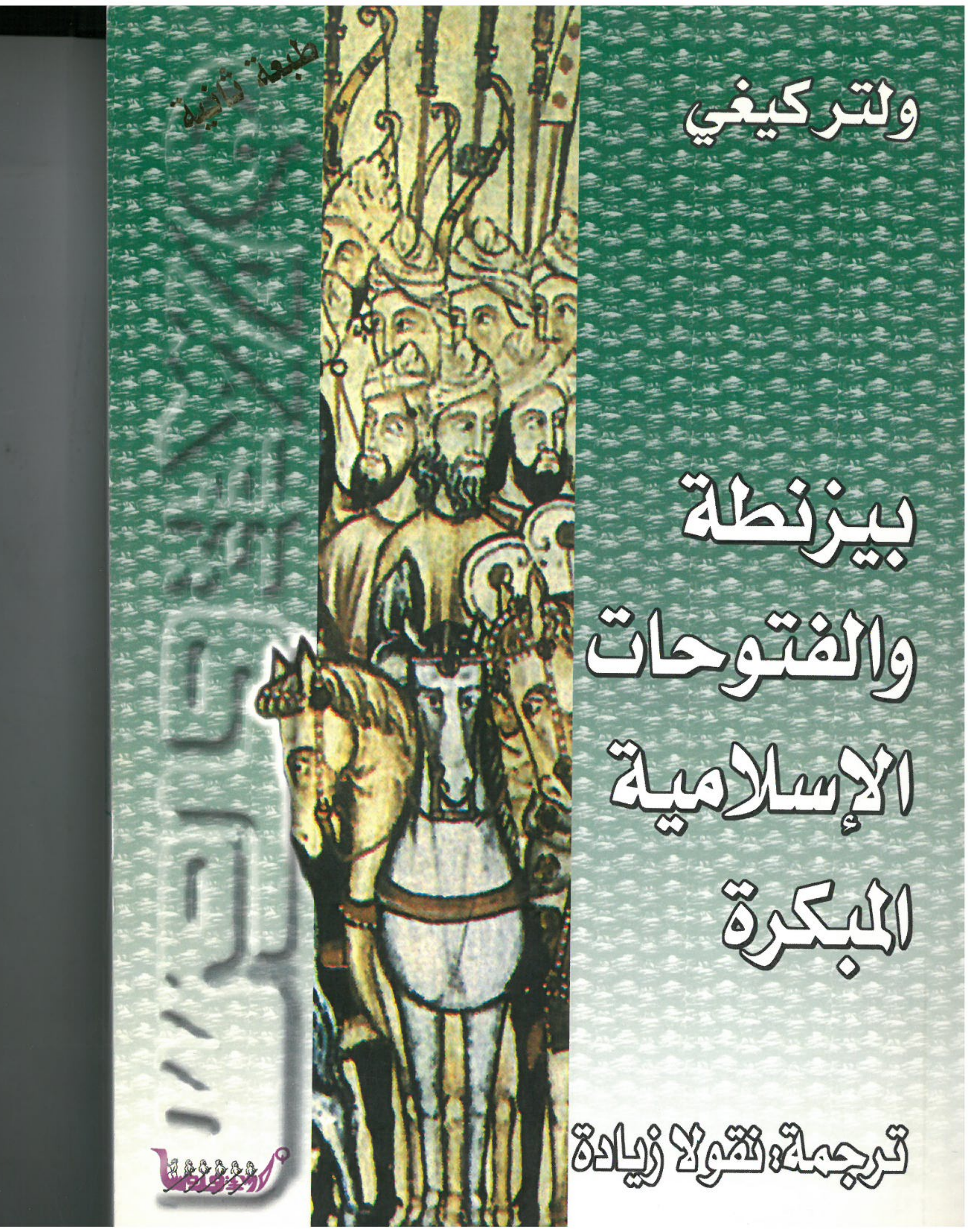

طبعة ثانية
ولتر كيغي
بيزنطة
والفتوحات
الإسلامية
المبكرة
ترجمة: نقولا زيادة

بيزنطةُ والفتوحاتُ الإسلاميَّةُ المبكِّرةُ
تأليف: ولتر كيغي
ترجمة: نقولا زيادة
التدقيق اللغوي: مظهر اللحام
تصميم الغلاف: نبيل الملاّح.
إعداد: زياد منى.
رسم الخرائط: زياد منى.
إخراج الكتروني: محمد غيث الحاج حسين.
الطَّبعة الثانية: (2003 م) جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ للناشر©.
التوزيع الحصري في سوريَة:
قَدْمُس للنشر والتوزيع
ص ب 6177
دار المهندسين (0905) الفردوس
دمشق، سوريَة.
هاتف: (11-963+) 2229836 برّاق:(11-963+) 224 7226/442 7393
بريد إلكتروني: ‹cadmus@net.sy›
التوزيع الحصري في خارج سوريَة:
شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)
ص.ب: 6435/ 113
شارع الحمرا، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف: (1-961+) 750 054. برّاق: (1-961+) 750 053
بريد إلكتروني: ‹daramwaj@inco.com.lb›
التوزيع الحصري في الأردن:
الأهلية للنشر والتوزيع – عمّان.
هاتف: (6-962+) 4638688
لابتياع إصداراتنا على (الشبكة) انظر: ‹www.alfurat.com›
إذْنُ الرقابة: رَقْم (72483) بتاريخ 24 أيلول/ سبتمبر (2002 م).
إنّ الآراءَ الواردةَ في هذا الكتابِ لا تعبر عن رأي الدار، وإنما تمثلُ رأيَ الكاتب.
السعر: (14) يورو – السعر في سورية: (500) ل س
عدد الكلمات (128766) كلمة تقريبًا.



ولتر كيغي

# بيزنطةُ
# والفتوحاتُ الإسلاميَّةُ المبكِّرةُ

ترجمة: نقولا زيادة



# جديد دار قَدْمُس

## نسخ إلكترونية من إصدارات الدار

اتفقت كل من دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، و: شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م) (http:www.cadmus-books.com) و(http://www.cadmusbooks.net) مع شركة الكتاب العربي الإلكتروني (http:www.arabicebook.com) على التعاون في مشروع إصدار نسخ إلكترونية من كتب الدار وبيعها على الموقع الأخير، والبدء به بحلول شهر تشرين الأول/ أكتوبر المقبل. وسيتم تحديث العرض بشكل مستمر، وتوسيع نطاق الخدمات المرافقة له بهدف تلبية رغبات أوسع دائرة ممكنة من القرّاء.

وسيقدم الموقع خدمات عديدة منها:

* ابتياع وتحميل نسخ إلكترونية من أي من إصدارات الدار، وتحميل كل كتاب، أو كتيب منها، بشكل كامل.
* ابتياع وتحميل أجزاء من النسخة الإلكترونية من كتاب محدد.
* ابتياع وتحميل مجموعة من النسخ الإلكترونية من إصدارات الدار أو مقتطفات منها.
* بحث في قاعدة البيانات باستخدام عنوان الكتاب، أو اسم الكاتب، أو المترجم، أو الموضوع، أو كلمة دالة.

* تصفح تصنيف ولوائح الكتب، وقراءة نماذج من النصوص

إضافة إلى ما سبق، يقدّم نظام حماية الموقع الإمكانات التالية:

* **الطبع والنسخ**: يمكن لزائر الموقع طباعة أجزاء من الكتاب الإلكتروني أو نسخه. الإذن يسري على عدد محدد من الصفحات، أو الفقرات لمدة معينة من الوقت.

* **الإعارة**: يسمح الناشر لزائر الموقع قراءة الكتاب الإلكتروني على جهاز غير الجهاز الأساسي. وتكون فترة الإعارة محدودة يقررها الناشر، لا يمكن خلالها قراءة الكتاب على الجهاز الأساسي.

* **انتهاء الصلاحية**: يحدد الناشر فترة زمنية تصبح بعدها نسخة الكتاب الإلكتروني غير صالحة للقراءة، ولا يمكن بالتالي معاينتها بعد ذلك التاريخ.


قَدْمُس للنشر والتوزيع

**www.cadmus-books.com**
**www.cadmusbooks.net**

أول مكتبة من نوعها على ‹الشبكة›

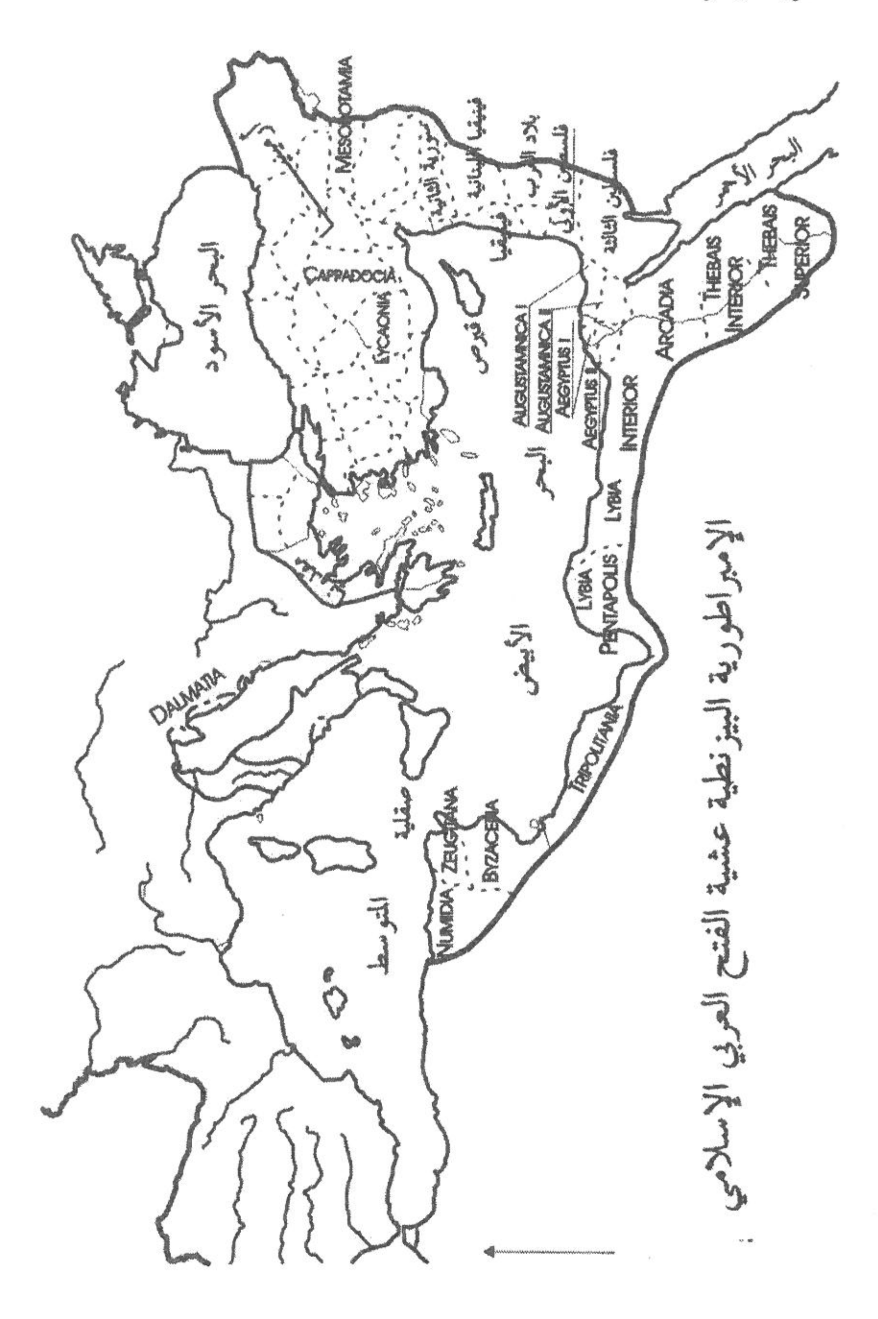
تُرجِمَ هذا الكتابُ

بمنحةٍ كريمةٍ من الدّكتور زياد إسرب

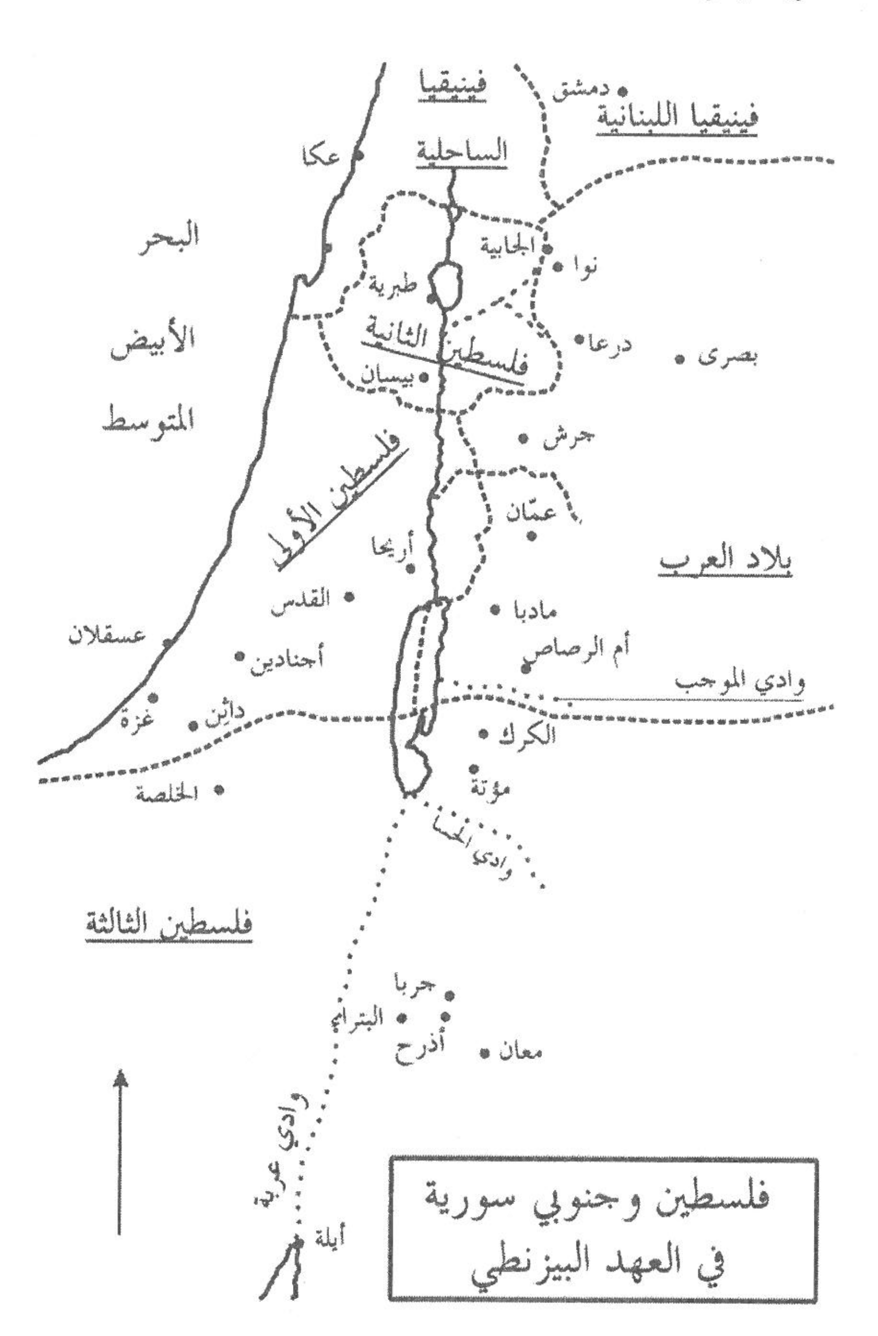
الإهداء

إلى الدكتور زياد إسرب

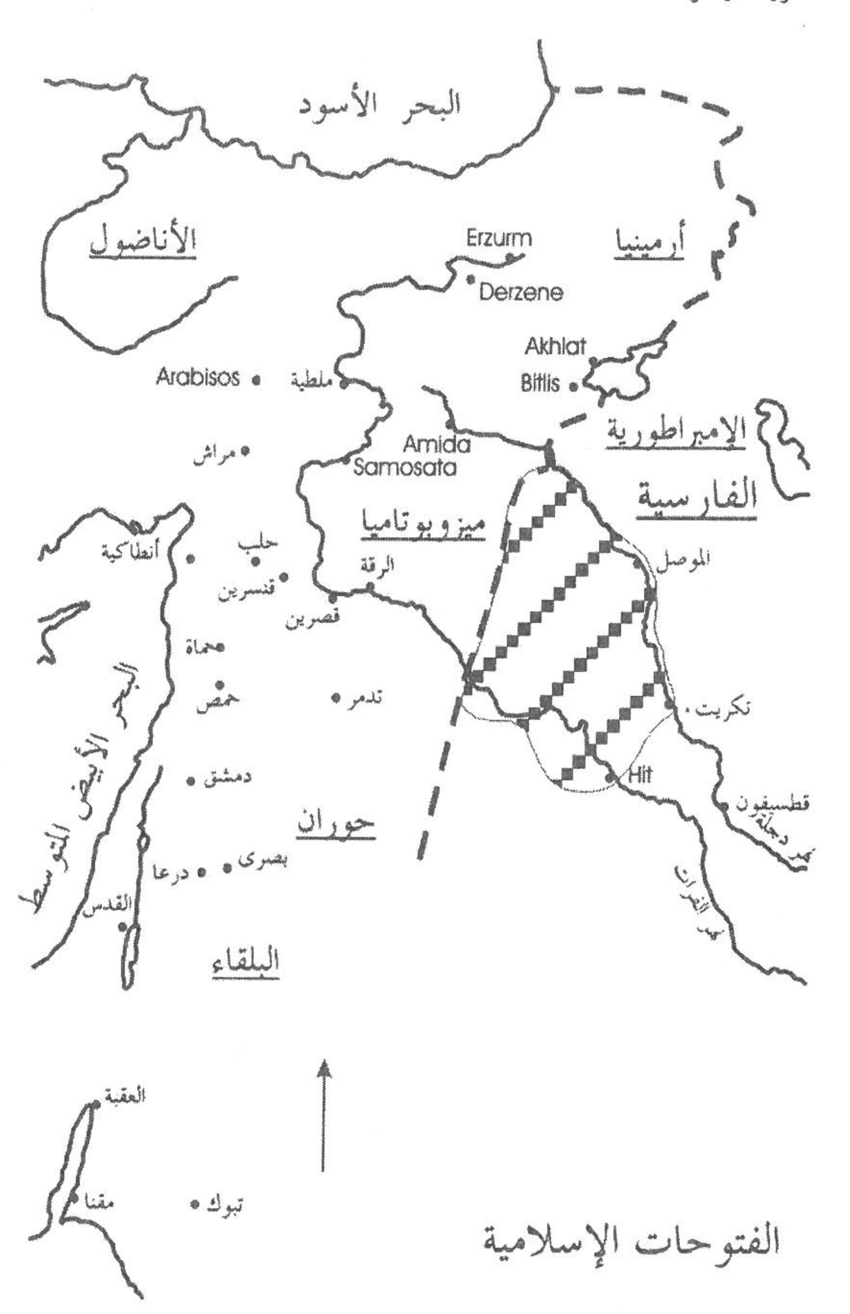
# المحتوى

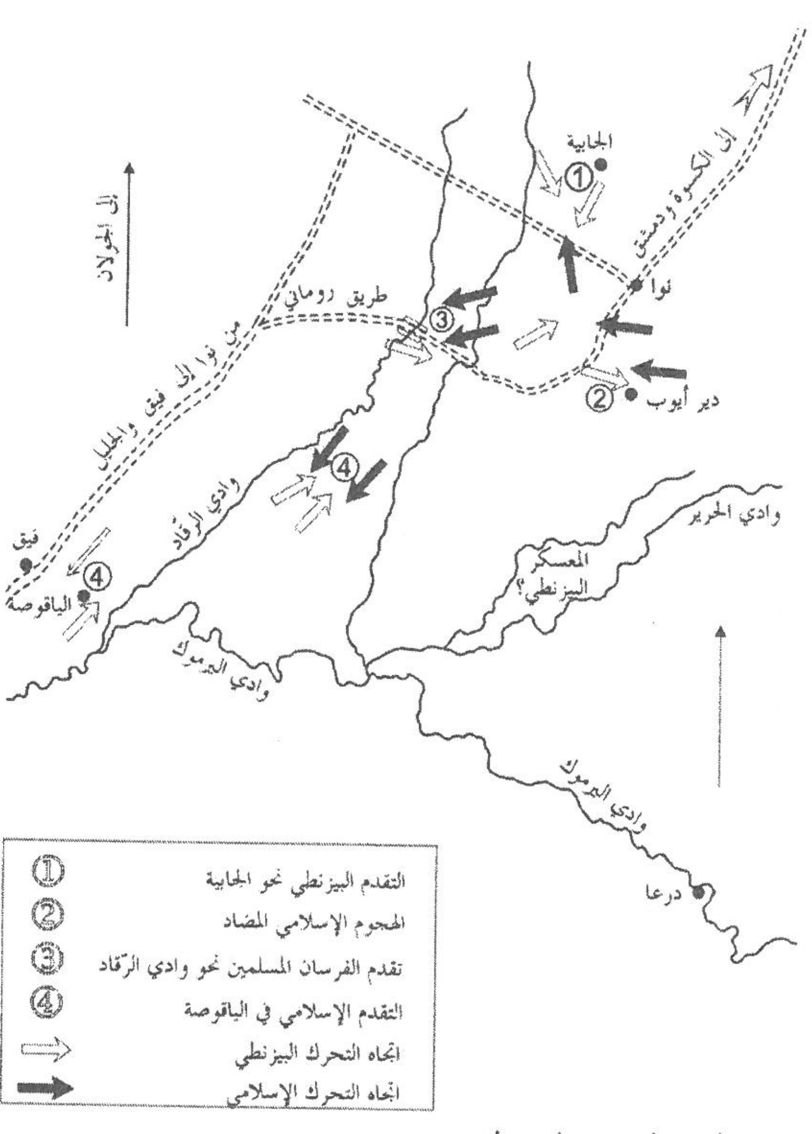



الإمبراطورية البيزنطية عشية الفتح العربي الإسلامي

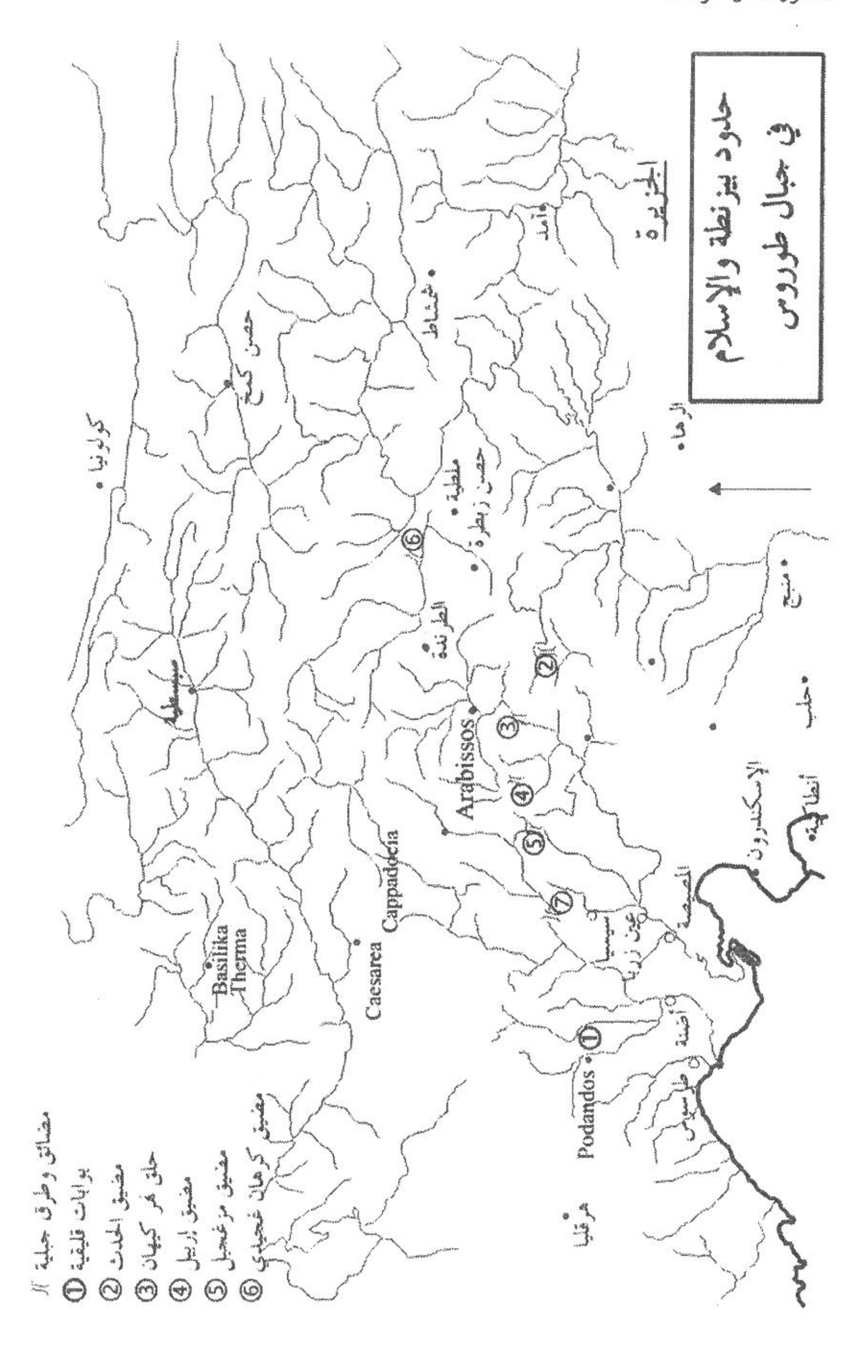



فلسطين وجنوبي سورية
في العهد البيزنطي


البحر الأسود
الأناضول
أرمينيا
Erzurm
Derzene
Akhlat
Bitlis
Arabisos
ملطية
مراش
Amida
Samosata
الإمبراطورية
الفارسية
ميزوبوتاميا
الموصل
الرقة
أنطاكية
حلب
قنسرين
قصرين
حماة
حمص
تدمر
تكريت
Hit
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
حوران
قطسيفون
نهر دجلة
نهر الفرات
بصرى
درعا
القدس
البلقاء
العقبة
مقنا
تبوك
الفتوحات الإسلامية




معركة الجابية -اليرموك


حدود بيزنطة والإسلام في جبال طوروس
مضائق وطرق جبلية
① بوابات قليقية
② مضيق الحدث
④ مضيق اربيل
Podandos
Caesarea
Basilika Therma
Cappadocia
Arabissos
هرقلة
طرسوس
أضنة
عين زربة
المصيصة
الإسكندرون
أنطاكية
حلب
منبج
الرها
ملطية
حصن زبطرة
شمشاط
آمد
الجزيرة
كولونيا
حصن كمخ
سبسطية




هرقل – مثمن / القسطنطينية
الوجه: هرقل وهرقل قسطنطين
الخلف: صليب واسم




كونستانس الثاني وقسطنطين الرابع – مثمن / القسطنطينية
الخلف: اسم
التاريخ 645 - 9



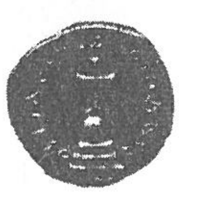

هراكلوناس / القسطنطينية
الوجه: هراقلوناس
الخلف: اسم يوناني
التاريخ: 641




هراكلوناس / القسطنطينية
الوجه: تمثال نصفي هركلوناس بضرب اونيكا
الخلف: انانيوس - التاريخ 641




نموذج أصيل لسوليدس (دينار) بيزنطي مع صليب يولو
أربع درجات على (الخلف) قبل التطور الإسلامي
وعلى الوجه هقليوس وهقليوس قسطنطين
سك في رافنا التاريخ 613 – 29
اللوحة واحد إشارات معاصرة على نقود بيزنطية




ثلاثة أشخاص واقفون. دينار / سوليدس (الوجه)
صليب منظور ونقش باللاتينية (الخلف)

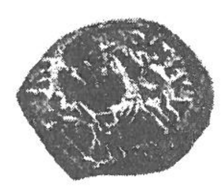





شخصان – لعله خرب في دمشق؟ سوليدس / دينار (الوجه)
صليب (منظور) (الخلف)




ثلاثة شخوص سوليدس (دينار) دمشق؟ (الوجه)
صليب (منظور) (الخلف)

عبد الملك (الخليفة واقفاً) دينار دمشق (الوجه)
صليب منظور (الخلف)




دينار - دمشق - بعد إصلاح النقد
اللوحة اثنان
نقود إسلامية تقليد للنقوط البيزنطية والنقد المصلح



# ملاحظاتُ الناشر على النصِّ والمَراجع في الكتاب

* المادة اللغوية بين الأقواس المزدوجة « » تشير إلى أنَّ النصَّ مقتبسٌ .
* المادة اللغوية المكتوبة بين ' ' تشير إلى أنها اقتباس ضمن اقتباسٍ آخرَ .
* المادة اللغوية بين قوسين منفردين ‹ › تشير إلى المصدر الذي اقتبست منه النصوص المقتبسة .
* المادة اللغوية بين الفواصل المقلوبة " " تعني أنها اعتراضٌ على المحتوَى ، من الكاتب الأصلي إذا كان النصُّ مقتبسًا ، أو من مؤلِّف الكتاب .
* المادة اللغوية بين قوسين كبيرين [ ] تشير إلى أنها ليست موجودة في النص الأصلي أو مؤلف الكتاب .
* حوى هذا الكتابُ كثيرًا من الهوامش المرتبطة بمراجعَ غيرِ عربيَّةٍ مسرودةٍ في آخر الكتاب . لذلك ارتأينا عدم إدخالها في الترجمة العربيَة ، عدا تلك التي تشرح أمورًا ذاتَ علاقةٍ بالنصِّ ، إن وُجدت ، علمًا بأن المؤلف وظَّف مخطوطات عربية غير متوافرة في المكتبات التي سنحت لنا فرصة الاستفادة من محتوياتها . ويمكن للقارئ الراغب في متابعة البحث العودةُ إلى النص الأصلي . ولتسهيل الأمر ، سنقومُ بوضع الهوامش الأصلية كاملةً في النسخة الإلكترونيَّةِ من الكتاب الموضوعةِ على موقعنا في الشبكة المشار إليه في الصفحة رَقْم (2) من هذا الكتاب، أي: (http://www.cadmus-books.com) . وقد تركنا أرقام الهوامش في هذه النسخة كما هي حتى يتمكن المهتم من متابعتها، وسيكون من دواعي سرورنا تزويدُه بنسخة إلكترونية من الهوامش الأصليّة والمعرَّبة.

قَدْمُس للنشر والتوزيع

# مقدِّمَةُ المترجِم

القضايا التاريخية المتعلقة بتاريخ الفتوحات الإسلامية المبكرة هي دومًا موضعُ بحثٍ وجدل وخلاف. لأنَّ المصادرَ متنوعةُ الأصول، ومتعدِّدةُ الميول. ولم يكن باستطاعة الباحثين دومًا أن يصلوا إليها، فبعضُها فُقد، وبعضُها الآخرُ وصلنا مشوَّشًا. وكثير من الباحثين لم يكن بمقدوره أن يطَّلع على المظانِّ الأصلية باللغة التي كتبت بها. وإذا تذكرنا أن الكثيرَ من هذه المظانِّ الأصلية لم يترجَمْ بَعْدُ إلى لغة حيَّةٍ يعرفُها الباحثونَ المحدثونَ، أدركنا مدى النقصِ الذي قد يعثّر المحاولات التي تمَّتْ، والتي تقومُ هذهِ الأيامَ.

مؤلِّف هذا الكتاب، ولتر كيغي، هو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة شيكاغو. ومحاولته لا تعدو كونها واحدةً من المحاولات الجدية التي تعرضت لقضية الفتوحات الإسلامية المبكرة وبيزنطة. ومما يشفعُ له ويعزِّز دراسته الدقةُ العلميَّة، إضافةً إلى معرفتِهِ باللُّغات التي وضعت فيها أخبار الأحداث، وهي في هذه الحالة، العربيَّةُ واليونانيَّةُ واللاتينيَّةُ والأرمنيَّةُ، ومن ثمَّ، فقد عمد إلى الأصل، فاغترف معلوماته من الينابيع الأصلية، وناقش القضايا التي عرضت بميزان دقيق من الخبرة المنهجية.

إن عددًا كبيرًا من الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية المبكرة نظروا إليها من زاوية واحدة، هي زاوية الفتوحات نفسها. فجربوا أن يحللوا المعارك، ويعددوا الانتصارات، ويقابلوا بين العرب الفاتحين المنتصرين والدول الأخرى المهزومة. وكان ذلك يشمل، في معظم الحالات، فتوح الشام ومصر والعراق في سلة واحدة. وقلّما تنبّه الكثيرون منهم على بحث الأحوال الداخلية للدول المهزومة، إذ حسبوا أن ذلك أمر لا يخصّ الفتوحات.

لكن الأستاذ كيغي خرج عن ذلك في ناحيتين: الأولى : اقتصاره، إلا فيما ندر، على الميادين البيزنطية التي كان للعرب فيها نصرٌ هنا وهناك. أمَّا الناحيةُ الثانية : فتصديه لدراسة أوضاع الدولة البيزنطية العسكرية والمالية والإدارية، حتى الخلافاتُ الدينيّةُ بين سكان الإمبراطورية البيزنطية الشرقيين والدولة نفسها، ومدى تأثير هذه في سير الأحداث والمعارك والانتصارات وما يتعلق بذلك. بل إنه شغل نفسه في كتَابه بتتبُّع ما تأثر داخليًا في هذه الإمبراطورية بسبب الفتوحات. ولن أطيل الحديث عن هذه الناحية الثانية، فأنا لا أنوي تلخيص الكتاب، بل قصدتُ توجيهَ الانتباه إلى هذه المسألة.

وقد يبدي بعضٌ اعتراضَه على إدخال الناحية الثانية هذه في موضوع الفتوحات العربية. لن أدافع عن المؤلف، ولكنني أدعو القارئ الجدي إلى الانتهاء من قراءة الكتاب برُمَّته قبل أن يوجّه مثل هذا الاعتراض أو التساؤل.

الكتابُ أنموذجٌ للدّراسة العلميَّة على يد مؤرّخ دقيق صَبُور، يقلّب الأمور من زواياها المختلفة قبل أن يصدر حكمًا. ولا يتردد في وضع علامات استفهام عندما تقتضي الحاجة.

كتابٌ جديدٌ في الرؤية والزاوية عن موضوع الفتوحات الإسلامية المبكرة (في الميدان البيزنطي) أرجو أن ينل ما يستحقه من الباحثين، إفادةً ودرسًا ونقدًا. فهو حَرِيٌّ بذلك.

**نقولا زيادة**

**بيروت في أول تشرين الثاني / أكتوبر (2002 م)**



# مقدَّمَةُ الطّبعة العربيَّة

وضعتُ كتاب: بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، رغبةً مني في فَهْم جزء من كلا التاريخين الإسلامي والبيزنطي اشتد الخلاف فيه، وتوضيحه واتخاذ خطوة في سبيل توضيحه للآخرين. إنه مدعاة للسرور كما أنه مدعاة للاتّضَاع أنَّ هذا الكتابَ قد لقيَ من العناية ما يسوّغ ترجمته إلى العربية، وهذا ما لم أتوقعه. إنني أشعر بدين كبير للدكتور نقولا زيادة للقيام بنقل هذا الكتاب من الإنكليزية إلى العربية، وإلى الدكتور زياد منى ودار قَدْمُس للنشر والتوزيع للقيام بهذا المشروع والإشراف عليه إشرافًا يتّسم بالمقدرة والدقة. كما أتوجه بشكر خاصّ إلى الدكتور زياد إسرب الذي أبدى كرمًا واهتمامًا علميًا كبيرين عبر تقديمه منحة سخية لدار قَدْمُس لترجمة مؤلّفي هذا، وإليه أهدي هذه النسخة العربية. لقد طوقوا عنقي بشرف كبير إذ تم ذلك على أيديهم. وقد غمرني سرور كبير شخصيًا لأن هذا الكتاب قد ترجم ونشر في بلد ومدينة كانتا جزءًا أساسًا من الأحداث التي حاولتُ التحقيق فيها في هذا الكتاب. إنني آمُل أن تتاح لهذه الترجمة العربية إضافةُ مادّة تعين على تبيان تلك الأحداث المُهِمَّة والمسيرة التاريخية.

**ولتر كيغي**

**جامعة شيكاغو**

**15 أيلول / سبتمبر (2002 م)**

# تقديمٌ

بـدأتُ البحـث في هذا الموضوع في منتصف السبعينيّات، بعد إلقاء محاضرة عـنه في دورة الحضارة الإسلامية بجامعة شيكاغو، وتقديم بحث في المؤتمر السنوي الأول للدراسـات البيزنطـية الـذي عقـد في مَـتْحَف كليفلاند في شهر تِشْرين الأول/ أكـتوبر (1975 م). وقمـت بعـد ذلـك بتقصـي بعـض اسـتنتاجاتي في دورات أخـرى في جامعـة شـيكاغو، ومؤتمـر الدراسـات البيزنطـية، وخـلال المناقشـات والاستشـارات مـع بعض الطلاب الجامعيين والمتخَرّجين. . . [ انظر النص الكامل بالإنغليزية في آخر الكتاب، الناشر] .

# 1) مُشْكِلةُ بيزنطةَ والفتوحات الإسلاميّة المبكّرة

## 1.1) تحدّيات المصادر والمنهجيّة: ملاحظاتٌ أوليّة

كان أباطرةُ الرومان وأغاطستهم ينظرون إلى الأمور نظرة متسقة، ولست أعني أولئك الذين كانوا يقيمون في رُوْمَا فحسبُ، بل حتى أولئك الذين أقاموا في بيزنطة [القُسْطَنْطِيْنِية] بمن في ذلك قسطنطين الكبير (Costantine) ويوليان (Julian) وجوفيان (Juvian) وثيودوسيوس (Theodosius). كانوا يقيمون أحيانًا في الشرق وأحيانًا أخرى في الغرب لكنهم لم يقيموا في بيزنطة [القُسْطَنْطِيْنِية] سوى وقت قصير. في ذلك الزمان كانت الولايات بأجمعها هادئة، بما في ذلك كلُّ أوربَّة وإفريقيّة والقسم الأكبر من آسية حتى الولايةُ الفراتيّةُ وبلادُ أُدْيابين وإرمينيّة وسوريَة وفينيقيا وفِلَسْطين ومصر، وحتى بابلُ العظيمةُ التي كانت بلدًا مرغوبًا فيه إلى درجة كبيرة كانت خاضعة للرومان. لكن منذ أن أصاب الناس الوهن، على نحو ما يحل بهم الوباء لم تعرف الإمبراطورية الرومانية أمرًا حسنًا.[1]

بهذا القول جاء تحليل بيزنطي استرجاعي يعود إلى القرن الحادي عشر لأسباب الخسارة التي منيت بها الإمبراطورية الرومانية في كثير من الأقطار التي كانت تابعة لها. إن المؤلف، المدعو كِكاومينوس (Kekaumenous) يعزو سقوط الإمبراطورية، بمنتهى السهولة، إلى نزعة ألّمت بالأباطرة فحملتهم على تجنب مغادرة العاصمة لزيارة الولايات. هذا تساؤل يتناول ناحية واحدة فقط من الظاهرة نفسها التي أقضّت مضجع كِكاومينوس: الظاهرة والأسباب التي أدت إلى خسارة البيزنطيين لفِلَسْطين وسوريَة والجزء البيزنطي من بلاد الرافدين أمام المسلمين في ثلاثينيّات القرن السابع وأربعينيّاته، والنتائج المباشَرة لهذه التطورات علىالإمبراطورية البيزنطية، ولا سيَّما الأناضول، وعلى جيوشها ورؤيتها الكونية. من الطبيعي ألا يكونَ الجواب بالسهولة والتحيز على نحو ما

كان عند كِكاومينوس، الذي فاتَهُ أنْ يشيرَ إلى الإسلام كسبب ممكن وعند بعض الباحثين في التاريخ الإسلامي قد يبدو هذا الموضوع أمرًا لا يستحق العناية، إذ لم يكن لديهم ثَمَّةَسببٌ يمنعُ المسلمينَ من قهر بيزنطة والحلول مكانها. لا نعثر على بحث تاريخي بيزنطي مفيد بالمرام عن هذه القضايا، ومن المؤكد أنهْ ليسَ ثَمَّةَ مثلُ هذا البحث الذي يعتمد المصادر العربية غير المترجمة.

إن موضوع هذه الدراسة هو الانهيار العسكري المبدئي، ثم بحث البيزنطيين عن استراتيجية تمكنهم من الصمود أمام المسلمين. وبكثير من الصعوبة وبعد تجارب تناولت استراتيجيات وتقنيات مختلفة، تمكن البيزنطيون أخيرًا، علَى عكس الفرس الساسانيين، من إعادة تجميع قواهم، وتثبيت جبهة عسكرية ناجحة تجاه المسلمين. إن النهايات التاريخية محدودة نوعًا ما: فقد جرت معظم الأحداث بين سنة (628 م) وهي السنة التي تمت فيها ترتيبات الصلح بين الإمبراطور هِرَقْل (Heraclius) والساسانيين، وأواسط الأربعينيات (من القرن السابع) حين لم يكن المسلمون احتلوا فِلَسْطين وسوريَة فحسبُ، بل مصر والجزء البيزنطي من بلاد ما بين النهرين أيضًا. إن الخلفية التاريخية الأبعد مدى تضم، بطبيعة الحال، تاريخ العلاقات الرومانية والبيزنطية المبكرة مع العرب، والخلافات اللاهوتية المسيحية، وأحوال السكان من غير اليونان وظلاماتهم وتوجيهاتهم، أي: أولئك الذين كانوا يقيمون في الأصقاع الوارد ذكرها، ومثلهم سكان إرمينية، واقتصاد الإمبراطورية وحروبها مع فارس الساسانية في القرن السادس، ولا سيَّما في بواكير القرن السابع بين سنتي (602 م) و(628 م).

وقد حصرت هذه الدّراسة بين حدَّين تاريخيين حيثُ تكون المدَّة قصيرة إلى درجة ما، وذلك من أجل درس متعمق للجهد البيزنطي الحقيقي الذي بُذِل للدفاع عن فِلَسْطين وسوريَة والجزء البيزنطي من أرض الرافدين في وجه الهجوم الإسلامي، وطبيعة ذلك الإخفاق وأسبابه ونتائجه، والنجاح البيزنطي الذي تلا ذلك فحفظ، ولو على نحو شديد الصعوبة، ذلك الوجود في آسيا الصغرى. من الخطأ أن نتجاهل كلا الأمرين: الخلفية التاريخية للحملات الإسلامية، وما تلاها من عواقب.



تحتاج الفتوحات نفسها إلى إعادة النظر فيها بسبب ما قد توضحه عن طبيعة النظم البيزنطية والحرب في تلك الفترة، وعن الأسباب التي أدت إلى إخفاق الإمبراطورية في تطوير استجابة تتكافأ مع تلك التحديات المبكرة، أو، إذا صيغت العبارة على نحو آخر، تحويل النظم الحربية والسياسية والاجتماعية وشؤون الحياة الرومانية المتأخرة إلى ما عرفته بيزنطة المتوسّطة والإسلام، وحتى العصور الوسطى من مثل هذه الأمور.

## 1. 2) المصادرُ ومشكلاتها

تعتمد هذه الدراسة على ما قام به الباحثون السابقون من نقد جادٍّ للمصادر العربية منها وغير العربية. وقد نال غموضُ المصادر العربيّة وتناقضاتُها حظًا كبيرًا من ذلك.

والكثيرُ من هذا النقد له ما يسوّغه، ومع ذلك، فإنَّ المصادر غير العربيّة تنحو نحو الاقتضاب، ثمَّ إنَّ لها مشكلاتها.[2] زمن المؤرخ الأرمني سيبيوس (Sebeos) وهويته خِلافيان، على نحو ما هي عليه مصادره التي يبدو أن بعضَها كان سريانيًا.[3]

يدَّعي المؤرخ أنه استقى معلوماته من المسلجين (لعلهم كانوا من الأرمن، لكن قد يكون بينهم جماعات عرقية أخرى) الذين قاتلوا المسلمين.[4] من الممكن أن يتحدَّث، هو أو روايته، إلى جنودٍ من الأرمن الذين قاتلوا المسلمين في سوريَة البيزنطية أو في فارس. والمؤرخ الأرمني غيفوند (Ghevond) الذي عاش في القرن الثامن، اعتمد، هو أيضًا، مصادرَ سريانيةً لنصوصه الأولى عن القرن السابع.[5] إن الإشارات المتعلّقة بتاريخ القرن السابع الواردة في (تاريخ تارون) الذي يعزى إلى يوهانس ماميكونيان المزيف ( Pseudo-Yohannes Mamikonian)، يرقى إليها الشك إلى درجة عالية.[6]

إن عدد الروايات والأخبار التاريخية البيزنطية التي تتحدث عن حكم هرقل (610 -641 م) قليل، وتعود إلى قرون متأخرة. والأهم منها هو التاريخ المقتضب لنيكفوروس (Nicephorus) الذي يعود إلى زمن متأخر من القرن الثامن، و[الأخبار] chronicle، الذي يُقبل تقليديًا بأنه عمل ثيوفانس (Theophanes) يعود إلى العقد الثاني من القرن التاسع. لم تُحلّ بعد المشكلة المهمة المتعلقة بمصادر هؤلاء،

وبالأسلوب الذي تعاملوا به مع المصادر.[7] والرواية البيزنطية متحيّزة، ولا يمكن اعتمادها مقياسًا موضوعيًّا لضبط كل الروايات الإسلامية ضبطًا موثوقًا به. حتى محتوياتُ هذه الرواية تحتاج إلى فحصٍ نقديّ.

لم تكن النُّتَفُ القليلة التي تروي أخبار الإمبراطور البيزنطي هِرَقْل (610-641 م) في الدفاع عن سوريَة موضوعاتٍ بلاغيَّةً فحسبُ، بل من الواجب علينا استيعابُ أنَّ ما دوَّنته الرواية البلاغية، فيما يخصُّ الصورة الأدبية للحديث عن الإمبراطور، هو أمر عادي، إذ إنها تتضمن مديح الإمبراطور لتجنبه الكمين الذي ينصبه العدو له، في حين يخطط هو مثل هذا للأعداء. لعل الذين وضعوا تواريخهم لعصر هِرَقْل قد تأثروا، واعين أو غير واعين، بتقليد أدبي سابق[8] يرى أن الإمبراطور المثالي هو من يستبق كمائن العدو ويتجنبها، وعوضًا عن ذلك يقوم هو بإعداد كمائن للعدو. إن هرقل ينسجم مع هذا على ما ترويه نتف الرواية البيزنطية التقليديّة: فهو يحذّر قواده من الاشتباك مع العرب في معارك مكشوفة، لكنَّ قوّادَهُ يتجاهلون إنذاره، ويقعون في الشَّرَك نفسِه الذي خشيَهُ، والذي حذَّرَهم منه. ومن ثَمَّ، فإنَّ وجودَ مثلِ هذه الرواية يحتِّم على المنقِّب أن يدركَ ذلك، وأن يكون مستعدًا لتقويم هذه الروايات، وأن يلقي بها جانبًا إذا اقتضى الأمر. وربما دفعت هذه الرواية الأدبية هرقلَ نفسَه، وأثّرت فيه وفي المؤرخين من معاصريه، ليحذّرَ قوّادَه ورجاله من حِيَل خصومهم.

ثَمَّةَ مصدرٌ واحدٌ، أو مصادرُ لم تتضح صفتها، ولعلها سريانية مسيحية، زوّدت الرواية التاريخية البيزنطية بخبر مهم عن عصر هِرَقْل، تحتوي أحداثًا مثل الأعمال الحربية في مقاومة الحملات الإسلامية الأولية. هذه الروايات التاريخية، التي نشأت في الوقت الذي كانت فيه أسرة هرقل تتولى شؤون الإمبراطورية البيزنطيّة، رمت إلى تعليل المسؤولية القائمة على عاتقه، إن لم يكن المسؤولية الكارثية النهائية لمؤسس الأسرة، هرقل، التي انتهت بالخسارة المأساوية لمصر وسوريَة وفِلَسْطين والجزء البيزنطي من بلاد الرافدين. وقد رمى الذين صنفوا هذه الروايات، أو بعضهم على الأقل، إلى الحفاظ على مكانة هرقل وأسرته من أن يلطخها عار هذه



الانكسارات الهائلة. فالأخطاءُ جميعُهَا تظهر كأنها تُلقى على كاهل شخص آخر، أو سبب آخر، هو غير هرقل: [من مثل] خصيٌّ محدود التفكير يثير حفيظة العرب، أو جنود أرمن ثائرين ينادون بقائدهم فاهان إمبراطورًا في معركة اليرموك، أو مرض هرقل، أو موظفين مرتبكين، يخطئون في عقد معاهدات مع المسلمين، يضطر هرقل إلى رفضها لاحقًا، أو سحابات قاتمة من العِثْيَر في اليرموك التي تعمي أبصار الجنود البيزنطيين المرهقين في المعركة. وليس ثمة تبعة واحدة تُلقى على كاهل هرقل بسبب هذه الأفعال. وتلت ذلك طبقة متأخرة من الانتقاد، عَزَتْ الانكسار إلى غطرسة هرقل، والغضب الإلهي الذي انصب عليه بسبب تبنيه الصيغة اللاهوتية الخاطئة التي تقول بالمشيئة الواحدة في خضم الخلاف اللاهوتي الدائر حول المسيح، إذا ما كانت له طبيعة واحدة أو طبيعتان. لقد عمد واضعو التاريخ في بَلاط هرقل إلى تشويه منظم لتاريخ الحكمين اللذين سبقا هرقل مباشَرة أي: موريس (Maurice) وفوكاس (Phocas).[9]

من المؤكد أن الحقيقة برُمَّتها ستعصى على الاكتشاف، لكنْ من الحكمة أن يتصف الموقف من الروايات البيزنطية حول الفتوحات الإسلامية بالريبة، إذْ تبدو، على وجه العموم، سواءً مباشرة أم مواربةً، أنها تَحرِف توجيه النقد للمصيبة البيزنطية عن هرقل، وتوجهه إلى أشخاص آخرين وجماعات أخرى وأشياء أخر. هذا أمر صحيح، مع أن الأجيال التالية التي جاءت بعد انتهاء فترة أسرة هرقل كانت تعدّ سياسة هرقل الدينية القائلة بالمشيئة الواحدة أمرًا بغيضًا. إن النبرة احتلت مكانها: يجب إنقاذ شخصه من المسؤولية عن النكبات الحربية. من المحتمل أن بعض هذه الرواية يجد له صدًى في المصادر الإسلامية. فثمة تقارب وتباعد في الصور الإسلامية والبيزنطية لهرقل. ليس ثمة سبيل دقيق يمكنه أن يُسْقِطَ الجهود مجهولة الأصل التي تحويها الرواية التاريخية الهرقلية لإبعاد التهمة عن هرقل، ويَكْشِفَ عن مدى التشويه الواقعي الذي نتج من ذلك. قد تكون النتيجة أن ترغب مثل هذه المصادر عن قول الكثير عن تلك الأحداث المؤلمة التي كان من الأفضل تجاوزها بصمت.[10]

بين المصادر اللاتينية التي تهمنا هناك تاريخ فريديغاريوس (Fredegarius) من

القرن السابع، وروايتان إسبانيتان من القرن الثامن، وقد أخذت كلُّها عن بعض الروايات البيزنطية والشرقية.[11]

## 1. 3) المشكلاتُ في المصادرِ غيرِ التاريخيّة

تضعنا المصادر غير التاريخية أمام تحديات عدة. أولاً: إن مدى هذا النوع في المصادر البيزنطية واسع، فتنوّعها يشمل البرديات والمواعظ (وعلى نحو بالغ الأهمية مواعظ بطريرك بيت المقدس صفرونيوس (Sophronius) والقديس أنسطاسيوس السينائي (Anastasius the Sinaite.St) والشعر (ولا سيّما تلك التي نظمها صفرونيوس وجورج البيسيدوني (George of Pisidia) ومراسلات هي غالبًا من النوع الكنسي، ورسائل تسويغيّة، ومنها ما يحوي الرد على اليهود مثل ‹المذهب اليعقوبي / Doctrina Iacobi› وكتابات رؤيويّة، وقصص القديسين، ومرشدات عسكرية (ولا سيّما ‹[الدّليل الاستراتيجي] Strategikon› الذي وضعه موريس في مطلع القرن السابع) وسوى ذلك من المصادر غير الأدبية مثل النقوش والآثار والعملات (النميّات). ثمة دراسات بلغت من الجد الغاية لعدد كبير من هذه الأشياء. إن المؤلفين المعاصرين للأحداث الذين وضعوا أكثر هذه الأعمال لم يقصدوا منها أن تصبح روايات تاريخية.[12]

ليس بين هذه المصادر ما يضع بين أيدينا رواية متماسكة عن أيِّ من الحملات التي قام بها المسلمون في فتوحاتهم، لكنَّ بعضها يحتوي تفاصيلَ لا تثمّن، ولا وجودَ لها في أيِّ أمكنة أخرى. بعضها يزوّدنا بمعلومات محببة لتحقيق كلا النوعين من التاريخ: تاريخ الحوادث والتاريخ الفكري. وبعبارة أخرى، فإنّ هذه المصادرَ تزودنا بمعلومات تتفق إلى درجة كبيرة مع أصناف من التاريخ يرغب كثيرونَ من مؤرّخي هذه الأيام في أن يكتبوا مثلها. وهي تضع بين أيدينا بعض التوضيح للأحداث الحربية، لكنها تقتضي قراءةً ممعنةً في الجدية.

إن المنهجية العادية تتطلب للإفادة منها، بكلام واضح، قراءة هذه المصادر قراءة دقيقة وإعادة القراءة، على النحو القديم، بحثًا عن أي بيّنة قد أُهملت. وتقتضي تذرية الفصل في سبيل الحصول على حبات من القمح الكثيرَ من العمل،[13]



لكنَّ هذا الجهد، وإعادة الفحص للافتراضات التي توصل إليها الباحثون السابقون، ومنطقهم، ونتائجهم، قد يؤدّي إلى العثور على لُمحاتٍ ذاتِ قيمةٍ.

ثمة مشكلة أخرى، وهي الأكبر أهمية، متعلقة باستعمل هذه المصادر: ليست قضية تأريخية، ولا استعمالها الرواية، ولا احتمل تداخل روايات إسلامية فيها، وتأثرها بها، وهو أمرٌ لم يقع. الحقيقة هي أن هؤلاء المؤلفين البيزنطيين، على نحو متعمّدٍ، لم يكونوا جاهدين لتدوين رواياتٍ تاريخية. إنها تفتقد أي تراتب متماسك للأحداث، وليس بإمكان أي منها أن يضع بين أيدينا صورة متماسكة لبيزنطيين أو لمسلمين معاصرين لها أو حتى لأي من العالمين البيزنطي أو الإسلامي. وتتفق المواعظ والمراسلات مع مبنى الإشارات والتأملات والقيود الشديدة والقواعد التقليدية لأسلوب النثر اليوناني، ومن ثمَّ، فإنها محدودة في إشارتها للعرب والإسلام.

ما تزودنا به هذه المصادر هو بعض الفائدة للانطباعات التي كانت لبعض البيزنطيين عن الإسلام والعرب، وتفاصيل متنوعة ثمينة، لكن ليس بالضرورة أيّ معلومات صحيحة أو إدراك للتاريخ الداخلي وخاصية الجماعة أو الدولة الإسلامية، وهذا مهم بذاته. إنّ معرفة واضعي هذه الروايات الحوادثَ والأحوالَ داخل شبه الجزيرة أو العراق الساساني قبل الفتوحات الإسلامية وفي أثنائها وفي الفترة التي تلتها مباشَرة، مشوَّشة، وبلغَتْ من الغموضِ الغايةَ، إذْ كانتْ تلكَ مناطقَ لم يزوروها مباشَرة. وعلى النحو ذاته فإنهم لا يبدون أيّ معرفة صحيحة مفصلة عن الفكر الديني الإسلامي، ولا يجوز استعمل هذه المصادر على أنها موثوق بها. وهذا بحث لا جدوى منه. ليس بين هذه النصوص نصٌّ واحدٌ يمكن أن يزوّد الباحث بالكثير من المعلومات على نحو ملائم، وكلُّ ما يزوّد الباحث، وكل ما يمكن أن تقدمه، يحتاج إلى تقويم حذر حكيم.

ثمة صعوبات منهجية إضافة إلى ذلك. إنه لأمر منطوٍ على مخاطرة أن تستخدم معلومة عن تقنية حربية إسلامية، وطرائق مكافحةً المسلمين الواردة في أدلة بيزنطية أو إسلامية متأخرة فترةَ الفتوحاتِ المبكّرة، التي لم يصلنا منها أي دليل عسكري بيزنطي.[14]

بالإشارة إلى فحص موثق لبيّنة أو روايات في المصادر الإسلامية، فإن أفضل الدراسات المقابلة قد لا يكون مقابلة دقيقة مع نوع معيّن من المصادر البيزنطية، الأدبي منها وغير الأدبي. وما يمكن أن يكون أدعى إلى الصحة، وأصح اعتمادًا، المقابلات مع الأدلة المتراكمة التي جمعت بكثير من الصبر عن العصور القديمة المتأخرة في الشرق الأوسط، والتي أقام بناءها جمع من رجال الآثار والمؤرخين ودارسي الأختام والنقوش. وجَمْع الأدلة هذه لا يعتمد على أي مصدر تاريخي أو رواية تاريخية واحدة هشّة. وعندما تشير المصادر الإسلامية بدقة وباستمرارية إلى أسماء أمكنة ومصطلحات رسمية ووحدات عسكرية وقواد عسكريين ومدنيين تعود إلى الرومان المتأخرين، أي: البيزنطيين المبكرين، فإن الأخبار الأخرى غير الموثقة الواردة في تلك النصوص تحتاج أيضًا إلى انتباه جدّي.

كان البحث العلمي الذي تم على أيدي الباحثين كافيًا لأن يخلق بعض الوعي للمخاطر والحدود التي يقع فيها الذين يحاولون الحصول على إشارات تاريخية من النصوص الخاصة بالقديسين والحاجات الكنسية. ثمة مصادر دينية مثل المؤلَّف المنسوب إلى ميثوديوس ‹Pseudo-Methodius apocalypse› وكذلك ‹[رؤيا وكتاب المذهب اليعقوبي] Doctrina Iacobi nuper baptizati› زُهاء (634 م) يحتويان على مادة معاصرة ثمينة وردت على نحو من المصادفة والقرينة الساذجة، لكنّها يجب أن تعالج بحَيْطَة. وهناك معلومات ذات أهمية كبيرة في نصوص مماثلة مثل ‹حياة/ Vita› و‹عجائب / Miracula› لقديس أنسطاسيوس الفارسي، تُوفي سنة (628 م) و‹آلام الشهداء الستين في غزة / The Passion of the Sixty Martyrs of Gaza› (عَلَّهُ كتب مباشرة بعد عام 635 م).(15) هذه النصوص تحوي على معلومات مهمة عن فِلَسْطين قبيل الحملات الإسلامية، وأخرى معاصرة لها. وفيها تفاصيل وردت بالمصادفة كافية لأن يدرك المختصون إلى أي مدى تعكس الواقع البيزنطي. لكنّها لا تزودنا بوصف متماسك للأحداث. وما وصلنا ليس سوى نتف من المعلومات لا اتصال بينها، ومع ذلك، فإنّ هذه المعلومات تعيننا على فهم الأحوال المعاصرة. ولا تتوافر نصوص جغرافية أو رحلات بيزنطية، لا من القرن السابع ولا القرن الثامن، عن العالم الإسلامي،



وفي الواقع لم يصلنا أي شيء من القرون القليلة التي تلت ذلك، ولم يخلّف أيّ رحالة بيزنطي وصفًا للعالم الإسلامي المبكّر.

تزودنا الأعمال الكتابية المعزوّة إلى القديس أنسطاسيوس السينائي الذي كان راهبًا في جبل سَيْنَاء، والذي زار مصر وسورية، وعَلَّهُ تُوُفي بعدَ سنة (700 م) بأقدم ما سلم من إشارات ثابتة باليونانية إلى بعض المعارك البيزنطية الإسلامية، وتلقي الضّوءَ على بعض التفاصيل للفتوحات والأحوال والشعور التي رافقت ذلك.

## 4.1) التأريخُ العربيُّ

لا يضيف هذا البحث مادة جديدة للمشكلات المعقدة ذات الصلة بنقد المصادر العربية ومصادر هذه المصادر سوى تأملات متخصص بالشؤون البيزنطية مبنية على أحدث التفسيرات للتاريخ البيزنطي والروماني المتأخر. يمثل كتاب ‹فتوح البلدان› تأليف أحمد بن يحيى البلاذُري، توفي عام (892 م) البحث التاريخي الممتاز، ويحوي جمعًا ثريًّا للروايات المبكّرة عن الفتوحات مرتبة بحسب المناطق، والكثيرُ من هذه الرّوايات يناقضُ بعضُهُ بعضًا. وقد وضع البلاذُري أيضًا ‹أنساب الأشراف› الذي يدور حول الشخصيات أصلاً، لكنّه يحوي بعض الإشارات لأحداث لا وجودَ لها في الفتوحات. ومع أن عمله لم يبلغ حد الكمال، فإن البلاذُري يذكر مؤلفين مختلفين لرواياته التي ينقلها، ويشير إلى بعض نواحي الخلاف بينهم. وهناك عدد من النقولات في ‹الفتوح› يشير إلى أنه توصل إلى بعض روايات مبكرة كانت مأخوذة، في آخر المطاف، من مصادر يونانية أو سريانية مسيحية، يرجح أن تكون شفوية لا مكتوبة. وبعضها يَعكس وعيًا للأحوال التي كانت سائدة زمن الفتوحات. ومع ذلك، فقد حفظ روايات كثيرة يحيط بها الشك مثل تلك التي تعكس تعليلات فقهية ودينية ومالية وتصورات وقضايا ما كان من الممكن أن تكون ذات معنى في زمن الفتوحات الإسلامية المبكّرة. بعض ما يزودنا به البلاذري فريد، بينما يحتاج بعض أخباره إلى ضبط دقيق مقابلة وتقويمًا في ضوء ما يمكن أن تلقيه مصادر وروايات وأخبار تاريخية أخرى.(16)

إن كتابي الطبري (839-923 م) واليعقوبي، (توفي أواخر القرن الثالث أو مطلع القرن الرابع الهجري/ في أواخر القرن التاسع أو مطلع القرن العاشر الميلادي)[17] هما الأشهر والأكثر اعتمادًا بين المؤلفات التاريخية العربية التي تؤرخ للفتوحات. ووضع اليعقوبي تاريخًا ومؤلفًا جغرافيًا وصلنا، وهو المسمّى ‹كتاب البلدان›. لقد كانت معالجتهما الروايات الإسلامية، ولاتزال، موضوعَ جدل علمي. وقد وضع اليعقوبي أيضًا وصفًا لبيزنطة، لكنه فُقد. وكان المؤلفان [الطبري واليعقوبي] يعرفان بعض الصفات الرئيسة عن تاريخ الرومان المتأخر، وعن تاريخ بيزنطة المبكّر وتاريخ فارس الساسانيّة، وقد أوردا ذلك فيما كتبا. إن البحث العلمي عن مصادرهما وما يمت إلى ذلك بصلة من المشكلات التأريخية، وقد بلغ درجةً كبيرة من التعقيد، كلاهما يحتوي الكثير من المادة ذات القيمة. لكن المؤلفين التاريخيين يحتاجان إلى تقويم حصيف. ولا يمكن التحدث عنهما وحدهما لأنه يجب أيضًا إيلاء عناية فائقة بالمصادر التي استخدماها في رواية أحداث ومعلومات معينة.

ثمة مصدر آخر مهم هو الكتاب المطول ‹كتاب الفتوح› لأبي محمد أحمد ابن أعثم الكوفي، الذي كان يعمل في وضعه زُهَاء عام (204 هـ/ 819 م). لقد ضم بعض روايات مفيدة، لكن أجزاء أخرى منه تحوي فقرات خيالية وتلفيقية دون أن يكون لها وقع الأصالة أو الثقة.

أما ‹كتاب التاريخ› لابن خياط العُصْفُري، فهو مؤلَّف تاريخي مبكر إلى درجة ما دونت فيه مادة جيدة. ويضم ‹كتاب الأموال› لابن سلام بعض روايات تاريخيّة. وهو، إضافةً إلى ذلك، وضعه مؤلف أحد أبويه من نسب يوناني، ولعله كان له سبيل إلى مواد بيزنطية أو سريانية مسيحية فريدة. و‹كتاب الطبقات› لابن سعد موسوعة للترجمات ثمينة، صفحاتها مكتظة بكثير من الروايات المبكرة. وثمة كتاب مبكّر من عمل اليعقوب بن سُفيان الفَسَوي، المتوفى سنةَ (890 م) لكنَّ رواياته التي يمكن اعتمادها والمتفرقة في الكتاب، لا تزوّدنا بإطار لتفهم الفتوحات.[18]

كل هذه المؤرَّخات تحتاج إلى فحص دقيق كما يقتضي الأمر بالنسبة إلى ما عاصرها من الأعمال البيزنطية. لكن المصادر الإسلامية أطول بكثير. من



المستحيل أن نقيم بناءً لأخبار الفتوحات والانهيار البيزنطي من المصادر البيزنطية الضئيلة. ومما يزيد المسألة تعقيدًا أن المصادر البيزنطية الرئيسة اعتمدت جزئيًا على بعض المصادر الإسلامية أو الشرقية العامة. إنها ليست مصادر مستقلة تمامًا، والتأكد من هذا الأمر يجعل تفسير هذه المصادر المتوالية، البيزنطي منها والعربي، وتقدير الاعتماد عليها أمرًا دقيقًا، وشديد الصعوبة.

لقد انتقد ليوني كَيْتاني (Leone Caetani)[19] ودِغويه (M.J. De Goeje) وميدِنكوف (Miednikov) ويوليوس فِلْهَوزن (Julius Wellhausen) المصادر العربية انتقادًا عنيفًا.[20] ويرفض مارتِن نوت (Martin Noth) الرأيَ الذي تقدم به فِلْهَوزن ودِغويه أنّ 'مدرسة' من التأريخ العربي، ولا سيَّما مدرسة الواقدي، كانت موضعَ ثقة أكثر من سواها؛ يرى أنها برمّتها نتاج أساليب واحدة، وأنها متساوية في المشكلات.[21] وقد قام عبد العزيز الدوري وفرد دونر بمحاولات لحل هذه المعضلة العلمية.[22] أنا شخصيًا لا أقبل الأمر قَبولًا تامًا، ولن أسهم في رفض تام لجميع الروايات الإسلامية المبكرة، إذْ تبدو متفقةً مع الأحوال السائدة في الفترة الرومانية المتأخرة والبيزنطية، وتقدم التفسير الأفضل في ضوء ما نعرفه عنها. إنها تستحق الاهتمام الجدي، لا لاعتمادها على الروايات البيزنطية التاريخيّة فحسبُ. ويبدو أن الروايات التي هي أهل للاعتماد عليها هي روايات الواقدي وابن إسحاق وعِكْرِمَة، في حين رواياتُ سيف بن عمر وابن أَعْثم الكوفي أقلُّ درجةً في الاعتماد عليها، لكن لا يمكن الاستغناءُ عنها أحيانًا.[23]

وبعض الروايات الواردة في كتاب الأزدي البصري ‹تاريخ فتوح الشام› لا تبدو غيرَ واقعية، على نحو ما ارتأى دِغويه الشاب في سنة (1864 م).[24] يقول عبد المنعم بن عبد الله بن عامر: إنه أعاد تحقيق هذا المصدر، وسنة (1970 م) على أساس مخطوطة عثر عليها حديثًا في دمشق. ومع أن كونراد وقع على بضع مسائل جدية جدًا في طبعة عامر، فإنه يؤرّخ تأليف الأزدي للكتاب في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ويضع بين أيدينا أسبابًا مقنعة لأهمية معلومات الأزدي.[25] وقَبِلَ كَيْتاني بعدئذٍ أن النص الأصلي للأزدي يحتوي

بعض المعلومات التي يبدو أنها موثوق بها، ولا يعثر عليها في مكان آخر.[26] ويعزو قوله عن انسياب في الفرق العسكرية البيزنطية واضطراب في النظام قبل معركة اليرموك إلى رجل من قبيلة تنوخ العربية، وهذا يدل على أنّ الأزدي عمد إلى مصدر أو رواية تعود في النهاية إلى القرن السابع الميلادي (الأول الهجري). لقد ظلت قبيلة تنوخ أمينة لبيزنطة إلى أن فُقد الأمل في الوضع الحربي في سوريَة.[27] ونسبة هذه المعلومة إلى رجل من هذه القبيلة يثبت ما هو معروف من سبل أخرى عن الوضع التاريخي، في أواخر ثلاثينيات القرن السابع، بما في ذلك الولاءات القبلية.

ترد في ‹تاريخ فتوح الشام› خطبة لهرقل يذكّر فيها مستمعيه، وهم سكان سوريَة، بانتصاره على الملك الفارسي خسرو الثاني (المجوسي) و(على الأتراك الذين لا يعرفون الله) [28] وهذه إشارة إلى الخزر، وهو أمر لا يرويه إلا مصدر كانت له معرفة أصيلة بتفاصيل تاريخ علاقة هرقل بالخزر؛ لا يمكن لأحدٍ أنْ يخترع مثل هذه الإشارة في فترة الحروب الصليبية، وهي الفترة التي يعزو دِغويه إليها زمن تأليف ‹تاريخ فتوح الشام›.[29] إن ما روي ‹في تاريخ فتوح الشام› لم يكن نقلاً حرفيًا لما قاله هرقل، لكنَّ الرواية تدل على أن المؤلف، أو أحد مصادره، كان مطّلعًا على معلومات محددة وصحيحة فيما يتعلق بعهد هرقل. إضافةً إلى ذلك، فإن سيبيوس وغيفوند أوردا في مؤلفيهما التاريخيين ما فيه بعض الشبه لرواية الأزدي خطابَ هرقلَ، كما أن وصف الأزدي تلك الخطبة يشبه رواية ابن أعثم الكوفي غير المتكاملة عن رسالة بعثت إلى فِلَسْطين، والتي يُزعم أنه أرسلها أيضًا إلى دمشق وحمص وحلب وأنْطَاكِيَة.[30] ويبدو أنَّ المؤلفين أجمعين استقوا من مصدر جامع أو مصادر عامة لأجزاء محدودة في الرواية، وربما كان عبر رواية سريانية عامة. فمعلومة الأزدي أن مؤاب كانت المدينة السورية الأولى التي احتلها المسلمون تعود إلى الظهور في رواية نقلها الطبري، لكن ما هو أهم من ذلك أنها مؤكدة جزئيًا عند سيبيوس.[31]

ويدعونا ‹تاريخ فتوح الشام› للأزدي البصري إلى قراءة نقدية له، لكن لا يجوز رفض روايته رفضًا باتًا. فهو يضع بين أيدينا رواية موثّقة أن هرقل قام فجأة



بإنشاء إدارات عسكرية طارئة في مدن معينة في سوريَة وفِلَسْطين[32] بقصد تشجيع السكان فيهما استعدادًا لحماية أنفسهم من الحملات الإسلامية الوشيكة،[33] وهذا ما يتفق مع إجراءات سابقة،[34] ومع تجارب هرقل في إقامة سلطات عسكرية طارئة كانت تعلو مؤسسات حكومية مدنية قائمة.[35]

إن بعض الأخبار عن المعارك والمصادمات والتراشقات الخطابية الواردة في ‹تاريخ فتوح الشام› جديرة بتقويم مبني على الشك الكبير، ومع ذلك يبدو أنَّ ثمة أساسًا موثوقًا به وتاريخيًّا لهذا المؤلف في التاريخ. يشير الأزدي إلى اسم القائد البيزنطي في معركة أجنادين (وَرْدان) وهو شديد الشبه بإشارة، بلغَتْ من الأهمية الغايةَ، جاءت في إشارة جزئية لفترة مبكرة جدًا (القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري) في مصدر سرياني تدعوه <ب [ر] يردن> (التهجئة بالحروف الصامتة فقط).[36] قد يمثل الشّكلان اسمًا أرمنيًّا شائعًا هو <فاردان> (وهو اسم محبب لأسرة مَميكونيان) لأن هرقل كان كثيرًا ما يستخدم قوادًا أرمن في بحثه عن قواد موثوق بهم. ومع أنَّ من الخطأ أن تُقبل إفادات الأزدي البصري في ‹تاريخ فتوح الشام› كما وردت، فإن بعض رواياته يتسم بالثقة أكثر مما افترضه العلماء من قبل.

وتُظهر المصادر الإسلامية معرفة جدّ محدودة بطبيعة الإمبراطورية البيزنطية. ومع ذلك، فإنها تُظهر بعض التفهم للفروق الإثنية التي كانت سائدة في صفوف القوات المسلحة البيزنطية. ومن المؤكد أنه لا يمكن الركون إلى إحصاءاتها. فالصورة التي ترسم للمؤسسات البيزنطية مجزأة وخالية من الترابط أو التفهم الدقيق والتفسير والتحديد، وليس ثمة أي فهم للترابط بين الأوضاع المعاصرة في إيطاليا والبلقان وتلك القائمة في سوريَة وفِلَسْطين.

إن النظرة العالمية للمؤرّخين المسلمين مؤطرة، بحكم الضرورة، في فضاء إسلامي توضع فيه الأحداث بأجمعها مع توكيد مفهوم للشّخصيات والدين. ومن اللازم أن يُوالي البناء الروائي والأهداف لدى المؤرخ المسلم حظًا من التفكير. وليس ثمة ما يدل على أن المؤرخين المسلمين حاولوا استعمل مصادر يونانية، مباشرة ولا مترجمة، مع أنه مما يثير التساؤل عن أنواع المصادر التي

كانت في حوزة اليعقوبي، الذي يقول: إنه كتب وصفًا لبيزنطة (مفقود الآن) وكان موجودًا من قبلُ. وإذا استثنينا اليعقوبي، لم يكن لدى أكثر المؤرخين المسلمين اليسير من الأسباب كي يوضحوا لقرّائهم الكثير عن بيزنطة، إذ كانوا يروون أخبار الفتوحات الإسلامية لأراضٍ بيزنطية. من المستحيل أن نخلص إلى فهم الكثير عن بيزنطة، ولا سيّما عن الفكر البيزنطي من قراءة المؤرخين المسلمين. وكان المسعودي (283-345 هـ/896-956 م) مثل اليعقوبي ندرة بين المؤرخين المسلمين، حقق وشرح أحداثًا في التاريخ البيزنطي، لكن أخباره عن الفتوحات المبكرة يُعْوِزُهَا التفصيل. يبدو أنَّ المؤرخين المسلمين لم يحاولوا استخلاصَ الدروس المستقبلية والغاية من تحليل أساليب وخطط المعركة البيزنطية واستراتيجيتها، أو من تلك التي قام بها أبطالهم المسلمون خلال الفتوحات الإسلامية.[37]

تمدنا المصادر الأصلية الموجودة بين أيدينا بأشد الإشارات اختصارًا للفتوحات الإسلامية، أو إنها تنظم موادها تنظيمًا حوليًا، أو على أساس البلدان، على نحو ما فعل مؤرّخٌ مسلمٌ كالبلاذُري. هذه الترتيبات التنظيمية لها قيمتها. ومما لا شك فيه أنه لولا الإشارات التأريخية المعينة هذه لكانت مهمة المؤرخ أشد عناءً. وبقطع النظر عن إذا ما كانت الروايات التي ينقلونها هي مما يعوَّل عليه، فإن الذي أفلت زمامه من أيديهم، في تلك الروايات بأجمعها، هو أي فهم لتواصل هذه الأحداث والتماسك المحتمل فيما بينها. وثمة خطر يمثل دائمًا، وهو أن التماسك قد يُبالغ فيه فيؤدي ذلك إلى تسوية خداعة للحقائق التاريخية الشاذة والاستثناءات. لكنَّ هذا الأسلوب التاريخي غير المتواصل والمجزأ قد انتهى به الأمر، ودون وعي، إلى التستر على التواصل بين الحرب والدبلوماسية في سوريَة، وما كان منه في مصر وبلاد الرافدين البيزنطية.

قلما فحص الدارسون للتاريخ البيزنطي من جهتهم الفتوحات الإسلامية والمقاومة البيزنطية، ربما لأنهم حسبوا أن المستشرقين أماطوا اللثام عن كل ما قد يكون قائمًا، أو لأن المشكلات اللغوية أقعدتهم. والقلة من الباحثين في الشؤون البيزنطية الذين عُنوا بدرس العلاقات البيزنطية الإسلامية اتجهت،



على العموم، إلى البدء في القرن التاسع [الميلادي] (من أمثال فاسيلييف وكانار) مع أن بروكس ويوليوس فِلْهَوزن نشرا مقالاتٍ طويلةً عن الحرب البيزنطيّة الإسلاميّة التي جاءت في أعقابَ توقف الفتوحات الإسلامية الأولى لسوريَة وبلاد الرافدين.[38] ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنهما كانا مستشرقين، ولم يكونا من الباحثين في الشؤون البيزنطية. ويمكن القولُ ثانيةً: هذه النظرة الدائرة عن نقطة الابتداء أدّتْ إلى فَصْلٍ مصطنع في النظرة إلى الأحداث التي جرت في سوريَة عن تلك التي جرت في الأناضول. فالباحثون في الدراسات البيزنطية لا يميلون إلى العناية بالفتوحات الأولية، بل يميلون إلى البدء بدراساتهم فيما بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية لسوريَة وبلاد ما بين النهرين البيزنطية ومصر. إن الروابط والاستمرارات بين فتح سوريَة وبين الحروب الطويلة الأمد وغير الفاصلة بين بيزنطة والمسلمين في الأناضول لم تتضح صورتها تمامًا بعد.

## 5.1) صورةُ هرقلَ في المصادرِ الإسلاميّةِ

لقيت الروايات العربية عن أعمال هرقل والبواعث التي حفزته، كما حفزت سواه من القادة البيزنطيين أيام الحملات الإسلامية، القليل من الاهتمام بسبب ما فيها من أخبار متناقضة وشكوك بخصوص قيمتها وصعوبات لغوية. إن تصوّر هرقل في المصادر الإسلامية معقّد، وهي تلقي دومًا مسؤولية شخصية في الاستراتيجية والحروب البيزنطية تتجاوز الواقع. وقد تجاهل الباحثون في الشؤون البيزنطية هذه النقطة عمومًا. والمصادر العربية تلقي على كاهل هرقل مسؤولية شخصية في تسيير الأحداث تفوق ما كان له من شأن. فقد كان، برأيها، العمود الفِقري للمقاومة البيزنطية؛[39] أي: أنه كان سلطانًا باستطاعته أن يدعو إلى القتال قِوى في أعداد كبيرة من جزء إلى آخر في إمبراطوريته، ويدبر أمورها. ومع ذلك، فإنها لا تكاد تقول شيئًا عن المناطق الأخرى الداخلة في إمبراطوريته، كما أنها لا تبدي أي إدراك للصلات المحتملة بين الأحداث في سوريَة وفِلَسْطِين والمشكلات فيما تبقى من إيطاليا البيزنطية والبلقان البيزنطية، حتى في القُسْطَنْطِينِيّة.

تصف المصادر العربية هرقل بأنّهُ زعيمٌ استجاب لتحدي الأحداث، وأنه لم يكن الزعيم الذي كان متحكمًا فيها على وجه التأكيد، وأنه تشاور مع قوّاده المبرّزين،[40] لكنه قبل بضغوط منهم ومن مواطنيه في الشؤون المتعلقة بالسياسة الحربية والعمليات العسكرية في سوريَة.[41] وهي تصوره على أنه زعيم ذو انفعالات قوية قوامها الغضب والشك. إنها لا تدعي أنه كان واثقًا من النصر في سلسلة الحملات برمّتها. هذا متساوق مع نظرتها الإسلامية الخاصة بها. وتصفه أيضًا بأنه كان ضيق الصدر، وأحيانًا كان يثور غضبًا مع قواده وجنوده بسبب عجزهم عن القيام بواجبهم على وجه مُرْضٍ تجاه المسلمين مع تفوقهم العددي.[42] إنَّ دعواها أنَّ هرقل كان يتدخل شخصيًا، بين الفَينة والفَينة، في إدارة الدفاع عن سوريَة، وأنه كان يتملكه الغضب بسبب قرارات معينة يتخذها القادة التابعون له حيثُ كان يلغيها، أمور يمكن قَبولها.[43] ومن المقْبُول ضمنًا في المصادر الإسلامية أن هرقل كان قائدًا عظيمًا، لكنه لم يكن ناجحًا. وهي تَفصِل حكمته في المسائل العسكرية عن أخطاء قواده الخاضعين له. وتلتقي هذه الروايات الإسلامية أحيانًا مع ما يمكن عدّه تقليدًا تأريخيًا هرقليًا يرمي إلى تجنب نقد شخصي مباشَر لأعمال هرقل. ليس في هذا ما يعني أن المصادر العربية لا تترك للقواد البيزنطيين الاستقلال، إذ إنها تنسب إليهم بعض الحرية في اتخاذ قرارات حربية بشأن الخطط في المعركة.

ومهما يكن أصل نظرتها، فإن المصادر الإسلامية، ومع الاعتراف بصعوبة تعرُّفها الكثيرَ من التفاصيل الدقيقة للتخطيط العسكري للبيزنطيين، لم يكن لها غرض في الدفاع عن مكانة هرقل وأسرته لو أنه كان مخطئًا. لم يكن ثمة داعٍ للدفاع عن خرافة أصالة الحكم الإمبراطوري. مع أنها تقرر أنه حاول أن يصل إلى معلومات عن المسلمين، فإنها لا تروي خبر أي تفهم لهرقل للشخصيات والقدرات والصفات التي تتصف بها القيادة الإسلامية. والمصادر المسيحية، إذا ما كانت خلقيدونية، ولا سيّما إذا كانت تستقي من روايات تعود إلى فترة الأسرة الهرقلية (وقد امتدت أيامها حتى سنة 711 م) باستثناء فترة قصيرة لخلو العرش بين سنتي (695-705 م) ولم تكن تتمتع بمثل هذه الحرية. مع أن المصادر الإسلامية



تعزو الكثير من الخطأ إلى هرقل، فإنها تنتقد أولئك الأعوان والنخبة المحلية الذين ثنوه عن القرارات الصحيحة، من مثل أن ضباطه ثَنوه عن التخلي عن سوريَة في وقت سابق أو محاولة الوصول إلى اتفاق مع المسلمين.[45] تتجاهل هذه المصادر تمامًا المشكلات الكنسية بحكم أنها عامل مربك له.

قد تكون صورة هرقل في المصادر العربية، مع تفاصيل خيالية من مثل تاجه المصنوع من الذهب،[46] تلميعةً أدبية تصلح للقصاصين، بمعنى أنها تبدي حتمية الفتوحات الإسلامية بسبب هدي الله ودعمه المسلمين، على القيادة البيزنطية الكفيَّة. مع ذلك، فإنَّ بعض هذا الوصف الإسلامي المؤاتي لصفات هرقل العسكرية لا يمكن تفسيره كليًّا بعبارات ذات جرس بلاغي أو تلفيقي أو بتفسير هرقل الخاطئ للأحلام؛ (إن اليهود هم الشعب المختّن الذي حَلُمَ بأنه سيتغلب على إمبراطوريته) أو استشارته كتب المنجمين.[47]

ليس ثمة في المصادر العربية التي تتناول هرقل أيّ دلالة على تعرّف المصادر اليونانية أو الاعتماد عليها. وليس ثمة اقتباسات من وثائق بيزنطية موثوق بها في المصادر العربية فيما يختص بهرقل. وتبدو هذه المصادر العربية كأنها تفترض أنَّ شخصًا ما قد قُدِّر له أن يتصل بهرقل وببعض كبار قواده مباشَرةً. ومن ثَمَّ تَمَّ له أن يروي هذه المحادثات والرسائل. مع ذلك، فإنهم لا يعينون أسماء حراس القصر وألقابهم حيثُ يُتاح للواحد أن يتمكن من أن ينظر إلى احتمال أن تكون روايتهم صحيحة وموثوقًا بها.

والمصادر العربية لا تلقي اللوم على هرقل لتغيبه شخصيًا عن جبهة القتال.[48] بعد ذلك كله، نجد أن الخليفتين أبا بكر وعمر كانا أيضًا بعيدين عن قيادة خط القتال الإسلامي. إنها (المصادر) ترسم لهرقل صورة شخص تؤرّقه نتيجة القتال في سوريَة، وأنه قائد كان يقظًا ضمن سيل الأخبار التي يحملها الرسل والقواد والعيون والوفود من المدن. وهي لا تدعي أن هرقل لم تكن تُعْوِزُه النقود ولا القوى البشرية. وفي واقع الحال، فإنها تعزو إليه وجود موارد كافية لديه. إنها تروي أنه دفع مبالغ كبيرة في سبيل تجنيد عدد كبير من المقاتلين من القبائل العربية المسيحية والأرمن واليونان. والإحصاءات التي

تقع عليها، بطبيعة الحال، مبالَغٌ فيها كثيرًا. ولا تخبر (هذه المصادر) عن الخلاف داخل الأسرة الإمبراطورية في الخلافة الإمبراطورية أو سوى ذلك من القضايا، ومن المؤكد أنها لا تلقي اللوم على هذا النزاع الداخلي في البَلاط محملة إياه التسبب في انكسار جيوشه أمام المسلمين. ولا تروي أن المسلمين استخدموا في حالات كثيرة جواسيس أو متعاونين من بين السكان الأصليين، بمَنْ فيهم 'الأنباط' (لم يكونوا بالضرورة عربًا، بل لعلَّهم كانوا سوريين من أتباع الطبيعة الواحدة) ومن بين السمرة (السامريون).(49)

يبدو هرقل في بعض المصادر الإسلامية كأنه منافح عن المسيحية. ومع ذلك، فإنَّ أكثر الروايات يزودنا على نحو مفهوم عسكريًا، لولا أنها مقتضبة، بشيء عن قرارات هرقل وأعماله الحربيَّة. وهذه معقولة في أكثرها في نطاق المنطق الحربي المعاصر في القرن السابع، حتى لو كانت متناقضة. وهي لا تبدي رأيًا مفصلاً في صفات القواد الذين اختارهم هرقل لقيادة الفرق البيزنطية في فِلَسْطين وسوريَة، ولا تتساءل عن الحكمة في هذه الاختيارات، ولا تشير إلى أنه تخطّى أيًا من القواد المبرِّزين عند إقراره هذه التعيينات. وتختلف في رواياتها لتنقلات هرقل ونشاطاته وزمنها، وإذا ما قامت الفرق المسلمة الآتية من العراق بأيِّ دور في إرغام هرقل على القيام بأعمال معينة.(50)

تروي المصادر الإسلامية أنَّ اسمَ هرقلَ ألقى الرّعب بين المسلمين، في وقت مبكر، قبل المعارك الأولى.(51) وليس بينها ما يعزو إلى هرقل أهدافًا حربية قصوى سوى الدفاعِ عمَّا كان بيزنطيًا.(52) وتتفق رواياتها مع التقاليد البيزنطية والسورية المسيحية في أن هرقل أصدر أوامره إلى القادرين على ذلك أن يثبتوا في أمكنتهم دون أن يلتحموا في معارك ميدانية مكشوفة مع المسلمين.

### 1. 6) مصاعب في التأريخ الحربيِّ

تواجه مؤرِّخَ هذه الأحداث والعمليات عقبةٌ كأداء معاصرة أخرى. إن عددًا كبيرًا من الباحثين يرفضون، أو لعلهم غير معنيين، أو يرون أنَّ المؤرخين ما كانَ لهم أن يهتمُّوا بالأمر، احتملَ أن تكون خسارة البيزنطيين فِلَسْطين وسوريَة وأرض الرافدين للمسلمين ذات أبعاد عسكرية أو تفسيرات حربية،



سواءٌ في ذلك أجزئيَّةً كانت أم سوى ذلك. قد تكون لهؤلاء الباحثين اعتقادات راسخة مسبقة بل وتحيِّزات أنَّ ما هو حَريّ بالدَّرس أو التفهُّم هو الأسبابُ والأبعاد غير العسكريَّة ليسَ غيرُ في تاريخ القرن السابع. وهؤلاءِ يقدرونَ أن يتدبروا التفسيرات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتجريبية والثقافية الاجتماعية فقط، ولا يبدون رغبة في أي تدقيق يتناول قضايا عسكرية (ضيقة) أو قد لا يغفرون لمن يفعل ذلك. هذا الموقف المتحيِّز ليس وقفًا على القرن السابع، إذ إنه يلقي عبئًا على دراسة التاريخ الحديث وعلى تفرعات التاريخ الأخرى، وهو يمثل ضيقًا في التصوّر، وهذا ما يؤذي النظرة الأصلية الكاملة للحقيقة التاريخية.(53)

في الناحية المقابلة، تفترض هذه الدراسة أنه مع أن التجارب والتبدّلات الدينية هي، في حقيقة الأمر، أمور حاسمة في القرن السابع، وأنها حَريَّة بالدَّرْس، فإن عددًا من الأحداث المهمَّة التي جرت في العقود الأولى من القرن السابع كانت لها أبعاد عسكرية. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الباحثين انتَهَوا إلى تفسيرات متضاربة للمؤسسات البيزنطية العسكرية في القرن السابع، التي عدُّوها مهمَّةً جدًا بنفسِها، وفي الحقيقة من حيثُ ارتباطُها بفَهْمٍ أوسعَ للخطوط الرئيسة للتاريخ البيزنطي والشخصية الرئيسة لبيزنطة. فإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الخلفية، وراعينا الاتجاهات الأوضح في التأريخ العسكري، يصبح من المرغوب فيه أنْ يعادَ النظرُ في السَّنوات الحرجة للفتوحات الإسلامية، والتخلي البيزنطي عن فِلَسْطين وسوريَة وأرض الرافدين.

قد يشك بعضٌ في صوابيَّة المصطلح 'فتوحات'. إضافةً إلى المصادر العربية التي تتحدث عن الفتوح أو 'الانتصارات' سواءٌ الأدبيةُ أم الماديَّةُ، حربًا أم سلمًا، أم 'فتوحات' المشتقة من جذر الفعل الذي يدل على تسنّم النصر أن يحتل أو يفتح، فيما لا يقل أهمية في ذلك مصدرًا بيزنطيًّا أسبقَ من المؤرِّخ الإخباري من القرن التاسع المبكِّر، وهو المسمى ثيوفانس (Theophanes) الذي يشير أيضًا إلى الفتح على يد العرب. ومن ثَمَّ، فإنَّ المراجع التاريخية من الروايات المختلفة، هي التي قررت أن تطلق على هذه الأحداث الفتوحات أو

الانتصارات.[54] وليس ثمة سبب معقول يحملنا على تجنب مثل هذه التعبيرات أو البحث عن تعبيرات بديلة. في هذا الزمن الذي يشهد نفورًا متناميًا من التاريخ العسكري ومن إمكانية اللجوء إلى التفسير العسكري للتبدل التاريخي، يصبح لزامًا علينا أن نفسر المسوّغ لدراسة الأبعاد العسكرية للتحصينات، أو أنْ ندافعَ عنه. ثمة مَنْ يبحث عن تفسيرات غير عسكرية أساسًا للفتوحات أو الانتصارات، لكنَّ هذا قد يؤدّي إلى تصوُّرات تاريخيّة ناقصة وغير ملائمة البتةَ. ومع أنَّ تحليلاً عسكريًا قد لا يدعي أنه يزوّدُنا بتفسير كافٍ لكل التبدلات الرئيسة التي جرت، فلا يجوز إغفال الأبعاد العسكرية للفتوحات. لقد أهملت دراسة الحروب كثيرًا في السنوات الأخيرة، مع أنه كان لها بعد كبير الأهمية في التاريخ. وقد انتهت الأحداث الحربية في بيزنطة إلى بعض التبدلات التاريخية الأكبر دلالة.[55]

## 7.1) أهميةُ الدِّفاع عن مصرَ

يدور التركيز في هذه الدراسة حول فِلَسْطين وسوريَة وأرض الرافدين. ومن المؤكد أن خسارة مصر البيزنطية كانت ضربة موجعة للبيزنطيين. فقد فقدت بيزنطةُ، بخسارتها مصرَ، مصدرَ دخلٍ ضرائبي ضخمًا وسكانًا كُثُرًا، ومثلُ ذلك يقلُّ عن بعض الموادِّ الغذائيَّةِ الرئيسة وسواها من النتاج الفريد مثل البردي. لكنْ من حيثُ النظرةُ العسكريَّةُ، لم تكن بيزنطةُ قادرةً على الدّفاع عن مصرَ بعد خسارة فِلَسْطين وسوريَة. لقد حالت خسارة هاتين المنطقتين دون استمرار المواصلات والإشراف الإداري والدفاع عن مصر، إذْ بلغَ ذلك كلُّه من الصعوبةِ على بيزنطةَ الغايةَ القصوى. فقد عزلت مصر، وعادتْ الجيوشُ البيزنطية، وزعماؤها، وسكانُ المناطقِ المجاورة إلى الغرب منها، مثل النوبة، لا تستطيعُ القيامَ إلا بالقليلِ لإنقاذها، هذا إذًا ما كانت لهم رغبةٌ في ذلك. كان سقوطها قضية وقت. ومن ثَمَّ، فإنَّ هذه الدراسة لا تركز على دفاع مصر وأحداثها، ولو أن دخلها الضرائبي، وزراعتها، وسكانها، يربو، على نحوٍ مهمٍّ، على الذي كان في فِلَسْطين وسوريَة وأرض الرافدين العليا. فالقتل والدبلوماسية إلى الشرق من مصر أدّيا إلى أنها، لا محالة، ساقطةٌ بعدَ حينٍ في أيدي المسلمين.[56]



لم يعنِ انتهاءُ القتال في فِلَسْطين وجنوب سوريَة أن المسلمين يمكنهم أن يحتلوا مصر، ويفرضوا سلطانهم عليها من دونَ مقاومةٍ. فقد كان ثمة، في حقيقة الأمر، معارك في عين شمس (هليوبوليس) وفي بابليون (مصر العتيقة) وفي نيكيو وأرباضها. وكان ثَمَّةَ مقاومةٌ في الإسكندريَّة. لكنَّ خسارةَ فِلَسْطين وسوريَة كانت تعني، في الواقع، أن المدافعين عن مصر البيزنطية كانوا يحاولون مقاومة المسلمين الذين كانوا، بحكم منطق موقعهم المركزي، مع 'طرقه الداخلية' أقدر على معرفة الأمور من البيزنطيين. لقد كان استمرار السيطرة البيزنطية على البحر عونًا كبيرًا للدفاع البيزنطي. فقد سمح هذا للقوى البشرية والمال والإمدادات، وهذا أمرٌ لا يقلُّ أهمية، وللسيطرة والإشراف بأن تظل على اتصال مع العصب المركزي الحكومي والعسكري في القُسْطَنْطِينِية. لكنَّهُ كان، إلى درجة ما، دفاعًا كسيحًا. إن البحث المفصل والمدقيق التركيز أمر لا غنىً عنه في سبيل الوصول إلى الدقة التاريخيَّة. ومن المُهمِّ أيضًا، ربمَّا بعدَ القيام بهذه الأبحاث التجريبيَّة المفصَّلة، أنْ نقرِّرَ إذا ما كان ثَمَّةَ ترابطٌ أو نماذجُ متشابهةٌ. مع أنَّ الإطارَ الجغْرافيَّ للحملات في سوريَة وأرض الرافدين البيزنطيَّة كان مختلفًا عن ذلك الذي جرى في الأناضول، فمن المُهمِّ أنْ نفْهَمَ أن القتال البيزنطي الإسلامي، بما فيه من ممارسات، لم ينشأ من عدمٍ على الهضبة الأناضولية. لقَدْ كان استمرارًا مباشَرًا واستطالةً للقتال البيزنطي الإسلامي الأسبق. وتنْجمُ من ذلكَ نتائجُ متعدِّدَةٌ.

مِن الواضح وجوبُ أن يكون ثَمَّةَ حدودٌ لأيِّ دراسةٍ تاريخيَّةٍ، إذ لا يمكنها أن تحويَ كلَّ شيء. إن الدراسات التخصصية التي تمت زوَّدتْنا بالقَيِّم من الفوائد في دراسة الفتوحات، وعن الإخفاق البيزنطي في تطوير دفاع فعَّال. لكنْ من المهم أن تُلقى نظرةٌ على هذه النتائج من المنظور الآخر كذلك.

## 8.1) أسئلةٌ وافتراضاتٌ منْهَجيَّةٌ

إنَّ الباحثينَ في الشؤون البيزنطية، بمَنْ فيهم ستراتوس، لم يقرَؤُوْا من المصادر العربية التي تناولت الأحداث المنذرة بالخطر في ثلاثينيّات القرن السابع إلا ما كان من الأعمال ميسورًا مترجمًا. لقد عمد عِرْفَان شَهِيد جديًا،

ولو ببعض الحماسة، إلى تنوير فهمنا التاريخي للعلاقات البيزنطية العربية في القرون الثالث والرابع والخامس والسادس، مع أنه يزودنا ببعض نظرات صائبة إلى أحداث وتطورات تعود إلى القرن السابع. والمستشرقون والباحثون في الشؤون الإسلامية الذين تمَّ على أيديهم على نحو ممتاز، أثمن ما هناك من دراسات للفتوحات، لم يدرسوا التاريخ البيزنطي على نحو مفصل، إضافةً إلى أنهم أهملوا تاريخ الإمبراطورية الرومانية المتأخرة. ومع أنهم قاموا بجهد أكيد لاستعمل كل المصادر المتوافرة، كما سمحوا، في حقيقة الأمر، لأنفسهم بأنْ تكونَ لشهادة المصادر المسيحية الشرقية والبيزنطية مكانة سباقة الفتوحات الإسلامية، فإنهم لم يستغلوا، على نحو تام، المعلومات المتصلة بالوضع الصحيح للإطار التاريخي المتأخر لرُوْما، ولا المبكّر لبيزنطة في تلك المصادر. إنَّ هذا العمل صعبٌ، ولكنْ لا يمكنُ الاستغناءُ عنهُ.[57]

إن الأهمية التناسبية للمصادر، بما فيها الإسلاميةإلى تفحص نقدي. فتاريخ الفتوحات وخطوط الدفاع البيزنطية لا يمكن أن يقام بناؤه من المصادر البيزنطية والمسيحية الشرقية فحسب.[58] وعلى كلٍّ، فهذه ليست دراسة لقيام الإسلام، مع أن البلحثين في الشؤون الإسلامية قد قدموا إضافات لا يعلى عليها لتفهم الخلفية التاريخية. وهذه الدراسة اتخذت نقطة انطلاق لها افتراضًا أنه من المهم أن نعيد تثمين المصادر العربية المعروفة، لا من أجل دلالتها على الفتوحات والمقاومة البيزنطية فحسبُ، ولكن أيضًا من أجل ما تقدِّمُه من معلوماتٍ عرضيَّةٍ عن وضع النظم البيزنطية، وأساليب القتال، والشخصيات، والأحوال الاقتصادية والحكومية المحلية، والخلافات الداخلية، على ما كانت عليه في القرن السابع. ونقل الروايات المبكرة اليعقوبي والأزدي البصري والطبري وابن عبد الحكم وابن خيَّاط العُصْفُري وابن أعثم الكوفي والأصمعي والبلاذُري وأبو يوسف، ومثل ذلك ورد في مصادر متأخرة مثل ابن عساكر وابن حُبَيْش.[59] وتمتلك الروايات الإسلامية قيمة عليا فيما يخص كلاً من بيزنطة والتاريخ الإسلامي.

توصل كبار المستشرقين الذين ظهروا في أواخر القرن التاسعَ عَشَرَ وأوائل القرن العشرين، بمن فيهم فِلْهَوزِن وكيتاني ودِغويه، إلى القول: إنَّ الأخبارَ الواردةَ في



المصادر المسيحيَّة الشرقيَّة حَرِيَّةٌ، على نحوٍ عادي، بأن يكون لها قصبُ السَّبْقِ على الإسلاميَّة في تقويم الرواياتَ المربكة عنَ سوريَة بسببِ معاصرتها الكُبرى للأحداث. وكانوا يفضلون، عمومًا، الروايات الإسلامية التي يمكن تأصيلها من ابن إسحاق والواقدي. وقد حرر ثيودور نلدكه المصادر السريانية ونقدها، بما لا يعلى عليه من البراعة، بسبب صلتها الوثيقة بدراسة الفتوحات. وكانت إضافاته جوهرية. مع ذلك، فقد تجاهل هؤلاءِ المستشرقونَ رواية ‹[آلام شهداء الستين في غزة] The Passion of the Sixty Martyres of Gaza› و‹[حية القديس أنثاسيوس الفارسي وعجائبه]› و‹[المذهب اليعقوبي] Doctrina Iacobi nuper baptizati› وسواها من المصادر المتعلقة بآباء الكنيسة مثل صفرونيوس (Sophronius) والقديس أنسطاسيوس السينائي ومكسيموس المُعترف (Maximus the Confessor) التي لا تزودنا بأخبار تاريخية، لكنها تزودنا بمصادر كانت معاصرة، أو قريبة من المعاصرة للفتوحات، وهي من القرن السابع. ومع أنَّ هناك بعضَ المصادر السريانية الأخرى التي أهملت، لم تكتشف إخباريات جديدة.[60] والمصادر المُشَار إليها آنفًا هي التي لم يولها الإخباريونَ المسلمونَ الثّقَاتُ أيَّ عناية. وفي الجهة الأخرى، لم يعد أولئك المؤلِّفون إلى المؤلّفين المسلمين. لا يمكنُ تفسيرُ هذهِ الأعملِ أو استعمالُهَا بسهولةٍ.

المصادر المسيحية الشرقية البيزنطية ليست خاليةً من الأخطاء، وأخبارها نُتَفِيّة إلى درجة كبيرة. مع أن التواريخ التي يُعثر عليها في المصادر السريانية المبكرة حرية بالقَبُول عادة،[61] فمن الخطأ أن نفترض أن الإخباريين والمؤرخين المسيحيين دونوا روايات كانت مستقلة عن روايات المسلمين. ومع أنه يستحيل تتبع الأصول (الجذرية) بدقة، فثمة صدًى وتشابه، بل ربما هناك أمور مشاعة وتطابق بين ما يرد من الروايات (في المصدرين) وهذا ما قد يدلُّ على نوع من المؤثرات العابرة بين صنفي الروايات. وبطبيعة الحال، إذا كانت الروايات في المصدرين تنقل الحقائق الصحيحة نفسها بوساطة روايات مختلفة، فليس ثمة ما يدعو إلى الغرابة إذا عثر على أخبار متماثلة. إن المصادر المتنوعة، مثل الإخباري البيزنطي اليوناني المدعو عادة ثيوفانس، الذي عبث بالمادة والتأريخ، ومثل المؤرخ الأرمني سيبيوس؛ من أهل القرن السَّابع، والمسيحي العربي يوتيخيوس تستقي كلُّها بعض الروايات التي نجد لها مساوياتٍ إخباريَّة

أو مصادرَ عامَّةً، سواءٌ في ذلك سريانيَّةً كانتْ أم مسلمةً، إضافةً إلى بعض روايات مسلمة. لكنْ ليس هنا نسخ تام. ثمة حاجة إلى منهجيات جديدة ترمي إلى معالجة دقيقة وصحيحة للمشكلات المعقدة في التواصل الممكن بين المصادر المسيحية والإسلامية، أو العدوى المتبادلة بين المصادر المسيحية والإسلامية. وثمة حاجة إلى تفهم هذا العملِ المُهِم، لا مجابهته. والبحث في المصادر ليس أمرًا سهلاً، وثمة خطر من التلاعب، إذ يمكن تقريبًا إثباتُ أيِّ شيءٍ ممَّا يرغبُ المؤلف فيه، لكنْ لا بدَّ من التجربَة.

ثمة مجموعة أُخرى من المعايير للتأكد من صحة المادة التاريخية في الروايات الإسلامية لم تُتَّبَعْ حتى الآن: مدى توافقِ هذه الروايات مع ما هو معروف عن النظم، وأساليب القتل، والتضاريس، والأحوال كما كانت في العهد الرُّوماني المتأخِّر والبيزنطيِّ المبكِّر. إنَّ التقدُّم الذي طرأ على دراسة العصور القديمة المتأخرة، بما في ذلك الاكتشافاتُ الأثريَّةُ، فيه ما يجعله مقياسًا مهمًّا آخرَ يمكن استخدامُه لتثمين مصداقية الروايات الإسلامية. ومن الأهمية أيضًا أن توزن الروايات الإسلامية بعنايةٍ أدقَّ في ضوء التاريخ البيزنطي بعد انتصار البيزنطيين على الساسانيين سنة (628 م) بمعنى الدرجة التي يمكن أن تكون عليها بعض الأقوال من حيثُ وضوحُهَا ومعقوليتُها في ضوء ما، لعلَّه، كان سياسةً بيزنطيةً رشيدةً! إنَّ هذه الأساليبَ ليست معصومةً من الخطأ. لكنَّها، حتى الآن، لم تُتَّبَعْ بما يفي بالغرض، ومن الأهمية أنْ تُبْذَلَ جهودٌ حاسمة.

هذه قراءة نقدية للأخبار، وفيها جهد صادق لتقويم مصداقيتها بميزان الوقائع الرومانية المتأخرة والبيزنطية المبكرة. فالروايات الإسلامية التي تورد مادة تتفق مع حقائق رومانية متأخرة، وليست روايات تاريخية فحسبُ، أو عن رواة مؤرِّخين، تستحق، في غيابِ موادَّ أخرى قد تعلِّل الأمر، مصداقية أوفى من تلك الروايات التي لا يتم لها ذلك. وهذه الوسيلة تنطوي، بصدق، على أحكام تاريخية جديَّة. وسيكون على نقاد آخرين أن يقوموا بالتعبير عن آرائهم في جدية هذا الدرس للمادَّة الخبرية. باتباع هذا الأسلوب قد يتاح للبحث التاريخي، في العصور القديمة المتأخِّرة، أن يضع بين أيدينا إسهامًا ذا دلالة لفَهْم



نواحٍ من الفتوحات الإسلاميَّة، وبعض أسس للمدى الذي يعتمد عليه في قَبُولِ بعض الروايات التاريخية (مع أنَّ هذا لا ينطبق على تلك الروايات المرتبطة بأحداث وقعت في عمق شبه الجزيرة العربية، إذ ليس ثمة إطار من العصور القديمة المتأخرة يمكن اتخاذه نقطة انطلاق للمقابلة أو للتقويم). إن الباحثين في الدراسات الإسلامية، الذين يغلب عليهم أن تكون معرفتهم بالعصور القديمة المتأخرة محدودة، والذين من الواضح بشأنهم أن تُدرِك حاجتهم الواضحة لإتقان مناهجهم ولغاتهم وعلومهم المساعدة، لم يفيدوا كثيرًا من المواد الرومانية المتأخرة ضابطًا في بحوثهم في الروايات الإسلامية. لا يقصد بذلك الأسلوب التقليدي لدراسة التقاليد الأدبية وطريقة انتقالها، بل المقصود أن يفحصوا المواد الإسلامية، ويقابلوها بالمعروف من الدّلالات الرومانية المتأخرة في المجالات الأثرية والتضريسية والتنظيمية.

مر وقت بمؤرخي الإسلام وهم يحاولون إعادة تقويم أهمية الروايات العراقية لسيف بن عمر. وثمة فئة من الباحثين تدعو إلى نظرة أكثر جدية للمادة التي حفظها سيف. وتذكرنا حجتهم بالنتائج والفرضيات التي توصَّل إليها يوليوس فِلْهَوزن، حتى، إلى درجةٍ أقلَّ، ما توصَّل إليه المعجب به ليوني كيتاني. إن هذا الاتجاه الجديد النقدي في التأريخ الإسلامي يستحقّ أيضًا اهتمام مؤرّخي بيزنطة الجدي، ولو أنَّ نتائجَ هذه المنهجيَّةِ الجديدة لم يقصد بها أن تكون، على التخصيص، ذات معنى مرتبط بالتاريخ البيزنطي.[62]

يقضي التحليل المتوازن تفحص كل المصادر ذات الصلة بالموضوع ومعالجتها. والمسألة الخلافية المتعلقة بدقة الروايات والإشارات الإسلامية في المصادر المسيحية، ولا سيَّما أحداثِ النبي محمَّدٍ، صلى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ، تقع، هي وسواها من شؤون شبه الجزيرة العربية، خارج نطاق الدراسة الحالية. ويجب تمحّص الروايات الإسلامية للحصول على أيِّ معلومة نافعة عن الوضع والأحوال الداخلية داخل الإمبراطورية البيزنطية في أوائل القرن السابع، ولكن على نحوٍ خاص في أربعينيَّات ذلك القرن، وهي الفترة التي نجد عليها بينة بيزنطية ضئيلة. والمصادر المتعلقة بآباء الكنيسة والقديسين تزودنا

بالقليل من المعلومات عن التاريخ العسكري للسنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حكم هرقل (610-641 م) لكنها تحتفظ بتفاصيل قيمة عن المؤسسات والأحوال البيزنطية وسكان الإمبراطورية المتنوعين.

يفترض البحث العلمي الدقيق استعمل مصادر الموادّ الملائمة، كما يتطلب معرفة البحث الأساس في الحقول المرتبطة بالعصور القديمة المتأخرة والبيزنطية والإسلامية، وهذا ما يعني، بالضرورة، أنّ هذه الدّراسة ناقصةٌ، وبعيدة عن الكمال. مع المساعدة الطيّبة التي حَصَل عليها كثيرٌ مِنَ الباحثينَ الزّمَلاء، فمن المستحيل أن تعرف المادة القائمة المتعلقة بذلك جميعها. ومع ذلك، فإنّ هذا التحقيق يمكن أن يكون محاولة تدل على الأقل على جوهر المشكلة، مع العلم بأنه سيكون ثمة نقد وتعديل لكثير من التفاصيل المعينة. ومن الأهمية أنْ تكونَ ثَمّةَ محاولةٌ للتحليل. إنّ الدّراساتِ القديمةَ، هي في أكثرها، قد فات عليها الزّمن، وناقصةٌ جدًا، وقد تضلّلُ أحيانًا.

مع أنّ المستشرقين المبكرين لم يحصلوا على معرفة كبيرة عن التحديدات وأسماء الأمكنة، على نحو ما كانت عليه لدى الرُّومان المتأخّرين، فمن اللازم اليومَ أن يعادَ تثمينُ المصادر وتركيبها كي يُضْمن عدمُ استمرار النقْص والخطأ القديمين، ولن يُتاح لهما أن يفسدا التفسير والمعرفة التاريخيين. إن الكثير من التواصلَ المتبادل يمكن تفهمه اليوم، مع أنه سيبقي بعض النقص والأخطاء، ويجب أن تنتهي النتائج إلى تفهُّمٍ أصحَّ وأدقّ لكثير من الأحداث، ولتحوُّلاتٍ أوسعَ مدًى. لقد سمح أجيال الباحثين المبكرين لأنفسهم أن تكون خطواتهم في فهم التاريخ واسعة، وما كان منتظرًا منهم أن يحيطوا علمًا بتفاصيل تخصص آخر. لقد بذلوا الجهد ضمن حدود المعرفة والمقدرة الخاصة بهم والوقت الحر الذي كان مخصصًا للبحث. ثمة أخطاء كثيرةٌ وجدت سبيلها إلى البحث، وقد استقرّتْ ثُمّ بسببِ عجْزِ الباحثينَ عن إدراك التواصلات المتبادلة والصفات الدالة، أو بسبب الفهم الخاطئ لها. إن هذه يحتاج إلى تصحيح وتعديل في الميزان.

مع أن أصول المؤسسات البيزنطية والمجتمع البيزنطي في الأزمنة المتوسطة هي موضوعات خلافية، وقد بُذلت جهود كبيرة في البحث عنها، فلم تكن قطُّ محاولةٌ



لتحليل الروايات العربية عن الفتوحات الإسلامية المبكّرة للإفادة من معلوماتها، إذا ما وجدت، عن طبيعة المؤسَّسات البيزنطيَّة وخاصيتها في تلك الفترة الحرجة. وبدلاً من ذلك، أعاد الباحثونَ الكرَّةَ لفحص المصادر البيزنطية اليونانية، ولكن على درجة محدودة من النجاح. ليس يسيرًا الحصول على الإشارات العرضية في المصادر العربية وتفسيرها، فالجهد يقتضي غربلة الكثير من العصافة (قشر الحنطة). فمن الأهمية أن يُفهم نوع الجيش البيزنطي الذي يبدو أنه كان موجودًا في الأوصاف التي تحويها تلك المصادر. وتقتضي المنهجية اللازمة للبحث عن هذا قراءةً جدَّ دقيقة للمصادر العربية للبحث عن شذرات من المعلومات، ثم محاولة التأليف بين النتائج التراكمية. ليست هذه منهجية مثيرة، لكنَّها الأسلوب الفني المناسب للتوصل إلى الممكن من النتائج الصائبة.

إن الكثير من الفرضيّات القائمة على أساس واهٍ يعوق فهمًا تاريخيًا دقيقًا للمحاولات البيزنطية الدفاعَ عن الولايات الشرقية للإمبراطورية تجاه المسلمين في أربعينيَّات القرن السَّابع. ويدخل في عداد هذه جهل الأرض في مناطق القتال، ونقد السكان المحليين لإخفاقهم في الدِّفَاع عن أنفسهم تجاه المسلمين، والدور المخرب الحاسم بسبب الصراع المذهبي المسيحي في شل حركة المقاومة البيزنطية، والمرض المزعوم للإمبراطور هرقل، وعجزه عن تولي القيادة المباشَرة للجيوش المحاربة ضد المسلمين، وعمل فوكاس المخرب والمشؤوم في إقصائه الإمبراطور موريس عام (602 م) وسياسة الأخير الضارة مع العرب الغسانيين الذين كانوا يتصرفون بصدق مع البيزنطيين، وازدراء الأخيرين الفِرقَ العربيَّةَ المعاهدة التي كانت تستطيعُ أن تتغلّب على المسلمين، والآثار الناتجة من الحرب الطويلة بين بيزنطة وفارس، والتفوق العددي للمسلمين ومقدرتهم على اختيار أراضي المعارك على أطراف الصحراء، وتقليل هرقل ومستشاريه من خطرهم، وموقف عدم المبالاة الذي اتخذه هرقل وسواه من البيزنطيين من قضية العرب في مسيرة الهجمات المبكرة، والحماسة الدينية المتضاربة، أو انعدام هذا الأمر، إمَّا على أنه عامل حاسم الإثارة للعرب، أو على أنه عاملٌ مخفف شجع القَبُول المحلي في الولايات البيزنطية

السابقة بالفتوحات الإسلامية. ويبدو كلٌّ من هذه الأسباب، عندما ينظر إليه وحده، أمرًا معقولاً، والأسباب كلها تحتوي على عنصر من عناصر الواقع. لكنَّ فحصًا أدق يظهر أنها تفسيرات غير كافية للسقوط البيزنطي والنجاح الإسلامي، والتبدلات التنظيمية التي تلت ذلك.

أدّى البحثُ الجديدُ إلى تقدُّم في الفَهْم التاريخي للفتوحات، مع اهتمامٍ أكبرَ بفتوحات العراق دونَ سواحل البحر المتوسط والأراضي الواقعة إلى الداخل منها.[63] ومع ذلك، فإنَّ المساق التاريخي للفتوحات في سوريَة يظل غامضًا، ومثل ذلك يقال عن أعمال البيزنطيين التي لم تكن، بالضرورة، غرضًا خاصًا لأيِّ تحقيق يقوم به دارسٌ للإسلاميات. ومع أنه قد يكون لها بعض ملابسات لدراسها ولتاريخ الخلافة المبكر، فثمَّةَ هدفٌ إضافيٌّ هو توضيحُ أمورٍ غامضةٍ في تاريخ بيزنطةَ. والباحثون العرب لم يحلوا بَعْدُ جميعَ القضايا الباقيةِ،[64] ولم يحولوا دون الحاجة إلى التأليف بين المصادر الأولية الرومانية المتأخرة والبيزنطية والإسلامية[65] بشأن استراتيجية البيزنطيين وأعمالهم الحربية، بما في ذلك ما كان هرقل وقواده وخلفاؤه الأدنون يحاولون القيام به، إذا ما كانتْ سياستُهُم الدينيَّةُ والتنظيميَّةُ والسياسيَّةُ استمرَّتْ على ما هي عليه، أو إذا ما تبدّلتْ خلالَ مسيرةِ التقلُّباتِ العسكريَّةِ. ليس هذا أمرًا يسهُلُ القيامُ به، لكنَّهُ يستحقُّ الجهْدَ لتجربَته.



# 2) الإمْبراطُوْرِيَّةُ البِيْزَنطيَّةُ في زمنِ تَطَوُّرٍ مُتَسَارِعٍ

## 2. 1) العقودُ الأخيرةُ للسُّلْطةِ البيزنطيَّةِ: نظرةٌ عامَّةٌ.

يا جميعَ المسيحيين! سبحوا الله الواحد ومجّدوه واشكروه. وليكُنْ فرحكُم باسمه عظيمًا. لأنَّ كسرى، عدوَّ الله المتغطْرِسَ سَقَطَ. لقد هبطَ إلى الأعماق، وامَّحَى اسْمُهُ من الأرضِ. إذ إنَّ هذا الشريرَ طَعَنَ بسيِّدِنا المسيحِ بتكبّرٍ وازدراءٍ، وهو الإلهُ الحقُّ، وبِأُمِّه فائقةِ النَّقاوةِ سيِّدَتِنا المقدَّسةِ والدةِ الإلهِ مريم العذراء. كسرى هذا هلك هلاكًا لا رجعةَ منهُ. إن أعمالَهُ انقلبتْ عليه وعدوانَهُ سقَطَ على رأسِهِ.[1]

بهذه الكلمات أعلن الإمبراطور هرقل إلى رعايا الإمبراطورية كيف انتصرت الإمبراطورية البيزنطية أخيرًا على الإمبراطورية الساسانية وملكها كسرى الثاني برويز في سنة (628 م) بعد ما يقرب من ربع قرن من القتال العنيف الذي أدى إلى تدمير ولايات كثيرة في الإمبراطوريتين. إنَّ هرقلَ، الذي أقسمَ بأنْ ينتقمَ للإمبراطور موريس، انتزع الملك من فوكاس سنة (610 م) وعدَّ نفسه مسؤولاً إمبراطورًا، للدفاع عن الإمبراطورية والعقيدة وعن طرد الفرس. ومع أن الفرس احتلوا سوريَة وفِلَسْطين، وهدَّدُوا آسيا الصغرى بأسرها بالاحتلال، واقتربوا من القُسْطَنْطِيْنية، فقد كان هرقل، بعد إعادة تأهيل جيوشه، هو الذي نقل القتال إلى قلب الإمبراطورية الساسانية في وقت مبكر من سنة (628 م). وتلا القضاء على كسرى وفاته.

بعد أن فرض هرقل شروط الصلح على فارس، مبدئيًا على أساس الوضع الراهن السابق، معيدًا بذلك الحدود البيزنطية لسنة (590 م) إلى نهر الخابور، عاد إلى القُسْطَنْطِيْنية وهو في الثالثة والخمسين من عمره. أما الإمبراطورية

الساسانية، التي كساها الخزي، فانحدرت إلى حرب أهلية وفوضى. وكان هرقل، منذ أن توفي ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) سنة (395 م) أول إمبراطور عسكري. وكان دخل مع القائد الفارسي شهرباراز في مفاوضات ناجحة في سبيل إخراج القوات الفارسية من مصر وآسيا الغربية البيزنطية، وذلك في سبيل أداء بنود الاتفاق الذي تمَّ مع خليفة كسرى الثاني، قواد سيروس (Kawadh Siroes). وفي آذار/ مارس (630 م) رافق هرقل بنفسه إعادة ما كان هو ومعاصروه يعتقدون بأنه ذخيرة الصليب التي كان الفرس نقلوها من القدس سنة (614 م). لكن عددًا من المشكلات ظل عالقًا. فالكثيرَ من الولايات التي تمزَّقتْ أصبحَت تحتاج إلى إعادة بناء. وكانت الحاجاتُ كبيرةً، أما المواردُ الماليَّةُ فمحدودةٌ. ومما كان كبير الأهمية القضايا الكنسية المقلقة، ولا سيَّما القضايا المرتبطة باللاهوت المسيحي والشؤون الكنسية الشقاقية التي عصفت بسوريَة ومصر وإرمينية مدَّةً طويلةً. وقد عمل هرقل، بمساعدة بطريرك القُسْطَنْطِيْنِية سرغيوس(Sergius) ولكن من دون جدوى، على العثور على صيغة موحدة من نوع ما، لكن الخصومة الدينية استمرت على حالها. مع ذلك كلِّه، فقد ثابرَ في محاولتِهِ إقناعَ سكَّانِ الولايات ومحبيه الأرمن بقَبُول اتحاد ديني.(2)

ليس ثمة إحصاءات دقيقة لعدد سكان المدن والقرى السورية والفِلَسْطينية والمصرية، أو تلك التي في أرض الرافدين. ومن المحتمل أنَّ السكان كانوا عشيَّةَ الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ أقل مما كانوا عليه في القرن الرابع، أو في بواكير القرنِ السَّادس. ومن المحتمل أن الطاعون والحرب كانا العاملين الأكبر أهمية في الضمور السكاني.(3)

إن مما يمكن تصوره هو أن الشرق اليوناني كان عدد سكانه في القرن الثاني من الجمهورية الرومانية نحو (28) مليونًا تقريبًا إلى (34) مليونًا حدًّا أقصى، مع أن هذا المجموع تدَنى زُهَاء سنة (630 م) بما يقدر بين (20٪) أو (40٪) إن لم يكن أكثر من ذلك، إلى ما بين (17 و 27) مليونًا. وتتراوح التقديرات لسكان سوريَة في العصور القديمة المتأخرة بين تسعمئة ألف ومليون وخمسة ملايين أو ستة، بما في ذلك بين (400.000) حتى مليونين لفِلَسْطين، و(10)



ملايين لما يضم اليومَ سوريَة ولبنان وسلطة فِلَسْطين و"إسرائيل" والأردن [الأقواسُ الاعتراضيَّةُ مضافةٌ]. وعلى كلٍّ، فإنَّ هذه الأرقامَ تنطبقُ على ما يمكنُ أن يعدَّ الحدَّ الأعلى لسكان الشرق اليوناني في زمن غني بالسكان؛ أي: في عصر أغسطُس (Augustus). والتقديرات الخاصَّة بسكان الأناضول في تلك الفترة تتراوح بين (5) ملايين و(13) مليونًا. وفي مطلع القرن السابع تدنى عدد السكان إلى أقل من ذلك بكثير، ولعل فِلَسْطين كانت مستثناة من ذلك.(4) والتقديرات الخاصة بفِلَسْطين البيزنطية تبلغ حدًا عاليًا يصل إلى ثمانيمئة ألف ومليونين، لكنَّ مليونًا واحدًا هو الأكثر احتمالاً حدًّا أعلى لفِلَسْطين غرب نهر الأردن.(5) وبحسب واحد من التقديرات كان مجموعُ سكان الإمبراطورية البيزنطية في المناطق الواقعة تحت نفوذ الدولة الاسمي (وهي لا تتفق بالضرورة مع حدود (الشرق اليوناني) لأن الإمبراطورية [راجعِ الخريطةَ رَقْم (1)] كانت تضم أجزاء من إيطاليا الناطقة باللاتينية، ودلماتيا وشِمَال إفريقيّة) - وصل سنةَ (600 م) إلى نحو (17) مليونًا: (1.9) في سوريَة وفِلَسْطين [وهو تقديرٌ متدنٍ] و(3) ملايين في مصر، وخمسة ملايين في الأناضول، ومليونان في البلقان البيزنطي، و(100.000) في قبرص وما تبقى في شِمَال إفريقيّة والمناطق الإيطالية التي تحت النفوذ البيزنطي. وفي الفترة المتأخرة من القرن السابع، بعد الخسائر التي أصابت الإمبراطورية على أيدي المسلمين والصقالبة والبلغار والآفار، يبدو أن مجموع السكان قد هبط إلى (7) ملايين أو إلى أقلَّ، في المناطق التي ظلت تحت النفوذ الإمبراطوري.(6)

مع أنه كان ثمة خلافات دينية، ولا سيَّما فيما يتَّصل بلاهوت المسيح ومعارضة كلا الفريقين الخلقيدونيين وأتباع الطبيعة الواحدة [اليعاقبة] لسياسة هرقل الرسمية القائمة على القول بالمشيئة الواحدة، فليس من الواضح إذا ما كان لهذه الانقسامات أثرٌ فعَّالٌ في إضعاف السلطة البيزنطية. والأقليات الدينية التي تتعرض للسخط الأكبر، وهي جماعات صغيرة إلى درجة ما، هم اليهود والسامريون، مع أنهم كانوا يقيمون في مناطق ومدن ذات أهمية للمواصلات والتّجمعات الإخباريّة والاستراتيجية العسكرية (مثل أذرعات

ونَوى). ولم يكن السكان متجانسين بشأن الاتباع الديني أو اللغة، لكنْ، مع ذلك، ليس ثَمّةَ إحصاءاتٌ للفرقاء يمكن الاعتمادُ عليها.(7) وليس ثمة دليل على خيانة فعلية لأتباع الطبيعة الواحدة بين سنتي (600 م) و(638 م).(8)

لعل عدد الحجاج والمسافرين الكبير، حينما كانت العداوات تتوقف، كان يتيح للسكان القريبين من الطرق والمقيمين في المدن، الفرصة في تلقي أخبار الأحوال القائمة في الأمكنة النائية من الإمبراطورية. وما كانوا ينفقونه كان رفدًا مهما للاقتصاد المحلي. وكان بين هؤلاء الحجاج أعداد متزايدة من الأرمن، الذين كانوا أمرًا مألوفًا، ولا سيَّما في فِلَسْطين، لكن كانوا أيضًا يَبْدون في سوريَة ومصر، ومن المحتمل أنهم كانوا يعكسون اعتماد هرقل المتزايد على أبناء جلدته للحصول على ضباط وإداريين. وفي المقابل ثمة إشارة أقل من ذلك إلى وجودِ زوَّار من الناطقين باللاتينية، باستثناء بعض الحجاج، ولعل ذلك يعود إلى الفقر، وإلى خسارة المناطق الناطقة باللاتينية التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المتأخرة.(9)

## 2.2) خطوةُ التبدُّل السريعةُ

إنَّ التأكيدات والافتراضات الموحية بالثقة والاطمئنان التي كانت بيِّنة للمؤرخ الكنسي إفاغريوس سكولاستيكوس (Evagrius Scholasticus) في العقد العاشر من القرن السادس عَادَتْ غيرَ ممكنةٍ بعدَ سنة (602 م). فتشدّقه بأنه «منذ أن تسلم قسطنطين السلطة، وبنى المدينة التي تحمل اسمه حصرًا، ووقفها للمسيح، تَعَالَ، وانظرْ معي إذا ما كان أيٌّ من الأباطرة في هذه المدينة.. قُتِل على يد عدو محلي، أو أجنبي، أو أن مغتصبًا أطاح إمبراطورًا»(10) اندثر خلالَ أقلَّ من عقد بعد الإدلاء به.

كانت الإطاحة بالإمبراطور موريس وإعدامه على يد السنتوريون فوكاس (Centurion Phocas) سنة (602 م) هي أكثر الرموز الواضحة الدالة على الفترة الجديدة القاسية في القرن السابع الذي برزت فيه خطوة التبدل المتسارعة. ومن الخطأ أن يُحسب أن موريس كان الإمبراطور الممتاز الذي ربما يمكنه أن يعيد تنظيم الولايات الشرقيَّة، ويطوِّر علاقات دبلوماسية مع فارس، إذا لم



يلق حتفه على يد المغتصب فوكاس. فالصيغةُ القائلة: إنَّ (602 م=622 م)؛ أي: إنَّ إطاحة موريس وتصفيته، هي التي جعلت من هجرة محمَّدٍ (ﷺ) أمرًا مُهمًّا، وإنَّ أحداثَ (602 م) وحدَها هي التي أدت إلى ظهور الإسلام دينًا وعاملاً رئيسين، هي صيغةٌ خاطئةٌ.(11) فثمة اختلالات متعددة في سياسات موريس مع العرب، قبل إطاحته بوقت طويل، تشير إلى أن أحكامه السياسية كانت سقيمة.(12)

لم تكن بيزنطة آلتْ إلى قضيَّة شيخوخة، مع أن التبدل التنظيمي كان يسير بُخطا بطيئةٍ في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة إلى درجة أن أحد الباحثين وصفه بأنه كان 'لا يلحظ'. وقد استمرت هذه الحال حتى أوائل القرن السابع، لما أخذت خطوات التبدل بالتسارع. فالغزوات الفارسية التي تلت ذلك في أيام كسرى الثاني برويز بين سنتي (603 و628 م) فضحت مَواطِنَ العطب في الإمبراطورية البيزنطية. وحفزت إطاحة موريس محاولات إلى ثورة عنيفة داخل الإمبراطورية البيزنطية، بما في ذلك تلك التي قامت بقيادة هرقل، والتي أدت إلى إطاحة فوكاس بنجاح في أوائل تِشْرين الأول سنة (610 م). ولم يؤدِّ إعدامُ الأخير على يد هرقل إلى الاستقرار. فالانهيارُ الواقعي للجيوش البيزنطيَّةِ بين أواخر سنة (610 م) وسنة (615 م) والحملةُ الفارسيَّة التي أدت إلى احتلال سوريَة وفِلَسْطين ومصر، والحملاتُ الأفاروسلافية (Avaro-Slavic) والسَّلْبُ الذي رافقها، كلُّ هذا أظهر للعيَان الوضع المنذِر بالخطر جدًا للإمبراطورية،(14) التي استطاعت أن تتحمله، ولكنْ على هون.

يبدي المؤرخ البيزنطي المعاصر ثيوفيلاكت سيموكاتّا (Theophylact Simocatta) اعترافًا حذرًا في التمني باستمرار الإمبراطورية الساسانية، بقطع النظر عن مدى الأذى الذي أوقعته من قبلُ بالإمبراطورية البيزنطية، خشية أن يحل محلها شيء أشد أذى: «ومن ثمَّ، وإنْ جُرِّد الفرس من السلطان، فسينتقلُ سلطانهم حالاً إلى قوم آخرينَ ذلك أنَّ الأحداث لن تتحمَّل انعدام القيادة، ولا يقبل مثل هذه الثروة الضخمة فقدان الإرادة».(15) وأيضًا «.. أيّ ثروة يمكنُ للأحداث أنْ تلقي بها في أحضان الرومان إذا ما جُرد الفرس من السلطان، وانتقلت السِّيادةُ إلى شعبٍ آخرَ؟».(16) قد يعكس هذا الموقف واقعًا سياسيًّا"

حصيفًا، لكنَّهُ يعكِسُ أيضًا تفصيلاً بيزنطيًا يكادُ يبلغُ حدَّ الإلزام لتجنب تبديل في العناصر الرئيسة في الوضع الراهن.

كانت درجةُ التبدل البطيئة في عدد من الشؤون، بين القرن الرابع ومطلع القرن السابع، ذاتَ أثر في الشّدة، والعنف، والتسارع، ومدى التبدل العريض الذي أصاب بيزنطة في القرن السابع، والتي لم تكن مستعدةً له. إننا أقل تأكدًا من أن القرويين وسكان المدن والريفيين مرت بهم تبدلات قاسية في بيئتهم الطبيعية وحياتهم اليومية، هذا إذا ما جُنِّبوا ويلاتِ الحرب.[17] ويُروى أن رسولاً فارسيًا من أهل القرن السابع حذر، من دون جدوى، من أنَّ الحرب البيزنطيَّة الفارسيَّة التي طال أمدُهَا ستؤدّي بكلتا الإمبراطوريتين «إلى وضع بائس تعيس» لكنْ ليس من الواضح إذا ما كان معاصروه صدقوا ذلك، أو توقعوه، في الحقيقة.[18] وكانتْ استجابة الجماهير لأخبار المصاير المتقلبة للإمبراطورية البيزنطية وجيوشها عنيفةً في تقلباتها، ومثيرةً في تبدلاتها، في حالاتٍ من اليأس والبشر كانت دلالةً على تعاظم في الجدل، وعدم الاستقرار، والشكِّ والقلق.[19]

لما تمزّقت الإمبراطوريةُ في سنة (602 م) فقدت نظرتها الضيقة للعالم وثقتها الدينية. ولم تستعدها تمامًا خلالَ عقود الأزمة الثلاثة التي تلت ذلك. ولم تتح لهرقل فرصةٌ للرَّاحة بعدَ إطاحة فوكاس وإعدامِهِ.[20] فقد مكنت الثورة المهيضة التي قام بها أخو فوكاس كومنتيولوس Comentiolus في تِشْرين الأول سنة (610 م) الفرس من الاختراق الحاسم على الجبهة الشرقية في سنةَ (611 م) ومن ثَمَّ، فقد أطالت أمد الأزمة. وجاءت الحملاتِ الإسلامية في أعقاب انتصار هرقل على الفرس بسرعة إذْ لم تسمح باستعادة التوازن الإمبراطوري. وقد أدى توالي الأزمات الداخلية والخارجية السريع إلى عدم الاستقرار والتناقضات والتقلّب، وهي الأمورُ التي فرضت على هرقل وحكومته أن يظلا في حالة مضطربة. وقد بدت آثار هذا الاضطراب في تنظير بعض المصادر.

### 2. 3) استمراريَّةُ العالمِ الرُّوْمَانيِّ المتأخرِ حتى القرْنِ السَّابِعِ

تراكمت التضاربات والتناقضات، فكبحت القدرات الحكومية، وأدّت إلى تقوية الضغوط. وقد تناقض التبدل التنظيمي البطيء مع التموجات البالغة



الخطورة التي كانت تسود مزاج الجماهير. وميكانيكية (تقنية) النظم التي طوّر بها البيزنطيون استجابتهم للتحديات العسكرية الخارجية في العقود المبكرة من القرن السابع، ظلت، من حيثُ المبدأُ، رومانية متأخرة، وقد عدلت بعض الشيء في أصلها في فترة يوستنيان (Justinian) ولكنَّ التوتراتِ كانت تطلُّ برأسها.[21]

ولم تكن دلالة المعنى الوظيفي لدى الضباط والجند أمرًا مستثنى في درجة التبدل البطيئة في النظم الرومانية المتأخرة. وما هو ذو أهمية أكبر أنَّ هرقل حفظ، أو لعلّه أحيا، أجزاء من البنية الإدارية القديمة التي كانت قائمة في بعض الولايات الشرقية مثل فِلَسْطين وسوريَة قبل زوبعة الاحتلال الفارسي. حتى التسميات الوظيفية الخاصة بالولايات استمرت، كما استمرت تسميات وظيفية لبعض الوحدات العسكرية مثل فرسان إيليريا (equites Illyriciani) وسوى ذلك من الوحدات (numeri).[22] واستمر القواد البيزنطيون يحملون الألقاب والرتب العسكرية العائدة إلى الزمن الروماني المتأخّر، والتي تدلّ على درجات الرتب أو مدى القيادات.[23] والأساليب القديمة المتبعة في التجنيد استمرت في بعض أجزاء الإمبراطورية،[24] وقد ظلَّ، على الأقلِّ، جزءٌ واحدٌ من البريد الإمبراطوريِّ القديم عاملاً حتى في تِشْرين الأوّل سنةَ (610 م).[25]

وعلى نحو ما كان عليه الأمر في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة من تركيز القوات المحاربة في المدن وحولها حين يقتضي الأمر، دأبتِ الحكومةُ في العمل به، مع أنه كان ثمة توجه، في سوريَة حتى في أواخر القرن الرابع وفي القرن الخامس، نحو توزيع الكثير من هذه القوات في الشّمَال السوري تجنبًا لاحتكاك محتمل مع سكان المدن.[26] وبدا هذا التوزيع الريفي للقوات في شِمَال سوريَة كأنهُ استباق لما حدث تمامًا لهذه القوات حصرًا لما انسحبت متجهة شِمَالاً إلى الأناضول في أعقاب الفتح الإسلامي لسوريَة وأرض الرافدين البيزنطية.

كان للنقود دورها في التجنيد البيزنطي في ثلاثينيات القرن السابع. لكنْ من غير الواضح إذا ما كان هذا الأساسُ استثنائيًا أم نظاميًا. فالمنسقون الإمبراطوريون كانوا يؤدُّوْن دورهم التقليدي في إمعان النظر بالمجندين وتنظيمهم، وكانوا في أثناء ذلك يلجَؤُونَ إلى نوع من دفع نقدي، أو هبة مالية،

على سبيل الإغراء، لكنْ من المستحيلِ بتُّ الأمر إذا ما كان على هذه الشاكلة عبر الإمبراطورية بأسرها. وكان من اللازم أيضًا أن تُعدّ أموال أو حصص غذائية نوعية لدعم القوات المحاربة في حملاتها.[27] أما المنح الأرضية الحكومية فلم تكن قد آلت بعد إلى أنْ تصبح أداة لتجنيد هذه الجيوش وتمويلها.[28] وما يمكن التأكد منه، فيما يخص استعمل النقود، يعزز فهمنا للعلاقة بين هرقل والعرب، إذ إن ذلك يكمّل ما هناك من معلومات أخرى عن أهمية المال في تجنيد العرب للخدمة في الجيش البيزنطي وضمانة استمرارهم فيه. وتزداد أهمية دفع المال، أو عدم دفعه، للجيوش المتحركة التي جندها هرقل من العرب وسواهم لقتال القبائل العربية القادمة من شبه الجزيرة، وضوحًا مع هذه المعرفة. لقد مر وقت طويل على القضايا المرتبطة بالدفع للجنود وهي تدمر الجيش وموظفي الدولة في بيزنطة. وقد عقدت وأخرت الجهود الآيلة إلى إيجاد دفاع متماسك وفعّال وتطويره للولايات التي كان المسلمونَ يهدّدُونها. كان النظامَ القديم قائمًا، لكنه أُجهد إلى أقصى درجة، وكانت وسائل عاجلة تتخذ في محاولة لجعله يقوم بدوره بعد.

كان ثمة دليل آخر على الاضطراب المالي هو تعيين أمين مالي، واسمه ثيودور تريثوريوس (Theodore Trithourios) لقيادة الجيوش البيزنطية في سوريَة. إن ذلك يؤكد حاجة الحكومة البيزنطية إلى طمأنة جنودها إلى التزامها بدفع منظم وكامل للمبالغ الموعود بها، مع أنه كان ثمة أسبقية تعود إلى القرن السادس. فالدفوعات المالية ما زالت أمرًا حاسمًا من حيثُ تجنيدُ المقاتلينَ والاحتفاظُ بهم. وكانت ثمة مشكلات في ضمان دفعٍ كامل لما ينتظر الجنود الحصول عليه مباشرة وبانتظام.[29] فتعيين (أمين المال) رمى إلى ضمانة رقابةٍ ماليةٍ دقيقةٍ، في وضعٍ كان الخطر ماثلاً في تلافيه، وفي سيل المال غير المتحكم فيه للجنود، ونوعٍ من المسؤولية المالية تعهد هرقل بأن يدفع للجنود مقابل خدماتهم المبالغ كاملة، وأنْ يكونَ ثَمّةَ توزيعٌ منتظمٌ للمُؤَن لهم، وللعلف لخيولهم. ومع أنَّ المصادر التي بين أيدينا لا تنتقد هرقل لتعيينه موظفين ماليين في مناصب لها هذه المسؤولية الكبرى، فإنه مما يدعو إلى التساؤل: هلْ كانَ هؤلاءِ الموظفون الخيار الأنسب



لقيادة العمليات الحربية في وقت كانت فيه الإمبراطورية تجابه أكبر خطر حربي حتى ذلك الوقت؟! وفي أعقاب الانكسار المفجع الذي لقيه البيزنطيون في سوريَة، حتى سنة (640 م) كان يجبُ على أمين المال أن يشرف على إعادة تعيين الضرائب على ما تبقى من البلاد في أيدي البيزنطيين، أمَّا قيامُه بهذا الدَّور عشيَّةَ هذه الحملات، فأمرٌ مشكوكٌ فيه.

استمر تعيين الحصص من الحبوب والزيت والخمر والخل واللحوم للجنود، ومثل ذلك العلف للدواب حتى القرن السابع، لكنَّ قدرها النهائي في الفترة البيزنطية غامض.[30] إن الموظفين البريتوريين (المسؤولين عن الجيش) قد يعينون الحاجات، ويصدرون الأوامر بشأنها، لكنَّ المسؤولية المؤلمة لجمع التعيينات وتوزيعها على الجنود كانت تقع على كاهل الموظفين المحليين والمسؤولين في البلديات. وخلال القرن الرابع وما بعده كثيرًا ما كانت هذه تبدل أو يستعاض منها بالذهب أو بنقود أخرى عبر طريقة عرفت 'بالاستبدال'.[31] ولم يكن المألوف في تحديد التعيين أن يكون ذلك ماليًا على الوجه القطعي. إن التعيين نوعيًا كان مستمرًا[32] على ما تبرزه مصادر مصرية.[33] مع ذلك، ظلَّ هناك دورٌ مستمرٌّ للنقد في تمويل جيوش هرقل المتحركة، بما في ذلك العرب الذين جندوا للمساعدة في الدفاع عن فِلَسْطين وسوريَة البيزنطيتين.[34] فقد كانوا يحتاجون إلى المال ليستعينوا به على تسديد نفقات القيام بدورهم، وهم في الجندية، وفي أثناء مناوراتهم في الأعمال الحربية. إن الصلة الوثيقة بين دفع الضريبة البيزنطية نقدًا أو عينًا هي قضية خلافية. إن كبار الملاكين، من حيثُ دورُهُم موظَّفين محليين ومسؤولين عن القبائل أسهموا، وربما جنوا ربحًا من تبديل الضرائب المقدرة بالذهب إلى مشتريات إجباريَّة من السِّلع اللازمة واقعيًا لمصلحة الجيش البيزنطي.[35] هذه الاستنتاجات من الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس ذات صلة بتبديل الضرائب النقدية بضرائب نوعية في أوائل القرن السابع، بما في ذلك تفهم الجمع والتوزيع بشأن الاستبدال في المخصصات المعيْشِيَّة والشّراء الإجباري. ومن المحتمل أن كبار الملاكين في سوريَة البيزنطية كانوا يفيدون أيضًا

من توزيع دفعات الضرائب المقررة نوعيًا على الجنود عشية الحملات الإسلامية. وقد يعيننا هذا على فهم أصح لدورهم في ترميم أسوار المدن، ودورهم في الدفاع (وإخفاقهم في أن يدافعوا) عن ولايات معينة تجاه الغزوات والحملات. إنَّ التقارير التي تشير إلى تحديد مناطق معينة من الأرضين لأسر معينة للدفاع عنها ليس دليلاً على أن منح هذه الأرضين كان بقصد تزويد فئة معينة من الجنود؛ فحتى هذا الوقت لم تكن قامت 'ممتلكات عسكرية' على نحو ما تم عليه الأمر في الفترة البيزنطية المتوسطة، لكنه، بدلاً من ذلك، كان دليلاً على سريان الضعف في السلطة الحكومية المركزية، و'تخصيص' (خصخصة) المسؤوليات العسكرية والمدنية بسبب ضعف السلطة المركزية للحكومة.[36] لم يكن التخصيص علاجًا شاملاً، كما أنه كان مناقضًا لسياسات حكومية أخرى مثل منع الملكية الخاصة وتحديدها والبيع وإنتاج السلاح.

لم تكن المخصصات العينية قابلة دومًا لأن يُستبدَل بها دفعٌ نقدي. فقد كان أملُ هرقلَ أنْ يدفع بوساطتها مرتبات الجنود الذين كان يجمعهم ويزودهم بحاجاتهم. ففي الثلاثينيّات من القرن السابع والأربعينيّات منه كان الجنود البيزنطيون، وأحلافهم العرب المسيحيون، الذين تجمعوا للدفاع عن سوريَة ينتظرون من كل محلة وموظفيها البلديين (المدنيين) وسكانها أن يزودوهم بالحاجات المعيشية اللازمة، كما انتظر ذلك المسلمون الذين خضع لهم السكان بعيد ذلك.[37] من الطبيعي أن المسلمين الذين يحصلون على هذه الدفعات عينًا في هذا الوقت المبكّر كانوا جنودًا. لم يكن تم أيُّ تبديل في النظام المالي والتوزيعي في السنوات المبكرة من أربعينيات القرن السابع، على ما كان معمولاً به في الفترة الرومانية المتأخرة، بل إن المحاسب الذي كان معروفًا في النظام المالي التقليدي لا يزالُ قائمًا في فِلَسْطين في سنة (631 م)[38] على وجه التقريب، على أنه جزء أصلي من الجيش البيزنطي الروماني المتأخر.[39] لكن النذير بالتبدل والاهتزاز كان إعادة توزيع الأراضي العامة على يد أمين المل فيلاغريوس (Philagrios) قبيل وفاة هرقل سنة (641 م).

إن الدفعات العينية التي يشير إليها البلاذُري، المؤرخ الإسلامي للقرن



التاسع، في كتاب «فتوح البلدان»، والتي كانت متبعة في أيام الفتوحات الإسلامية، استمرت لأنها كانت متحدرة من النظام المالي واللوجستي الروماني المتأخر السابق لضمان استمرار الجيش الروماني (البيزنطي).[40] وعندما تفحص من زاوية الرواية الإسلامية تبدو هذه كأنها أصلية، وأنها كانت تمثل استمرارية للنظم المالية للفترة الرومانية المتأخرة، ومن هنا كان يشار إليها في مصر وسوريَة وفي المناطق السابقة من أرض الرافدين البيزنطية.[41] وكان نظام الضرائب الروماني المتأخر وتوزيع الدفعات العسكرية يعاني أزمة، لكنه لم يكن زال في أربعينيّات القرن السابع. إنَّ هذه الأزمة حصرًا، التي كان النظام القديم يتلقى ضرباتها، قد يكون لها يد في توقفها بعد الانسحاب البيزنطي إلى الأناضول. ولم يكن النظام يعمل جيدًا على ما يبديه صهر سبائك الكنائس والنصب البرونزية في القُسْطَنْطِينية[42] وتظهره التنمرات المصرية.[43] ولا يدل استمرار الدفع العيني وأساليب تجميع الجنود القديمة حصرًا على أن النظام الأقدم للمؤسسات العسكرية والمالية كان فاعلاً، بَلْهَ أنْ يكونَ فعلُهُ رفيقًا!![44] ولم يكن ثمة نظام مفرد متماسك. وعند بدء القرن السابع تزامنت، على نحو ما، تراتيب متنافرة وعاجزة ومتناقضة.

ليس من الواضح المدى الذي عاد إليه تقديم الدفعات عينًا في أوائل القرن السابع. فمن الممكن أن النقص الذي كانت تعانيه الحكومة البيزنطية في النقد والمَعْدِنِ الثمين كان له أثر بيّن في العودة إلى استعمال هذا النظام من الدفع عينًا على نحو أكبر، إذْ إنَّ النظامَ القانونيَّ لضبْطِ الحساب ظلَّ اسميًّا. ولم يكن الموظفون المحليون على استعداد لمعالجة عدد كبير من الجنود البيزنطيين والأحلاف، لم يكن لهم مثيل من قبل، وتزويدهم بالدفع عينًا في منطقة (سوريَة إلى الجنوب من خلقيس؛ أي: قِنَّسْرين وفي فِلَسْطين) حيثُ لم تكن جيوشٌ بيزنطيَّةٌ، كبيرةُ العدد إلى هذا الحجم، أقامَتْ في مثل هذه المواقع في الفترتين الرومانية المتأخرة والبيزنطية المبكرة. ويفسّر النقص في الاستعداد وانعدام التعاون الأزمة (اللوجستية) والتفسُّخ اللذين انتهيا إلى عصيان عسكريٍّ وقلقلة عشيَّةَ معركة اليرموك سنة (636 م) وهذا ما زاد الطين بِلّةً في تحطيم

التماسك بين الجنود البيزنطيين، وانحلالهم المنذِر بالخطر إلى وحداتٍ مقاتلة. وكان للعرب، الذين كانوا يقومون جماعات أحلافًا بيزنطيين، الحق في الحصول على مؤن في وقت متأخر من القرن السادس.[45]

كان الضغط المالي حقيقة واقعة. وتشير المصادر المعاصرة، على وجه التأكيد، إلى العجز المالي، ولا سيَّما فيما يتعلق بالصعوبة التي واجهتها الحكومة في توفير المال لدفع رواتب الجنود، بقطع النظر عن الأصول الإثنية لأولئك الجنود. وكان باستطاعة بيزنطة في الفترة القصيرة أن تجند المقاتلين لمقاومة المسلمين. لكن السكان المدنيين وزعماءهم كانوا مستائين، ولم يكونوا على استعداد لأن يتحملوا العبء المالي لدعم أولئك المقاتلين، ولو للدفاع عن أنفسهم، وعن منطقتهم الخاصَّة بهم.

### 2. 4) الجيشُ: حجمُهُ وفعاليتُهُ للدِّفاعِ عن الحدودِ الشَّرقيَّةِ

كان الجيش في إمبراطورية هرقل، بعد التسريح في سنتي (629 م) و(630 م) بما لا يقبل الشك، أصغر من جيش يوستنيان الذي تصور المؤرخ المعاصر أغاثياس (Agathias) قوته (150.000) مقاتل.[46] السؤال هو: إلى أيِّ درجة كان مجموعُ القوَّات البيزنطية الجاهزة أصغرَ، في بدء العقد الرابع من القرن السابع، مما كان عليه في الفترة المتأخرة من حكم يوستنيان؟ لعل هذا المجموع كان أصغر بنحو الثلث، مع أنَّ من الصَّعب أن يُتَصَوَّرَ أن العدد كان أقل بكثير من ثلثي حجم جيش يوستنيان الأخير بسبب الأبعاد الشاسعة الباقية للإمبراطورية.

من المحتمل أنه كان في جيوش هرقل، عشية الفتوحات الإسلامية، بين (10.000) و(20.000) من القوات المختارة البريتورية الحركية في القُسْطَنْطِينِية وجوارها.[47] وكانت تلك القوات قادرةً على القتال في حملات ميدانية ضارية المعارك، وكانت هي القوات الأفضل التي يمكن إرسالها ضد المسلمين أو ضد أي مهاجم آخر. وثمة فِرَقٌ متباينة، لكنها عادةً دون الأولى من حيثُ الاعتمادُ عليها، (25.000) أكثرهم من الجنود المتوسطي القدرة في مصر؛[48] وبين (5000) و(10.000) في إفريقيَّة؛ وبين (5000) و(10.000) فيما تبقى من إيطاليا البيزنطية؛ وفي البلقان



المحصنة تحت إمرة القائد العسكري ثراقيام (Thraciam)) رَقْم افتراضي هو (20.000) من المحتمل أن يكون منهم (8.000) إلى (10.000) أو أقل من ذلك ممن لم يتموا التدريب، كانوا جاهزين للقيام بحملات في أمكنة أخرى، و(5.000) للأسطول وقيادات الجزر؛ وتحت إمرة القائد العسكري لإرمينية. كان من المفروض وجود (12.000) لكن كان يمكن الاستغناء عن واجبات بين خمسة آلافٍ وثمانية آلاف، أو أقل، في إرمينية وبقية القفقاز (القوقاس). وكان مفروضًا أن يكون تحت إمرة القائد العسكري للشرق (magister militum per Orientem) الذي كان وضعه منذرًا بالخطر، (20.000) وقد ظل منهم بين (1.000) و(2.000) في إزوريا (Isauria) وقيليقيا للقيام بالخدمة، و(8.000) في أرض الرافدين العليا، أساسًا لمجابهة الفرس، وأيضًا كي يدفعوا أي غزوة قد يقوم بها البدو، و(10.000) احتُفِظ بهم في سوريَة، ولا سيَّما في الشَّمَال. وقد ظل من هؤلاء (5.000) أو أقل، بمنْ فيهم حرسٌ مستأجرون من الأصدقاء، لكنَّهم غيرُ نظاميين، في الولايات الفِلَسْطينية الثلاث والولاية العربية. يبدو أن القيادة العسكرية كانت قائمةً عشيَّةَ الفتوحات الإسلامية، وعلى التخصيص كان القائد العسكري للشرق هو الذي كان يتولى قيادة القوات البيزنطية في سوريَة وأرض الرافدين. إضافةً إلى هذه القوات النظامية، ولو أن بعضها كان يقوم أصلاً بأعمال الحراسة العادية، كان هناك عرب أصدقاء عددهم يساوي عدد القوات البيزنطية النظامية في سوريَة وأرض الرافدين وفِلَسْطين، أو قد يصل إلى ضعفيها أو ثلاثة أضعافها، ولو أن ذلك كان يحدث في حملة واحدة قصيرة وخاصة فقط. هذه كلها لا تزيد على كونها تقديرات، وليست أرقامًا دقيقة.

إن الأرقام التي تدل على الفرق البيزنطية غير العربية في الإمبراطورية البيزنطية زُهَاء سنة (630 م) يمكن أن تصل إلى ما يتراوحُ بين (113.000) و(130.000) في حدِّه الأعلى، وبين أرقام قد تتدنى إلى (98.000) أو أقل، في حدِّه الأدنى. ومن الممكن أن يكون خمسون ألفًا من هؤلاء، أو أقلَّ، جاهزين لأيِّ نوعٍ من أنواع الانتشار تجاه العرب. وقد تنزل حماية الخطوط (اللوجستية) والواجبات المتعلقة بالحامية بالحد الأقصى للقوة الممكنة للنظاميين إلى

(20.000) أو (30.000) إضافةً إلى الفرق العربية الصديقة. على كل، فمن المحتمل أن الأزمة المالية التي اندلعت في أعقاب الحروب الفارسية أدّت إلى تقليص أحدّ في العدد الإجمالي للمقاتلين، لكنَّ هذا أمرٌ تخميني إلى درجة كبيرة. وقد تباينت هذه القوات في النوع. وفي كل حال، لم تكن تلك المجموعاتُ كافية لفرض الأمن الداخلي والدفاع عن حدود الإمبراطورية بعد سنة (630 م) لكنَّ القضايا اللوجستية لدعم هذه الأعداد غيرِ الكافية من الجنود بلغَتْ من الصّعوبة الغايةَ.

إن الصلة بين هذه الأرقام الحدودية والدفاع أمام هجوم المسلمين المحتمل تقتضي فحصًا أدق. ومن المحتمل أن تجمُّعاتٍ صغيرةً فقط من الوحدات النظامية كانت تقيم في نقاط مبعثرة في الولايات الفِلَسْطينية الثلاث؛ فِلَسْطين الأولى، وفِلَسْطين الثانية، وفِلَسْطين الثالثة، والولاية العربية. ومن المحتمل أن أكبر تجمع كان جاهزًا وُجِدَ في قَيْسَارِيَّة وقوامه، تقديرًا، مئتان أو ثلاثمئة من القوات المتحركة. وكانت الحاميات الصغيرة مكوّنةً من قوات بيزنطية، في الحقيقة، تستوعب الكثيرَ من القوّات الوطنيّة، وكان الكثيرون منهم يمارسون أعمالاً أخرى، وهي تتكون من مئة إلى مئتين، وتقوم على جانبي البحر الميت ونهر الأردن. وكانت نوعية هذه القوات متوسطة، لكنها لم تصل مستوى كبيرًا من السوء. بعضها كان يقوم، ولو بين الفينة والفينة، بالتدريب العسكري. لقد كان التنسيق بين هذه الحاميات المتفرقة صعبًا، إذا ما بَدَا تهديد خارجي جدي. ولم يكن لدى قوات الحامية التجربةَ المناسبة للقتال المكشوف في مناورة حربية أو عند الالتحام في معركة. فقد كانت، في أصلح حالاتها، صالحة للقيام بواجب الحراسة السلمية الخفيفة، أو للدفاع عن أمكنة ثابتة متينة التحصين. وكان ثمة مدن معينة قد تقوم في كل منها حامية من حجم ما عرف باسم 'نومروس' التي كان يبلغ مجموعها بين مئة وخمسمئة جندي.

الحاميات الأكبر لم تكن في أي من الولايات الفِلَسْطينية الثلاث، بل في شِمَالي سوريّة وأرض الرافدين العليا، في مجابهة أخطار تقليدية هي أكبر أهميةً للأمن، أي: الفرس. فقد كانت ثمة حامية أضخم في أنْطَاكِيَة وجوارها



يحتمل أن تبلغ (1.500) أو أقل، وحامية أصغر من ذلك بكثير لعلها كانت في حدود بضع مئات، لكنها مهمة، في خلقيس/قِنَّسْرِيْن. وكانت أعداد القوات التي تسهر على حدود أرض الرافدين مع فارس تختلف بين الفينة والفينة. ولكنْ بعد التسريح في سنة (629 م) أي: في زمن السلم، لعلها كانت تضمّ بضعة آلاف من القوات الجيدة، يضاف إليها آلاف من القوات. وثَمَّةَ إمكانية أن يكونَ العددُ ألفًا آخرَ أو أكثرَ، كانت تقيم إقامة دائمة في نقاط مفتاحية، بما في ذلك مَلَطْيَة (ميليتين) قرب حدود إرمينية أو على طول الحدود. إن القوة الحقيقية لهذه الوحدات ليست مؤكدة، لكنه من المحتمل أن تحتفظ الحكومة هناك بقوة لضمان اتباع شروط السلم للمعاهدة السلمية مع فارس واتفاق أرايسّوس (Arabissos) المعقود سنة (629 م). لم يكن مصدر الخطر الحكومة الفارسية فحسب، التي أنهكتها الخلافات الداخلية، ولكنْ أيضًا القوّات الفارسيّة المنشقّة وغير النظاميين وقطّاع الطرق والبدو. حتى الضغوط المالية التي كانت الحكومة البيزنطية تتعرض لها، والتأكد من أن فارس عادت غيرَ قادرةٍ على أن تكون خطرًا كبيرًا لم تسمح لهرقل أن يعري تلك المنطقة من القوات بأجمعها. لكن بعضها كان موزعًا في كلينكوم وأخرى في نَصِيْبين (Nisibis) ودَارًا وإديسا / الرُّهَاء، أورفا، وزُغْما (Zeugma) وهيرابوليس / منبج، وبَرهويَة / حلب وكانت الفرق فيها ذات أعداد متواضعة من ذات المئة أو ما يقرب من ذلك، وكان يقوم إلى جانبها، في بعض المواقع، مضارب للجماعات المسيحية صديقة العرب (وهم عادةً، ولو اسميًا، من القائلين بالطبيعة الواحدة).

لربما ساوت الحاميات المحلية العربية، عددًا، أو تجاوزت، عدد الجنود البيزنطيين النظاميين. ويبدو أنه كان، على النحو نفسه، وحداتٌ ضئيلة (من مئة جندي أو أكثر) أقيمت في نقاط استراتيجية عبر الحد القانوني داخل فارس، على الأقل في هِيْت وتَكْرِيْت على الجزء الأعلى من نهري الفرات ودجلة على التوالي. أما الدّفاع عن المناطق شرقي الأردن ومرتفعات الجولان فقد كان أمرًا آخر. فيبدو أن الجيش البيزنطي قد عهد إلى الشيوخ ذوي العلاقات الودية تولي الإشراف على حماية الأمن وحراسة المنافذ عبر المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية المجاورة. وكان عدد

الجنود الموجودين في مصر نظريًا (25.000) لكنَّ الجنودَ الحركيين والصالحين للقتل منهم لم يكن عدَدُهم يعدو بضعة آلاف، وكانوا منتشرين في رقعة واسعة حيثُ يصعب جمعهم لإرسالهم إلى سوريَة/فِلَسْطين. وكانوا، إضافةً إلى ذلك، من نوعيَّة ضعيفة، وعادةً يسدّون فراغًا في حفظ الأمن الداخلي في مصر وسيرانيكا/بَرْقَة. والجنود الذين كانوا أصعب منالاً لإرسالهم إلى ميادين القتل كانوا من القوات التي أقيمت إلى الغرب من مصر في نوميديا وإكْسَرخيَّة إفريقيّة التي كانت معرضة لخطر الغزوات البربرية المنذرة بالخطر. وعلى النحو نفسه، فإن الحكومة البيزنطية لم تكن تدافع عن البلقان دفاعًا قويًا ضد الأفار والصقالبة. ومن ثَمَّ، فقد كانت تستطيعُ أنْ ترسلَ، ولو مؤقتًا، قواتٍ من ثراقيا بإمرة قائدها العسكري من هناك إلى سوريَة أو مصر، ولكنْ تحتَ خطر تعريض تلك المناطق وسكانها للدَّمار.

كان أفضل القوات البيزنطية تلك المقيمة في القُسْطَنْطِينِية، وكان موقعها يبعد ستمئة وألف كيلومترًا من المناطق التي طالها التوغل الإسلامي الأول.[49] وكان من الممكن أن تنقل هذه إلى سوريَة، لكنَّ ذلك كان مكلفًا، كما كان يستغرقُ وقتًا طويلاً، إذ إنَّ الأمرَ يحتاج إلى بضعة شهور على الأقل كي يتم نقل هذا الكمّ منهم إلى هناك. وأكثر القوات البيزنطية التي كانت مقيمة في سوريَة وقتها كانت متمركزة في الشّمَال على بعد يتراوح بين ثمانيمئة ومئتين وألف كيلومتر من مناطق المجابهات الكبرى الأولى. وقد كانت أيّ نقلة تتأثر بعوامل الوقت والتنظيم والملل والتخطيط اللوجستي والخشية من إيذاء السكان المحليين. وإذا استثنيت الحاجات الطارئة ذات المدى القصير، فإن القوات، باستثناء الفرسان، لم تكن تستطيع أن تقطع أكثر من (25) إلى (30) كيلومترًا في اليوم، ولكن حتى هذه السرعة حصرًا كان يدور حولها مشكلات تتعلق بنقل بعض عدتهم ومؤنهم. إضافةً إلى ذلك، كانت القوات وما معها من ركائب، بعد هذه الرحلة الطويلة والمضنية، تحتاج إلى بعض الراحة والتكيّف مع الوضع قبل أن تصبحَ جاهزةً حقًا للأعمال الحربية والقتال على نحو جدّي. وتكمن الحقيقة الرئيسة في عجز الحكومة عن تجميع كل قواتها أو أكثرها الصالحة للقتال والمتيسرة للحملات المكشوفة، أو تجنيد جيوش مقاتلة تزيد قليلاً على (20.000) جندي بِمَنْ فيهم المشاةُ والفرسان.



كان تجنيد جنود إضافيين يقتضي وقتًا ومالاً والكثير من التدريب، وقد يؤدّي إلى تمزيق البنية الاجتماعية والاقتصادية الريفية التي كانت قائمة. كان من الأيسر تجميع فرق طارئة من صفوف القبائل العربية الصديقة، وهم الذين كانوا يقيمون في وضع أسهل، والذين كانوا أدرى بالأرضين وبفنون القتال لدى المهاجمين المسلمين، ولو لدرجة ما، من تجنيد قوات من العنصرين اليوناني واللاتيني.[50] قد يبلغ عدد القوات العربية الصديقة بين ضعفَي حجم المتيسِّر من القوّات النظاميَّة وقوّات الحاميات 'البيزنطيَّة'؛ (اليونانيَّة والأرمنيَّة واللاتينيَّة) أصلاً وخمسة أضعافه؛ وقد كان المجندون الجرمانيون المتيسر الحصول عليهم قلةً في ذلك الوقت. وكان ممكنًا تجنيدُ الأرمن، وقد تم ذلك، لكنَّ الاعتمادَ عليهم إلى درجة كبيرة كان مجازفةً، مع أنهم كانوا يشتركون مع الإمبراطور هرقل برابطة التراث الأرمني.

### 5.2) الصلة بالحرب الفارسية الحديثة

لعل النظام التقليدي المتبع في توزيع الأعطية النوعية أضاف صعوبةً للقوات البيزنطية في تعقب المسلمين في الساحات المكشوفة. وبسبب النظام اللوجستي الذي كان البيزنطيون يسيرون عليه، فقد تضررت حركتهم. أما المشكلات اللوجستية التي عرفت في سوريَة، في أربعينيَّات القرن السابع، فقد اختلفَتْ عن تلك التي بدت في قتال الفرس في سنتي (613 م) و(614 م).[51] ومثل ذلك، فقد تباينت قضية القيادة والسيطرة والمواصلات في سنتي (613 م) و(614 م) إلى درجة كبيرة مع التي تعود إلى تلك المرتبطة بأربعينيات القرن السابع: فقد اختلف تمامًا دور حمص ودمشق، كقاعدتين لجيوش هرقل في تنظيم المقاومة في أربعينيَّات القرن السابع تجاه المسلمين القادمين من شبه الجزيرة العربية. ويبدو أنَّ الإدارةَ المدنيَّةَ كانت قائمة على نحو ما في أربعينيات القرن السابع، لكنْ لم يكن يمكنها أن تعالج إصدار الأوامر إلى الموظفين المحليين المتمردين للقيام بنقل عددٍ كبير من الرجال والحيوانات وصيانته في تحركها على الطريق الرئيس من الشّمَال، من الأناضول ومِلِتينية / مَلَطْيَة إلى حمص ودمشق، وإلى مواضع إلى الجنوب حيثُ نَشِبَ القتال الحاسم.[52]

وممـا كـان ذا دلالـة بشـأن صعوبات الـتموين والـتمويل العسكري رفضُ السـلطات البيزنطـية أن تدفـعَ مـا يجـبُ عليها إلى كلا الفريقين: متعهدي نقل القـوات القتالـية مـن تِسـيفون / قطسـيفون العاصـمة الفارسية، بعد الانتصار البـيزنطي الكـبير سـنة (628 م) أو بعدهـا، والعـرب الأحـلاف المقيمين على مقـربة مـن غـزة بعـد ذلك بسنوات. وقد تمكن متعهدو النقل من التوصل إلى نصيحة وعـون مـن القديـس أنسطاسـيوس الفارسي حصرًا وروحه. ومن ثمَّ، فقـد دبَّـروا أمـر الوصـول إلى القُسْـطَنْطِينِية حيـثُ تسلموا ما كان لهم من مل برمَّـته. وهـذا الـبديل لم يـتوافر للمعاصـرين من العرب، حلفاء بيزنطة، الذين جوبهـوا بالـرفض عـلى يـد خصـيٍّ بـيزنطي مجهـول لم يقـبل دفع المل العادي الخـاص بهـم. وفي كـل من هاتين الحالتين كان موظفو الحكومة يحاولون تخفيف ضـائقة الحكومـة المالـية برفضـهم دفـع الأجـور العسـكرية. لكـنَّ الفـرقَ بين الحالـتين هـو أنَّ الدفـع لمـتعهدي النقل في تِسيفون كان يعني دفع أجور خدمات قـام بهـا هـؤلاء المـتعهدون، في حين أنَّ رواتبَ العرب المقيمين قربَ غزة كانت إمَّا لخدمات مستقبلية، أو سابقة.(53)

في أربعينيَّات القـرن السَّابع كان الجنودُ البيزنطيونَ يحصلونَ على الأسلحة بالشِّـراء الخـاصِّ، أو مـن ضبَّاطهم، أو ربَّما من دُوْر صناعة الأسلحة العامَّة التي كانـت قائمـةً. فالصـناعة في دور صـناعة الأسـلحة التابعة للدولة، كانت جزءًا أساسًـا مـن البنـية العسكرية والمالـية في الدولـة الرومانية المتأخرة (تحت إمرة مدبـر رسمي) وكانت قائمةً في السنوات المبكرة من القرن السابع في بيثينيا وفي سلوقية في شِـمَال سـوريَة. لكـنْ لـيسَ من الواضح إذا ما كان أيٌّ منها، أو من المصـانع الـتابعة لهـا، يعمـلُ يومَها، أو في أربعينيَّات القرن السابع، في أيِّ مكان في سـوريَة.(54) ولا يذكـر أي مـن المصادر خبرًا موثوقًا به مؤكدًا لمصانع أقدم في دمشـق (أنشـئت أصلاً لإعداد أسلحة للاستعمل ضد العرب)(55) أو في إديسا أو حمـص(56) في القـرن السَّـابع. لقـد كانـت مؤتة، الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن، مكانًـا مهمًا لإنتاج سيوف ممتازة في العصور الوسطى؛ وفي حقيقة الأمر، كـان هـذا المصـدر العسكري الـثمين، إضـافةً إلى وقوعه على الطريق الرئيسة المتجهة شِـمَالاً مـن شـبه الجزيـرة العربـيَّة والـبحر الأحمر، باعثًا على الحملة



الإسـلاميَّة الأولى إلـيه والمعـركة التي وقعت هناك.(57) ونحاس البتراء وحديدها، (أو عـلى الأصـح في فنان) لم يكونا يبعدان كثيرًا.(58) ومع ذلك، فإنَّ تيسُّرَ إنتاج الأسـلحة في بعـض تلـك المـدن لم يقـم بـأي دور واضـح في تقدير البيزنطيين والمسلمين لاختيار مواضع الهجوم أو الدفاع.

لا شـك في أن القدس لقيت الأمرين على أيدي الفرس لما دمروها سنة (614 م). إن الدلـيل عـلى الـتدمير المادي في مناطق أخرى في فِلَسْطين وسوريَة عـلى أيدي الفرس هو أقل تدوينًـا إلى درجة كبرى. وتؤكد الفسيفساء المسيحية الـتي تعـود إلى الثلاثينـيات مـن القـرن السـابع في الأردن ولبـنان دعـوى أنَّ الفـرسَ، مـع كونهم زرادشتيين، لم يقوموا بتهديم الكنائس على نحو منتظم، ولم يحولـوا دون العـبادة المسيحية في أي مـن الأمكـنة الـتي سيطروا علـيها. ومن المحتمل أن الـتدمير الأولـي الـذي قـام بـه الفرس في فِلَسْطين وفي سوريَة كان مـتفاوتًا في الدرجـة مقارنـة بالـتدمير المعاصـر الذي أقدموا عليه قصدًا في آسيا الصـغرى. وقـد اتـاح التسـامح الـذي أبـداه الفرس نحو الطوائف المسيحية في بعـض أنحـاء مـن سـوريَة وبـلاد العـرب لـبُعْدٍ آخـرَ دينيٍّ الاستمرارَ في القرن السَّـابع المبكِّر. لم يكـن ثمَّةَ تدميرٌ عامٌّ. على أنَّ هذا لا يقلل الصعاب التي ألمت بـبعض المسـيحيين، أو بكثيرين منهم، خلال الاحتلال الفارسي. ولعل السياسة الفارسـية كانـت تقـوم عـلى إتـلاف الأشـجار وتدمـير المباني، إذْ كانوا يلقَوْن مجابهـةً عسـكريَّةً أو مقاومـةً مدنيَّةً على نحو ما حدث في أذرعَات (درعا السُّوريَّة الحديـثة) وأن يتركـوا الأمكـنة الـتي لم يلقَـوْا فـيها مقاومـةً عـلى حالها. لم يدمر الفـرس كـل شـيء؛ فقـد مـنحوا سـلامًـا لعـدد مـن المدن والمناطق في سوريَة؛ باستثناء القدس التي كان تدميرها أمرًا استثنائيـًا.(59)

لم تكـن مـدة الاحـتلال الفارسي في مصلحة ما كان تابعًا للرومان المتأخرين مـن ولايـات غـرب آسـيا ومصر، اقتصاديًا وسياسيًا. ومع أن الاحتلال الفارسي المؤقَّـت أدى إلى تمـزيق أوصـل الحـياة الاقتصـادية والسياسية والاجتماعية، فإنَّ آثـارَه البعيدةَ المدى كانت متفاوتةً في الدَّرجةِ، ولم تكن، عمومًا، مدمَّرة. فالأحوال المادية في الولايـات كانـت ضعيفة، لكنْ لم تكن في حالة بائسة عشيَّةَ الحملات الإسـلاميَّة. وكانـت المسيرةَ الدقيقةَ الصَّعْبَة للانتعاش المحلي قد بدأت، لكنْ لم

يكن ممكنًا إعادةُ الوضع السابق في الاقتصاد والمجتمع والثقافة إلى ما كانَ عليه.

مرَّت الإمبراطوريةُ البيزنطيَّةُ بتجربَة قاصمةِ الظَّهْرَ في أثناءَ الحملات الفارسيَّة الطَّويلة الأمد، وما كان من المنتظر أن يتم إنعاش تام طبيعي أو اقتصادي في أعقاب التوصل إلى الصلح سنة (628 م) وما تلاه من الانسحاب الفارسي. مع ذلك، فمن الصُّعُوبة أن يُتعرَّف المدى الحقيقي للنزف الذي نال الإمبراطورية بسبب ذلك الجهاد. فالتهديد الأفاري الصقلي تطوَّر، على نحوٍ مُهمٍّ، في البلقان، وخسرت الإمبراطوريَّةُ القليلَ الذي كانت تملكه في شاطئ البَحر المتوسط الإسباني، وكانت قواتها العسكرية موزعة على نحو ضعيف جدًا في إفريقيَّة، حيثُ كان ثمة خطر جدي ماثل من البربر وسواهم من القبائل، ولم تكنْ ثمَّةَ مواردُ كافيةٌ لاستعادة الكثير من إيطاليا التي احتلها اللومبارديون خلال ثلاثة أرباع القرن التي سبقت ذلك. مع هذا، لم يبدُ أنَّ النظم الإمبراطورية كانت سائرة في سبيل الانحلال أمر لا يمكن تلافيه؛ فقد كانت تعمل ببعض السهولة. والإمبراطورية لم تكن في وضعٍ انهياري لحظةَ بدء الغزوات والحملات الإسلامية. مع ذلك، فقد كانت بعيدةً عن الاستقرار ماليًا ونفسيًا وعسكريًا، وكانت في حالة تفجّر قارّة. والانحطاط والتفكك لم يكونا في حكم المحل، ولكنْ كان ثمَّةَ احتمالٌ لأن تتخذ الأمور أيًا من الاتجاهين؛ نحوَ الأحسنِ أو الأسوأ. وقد أربكت الأحداث مجتمعًا وحكومةً لم يكونا راغبين في التبديل، وكانا يرغبان في استدامة النّظم والعقلية الموروثة من الفترة الرُّومانيَّة المتأخِّرة، والوضع الدَّوْلي الرَّاهن إلى المستقبل غيرِ المنظور.



## 3) المصاعب التي أحاطَتْ باستنباطِ سُبُلِ الدِّفَاعِ عَنْ سُوريَةَ

### 1.3) سوابقُ مزعجةٌ

«إن الرومان بأجمعهم، بمن فيهم الضباط والجنود، كانوا أبعد ما يكون عن التفكير بمواجهة العدو أو الوقوف في طريقه لمنعه من العبور، بل ظنوا أن حشد الرجل في معاقلهم، كلّ على قدر طاقته، كان كافيًا للحفاظ على سوريَة وإنقاذ أنفسهم».[1] بهذه العبارة وصف المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) كيفية تجنب القواد والجنود البيزنطيين في سوريَة وأرض الرافدين العليا عمدًا المقاومة المفتوحة للفرس في حملتهم سنة (540 م) وبدلاً من ذلك اعتمدوا الأمن الذي تؤدّيه أسوار المدن. وقد تكرر هذا التصرف الحربي البيزنطي في القرن السادس في العمليات التي قام بها القواد والضباط البيزنطيون في المنطقة نفسها التي واجهت المهاجمين المسلمين في القرن السابع، بل إن التصرف الأول كان في واقع الحال نبوءةً للتصرف الثاني.

بدت تضاريس سوريَة حصرًا مختلفةً عن السهوب الخالية في الشرق إلى وادي العاصي ذي الأرض المروية والمزدحمة بالسكان، ومثلها ساحل البحر المتوسط المزدحم بالسكان على النحو نفسه. وقد دارت أبعادها من أطراف سَيْنَاء وشبه الجزيرة العربية جنوبًا، إلى الصحراء شرقًا، وإلى نهر الفرات وتلال طوروس إلى الشّمَال الشرقي والشّمَال الغربي (الخريطة رَقْم 2).[2] وقد خبرت سوريَة البيزنطية هجمات فارسية مرعبة في قوتها في كلا القرنين الرابع والسادس.[3]

وعلى نحو ما قامت به الحاميات المحلية، تفاوض عددٌ من المدن في سوريَة

وأرض الرافدين العليا مع الفرس عوضًا عن المقاومة حتى النهاية. وقد كانت هذه سابقة مهمة أخرى للقيام بعمل مماثل تم على أيدي القيادات المدنية في كثرة من المراكز في فِلَسْطين وسوريَة وأرض الرافدين البيزنطية في مقابلة الهجمات الإسلامية. كانَتْ ثَمَّةَ نزعةٌ قائمةٌ نحو المقاومة السلمية تمثلت بطلب السَّلامة ضمن المدن المسوَّرة، بدل محاولة إنشاء خط دفاع منيع في الميدان، وبشراء شروط أمينة بدل القيام بمقاومة عنيفة مسلحة، ولو أنها غير مضمونة النتيجة. والمدن التي تمت على أيديها مقاومة مسلحة حتى النهاية، في القرن السادس وخلال الحملات الإسلامية، هي استثناءات. ولم يكن ميل السوريين وسكان أرض الرافدين إلى تجنب المقاومة العنيفة أمرًا فريدًا. لقد كان جزءًا من الأنموذج العادي خلال الإمبراطورية الرومانية المتأخرة.(4)

مرّ على الحكومة الإمبراطورية مدة طويلة منعت فيها الأفرادَ من امتلاك الأسلحة.(5) فإذا أخذنا هذه القضية بالحُسبان، تصبح محاولةُ أيِّ فرد أن يتمرَّن على استعمل الأسلحة، أو أنْ يقلب السياسة المعمول بها بين عشيَّة وضحاها، أمرًا أصعبَ منالاً. كان القصد من هذا المنع الحيلولةَ دون أعمال العنف، وظلم أصحابِ النفوذِ الفئاتِ الريفيَّةَ، لكنَّه كان عاملاً مُهمًّا في إضعاف إنتاج الأسلحة وإهمالها، بَلْهَ امتلاكِهَا! وهذا ما يمكن أن يكون عونًا في المقاومة ضد غازٍ غريبٍ. لعلّ هذا المنع لم يراعَ مراعاة عامَّة، لكنَّهُ كان عاملاً مانعًا آخرَ للمقاوَمة المحليَّة. ومن المؤكَّد أنه كان مما يعيق التخطيط البعيد المدى لاستعمل المقاومة المحلية المسلحة للمهاجمين. فمن العسيرِ تنظيمُ المقاومة حيثُ لم يكنْ ثَمَّةَ سابقةٌ للتنظيم والتخطيط لها.

لقد تعهّد أفراد محليّون في سوريَة البيزنطيّة بأمر إصلاح أسوار بعض المدن والإشراف عليها، على ما نعرفه من عدد محدود من الإشارات النقشية التي تعود إلى القرن السابع.(6) ولعل هذا كان استمرارًا لأمر مثل ذلك في القرن السادس.(7) وفي واقع الحال، فإنَّ مؤلِّف [حول الشؤون القتالية] De rebus bellici، من أهل القرن الرابع أوصى بأن يطلب إلى مالكي الأراضي المحليين في المناطق الحدودية أن يتولوا دفع مخصصات مراقبي الحصون.(8) ويضع



البلاذري بين أيدينا ما يؤيد هذه الصيغة في إشارته إلى أخوين، من المحتمل أنهما كانا من مالكي الأراضي الذين كانوا يتولون مسؤوليات أُخرى أيضًا، مثل تعيين الضرائب وجمعها، عهد إليهما بالدفاع عن بَالِس (بربالِيسوس القديمة) وقِنَّسْرِيْن.(9) ومن الواضح أن شؤون الدفاع عن سوريَة لم تكن من المهمات التي تشرف عليها السلطات العامة حصرًا. وعلى نحو ما كان عليه الحال في أنحاء أخرى من الإمبراطورية، كان أصحاب الأرضين يشرفون، سواءٌ على نحو قانوني أم على خلاف ذلك، على جنود خصوصيين ظاهريًّا لردع اللصوصية أو، بسهولة ببساطة، لفرض سلطانهم الذاتي. هؤلاء الجنود قد يكونون مسلحين تسليحًا ضعيفًا، لكنْ كان من الممكن أن يُستخدموا جماعة من الرجل جاهزة لأن ينتقى منهم من يمكن أن يقاوم المسلمين. من الجوهريِّ أنْ نتذكَّر أنَّ الحكومةَ البيزنطيَّة كانت تحاول دومًا أن تحول دون الأفراد وحمل السلاح. هذه السياسات لم تكن متساوقة، لكنَّ أحدًا لم يحاول التخلص من عدم التساوق هذا. في حينٍ يمكنُ عدُّ هذا الأمر مبالغةً، أو، في واقع الأمر، خطأ، وهو تصور قيام خطَّة تعدِّ نقاط الدفاع البيزنطية المحليّة، في القرن السابع، 'خصوصية النوعية' سواءً في المشرق أم في سوى ذلك من الأمكنة، فإنَّ الحالات المعروفة هي ما يذكرنا أن بعض الأفراد المحليين قد عمدوا إلى إمكاناتهم الخاصة للدفاع عن أنفسهم وعن أتباعهم من السكان.(10) أما العوامل والنتائج الاجتماعية والاقتصادية فهي أقل وضوحًا. فلم يكن ثمة في فِلَسْطين أو سوريَة تقليد يقضي بتسليح السكان في المدن أو في الريف تسليحًا عامًّا للدفاع عن النفس؛ لم يكن لدى السكان تجربَة في حمل السلاح. إضافةً إلى ذلك، لم يكن السكان المحليون، بمن فيهم صفوتهم، يحسبون أن العرب سيكونونَ عنصرَ إزعاج كبيرًا، لذا، لم يهيئ الموظَّفون المحليون المدنيين المحليين لمقاومة أيٍّ من الهجمات.(11)

لم يكن بإمكان الإمبراطوريَّةَ البيزنطيَّةَ في أيام هرقلَ أنْ تحتفظَ بشبكةِ الدِّفاع الكثيفة التي كانت روما تعتمدها من قبل. وكانت خطة التنازل عن الحدود القديمة قطعت شوطًا بعيدًا في القرن السَّادس. ولم تكن ثَمَّةَ قوًى كافيةٌ لتزويد أيٍّ من

الحدود بحامياتٍ جوهريَّةٍ عددًا، باستثناء الحدِّ مع فارس في أرض الرافدين.[12]

لقد كانت ثمة أسباب دينية تحتم إيلاء فِلَسْطين اهتمامًا جديًّا للدفاع عنها، بما في ذلك حماية الأمكنة المقدسة والحجاج، مع أنَّ مالية الإمبراطورية وقواها البشرية قد تكابدُ الكثيرَ من الضَّغْط. فاختلالَ الأمن، واستيلاء أجنبيٍّ، أو أيُّ ضرر لن يمسَّ الاستراتيجيَّةَ المسبقة والتطلعاتِ الماليَّةَ والأمنية فحسبُ، بل يمسُّ، من ناحيةٍ مباشَرة أيضًا، هيبةَ الحكومة، ومقدرتها على الدفاع عن الإيمان والأرض اللتين كانتا ذاتَ أهمية للإيمان والمؤمنين.

### 3. 2) اعتمادُ بيزنطةَ على العَوْنِ الحربيِّ العربيِّ

لم يكن يسيرًا على الحكومة تجريدُ الحدود الأخرى المعرضة للخطر من الجنود لأخذهم للدفاع عن سوريَة وفِلَسْطين وأرض الرافدين. وكانت المرونة في تحديد مواقع الجنود ونقلهم محدودة، باستثناء القوى المختارة الجاهزة للسير الموجودة في القُسْطَنْطِينية أو جوارها، والقوات المحتمل جمعها من العرب الأصدقاء. ويبدو أن القواد البيزنطيين تعلموا، من الإخفاق الذي أصاب نيكيتاس (Niketas) ابن عم هرقل في سنتي (613-614 م) درسًا في المصاعب التي تعترض نقل الفرق الاحتياطية، وتنظيمها، وتسيير المؤن لها من مصرَ إلى فِلَسْطين وسوريَة، ومن ثَمَّ، فقد أثر ذلك في تقديرهم للتوفيق بين الدفاع عن مصر وعن فِلَسْطين في العقد الرابع من القرن السابع.[13] ومن المحتمل أن يكون عرب متنوعون لاحظوا أيضًا هذا، وتوصَّلوا إلى استنتاجات خاصَّة تتعلق بتلك الخيارات.

كانت أيُّ محاولةٍ لتدريب السكان المدنيين في تلك الولايات المهددة وتسليحهم قضية معقدة وبطيئة، ولم يكن بإمكانها أن تقابل التهديداتِ الخارجيَّةَ المفاجئةَ والعنيفة. ويبدو أن الحكومة لم تفكر بتجنيدٍ مكثف للسكان المدنيين في الولايات التي تأثرت بذلك، إذ لعلها شكت في فعاليتها، أو في ما يجب عليها فعله في مجال الأمن الداخلي، إذا ما كانت ممكنة. ولعل المدى الذي يمكن للقوى أن تتكيف فيه مع أحوال الحملة في فِلَسْطين كان قضيةً أخرى أيضًا. فالجليل كان نوعًا خاصًا، بينما كانت المناطقُ شرقي البحر الميت تحوي تحدياتٍ من نوع آخرَ في المُناخ والأرض.



إن أفضل مصادر القوى العسكريَّةِ للدفاع عن سوريَة وفِلَسْطين وميزوبوتاميا البيزنطية في القرن السابع المبكِّر كانت: 1) البدو العرب المقيمين على أطراف الإمبراطورية، ولو أن كثيرين من العرب استقروا في المدن والقرى أيضًا. 2) أنسباء هرقل، الأرمن. فالجيش البيزنطي لم يكن كبير الحجم، وكان يفتقر إلى النظام، وصلابة العود، والدُّرْبَة على القتال، والحضور. وأهمُّ من ذلك أن القوى المتحركة الضاربة فيه كانت محدودة العدد، ويكادُ يمكنُهُ أن يوفِّر أكثر من (20.000) من هؤلاء للحملات الشرقية الرئيسة. والذي كان، مثل ذلك، غير مؤكد، عدد المجنَّدين الجدد. والمواقع البيزنطية في إفريقيَّة وإيطاليا كانت معرضة للخطر الدائم، ومن ثَمَّ، فإنها لم تكن مجالاً للحصول على جنود منها. وفي الواقع كانت تزاحم الحدود الشرقية في حاجتها إلى الجنود. فقد كانت هي نفسُها تحتاج إلى رديف. باختصار، فلم يكن ثَمَّةَ مجالٌ، في البحث عن قوى عسكرية لسوريَة وفِلَسْطين وأرض الرافدين سوى إرمينيَةَ القريبةِ التي يمكنُ الاعتمادُ عليها، ولا سيَّما من العرب البدو الذين كانوا يتصفون بصفة إضافية هي معرفةُ الأرضين محليًا، ومُنَاخها، وأساليب القتال التي يتقنها أعداء الإمبراطوريَّةِ المحتلونَ.[14]

تظل سياسة الرومان والبيزنطيين مع العرب قبل العقد الرابع من القرن السابع غامضة.[15] إن الغساسنة، الذين كانوا حلفاء بيزنطة المعاهدين، ثاروا بعد أن ألقى موريس القبض، بطريقة خرقاء، على المنذر (فولارك (Phylarch) الجماعة) ونفاه سنة (581 م) وقطع عنهم العون المالي، هذا بعد قتل النعمان الثالث بن المنذر ملك اللخميين سنة (602 م) إما متواطئًا مع كسرى الثاني، أو لعلَّ ذلك تم بأمره. لقد أظهرت هذه الثورة للعِيان الأخطارَ الناجمةَ من استعداءِ الجماعات القبليَّة العربيَّة التي كانت، حتى ذلك الوقت، صديقةً، بينما اختبر العربُ، قبل وقت قصير، أمثلةً أخرى من خيانة حكَّام الإمبراطوريات سببًا آخر، وهذا ما كان يحتم على هؤلاء أن يقفوا من نياتهم موقفًا حذرًا. كان من الضروري لبيزنطة أن تحتفظ بصداقة بعض القبائل على الأقلّ. لكنَّ تلكَ الأحداثَ مرَّ عليها ما يزيدُ على نصف قرنٍ، وذكراها كانتْ، لا بدَّ، ماثلةً

في أذهان بعض العرب (من الممكن أنهم كانوا عربًا من داخل الإمبراطورية البيزنطية ومن خارجها على السَّواء) وفي أذهان بعض الموظفين البيزنطيين الذين كانوا على درجات متفاوتة من السلطة والرتبة. والمؤرخون اليعاقبة هم وحدهم الذين دونوا أخبار ثورة المنذر؛ أما مؤرخو البَلاط، مثل ثيوفيلاكتُس، فقد حذفوا هذا الموضوع المزري، ولو أن معرفته كان من الممكن أن تعين هرقل ونصحاءه على إصدار قرارات أكثر استيعابًا للأمور.[16]

سواء تقدم البيزنطيون من الغساسنة في سبيل إعادة نوع من التواصل أيامَ فوكاس أو هرقل أم لم يفعلوا ذلك فالواقعُ أنهم كانوا، وعلى رأسهم آخر ملوكهم جَبَلة بن الأيهم، في مقدِّمَة القبائل العربية المتحالفة مع بيزنطة في ثلاثينيَّات القرن السابع.[17] وقد نوّع البيزنطيون صلاتهم بالعرب بالحصول على العون من قبائل صديقة أخرى. وكانت هذه السياسة متّسقة تمامًا مع ما جرت عليه بيزنطة من خيارات وممارسات ضمانًا للأمن الداخلي والخارجي في مناطق أخرى من الإمبراطورية وفي أوضاع وأزمات أخرى. أمَّا طبيعة العلاقاتِ بالبيزنطيين، فأمرٌ يظل، مثلَ عدد المقاتلين، ملتبسًا. لقد كان المقاتلون العرب غالبًا يجنَّدُونَ مجموعاتٍ من قبائلَ معيَّنةٍ، على أنْ يحتفظ هؤلاءِ الجنودُ بانتمائهم وهُوِيَّتِهم؛ إنهم لم يكونوا مجنَّدِين عاديينَ.

### 3. 3) السلطةُ البيزنطيَّةُ والبدوُ: رُؤًى متباينَةٌ

الأمرُ الذي هو أقلُّ وضوحًا الصِّلةُ بين البدو العرب خارج الحدود البيزنطية والسكان المستقرين في الأرض وفي المدنَ داخل الحدود. فقد تراوحت هذه الصلة، في القرون السابقة للفتح العربي، بين الخصام المسلح والاعتماد المستمر والدعم السلميين المتبادلين. لكنَّ الجيش البيزنطي لم يُقم قواعد مكلِفة، ولم يتحمل مسؤولياته، ولا سيَّما في منطقةٍ كانت تعاني ضغوطًا ماليَّةً كبيرةً، عبئًا. فالبدو والسكان المستقرون في الحدود الشرقية للأردن وسورية وفي أرض الرافدين لم يألفوا حمل السلاح في سبيل خصومة عنيفة.

كانت المهمة الرئيسة لفرق الفترة الرومانية المتأخرة التي نشرت هناك هي فرض السلطة البيزنطية، والإشراف على تنقلات القبائل، والحيلولة دون



الغزو البدوي. مما لا ريب فيه أنه كانتْ ثَمَّةَ فتراتٌ من التعاون وتبادل المصالح. لكنَّ الإمبراطوريَّةَ لم ترمِ من إقامة جنود مدرَّبين، باهظي النفقات في تلك النقاط، إلى قيامهم بمراقبة النشاطات الرعوية فحسبُ. لعلَّ نوعية الفرق المختارة التي كانت تقوم بحراسة بعض المواضعِ قد تدنت خلال فترة إقامتها هناك، لكن ندبهم إلى تلك الرقعة كان يتطلب كُلَفًا كبيرة للحكومة، ويبدو أن الأمر لم يتخذ القرار بشأنه بيسر. لقد كان على تلك الفرق المُكْلِفَة واجبات عسكريّة. فقد كان وراءَهم خوفٌ أصيلٌ من احتمال تخريب المناطق المأهولة، وضرب السكان، وزعزعة السلطة البيزنطية. ولم يكنْ ثَمَّة احتمالٌ لقيام حرب مستمرة، لكن كان أمام تلكَ الفرق البيزنطيَّة واجباتٌ عسكريَّةٌ أصيلةٌ ذلك أنها لم تكن رمزًا فحسبُ. لقد كانت تمثل التزامًا مكلفًا من الفرق الجيدة التي كانت الحكومة، إذا ما قدرت على ذلك، تود أن تنقلها، وبشيء من السرور، إلى حدود أخرى كانت تتعرض لضغط شديد وتهديد. وكانت القوى العسكرية التي تكلف عبئًا ماليًا ثقيلاً عونًا على فرض نوع من النظام حتى أطراف المناطق المأهولة.[18]

واستخدم البيزنطيون أيضًا العرب المستقرين في جنوب فِلَسْطين لحماية تلك المنطقة من غزوات البدو المخاصمين في أواخر القرن السادس.[19] فقد كان لمخيمات العرب الأصدقاء القائمة في الإطار الخارجي للمنطقة التي كانتْ فيها مدنٌ مُهمَّةٌ، أهمية عسكرية جاهزة للدفاع عن هذه المدن. فقد كان في سوريَة البيزنطية في القَرن السابع إبَّانَ الفتح الإسلامي مخيم أو حاضر للعرب في سوريَة قرب حمص، وثَمَّةَ مخيَّماتٌ أخرى مماثلةٌ يبدو أنها قامت في شِمَال سوريَة.[20]

ليس ما يؤكد عدد مخيمات البدو المتحالفين التي قامت على مقربة من المدن البيزنطية الرئيسة على طرف الصحراء في بدء ثلاثينيات القرن السابع من نوع (الحيرة) أي: المخيم، الذي استخدمه العرب المعاهدون البيزنطيون قبلاً قاعدة لحراسة مداخل غزة.[21] ومن الواضح أن الحكومة البيزنطية ركزت اعتمادها عليها، إذ يلاحظ كونها أقلَّ كلفةً، وأكبر أثرًا، والحصول عليها أيسرُ من بدائلها من القوى العسكريَّة. وقد بدت هذه المخيمات العربية عنصرًا

حاسمًا في الدفاع عن هذه المدن. فقد عوضت عن نقص التدريب العسكري لسكان هذه المدن، وغالبًا ما كان ينتظر منها أن تزود المسافرين بالمعلومات، وتهيِّئَ لهم الحراس، إضافةً إلى قيامها بدور الحرس المقيم لهذه المدن والقرى المجاورة والريف. ففي واحدة من المعارك البيزنطية الأولى ضد المسلمين المهاجمين، أي: معركة أَجْنادَيْن، اعتمد البيزنطيون بشدة على العرب المحليين في تزويدهم بالمؤن.[22]

## 3. 4) وسائلُ المواصلاتِ البيزنطية في الصَّحْرَاءِ السُّوريَّةِ ومنطقة تدْمُر

تشيرُ ‹[الأعمال] Acta› التي وضعها القديس أنسطاسيوس الفارسي، والتي دونت مباشَرةً بعدَ سنةِ (631 م) إلى طريق يمر عبر الصحراء السورية من القصر الملكي الساساني في دَسْتَغِرْت (Dastagert) التي كانت على مقربة من نهر دِيالى عند زنْدان في العراق، إلى تدمر في الصحراء السورية.[23] وكان اجتياز تلك الطَّريق ممكنًا، لكن بعون من (فولارك/ زعيم قبيلة) عربي مجهول الشخصية، لكنَّ الإشارةَ إلى هذا تدلُّ على أنه كان ثمة (فولاركية/ Phylarcate) بيزنطية صديقة للعرب تقوم في تلك المنطقة في اللحظة نفسها التي شهدت ظهور الإسلام. وأحد أسباب وجودها، على ما يبدو من هذه الروايات المتعلقة بالعجائب، هو حاجة الحكومة البيزنطية الملحة إلى عرب أصدقاء يقومون بحماية المناطق الصحراوية والطرق التي تعبرها.[24] على الأقل، كان ثمة نوعٌ من صلةِ الصَّداقة البيزنطيَّة مع هذا (الفولارك) المجهول الشخصية قائمٌ في تلك المنطقة بعد القضاء على كسرى الثاني، وفرضَ معاهدة السلم البيزنطيَّة الفارسيَّة. لكن نوعًا من (الفولاركية) أنشِئَ، أو أعيد إلى الوجود، في تلك المنطقة بعد انتهاء القتال مع فارس، وبعد انسحاب الجيوش الفارسية من سوريَة وأرض الرافدين. وتدلُّ هذه الإشارة الأخيرة إلى تدمر في الروايات اليونانيَّة الرُّومانيَّة على أنها كانت موقعًا محصَّنًا.

لم تكن (الفولاركية) القائمة في الصحراء قادرةً على القيام بدور احتواء البدو هناك. من الممكن بطبيعة الحال، أن تكون العلاقات بين (الفولاركية) والبيزنطيين تأزّمت خلال هذه الفترة الحاسمة، لكنها كانت قصيرة، بين نقل



بقايا القديس أنسطاسيوس الفارسي وبدء الفتوحات الإسلامية. من الناحية النظرية، لم يكن ثمة فراغ سلطوي تام، على الأقل في سنة (631 م). إننا نجهل حجم القوى المسلحة التي كانت لدى (الفولارك) لكنْ كان لتدمر دورٌ كنقطة الانتهاء للتجارة والمواصلات والسفر عشية الحملات الإسلامية حصرًا. إضافةً إلى ذلك، فمن المحتمل أن البيزنطيينَ تمكّنوا، بمساعدة من السلطات المحلية، مثل هذا (الفولارك) المجهول الشخصية، من الإفادة من الطريق الموصلة بين تدمر ومركز أرض الرافدين الساسانية، أو السيطرة عليها. وعلى كلٍّ، فإنَّ ما يمكن أن يُستنتج من هذا هو أن التنقل كان بعدُ غير آمن. وباختصار، كان السَّفَر أو نقل أيِّ شيءٍ عبر تلك الطَّريقِ يحملُ في طِيَّاتِه الطَّيْش والخطر، ما لم يقم تعاونٌ مع (فولارك) صديق.

## 3. 5) حالةُ الاستراتيجيَّةِ والقتالِ

ثمة في أدبِ الإرشاد البيزنطي للاستراتيجية وإدارة القتال نقاط مبهمة جدًا. فكتب التاريخ ودلائل الحرب البيزنطية لا تحوي أيَّ معرفة خاصَّة بكيفية الدفاع عن فِلَسْطين أو سوريَة أو أرض الرافدين البيزنطية أو مصر، أو عن أفضل العمليات الحربية والاستراتيجية أو أساليب العمليات العسكرية الممكن استخدامها في قتال العرب. ويدَّعي المؤرخ بروكوبيوس، الذي وضع أعماله في أواسط القرن السادس، أن العرب لا يستطيعون تهديم أسوار المدن؛ «لأن العرب (saracine) غير قادرين بطبيعتهم على إدارة الحصار. حتى إنَّ أضعف حاجز مبني من الوحول يكوِّن حاجزًا لهجومهم». ويبدي المؤرخ الكنسي ابن القرن السادس إفاغريوس سكولاستيكوس (Evagrius Scholasticus) الذي كان أصله من شِمَال سوريَة، وهو أمر مهم، إذ كانت له بعض المعرفة بالعرب ومشكلات الأرض المحلية، ملاحظة مفادُها أنَّ خير وسيلة لقتال العرب هي استخدام عرب آخرين ضدهم.[25]

وتحدث مؤرخ الفترة المتأخرة من القرن السادس ميناندر بروتكتور (Menander Protector) عن «فظاظة العرب وعدم جدارتهم بالثقة». وبعد ذلك بعقود قليلة، في القرن السابع المبكر، كتب مؤرخ آخر هو ثيوفيلاكْت سيموكاتّا على النحو نفسه:

«معروف عن القبيلة السراسينية (العربية) أنه لا يمكن الاعتماد عليها ومتقلبة، وعقول أبنائها ليست ثابتة، وأحكامهم لا تقوم على أساس صحيح من التعقل».[26] إن المشكلات المتعلقة بالغزو العربي في جنوب فِلَسْطين ووسائل المقاومة البيزنطية كان يعرفها كتاب بيزنطيون محليون مثل كوريكيوس الغزّي (Choricius of Gaza)[27] والقديس نيلوس السينائي (Nilus the Sinaite).[28]

لعله أتيح للبيزنطيين أن تصلهم أخبار التجارب الفارسيَّة مع البدو في الحدود الشرقية، لكنَّ حدوثَ هذا أمرٌ مجهولٌ. ولعل تجارب والد هرقل، هرقل الأكبر، الذي كان قائدًا في الطرف الشّمَالي من سهل أرض الرافدين، إضافةً إلى تجارب هرقل الخاصَّة خلال حربه مع الفرس، هي التي كوَّنت انطباعات الإمبراطور عن قدرات العرب القتاليَّة، وعن خير السُّبُل لقتالهم.[29] والأمر المجهول بالدرجة نفسها هو المدى الذي كان القواد المحليون يوصلون إلى هرقل، وإلى خاصته من الخبراء العسكريين والمستشارين السياسيين وصانعي القرار، ما كان لديهم من تجاربَ وتصوُّراتٍ عن القدرة القتالية، وخطر العرب على الحدِّ الشَّرقيِّ.

إن شنَّ الحرب كان له تحدياته في القرن السابع. وأسهمت المسافاتُ وبطْءُ الاتصالات في النواحي التنظيمية للقيادة والرقابة والمواصلات والاستخبارات (الاستطلاعات) ولا سيَّما توفيرِ السلاح، وتوزيعِهِ، وصيانتِهِ، والإعاشةِ، وتفويض السلطات، ونشر الجنود والركائب. وكان فرض الأوامر صعبًا لأنَّ القوَّادَ لم يحترموا دومًا قدرة القواد الآخرين ولا سلطتهم، وكانوا أحيانًا يرفضون التعاون في وضع العمليات العسكريَّة موضع الأداء.

كان البيزنطيون يشنون حروبًا متقطعة على حدودهم الشرقية، متحاشين المعارك الحاسمة التي قد تؤدي إلى سيل من الدماء. إن الأسبابَ التي أدَّتْ إلى سيطرة الحرب المتقطعة معقَّدة، على أنَّ القائمين بها كانوا فرسانًا في واقع الأمر. لكنْ من البيِّن أن بينها محدوديَّة القدر المتيسر من الموارد مثل المال والرجال والعتاد. ومن ثَمَّ، فقد اختارَ البيزنطيونَ أن يتخذوا جانب الحذر والحذق في الحرب أكثر من اعتمادهم على القوة العددية الواضحة العنيفة. كان التخادع



والإنهاك يُفَضّلان على قتال دموي على أرض المعركة الذي كان يحمل في طَيَّاتِهِ الخطر الماثل في المجهول الذي لا يمكن ضبطه. فقد كانت القاعدة شن حروب متقطعة تتصف بالبطء والخداع، وتتطلَّب ما لا حدَّ لهُ من الصَّبر والخداع والمفاوضات الكاذبة والتوقيت والذكاء، وكما يبدو، ما لا نهاية له من المناورات. وكان الغرضُ هُوَ زرعَ الاضطرابِ في توازن العدو، وليس بالضرورة القضاء التام على كيانه. فالمجد والحماسة في المعركة لم يكونا أصلاً أساسًا للنجاح. وكان الحذر والحَيْطَة والمستوى الأقل من الخسارة هي الأكبر أهمية. وقد افترض البيزنطيون أقلية عددية لديهم في الأغلب، ومن ثَمَّ كانت الحاجةُ إلى التعويض عن ذلك بالذكاء والخداع في التخطيط والعمليات العسكرية.[30] ويرمي قَبُول الإمبراطورية باستراتيجية عسكرية حذرة إلى تقليل الخطر إلى المستوى الأدنى، وتُعِينُ على تقليص إمكانية أن تؤدي مغامرة ما إلى كارثة أو انحلال الإمبراطوريَّة نهائيًا. فلم يكن ثمة شيء من التصور الاستراتيجي الحديث من حيثُ تجميعُ القوى إلى المستوى الأقصى، بل تلكؤ في زج القوى جمعاء. ومع ذلك، فإنَّ غيوم الحرب ما زالت تثير مجازفات، وشكوكًا كثيرة، وأحوالاً تحمل القواد البيزنطيين على محاولة استخدام أساليب الخداع.

يتناول ‹[الإستراجيكون] Strategikon› الذي وضعه موريس (الإمبراطور) زُهاء سنة (600 م) الفكر العسكري البيزنطي المعاصر له.[31] فقد حذَّر هذا المخطَّطُ العسكريُّ من المعارك المكشوفة، وكانت نصيحته تفضل اللجوء إلى المكر والنفاق والحذر والشك في الحرب. ليستِ الغايةُ إسالةَ دماء العدو، بل كسره، وتشتيت قواه بوسائل السرية والمرونة، والاستعداد لاستخدام تقنيات متباينة لقتال أنواع الخصوم المختلفة.[32] إنه يبدي استعدادًا لاستغلال ما هو مشكوك فيه. وبينما يحاولُ تقليل إصاباته الخاصة، يلجأ إلى الحيل والنفاق والتفرقة والرشوة والحذر والاقتراب من الحرب بأسلوب غير مباشَر. وقد قُبلت هذه النظرة في مباشَرة الحروب، في القرن السابع، على أنها الأساس. ليس ثمة في المصادر الموجودة ما يدلنا على أنواع البحوث أو المذكرات التي أفرزتها حروب هرقل مع الفرس في القرن السابع. ومن المستحيل أن يُعرف

إلى أيِّ مـدًى رتـب المخططـون والاسـتراتيجيون، إذا مـا كانوا فعلوا ذلك حقًّا، تقديـرات شن حربٍ في ضوء تجاربهم الحديثة مع الفرس. ومع ذلك، فإنه ليبدو أمرًا" بعيد الاحتمل ألا يتأثروا بذلك النـزاع المتطاول.

وليس ثمّة ما يوحي أنَّ المسـلمين كانوا يملكون نسخًا من مرشد بيزنطي للحروب عشية الحمـلات والفـتوحات المبكرة أو في أثنـائها عـن الأراضي البيزنطية. ومـا هـو أبعـد في الشـك مـن ذلك إفادةُ المسلمين من الاستيلاء أو الحصـول عـلى أيِّ مرشـدٍ بـيزنطيٍّ مـدوَّن آخـرَ يتناول شؤون الحرب، أو سوى ذلـك مـن الوثـائق والأخـبار السـريَّة العَسكريَّة والسياسـيَّة المدوَّنـة. لم تفـد الأحـداث العسكرية المرتبطة بالفتوحات الإسلامية من أيِّ مادة مدوّنة بقصد أن تكـون مرشـدًا عسـكريًا. قد يعزو بعضٌ ذلك في نهاية الأمر إلى مقدرة النبيِّ محمَّـدٍ (ﷺ) عـلى الكـتابة، لكـنْ لـيس ثمّـةَ رسالةٌ في الشؤون العسكريَّة، سواءٌ المجهولـةُ المؤلـف أم المعـروفةُ عـلى التخصـيص، الـتي ألهمـت أو بدّلـت الاسـتراتيجية العسكرية أو التكتيك أو الأعمل الحربية، سواءٌ عند البيزنطيين أم عـند المسـلمين في أواسـط القـرن السـابع. ويبدو من المصادر الإسلامية أن التجسـس كانـت أخـباره تـنقل بالـنقل الشفوي لا بالوثائق السرية المدونة أو التقارير التي تُحمل إلى القادة المسلمين.

### 6.3) حدودُ استراتيجيَّةِ الدِّفَاع العمقيِّ

لـيس ثمّةَ نظريَّةٌ تنظيمية سهلة لتفسير الاستراتيجية البيزنطية أو الانكسار البـيزنطي أو الاسـتراتيجية الإسـلامية أو الانتصـارات الإسلامية. وبالمثل، فإن السياسـات البيروقراطـية لا يمكـنُها أن تفسـر الاسـتراتيجية البيزنطـية أو الإسـلامية خـلال الفـتوحات الإسـلامية المبكرة. والاسـتراتيجية البيزنطية في ثلاثينيات القـرن السـابع وأربعينـياته لم تنشـأ في حل تنظيميَّة أو بيروقراطية. كانـت لـبعض البيروقراطـيين صـلة بالنشـاطات الـتي قامـت عشـية الحمـلات الإسـلامية مـثل السـاكيلاريوس (Sakellarios) في معـركة اليرمـوك، لكـنْ مـن المحتمل عدمُ وجودِ دورٍ لهم في صياغة أيِّ استراتيجيَّة.

تمـيزت العملـياتُ الحربـية والجهـود الدفاعـية في فِلَسْـطين وسـوريَة



باسـتراتيجية واسـعة، أساسُـهَا دفـاعٌ عمقيٌّ متحرِّكٌ. وقد نَتَجَ هذا من الغارات الـبدويَّة الصَّـغيرة الحجـم والمـتكررة الحـدوث، الـتي لم تكـن تقتضي في العادة تجمـيع قـوى تدخلٍ كبيرة وسوقها للدفاع عن الإمبراطورية. كانت الإمبراطورية تنقصـها الـتضـاريسُ الـملائمـة أو القـوى المقاتلـة الكافـية الـتي تمكـنها من الـلجوء إلى استراتيجية دفاعية مجابهة / مقدامة، كان يمكن أن تؤدي إلى زج جملة الجـنود القائمـة عـلى أطـراف الإمبراطورية في سبيل وقف الهجمات العدائيَّة، قـبلَ أنْ تـؤدِّيَ هـذه إلى خـراب جـدي للأرضـين والعمران والزراعة والسكان المدنيين في المناطق المكشوفة.

كـان يمكنُ أن تنتهي هذه الاستراتيجيَّة بأخطار جسيمة إذا ما تمكن المهاجم، عـلى نحـو مـا، مـن اخـتراق الخط الخارجي مع حامياته، إذ إنَّ هذه كانت ضعيفة الـرديف لُتنـتقل لمواجهـة قـوى الاخـتراق. إن هـذه الاستراتيجية القائمة على الدفـاع العمـيق المـتحرك كانـت متسقةً مع تجنب البيزنطيين للمعارك الضارية الـتي يـتم فـيها الـتحام الجيشـين المـتقاتلين والاشـتباكات الحربية الخطرة. وكان الـلجوء إلـيها يتم مع التوقيت والتأخير والدبلوماسية في محاولة لوقف الأعداء أو تجنـبهم أو تحـييدهم. وكـان أسـاس الاستراتيجية البيزنطية عشية الفتوحات الإسـلامية، الدفـاع العمقـي، ولـو أنـنا لا نملك الأرقامَ الدقيقةَ لحجمِ الجيوش وأمكنة الحاميات على وجه الدِّقة.

اعـتمد الدفـاع العمقـي عـلى عـدد مـن الأحـوال الأخـرى. اقتضت أيضًا اسـتراتيجية دفاعـية عمـيقة مـتحركة وجـود اسـتخبارات مضـبوطة يمكـن أن تُسـتَوْثق في تعـرُّفِ المكـان الـذي يمكـن أن ترسـل إليه قوى التدخل المركزية، لكـنَّ البيزنطـيينَ كانـت تنقصـهم الصِّفةُ المميزة التي تمكِّنُهم من المعرفة الآنيّة بالمسـلمين ومقاصـدهم. وافترضت استراتيجيتهم أن السكان المدنيين يمكن أن يتجنـبوا الكـثير مـن الخـراب إذا لجـؤوا إلى أمكـنة آمـنة مـثل المـدن المسـوَّرة، والأرضين الوعرة، أو تلك التي تيسّر لهم مخبأ مناسبًا يقيهم شرَّ المهاجمين.

عـندما يفكـر أي شـخص بالدفـاع أمـام هجـوم مـن الجـنوب، فإنه يتصور استعمال خطوط دفاع تمتد من الجنوب إلى الشّمَال في منطقة شرقي البحر الميت، أي: وادي الحسـا ووادي الموجِـب (نهر أرنون) ووادي الزرقا، وبطبيعة الحال نهر

اليرموك. إن تضاريس الأرضين، وطول المسافات المعرضة، ومحدودية القوى المقاتلة، وإمكانية حركية العدو واحتمالها، إنَّ جميع هذه شجَّع، أو فرضَ، إقامة دفاع عمقي بدلَ دفاع مجابهة/ مباشرة على طول حد معين مواجهٍ للأعداء. كان من الممكن محاولة إقامة حواجز عند بعض الأودية أو على مقربة منها، لكن لم يكن ثمة شيء عملي آخر، حتى الانسحابُ إلى جبال طوروس ومضايقها. وهناك ظلَّتْ الاستراتيجيَّةُ الرئيسة تجارب لنماذج مختلفة للدفاع العمقي. وكانت الحصون تزوِّد نقاطًا ثابتة للدفاعِ في مثل هذا المخطط الأكبر للدفاع العمقي المتحرك، لكن الحصون البيزنطية لم تكن تقوم على نوع من الأسلوب الذي يربط بينها حيثُ لا يمكن أحدًا أنْ يستولي عليها أو يحيِّدها إلا متعاقبة واحدًا بعد الآخر. وكان ثمة عدد متواضع من الجنود الخفيفي السلاح والعدّة، في جماعات مكونة من مئات، أقيمت في مراكز متفرقة في منطقة حدودية واسعة في العمق حصرًا (من المحتمل أنها كانت 100 من الأميال) وهذا كلُّ ما كان يمكنهم أن يقدموه، وحالة الإمبراطورية الماليَّة والقتاليَّة هي ما كانتْ عليه.

كان البيزنطيون جاهزين في سوريَة وفِلَسْطين لمجابهة اختراقات على مدى صغير، وذلك بوضع حاميات متحركة من الجنود المحليين بقيادة دوكات (duces) لكنَّ العرب كانوا يقومون بالجزء الأكبر من الحراسة والقتال. وقد وُضعت قوى التدخُّل المركزيَّة، التي كانت الأكثرَ مقدرةً على مواجهة الاختراقات النادرة والواسعة المدى، قرب القُسْطَنْطِيْنية وخلف حدود أرض الرافدين العليا المصاقبة لفارس، وإلى درجة أقل في إرمينية البيزنطية، بقصد احتواء هجمات العدو النادرة الكبيرة بعد سلام سنة (628 م). وكان من المؤمل ألا تقوم هجمات فارسية بسبب ما كان عليه الوضع هناك من ضعف للحكومة. أما الاستراتيجية والعمليات العسكرية الإسلامية فقد كانت مناسبة تمامًا لهذا الدفاع العمقي البيزنطي، وقد أفادت منه كثيرًا.

لقد أثرى الكثيرُ من التجارب العسكريَّة التي اختبرت خلال العقود السابقة كيان الفكر العسكريِّ في إدارة الحملات والتكتيك عند الفريقين المتخاصمين في أثناء الحملات الإسلامية. وكان الأقرب صلة بحروب ثلاثينيات



القرن السابع التجارب التي صحبت الحرب الطويلة بين بيزنطة وفارس، والتي استمرَّت ما يقربُ من ثلاثةِ عقود من زُهاء (603 م) إلى (628 م). فقد غدت بيزنطة، بسبب تلك الحرب، خبيرة بالتضاريس، كما أنها طورت تصوّرًا أساسًا لكيفية شن حرب هجومية حاسمة، وهذا ما أدّى إلى إدراك الدور المنذِر بالخطر للممرَّات والطُّرُق الجبليَّة، مثل تلك الموجودة في جبال طوروس. لكنَّ بروكوبيوس ابن قَيْسَاريَّة أدرك، في أواسط القرن السَّادس، الدورَ الدِّفاعيَّ لجبال طوروس عن أمنِ الأناضول؛ فلمْ يكنْ ثَمَّةَ حاجةٌ للتجاربِ القتالية التي تمت في وقت مبكر من القرن السابع لتعلم هذا الدرس.[33]

استمرت استراتيجية الدفاع العمقي البيزنطية الأساس، وازدادت حدة في مواجهة الانكسارات في المعارك. ولجأ البيزنطيون إلى اعتماد الاغتيال والغش وزرع الفتن في صفوف الأعداء لتقوية الدفاع العمقي الذي ضعف وتهشم. وطوّر البيزنطيون، على ما كانت تفعله أي دولة، قوات دفاعهم العمقي المجابهة المختلطة لتحقيق استراتيجيات لاحتواء الخصوم. وقد عَهِدَ البيزنطيون إلى المرتزقة العرب، ولا سيَّما من القبائل الصَّديقة بالاحتواءِ في الأمكنة المتقدِّمة، أو المجابهة التي يقوم فيها تماس مع المهاجمين والغزاة. واحتُفظ بالقسم الأكبر من خيرة قوى الدفاع في أمكنة بعيدة في المناطق الخلفية، وليس في مناطق يمكن أن تخرج اختراقات إسلاميّة أوّليّة. ولعل استراتيجية البعد العمقي هذه، والتي كانت تتجنب مجابهات حاسمة حيثما كان ذلك ممكنًا، أثرت في بقاء جزء واحد على الأقل من الإمبراطورية البيزنطية، والذي تمَّ على حسابِ خسائرَ بشريَّةٍ وأرضيَّةٍ ضخمةٍ.

### 3. 7) التقلّبُ والولاءاتُ المتبادلةُ

أوجدت الولاءات المتقلبة والمتبدلة بعدًا آخر للتقلبات والخطر والغموض في الحروب لدى بيزنطة، لكنَّ ذلك أتاحَ لها الفرص أيضًا لتحقيق الأهداف دون خسائرَ رهيبةٍ في المعارك. وكان الميل إلى تبديل الجهات ملائمًا للجوء البيزنطيين إلى الخداع لتحقيق نصر عسكري. وأدّى الفِرار (من الجندية) وتبديل المواقع دورًا مُهِمًّا في الحرب البيزنطيَّة الفارسيَّة بين سنتي (603 م)

و(628 م).[34] وزاد التشجيع على الفِرَار (من الجندية) وعلى إلقاء القبض على قيادة العدو بأسلوب خادع، من النزاع الداخلي في مطلع القرن السابع،[35] وضاعف حدة التقلبات وعدم الاستقرار وانعدام التضامن مع أن القائمين، كانوا، على ما يبدو، يحاولون خلق تضامن.

كان للفِرَق البيزنطيّة التي عُهد إليها بالحدود الشرقية تراث كبير في القلاقل العسكرية. ورافقت مشكلات التموين التي كانت تثير حقد المدنيين والجنود جديًا في القرنين الرابع[36] والسادس[37] تجمعات القوات في أواخر القرن السادس في شِمَل سوريَة وأرض الرافدين.[38] ومن المحتمل أن بعض هؤلاء الجنود المشاغبين، الذين جاؤوا من أرض الرافدين العليا، حملوا تململهم واستعدادهم للعصيان معهم لما جاؤوا للمساعدة على الدفاع عن سوريَة وفِلَسْطين.

ويبدو أنَّ الخوف على التضامن في جيوشهم الخاصة بهم، وخطر العصيان، عملا عنصرًا كابحًا في استخدام الفرق البيزنطية، وأيضًا عنصرًا كابحًا لحريّةِ قوّادِهم في القيام بأعمال عسكريَّة معيَّنة. لقد كانت أخطار العصيان أمرًا حقيقيًا تمامًا. والهلع من الخيانة كان يثير التوتّرات داخل الجيوش البيزنطية، وغالبًا ما يكون هذا في لحظات حاسمة.

كانت جيوش البيزنطيين والمسلمين، في الجانبين كليهما، معرضة للتقلب. وأظهرت حروب الردة الحديثة العهد؛ (حركات المقاومة المحلية في شبه جزيرة العرب التي عارضت الحكومة الإسلامية في المدينة) الهشاشة الذاتية للولاءات السياسية في القبائل، مع أنه قلما عادت أيّ قبيلة إلى الشرك.[39] وكان الزعماء البيزنطيون، على ما يبدو، يرتابون في كل العرب، وكانوا يترقبون الفِرَار، إمّا من جانبهم أو من جانب خصومهم، وكانوا كبيري الأمل في أن تؤدي المفاوضات والتلكؤ فيها إلى الوصول إلى سبل لحمل بعض العرب على الخروج على الآخرين، على نحو ما خبروه، هم وأسلافهم من قبل. ومن المدعاة للشك في أن يكون هرقل، في ضوء ما تلقيه هذه الإحساسات على الوضع، وضع ثقته التامة في العرب المسيحيينَ للدِّفاع عن سوريَة.[40] ويؤكد كتاب ‹[عجائب] Miracula› العائد للقديس أناستاسيوس أنه كان، عشية الحملات الإسلامية، ثمة بقية من خصومة قتالية بين بعض السُمَرة والجنود البيزنطيين، مع إن سُمرة آخرين وصلتنا



أخبارٌ عن أنهم قاتلوا إلى جانبِ البيزنطيينَ ضد المسلمينَ في معركةٍ انكسرَ فيها سرغيوس على مقربةٍ من غزّة سنة (634 م).[41]

## 3. 8) قيادةُ هرقلَ الحربيَّةُ

ظلَّ هرقلُ الإمبراطور النشيط تجسيمًا للإمبراطورية من أول الأمر وخلال ثلاثينيَّات القرن السابع. ومن الخطأ الافتراض أنَّ المرض أقعده إلى درجة كبيرة . ومع أنه زار سوريَة وفِلَسْطين وأرض الرافدين البيزنطية، فإنه، مثل الأباطرة البيزنطيين الآخرين، لم يزرْ مصرَ قَطُّ. على كلٍّ، فقد كانت معرفته بالتضاريس والطرق ووسائل التنقل وتيسّر المؤن والمُنَاخ والأحوال الجوية في سوريَة وفِلَسْطين وأرض الرافدين البيزنطية أفضل بكثير من معرفة أي إمبراطور آخر منذ آخر القرن الرابع. وكان الأول في أمرين: في اتخاذه أنْطَاكِيَة قاعدةً للأعمال الحربية[42] منذ يوليان المرتد، وفي قيادته الجيوشَ القتاليَّةَ بنفسه منذ أيام ثيودوسيوس الكبير.[43] لقد كانت أنْطَاكِيَة قاعدةً صالحةً للإشراف على المواصلات وحراستها بين الفرق البيزنطية في سوريَة وفِلَسْطين، وتلك التي في الأناضول، وفي إرمينية البيزنطية. وأكد وجوده هناك اهتمامَهُ الشَّخصيَّ وتصميمَهُ على أنْ يكونَ الدفاعُ عن هذه المناطق المعرضة للخطر ناجحًا. لعله عمد إلى الاطلاع على مذكرات، أو على خلاصات لمذكرات، وضعها أباطرة سابقون أو مستشاروهم العسكريون موضحين سبيل قتل أعداء مختلفين، بمَنْ فيهم الفرسُ.[44] وقد روي أن هرقل درس أمثولات عسكرية مبكرة تعود إلى أواخر الأزمنة القديمة، لكنَّ هذه كانت أوثقَ صلةً بقتال الفرس منها بقتال العرب. من ثمَّ، فإن التجارب السَّابقة الرومانية والبيزنطية المبكرة التي ارتأت حشد الفرق في أنْطَاكِيَة كانت على الراجح، قليلة الأهمية أو معدومتها، ولا سيَّما أنَّ الأخيرة كانت من قبل قاعدةً للأعمال الحربية ضد الفرس إلى الشرق، وليس ضد العرب القادمين من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية.

كان هرقل الإمبراطور البيزنطي الوحيد الذي زار القدس أيام حكمه. وكان، من ثمَّ، مطلعًا على الطرق الرئيسة إلى فِلَسْطين، وسلسلة جبل طوروس الهائلة، وطرق شِمَالي سوريَة وأرض الرافدين. ويبدو أن ابن عمه

نيكيتاس (Niketas) وضع بين يديه تقارير عن المشكلات المتعلقة بقيادة الجيوش من مصر إلى فِلَسْطين وسوريَة، وهي المشكلات التي قابلها نيكيتاس في سنتي (610 م) و(613 م). وقد صرف هرقل جزءًا من الزمن بين سنتي (631 م) و(634 م) في مراقبة جلاء الفرس عن سوريَة وتعيين حد جديد. وكان أيضًا مشغولاً بإعادة الآثار المقدسة، مثل آثار الصليب، إلى فِلَسْطين. كما كان يقوم بمحاولة حل نزاعات كنسية مختلفة. وخلال الفترة الأخيرة من إقامته في سوريَة بين سنتي (634 م) و(636 م) كان معنيًا بتنظيم دفاع فعَّال عن البلاد تجاه المسلمين. وليس من الواضح مدى ما أشرف عليه من إعادة وسائل الدفاع، ومن المحتمل أنه وجد أنْطَاكِيَة مكانًا صالحًا للإقامة وقتًا بسبب أهميتها المبرِّزة لحماية مواصلاته مع بلده الأصلي إرمينية.

مما لا ريب فيه أن هرقل كان، عشية الفتوحات الإسلامية، في أقصى ما وصل إليه من مقام بسبب كسره الساحق الفرس مؤخرًا، وهذا ما انتهى بانسحابهم من الولايات البيزنطية الشرقية التي احتلوها، وتخطيط حد دَوْلي مع فارس على أسس جاءت في مصلحة بيزنطة، واصطحابه شخصيًا آثار الصليب الحقيقي إلى القدس (بوصفه الإمبراطورَ البيزنطيَّ الوحيدَ الذي زار القدسَ في أيام حكمه) وإنفاقه الكريم لإعادة مدينة القدس التي دمرتها الحروب، وإعادته إلى الكنائس المبالغ التي اقترضها منها، ولا سيَّما كنائس القُسْطَنْطِينِية، وما بدا أنه نجاح كبير في حمل بعض المتمردين من أتباع الطبيعة الواحدة، بمن فيهم أبناء جلدته الأرمن، على قَبُول بعض الحلول الوسطى بشأن لاهوت المسيح، ولو أن ذلك كان على مضض.[45] لقد كان في عزِّ نضجه سنًّا في أواسط العقد السادس، فقد وُلد زُهاء سنة (575 م) وكان عظيم الخبرة بشؤون الحرب، وبَدَا كأنه تغلَّب على النزوع إلى الخصومة العسكرية الداخلية التي أصابت الإمبراطورية في بدء القرن كالنازلة. وظهر كأنه السيد غير المنازع في حكم القُسْطَنْطِينِية والكنيسة والولايات المتباعدة الأطراف. وقد جذبت خلفيّته العرقية[46] (الأرمنية) ثقةَ ذلك العنصر الذي كانت تتعاظم أهميته في الجيش ضباطًا وجنودًا، ودعْمَهُ، أكبر بكثير ممَّا جذبتهم شخصيَّةُ موريس الإمبراطور الآخر الذي يحتمل أن يكون أصلُه إرمينيةَ.[47] بدا هرقل، في الظاهر، إمبراطورًا يستطيع أن يصمد أمام أكبر التحديات. إن القضايا المزعجة



المتعلقة بحياته الزوجية، وما كان هناك من الاحتكاك المستمر والتنافس على خلافة الإمبراطور، وما زُعِمَ عن نزوعه إلى التنجيم، وتعامله الفظيع مع المخالفين كنسيًا. كلُّ هذا لم يبدُ أنه كان من الجدية ليهدِّد متانةَ حكومته، أو تفوُّقَه العسكريَّ. وظهر كأنه 'أغسطس' وقائدٌ يستطيعُ أن يقابل بمقدرة أيَّ تحد عسكري خارجي للسيطرة البيزنطية على سوريَة وبلاد الرافدين العليا.

أفاد هرقل من خبرته الحربية الطويلة كما تأتّى منها. فقد بنى سهرة حربية متينة كانت تحذر الخصوم الدائمين من القيام بمحاولات عسكرية تجاهه. وفي الناحية الأخرى تم له، في ثلاثينيَّات القرن السابع، أن يحتفظ بقيود كانت معروفة جيدًا، عن كيفية قيادته الجيوش والطريقة المحتملة لردة فعله في سياق العمليات والحالات التكتيكية. ولما بدأت الحملات الإسلامية، بدا أنه من غير الممكن أن يطور هرقل أي مفاجآت جديدة في إضبارته العسكرية. فقد كان، باختصار، كميةً يعرفها خصومه المسلمون. وإذ كان من الممكن لخصومه أن يلاحظوا ما دوّنه ويزنوه، فقد أصبح لديهم إطار للترقب يمكِّنهم من تقدير تحركاته التالية. وعندما توزن هذه المعرفة عن هرقل كانت ترجح في مصلحة المسلمين الذين كانوا، في الناحية الأخرى، أقل انكشافًا لهرقل ومستشاريه، باستثناء أن المسلمين كانوا يلجَؤُون إلى الأساليب العربية الأقدم في تسييرهم للحروب.

وقد جاء في رواية لاحقة، رأى فيها بَعْضٌ نذرًا مرعبة: «كان هناك زلزال في فِلَسْطين. وكانت ثَمَّةَ إشارة، دُعِيَتْ ظاهرةً غريبةً، بدت في السَّماء إلى جهة الجنوب، منذرةً بالفتح العربي. وقد ظلت ثلاثين يومًا، ممتدة من الجنوب إلى الشَّمَال، وكانت على هيئة سيف».[48]

# 4) الاختراقاتُ الإسلاميَّةُ الأوْلى للمنطقةِ البيزنطيَّةِ

## 4. 1) الحملاتُ والافتراضاتُ التاريخيَّةُ

> تقدم أبو عبيدة إلى أن تجاوز وادي القرى، ثم اقترب من حِجْر، وهي مكان لبني صالح.. وتابعةٌ للحجاز. وما بعدَ حِجْر هو من سوريَة. وتقدم نحو ذات المنار، ثم إلى زيزا. ثم استمر في سيره نحو مؤاب في بلاد عَمّان. وتقدم الروم (البيزنطيون) نحوهم، واستمر المسلمون في هزمهم حتى أجبروهم على اللجوء إلى دخول مدينتهم (مؤاب) وحاصروهم فيها. وقد عقد سكان مؤاب صلحًا مع المسلمين. وكانت المدينة الأولى في سوريَة التي فعلت ذلك.

هذه هي رواية الأزدي للاختراق الإسلامي الأول الدائم للمنطقة البيزنطية الذي تم على يد القائد المسلم أبي عبيدة بن الجراح الذي اتبع طريقًا تجاريًا تقليديًا من المدينة إلى سوريَة. ووصفه يتفق مع أقدم رواية مسيحية عن الحملات الإسلامية، وهي رواية سيبيوس الأرمني، كما يتفق مع ما رواه الطبري والبلاذري.[1]

ثمة عدد من المشكلات الزمانية والتأريخية تعقّد البحث الدقيق في الفترات الأخيرة للحكم البيزنطي في فِلَسْطين وسوريَة والسنوات الختامية من حكم هرقل. مع ذلك، فمن الممكن العثورُ على بعض أحداث موثوق بصحة روايتها.[2] ففي شهري شَوَّال وذي القِعْدَة من سنة (7 هـ)؛ شُبَاط وآذار/ فبراير ومارس من سنة (628 م) هزم هرقل الفرس هزيمة ساحقة أدت إلى خلع ملكهم كسرى الثاني وقتله على يد ابنه سيرُوس. وفي شهر ربيع الآخر (8 هـ) الموافق تمُّوز/ يوليو سنة (629 م) التقى هرقل القائد الفارسي شَهْرباراز (Shahrbaraz) في أرابيسوس في قبدوقيا، واتفقا على شروط انسحاب الفرق الفارسية من الولايات البيزنطية الشرقية المختلفة. وفي جمادى الآخرة (8 هـ)

الموافق أيلول/ سبتمبر سنة (629 م) تغلبت القوى البيزنطية على المسلمين في مؤتة. وقد تميزت سنة (9 هـ/ 630 م) بأعمال عدة: في (21 آذار / مارس) أعاد هرقل آثار الصليب المفترض صحتها إلى القدس، بينما أرسل المسلمون بعثة إلى تبوك (في الزاوية الشَّمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية، لعل هذا كان في تِشْرين الأول، حيثُ عقد كبير الموظفين أو أسقف أيلة (العقبة) وأهل جرباء وأذْرُح معاهدةً مع النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) كما فعل عامل معان. وقد توفي النبيُّ محمَّدٌ (ﷺ) سنةَ (10 هـ/ 632 م).

بدأ فتح سوريَة الحقيقي في وقت متأخر من سنة (12 هـ/ 633 م) أو وقت مبكر من سنة (13 هـ/ 634 م) إذ من المحتمل أنْ تكون المدينة الرئيسة أريوبوليس (الربة/ مؤاب) سقطت بأيدي المسلمين الذين ثاروا بعد ذلك، واشتبكوا مع قوى بيزنطية في عين غَمر في الغور أو في وادي عربة. ومن المحتمل أن يكون المسلمونَ كسروا البيزنطيين في داثن على مقربة من غزة في (4) من شُبَاط/ فبراير سنة (634 م) وعلى نحوٍ يتميَّز بالحسم في معركة أَجْنادَيْن في (30) من تَمُّوز/ يوليو (13 هـ/ 634 م) [جُمادى الأولى سنة (13) للهجرة]. وبعد ذلك في سنة (13 هـ/ 634 م) [في ذي القِعْدَة سنة (13 هـ)] تم أمران: وفاةُ الخليفة أبي بكر، وانتصارُ المسلمين في طبقة فحل. في سنة (14 هـ/ 635 م) [ رَجَب سنةَ (14) للهجرة] احتلَّ المسلمونَ دمشقَ وحمص أول مرة. لكنْ في وقت قبل آب/ أغسطس سنة (15 هـ/ 636 م) أخلى المسلمون حمص ودمشق بسبب الهجوم البيزنطي المعاكس الذي قاده تيودور، أخو هرقل، والقائد فاهان. وشهد (20) من شهر آب/ أغسطس سنة (16 هـ/ 636 م) الفصل الأخير من معركة الجابية-اليرموك. وفي وقت متأخر من سنة (16 هـ/ 636 م) ووقت مبكر من (637 م) استولى المسلمون ثانية على دمشق وبَعْلَبَكَّ وحمص، ومبدئيًا كانت سوريَة حتى قِنَّسْرِيْن/ خلقيس سقطت في أيديهم. وفي وقت لاحق في سنة (16 هـ/ 637 م) (على أقصى مدى في الخريف) استولى المسلمون على القدس ودخلوها. وفي آخر حَزِيْرَان أو في وقت مبكر من تَمُّوز احتل المسلمون غزة، وفي الحملة نفسها عَسْقَلان على وجه الاحتمال أول مرة؛ وقد



حصلت السلطات البيزنطية في مصر على هدنة غالية دامت ثلاث سنوات. وفي وقت ما في سنة (637 م) اتفقت السلطات البيزنطية والمسلمة على هدنة في قِنَّسْرِيْن بعد أن كسر المسلمون القائد البيزنطي مِناس (Menas) (الذي قتل في المعركة). وفي سنة (638 م) احتل المسلمون شِمَال سوريَة باستثناء أرض الرافدين العليا، التي منحوها هدنة سنةٍ. وعند انقضاء هدنة السنة دَهَم عِياض بن غَنْم أرض الرافدين البيزنطية، واستولى عليها في (639-640 م). وفي سنة (640 م) انتهى المسلمون من احتلال فِلَسْطين بأخذ قَيْسَارِيَّة البحرية على حين غِرَّة وإتمامهم فتح عَسْقَلان. وقد غادر المسلمون فِلَسْطِين في كانون الأول سنة (18 هـ/ 639 م) بقصد الهجوم على مصر في وقت مبكر من سنة ( 640 م). ويبدو أن المسلمين هاجموا إرمينية البيزنطية من أرض الرافدين بقيادة عِياض بن غَنْم. وفي وقت من سنة (20 هـ/ 640 م) قاد القائد المسلم معاوية غزوة إلى قيليقيا ثم نهب يوخاتيا في بلاد الأناضول، بينما قام القائدان البيزنطيان داويت (داود) أورطايا وتيطس بحملة لم تكن ناجحة في أرض الرافدين. ومن الممكن أنْ تكون حملة بيزنطية مزعومة أرسلت إلى حمص. وفي الرابع من شهر ربيع الأول، الحادي عشر من شُبَاط/ فبراير سنة (21 هـ/ 641 م) توفي هرقل. وقد تلا موته موت ابنه، الإمبراطور قسطنطين الثالث، في نَيْسَان/ أبريل أو بين (20) و(24) من أَيَّار/ مايو (641 م) وهذا ما أدى إلى تفاقم الخلاف على العرش. وفي وقت متأخر من سنة (641 م) أُخرجت زوج هرقل الثانية وابنة أخيه أو أخته مارتينا من السلطة، فظلَّ كونستانس الثاني (Constans) حفيد هرقل من قسطنطين الثالث، والبالغ من العمر إحدى عشرة سنة، الإمبراطور البيزنطي الفريد. وقد استمرت الاضطرابات البيزنطية الداخلية، خلال الجزء المبكّر من سنة (642 م) فقام القائد فالنتينوس (Valentinus) بثورة مخفقة كانت معاصرة لإتمام فتح مصر وبدء الحملة الإسلامية على بَرْقَة (سيرانيكا).

تضع هذه التواريخ بين أيدينا إطارًا صالحًا للبحث في الجهود البيزنطية لإقامة دفاع فعَّال وتهاويها الجزئي. وبعضُ هذه التواريخ مؤكَّدٌ على نحوٍ أمتنَ من سواه.[3]

## 4. 2) الاحتكاكاتُ والصِّداماتُ الأوليَّةُ

يبدو أن البيزنطيين اعتمدوا على القبائل العربيَّةِ المحليَّة إلى جانب حلفائهم العرب التقليديين الغساسنة، في المنطقة التي جنوبي اليرموك. ففي عدد من الحالات كان الوجهاءُ المحليونَ من الأُسَر العربيَّة هُمُ القادةَ المدنيينَ كما كانتِ الحالُ في مَعان. وتشير أسماء عدد من القواد العرب الذين قاتلوا إلى جانب البيزنطيين في مؤتة إلى تحالف قبائل عربية شِمَالية كان البيزنطيون يعتمدون عليها، بمَنْ فيهم البالي (ولا سيَّما من فئات من بني إراشة، قضاعة) وجُذام، ولَخْم، وبني القَيْن، وبني كلب.[4]

كان فروة بن عمرو الجُذامي، حاكم معان، الذي اتهم البيزنطيونَ بقتله بسبب انتحالِهِ الإسلامَ، من أفراد قبيلة جُذام.[5] إنَّ فروةَ أولُ مثل لحاكم بيزنطي يقيم علاقات شخصية مع المسلمين بلغ فيها الدرجة القصوى حين انتحلَ الإسلامَ. وحالتُهُ كانتْ أنموذجًا من الاستجابة للمسلمين التي تمت، بطبيعة الحال، من دون إذْن من السُّلطات البيزنطية العليا، وهذا ما كانتِ القيادةُ البيزنطيَّةُ حريصةً على الحيلولة دونَهُ. قد تكون القصة مخترعة، لكنْ من الممكن أنَّ زعيمًا محليًا أعجب بالمسلمين، وحاول القيام بهذه الاستجابةِ الشخصيَّةِ غيرِ المرخَّصِ بها. وقصتُهُ تستبق ما قد يقوم به موظَّفونَ محليونَ آخرونَ خلالَ مسيرة الفتوحات، وردود الفعل القاسية التي تتم على يد الحكومة الإمبراطورية للأعمال المرتجلة غير المسموح بها.

تتحدث الروايات الإسلامية عن أنَّ النبيَّ محمَّدًا (ﷺ) بعث رُسُلاً يحملونَ البشائرَ بالإسلامِ إلى مختلف الملوك المعاصرين العظام، بمَنْ فيهم الإمبراطور البيزنطي، الذي فضَّل الاتصال به عبر حاكم الولاية العربية في بُصرى. ومع ذلك، فمن المشكوك فيه العثورُ على أيِّ وثيقةٍ ثابتة الأصل، وقد رُوِيَ أنَّ 'حاكم البلقاء' البيزنطي (والمقصود بذلك عادة المنطقة من الأردن بين وادي الزرقاء ووادي الموجب، لكنْ في هذه الحالة لعلَّ المقصودَ حاكمُ إقليم فِلَسْطين الثالث') اعترض الرسول المسلم الأول عند مؤتة وأعدمه. مثلُ هذه الحادثةِ قد لا يكونُ مستبعدًا، مع أنه لا يمكن التوصل إلى جواب قاطع. وكان من الممكن



أن يُنظر إلى مثل هذا الرسول على أنه وقح، وأنه قد يؤذي مكانة الإمبراطور. لقد كانت البلقاءُ أقربَ منطقةٍ في الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة إلى المدينة، ومن ثَمَّ، فمن المنطقي أنها كانت موضعَ الصلات والاتصالات الأولى.[6]

من المحتمل أن يكون المسلمون جرَّبُوا أن يوصلوا هذه الرسالة إلى هرقل. لكنْ ربما يكون من الصعوبةِ أنْ ينجحَ أيٌّ في الوصولِ إليه مباشَرةً، أو أن يُتاح له أن يطلع على محتوى رسالة كهذه أوصلها فريق ثالث. ومن المؤكَّدِ أنْ لو تمَّ تسليمُ هذه الرِّسَالة إلى هرقل بطريقة ما، فإنَّ الحُسْبَانات المسوِّغة للتصرُّف البيزنطي المسيحي كانت تقتضي غالبًا إتلافها، وإتلاف أي قيودٍ وذكر لها، أو أي شيء قد يتيح للمسلمين الزهو، أو، على العكس من ذلك، قد يثير في نفوسِ المسيحيين ومؤيدي الأسرة الهرقلية سبيلاً للشك. وليس من الحكمة محاولةُ التحقيق في هذه القضية إلى أبعد من ذلك؛ وليس ثمة مجموعة حقيقية من المصادر يمكن أن تؤدي بهذا التدقيق إلى نتائج أكيدة. إضافةً إلى ذلك، فلم يكن ثَمَّةَ أيُّ سيطرةٍ بيزنطيَّةٍ بيِّنة فعّالة في البلقاء قبيلَ معركةِ مؤتةَ مباشَرةً. من المحتمل أن تكونَ قامت هناكَ سلطاتٌ محليَّةٌ كانت تدعي أنها تقوم بالأعمال باسم هرقل، لكنها في واقع الأمر كانت تقوم بالأعمال مستقلة عن الإمبراطور، ودون أي اتصالٍ معتمدٍ وفوريٍ معه أو مع معاونيه ومستشاريه المباشَرين.

يروي المحدِّثُ الإسلاميُّ ابنُ سَعْدٍ أنَّ رسولاً مسلمًا أوصَلَ رسالةً من النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) إلى الحارثِ بنِ أبي شَمِير الغَسَّانيِّ، الذي كان يستعد لاستقبال هرقل في غوطةِ دمشقَ، لمَّا كان يقومُ هذا بحجِّه من حمص إلى القدس. في الرِّواية أنَّ أخبارَ النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) أغضبت الحارث هذا إلى درجة أنهُ هدَّدَ بأنْ ينتقلَ إلى المدينة للقضاء على الإسلام. وقد أخذ بجمع الجنود لهذه الحملة لما أمره هرقل بأن يرافقه إلى القدس.[7] وثَمَّةَ روايةٌ بعيدةُ الاحتمال تقول: إنَّ هرقلَ، لمَّا علم بأمر النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) جمعَ قوَّادَهُ في مبنًى مغلق، وتحدَّثَ إليهم من مكان مرتفع لأنه كان يخشاهم [على حياته]. وتفترض الرواية أنه نصحهم بأن يتقاسموا البلاد مع المسلمين.[8] ليس لدينا سبيل صحيح للتأكد من أن هذه القصص

كاذبة. وثمة أيضًا رواية بيزنطية متخيلة تمامًا، وهي متأخرة زمنيًا، تقول: إنَّ النبيَّ محمَّدًا (ﷺ) التقى هرقلَ، لَـمّا كان هذا عائدًا من حملاته الفارسيَّة، وحصل منه على إذن بأن يقطن في المدينة.[9]

كانتْ ثَمَّةَ صلاتٌ تجاريَّةٌ بين شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ وسوريَةَ. فالسفر والاتصال لم يكونا مستحيلين. وكانت الجماعات الدينية على اتصل دائم مع نظيراتها في الأمكنة المختلفة، ربما مع وجود بطيء في الاتصل، لكنْ مع ذلك، فقد كان بعضُ الأخبار ينقل في الاتجاهين. ومن الحمق أن نفترض جهلاً مطبقًا لسوريَة من بعض سكان شبه الجزيرة العربية، أو العكس عن. وقد رافقَ تلك الاتصالات السلميَّة بعضُ الانطباعات والتصورات والأخبار عن القوة العسكرية الخاصة بكلا الطرفين وعدم وجود التحصين. وعلى كلٍّ، فإنَّ قلةً من اليونان والأرمن توغَّلت حتى شبهِ الجزيرةِ العربيَّة في بواكير القرن السابع، هذا إنْ كان ثَمَّةَ مَنْ فعل ذلك، ومن المحتمل أن تكون فئة قليلة تجاوزت إلى الجنوب من وادي الموجب. لعل هذا الجهل قد أسهم في الخوف اللاحق عند البيزنطيين من القيام بعمليات عسكرية هناك، في مكان بعيد عن الأرض المألوفة. فقد كان ثمة خطر أكبر من المجهول في تلك المنطقة.

إن قتل زيد بن عمرو بن نُفيل، وهو أحد الذين انتحلوا الإسلامَ في وقت مبكر، على أيدي متحمِّسين مسيحيين في حصن الميْفَعَة/ أم الرّصاص (وهي التي ورد اسمُها ميغا في نوتيتيا ديغنتياتُم/ Notiti Dignitatum) شرقي البحر الميت، لم يكن عمل قوى بيزنطية رسمية، بل كان نذيرًا باندلاع صراع بين البيزنطيين والمسلمين في العقد التالي. لقد كان من قبل 'حصنًا يقيم فيه الجنود إزاءَ الصحراء'. وبحَسَب الرِّواية الإسلاميَّة، حدث هذا القتلُ قبل إعادة أيِّ سيطرة بيزنطيَّة على المنطقة.[10] وتشيرُ حادثة القتل إلى أنَّ الإسلام كان آخذًا في الانتشار، وقد سبق ضعف القوة الفارسية في مناطق شرقي البحر الميت، على نحو مُدركٍ أكثر منه غير محسوب. لقد كانت الدعوة الإسلامية، في واقع الأمر، تخترق منطقةً خاليةً من السلطان، قبل أن يحاول البيزنطيون أن يسيطروا من جديد على المنطقة حقًا بعد رحيل الفرس أو في أثناء القيام بذلك. والمصادر



الإسلامية لا تشير إلى بيزنطيينَ، ولا إلى فرس بشأن الحادثة. وفي أصدق الأحوال، فإنَّ أيًا إذا كان يتصرَّف باسم السلطة البيزنطية في الميْفَعَة، كان يفعل ذلك بديلاً، وليس قائدًا لقوًى بيزنطيَّةٍ نظاميَّةٍ سنةَ (628 م).

في أواخر عشرينيات القرن السابع كان الاضطراب والتقلب يسيطران على منطقة شرقي البحر الميت. ولم تكن أم الرصاص (الميْفَعَة) تبعد كثيرًا إلى الشَّمَال عن الربة/ مؤاب أو مؤتة. وقد نجح المسلمون بسرعة في أن يصبحوا خطرًا على المواصلات البيزنطية مع فِلَسْطين، وعلى السيطرة البيزنطية على فِلَسْطين نفسها في منطقة شرقي البحر الميت وما إلى الجنوب منه. وقد ظلت القيود التاريخية مطمورة كليًا تقريبًا، حتى أوضحت الحفريات الأثرية والقراءة الدقيقة الجديدة للمصادر العربية والرومانية المتأخرة هُويَّة مؤاب ومؤتة أيضًا وأهميتهما.

### 4. 3) مُؤْتة

كانت معركة مؤتة أو المصادمة التي تمت هناك الصدام المسلح الأول بين المسلمين والقوى العسكرية البيزنطية، وقد حدثت في حياة النبي محمَّدٍ (ﷺ) وانتهت إلى كسر واضح للمسلمين، لكنَّها شغلت مكانة كبيرة في الرِّوايات الإسلاميَّة اللاحقة بما تضمَّنتهُ من الأمور العدائيَّة التي تعرَّض لها المسلمونَ الأوائلُ. فقد روي أن النبيَّ محمَّدًا (ﷺ) أرسل أربعة قواد إلى سوريَة البيزنطية، بعض ذلك كان ردًّا على قتل رسوله ورفضهم رسالته.[11] وقد جاء في رواية ما مفادهُ أنَّ سكان قرية المشب، التي لم تتضح هويتها جنوبي الكرك، هاجموا المسلمين وهم في طريقهم إلى مؤتة، وهذه إشارة نادرة لمقاومة محلية.[12] كانت قاعدة المسؤول البيزنطي ثيودور في مدينة موخيا، وقد عرف من رجل من قبيلة قريش الموعد الذي حدد لهجوم المسلمين. فيما يخص تعرُّف موخيا، فقد ارتُئِيَ أنها قد تكون تحريفًا لمؤاب، لعل المقصود بها مدينة مؤتة بالمقابل لسهل مؤتة مع تهجئة مختلفة. إن هذا التطابق ليس مؤكدًا؛ والتطابق المقْبُول هو أن يكون المقصود قرية المِحْنَة التي تطل على سهل مؤتة على بعد نحو (19) كيلومترًا إلى الجنوب من الكرك القلعة الأردنية الحصينة.[13]

من المحتمل أن معركة مؤتة وقعت يوم (10) من نَيْسَان/ أبريل (في العاشر من ذي الحجة) لكنَّ المرجح هو في جمادى الأولى في سنة (8 هـ) للهجرة، أي: أيلول/ سبتمبر (629 م). لم تختر المصادفة مؤتة مكانًا للقاء، ولم تُوضع فرق بيزنطية هناك في القرن الرابع على رواية نوتيتيا ديغنيتاتوم. ومع أن التنقيب الأثري لم يكشف عن احتلال عسكري روماني متأخر، أو بيزنطي، أو استعمال لهذه المنطقة في العقود المتأخرة من القرن السادس، أو في الفترة المبكرة من القرن السابع، فهي نقطة يصح أن ينتظر قيام مقاومة بيزنطية فيها. وكانت الفرق التي استخدمها المسؤول ثيودور تجاه المسلمين جنود الحراسة إزَاءَ الصحراء، والذين كانوا عربًا حصرًا.(14)

إن تفاصيلَ العمليات مذهلة. فقد روي أنَّ خالدَ بنَ الوليدِ لجأ إلى نظام معقَّدٍ في مؤتة.(15) لم يكن قتالاً غوغائيًّا مسلَّحًا فحسبُ. ينقل ثيوفانس أنَّ ثيودور تلقى خبرًا من قريش عن الوقت الوشيك لهجوم المسلمين. وقد هجم المسلمونَ بينما كان العرب المحالفونَ للبيزنطيين يصلونَ. إنَّ هذا التعبيرَ غريبٌ. إذْ لعلَّ ثيوفانس كان يعتمدُ مصدرًا إسلاميًا يشيرُ إلى تقدمة وثنية يقوم بها مسيحيون.(16) وقد قام ثيودور بهجوم ناجح على المسلمين في سهل مؤتة، وقتل ثلاثة من قوادهم، مع أن خالد بن الوليد نجا من القتل. إن إشارة ثيوفانس هي الشاهد الفريد الواضح باليونانية، في مقابل الروايات الإسلامية العربية، عن المعركة والوضع الذي كان قائمًا شرقي نهر الأردن بعد استعادة السلطة البيزنطية هناك،(17) لكنَّ 'انتصارًا ثانيًا' لهرقل ورد ذكره عند مؤرِّخِ البَلاط الهرقلي جورج من أهل بيزيديا في كتابه (Hexaemeron) يكاد يكون إشارة إلى الانتصار البيزنطي في مؤتة.(18)

وقعت معركةُ مؤتةَ بعدَ شهرينِ وبعض شهرٍ من التقاء هرقل مع القائد الفارسي شهرباراز، الذي تولى المُلكَ بعد ذلك، في شهر ربيع الأول (8 هـ)؛ تمُّوز/ يوليو سنة (629 م) في أرابسّوس في قبدوقيا لبحث شروط السلم النهائية.(19) عندها فقط تعهد شهرباراز بسحب القوات الفارسية من البلاد البيزنطية المحتلة في سوريَة وفِلَسْطين ومصر وأرض الرافدين. وقد كانت المعركة جزءًا من سَبْر بيزنطي لمناطق لم تقم لهم فيها عمليات عسكرية فترةً



خلت تتجاوز العقدين من السنين. كان البيزنطيون يحاولون ترسيخ سلطتهم في مناطق تخلّى عنها الفرس. وكان البيزنطيون يمتدون جنوبًا، معتمدين على العون من القبائل المحالفة، بينما كان المسلمون يحاولون سَبْر الشّمَال. فكان الصدام في مؤتة.

بقطع النظر عن التأريخ (زمنيًا) تدلُّ الروايات الواردة عن مؤتة على أنَّ البيزنطيين استعادوا نوعًا من السلطة في تلك المنطقة القاصية إلى درجة ما شرقي نهر الأردن، ولا بدَّ من أن عودة البيزنطيين إلى البلقاء مرَّت عليها فترةٌ قصيرةٌ جدًا، لا تتجاوز الشَّهْرَين من حيثُ فرضُ السلطة المباشَرة ليسَ غيرُ، وذلك في أيلول/ سبتمر سنة (629 م). وقد وُضِع قائد بيزنطي في ذلك الموقع الجنوبي البعيد. ويبدو أن البيزنطيين استأجروا، على وجه السرعة، عربًا للمساعدة في الدفاع أمام هجوم قد يقوم به عرب آخرون. ولعلّ بعض القبائل وفئات من السكان المحليين أعلنوا، ولو اسميًا، سيادة الإمبراطورية البيزنطية وهرقل في تلك المنطقة، لكن إطباق هرقل على السلطة بطرائق فعّالة ما كان يمكن أن يتم. ولعل آخرين كانوا يقومون بالعمل نيابةً عنه. فالأمر يحتمل أن يكون خَطِرًا، وفي الواقع، فمن غير المتصوَّر أنْ يكونَ هرقلُ أنفذ أعدادًا ذات أهمية من القوات إلى المناطق شرقي نهر الأردن، في حين لم يتم التأكُّد من أنَّ الفرس كانوا حقًّا يُخلون مناطق أخرى مهمة محتلة.، وإذا ما كان احتلالُ البلادِ شرقي نهر الأردن والبحر الميت تمَّ بطريقةٍ فعَّالةٍ. إنَّ عودةَ الخطر الفارسي، أو مناوشات مع الفرس في شِمَال سوريَة أو أرض الرافدين، لا بدَّ من أنْ تهدِّدَ المواصلات مع أيِّ قوات وموظفين بيزنطيين يمكن أن يوسّعوا نطاق وجودهم في فِلَسْطين والمناطق الواقعة شرقي البحر الميت.

لم يتوافر لأغلب الجنود والقواد البيزنطيين، ما لم يكونوا جُنِّدوا محليًا، أوأُطلق عليهم أنهم ممثلو سلطة الإمبراطور، من الوقت ما يمكِّنُهم أن يتعرَّفوا شخصيًا الوضعَ المحليَّ هناك، والحاجَاتِ العسكريَّةَ. وباستثناء المجندين محليًا، فلم يكن تمَّ لهم اختبار شؤون المنطقة، ولا بد من أنه لم يكن لديهم الوقت لبناء أو إصلاح الأبنية أو الطرق أو الجسور أو المخازن أو اللوازم أو أبراج المراقبة. ولم

يكن لديهم في الواقع وقت قبل هجوم المسلمين على مؤتة، ولعلَّ حداثة وجودهم شجَّعَت المسلمين، أو كانت عنصرًا في التّشجيع، على الهجوم، وهو أمرٌ لم يلقَ العنايةَ في الرِّوَايات التاريخيَّة الإسلاميَّة. لقد كان الوضع البيزنطي العسكري شرقي البحر الميت معرَّضًا للعطب وجاء في أعقاب انتهاء القتال مع الفرس. وكانت القواتُ تكادُ تتمُّ الاستيلاءَ على المخيَّمات والمواقع القديمة، غالبًا غيرِ مستعملة. وأولئك الذين هم من المنطقة، والذين لهم خبرة بها، لا بدَّ من أنهم تأذَّوا من غياب السلطة البيزنطية عنهم خمسَ عشرةَ سنةً. وفي هذه الأحوال، فإنَّ خير ما كان يمكن للبيزنطيينَ أن يقوموا به، وفي حدود ما تسمح به الموازنة وعدد القوات، هو احتلال المواقع البيزنطية القديمة إلى أن يتاح لمسح جديد أن يتمَّ، وقرارات استراتيجية أن تتخذَ بشأن أيٍّ من التبدّلات. هذا هو الوضعُ المحتمل في الوقت الذي وقعت فيه معركة مؤتة، في جمادى الأولى (8 هـ) الموافق أيلول/ سبتمبر سنة (629 م).

### 4.4) حَجُّ هرقلَ

إن تحديد تاريخ زيارة هرقل للقدس في (21) من آذار/ مارس سنة (630 م) (أو الأقل احتمالاً 631 م) مُهمٌّ بشأن تاريخ حكمه، وإلى تاريخ القدس، وبشأن تاريخ المقاومة البيزنطية أمام المسلمين في فِلَسْطين وسوريَة،[20] ولو أنَّ هذا الأمر قد أهمل. جاءت زيارة هرقل للقدس وفِلَسْطين وأجزاء أخرى من جنوب سوريَة في وقت كان فيه الخطر الإسلامي يتنامى، ويتخذ شكلاً واضحًا، وفي وقت كان فيه من الصعوبة ألا تصلَ إلى أسماعه بضعةُ أخبار عن التوسُّع الإسلامي، ولا سيَّما أنه كان يقومُ بزيارةٍ خاصَّة لمنطقةٍ توشكُ أنْ تتعرَّض للخطر. يروي ابنُ هشام أن هرقل انتقل إلى القدس من طريق حمص، وفي الواقع، فمن المحتمل أن سَجَّادًا مطيَّبًا بالنباتات العطرية فُرش في الطريق الذي اجتازه.[21] ولا بدَّ من أن هذا العمل، الذي يدل على اتضاع كبير، ترك أثرًا في نفوس المشاهدين المعاصرين الذين وعت ذاكرتهم إرثًا شفويًا، ومن هنا وجد سبيله إلى الرواية الإسلامية. إن أي تخطيط محتمل لحملة ما كان من الممكن أن يثير إشاعات متباينة الأنواع عن تجمعات بيزنطية، وجدت سبيلها إلى كتاب «المغازي» للواقدي. إن حج هرقل خلَّف،



ولا شك، أثرًا قويًا في ذاكرة بعض العرب الذين وجدت أخبارهم سبيلها إلى روايات بعض النقلة من المسلمين.[22]

مما يمكن تصوره أنَّ هرقلَ عرف عن تحركات دينية داخل شبه جزيرة العرب، لكنه طرح جانبًا الأخطار التي قد تنتج من حملة عسكرية مبهمة إلى هناك، وبدلاً من ذلك طلب إلى القيادة القبليَّة الغسانيَّة أنْ تصحَبَهُ إلى القدس. وقد جَازَ في طريقه إلى القدس سنةَ (630 م) بلادًا كان الغسانيون هم المشرفينَ عليها عادةً. ومن المحتمل أن جيشه الخاص المختار رافقه حتى القدس.[23] إن تعيينَ سنة (630 م) لزيارةِ هرقلَ القدسَ يُضفي دقةً أكبر على الرِّوَاية العراقيَّة التي تقول: إنَّ هرقلَ عرف بخطر حملةٍ إسلاميَّةٍ لما كان في فِلَسْطين (رواية كل من الأزدي وابن أعثم الكوفي وسيف) أو في دمشق، [على ما جاء عند ابن سعد ويوتيخوس (Eutychius)].[24] لكنْ في ذلك التاريخ كان يصعب أنْ يتصوَّرَ مدى الحملاتِ العسكريَّةِ المنتظرة. إنَّ الصِّدامَ في مؤتةَ أيسرُ فهْمًا بسبب الرَّغبةِ البيزنطيَّة الواضحةِ في ضمان منطقة شرقي البحر الميت في النصف الثاني من سنة (629 م) (في شهر أيلول قبل حَجِّ الإمبراطور المنويِّ القدسَ في شهر آذار المقبل). لقد كان من الضروري محاولة تجنب أيِّ غزوات بدوية محرجة خلال ذلك الحج.

سواءٌ ألقى هرقلُ خطبةً، كتلك التي يروي الأزديُّ أنه ألقاها في فِلَسْطين، أم لا، فمن المؤكَّد أنْ ليسَ ثَمَّة نصٌّ بيزنطي يؤكد ذلك الاحتمال الأكبر أن يكون بلغه شيءٌ عن خطر اضطرابات عربية أو إسلامية وتهديد بهجوم، وأنه حاول القيام باستعدادات دفاعية تجاه ذلك. ليس بين المصادر المسيحية المعاصرة واحد يبدي أيَّ معرفة بخطر هجوم عربي أو إسلامي أو باستعدادات لمثل هذا الاحتمال. إنَّ صفرونيوس المقدسي يقرِّر في سنة (634 م) أنَّ الاختراق الإسلامي جاء «على غير انتظار».[25] وليس من الممكن أن يكون هرقل بدأ بتنظيماته الدفاعية الكبرى لحمايةِ فِلَسْطين وسوريَة في وقت مبكر من سنة (630 م) أو في وسطها. لكنْ من الممكن أنه وضع موضع الأداء في ذلك الوقت ترتيباتٍ عسكريَّةً مؤقَّتةً، ولعلَّهُ أدركَ المشكلاتِ القادمةَ مع القبائل

العربية المقيمة شرقي البحر الميت ووادي عَرَبَة.

إن الرواية العراقيّة الأزدية لا تحدد تواريخ معينة، ولكنها تشير إلى أن هرقل بلغه أمر الخطر الإسلامي الوشيك لمّا كانَ يحجُّ القدسَ، وهناك بدأ، كما فعل في دمشقَ وحمصَ، بتوعية السكان للدفاع. وفي النهاية اتخذ أنْطَاكِيَة، في شِمَال سوريَة، قاعدةً لعملياته. إنه في الواقع غادر القدس في وقت مبكر من سنة (9 هـ/ 630 م) بعد أن أتمّ حَجّه، وأعاد البطريركية إلى المدينة، وذهب مباشَرة إلى دمشق.[26] من المحتمل أنه لم يعد إلى دمشق حتى وقت مبكر من سنة (634 م)؛ حيثُ كان ذلك لما عرف بخبر انكسار البيزنطيين في معركة دارثن على بعد (12) ميلاً من غزة، وذلك بحَسَب رواية يوتيخوس. إنَّ حقيقةَ قيامه بهذه الرِّحلة الثانية مكّنه من فهْمٍ عسكري أفضل للأرض والمُناخ ووسائل المواصلات والسكان والمدن على الطريق الرئيس بين شِمَال سوريَة، بما في ذلك العقبة في خلقيس / قِنَّسْرِيْن، وبالقدر نفسه حمص ودمشق. إنه، في حقيقة الأمر، كان يمتلك فهمًا وتصورًا للمنطقة ما عرفه أي إمبراطور منذ القرن الثالث، إن تنقلاتِه في المنطقة لا بدَّ من أنها وجَّهتْهُ إلى أهمية العرب المسيحيين من حيثُ دورُهُم الأمنيُّ. ومع ذلك كلِّه، فقد أخفق في اتخاذ استعدادات دفاعية صالحة أمام المسلمين، سواءً باستخدام العربِ المسيحيينَ الأصدقاءِ أم بتجنيد ما يكفي من الجند البيزنطيينَ من مناطقَ أخرى.

كانت أولويات هرقل بعد مغادرته القدس سنة (9 هـ/630 م) هي: 1): ترميم الأمكنة المقدسة المهدّمة في القدس، 2): وحل المشكلات القائمة ضمن المنظمة اللاهوتية مثل أسقفية مودستوس في القدس، 3): والسياسة اليهودية، 4): وبذل الجهود على نحوٍ خاصٍّ لرأب الصدع في الخلاف (الكريستولوجي) المتعلق بطبيعة المسيح بحمل المختلفين على الاتفاق والتوحد وإعادة صياغة الفكرة، ولا سيَّما للتوفيق بين الفئات المختلفة القائلة بالطبيعة الواحدة، بمن فيهم أولياؤه من الأرمن واليعاقبة.

في وقت متأخر من سنة (10 هـ/ 631 م) شارك هرقل في مجلس كنسي في مَنْبِج/ هيرابوليس في شمالي سوريَة، وبعد ذلك اشترك في مجلس آخر في أرْضُروم/



ثيودوسيوبولس، في إرمينية البيزنطية بين شهري ذي الحجة (9 هـ) وذي الحجة (10 هـ) شُبَاط/ فبراير سنة (631 م) وشُبَاط/ فبراير سنة (632 م). يدل هذا الأمر على أنه لم يكن منصرفًا، برُمَّتِه، إلى أي خطر مسلم أو عربي مباشَرةً بعد مغادرته القدس؛ بعد حَجِّهَا، حاملاً آثار الصليب. إن هذين المجلسين في مَنْبج وثيودوسيوبولس موثقان جيدًا، إذْ من الممكنِ استنتاجُ أنه إذا كان ثَمَّةَ مادَّةٌ في الرِّواية العراقيَّة، فإنَّ ذلك يعود إلى أن هذه دمجت وخلطت بين عودة هرقل من حَجِّ القدسِ، وأحداث في آخر سنة (633 م) ومطلع سنة (634 م) وهذه ليس لها ما يؤيدُها من الوثائق الأكيدة في المصادر البيزنطية. إن زيارته لهيرابوليس/ منبج وثيودوسيوبولس/ أرْضُروم أبقته في مناطق حيثُ يمكنُ تقاريرَ آتيةً من شرق البحر الميت ووادي عربة وفارس أنْ تصلَه بسهولة. وكان من اليسر للقواد العسكريين أو لوجهاء من سكان سوريَة وفِلَسْطين أن يخبروه عما يقلقهم؛ من تململ قبائل عربية إلى الجنوب الشرقي.

ليس ثمة ما يدل على أن هرقل حَجَّ القدسَ مرَّةً ثانيةً. ومن المؤكد أن المصادر كانت ستشير إليها إذا ما تمت. في الوقت الذي كانت الهجمات الإسلامية الكبرى تشن على البلقاء والمنطقة المحيطة بغزة، كان هرقل ينصرف إلى المشكلات الكنسية واللاهوتية والعمرانية الخاصة بالكنائس. ومع ذلك، فإن يوتيخيوس (Eutychius) وهو مصدر موثوق به إلى درجة ما، يروي أن هرقل كان في دمشق، التي لم تكن تبعد عن القدس كثيرًا، حيثُ تلقى خبر معركة داثِن في (28) من ذي القِعْدَة (12 هـ) (4 من شُبَاط/ فبراير 634 م) التي أكدت مدى جدية خطر المسلمين (لاحظ، على سبيل المثال، نبرة القلق لصفرونيوس المقدسي، وهو مصادفةً من مواليد دمشق، في كتابه الكنسي وعظته يوم عيد الميلاد سنة 634 م). ومع ذلك، فإنَّ انتقال هرقل على الأقل حتى دمشق يقوي مصداقية الرواية العراقية، ويوضِّح الأسباب المفهومة التي أدت إلى الخلط الضئيل بين طريق حج الإمبراطور سنة (630 م) وتحركاته العسكرية سنة (634 م).

إن هذا لا يبطل شهادة الروايات العراقية. فمن اليسير رؤيةُ كيف حدث

هذا الخلط، ولا سيَّما أن هرقل اتخذ بعد ذلك من حمص قاعدةً أساسًا للعمليات، ولعله حاول من هناك أن يعد أهل فِلَسْطين وسوريَة للدفاع عن أنفسهم تحت إمرة الإدارات العسكرية الطارئة والقواد الذين عينهم على مدنهم في مواجهة الهجمات الإسلامية الوشيكة. مع القول: إنَّ الروايات العراقية لا يمكن أن تقبل كما هي، فإن هذا لا يعني أنها كلها عديمة الفائدة. إنَّ التحديَ هو محاولة التثبُّت من أيِّ الأجزاء فيه صحَّة، وبين أيدينا دمجٌ وخلطٌ في الرِّواية العراقيَّة فيما يخص أمرَ حَجِّ هرقلَ القدسَ والمغادرة إلى الشَّمَال مرورًا بدمشق، حيثُ توقف وقتًا.

الرواية العراقية تحتفظ ببعض الحقيقة. ورفضها يعني رفض يوتيخيوس أيضًا، الذي لا يمكن من دونه ترتيب الحوادث في حكم هرقل. والخلاصة، من المحتمل أن هرقل لم يعد إلى القدس بعد حجه مع آثار الصليب في سنة (630 م) بل لعله وصل إلى موضع قريب من دمشق في مطلع سنة (634 م). ولأنه كان في دمشق في وقت مبكر من سنة (634 م) فلا يمكنه أنْ يتجاهَلَ الخطر الإسلامي. ولعله قام ببعض الترتيبات لشد أزر المقاومة بينما كان ينتظر المددَ من أجزاء أخرى من الإمبراطورية.

لا يدعي الأزدي أن هرقل كان في القدس لما بلغه خبر الحملات الإسلامية. إنه يدعي أنه كان في 'فِلَسْطين'، سواءً الولايةَ فِلَسْطين الأولى كان يقصدُ أم فِلَسْطين الثانية، على نحو فيه غموض، أو على نحوٍ عامٍّ. مع أنَّ من الأهمية كونَهُ في فِلَسْطين أو في دمشق، فإنَّ الأمرَّ الأهمَّ، في كلِّ حل، أنه كان على مقربة كافية، على ما ترى الرواية العراقية، تمكِّنه من محاولةٍ تنظيم المقاومة المحلية، وتعيين قوَّاد عسكريين للمدن والحصون المهمة، التي كانت ستصبح القلاع البيزنطية والنقاط البيزنطية المهمة للاستراتيجية الدفاعية البيزنطية الأولية.

بعد أن يستشهد الأزدي بخطبة هرقل إلى سكان سوريَة بقليل، يدَّعي أنه اتخذ من مدينة أنْطَاكِيَة مقرًا له، وخلَّف أمراء من جنده على مدن 'الشام'. هذه إشارة إلى إقامة فجائية لمؤسسات عسكرية طارئة في مدن معينة في سوريَة



وفِلَسْطين.[27] وليس ثَمَّةَ ما لا يقبل التصديق في هذه الإشارة. فهي تتسق مع تجارب بيزنطية سابقة، ولا سيَّما في القرن السادس، من حيثُ إقامَةُ قيادة عسكرية طارئة على رأس مسؤوليات حكومية مدنية كانت قائمة من قبل،[28] وسوى ذلك من تعيينات معاصرة قام بها هرقل من حيثُ العهْدَةُ إلى قواد عسكريين بأن يتسلموا مراكز حكومية مدنية سابقًا.[29]

إن التأكيد المهم للأزدي نجده عند ابن أعْثَم الكوفي الذي لعله توفي سنة (314 هـ/ 926 م). توفي ابن أعثم قبل الصليبيين بمدة طويلة، ومن ثَمَّ، فمن غير الممكن أن تكون محتويات تاريخه قد تلوَّثت بالأدب الصليبي، وهذا ما عده دِغويه مشكلةً من مشكلات رواية الأزدي. لقد فُقد قسم من الأجزاء الرئيسة لابن أعثم، والجزء الموجود من ‹كتاب الفتوح› يبدأ في منتصف خطبة أو رسالة لهرقل الذي كان في فِلَسْطين على ما يبدو (وهذا يتَّضح في الصَّفحة التالية من تاريخه). إنه ينذر بقدوم المسلمين. وهذا الإنذارُ في رواية الكوفي شبيهٌ بالنصِّ الكامل الذي يرويه الأزدي. وهو ينبئُ سامعيه بأنه قد عين قوادًا فوقهم، وأنه يتحتم عليهم أن يطيعوا قوادهم.[30] وبحَسَب رواية ابن أعثم الكوفي أرسل هرقل هذه الرسالة إلى دمشق وحمص وحلب (يِذْهويا أو بوريه القديمة) في حينَ اتجه هو إلى أنْطَاكِيَة حيثُ اتخذها مركزًا لإقامته. هذه القطعة الجزئية من ابن أعثم كبيرة الأهميّة لأنها تظهر مدى اتساع انتشار هذه الرواية عن هرقل في الروايات العراقية. إنها تثير سؤالاً هو: كيف يُمْكِن رواةً في الكوفة أو البصرة أنْ يعرِفُوا هذا، ولا يتاح ذلك لسواهم من مناطق أخرى من العالم الإسلامي؟ إنها تظهر مرةً ثانية أنه كانتْ هناك روايةٌ إسلاميَّةٌ أنَّ هرقلَ جرَّبَ أن ينذر سكان المدن الكبرى الهجومَ الإسلامي القادم، والحاجةَ إلى الدِّفَاع عن أنفسهم وأسرهم ودينهم وأملاكهم.

كان دِغويه مخطئًا تمامًا لَّما ادَّعى أن الرواية الأزدية عن هرقل تستمد من الحقبة الصليبية، وقد تمكن كونراد من تفنيد استنتاجات دِغويه المفروضة بما لا يقبل الشك.[31] ومن المؤكد أن هذه الروايات عن هرقل كانت تنتقل في حلقات الرواة في الكوفة في القرن العاشر، كما يظهر ذلك ابن أعثم، لكن

روايـة سـيف بـن عمـر، على ما حفظه لنا الطبري، تظهر أيضًا بعض الاطلاع عـلى هذه الرواية. ومن ثَمَّ، لا تلقى رواية الأزدي قَبُولاً أكبر في جميع التفاصيل، بـل جزئـيًا، إذْ يـبدو أنـه يشـير، عـلى نحو أدْعَى إلى القَبُول، إلى المدن البيزنطيّة، والألقاب الرسمية، والأحوال أكثرَ من ابن أعثم.

### 4. 5) الوجودُ العسكريُّ البيزنطيُّ شرق البحرِ الميتِ

شملـت القـبائل العربـية الصـديقة الـتي جـند مـنها البيزنطيون الجنود ضد المسـلمين بَهْـرا وكلـب وسَـليح وتنوخ ولَخم وجضام والغساسنة وبني إراشه.[32] وكـان الجـنود الذيـن اسـتخدمهم البيزنطـيون في مؤتـة من لَخم وجُضام وبني القَـين وبَهْـرا وبَلـي،[33] وكان قائدهـم من بَلي من بني إراشَه. وثمة رواية أخرى تؤكـد أنـه كان غسانيًا، هو ابن أبي سبرا، وهي إشارة نادرة إلى وصول عمليات الغساسـنة إلى هـذا المكان البعيد في الجنوب. إنَّ من العسيرِ التوفيقَ بينها وبين الـرواية الأخـرى، مـا لم يكـن هـناك قـائد عربي للجميع، بل ثيودور البيزنطي وحـده. ولا يـبدو أن البيزنطـيين اسـتخدموا الكثيرين من اليونان أو الأرمن أو سـوى ذلـك مـن الجـنود غـير العـرب في مؤتة، ولو أنَّ القائدَ العامَّ كان المسؤول ثـيودور.[34] إنَّ الأعـدادَ الـتي جـندها البيزنطـيون هـي، بطبـيعة الحال، غير محددة، لكـن مـن المسـتبعد أن تكـون تجـاوزت (1.000).[35] لم يكونـوا فقـدوا جمـيعَ روابطهـم مـع القـبائل العربـيَّةِ، الـتي كـان مـن الممكن أنْ تعارِضَ بعنفٍ دخول قبائل عربية أخرى في منطقتهم.

لـيس بـين المصـادر مـا يقـول: إنَّ الهجمـاتِ الإسـلاميَّةَ كانـت مفاجأةً تامَّةً للقـيادة البيزنطـيَّة، مـع أنهـا صعقت الجموع الكبيرة في سوريَة وفِلَسْطين. حتى المصـادر البيزنطـية، مـثل نـيكفوروس تلمح إلى أن هرقل كان واعيًا للمشكلة، وأنَّ هـذا كـان السبب في أنه انتقل إلى أنْطَاكِيَة بسبب تهديد العرب للمنطقة، والرَّغـبة في أنْ يكـون قريـبًا من حَلْبَة الصراع، على ما يبدو لإصدار القرارات الأصـح، وكـي يـتمكَّن مـن أنْ يسـتجيبَ عـلى نحو أسرع للأزمة.[36] السُّؤال الأكـبرُ هُوَ: إذا كانت لدى البيزنطيين المقدرة على الأطلاع على أمور المسلمين، وأن يسـتغلوا ضعفهم، لماذا لم يفيدوا من ذلك إفادةً أكبر. لعلَّ الانتصارَ في مؤتة



دفعهـم نحـوَ الـتهاون، أو لعلَّهـم، بسـهولة، لم تكـن لهم القدرةُ على الاستعانة بمصادر مناسبة لمقابلة التحدي.

كـان المسـلمون في سـنة (8 هــ/ 629 م) وفي بضع السنوات التي تلت تلك السـنة مباشَـرة، يخشـون مقدرة البيزنطيين على تجنيد قوات وتصويب هجومهم نحوهـم، ولا سـيَّما مـن المـنطقة الـتي تقع جنوبي وادي الموجب مباشَرة. لعله لم تكـن للبيزنطـيين حامـيات مـنظمة جـنوبي وادي الموجـب، عـلى غرار ما فعله الـرومان في وضـع حامـيات منظمة، لكن معركة مؤتة حصرًا والأنباء، الصحيح مـنها والكـاذب، عـن الحشـود البيزنطـية مـن رجـال القـبائل العربـية ومعهـا، احـتمالاً، بعـض القـوات البيزنطية الخاصة في مؤاب/ أريوبوليس، كانت تشير إلى أن البيزنطـيين كـانوا قـادرينَ على ممارسة بعض السلطة هناك، والإفادة من مكانـتهم لمـآرب عدة. إن الشائعات التي رُوِّجت أنَّ البيزنطيين، بمنْ فيهم هرقلُ المحـتمل وجـوده، كانوا يجنّدون قوات ويجمعُونها في مؤاب/ أريوبوليس، تشير إلى أنهـا مـا زالـت موقعًا بيزنطيًا عسكريًا ذا شأن، بقطع النظر عن ضعف هيكليَّة القـوات أو انعدامهـا؛ فالمسـتولي علـيه يسـتطيع أن يسـيطر عـلى التـنقل من الجنوب أو الشّمَال.

كـان مـن الطبـيعي للبيزنطـيين، بعد استرجاع سوريَة واستباقًا لزيارة هرقل كي يعـيد آثـار الصليب إلى القدس، أن يؤكدوا دعواهم بشأن مناطق شرقي نهر الأردن والـبحر الميـت، وأن يسـتخدم القـائد البيزنطي القبائل العربية المسيحية الحليفة في وضـع هـذه السياسـة موضـع العمـل. إن مؤتة والرواية الكاذبة القائلة: إنَّ القوَّاتِ البيزنطـيَّةَ الـتي كانـت تـتجمَّعُ في مـؤاب/ أريوبوليس كانت تعكس احتمالاً يُشْعِر بأنـه في ظـل انكسار الفرس، لا بدَّ أنْ يعيدَ البيزنطيونَ سلطانهم بعيدًا إلى الجنوب في مـناطق شـرقي نهر الأردن. ويرى بعض الباحثين، وهم مصيبون، أنَّ اهتمامَ النبيِّ محمَّـدٍ (ﷺ) بهـذا الـتجمع كـان عاملاً في اتخاذ قراره بأن يبعث حملة إلى تَبوك.[37] لم يكـن اتضـح بَعْدُ إلى أيِّ مدًى يمكن بيزنطةَ أن تؤكِّد سلطتها في المنطقة الجنوبية إلى الشرق من البحر الميت.

يمكـن تفهـم الـتداخل بـين المجهـود البـيزنطي لتأكيد السلطة بعد استعادة الـبلاد مـن الفـرس، والصـدامات الحربـية المـبكرة في مؤتـة ومـؤاب في ضـوء

التقديرات للسياسة والمصالح على ما أصبحت عليه بعد انكسار الفرس أصلاً، بشأن التخوف البيزنطي من الإسلام فحسب. ومن المرجح أن البيزنطيين بعثوا أفرادًا وحملاتٍ إلى الجنوب، بقطع النظر عن وجود تهديد ديني جديد في شبه الجزيرة العربية أم لا. ولا بدَّ من أنهم توقعوا مقاومة من قبائل أخرى لمحاولتهم استرجاع أراضٍ كانت خارجةً عن سلطانهم في أثناء الاحتلال الفارسي لسوريَة وفِلَسْطين.

ومن الممكن أن القواد البيزنطيين فكَّروا، أو لعلَّهم وضعوا خططًا أوليّة للتحرّك مع قوتهم جنوبي نهر أرنون أو وادي الموجب، مع أن هذا لم يتحقق في سنة (9 هـ/ 630 م). إن مناورةً عسكريةً مثل هذه كان من الممكن أن تكون خيارًا عمليًا كجزء من التأكيد المنظم للدعوى البيزنطية بالحق في السلطة التي كانت مغيبة منذ الحملات الفارسية، وكان من الممكن أن يعتمدوا على القبائل العربية الصديقة للقيام بذلك. ليس ثمة مدونة تشير إلى ذلك، لكنْ من المستبعد أنَّ الجماعاتِ المسيحيَّةَ النشطة والمزدهرة المقيمة إلى الشّمَال من وادي الموجب لم تطلب عونًا بيزنطيًا لمواجهة خطر القبائل المائل. وكانت نتيجة هذه الطلبات والضغوط ازدياد الاحتمل للخصام بين السلطات البيزنطية ورجل القبائل بقطع النظر عماإذا كانَ للإسلامِ علاقة في الأمر.

لا بدَّ من أن الروايات الأولى للخصومات وأخطار التهديدات الناشئة من تركيز القوات كان سيدخل في عدادها محاولات البيزنطيين من أجل: 1): المحافظة على جناح فِلَسْطين، ولا سيَّما عشيَّة زيارة هرقل للقدس، 2): والاستجابة إلى مطالب للحماية قد يتقدم بها سكان المدن الذين كانوا يعيشون جماعات مزدهرة شرقي نهر الأردن والبحر الميت، 3): والعودة بالحدود الإمبراطورية إلى الحدود السابقة بقدر الإمكان، وأيضًا 4): على سبيل الاحتمل حماية الحجاج الذين يقصدون القدس وسواها من المواقع المقدسة إلى الغرب من نهر الأردن، أو إلى جبل نَبو، وهو المكان الوحيد الذي يُحَجُّ شرقي نهر الأردن، 5): وتأمين طرق التجارة مع البدو وسكان سواحل البحر الأحمر. ولعل ما كان أكبر أهمية من الدوافع الاقتصادية التي ذكرت أخيرًا تنمر كبار التجار وصغارهم الذين كانوا يتأذون من انعدام الأمن في السفر والنقل بحرًا.[38]



مع أنَّ من الممكن أنَّ محاولاتِ استطلاع بيزنطيَّةً تمت جنوبي وادي الموجب، فمن البين أنَّ هرقل لم يحتل تلك المنطقة بالقوة. وكان أخو هرقل، ثيودور، هو الذي رُوي أنه أقنعه بإرسال وحدات قتالية إلى هناك بحكم أنه إجراء احترازي من تهديد مسلم وشيك. وليس ثمَّةَ ما يفيدُ أنَّ هرقل زارَ البلقاء شخصيًا، مع أنه مر على ما يبدو على مقربة منها في سفره إلى القدس وعودته منها.[39] لعلَّ عدمَ إحاطته بمعرفةٍ لتلك المنطقة المختلفة تمامًا جعله أكثر من المألوف اعتمادًا على المعلومات من الأصدقاء العرب. في واقع الأمر، تدعي المصادر العربيَّة، على نحو محتمل القَبُول، أنَّ هرقلَ استخدم عربًا للحصول على معلومات عن النَّبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) والإسلام والمسلمين.[40] فقد رُوي أنه أرسل قوات لاحتلال البلقاء مع انتظار إمدادات أكبر كان يزمع إرسالها.[41] ومن المحتمل أنه عزم على تجنب معارك كبيرة مع المسلمين، خشية تكتيكهم، هذا مع أن قواته انتصرت في المصادمة في مؤتة. وقد أخذت قواته بمواجهة القوة الإسلامية الآخذة في النمو في أثناء قيامها بالتوجه جنوبًا لإعادة السلطة البيزنطية. ويبدو أنَّ رد الفعل البيزنطي الأولي كان العودة وتجنب مواجهات حاسمة في الأرض المكشوفة بقدر الإمكان. ولعل هرقل سمع بمعركة مؤتة على الأقل خلال زيارته القدس سنة (630 م). مع ذلك، فإنَّ من غير الممكن أنَّهُ عدَّهَا مهمة. ولعل الشيء الذي حصل هو أن مؤتة قد تكون شجعت شعور الاطمئنان عند البيزنطيين بقدرتهم على احتواء الخطر العربي.

باستثناء الصدام الفريد في مؤتة ليس ثمَّةَ دليلٌ على أيِّ حضور بيزنطي عسكري إلى حصن الكرك (كرك مؤاب القديمة) جنوبًا، بَلْهَ إلى وادي الحسا! من الممكن أن تكون فرق حراسة بيزنطية عدائية أو بعض من رجل القبائل العرب المعاهدين الأصدقاء وصلوا الكرك أو لعلَّهُم تجاوزوها إلى جنوبها، لكنْ لم يكن ثمَّةَ احتلالٌ. ولعل جماعات محلية أو مجموعات كنسية تقيم جنوبي مؤاب / أريوبوليس أعلنت ولاءها للسلطة البيزنطية، لكنَّ غيابَ الإدارة البيزنطيَّةِ الفعَّالة والاحتلال تركا للسكان المحليين أمر تقرير المعنى الذي تحويه هذه التصريحات.

كانت مؤتة نكسةً مؤقتة على المسلمين. فقد بَعَثَ النبيُّ محمَّدٌ (ﷺ) حالاً حملتين اجتازتا الفضاء الأرضي الخارج عن التسلط البيزنطي المباشَر، لكنَّهُمَا،

مع ذلك هدَّدتا، ولو على نحوٍ غيرِ مباشَر، سوريَة البيزنطيَّة، وعلى الأخص بلاد شرقي الأردن. كانت هاتانِ الحملتان منفصلتين، ومن المحتمل أن ذلك تم في (رجب 9 هـ/ تِشْرين الأوَّل/ أكتوبر سنة 630 م) إلى تبوك في شِمَال الحجاز وواحة دَوْمَة الجندلِ، وهي الجوف الحديثة السعودية، التي تمتد خارج وادي السرحان. وقد تجاوز المسلمون حتى إلى أبعد من ذلك على أطراف الأرض التي تتولى بيزنطة شؤونها.

يروى أن أسقف (أو صاحب / أي: حاكم) أيْلَة (العقبة) يوحنا بن رؤبة سافر إلى تبوك في سنة (9-10 هـ/ 630-631 م) للاتفاق مع النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) على شروط تسليم أيْلَة. ومع أنَّ القصَّة لم تلقَ قَبُولاً جماعيًا، فليسَ فيها ما يمنع أن يقوم أسقف بمفاوضات كهذه، إذ إن آخرين سواه فعلوا ذلك في القرنين السادس والسابع. وقد عرفت تبوك في الوقت نفسه، التسليم المشابه المعاصر لسكان مَقْنا وجَرْبله وأذْرُح.[42] لم تكن ثمة حاميات بيزنطية منتظمة في مَنْقا أو أيلة أو جَرْبله أو أدروا/ أذْرُح، وهما المدينتان اللتان روي أن سكانهما استسلموا في سنة (9-10 هـ/ 630-631 م) لكنَّ البيزنطيينَ يمكنُهُم، نظريًّا، أنْ يقوموا بعمليات عسكرية في منطقة أذْرُح في وقت الحملات الإسلاميَّة.[43] وثمة تقليد محلي يقول: إنَّ بعض المسلمين قتلوا في أذْرُح، لكن المصادر الأدبية تُقِر بأن سكان المدينة استسلموا للمسلمين. كانت أذْرُح تسيطر على الطريق بين شبه الجزيرة العربية والبلقاء ومصدر الحديد الخام من منطقة وادي موسى (البتراء).[44] ومثلُ ذلكَ القولُ: إنَّ العاملَ أو الزَّعيم المحلي في معان توصل إلى اتفاق مع ممثلي النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) لكنَّ أيًّا من هذه الروايات لم يقبلْ جماعيًا. والمصادر البيزنطية لا تزودنا بأي توضيح عن الأحداث المحتملة، التي لعلَّهَا وقعت بعد انتهاءِ حَجِّ هرقلَ القدسَ، لَمَّا كانتِ القوَّاتُ البيزنطيَّةُ المكلَّفةُ بالحمايةِ نقلت من منطقة شرقي الأردن، أو خُفِّضت هناك.

### 6.4) أرْيوبوليس/ الرَّبَّة

بدأت سلسلة الأحداثِ المنذِرَة بالخطر بعدَ وفاةِ النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ) سنةَ (10 هـ/ 632 م). ما يخرج عن الموضوع هنا أن تُدرس حروب الرِّدَّة المهمة التي



نَشِبَتْ في شبه الجزيرة العربية عقب وفاة النبيِّ محمَّدٍ (ﷺ). لقد وقع أول الصدامات التي مسّت الإمبراطورية البيزنطية شرقي وادي عَرَبَة والبحر الميت. والبلاذُريُّ ينقل روايةً تقولُ: إنَّ مؤاب/ أريوبوليس سقطت قبلَ بُصرى، التي يرى الكثيرون أنها كانت أول مدينة سوريَة تقع في أيدي العرب.[45] من المحتمل أن يكونَ هذا هُوَ الواقعَ، لكنَّهُ [البلاذري] لا يوردُ إسنادَهُ. يبدو منطقيًا أن هذه المدينة سقطت قبل بُصرى، إذ إنها تقعُ أبعدَ جَنُوبًا على الطريق من بلاد العرب، إلا إذا كان يُفْترض أن الهجوم جاء من وادي السِّرحان. ثَمَّةَ مشكلةُ الجهةِ الصَّحيحةِ التي اتَّبَعَها خالدٌ في مسيرته من العراق، لكنَّ هذا يبدو متصلاً بإمداد المسلمين أيام معركة أجْنادَيْن، التي وقعت بعد ذلك بفترة قصيرة. ويُروى أن أبا عبيدة بن الجراح هو الذي احتل مؤاب، على ما جاء عند البلاذُرِي في الرواية التي لا توضيحَ لها.

خشي المسلمونَ أن يكونَ هرقلُ والغساسنةُ جمعوا رجالَ القبائل المسيحيين على بعد نحو ثلاثين كيلو مترًا شِمَالي مُؤتة في مؤاب أو أريوبوليس، (وهي رَبَّة الحديثة في الأردن). مع أنَّ تلك الشائعة ثبت كذبها،[46] فقد كانت مما يمكن أن يقع لأن ذلك الموقع الحصين استراتيجيًّا، جنوبي وادي الموجب وعلى نحو(80) كيلو مترًا إلى الجنوب من عمَّان الحديثة، كان مركزًا عسكريًا استراتيجيًّا ممكنًا اتخاذُهُ نقطةً للقيام بحملة بيزنطية كانت على علاقة بالمسلمين، أو لعلَّهُم كانوا بأنفسهم مسلمين. ويبدو أنه كان في أريوبوليس نوع من حامية بيزنطية، إذ كان هناكَ فسطاط،[47] يذكر القوم بالفرقة المحلية التي تشير إليها نوتيتيا ديغنيتاتوم.[48] لقد كانت تحتل مركزًا هو مفتاح على الطريق بين سوريَة وشبه الجزيرة العربية (راجع الخريطة (2)).[49]

يروي البلاذُرِيُّ أنَّ البيزنطيينَ احتشدُوا في مؤاب. هل كان هذا صدًى لرواية غير صحيحة رواها الواقدي في ‹كتاب المغازي› أنَّ البيزنطيينَ كانوا يحتشدون في مؤاب، أم كان حالةً أخرى واقعيَّةً رَوَتْ تركيزًا بيزنطيًا في مؤاب؟ لما كانت مؤاب مكانًا تقليديًا للقوات البيزنطية أو الرومانية المتأخرة، فمن غير الممكن تجاهل هذه الروايات أو نَبذُها.[50] فقد كانت نقطة تجمّع في ما كان أساسًا خط الدفاع الروماني المتأخر في أطراف فِلَسْطين الرومانية. الروايات

التاريخية الأخرى لا تشير إلى أريوبوليس، وقد يكون السببُ في حشد القوات البيزنطية هناك الرغبةَ في القيام بحملةٍ على الإسلام، بل الرغبة الطبيعية في العودة إلى فرض السلطة البيزنطية إلى حدودها الأصلية، على أنه جزء من مخطط لاستعادة المناطق التي خسرتها، أو تخلَّت عنْهَا، في أثناءَ الاحتلال الفارسي لسوريَة وفِلَسْطين. وقد خشي المسلمون، بطبيعة الحال، أنْ يكونَ هذا موجهًا إليهم، ولعلَّه كان له أساسٌ ثابتٌ. مع ذلك، كان هرقلَ وأخوه مهتمين بتعيين الحدود القديمة وتثبيت المعالم الصحيحة للسلطة البيزنطية على الشرق، بما في ذلك الحدود بين فارس وأرض الرافدين.

ليس ثمة ما يعين على تعرف عدد القوات البيزنطية التي حشدت في أريوبوليس ولا طبيعتها ولا نوعيتها. إن الجغرافي المتأخر زمنًا، ياقوت، يعرفهم، بسهولة، بأنهم روم، مفترض أنهم فرق بيزنطية نظامية ذات صلات هلينية وعرب، لكنَّهُ لا يوضح نسبهم. والبلاذري، أو مصدره المجهول، لا يوضح ما الذي أصاب هذه القوات البيزنطية المحتشدة بعد أن احتلَّ أبو عبيدةَ أريوبوليس؛ أأُسروا أم قُتلوا أم أنهم انسحبوا منتظمين أم هربوا مذعورين؟ وليس ثمة تاريخ دقيق لهذه الحادثة باستثناء أنها سبقت سقوط بُصرى، ومن الظَّاهر أنها كانت قبلَ معركة داثِن، قرب غزة، في (28 ذي القِعْدَة 12 هـ/ 4 شُبَاط/ فبراير 634 م). لقد كانت مؤاب، ظاهريًا، المقصد الصحيح للمسلمين الذين قاتلوا في مؤتة،[51] والطبري يروي أيضًا أن أبا عبيدة كان يعارض المخيم لا المدينة نفسها. وقد قاتله البيزنطيون، ثم طلبوا الصلح، وحصلوا عليه.[52]

ومن ثَمَّ، فقد كانت مؤابُ المدينةَ البيزنطيَّةَ الأولى في سوريَة التي سلّمت في أواخر سنة (633 م) أو أوائل سنة (634 م) على الأرجح. ويبدو أنَّ أهميَّتها تعرَّضَت للتشويه على يد رواة متأخرين كانوا يرمون إلى المبالغة في دور خالد والعراق. وعلى كلٍّ، فقد كان ثَمَّةَ نوعٌ من المقاومة المسلّحة في الفسطاط في أريوبوليس، ولكنْ ليس في المدينة نفسها. يومَهَا كانَ الجنودُ هم الذين قاوموا سكان المدينة. من الناحية العرقية من الممكن أنّ هؤلاء الجنود، أو في أكثريتهم، كانوا عربًا تمامًا، لكن ليس ثمة توصيف واضح لذلك. ومن الممكن أنهم كانوا جنودًا نظاميين أو غير نظاميين. لقد كانت مقاومتهم العسكرية في المخيم.



فكلمة الفسطاط تتضمن موقعًا قديمًا مجهولاً لمخيم من الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية. وكان ثمة استمرارية في الاحتلال البيزنطي العسكري. وكان هذا الموقع المعقول للبدء بفتح سوريَة. أي: كان إهمالَ تعرُّفِ مؤاب، من حيثُ إنها رومانيَّةٌ متأخّرةٌ، وتاريخِهَا الطَّويلِ إذْ كانت موضعًا عسكريًّا رومانيًّا، عاملين في إساءة فَهْم أهمية هذا الفتح والمقاومة هناك. إذاً، كانت ثَمَّةَ مقاومةٌ بيزنطيَّةٌ جنوبي وادي الموجب، مع ثبوت أنها كانت غير ناجحة. ولا يبدو أنَّ السكانَ المدنيينَ تأذّوا. ولسنا نعرف عددَ الذين فقدوا في المعركة، لا من البيزنطيينَ ولا من المسلمين.[53]

عرف هرقلُ أنَّ المسلمين لا بدَّ من أنْ يقومُوا بهجوم، ومن ثَمَّ، فإنه، على رواية ابن عساكر، دعا قوَّادَهُ إلى اجتماعٍ أنذرَهُم أنَّ المسلمين سيقومون بالهجوم خلال شهر.[54] تلبيةً لما رواهُ، فقد حَفَزَه أخوه ثيودور إلى أنْ يبعثَ رابطة (جنودًا أو ربما (بندات/βάνδα) إلى البلقاء إلى أن يمكن وصول عدد أكبر من ذلك. وعلى ما يبدو، وقعت المعركة بينما كان المسلمونَ والبيزنطيونَ متجمّعين في مؤاب/ أريوبوليس. وسيبيوس يروي أن المسلمين أخذوا البيزنطيين على حين غِرَّة. وورد عند الأزدي والطبري أن مؤاب كانت المدينة الأولى في سوريَة التي وقعت في أيدي المسلمين. هذه الرواية يؤيّدُها جزئيًا سيبيوس الذي يروي خبر معركة كبرى على مقربة من ربّات مؤاب التي هي مؤاب (أريوبوليس الكلاسيكية، ورَبّة الحديثة في الأردن): «فقد وصلوا ربّات المؤابية عند حدود [أرض] روبين. كان الجيش البيزنطي في بلاد العرب. وقد أطبق [العرب] عليهم فجأة، وضربوهم بحد السيف، وأرغموا ثيودوس أخا الإمبراطور هرقل على الفِرَار. ثم عادوا، ونصبوا مخيَّمهم في بلاد العرب». كان اسم أخي الإمبراطور ثيودور، وليس ثيودوسيوس.[55] وليس ثمة ريب في أن هذه لم تختلط مع أجنادَيْن، لأنّ الرواية تقول: إنَّ الجيشَ البيزنطيَّ كان معسكرًا «في [الولاية] العربية». وقد رُوي أنَّ ثيودور، أخا هرقل، هُزم مع قواته،[56] مع أنَّ من الممكن أن يُخْلط اسمه بثيودور الأمر، الذي ورد ذكره على أنه القائد البيزنطي في معركة مؤتة. لم تكن أريوبوليس، من الناحية التقنية

[الرسمية] في الولاية العربية، بل في فِلَسْطين الثالثة. ويدعي سيبيوس أنه بعد أن كسر المسلمون البيزنطيين عادوا إلى الولاية العربية، وهذا ما قد يعني أنهم انتقلوا شِمَالاً، ثم اجتازوا نهرَ أرنون/ وادي الموجب، ومن ثمَّ، فقد عادوا إلى أراض كانت في الولاية العربية. هذه الرِّوَاية تزيدُ الأهميةَ الاستراتيجيَّة لمؤاب/ أريوبوليس. جنّد هرقل، بعد تلقي نبأ هذه الكسرة، التي لا يعرف عدد مصابيها، عددًا أكبرَ من القوَّات.(57) وعلى كلٍّ، فإنَّ البيزنطيينَ لم يتخلَّوْا عن البلقاء نتيجةَ تهاون. فقد جربوا أن يوقفوا المسلمين هناك، ولم ينجحوا.

كان من المجازفةِ أنْ يقومَ المسلمونَ بنشاطاتٍ حربيَّةٍ كبرى إلى الغرب من وادي عربة، في فِلَسْطين الأولى على سبيل المثل، حتى احتلال مؤاب إذ أصبح الجناح الشِّمَالي محميًا. عندها أصبح من اليسير عليهم القيام بعمليات في عين غَمْر في وادي عَرَبة، وأن يتبعها الصدام الأكثر إثارة في داثِن التي وجَّهَتْ إليها الانتباهَ على مدًى واسع. لكنَّ هذه العملياتِ كلَّها جاءتْ في أعقاب تلك المعركة التي كانت أقلَّ توجيهًا للنظر، والتي مكنت لهم [للمسلمين] السَّيْطرةَ على منطقة جنوبي وادي الموجب أو نهر أرنون بالاستيلاء على مؤاب الموقع التقليدي الكبير لتجميع الجند البيزنطي. إنَّ الأعمالَ الحربيَّةَ التي وقعت إلى الشَّرق من نهر الأردُن، البحر الميت، وادي عربة بما في ذلك المَيْفَعَة وأيلة ومؤاب هي التي تم فيها اختبار تناسب القوة لدى وحدات كل من البيزنطيين والمسلمين، والتي انتهت باستيلاء المسلمين على نقطة انطلاق مهمة، كما ضمنت لهم خطوط مواصلاتهم.

قد يكونُ الضُّباطُ البيزنطيونَ تعمَّدُوا إشاعةَ أخبار عن حشودٍ عسكريَّةٍ، بقصدِ نشر الذّعر بين رجال القبائل العربيَّة، عشيَّةَ تَحرُّك موكب هرقل إلى القدس، وعودته منها. وقد لا تعرف الحقيقة أبدًا، لكنْ من الممكنِ أنْ يعد إظهار مؤقت للقوة العسكرية، وتهديد بزيادة هذه القوات، سبقًا لزيارة هرقلَ للقدس وانتهائها. إنَّ الحاجةَ للإعدادِ لذلك الموكب ربَّما دَعَتِ السلطاتِ العسكريَّةَ البيزنطيَّةَ لأن تستشعر وجود خطر ماثل من جهة شبه الجزيرة العربية. ولا بد أن زيارةَ هرقلَ القدسَ أدَّت إلى اتخاذ استعدادات أمنيَّة أُهْمِلت



بعد مغادرته القدسَ. لكنْ من المحتمل أنَّ زيارته القدسَ أثارت رغبةً أقوى من المألوف عند البيزنطيينَ في المناطق إلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت. وعلى كلٍّ، فقد أتيحت لهم فرصةٌ أكبرُ من المألوفِ كي يتعرَّفُوا الأخطارَ الوشيكة، ومن غير الممكنِ أنهم أخذُوا على حين غِرَّة. لعلَّ حشودَ القوَّات البيزنطيَّة المؤقتة سُحبت، بعد عودة هرقلَ من القدس، إلى شِمَال سوريَة، لكنَّ زيارته قد تفسِّرُ لنا السَّببَ في وجود بعض القوات البيزنطية جنوبي وادي الحسا في سنتي (8-9 هـ) (629-630 م) ولو مؤقتًا، ولكنْ كان ثَمَّةَ قلةٌ منها سنة (634 م). أو لعلَّهُ لم يكن هناك أيٌّ منها البتَّةَ. لم تكن مؤتةُ معركةً حاسمةً حيثُ إنها تحمل البيزنطيين على الاستمرار في البحث عن تجربَة أخرى في المنطقة.

لم تتغلب القبائل الإسلامية على إمبراطورية بيزنطية مضناةٍ وبالغة الضعف فحسب، على العكس من ذلك، فَقَد جاءَتْ حملاتهم بينما كانتْ بيزنطةُ عاملةً في سبيل استعادة سلطانها على الرّقعةِ كلِّها التي كانت تحيطُ بها الحدودُ الشرقية السابقة للإمبراطورية. كان هرقل في تلك المنطقة لأنه معني شخصيًا بالإشراف على أحيائها وتوحيدها. ولعله، لو أُتيحَ له وقتٌ أطول، نجحَ. لقد انقضّت الحملاتُ الإسلاميةُ عليه وعلى إمبراطوريَّتِهِ، وهما في حالة ترنُّح وفي وقتٍ حرج، وأبقَتْهُمَا على تلك الحالةِ. وقد أدّى بذلُ المستوى الأدنى من الضَّغْط في اللحظة الحرجة والمكان الصحيح إلى أعلى المكافآتِ للمسلمينَ من حيثُ الانتصاراتُ الحربيَّةُ والفتوحاتُ، مع مكابدتهم المستوى الأدنى من الخسارة في الرِّجَال. أخَذَ البيزنطيونَ أنفسَهُم بإعادةِ سُلطانهم في المدُن السُّوريَّة وفي الرِّيف، لكن كان أسلوبُ هذه الإعادةِ، وإقامةُ خطوطِ تواصلٍ للسُّلطة ونظامٍ لمراكز القوَّةِ صالحٍ للبقاء مع الشُّعُور بالتآلفِ مع بيزنطةَ أشدَّ ضعفًا في مناطق شرقي نهر الأردُن والبحر الميت، لما بدأ المسلمونَ سبرهم للوضع وغزوهم، ولم يطل بهم الوقت حتى أمدوه بقوة بالغة.

# 5) التجارِبُ المبكِّرةُ في جنوبي فِلَسْطينَ

## 5. 1) تحصيناتُ غزّةَ ومعركةُ دَاثِن

بدا واضحًا، لحظة اخترق المسلمون جنوب فِلَسْطين، أنه لم يكن ثمة استراتيجية بيزنطية متماسكة للدفاع عن سوريَة. ولم تكن السلطاتُ البيزنطيَّةُ، العسكرية منها والدينية والمدنية، تتوقع أيَّ حملات عربية كبرى، ومن ثَمَّ، فإنها لم تقم بترتيباتٍ خاصَّةٍ للمقاومة، أو لإعداد السكان المدنيين لذلك.[1] وبقطع النظر عن كل ما قصده هرقل أو أعوانه، فالواقعُ كان رَدَّ فعلٍ عسكريًّا بيزنطيًّا غيرَ واضح المعالم وعشوائيًّا، وهو ما كانت حصيلته كارثة.

عرف جنوب فِلَسْطين تجربَةً في إحدى أشدِّ المعارك المبكِّرة ضراوةً بين البيزنطيين والمسلمين. إنَّ سرغيوس (Sergios) وهو القائدُ العسكريُّ البيزنطيُّ السيِّئُ الطالع الذي وقعت على كاهله مسؤولية قيادة العمليات الدِّفاعيَّة الكارثيَّة التي كان ينقصها التنظيمُ، والذي كان بوصفه من رجال القصر (candidatos) (وهو منصبٌ كان من قبلُ وقفًا على الحرس الخاصِّ بالإمبراطور البيزنطيِّ، لكنَّهُ أصبحَ مع الوقتِ شرفيًّا، وكَثُرَ استعمالُه في القرن السَّابع؛ وكانَ حاملُ هذا اللقب يرتدي ثوبًا أبيضَ رسميًّا) يتصل بالإمبراطور هرقل مباشَرة.[2] ويحتمل أن سرغيوس، الذي تذكره المصادر اليونانية، كان هو نفسهُ القائد البيزنطيّ (B[R]YRDN) الذي هو 'فَرْدَن' أو 'وَرْدان' الدِّمشقي الوارد ذكرُهُ في مصدر سريانيّ مبكر. وقد سقط في معركة دَاثِن القريبة من غزة، (تبعد عنها 19 كيلو مترًا) في (4 من شُبَاط/ فبراير سنة 634 م). لقد كان هو القائدُ نفسُه الذي أوحى اسمه إلى الأزديّ أنْ يرويَ أنَّ شخصًا اسمه وَرْدان،

الذي كان في حمص قبلاً، كان القائد البيزنطي في معركة أجنادَيْن.[3] فليس ثمة سبب واضح لأن يحمل القائد البيزنطي اسمين [سرغيوس ووردان]. قد تكون الرواية الساميَّة الواردة في التاريخ السرياني، باختصار، غير صحيحة، ومع ذلك، فإنها المصدرُ الوحيدُ للتاريخ، لكنْ قد يكون سرغيوس اسمًا أرمنيًّا أصلاً، وهو ما تعرفُهُ به الرِّواية السريانيَّة والعَربيَّة. ليس ثمَّةَ قولٌ قاطعٌ نهائي، وليسَ ثمَّةَ أيُّ دليلٍ أثريٍّ ولا نقشيٍّ.[4]

يردُّ كل من المؤرخ نيكيفوروس (Nicephorus) من أهل القرن الثامن، وراوية القرن الثاني عشر الأرمني، صموئيل الغاني، سبب الحملات العربية إلى أن سرغيوس، وهو رجل غير قائد داثِن، والذي تسببٌ، لاحقًا بنيكيتاس (لعلَّهُ قريبٌ لهرقلَ) في خسارة التجَّار العرب. فقد اتهم الشرقيون [العرب] سرغيوس هذا بأنه أقنعَ هرقل «بألا يسمحَ للشرقيين بالاتجار من بلاد الرُّوم، وأنْ يمنعَ إخراج الثلاثين وزنًا من الذهب التي كانوا يتقاضونها لتسوية الأرباح التجاريَّة».[5] وصموئيل هذا، الذي يرى في سرغيوس شيخًا دمشقيًّا، والذي يرى في خالد بن الوليد الرجل الذي انتقم للعرب، لعلَّه، وليس الأمرُ بمستحيلٍ، ضخَّمَ رواية الفِقْرَةِ الواردة في ‹[التاريخ المختصر] Short History› لنيكيفوروس، أو في المصدر المأخوذ عنه، وزَيَّنَها. إنَّ روايتَهُ تحتاجُ إلى معالجةٍ حذرةٍ ونقديَّةٍ جيِّدةٍ. لكنَّ الروايتين عن الغش الاقتصادي توضحان شدة الغضب والشُّعور عندَ العرب تجاه سرغيوس، الذي روى أن العرب الحانقين قضوا عليه بأن زجوا رأسه في معدة جمل كانت في حالة الجفاف[6]. إنَّ احتمالَ توثيق ما أصابَ سرغيوس في آخرته، والرِّواية التي تشيع عن قسوة العرب في معاملةَ بعض من وقع في أيديهم، يمكنُ العثورُ عليها في أمثلةٍ تاريخيَّة مساويةٍ لها[7] وفي ‹[المذهب اليعقوبي]›، الذي يروي قصَّةَ رجلٍ معاصر يقسم: لو أنَّ الشرقي [العربي / Saracen]* هدَّدَه بأنْ يقطعه إرْبًا، فإنَّه لن ينكرَ يسوع المسيح.[8]

تمثل معركة داثِن المقاومة العربية للمحاولات البيزنطية لتضييق الخناق الاقتصادي والعسكري بالسيطرة على الحدود بعد أن استعادوا الساحل في أعقاب الانسحاب الفارسي. وقد ألِفَ بعض من العرب المغمورين في أثناء



الاحتلال الفارسي، القيام بالتجارة المربحة مع فِلَسْطين، سواءٌ من دون ضرائبَ أم مع دفعِ ضرائبَ ضئيلةٍ. ومن ثَمَّ، فقد كان من الطبيعي أن يرفضوا تجريدهم مما كانوا يعدُّونَهُ أرباحًا عاديَّةً. وكانَ البيزنطيونَ يحاولونَ ضبْطَ الأمور بدقَّةٍ في سنتي (632 م) و(633 م) على نحو ما تم سنة (629 م) إذ إنهم، وهم يحاولونَ فرضَ سلطانهم على منطقة شرقي البحر الميت، اصطدمُوا بالعرب في مؤتة. لقد تصادَمت المصالح الاقتصاديَّةَ البيزنطيَّةُ والعربيَّةُ.

يروي ثيوفانس أنَّ السببَ الآخرَ كان يعبِّر عن مَظْلُمات عسكريَّة ومالية:

> كان ثمَّةَ عربٌ يقيمونَ على مقربة من مداخل الصحراء، وهم الذين كانوا يتقاضون من الإمبراطور دفعات مالية صغيرة لحماية هذه المداخل. لكنْ في ذلك الوقت قَدِم خصيٌّ ليدفع مرتَّبات الجند، واتِّبَاعًا للعادة المألوفة تقدَّمَ العربُ لتلقي حصتهم، لكن الخصي طردهم قائلاً: 'إنَّ الحاكمَ بصعوبةٍ يكادُ يدفعُ للجند، والأحرى ألا يدفعَ لهؤلاء الكلاب'. فتملَّك الغضبُ العربَ، وانصرفوا إلى قومِهم، وأرشدوهم إلى أرض غزَّةَ، إذ أنَّ المدخل كان إلى جانب جبل سَيْناء.

دفع الخصيّ المجهول مرتبات الجند البيزنطي النظامي، لكنه لم يدفع للعرب المحليين غير النظاميين الذين كانوا يُعِيْنُونَ على حراسة المنطقة. لعلّ هذا العون المالي كان أصلاً دفعة لحماية البلاد البيزنطية من هجمات عربية عدائية. أو لعله كان أيضًا رشوة يقصد بها الحيلولة دون العرب أنفسهم وغزو البلاد البيزنطية، وهو أسلوب بيزنطي كان يكثر استعماله عند الحدود المختلفة. لكنَّ الاحتمال الأكبر هو أن الغرض من هذا الدفع المالي كان حماية أطراف البلاد المأهولة بالخصوم العرب، لأن أولئك الذين تلقوا هذا العون كانت لهم 'حِيْرة' أو مجمَّع، غير مؤكد موقعه قرب غزة، ومنه كانوا يراقبون الأعداء المهاجمين. وثيوفانس يقرر «أنهم جاؤوا واحتلوا المخيم [الحِيْرة] وكل ريف غزَّة. ولم يكد يصل سرغيوس من قَيْسَاريَّة فِلَسْطين مع قليل من الجند، حتى اشتبك في معركة، وكان أول من قُتِل مع ثلاثمئة جندي». لقد عصي فهم النصوص البيزنطية وما استنبطته من دلالته العربية.[9] قد تكون فعالية هذه

المواقع موضع نقاش، لكنّها لمّا تكن أعيدت بعدَ الانسحاب الفارسيّ، ومن ثَمَّ، لم يمرَّ عليها وقتٌ كافٍ ليمكنَ تقويمها من حيثُ فعاليتهَا العسكريَّةُ.

لا يبدو أنَّ دفعَ هذا العون استمر طويلاً، لأنَّ البيزنطيينَ لم يتمكنوا من العودة إلى احتلال المنطقة إلا في سنة (629 م) فقط على وجه التقريب، ومن الممكن أنه لم يُرسل أصلاً سوى عدد رمزي من الجند المنظم، مع ضباطهم. ومع أنَّ رجالاً من القبائل العربيَّة كانوا من قبل يُستَخدمون أدلاء وحراسًا للحجاج والقوافل بين غزة والخلصة (إلوسه) وسَيْنَاء ومصر، فلا عددهم ولا تفاصيل معونتهم في سنتي (633-634 م) معروفة؛ ومن الممكن أنه، لما ارتأى الخصي إلغاء هذه المدفوعات،[10] كان لهؤلاء العرب مخصصات عدد من السنين السابقة في ذمة الدولة.

لم يكن إلغاء الحكومة البيزنطية المدفوعات للعرب المحالفين أمرًا فريدًا. فقد كان ثمة تقليص شديد في المخصصات العسكرية، بما في ذلك مرتبات الجند، في جميع أنحاء الإمبراطورية بعد انتصار هرقل على الفرس. ويروي المصدر المعاصر المعروف باسم: ‹[عجائب القديس أنستاسيوس]، الفارسي أنَّ الموظَّفين البيزنطيينَ رفضُوا أنْ يدفعُوا لأصحابِ العربات [الذين حملوا الأثقل] المقرر، وقيمتُهُ عشرةُ 'مِلّيريسيا / milliaresia' من الفضَّة في قطسيفون؛ أي: العاصمة الفارسية. ولم يقدروا الحصول عليه إلا بصعوبة. وعلى ما يبدو، تمكنوا، بتدخُّلٍ من القديس أنسطاسيوس الفارسي، من الوصول إلى القُسْطَنْطِينِية، ودفعَ لهم الموظَّفُون ذلك أخيرًا. من المحتمل أنَّ هذا الذي تم التمنع عن دفعه من الفضة كان جزءًا من توزيع خاص من الفضة التي صودرت من الفرس في قطسيفون، ولم يكن مرتبًا نظاميًا.[11] هذه نقطة تفصيلية معقولة حفظت في رواية مستقلة. ومن ثَمَّ، لم يكن التقليصُ والتمنع عن الدفع للجنود غير النظاميين موجهًا إلى العرب وحدهم. لقد اتُّبِعَ عمومًا، ويجبُ أنْ يفهمَ في هذا الإطار الأوسع. وثمة معاصرٌ آخر، هو يوحنا النيكيوى (John of Nikiu) الذي يكشف عن استياء معاصر بسبب الإنفاق الباهظ على الاحتفاظ بالجند في مصر.[12] أمَّا أنَّ هذا الأمر كان يحدثُ عمومًا، فلم يؤدِّ إلى تهدئة أولئك العربِ الذين انتظروا، كما



انتظر أصحاب العربات، المبالغ المستحقة لهم التي كانوا، على وجه الاحتمل، يحتاجون إليها بشدة للإنفاق على شؤونهم المعيشيَّة الأساسِ. ومن المؤكَّدِ أنه أحنقهم أن يكون الدفع انتقائيًا، وللجنود النظاميين فحسبُ.

كانت الحيرة، أي: مجمعهم السابق، من حيثُ كان العرب المحالفون لبيزنطة الحانقون يحرسون منطقة غزة، تشبه مجمعات متباعدة[13] تقع على مقربة من مدن سوريَة أخرى: بيرويه (حلب) إيميزا (حمص) وخلقيس (قِنَّسْرِيْن العصور الوسطى وقرية الأسّ الحالية).[14] لقد استقرأ ثيوفانس مصادر مسيحية عربية أو سريانية، وربما مصادر إسلامية،[15] ولم يعرف كيف ينقل كلمة 'حيرة' إلى اليونانية، ولم يعثر عليها مترجمة إلى اللاتينية. كان من الطبيعي أن يعاقب العرب الغاضبون البيزنطيين البخلاء بإرشاد بدو آخرين إلى الاستيلاء على موقع حراستهم القديم لغزة، الذي كان ذا أهمية استراتيجية.

قامَ الغساسنةُ بحملات واسعةِ النطاق في سوريَة سنة (581 م) وهدَّدُوا بالاستيلاء على بُصرى في ردّ فعل غاضب بسبب إلقاء موريس القبضَ على (فولاركـ'هم') المنذر، وإلغاء العون المقرر لهم.[16] لعلَّ هرقلَ ومستشاريه لم يدروا أمرَ هذه الأزمة، لأنّ أخبارَها وردت في المصنَّفَات التاريخيَّة عند أصحاب الطبيعة الواحدة، مثل يوحنا الأَفِسوسي، وليس، على سبيل المثال، في الأدب التاريخي أو سواه الذي كان متيسرًا في بَلاط هرقل.[17] قد يكون ثَمَّةَ بضعةُ أفراد تذكروا أنهم سمعوا عن الحادثة، وما نَجَمَ منها، لكنَّ الأمرَ كان فيه من الإرباك والحساسية ما يحولُ دونَ روايته، وعلى كلٍّ مرَّتْ يومَها عليه عقودٌ عِدَّةٌ.

سارت الفرق الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص على طريق أيْلة (العقبة) التي وقعت في أيدي المسلمينَ.[18] ويبدو أنه يمكن عدُّ نصوص المعاهدات والضمانات التي أعطاها النبيُّ محمَّدُ (ﷺ) إلى أيْلة وأذْرُح (أذرعات) ومَعان أمرًا موثوقًا به في الواقع. إنها لا تعيّن حدودًا محكمة، بل، بدل ذلك، افترضت احتمال مرور أفراد بين بلاد المسلمين وبلاد البيزنطيين من دون أن يمسهم أذى.[19] وقد احتلَّ الجندُ الإسلاميُّ الحيرة السابقة التي كانت للحرّاس العربِ البيزنطيينَ المصروفين [من الخدمة] في منطقة غزَّة، على مقربة من دان، وبدؤوا

يغزون الناحية. وكانوا بدؤوا في غزو عربة وفي الواقع اندلعت مناوشات في عين غَمر؛ في الغور.[20] ليس ثمّة توثيق بيزنطي لخسارة أيلة ويبدو أن عمرًا جاز إلى غزة من العَرَبَة دائرًا بالآبار والمستقرات السابقة. ومع ذلك، فإنَّه، بحَسَب رواية ابن عساكر، لم يحمل معه حُمُرًا أو خرافًا، لأنه اختطَّ، على ما يبدو، أن يكتفيَ بما تدرُّه الأرضُ، وبذلك يضاعف قدرته على التحرك.[21]

من المشكوكِ فيه إن كانت الحدودُ الفِلَسْطينية قائمة على ما ادَّعاه بَعْضٌ؟؛ ومن ثمَّ، فمن غير الملائم أنْ يقومَ أيُّ افتراض بشأن التخلي عنها أو بقائها حتى ثلاثينيَّات القرن السابع.[22] فالأفضل، بدلاً من ذلك، أن يقبل الرأي القائل: كان ثمَّةَ استمرارٌ لوجود مواقع قديمة للجنود في المناطق الساحلية؛ لكن كان ثمة اعتماد قوي على الأصدقاء العرب في مجمعاتهم في الأطراف المعمورة للمناطق شبه الصحراوية، ولا سيَّما في جنوبي فِلَسْطين، ومنطقة وادي الموجب، والبلقاء، وحوران، والجولان، وفيما بين النهرين العليا، وعلى مقربة من الفرات في الضفَّة السُّوريَّة. وقد زادت مراعاةُ الناحية المالية من حذرَ البيزنطيين من أن يحاولوا قتل العرب في بلادهم، وهذا ما انتهى بهم إلى الاعتماد على العرب في حماية أطراف المناطق المأهولة من الخصوم العرب.

إنَّ القائدَ البيزنطيَّ، (الذي كان قائدًا عسكريًا ومشرفًا" عالي الشأن) سرغيوس بلغه إزعاج المسلمين المستمر لمنطقة غزَّة، فجمَعَ نحوَ (300) رجلٍ في قَيْسَاريَّة، وهو أمرٌ معتمد الرواية ومعقول، بقصد السير لنجدة منطقة غزة، على نحو ما فعل أسلافه.[23] كان الجندُ البيزنطيُّ يُعْوِزُه المؤن، ومن المحتمل أن سرغيوس وجنوده احتاجوا بضعة أيام للوصول إلى منطقة غزة المطوقة على بعد (125 كم) كيلومترًا إلى الجنوب من قَيْسَاريَّة، وإعادة تنظيم صفوفهم. إنما ما هو مجهول: هلْ كان ثمَّةَ فرقٌ أخرى جنوبيَّ قَيْسَاريَّة؟ على كلٍّ، فقد كُسِرَ سرغيوس، في (4) من شُبَاط/ فبراير سنة (634 م) احتمالاً، وهُزِم جنده، وقتل هو في المعركة. هذه كانت معركةَ داثِن.[24] من المحتمل أن عدد الجنود المسلمين كان يفوق كثيرًا تلك البعثة من البيزنطيين التي لم تكن كافية للعمل؛ ولعلَّ عددهم تجاوزَ الألف، ومن الممكن أيضًا أنهم كانوا ضعفي هذا العدد، أو



ثلاثة أضعافه. إنَّ التفاصيل التقنية في هذا الصّدام ليست واضحةً.

من الممكن أن تكون شهرة العرب بضراوتهم في الحروب شكَّلت عونًا على الفتوحات الإسلامية، إذ أشاعت في النفوس جوًّا من الفزع. ومن المحتمل أن بعض أعمال التمثيل الجسدية كانت سببًا أساسًا لتلك القصص والمخاوف. مع ذلك، فليست هذه الأحداث موثَّقة إلا نادرًا. لقد لقي كثيرون من البيزنطيين مصرعهم في داثِن وأجْنادَيْن، وفي غزة بعد ذلك. وتشير عظة عيد الميلاد التي ألقاها البطريرك صفرونيوس [في القدس] على نحو أوضح إلى ضراوة سيف 'الشرقيين' [العرب].[25] مع ذلك، فإنه أمرٌ أساس أن ندرك أن معركة داثِن جاءت في أعقاب صدامات، مهما كانت كبيرةً أو صغيرة، في مؤاب وفي العَرَبة. وقد وسَّعَتْ معركةُ داثِن النجاحَ الذي حقَّقَهُ المسلمونَ أصلاً إلى مدًى أبعدَ شرقًا، وفي منطقة جدِّ مختلفة.

خلَّفَ الانكسار في داثن صدًى قويًا في الأدب، بدءًا من ‹[المذهب اليعقوبي]›. فقد تلقفت الطائفة اليهودية في سيكاينا، التي لا تبعد كثيرًا عن قَيْسَاريَّة، والتي تقع بينها وبين عكا، قرب حيفا الحديثة[26] الخبر، فكانت ردة الفعلِ صدمةً وفرحًا «المشرف الملكي قُتل!». ومن حيثُ إنَّ سرغيوس كان موظفًا من هذه الرتبة الرفيعة، وكان ذا صلة بالإمبراطور، فإنَّ انكسارَهُ كان فاتحة كسوف شمس الجلالة الإمبراطورية. وقد كانت اللطخة التي أصابت عَظَمة هرقل أكبر لأن الموت العنيف أصاب مشرفًا ملكيًا حصرًا لا أي قائد عسكري عادي. مع أن داثِن كانت مناوشة كبيرة، وليست معركةً عظيمةً، عد المعاصرون والذين خلفوهم، داثِن، فاتحة هزائم البيزنطيين إذ إنها جارت في ذلك الإشارات إلى معركة اليرموك.[27] لقد كانت الصَّدمةَ مباشرة .

يروي يوتيخيوس أن القائد البيزنطي في غزة، الذي لا يسميه، حاول أسر عمرو بن العاص وغيره من قادة المسلمين في أثناء نقاش في أسباب مهاجمة المسلمين فِلَسْطينَ. هذه الرواية قد تكون بعيدة عن التصديق، ومع ذلك، فثمَّة ما يدعو إلى قَبُولها، إذ كان هذا الأسلوب بيزنطيًا من حيثُ طبيعتُهُ.[28] ومع أنه لا يمكن أن يؤدي حتمًا إلى نتيجة، فقد كان من أساليب الخداع التي يمكن أن

يُلجأ إليها في سبيل تحقيق ذلك الهدف، أي: باللجوء إلى الخداع لتجريد المسلمين من القيادة. فقد استفسر القائدُ البيزنطيُّ عن سبب مجيء المسلمينَ، وأظهر الرَّغبةَ في التعرُّف إلى القائد. فلمَّا قُدِّم إلى عمرو، عَزَمَ على القبضَ عليهِ، وهي حادثةٌ مماثلةٌ (لم يروها يوتيخيوس) للقبض على المنذر في حوار معه سَنة (581 م) التي تلاها نفيُهُ النهائيُّ. إنَّ مثل قد تكون، في الواقع، موضوعًا أدبيًّا مألوفًا. ويبدو دومًا كأنه ثمة نوع من المصدر العام لمثل هذه القصة. وعلى كلٍّ، يروي الطبريُّ أنه كان ثَمَّةَ مؤامرة من قبل وردان، لكن ليس في داثِنٍ، وإنما في أجْنادَين، لإلقاء القبض على عمرو الذي نجا منها.[29] إن دراسة نقديةً أوفى للمصادر ضرورية. الروايات تبدو ممكنة، مع ذلك، لا يذكر ابن عساكر، الذي يشير أيضًا إلى قيام محادثات، أيَّ محاولة للقبض على عمرو. لقد جاء إنذارُ عمرو من عبده وردان، الذي كان يجيدُ عددًا من اللغات، والذي فهم تمامًا ما الذي كان البيزنطيون ينوون القيامَ به. لقد كان هو الذي أنقذَهُ من الأسر، إذ إنه شرحَ للبيزنطيينَ أنه ثَمَّةَ آخرونَ، والمقصود قادة أُخَر، فأُمِّل القائد البيزنطي أن يلقي القبض عليهم جماعة، ومن ثمَّ مكَّن عَمْرًا من النجاة.[30] إنَّ الأمر متفق مع الأسلوب البيزنطي في مثل هذه الأحوال في التعامل مع البرابرة. وقد تكون الرواية الشفوية عما آل إليه أمر المنذر على أيدي البيزنطيين، وقد يكون هناك زعماء قبائل آخرون، هي ما حملَ المسلمينَ على أن يكونوا حذرين في تعاملهم مع البيزنطيين، لكن ليس ثمة توثيق خاص يبين وجود هذا التقليد. ومع ذلك، فإنَّ المدَّةَ بين القبض على المنذر ونفيه وما نحن فيه لا تعدو نصف القرن بكثير. إن وجود هذه القصص لم تكن نتيجتُهُ أنْ يتركَ ذكرى طيِّبَةً للحكم البيزنطي بين العرب المسيحيين الذين وقعوا تحت الحكم الإسلامي. ومع ذلك، فليسَ من الواضح لماذا اختارَ المسلمونَ أن يغيِّبوا هذه الرِّواية عن الغدر البيزنطي؟ إنَّ زبدة الخبر عن المفاوضة مع القائد البيزنطي، على ما رواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، هي ما يذكِّرنا بالمنقول الواردةِ في تواريخ سيبيوس والأزدي، ومن ثمَّ عند الطَّبري / سيف؛ ولعلَّ سيبيوس نقلَ عن روايةٍ إسلاميَّةٍ عامَّة اعتمد الجميعُ عليها، مباشرة أو بالوساطة.[31]

لم تسلِّم غزة نهائيًا للمسلمين إلا في شعبان أو رمضان، (16) من آب/



أغسطس أو أيلول/ سبتمبر عام (637 م). في ذلك الوقت، أعطى عمرو الأمان لسكانها المدنيين، لكن ليس للجنود الموجودين فيها. فقد نقل هؤلاء إلى إليوثروبوليس/ بيت جِبرِيْن (Eleutheropolis) ثم إلى القدس، حيثُ أعْدِموا، إذ رفضوا التخلي عن المسيحية. كان لبعضهم على الأقل زوجات وأبناء، وهؤلاء جميعًا سلموا من القتل. إن وجود أسر مع الحامية قد يعني، ولو أن ذلك ليس مؤكدًا، أن الحامية قد تولت الأمر مدَّةً طويلةً، ويبدو أن إعدامهم كان حدثًا فريدًا. من المحتمل أن القسوة التي لقوها، ولو أنها لا تتناقض مع الشرع الإسلاميِّ الذي كانَ يومَهَا في طور النمو، جاءت بسبب المقاومة الطويلة في غزة. لكن قد يعود الأمر على نحو خاصٍّ، ولو أنه لا يرد عند المؤلف المجهول الراوي لقصة هذا الاستشهاد، إلى الغضب الذي سيطر على عمرو، طوالَ هذه المدَّةِ، بسبب محاولة زعمائهم اغتيالَهُ مع سواهُ من رسل المسلمينَ قبل معركة داثِن، في الوقت المبكِّر من سنة (13 هـ / 634 م) أو إذا كان ثمة مجل للخلط، قبل أجْنادَيْن. إن المداولات الفردية غير الناجحة بين قائد الفرق البيزنطية في غزة وعمرو، على ما رواها يوتيخيوس، قد تكون هي التي أدت إلى إعدام الجنود البيزنطيين سنة (16 هـ / 637 م).[32] ولعل مؤرخ هذا الاستشهاد عزف عن رواية هذه الناحية التفصيلية.

كان ما نجمَ من العواقبِ المباشَرة للمناوشة في داثِن صدمةً للبيزنطيين، وإيذانًا لبدو عمرو أن يهجموا. من المحتمل أن غزة دفعت ضريبة ما كي تُجنِّب الهجوم عليها في هذه الحالة الحرجة. ومع ذلك، فإنَّ المسلمينَ لم يحتلوها إلا في رمضانَ (16 هـ) أيلول/ سبتمبر سنة (637 م). وقد استمرت الحامية البيزنطية فيها، مع أنها لم تكن سوى واحدة صغيرة. فقد جاء في ‹[آلام الشهداء الستين في غزة]› أن ثمانين جنديًا فقط أسروا سنة (16 هـ/ 637 م) إذ فرَّ الآخرون.[33] ولعل الريف الغزي أصبح خَطِرًا جدًا، فقد استمر عمرو ابن العاص بالقيام بعمليات عسكرية في هذه المنطقة، ليس في معركة أجْنادَين في سنة (13 هـ/ 634 م) فحسب، ولكن في سنة (16 هـ/ 637 م) أيضًا. ويبدو أن عمرًا استمر في تولي السلطة في تلك المنطقة بين سنة (13 هـ/ 634 م) وحملته على مصر. وقد تولى أيضًا السلطة في

إليوثروبوليس (بيت جِبْرِين). ومن حيثُ إنَّ عمرًا بدأ التدخُّلَ في جنوب فِلَسْطين، في جوار غزة وإليوثروبوليس، فقد كانَ في وضع ممتاز يمكِّنُه من تعرُّفِ نواحي الضَّعف عند البيزنطيينَ في سَيْناء ومصرَ. إضافةً إلى ذلك، كان القائد المسلم الذي كان في موقع يمكنه من الإفادة من هذا الضعف البيزنطي. فقد كان أكثر معرفة بالأوضاع في مصر وبالطريقة التي يمكن أن يدعم بها المسلمين في جنوب فِلَسْطين ومنطقة غزة للاتجاه نحو مصر، وكان القائد الطبيعي لتولي هذه الحملة، عندما يحين الوقت للقيام بذلك.[34]

إنَّ أغابيوس المنبجي وثيوفانس، وهما مسيحيان، ولو أن الأول كان من خصوم خلقيدونية بينما كان الآخر خلقيدونيًا، يقرِّران أنَّ معاهدةً، مدَّتُها ثلاثُ سنواتٍ، عُقِدت، كان القصد منها الحيلولة دون حملة إسلامية على مصر.[35] من المحتمل أن البيزنطيين حاولوا أن يقايضوا سلمًا مثل هذا، إذ إنَّ هذا كان أسلوبًا بيزنطيًا مألوفًا في القرن السابع، وفي ما سبق وتلا من القرون.[36] وقد يُتساءَل: هل بلغَ الحمقُ بالمسلمينَ يحملُهم على قَبُول هذا الاتفاق، وقد كانوا في فترة قوَّة وزخم متناميين؟! كان من المعقول أن يقبلَ المسلمونَ مبالغَ كبيرةً مقابل الاتفاق، إذْ كان هذا كسبًا كبيرًا، ولكنْ أيضًا لأنَّ مثلَ هذا الاتفاق كان يتيح للجند وللقيادة التركيز على قطاعات حربية أخرى، ومن ثَمَّ تجنب شطر الجند الإسلامي، وتوجيه الهجوم خلال الفترات المبكرة الحرجة في الحملات، حيثُ كان التركيز الأكبر للقوة مرغوبًا فيه، بل لعلَّه كان ضروريًا، لمقارعة القوات البيزنطية إلى الشَّمَال، أو ضد الفرس في الشرق.

لعل التقديرات المنطقية أقنعت القادة المسلمين بأن يقبلوا هذه المبالغ مقابل ألا تتعرَّضَ مصرُ، وغزَّةُ أيضًا، لهجمات في ذلك الوقت. مع ذلك، فإنهم سيكونون، فيما يلي من الوقت، أحرارًا في التوجه نحو مصر. لكن ليس ثمة من قيد يدل على دفع مال لحماية مصر حتى سنة (16 هـ/ 637 م) ولعل هذا جاء بعد سقوط غزة في أيدي المسلمين. إن البيزنطيين لم يخلوا غزة سلمًا قط، على النحو الذي أخلوا فيه بعض المدن في سوريَة الوسطى والشَّمالية والقدس. ربَّما كان هناك دفعاتٌ ماليَّة مبكِّرة، أو تفاهمٌ، بين السلطات البيزنطية في غزة ومسلمي عمرو، لكنْ ليس ثَمَّةَ قيدٌ دقيقٌ لهذا، باستثناء روايات إسلامية تقول:



إنَّ غزَّةَ عقدت نوعًا من السلم مع المسلمين. ويبدو أن الحامية البيزنطية التي أسرها المسلمون أخيرًا في غزة سنة (16 هـ/ 637 م) تلقت الأوامر بوجوب الدفاع عنها إلى آخر ما يمكن. لكن ليس ثمة أخبار عن قتل أو مناوشات من أيِّ نوع في غزة بين أَجْنادَين وسقوط غزة سنة (16 هـ/ 637 م).

كان الأمرُ الأكبر أهميةً من أيِّ تهديدٍ لمصرَ هو الانكسار البيزنطي في داثِن، إذ أزاحَ كل حاجز عسكري جدي من طريق المسلمين، حيثُ أصبح الهجومُ على جنوبي فِلَسْطين يتم وفق إرادتهم. لقد صمد بعض المدن المسوَّرة، مثل غزة وعَسْقَلان، لكن الحملات الإسلامية أرغمت السلطات العسكرية البيزنطية على جمع قوة أخرى كبيرة ودفعها لوقف المهاجمين في جنوبي فِلَسْطين. وقد تبع ذلك، بحكم الضرورة، تجربَة قتالية أكبر أثرًا.

### 5. 2) أَجْنادَينُ

لا تشيرُ المصادر البيزنطية إشارةً خاصَّةً إلى معركة أَجنادَين، إذ لعلَّها دمجتها بمعاركِ داثِن والجابية، اليرموك.[37] يقرِّر بعض المصادر العربية أن الجيوش الإسلامية تمركزت في أجنادَين، بقيادة خالد بن الوليد أو، وهو الأقل احتمالاً، بقيادة عمرو بن العاص. وقد عين موقعها، على درجة من الدِّقَّة، على أنه بين الرملة وبيت جِبْرِين[38] على وادي السَّمط في "إسرائيل" الحديثة على نحو تسعة كيلو مترات إلى الشَّمَال الشرقي من بيت جبرين [الأقواسُ الاعتراضيَّةُ إضافةُ الناشر]. وتاريخها المحتمل هو (17 من جمادى الأولى 13 هـ/ 30 من تمُّوز/ يوليو 634 م). ولعلَّ المصدر الأقدم الموجود هو التاريخ اللاتيني الذي وضعه فريديغاريوس، والمؤلِّف زُهَاء (658-660 م) والذي يشيرُ فيه، بما يخص المهاجمين المسلمين أو (الشرقيين) إلى أنَّ «هرقلَ بعث جنودًا ضدهم بقصد مقاومتهم. لكنْ لَمَّا حانَ وقتُ المعركة، كسر المسلمون الجنود الرومان، وأوقعوا بهم هزيمة كبيرة. وقد قتل في تلك المعركة (150.000) جندي روماني. ومع ذلك، فإنَّ الشرقيين عرضوا على هرقل، عبر رسل منهم، أن يبتاع ما غنموه في المعركة، لكنَّ هرقل، الذي عزم على الانتقام من الشرقيين، لم يرغب في شراء أيٍّ من أشيائه المسروقة».[39] إنَّ محاولةَ بيع الغنيمة وأسرى الحربِ إلى هرقلَ ليست

أمرًا غيرَ محتمل. فثمّةَ مصادرُ أخرى تزوّدنا بتفاصيلَ إضافيّةٍ. فقد تجمع البيزنطيون تحت قيادة ثيودور، أخي هرقل، ولعل وَرْدان، الذي يشير إليه بعض الروايات على أنه كان القائد العسكري في إيميزا (حمص) كان أيضًا في القيادة، آملاً في النيل من المسلمين نيلاً نهائيًا رغبة في إخراجهم من فِلَسْطين. كان هذا العمل سيؤدي إلى أن يصبح المسلمون، الذين كانوا في مناطق شرقي البحر الميت ونهر الأردن، في وضعٍ لا يمكنُ الدِّفَاعُ عنه، أو على الأقلّ، مكشوفٍ على نحوٍ منذرٍ بالخطر، إذ كانت القوى الإسلامية بعيدة في الشّمَال.

إن وَردان، الوارد اسمه عند الأزدي، يدعى أيضًا أرطَبون، ولعله هو الشخص نفسه. لم يكن الاسم متخيّلاً. وتؤكد الأمر نُبْذَة صغيرة من نصٍّ سرياني، كان، على وجه التقريب، معاصرًا للأحداث. إنها تشيرُ إلى القائد العسكري الذي قاتل في المعركة، وسقط فيها على أنه فَردان الكلمة التي ترجمت خطأ 'إلى الأردن' أو 'ابن يردان'، لكنّه في الحقيقة اسم أرمني فَردان، طُمِس لَمّا نُقِل إلى السريانية. إنها تشير إلى أنه فردان، المفروض أن يكون أرمنيًا، ومن المحتمل أنه من أسرة مَميكونيان، وتولى منصبًا عسكريًا في فِلَسْطين سنة (13هـ/ 634 م). وكان ثَمّةَ أرمنيٌّ آخرُ اسمُه فاهان أو بانِس. فقد اعتمد هرقل، في ذلك الوقت، اعتمادًا كبيرًا على الأرمن لتولي المناصب، على نحو تعيينه مانُول (Manuel) الأرمني في مصر، الذي كان أيضًا قائدًا عسكريًا وضع في منصب مدني. إن هذا يؤيد بعض التفاصيل التي ترد عند الأزدي.[40]

روي أن وَردان كان صاحب حمص، أي: القائد العسكري لحمص، لكنّ أيًّا من لقبيه اللاتيني أو اليوناني ليس معروفًا. كان من المنطقي أن ينجد قائد حمص إلى أَجْنادَين، إذ إن الأولى كانت نقطة تلاقي المواصلات. وكانت، من دون أي شك، القاعدة العسكرية الرئيسة لهرقل في سوريَة قبل أن ينسحب إلى أَنْطَاكِيَة. في ذلك التاريخ على التحقيق كان قائد حمص على درجة كبيرة من الأهمية، لعله كان الأول أو الثاني، من حيثُ الأهميةُ، في القيادة العسكرية تحت هرقل إبّانَ الحملات الإسلامية إلى أن سقطت حمص بأيدي المسلمين. ومن الممكن أنه كان يقود فرقًا أتت توّهَا من الشّمَال، من إرمينية



والقُسْطَنْطِيْنِية، أو من الوحدات التي كانت تلازم هرقل نفسه في أَنْطَاكِيَة، ولعله تمكن من تجنيد بعضِ رجال القبائل العرب الحليين.[41]

كان ثيودور، أخو هرقل، أيضًا بين القادة في أَجْنادَين. وأفاد هرقل من أخيه قائدًا كما أفاد منه قائدًا مجرّبًا في استعادة إديسا (الرُّهَاء) قبل ذلك بسنوات، وعلى نحو ما أفاد من ابن عمه نيكيتاس في احتلال مصر في أثناء الثورة على الإمبراطور فوقاس سنة (610 م). ويمكن أن يكون سبب الإرباك الذي يرد في المصادر الإسلامية وجودَ عددٍ من القادة البيزنطيين، وهذا ما أدّى إلى تصوُّر بعض المسلمينَ الذين لقوا أو بلغ مسامعهم الاسم الواحد أو سواه، أنهُ القائدُ الأعلى هناك. والقيادةُ المقسمة لم تكن أمرًا غيرَ مألوفٍ في التاريخ البيزنطي، مع أنه أسلوب بعيد عن الحصافة لتنظيم سلسلة السلطة العسكرية. وقد رُوِيَ أنّ أحدَ القوّاد البيزنطيين سقط قتيلاً في أجنادَيْن، من الممكن أنه كان وَردان أو، بحَسَب روايةٍ أخرى، كان القائدَ الذي يقوم أيضًا بوظيفة المدير المالي. لكنّ القائدَ الآخر ثيودور، أخا هرقل، نجا كي يتاح له القتال في غير ذلك المكان.[42] وتروي المصادر البيزنطية أن ثيودور انكسر على أيدي المسلمين، ثم هرب إلى هرقل في حمص، الذي عين فاهان وثيودور تريثوريوس المدير المالي مكانه. وقد غضب هرقل على أخيه ثيودور، فبعثهُ إلى القُسْطَنْطِيْنِية حيثُ عهد إلى ابنه قسطنطين (الثالث) بسجنه؛[43] إن التاريخ الدقيق للحدث غير مؤكد، ولعل الخصومة بينه وبين مرتينا زوج هرقل الثانية الخلافية، (وهي ابنة أخيه أو أخته) زادت تدني منزلته واختفاءه.

كانت أَجْنادَين معركةً مكشوفة حقًا، وقد أدت إلى جعل البيزنطيين بعدَها أقلَّ حماسةً، مما كانوا عليه من قبلُ، لمجابهة العرب في الأمكنة المكشوفة. لقد كان الخوفُ يسبق القتال المكشوف. وبعد ذلك اندلع القتال في أمكنة أقرب إلى خطوط المواصلات البيزنطية، وعندها كان من الممكن أن يصب الأمر في مصلحتهم منذ البداية. إن التكتيك القتالي الدقيق للفريقين المتنازعين كليهما غير معروف بدقة. لقد ساعد العرب المسيحيون على تزويد البيزنطيين.[44] والبيزنطيون الذين كانوا يفرون من المعركة إلى حمى مدن أخرى في سوريَة

كانوا يفقدون كل تماسك وكل فعالية كوحدات عسكرية، على الأقل وقتًا. وقد نال المسلمونَ حريَّةً محدودة مكَّنتهُم من احتلال كثيرٍ من الرِّيفِ من دونَ مقاومةٍ، وشلَّ المواصلات بين المدن، حتى بين القدسِ وبيت لحم. وانتشر انعدام الأمن عبر القسم الأكبر من فِلَسْطين، ولا سيَّما في المناطق البعيدة عن المدن الساحلية، حيثُ تمكن البيزنطيون من الصمود. لقد صُدِم المدنيون ورجال الدين إذ إنهم لم يكونوا يتوقعون مثل هذه الحملات الكبيرة.[45] وقد رحل هرقل من حمص إلى أنطَاكِيَة لما بلغه ما آل إليه الأمر في أجنادَين التي لم تكن قريبة من حمص، لكن انكسار البيزنطيين هذا هزَّ الوضع البيزنطي في جنوب سوريَة برمَّته.

## 3.5) الاستراتيجيَّةُ البيزنطيَّةُ القائمةُ على اعتمادِ المدنِ المسوَّرَة

فرت الفرق البيزنطية التي نجت من كارثة أجنادَين إلى الأمان الذي يسرته المدن المختلفة في سوريَة. وكان خط الدفاع المتماسك الوحيد ذلك الذي أقيم على مقربة من نهر اليرموك لكن أخباره تختلط بأخبار سنة (15 هـ/ 636 م) وهي سنة معركة اليرموك. فبدلاً من اتخاذ أي خط دفاع طبيعي، أصبحت المدن هي الحدود. ولا تنل المشكلة الناجمة من تزاحم الجنود البيزنطيين في المدن الوصف الشافي في المصادر المرتبطة بثلاثينيات القرن السابع، مع أنَّ ازدحاماتٍ مماثلةً في القرون السابقة أثارت قضايا كثيرةً مرتبطةً بالمؤن والصحَّة. ولم يكن من شأن أيٍ من هذه أنْ تؤدِّيَ إلى رفع المعنويَّاتِ العسكريَّةِ، أو نشر النظامِ بين الجنودِ.

بعد معركة اجنادين لجأ الكثير من سكان الريف إلى الأمان المؤمّل في المدن المسوَّرة في فِلَسْطين وسوريَة. وكان المسافرون والتجار الذين مارسوا التجارة بين المدن عرضة لانعدام الأمن. لقد كان ثمة خوف، بل ذعر. وكان عدد الذين ازدحموا في القدس ودمشق وقَيْساريَّة البحرية لا يحصى.[46] وتعد عظة عيد الميلاد التي ألقاها البطريرك صفرونيوس المقدسي سنة (13 هـ/ 634 م) دليلاً معاصرًا على هرب المدنيين إلى القدس، وصعوبة التنقل في الطريق إلى بيت لحم.[47] لقد حدث الهربُ إلى المدن المسوَّرةِ مرَّاتٍ في الولايات الشرقيَّة في القرنِ السَّادس، بما في ذلك أيام الثورة الغسانيَّة سنةَ (581 م).[48]



يبدو أن هرب الجنود وسكان الريف إلى البلدات المسورة أصبح عثرة في سبيل استراتيجية هرقل الحربية، فقد تحتم على السلطات البيزنطية العسكرية أن تولي حاجات الجماعات البشرية التي ازدحمت في المدن طلبًا للأمان عنايتها. وقد تركزت العمليات الحربية الإسلامية أولاً على ضبط الريف، ولا سيَّما في الداخل، ومن ثَمَّ، فقد ترك أمر الاستيلاء على المدن والاحتفاظ بها إلى وقت لاحق. وقد يسَّر هرب الجنود البيزنطيين إلى المدن على المسلمين مراقبتهم. وقد أصبح قيام الجنود البيزنطيين بمفاجأة الخصوم أمرًا أصعب، لأن مواقعهم كانت مدنًا واضحة للعِيَان، تبدو بينة من الخارج، وقد تكون بينة من الداخل للجواسيس وسواهم ممن يمكن أن يزودوا المسلمين بالأخبار. وقد يسّرت حماية المدن في أثناء الأزمة العامة للسلطات العسكرية الحجة للبقاء داخل المساكن المريحة في المدن، التي منحت الضباط والجنود مزيدًا من الأمان أيضًا. وأصبح من اليسير تجنبَ البحث عن الأعداء إلى حين وصول النجدات. وغالبًا ما قوّت طبيعة الأرض السورية، من حيثُ انفتاحُها وجفافُها، هذه النزعات القائلة بتركيز الدفاع في المدن.

يمكن ان تعد استراتيجية الاعتماد على المدن المسورة، نظريًّا، عنصرًا صالحًا في استراتيجيَّة فعالة للدفاع في العمق، مع أنها تحمل في طيَّاته مخاطرَ أيضًا. ويقتضي النجاح في هذه الاستراتيجية وجود قوى متحركة، تفضل أن تنتشر بين المعاقل المستقلة نفسها أو خلفها. وثمة مقتضيات أخرى: 1) أن تكون المعاقل مَرِنة في وضعها حيثُ تستطيع تحمُّلَ هجوم من دون الحاجة إلى الدعم الآني من القوى المتحركة؛ 2) وأن تكون القوى المتحركة قادرة على مقاومة هجوم مركز من العدو، أو تجنب ذلك في الميدان من دون اللجوء إلى حماية المعاقل؛ 3) وأن يكون في مقدرة القوى المهاجمة أن تستولي على المعاقل كي تضمن النصر؛ 4) وأن يكون الدفاع عن المدن المسورة جزءًا من استراتيجيَّةٍ متَّبَعَةٍ أوسعَ مدًى، مثل تلك التي اختطها البيزنطيونَ في إيطاليا في القرن السَّادس، إذ غُرِّر بالقوات الأوستروغوطية حتى أسوار المدن التي يسيطر عليها البيزنطيون، حيثُ كان رماة القوس الماهرون لهم بالمرصاد فحصدوهم.[49] هذه

الاستراتيجية فيها عنصر المرونة في الاتباع، لكنها تتضمن خطرًا أساسه أنْ يهم العدوُّ بتدمير البلادِ، ومن ثَمَّ، كانت الحملاتُ المعاكسة هي أساس نجاحها. ويمكن أن تقوم الحصون بدور مراكز التموين والعقبات وقواعد للأمن والمخابرات في المناطق الخلفية، ونقاط تنفر منها القوى المتحركة نحو المهاجمين. لكنَّها قد تؤدي إلى شل المعنويات والقوى المهاجمة للقوات الدفاعية.

بعد أجنادَين، انصرف إجماع الإدارة العامَّة للشؤون العسكريَّة البيزنطيَّة في سوريَة وفِلَسْطين إلى دفاعٍ كامنٍ عاديٍّ، قوامُهُ تجنُّبُ المعاركِ حيثُ يمكنُ ذلك، واستعمل المدن المسورة، أو الحواجز الطبيعية مثل الأودية ومجاري الأنهار العميقة، كقواعد يمكن الانطلاق منها، بين الحين والحين، لقتال المسلمين. لقد تلازم اعتمادُ الحكمةِ في وضع الاستراتيجيَّة، والرغبةُ في تجنُّب الأذى، وازدحامُ المدن بالسُّكان، فنتج منها، على نحو ما، تطويرُ استراتيجيَّةٍ، أساسُهَا الدِّفاعُ عن المدنَ المسوَّرة، وعن قواعدَ ثابتةٍ، ولَعلَّ ذلك لم يكن مقصودًا بذاته. لقد قلَّصَ هذا الأمر حركة الجيش البيزنطيِّ، وجعل المبادرةَ، ضمنًا، بيد المسلمينَ. إذ إنَّ توزيعَ القوى الأفضل حدَّ من تجميعِ هذه القوات، وأضعف مقدرَتها على مهاجمة خصومها، وخلق عقلية دفاعية. كانت استراتيجية مفهومةً، لكنَّها كانت هزيلة. إنَّ الأملَ الأمثلَ فيها يكمُنُ في أنْ يؤدي نَفَادُ الصَّبر أو الانقسامُ إلى تفتيتِ المهاجمين، وإتاحة الفرصة لهجمات كبرى من المدن التي تملكها بيزنطة، أو لهجمات بيزنطيَّة كبيرة من الشَّمَال، قوامُهَا قوًى جديدةٌ حديثةُ العهد بالقتال، تُجنَّدُ خارجَ سوريَة. لكنَّ مثلَ هذه التقديرات، إذا ما كانت جدية، فإنها تعتمد على عدد كبير من المتغيرات الخارجية كي تضمن النجاح. إضافةً إلى ذلك، فقد زوّد الإسلام المهاجمين بتماسكٍ لم يكن البيزنطيونَ خبروا مثلَهُ قبلاً بينَ العرب.

كمن في حشدِ القوَّات في المدن خطرُ عزل القوى في المدينة الواحدة عن القوى في المدينة الأخرى، وهذا ما يَؤدِّي إلى أعمال عسكريَّةٍ منفصلةٍ وبعيدةٍ عن التخطيط المنظَّم. وأصبحت الفعاليَّةُ العسكريَّةُ، إضافةً إلى ذلك، تعتمدُ على حالةِ إصلاحاتِ أسوار المدينة، ومراقبتها، والتنبه على جميع نقاط الدخول



والخروج، بما في ذلك قنوات المياه ومجاريها، كما كانت تعتمد على توفير المؤن والنزوات ونواحي الضعف التي تبدو في نفوس السكان والنخبة بينهم. على أن وضع تلك القوات لم يكن يمكِّنُها من متابعةِ القتال توًّا. فقد كانت تحتاج إلى أن تتعافى، وكانت المدن أحد الأمكنة الصالحة لذلك، لو أنَّ حراسةَ تلك الأسوارِ لم تكنْ عنصرَ إغراءٍ وإضعافٍ لإرادة القتالِ.

إذا نحنُ أخذنا بتأريخ الحوادث الواردِ ضمنًا في مصادر الأزدي وابن عساكر، فقد بدأتْ استراتيجيَّةُ المدن المسوَّرة قبل الانكسار في داثِن وأجنادَيْن. وكان هرقل جَمَعَ أصلاً سكانَ دمشَقَ، وأمرهُم أن يقفلوا الأبوابَ إقفالاً وثيقًا، وأنْ يأتمروا بأمر القائد الذي سيعيِّنُهُ عليهم، وشجَّعَهم على أن يهتموا بالدِّفاع عن أنفسهم.(50) وقد خلَّفت استراتيجيَّتُهُ في الاحتفاظ بعدد كبير من المدن المسوَّرة عقليَّةً سلبيةً من اليسير أنْ يصبح شغلُها الشاغلُ تفاصيلَ تفتيشِ الأسوار، وصيانتها، بدَلَ البقاءِ على أتمِّ الاستعداد للقتال.

أوجدت استراتيجية المدن المسورة أوضاعًا تتسق مع حروب الإنهاك والحيل والمفاوضات. ولم تكن ثمة حرب مستمرة، بل كان هناك حصارات وتبادل رسائل ومفاوضات بين القادة ومراسلات سرية بين وجهاء المدن والقادة العسكريين في الجهة المحاصرة. وقد زادت هذه الاستراتيجية الكلاسيكية القائمة على حروب المواقع من أهميةِ تملك المدن المسورة أمر الإشراف على البلاد وسكانها.

شملت حربُ الحصارات، في أثناء الفتوحات الإسلامية، مناوشات بين الفرسان خارج أسوار المدن. لم تكن ثمة هجمات بشرية عاتية على أسوار المدن هذه. لقد كانت المدن تُحاصَر، ولم يتح لها الحصول على مؤن من الخارج أو الاتصال به، لكن يكون ذلك على أساس غير منتظم، عندما كان يتاح للرسل أن يخترقوا الحصار بطريقة ما. ولم يتم الانقضاض على أيِّ مدينة، بما يرافق ذلك من إصابات مدنية ضخمة وتدمير مادي للأملاك، حتى في زمن متأخر من الفتوحات، لَمَّا سقطت بعض مواقع المقاومة، مثل قَيْسَاريَّة البحرية وواحدة أو اثنتين من مدن (ميزوبوتاميا) البيزنطية، نتيجة قتل عنيف. وقلما اشترك

السكان المدنيون في قتل فعلي من فوق أسوار هذه المدن، لعلَّ بعضَهم تبرَّع ماليًا لدعم الإصلاح، وفي حالات استثنائية لحماية مدن مفردة. إن الأمل الذي تغلب على منطق الحل لدى المدافعين هو أن يستنزف العرب قوّتهم، وأن يُحمى السكان المدنيون، وفوق ذلك كله الوصول النهائي لقوة بيزنطية منجدة فعالة بأعداد ضخمة من الشَّمَال (أو من جهات أخرى إذا توافرت القوات الكافية هناك). كان من المحتمل لهذه الاستراتيجية أن تؤدي إلى خسارة أعداد كبيرة من المواشي، ومن الخراف في الدرجة الأولى. فلم يكن ممكنًا الاحتفاظ بالخراف إلى ما لا نهاية في مكان محدود الاتساع مع مرعى محدود، ولا يمكن جمعها كلها من الرِّيف.

ثمة سبب آخر لعله هو الذي حمل البيزنطيين، بمن فيهم هرقل نفسه، على أن يقرروا الاعتماد على المدن المسورة، وهو تفوقهم الخاص في الهندسة العسكرية، وضعف العرب المزعوم، أو جهلهم وضيق صدرهم بتقنية الحصار. كان ثَمَّةَ أدبٌ استراتيجيٌّ يونانيٌّ رومانيٌّ كبير يتعلق بحروب الحصار وكان معروفًا، وفيه مصدرُ قوةٍ وفائدةٌ كبيرةٌ للبيزنطيينَ في هذا الصِّراع. لكن ليس ثَمَّةَ ما يدلُّ على أنهم أفادوا من ذلك فائدة عملية، بل لعلهم لم يستعملوه البتَّةَ. إنَّ دورَ آلات الحصار، بما في ذلك التي تستعمل للدِّفاع، ليس واضحًا، مع أنَّ المنجنيق يشار إليه في ميزوبوتاميا. وثمة إشارة محدودة إلى أنَّ بعضَ المسلمين عرفَ طريقةَ استعمال هذه الآلةِ، أو لعلَّهُم، مثل سواهم من الشعوب على الحدود الأخرى للإمبراطورية، وجدُوا أفرادًا يمكنُهُم أنْ يصنعوا، ويصونوا، ويستعملوا مثلَ هذهِ الآلات لخدمتهم.[51]

كان هرقلُ أكثرَ معرفةً بالمدن المسوَّرة في سوريَة وفِلَسْطين من أي إمبراطور بيزنطي آخر إذْ زارَ شخصيًّا بعضَ الأهمِّ منها، بما في ذلك القدسُ ودمشقُ وحمصُ وأنْطَاكِيَةُ وإديسًا. ومن المحتمل أنه مر أيضًا بخلقيس (قِنَّسْرِيْن) وحلب. وكان يعرف الأرضين المحلية معرفةً لا يستهان بها، وكان، في ذلك الوقت من حياته، ملك المقدِرَةَ على تفهُّم التضاريس العسكريَّة والإمكانات العسكريَّة للمناطق والمواقع. لقد كان يعرف الطريق الرئيس من الشَّمَال عبر حمص



ودمشق إلى القدس، أما الذي لم يكن يعرفه شخصيًا فهو الأرضُ في جنوبي فِلَسْطين، ومنطقةَ شرقي البحر الميت والعَرَبة والغور. لقد كانت لديه فكرةٌ ما عن أوضاع المدن المسوَّرَة الرئيسة، لكنْ ليس من المؤكد: هل كان يعرفُ أيَّ شيءٍ عن تحصينات المدن الساحليَّة؟ لكنه قام، قبل فترة وجيزة، بزيارة إلى المناطق المنذِرَة بالخطر حيثُ يمكنُ أنْ تنشب حرب فاصلة خلال الفتوحات العربية، وكان عارفًا بأحوالها. كان يلم بعض الشيء بالمشكلات المتعلقة بالنقل والمواصلات والتزويد بالمؤن والمياه والجو والأهمية الاستراتيجية.

بلغت أخبار التهديد الإسلامي هرقل وهو بعد في فِلَسْطين، بحسب رواية الأزدي وروايات أخرى عراقية. وليس من المستحيل أنْ ينقلَ أعوانُهُ إليه أنباءً عن تجمعات خطرة للقبائل العربية. وقد يكون من الممكن أن يُتجاهل أمر هذا الخبر، أو حجزه عن إمبراطور عندما يكون في القُسْطَنْطِيْنِية، لكنْ سيكون الأمرُ أشدَّ صعوبةً في إخفائه عن إمبراطور مرَّ بنفسه عبرَ سوريَةَ إلى القدسِ ذهابًا وإيابًا. لقد كان في وضع يمكنه من سماع شيء ما عن الوضع الأمني في أثناء زيارته لفِلَسْطين، ومن المحتمل أن تتخذ بعض الاحتياطات الأمنية، مع تقديم إيضاح للأسباب التي اتخذت هذه الخطوة من أجلها. كان هذا الشيء من الممكن أن يحمل هرقل أو مستشاريه على الاهتمام بالتحقيق في القضية إلى درجة أوفى. هذا كله تخمين. إنه أمر محتمل، لكن لا يمكن إضافة أي شيء آخر. ليس هذا تاريخًا مؤصّلاً.

يروي الأزدي أنَّ هرقل جمع القوم، وخطب فيهم محذرًا من الخطر الداهم، ومثيرًا حماسة السكان المحليين للدفاع عن أنفسهم وأسرهم ومواشيهم وأملاكهم، لكن ليس من الواضح قط أين ألقى هذه الخطبة في فِلَسْطين. وقد شدد على السكان أن يطيعوا القائد الذي سيوليه أمورهم[52] وأشار إلى الانتصارات البيزنطية الحديثة على الفرس والخزر (الترك). ثم انتقلَ إلى دمشقَ، وفعلَ هناك الشَّيءَ نفسَهُ في أثناءَ إقامته فيها. ويشير نصُّ المؤرِّخ العربيِّ المسيحيِّ يوتيخيوس، ونصُّ (مرثاة سقوط القدس) سنةَ (614 م) (في فقرتين من نصٍّ أصليٍّ واحدٍ) إلى أنَّ هرقلَ ذهب إلى دمشقَ بعد مغادرته القدسَ، لكنَّ أيًّا من هذين النصَّين المسيحيين لا يشير إلى خطبة ألقاها، أو أنه عين أي قائد عسكري في دمشق أو في

أي مكان آخر. إنه أمر منطقي أن يكون عين قادة عسكريين لهذه المدن، لكننا لا ندري اللقبَ الصَّحيحَ الذي أطلق عليهم في اليونانية أو في اللاتينية. وليس لأيٍّ منهم قيدٌ آثاريٌّ أو حجريٌّ أو نقشيٌّ بحَسَبِ معرفتِنا الحاليَّة. الأزديُّ يقرِّرُ أنَّ هرقلَ ذهب من فِلَسْطين إلى دمشق وحمص، ومن ثَمَّ إلى أنْطَاكِيَة، بعد أن عين قادة من جيشه نوابًا له. وفي الطبري رواية عن سيف بن عمر، يبدو أن مصدرها هو مصدر الأزدي نفسه. والاثنان عراقيان.[53]

يبدو أن هؤلاء القادة العسكريين كانوا يتميزون بسلطة عسكرية خاصة بالأزمات للدفاع عن المدن والمناطق الملتصقة بها. لقد عين هرقلُ القادةَ، وكان يحسبهم أفرادًا يعتمد عليهم اعتمادًا تامًا، والذين يطيعون تعليماته، وينسقون سياستهم مع سياسته تنسيقًا مطلقًا دونما أيِّ تردُّدٍ. كانت هذه هي الخطة لعدِّ مدن معيَّنةٍ مناطقَ عسكريَّةً، وهي التي افترض أنها سيكون لها دورٌ حاسمٌ للدِّفَاع عن سوريَة، وأنها ستكون هدفًا أساسًا للهجوم الإسلاميِّ الوشيك.

لا يذكر الأزدي أي شيء عن الجنود الذين كانوا تحت إمرة هؤلاء القواد. ربَّما كانتْ ثَمَّةَ مشكلاتٌ تتعلَّق بسكنهم. وعلى النحو نفسه، فإنَّ حجمَ الحاميات، إذا ما وجدت قبل الهجوم الفارسي، مجهول. إنَّ السلطةَ الدقيقةَ التي كان هؤلاءِ القوَّادُ يتميزون بها كانت ضمنيًا فوق المعتاد. وهذه التعييناتُ ردُّ فعلٍ مباشَرًا لتهديد خاص. ليس ثَمَّة ما يدلُّ على أنَّ لها أيَّ دلالةٍ اجتماعيَّة، سوى أنها كانت محاولةً ممتعة ومهمَّة لاستنهاض همَّة القوم من حال عدم المبالاة للدِّفاع عن أنفسهم. وليس ثمة أي حديث عن أي إصلاح اجتماعي اقتصادي شامل. لكنَّ رواية الأزدي تؤيد إشارات إلى أن هرقل نفسه لم يكن غير مبال، وأنه جرب، على الأقل، أنْ ينبِّهَ سكانَ سوريَةَ ويُعِدَّهم، ولا سيَّما المدن الرئيسةِ، على الخطر الوشيك، وهذا ما لم يكن مفاجئًا، بل متوقَّع إذ إنه من غَير المعقول أنه، بعد زيارته فِلَسْطين، ظل يجهل تمامًا حالة الاضطراب التي تسود القبائل العربية. وتبدو صحة هذه المسألة إذا ما قام بحجته لإعادة آثار الصليب في سنة (630 م) في الوقت الذي كانت فيه الأخبار، بقطع النظر عن درجة تشوُّشها وانعدام الصحَّة فيها، تسرَّبت إلى فِلَسْطين ودمشق عن نشاطات قائمة في الجزيرة العربية بين القبائل العربية المختلفة.



لعلَّ القوَّادَ الذين عيَّنَهم هرقلُ وفدوا من أنحاء من الإمبراطورية تقع خارج تلك التي عهد إليهم الدفاع عنها. وليس ثمة من مصدر، مهما كان نوعه، يشير إلى أن أيًا منهم كان من أبناء المدينة أو المنطقة نفسها التي كان يبذل الجهد للدفاع عنها من المسلمين. إن هذه الحقيقة ذات دلالات متعددة. لعل انعدام هذه الصلة الوثيقة مع المنطقة حال دون تفهمهم للأرضين المحلية والجو ومشكلات التموين المحلية. ولكن فوق هذا كله لعل ذلك عاق قيام نوع من روابط الثقة والحميمية التي ربما كان من شأنها أن تخلق حالة معنوية وإرادة تتصفان بالحماسة لمقاومة المهاجمين.

من الممكن أن انعدام الروابط المحلية الظاهر بين القواد شجع حالة الاستسلام والتردد بين السكان المحليين. ليس ثمة ما يدل على التماسك بين المدنيين المحليين والقيادة البيزنطية العسكرية. ولعل انعدام الصلات المحلية حال دون التواصل المحلي والتفاهم المتبادل بين القيادتين العسكرية والمدنية والسكان. ولعل ذلك أدى إلى انعدام الثقة. ليسَ من الواضح: هل كان ثَمَّةَ قوَّادٌ عسكريونَ محليون يمكنُ أنْ يختارَ هرقلُ منهم أفرادًا للقيادات العليا؟ ليس من المعروف وجودُ تقليدٍ للقيادة العسكريَّة بين القبائل العربية الصديقة مثل ما كان عند الغساسنة. وليسَ من المعروفِ أنَّ السكان المستقرين عرفوا مثلَ هذه القيادةِ، مع أن بعضهم كان لهُ دورٌ في التمويل اللازم لصيانة الأسوار أو ترميمها. ومن الممكن أن غياب التواصل بين السكان المحليين والقيادة العسكرية أدى إلى حالات من النهب قام بها بعض الجنود البيزنطيين. ومع ذلك، لم يكن تعيين هذه القيادة العسكرية المحلية أمرًا عاديًا. وفي الحقيقة لم تكن ثمة سابقة لمثل هذا الأمر. لكن كان من الممكن لاستهلاكِ العمل بهذا النظام أن ييسِّرَ أداءَ استراتيجيَّة هرقلَ في الاعتماد على المدن المسوَّرة، ويعين على ذلك.

إن الشواهد النقشية المرتبطة بإصلاح أسوار المدن في هذه الفترة قليلة، باستثناء ما يتعلق بغزة وبَعْلَبَكَّ في سنة (14-15 هـ/ 635-636 م) حيثُ أنفق السكان المحليون بعضًا من مواردهم المالية الخاصَّة لتحسين حماية المدينتين. هذه المعلومةُ المحدودة توحي أنَّ بعض سكان المدن الكبرى لم تَسُدْ بينَهُم حالةٌ من

الاستسلامِ الكلي، ولا من الاستهتار، ولا من التقبل الفعلي للمهاجمين. وإن كان ثمة ما يمكن أن يؤخذ من إنذارات هرقل للمدن الواردِ ذكرُها، فلعلّها حفزت بعضًا إلى القيام بعمل ما للدفاع عن أنفسهم. والنقوش متّسقة مع سياسة التخصيص، أي: إنَّ صيانةَ وسائل الدِّفاع أصبحت مسؤوليّةً محليّةً، وهذا ما كانت عليه الحال في سوريَة في القرن السادس.[54] وتزودنا الفسيفسائيات المعاصرة بالدليل المرئي على ما كانت الأسوار والأبراج تمنحه للمدن من أهمية ومظهر للسلامة.[55]

لقد حُملت بعض إشارات الأزدي لهرقل على أنها دليل على أنه يمكن الركون إلى الرجل. على أنْ ليسَ فيما ينسبه الأزديُّ إلى هرقلَ مستحيلٌ أو غيرُ محتمل.[56] على كلٍّ، تظل قضية اعتماد الأزدي موضع نظر. ومع ذلك، فإنَّ المقابلةَ بين النصوص الواردةِ عند ثيوفانس، حيثُ يبعث هرقلُ جنرالاً؟ [أو لعله كانَ 'قائدَ العسكر'] اسمه بتولمايوس ليحل محل يوحنا كاتياس حاكم الرهاوية (أوزروين) هو مثل على وضع آمر عسكري مكان موظف مدني بعد ذلك ببضع سنوات في الشَّمَل، في مواجهة المهاجمة المسلمة المتوقعة، وعلى الخصوص لأنَّ الحاكمَ المدنيَّ تفاوضَ مع المسلمينَ في سبيل عقد صلح ودَفْع ضريبة. ويشير ثيوفانس كذلك إلى الأرمني مانول الذي كان يفخر: «إنني مسلح» إذ إنَّ هرقل أحله محل سيروس، وهذا أيضًا هو الحاكم الذي تفاوض مع المسلمين على صلح وضريبة[57] لم يوافق هرقل على أي منهما. ليست هذه هي الحالات الخاصة التي يوردها الأزدي عن قادة عُيّنوا في فِلَسْطين ودمشق وحمص وقد اختيروا من جيشه. هاتان حالتان تدلان على عسكريّة الإدارة، لكنَّهما تمتّان بصلةٍ قويّةٍ إلى ما كان الأزديُّ يرويهِ عن مناطقَ أخرى، وأن تعيينهم لا يعود إلى استياء من الحكام المدنيين.

إذاً، لا تبدو روايةُ الأزديِّ بعيدةً عن الصحّة. وثيوفانس يضع بين أيدينا تأكيدًا جزئيًا لذلك. ويروي ابن العديم في كتابه ‹زبدة الحلب في تاريخ حلب› أيضًا أنَّ هرقل عين ميناس، الذي كان يليه مباشرة في الرتبة، (مع أنَّ رتبتَهُ ودرجتَهُ الصحيحتين ليستا معروفتين) على خلقيس (قِنَّسْرِيْن) بعد أن جلا هرقل نفسه عن المنطقة.[58]



ويبدو أن أحد البواعث على تعيين هرقل هؤلاء القواد على المدن كان يقصد منه التأكد من أن هذه المدن لن تسلّم أو تتفاوض لعقد صلح مع المسلمين، ولا سيّما بالشروط التي قد تستنزف الأموال أو الضرائب العينية. لقد أقلق الإمبراطوريّةَ أنَّ دمشقَ تولت دفع ضرائب للفرس سنواتٍ كثيرةً، وهي المبالغ التي خسرتها الإمبراطورية البيزنطية. ليس من العسير أن يُكتشف سر هذه السياسة. فهرقل لم يكن يرغب في تقوية خصمه أو خسارة مدنه، وفوق ذلك كله لم يرغب في أن يخسر من الضرائب الثمينة في وقت كانت فيه الحكومة تعاني أزمةً ماليةً خانقة. لقد رمى إلى الحيلولة دون القيادة المحلية للمدن والتفاوض غير المسموح به لعقد صلح منفرد مع المسلمين، وهذا ما قد يؤدي إلى سوابقَ منذرةٍ بالخطر. لقد كانت حالات التسليم أو المفاوضات المبكرة في شرقي الأردن مثل أذرُح ومعان وأيلة هي التي حملته على اتخاذ مواقف شديدة معينة في محاولة منه أن يحول دون تكرار مثل هذه الحوادث في مدن أكثر أهمية وأكبر في فِلَسْطين وسوريَة.

قد تكون محصلة رواية الأزدي عن إقامة هرقل قيادات عسكرية صحيحة، هذا مع العلم بأنّه قد لا يكون مقبولاً تصديق نصِّ خطابه ونصوصَ سواه الموجَّهَةِ إليها. فليس ثمة من خبر عن طبيعة القيادات الدنيا تحت مستوى القائد العسكري في تلك المدن، ولا عن العلاقة الدقيقة بين قيادته والسلطات المدنية المحلية السابقة. ولا يعرفُ بالتَّفصيلِ: ما السَّبيلُ الذي كان في نِيَّةِ هؤلاءِ القوّاد العسكريين، المرتجل تعيينهم، اتباعه للقيام بواجباتهم؟ ولا كيف تصرَّفوا حقًّا؟ ومثلُ ذلك القولُ: ليس لدينا أيُّ معلوماتٍ عن مقدرة هذه الحكومة أو القضايا أو التحاك مما له ارتباط بالجهود التي كانت تُبذل من أجل تصريف الأمور. كان تعيين قواد عسكريين على المدن ارتجالاً يسهل فهمه، لكنه كان ارتجالاً تُعْوِزُه القدرة، إذْ أقصى بعضَ مهارات عسكرية جيدة عن تحديات القتل. إن الأمر لم يحدث دفعةً واحدة، بل تدريجيًا مع انسحاب هرقلَ إلى الشَّمَل.

تمكنت دمشق، التي كانت واحدةً من المدن التي عَيَّن عليها قائدًا خاصًّا، من الصمود وقتًا. إنَّ عملَ حاميتها، هذا مع استعداد منصور الموظف المالي المحلي

المهم في دمشق وسواه ممن كانوا يحملون ضغينة على هرقل كي يتعاونوا مع العدوّ، دليلٌ على أنَّ قائدًا له عزم الحديد يمكنُهُ أنْ ينفخ العزم في المقاومة. في النهاية سلمت دمشق طبعًا، وفي الواقع سلمت مرتين للمسلمين. لكنها وقَيْسَارِيَّة إلى جانبها، قاومت وقتًا لا يستهان به. وظهرت المقاومة التي طال أمرها في المدن، لكنَّها لم تظهر في بقاع في الريف. هذا لا يعني أن أولئك الجبليين في جبل لبنان وسوى ذلك من الأمكنة سلموا للمسلمين حالاً. لكنَّ الأمكنة العسيرة على المسلمين لم تكن في الأرياف بادئ ذي بدء، على شاكلة القرن السابع المتأخرة مع المردة أو الجراجمة (في خلافة عبد الملك). وحيثما وجدت مقاومة فقد تمركزت حول المدن. ومن ثَمَّ، فقد أخطأ هرقل التقدير. لكنْ كان ثَمَّةَ عنصرٌ من الحكمة في حُسبانه، وهو اعتمادُ المدن نقاط دفاع للمقاومة. من الممكن أن هذا كان جزءًا من تصميم قديم جدًا في ذلك الجزء من العالم ولم يكن رأيًا ألمعيًا فريدًا خُصَّ به هرقل. ولم يبدأ هرقلٌ أو قوَّادهُ أيَّ نظامٍ لتدريب السكان المدنيين أو الريفيين على حمل السلاح أو استعمل آلة قتل في المدن، بقدر ما وصلنا من المعرفة عن هذا الأمر.

إنه أمر حري بالنظر أن يُطْرَحَ سؤالٌ: هلْ كان إخفاق السُّكَّان السوريينَ في الاستجابة بعزمٍ لمحاولاتِ هرقلَ، هو بذاته، اعترافًا أو دلالةً على أنَّ الأسباب غير العسكريَّةَ هي التي توضح، في الحقيقة، إخفاق الجهد البيزنطي العسكري، أم أنَّ الأمر لم يكن كذلك؟! من غير المعقول أن تُنكر الأهمية الكامنة للتعقيدات الاجتماعية والاقتصادية والدينية للدفاع البيزنطي، على أن هذه العوامل لم تكن جديدة ولا فريدة في أوائل القرن السابع، عمومًا. ومن الواضح أنه كان لليهود باعث خاص لحجب العون عن البيزنطيين. ومن المحتمل أنهم قدموا عونًا فعالاً للمسلمين، واتَّضح من الاحتلال الفارسي الحديث أنَّ الحياةَ كانت ممكنةً خارج إطار السلطة البيزنطية. كانت هذه عناصرَ جديدةً، لكنَّ الافتقار إلى الاستعداد، أو التدريب العسكري، أو إرادة المقاومة بالنيابة عن السكان بعامة، لم تكن جديدةً. فقد كان وضعًا قديمًا، ولم يقتصر على الولايات البيزنطية الشرقية، أو على تلك التي كان الجزء الكبير من



سكانها من المسيحيين المونوفوستيين (أتباع الطبيعة الواحدة، والذين عرفوا أيضًا باليعاقبة).

يتحدث البطريرك صفرونيوس بكلمات مليئة بالذعر من السيف الشرقي الدموي، والخوف من الموت الذي حلَ بين الناس والتنقل.[59] ويوحي ‹[المذهب اليعقوبي]› أيضًا أنَّ المسلمينَ حاولوا أن يحملوا المسيحيين على التخلي عن المسيحية وقَبُول الإسلام.[60] وإلا، فالموتُ نصيبهم. وموت حامية غزة سنة (16 هـ/ 637 م) يتفق مع هذا. و هذا فيه تذكير بأنَّ الفتوحاتِ لم تكن قضيةً سلميَّةً للجميع، وأنَّ بعض القسوة أو التهديد بالقسوة كان ماثلاً في ذلك الوقت. وقد خشي الناس أن يكون ثمة عنف آخر. مع ذلك، كانت حالات القتل محدودة، مع أن قتل المحاربين جملة كان يقع في أعقاب بعض المعارك. وقد ألقي القبض أيضًا على بعضِ المدنيين في الريف وقتلوا، ولو أنَّ مثلَ هذه الحالاتِ نادرٌ.[61] لقد كانت ردَّةُ الفعلِ الأوليَّةُ خوفًا وذعرًا وجهلاً بالمستقبل والمكان الذي يُلجأ إليه للأمانِ.

لم تؤدِ إقامة قواد عسكريين للطوارئ بالضرورة إلى حل قضية السلطة وأداء الأوامر الإمبراطورية في المدن. وتوحي النتف من الأخبار أنه كان عشية المهاجمات الإسلامية وفي أثناءها ثمة احتكاك بين الموظفين العسكريين والمدنيين والدينيين في مختلف الولايات، مع أنَّ من المستحيلِ أن نتعرَّفَ مدى شيوعِ مثلِ هذه المشكلةِ. هذه المصادر تشمل قانونًا لهرقل، تاريخُهُ، وهو أمرٌ مُهمٌّ، سنة (629 م) كما يشمل حادثة استياء منصور الدمشقي من هرقل والقوَّاد العسكريين البيزنطيين، ويدخلُ في عدادها أمثلة من الاحتكاك بين الموظفين العسكريين والمدنيين والدينيين في مصر. كان وجود هذه المشكلات متساويًا مع التحاك في ولايات شرق البحر المتوسط في القرون السابقة. على كلٍّ، يحول انعدامُ التوثيق الكافي دونَ التحقيق في هذه المشكلة تحقيقًا وافيًا. ولعلَّ التحاكّ حلَ دون إمكانية إقامة دفاع صالح للاتباع، ومثيرٍ للعمل الناجح، وعمليٍّ على أساس المدن المسوَّرة.

### 4.5) الانكساراتُ البيزنطيَّةُ والخسائرُ في أعقابِ أجنادَين

سقطت بُصرى (في جنوب سوريَة) على يدي خالدِ بنِ الوليد إثر مسيرته

مـن العـراق.[62] وعـلى كـلٍّ، فـإنَّ مـدى أهمـيَّة مسـيرته من حيثُ دقةُ طريقه والجـدلُ فـيها، لـيس مدعـاةً للاهـتمام المباشَـر هـنا. وتشـير الـروايات المرتبطة بمسـيرته ثانـيةً إلى أن البيزنطـيين، مـعَ إلغاء العون للعرب المقيمين على مقربةٍ مـن غـزة، كـانوا يتمـيزون بـولاء بعـض القـبائل في الصـحراء السـورية وفي أطـرافها، لقـد كـان أحـد أسـباب سـقوط بصرى أن خالدًا قاربها من جهة غير منـتظرة، وهـذا مـا زعـزع أيَّ مخططات للدفاع عنها. إن اقترابه من جهة العراق أوجـد خطـرًا مـن جهـة أخـرى، ومـن ثـمَّ، فقد عطل أي جهد بيزنطي لإيقاف المسـلمين عـند أذرعـات وبصـرى، حيـثُ كانـت تقـوم، بطبيعة الأحوال، نقاط دفاعـية تحـدّد مـناطق الهجـوم. وباستسـلام حـوران أصبح الطريق للوصول إلى دمشـق مفـتوحًا عـلى مصـراعيه. ومـن هـنا جـاءت معركة مرج دابق في سهول جنوبي دمشق.[63]

كانـت جماعـة إسـلامية أخـرى، بقـيادة عمـرو بن العاص، تمكنت، في الوقت نفسـه، مـن احـتلال سكيثوبوليس (بيسان غربي نهر الأردن) ويلاّ (فَحْل شرقي نهـر الأردن) بعـد معـركة فـرَّ فـيها البيزنطـيون. وبحَسَـب رواية البلاذري انتقل هـرقلُ إلى أنْطَاكِـيَةَ حـين أرسـل أحـد الخصـيان لـيتولى قـيادة القـوات البيزنطية وسـواها، ومـن المحـتمل أن يكـون هـؤلاء مـن أصول عربية، آتية من ميزوبوتاميا العليا.[64]

### 5.5) هرقلُ يحذِّرُ من المعاركِ المكشوفةِ مع العَرَبِ

تؤكِّـدُ بعـضُ المصـادر الرئيسـة المسـيحية أنَّ هـرقل حـذَّرَ أخاه ثيودور من العـرب: أنْ تحـاشَ المعـارك معهم. هذه المصادرُ المتنوِّعَةُ تشمل أخبارَ نيقوفورس البيزنطـية، التي تعود إلى وقت متأخر من القرن الثامن، والأخبار التي يحتمل أنْ تعـودَ إلى القـرن الـثامن، والمحفوظـة في ترجمة لاتينية لذلك بالعربية (من أصل إسـباني) لأخبار إيـزيدور الأشبيلي.[65] لا يُعرَف تمامًا الوقتُ الذي أدلى هرقل فـيه بهـذا الإنـذار المـزعوم، ولعلَّـهُ كـان قبل معركة أجْنادَين، إذْ من الممكن أنَّ أخـاه ثـيودور كـانَ القـائدَ، وكـان الانكسـارُ قـدرَهُ. كانـت الكتيِّبات العسكرية القديمـة تضـم الكـثير مـن النصـائح بتجنُّـب المعـارك، وهـي الـتي اقتبسـتها



الكتيِّـبات العسـكرية البيزنطـية وكررتها.[66] من المعقول أن يكون هرقل حذَّر أخـاه: أنْ تَجَنَّـبِ المعـركةَ إذا كـان ذلك ممكنًا، حتى تحين اللحظة الأكثر ملاءمة. أمـا القـولُ: إنَّ ثـيودور كـان ينظر إلى القدرة القتالية للعرب بازدراء فيدعو إلى الشك بسبب الميول المونوفوسية؛ أي: اليعقوبية، التي كان المؤلِّف ينتحلها.[67]

الظاهـر أن هرقل نبَّه أخاه ثيودور على وجوب انتظار تعزيزات إضافية، وأن يتجنـب، عمومًـا، مجابهات فاصلة في البلاد المكشوفة. إن هذا العرف مقْبُول، مع أنـه في الواقـع يـبرِّئ هـرقل مـرة ثانـية ويدعـو إلى تشريفه على ما بدا منه من الحكمـة في توقـع مكـامن الخصـوم وأحابيلهم. وتظل هناك أمورٌ مشكوكٌ فيها: هـلْ سبقَ نصحُ هـرقلَ الانكسارَ في أجنادَيْن أم جاء بعده؟ وهلْ كان التحذيرُ مـن لجـوء العـرب إلى المكـامن ردَّ فعلٍ عاديًّـا، مـن هـرقلَ، ناشـئًا من التاريخ الطويـل للمشـكلات الرُّومانـية والبيزنطـية مـع العـرب، أم أنـه اسـتجابةٌ لانكسـارات بيزنطيَّة حديثة العهد، واعترافًا بالوضع الحقيقيِّ القائم من حيثُ الحرجُ الناشئُ من عدد الجنود البيزنطيين يومها؟! من المحتمل أنه وجَّهَ التحذيرَ بعـد أجـنادَيْن، ولكـنْ، وهـو يوجِّهُـهُ إلى أخـيه ثـيودور، كـان يـتذكَّر الـبداءة العسـكريَّة التقلـيدية عند المقاتلين العرب. وثمَّة سؤالٌ أكبرُ أهميةً: هلْ كان هذا العُـرف الـتاريخيُّ، هـو في الحقـيقة، نسغًا أدبيًّا يجاري الأسلوبَ البلاغيَّ المألوفَ في الـتعاطي مـع فضـائلِ الإمـبراطور القائم على الحكم الذي كان مفروضًا فيه أنْ يستقرئ الحبائلَ، ويتغلَّب عليها.[68]

# 6) مشكلاتُ التماسكِ:

# إعادةُ النظَرِ في معركةِ الجابية - اليرموك

> عندما يُختَرقُ جناحُ الفرسان، فإنّ المشاةَ يُدار بهم، ولا يبقى ثمّةَ سبيلٌ أو إرادةٌ للدّفاع عن أنفسهم. ومن ثَمَّ، فإنهم، وقد فقدوا الشّجاعةَ، يلقونَ بأسلحتهم إلى الأرض، ويسألونَ الرَّحمةَ. (ريموند مونتيكوكولّي في (Colonia) Memorie، Ferrara، 1704، XXVII، P.37)

## 6. 1) الجابيةُ

بعدَ انتصارهم في بلاّ (فحل) نفذ المسلمون إلى الشّمَال مسرعين، وسلّمت دمشق. واندفعت القوات التي كانت بقيادة أبي عبيدة إلى احتلال قاعدة عمليات هرقل السابقة في حمص (إيمزا القديمة). وقد هدّد احتلالها وادي البقاع الخصب، وعلى النحْو نفسِه، قلب سوريَة البيزنطية؛ أي: وادي العاصي، وفتح أمام المسلمين الطريقَ نحو التوسع إلى مدى أبعد شمَالاً. وقد قام المسلمون بحملات في البقاع، ودفع احتلالهم دمشق وحمص، في وقت مبكر من سنة (15 هـ/ 636 م) الأمور إلى درجة المقابلة العسكرية الفاصلة. وشملت الاستجابة البيزنطية القوية جمع أكبر عدد من الفرق المتيسرة وإرسالها تحت قيادة كبار القادة البيزنطيين، الذين كان بينهم (على وجه التأكيد) مدير الملل. من المحتمل كذلك أنه كان معهم القائد ثيودور تريثوريوس والجنرال الأرمني فاهان، وذلك من أجل إخراج المسلمين من الأراضي التي احتلوها حديثًا.

كانت معركة الجابية-اليرموك، بحَسَبِ المصادر الإسلاميَّة والمسيحيَّة، قمَّةَ الحملاتِ الإسلاميَّة على الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. كانت معركةً حقًّا، ولو أنَّ

الرواياتِ المتوافرةَ لدينا تضعُ بين أيدينا وصفًا مضطربًا لها (الخريطة رقْم (4)).[1] بدأت المعركة في جوار الجابيَة أو غابيتا، التي كانت، بمراعيها ومائها، مركزًا هو مفتاح لأهم حليف عربي للبيزنطيين؛ أي: الغساسنة،[2] على نحو خمسة كيلومترات إلى الشّمَل الشرقي من المركز الإداري السوري الجديد في نَوى على المشارف الشرقية لهضبة الجولان.[3] ويؤكد موقعُ معركة الجابيّة، على الأقل خلال جزء من القتال (من المحتمل أنه كان عند الابتداء) أهمية الغساسنة في هذه المعركة، ومن الجهة الأخرى، أهمية المعركة للغساسنة. لم يكونوا راضينَ عن استيلاء المسلمين على هذه المنطقة، ومن ثَمَّ، فقد كانوا مشاركين مُهمِّينَ في المعركة. من المناسب التحدُّثُ عن معركةِ (الجابيّة-اليرموك). لقَد وقع القتالُ الفاصلُ في هذه المعركة في (11) من رجب (15 هـ) الموافق (20) من آب/ أغسطس سنة (636 م) لكنَّها لم تكن معركةً ذلك اليوم حصرًا، بل من المحتمل أنها دامتَ شهرًا ونصف شهر.[4] فقد تبودلت فيها صداماتٌ ومناوراتٌ، وتخللتها خسائر في الأرواح في كلا الجانبين قبل الوصول إلى الدور النهائي على مقربة من نهر اليرموك، حيثُ يصب فيه رافدُه وادي الرقّاد.

كانت كلٌّ من جِلّق (الكسوة الحديثة في سوريَة) والجابيةِ تزوِّدان كلا الجيشين بالمراعي والماء الممتازين في محاولتهما التحكم بدمشق وشرق الأردن والمرتفعات التي تعلو الجليل وبحيرة طبرية: لعلَّ البيزنطيينَ حسبوا، على حقٍّ، أنه يمكنهم أنْ يظلوا في الموقع نفسِهِ إلى ما لا نهاية مع عددٍ جيِّدٍ من الجنودِ والحيواناتِ من دونَ أن يُرغموا على الرحيل أو الانتشار سعيًا وراء المُؤَن. لقد كانت المنطقةُ مفتاحَ المواصلاتِ بينَ دمشقَ والجزيرةِ العربيّة وكانتَ تهدد بُصرى، العاصمة القديمة للولايات العربية، ومثلها حوران، وذلك بالضغط على القبائل العربية المسيحية مثل الغساسنة، والحد من أهمية أي سيطرة إسلامية على فِحل (بلاّ) وبيسان (سكيثوبوليس أو بيت شان).[5] ومع أن موقع معركة الجابية-اليرموك كان أرضًا جيدة لمناورات الفرسان، فهناك أيضًا من الغطاء ما يتيحُ للمقاتلين الاختباء فيه، إذ كان هناك أجمات ومنخفضات. ولعل المدى الذي كانت تغطيه الغابات يومها أكبر مما هو عليه الآن.



### 6. 2) أسبقيَّةُ أذرعان

ينزع البشر إلى تخيُّل حربٍ ما على أنها الأخيرة، بما في ذلك أخطاؤها ونجاحُها والفرصُ الضائعة. وقد خبرت المنطقةُ معركةً فاصلةً واحدةً من أجل فِلَسْطين في سنة (613-614 م) وأخرى في ثلاثينيَّات القرن السَّابع في معركة الجابية-اليرموك. إنَّ الجهد للدفاع عن فِلَسْطين ضد الفرس في (613-614 م) بعد أن حطموا نقاط الدفاع البيزنطية في الشّمَل، وبعدَ خسارتهم أنْطَاكِيَة في الشّمَل وقطع المواصلات، حمل البيزنطيين على محاولة الوقوف في وجه الفرس في منطقة معقولة في جنوب سوريَة، وهي في أنحاء أذرعان وبصرى،[6] وهذا ما انتهى بانتصار فارسي خُلِّدَ في سورة الروم في القرآن الكريم.[7] إنَّ صلتَها الوثيقةَ بالتاريخ البيزنطيِّ، ولا سيَّما التاريخِ البيزنطيِّ العسكريِّ، لم تنل حظها من العناية. وكانت أذرعان، التي تتحكم بطرق المواصلات الشّمَالية الجنوبية في شرق الأردن، المكانَ الطبيعي لمحاولة وقف حملة على فِلَسْطين.[8] ليس من البيِّن عددُ الجنودِ الذين حشدهم البيزنطيون. من المفروض أنه كان بينهم أصدقاء من العرب. وهكذا، فقد أُتيح للبيزنطيين والعرب أن يشهدوا فريقين متقاتلين يلتحمان في معركة فاصلة في المنطقة نفسها التي كانت على وشك أن تمر ثانية بتجربَة معركة فاصلة بينهما في ثلاثينيات القرن السابع. وكان للفريقين مجالٌ كي يدركا الحركات الاستراتيجية، وتضاريس المكان، ومدى الخيارات الممكنة للقواد ومن ثَمَّ تعلُّمَ درسٍ من تجارب سنة (613-614 م). من المحتمل أن يكون العرب تعلموا أكثر، بوصفهم مراقبين محليين، إما مباشرة أو بالوساطة، عبر أخبار من عرب أصدقاء آخرين، ومن سكان المدن والقرى المحليين الذين كانوا على مقربة من المناورات والقتل، والذين من المحتمل أنهم تحدَّثُوا عن القتل في أثناء تعاملهم تجاريًا. كانوا يعرفون الأرضين وأهميتها العسكرية، بما في ذلك كيف يتيسر للقوات العسكرية، التي تحتل الأمكنة على التوالي، وعلى مقربة من نقطة الخانوق التي هي أذرعات، أنْ تستجيبَ وتقوم بتحرُّكات. في مقابل هذا التفسير من الممكن القولُ: أولاً: كان للبيزنطيين وسائل مؤسَّسيَّة لتذكر مثل هذه الدروس، ونقلها إلى جيلٍ تلَ من القادة، في حين لم يكن للعرب شيءٌ من هذا. ثانيًا: العربُ الذين أدركوا المعركة

سنةَ (613-614 م) لم يكونوا هُم أنفسُهُم الذين قادُوا الجيوشَ الإسلامية في ثلاثينيَّات القرن السابع، وربَّما استشارَهم أولئك الذينَ جاؤوا بعدَهُم.

لم يحتل البيزنطيون في ثلاثينيات القرن السابع المكان نفسه الذي كانوا فيه سنة (613-614 م) وواقع الأمر كان موقعهم اللوجستي والتكتيكي على عكس ما سبق. لقد كانوا في موقع الدِّفاع، كما كانوا في سنة (613-614 م) لكنهم كانوا يواجهون الجنوب لا الشَّمَال. مع ذلك، وبسبب التجارب السابقة كان باستطاعة البيزنطيين والعرب على السواء أن يحاولوا، بكثيرٍ من السهولة، أن يحتل كل فريق مكان الخصوم، إذْ كان ثمَّةَ سجلٌ لما قامَ به الآخرونَ في وضع مشابه في سنة (613-614 م). إن بعض أهم المناورات والقتل في ثلاثينيات القرن السابع لم يجر في منطقة مجهولة المعالم، فقد حدَثَ هذا في منطقةٍ وقعت فيها تحرُكاتٌ استراتيجيَّةٌ وتكتيكيَّةٌ سابقةٌ. لكنْ ليس من المؤكَّد، بل لعلَّه حقيقةٌ أمرٌ مشكوكٌ فيه، أنْ يكون أيُّ شخصٍ في الجهة البيزنطية جرَّب أنْ يدرسَ هذه الأسبقيات دراسةً منتظمة، ويتوصل إلى استنتاجات خاصة.[9]

وعلى كلٍّ، فإنَّ المنطقةَ التي وقعت فيها معركةُ (الجابية-اليرموك) لم تكن المكانَ الأمثلَ للبيزنطيينَ. فأذرعات ونَوى كلتاهما كانت تقيم فيهما جماعاتٌ يهوديَّةٌ كبيرةٌ، من المحتمل جدًّا أنها كانت تضمر عداءً شديدًا لهرقلَ بسبب سياسته المعادية لليهود. إنَّ مؤرِّخ البَلاط الهرقلي؛ أي: ثيوفيلاكت سيموكاتا، يعبر عن العداء المعاصر لليهود: «إنهم جنسٌ شرير، لا يمكن أنْ يوثَقَ بهم، وهم محبّون للمشكلاتِ، وظالمونَ، ينسَوْنَ الصداقة كليًا، عنيدونَ في خصومتهم، وغَيورونَ، وحاسدونَ».[10] على جميع الأحوال، ومع كثرة الشكوك التي كان البيزنطيون يكنونها لليهود، ليس ثمة مصدر يشير بخاصة إلى أي عمل قامت به الجماعات اليهودية في ذلك الوقت.

وحقيقةُ الأمر: لو أنَّ البيزنطيينَ أحسُّوا بعون اليهود للمسلمين، لربَّما ألقَوا باللوم على اليهود بسبب تعثرهم (من الطَّبيعيِّ أنه يمكنُهم أن يلقوا باللوم عليهم، سواءٌ أكان لهم دورٌ أم لم يكن). ومع ذلك، فقد كانت هذه جماعةً ساخطةً تقيم في اثنتين من أشدِّ المدن خطرًا، وعلى مقربةٍ من مسارح هاتين



المعركتين، وتقتَعِدان خطَّ المواصلات. ومن ثَمَّ، فقد كانت الجيوش البيزنطية تقوم بالعمليات هناك في محيط شديد العداء لها.

كانت القبيلة العربية اليهودية بنو النضير قد أجلاها المسلمون عن المدينة والجزيرة العربية سنة (4 هـ) في شهر ربيع الأول، آب (625 م) وقد استقرت في أذرعات، التي كانت نقطة عُقْدِيّة للتجارة والنقل والمواصلات لما كان الفرس يحتلون المنطقة. ولعل الفرس كانوا يرغبون في أن تستقر فئة عرقية ذات نزعات موالية في تلك المنطقة الحساسة. وقد كانوا، وهو أمر ذو مغزًى، من صانعي السلاح. كانوا يعرفون المسلمين ويكرهونهم، ولكنهم، من حيثُ إنهم يهود، كانوا، على الأرجح، يكنّون أحقادًا أشد لسياسات هرقل. وهم، مثل يهود نَوى، كانوا في موضع استراتيجي يمكنهم من المراقبة وإجراء الاتصالات. ولعلَّهُم استمرُّوا بالاتصال برجال القبائل في الجزيرة العربية. إن بني النضير لم يكن لهم شعور ودي نحو المسلمين بسبب ما لاقوه من الأذى على يد هؤلاء في المدينة حديثًا. فقد أُجلُوا، ومن ثَمَّ، استقرّوا في أذرعات، ولعلَّ السَّببَ يعودُ إلى أنَّ الفرسَ الحكام يومها اعتقدوا بأنهم سيكونون عوضًا يصحُّ الاعتمادُ عليه من السُّكّان الأسبقينَ الذينَ أظهروا الدَّعم للبيزنطيين. هذا هو السبب الذي حملَ الفرس على تدمير المنطقة قبل أن يسمحوا لبني النضير بأنْ يستقرُّوا هناكَ. ومن المحتمل أنَّ سياسةَ هرقلَ المناهضةَ لليهود كانت أشدَّ إيلامًا لبني النضير من سياسة المسلمين معهم.[11]

أمر هرقلُ، استجابَة لضغط رجال الدِّين المحليين والسكان المدنيين، على ما يُزعم، بقتل اليهود المقيمينَ حولَ القُدس وفي جبلِ الجليل سنة (9 هـ/ 630 م) على وجه الاحتمال. وقد فر عدد من اليهود بسبب هذا الفعل. وكان ثمَّةَ احتفالٌ دينيٌّ خاصٌّ يقومُ به الخلقيدونيون [نسبةً إلى المجمع المسكوني الذي عُقد في خلقيدونية سنة (451 م) ويطلقُ عليهم الملكيّون أيضًا] يصحبه صومٌ للتكفير عن انتهاكِ حُرْمَةِ الاتفاقِ الذي عَقَدَهُ هرقلُ مع اليهودِ.[12] وقد بذلت كل الجهود في المصادر لتجنيب هرقل المسؤولية عن ذلك. مع ذلك، فمن المؤكد أنَّ هذه المجزرةَ أحنقتِ اليهودَ الذين نجوا منها، والذين كانوا ينظرونَ إلى المسلمينَ بعين الرِّضَى. إن التائبين المسيحيين (المفروضُ أنهم خلقيدونيون؛

أي: ملكيّون) ادَّعَوْا أنهم كانوا يخشَوْن، إذا ما هاجمهم شعبٌ معادٍ آخرُ، أنْ يؤيِّدَهُ اليهود ضدهم، على نحو ما فعله اليهود لمّا جاء الفرس.[13] قد يدل هذا على وعي للخطر الوشيك لهجمات المسلمين، مع أنّه ليسَ ثَمّةَ إشارةٌ خاصةٌ إلى المسلمينَ أو إلى العربِ بأنهم الخطرُ. إنه إشارة أخرى إلى الوضع المزعزع والقلق في المنطقة في ذلك الزمن. ولعل هذا كان سببًا آخر لخروج بعض اليهود عن دينهم. إن حقيقة المجزرة أمر مقبُول، لكن العدد الحقيقي لضحايا اليهود مجهول، ومثل ذلك طبيعة الجماعات اليهودية الناجية وتوزعها. وكان بعضَ اليهودِ ثارَ بعنفٍ على المسيحيينَ في عكّا وصور، إضافةً إلى القدس، في أثناءَ الحملات الفارسيّة.[14]

كان شهرباراز الجنرالَ الفارسيَّ الذي قاد القوات الفارسية في (613-614 م) في أذرعات، والذي اتضحت حكمته خلال الحملة. واحتلَّ من قبلُ أجزاءً كبيرةً من الأراضي البيزنطيّة، لكنَّهُ أَبِقَ بعد ذلكَ إلى هرقلَ، وفاوضَ، سنةَ (8 هـ/ 629 م) على الشُّرُوط التي أدَّتْ إلى انسحاب الفرق الفارسيَّة من الأراضي البيزنطية المحتلة، وتولّى مَلِكًا على فارس فترةً قصيرةً بعد وفاة قواد سيرُوس.[15] وابنه نيكيتاس هو الذي فرَّ إلى البيزنطيين بعد أن خُلِعَ أبوه عن العرش وقُتِل، والذي كان إزاءَ المسلمين في أربعينيَّات القرن السَّابع. لعلَّ هرقلَ حَسِبَ أنه كانت له مقدرةٌ عسكريَّةٌ على نحو ما كان لأبيه. من المحتمل أنَّ نيكيتاس سمعَ أحاديثَ أبيه عن حملاته في منطقتي أذرعَات وبُصرَى. ليسَ من المعروفِ: هلْ رافقَ أباهُ شخصيًّا في حملته هناك؟ على كلِّ حالٍ، كان هرقلَ ومستشاروه يرَوْنَ بعين الثقة أنَّ نيكيتاس كانت له تجربَة شخصيَّةٌ ممتازةٌ بالأرضين المحليَّة والسكان والمواصلات، بغض الطرف عمَّا إذا كان يملك هذه المعرفَة أم لا.

مع أنَّه من المحتمل أنْ يمرَّ هرقلُ خلالَ أرض معركةِ اليرموك، أو على الأقلِّ، قربَ بعضِها في طريقه إلى القدس وطريق عودته منها سنةَ (9 أو 10 هـ/ 630 أو 631 م) فليس ثَمّةَ أيُّ دليلٍ على أنَّ هذه الحقيقة أثرت في نتيجةِ المعركة على أيٍّ . لعله عرف بقرار القائدين البيزنطيين، ثيودور وفاهان، أن يعسكرا في تلك المنطقة من دون أن يهتم بذلك. إن سفره إلى القدس ومنها ربما لم



يتضمن النظر إلى الأودية التي تصب في اليرموك[16] أو ضفاف اليرموك الشديدة التحدّر حصرًا. وليس ثمة شيء معروف عن نوعية الخرائط أو الاستخبارات البيزنطية فيما يتعلق بأرض معركة اليرموك.

ربما أثّرت المعركةُ السَّابقةُ بين البيزنطيينَ والفرسِ في أذرعَات سنةَ (614 م) في سيرِ المعركة سنة (15 هـ/ 636 م). لقد قاتلَ الغساسنة إلى جانب البيزنطيين، ومن ثَمَّ، فإنهم لم يكونوا مصدرَ معلوماتٍ للمسلمينَ. وكانت المعركةُ السَّابقةُ وقعَتْ قبل ما يزيدُ على عشرينَ سنةً وتحتفظ الروايات الإسلامية بالقيد الوحيد عنها، ولعلها ضخمت دلالتها. وليس من المحتملِ أنَّ المناوراتِ الحقيقيَّةَ سنةَ (15 هـ/ 636 م) كانت في الواقع إعادةً لتلك التي تمَّتْ سنةَ (614 م) وإلا، فإنَّ البيزنطيينَ عرفوا، من غير شكٍّ، كيفَ يتجنَّبُون الوقوع في الشَّرَكِ كما حدثَ لهم سنةَ (15 هـ/ 636 م).[17] والقيادةُ المسلمةُ في سنة (15 هـ/ 636 م) لم تقُمْ بدور في ذلك القتل السَّابق، وفي جميع الاحتمالاتِ لم تكنْ تملك الكثيرَ من المعلُومات المفصَّلة عنها. كان يمكنُ للبيزنطيينَ وأحلافَهُم الغساسنةَ، أو كان يتحتَّم عليهم، أنْ يتعلَّموا أيَّ 'دروس' من سنة (614 م) وهذه الأفضليَّةُ بالنسبة إلى هذا الأمر لم تؤدِّ إلى نتائجَ واقعيَّةٍ قطعًا. من الممكن أنَّ المعركةَ السَّابقةَ لم يكن لها أيُّ أثر جدير بالذكر في العمليات الحربية في سنة (15 هـ/ 636 م) أو لعلَّها قلَّلَتْ فقط أهميَّةَ المواقع الاستراتيجيَّةَ للبلاد الواقعة بين أذرعَات وبصرى، وهذا ما يمكن إدراكه بدهيًّا. مع ذلك، فمن غير المعقول أنْ يَستنتجَ الكثيرُ من معركةٍ وقعت في أذرعَات سنةَ (614 م). لقد كانَ الغساسنةُ حلفاءَ البيزنطيينَ، ولا يمكنُ أن يزوِّدوا، قصدًا، بمعلومةٍ ذاتِ قيمةٍ مساعدة للمسلمينَ. إن المعركة حرية بالاهتمام، لكنَّها لم تكنْ بالضرورة عنصرًا أساسًا في خلفيَّة العمليات الحربيَّةِ سنةَ (15 هـ/ 636 م) وقد لا تتعدى أهميتها التوكيد على الأهمية الاستراتيجية الدائمة للمنطقة بين أذرعات وبصرى.

### 6. 3) أحداثُ المعركةِ الرئيسةُ

هنا، باختصار، موجز سير المعركة. لما بلغ المسلمينَ أخبارُ هجومٍ بيزنطيٍّ

معاكس، جَلَوا أولاً عن حمص ودمشق. القائد البيزنطي الأعلى كان فاهان، لكن كان هناك قائد مهم آخر هو المدير المالي، ومن المحتمل أنَّ قائدَ جنودِ الشَّرْق (magistr militum per Orientem) ثيودور تريثوريوس، الذي جاء من حمص في الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة (15 هـ) الموافق السادس والعشرين من أيَّار/ مايو سنة (636 م)[18] كان هناكَ أيضًا. وقد دخل في عداد القوَّادِ أيضًا غَرغيس (Gargīs) قائد الأرمن، وجَبَلة بن الأيهم ملك الغساسنة. جاءت القوى البيزنطية من إدسّا (الرُّهَاء) أو من أنْطَاكِيَة أو من كلا المدينتين وتقدَّمت، بقيادة ثيودور تريثوريوس، عبر وادي البقاع، ثم فوقَ مرتفعات الجولان، وعسكرتْ في جِلِّق، التي هي الكسوة الحالية وما حولها. أما القوات المسلمة فانسحبت من منطقة الجابية إلى خط بين دير أيّوب الحديثة وأذرعات (درعا الحديثة). وقد يسرت هذه الحركة للمسلمين موقعًا مهمًا طبوغرافيًا واستراتيجيًا، وهو موقع كان باستطاعتهم منه أن يحاولوا وقفَ البيزنطيين المتقدمين ومقاومةَ اختراقهم جنوبًا. كان القائد الأول للقوات المسلمة أبا عبيدة بن الجراح. وقد ترقب المسلمون شهرين أو ثلاثة أشهر قبل أن تبدأ المعركة الحاسمة.

أجّل البيزنطيون القتال أملاً في أن يتاح لجنودهم التعرُّف إلى المسلمينَ والأرضينَ من جهةٍ، وأنْ يكتسبوا الثقةَ. ومن البواعث الأخرى الممكنة لهذا التأخير كانت محاولاتهم إضعاف المسلمين بالدبلوماسية والدسيسة، ورغبتهم في الحصول على أخبار إضافية عنهم. في الوقت نفسه، اشتبكت الفرق البيزنطية مع السكان السوريين المحليين. وزادت حدة التوتر بين الفريقين. وقد رفض منصور، المدبر البيزنطي الرئيس لدمشق، أن يزوِّد الجنرال فاهان بالقدر الذي طلبه من المؤن، مدعيًا أن الطلب كان يفوق كثيرًا ، المصادر المتوافرة في دمشق. كان منصور لا يطمئِنُّ إلى هرقلَ ولا إلى فاهان. فخَطَّطَ لتظاهرة صاخبةٍ أثارت الذُّعْرَ، والفوضى، وتسلَّل بعض الجنود البيزنطيين من المدينة في الليل.

كان ثَمَّةَ مناوشةٌ أوليَّةٌ على مقربة من الجابية اضطرَّتِ المسلمينَ إلى التراجع. وقد كسر المسلمون قوات ثيودور تريثوريوس قربَ الجابية، ولعلَّ ذلك كان في الثالث عشر من جمادى الأولى سنةَ (15 هـ) الموافق للثالث عشر



من تمُّوز/ يوليو سنة (636 م). إنَّ الرواية التي تقول: إنَّ الفرقَ البيزنطيَّةَ الساخطةَ ثارت ونادت بفاهان إمبراطورًا بيزنطيًا هي مدعاة للشك، ولعلها تكون مثلاً على الأكاذيب الأسرية المتعمدة، في محاولة لنقل المسؤولية عن أكتاف هرقل إلى آخرين. ولعلها تكون سوء فهْم لروايةٍ أقدمَ في تأييد هرقل، حاولتْ أنْ ترسُمَ للفرق البيزنطية صورةً تدلُّ على أنها كانت عاصيةً من حيثُ إنها رفضتْ، بتعجرفٍ، أنْ تطيعَ أمرَ هرقلَ بوجوب تحاشي القتال مع المسلمينَ، وقد تحوَّلت مع الزمن إلى الادعاء بأنها لم تعص فقط، بل نادت بقائدها إمبراطورًا. أو لعلها كانت تعكس صورة الفوضى الفاضحة في صفوف المقاتلين البيزنطيين والتوترات والمناوشات بين الجنود البيزنطيين والسكان المدنيين المحليين. لكنْ من الممكن أيضًا أنَّ روايةً عن نزاع عنيفٍ دبَّ بين قائد المعركة (القناطِر) وغرغيس الذي أبى الائتمار بقيادة الأول، قد تكون أثرًا من الرواية المتعلقة بالقضية. كان هذا القائد يقود الميمنة البيزنطية، وكانت لمعاذ بن جبل قيادة الميمنة المسلمة، و قُباذة بن أسامة يقود الميسرة، وهاشم بن عتبة يقود المشاة، وكانت قيادة الفرسان لخالد بن الوليد. كانَ ثَمَّةَ أربعةُ قوَّادٍ هم: خالدُ وعمرُو بنُ العاص ويزيدُ بنُ أبي سفيانَ وأبو عبيدةَ. كان هذا هو اليومَ الأولَ من أيام القتال الثلاثة أو الأكثر من أيام المعركة.[19]

نقل البيزنطيون بعضًا من قواتهم للعَسْكَرة بين وادي الرقّاد ووادي الحرير، وبُلوا بفِرار بعض الجنود. وأخفقوا في تغطية الأرضين بين دير أيّوب ومعسكرهم، وهذا ما يسَّر للمسلمين اختراقها، والالتفاف حول الميسرة البيزنطية أملاً في الحيلولة دون تراجعها. وبدأت المفاوضات بين فاهان والمسلمين. أعد المسلمون شَرَكًا للبيزنطيين بدقة، وذلك بتمثيل انسحابهم على أنه في اتجاه أذرعات من المواقع التي احتلوها قبلاً. تقدم البيزنطيون لاحتلال المواقع التي تخلى عنها المسلمون من دون أن يعنوا عناية كافية بالمسلمين الذين كانوا مختبئين في الأرض المكسوة بالأجمات.

كان القائد، صاحب منصب قائد فرقة، على رأس الميسرة البيزنطية، في حينَ كان غَرغيس الأرمني يقودُ الجناحَ البيزنطي الأيمن. أرجعت الميسرة البيزنطية الجناح المسلم الأيمن، واقتربت من المعسكر الإسلامي، الذي كانت النساء

يدافعْـنَ عـنه. وعلى مثل ذلك أرغمت الميمنة البيزنطية الميسرة الإسلامية على أن تنسـحب إلى المركـز والمعسـكر الإسـلامي. رد المسـلمون بهجـوم معـاكس. تصدعت صفوف البيزنطيين، ولاذوا بالفِرَار، وتفرَّقُوا أيدي سَبَأ.

انفصـل الفرسـان البيزنطـيون عـن المشـاة البيزنطـيين، ولعل هذا تم بينما كـانوا يحـاولونَ القـيامَ بمـناورة بيزنطـية معقـدة تعرف (بالتشكيل المختلط) أو (التشـكيل المحـدب).[20] وقـد انتـبه أحـد القـواد المسلمين هو خالد بن الوليد، عـلى هـذه الفـرجة في القـوات البيزنطية، ونجح في إدخال فرسانه بين الفرسان والمشـاة البيزنطـيين، وعـندها أعمـل فرسـانه السـيف فيهم. وقد قامت عاصفة غـبار أقضـت مضـاجع البيزنطيين، وأتاحت للمسلمين فرصة استغلوها. خلال هذا كان كثيرٌ من العربِ المسيحيين الذين ينصرونَ البيزنطيينَ قد فرُّوْا.

نجـحَ الفرسـانُ المسـلمونَ بقـيادةِ خـالدِ بـنِ الوليد مساءً في الاستيلاءِ على الجسـر الوحـيد على وادي الرّقاد.[21] وقد عزلَ هذا العمل الكثرة من القوات البيزنطـية بين الجرف الشديد الانحدار لوادي الرقّاد ووادي العَلاّن، غربي وادي الحريـر عـزلاً تامًّا. حينـئذٍ هاجم المسلمون المعسكر البيزنطي، واقتحموه. ومن ثـمَّ، فصـل المسـلمونَ القوَّة البيزنطية الرئيسة، إذْ إنها لم تتمكن من التخلص مـن المـأزق. وعندها تم اقتحام[22] المعسكر البيزنطي في الياقوصة (التي قد تبعد كـيلومترًا واحـدًا إلى الشـرق مـن فـيق، في مـرتفعات الجـولان، عـلى الجانـب الجنوبي من وادي الرقّاد).

في الحـادي عشـر مـن رجـب الموافـق العشـرين مـن آب/ أغسـطس بلغت المعـركةُ ذروتهـا. انتشـرَ الذُعرُ بين البيزنطيين لَمَّا عرفَ الجنودُ أنَّ بعضَ العرب المسـيحيينَ تخلَّى عنهُم، إمَّا هربًا عاديًا أو انتقالاً إلى الجانب المسلم، وأن استيلاء المسـلمين عـلى الجسـر، وهـو طـريقُ الـنجاةِ الوحـيدُ، حـدَّدَ خـياراتهم. بعض القـوات البيزنطـية توقـف عـن القـتال أصـلاً، وقـد قتلهم المسلمون في اليوم الـتالي مـن دون مقاومـة. ولقـي سـواهم مـن المقـاتلين والفرسـان البيزنطيين حـتفهم عـندما سـقطوا مـن المنحدرات القاسية إلى الوادي بينما كانوا يحاولونَ الـنجاة. كانـت النتـيجة إبـادة الكثرة الساحقة من القوات البيزنطية، واللحاق بأولئك الذين تمكنوا من النجاة.



وقـد تنوقلـت روايـات مختلفة عن مصير القادة البيزنطيين في المعركة. وتتبع المسـلمون البيزنطـيين، ثـم اتجهـوا نحـوَ محاصـرة دمشـقَ. وأخيرًا وصلت أخبار نتـيجة المعـركة إلى هـرقل الـذي كـان يتابع الأحداث الحربية من أنْطَاكِيَة، على بعد يتجاوز خمسمئة كيلومتر إلى الشَّمَال.

## 6. 4) الأهدافُ البيزنطيَّةُ

كـان هـدفُ البيزنطـيينَ الـلحاقَ بالمسـلمين، ومحاولـةَ حمـلهم على التخلي عن سـوريَة. وفي حقـيقة الأمـر، حملوهـم عـلى الجـلاء عـن دمشـق وعن المنطقة المحيطة بالجابـية حصـرًا. وبـتبديل تحـركاتهم، حيـنما تيسـر ذلك لهم، كانوا يحاولون العثور عـلى جـيوش المسـلمين وإخـراجهم. وفي أول الأمـر كـانوا يجربون تتبع المسلمين المنسـحبين تتـبعًا دقـيقًا. لعلهم كانوا يجربون أن يحولوا دونهم ودون إقامة نقاط دفاع ثابـتة جديـدة. وكـان أحـد أهدافهـم المعسكر المسلم، الذي بدا طُعمًا مغريًا وناجحًا للبيزنطـيين. جـرب البيزنطـيون أن يناوروا المسلمين بقصد إخراجهم من مواقعهم بـتهديد طـرق مواصـلاتهم، وهـذا ما فرض على المسلمين، في الواقع، التراجع من الجابية حصرًا إلى مشارف أذرعات.

يـبدو أن مـراعاة قضـايا السوقيات، إضافةً إلى وَلَهِ الغساسنة القوي بالمنطقة الـتي تقوم فيها معسكراتهم، فرضت على الجيوش البيزنطية الوقوف في الجابية وإقامـتهم معسـكرًا في جلّق (الكسوة) التي لم تكن بعيدة جدًا حيث كان إطعام الفـرق وحـيواناتها عبـئًا أخف هناك. كما كانت الفرقَ تسيطر على أرض ذات قـيمة اسـتراتيجية للدفاع والهجوم وللمواصلات. لعل هذا يفسر أيضًا السبب للقـتال السـابق مـع الفـرس في سنة (613-614 م). إنَّ البيزنطيينَ كانوا يركنون إلى القـواعـد الثابـتة للـتحرُّك. لقـد جهـدوا في أنْ تكونَ تحرُّكَاتهم حذرَةً بعيدةً عـن الـتهوّر، وحـاولوا الاعـتماد على مواقع ثابتة تستعمل فيها معالم تضاريس طبيعـية للدفـاع، وأكـثر مـا يوجّـهُ الـنظرَ الجُـرُفُ الشـديد الانحدار في اليرموك ووادي الحريـر ووادي الرُّقاد، والتي تيسر لهم أيضًا موارد مائية وافرة. لقد كانت المنطقة ذات قيمة للفريقين إذْ تجوزُ المجازفة بمعركة في سبيل الإشراف عليها.

إن التحلـيل السـابق الـذي وضـعه لـيوني كيـتاني هـو الأكـثر قَـبُولاً بين

التفسيرات الحديثة لـلمعركة. لا يمكن قَبُول كل توضيحاته المفصلة للمعركة، ولكن الأجزاء الرئيسة مقْبُولة، وعلى كلٍّ، فإنها أكثرُ إقناعًا من تلك التي تقدم بها باحثون آخرون.[23] يعودُ سببُ كثيرٍ من المشكلات في التفاسير الحديثة للمعركة إلى إخفاق المؤرخين المحدثين في تدبّر التحليلات المفصلة والنتائج التي توصل إليها ليوني كيتاني،[24] إذْ لا بدَّ لهم، في كلّ حالةٍ، من العودة إلى المادة التي عالجها، وأثبتها في مطلع القرن [العشرين]. وسواءٌ اتفق الواحدُ مع كيتاني أم خالفه، فإنه أمرٌ أساس أن يقرأ ويحلل حُججه عن تضاريس أرض المعركة.[25] لقد زار مسرح العمليات العسكرية في أيام السلم، إذ كان يمكنُهُ أن يتنقل من دون صعوبة.

### 6. 5) دلالةُ الأفكارِ البيزنطيّةِ العسكريّةِ

تشير الكمية الكثيرة من الأدلة إلى أنَّ الفريقين أدارا الحرب في اليرموك بمهارة، وليس بالحماسة المرتبطة بالورع الديني أو لحُسبانات اقتصاديّةٍ أو قبلية فحسبُ. وموقع المعركة لم يكن اعتباطيًا أيضًا. بدلاً من ذلك، فقد اختاره الفريقان بعناية. وتتفق معركة اليرموك مع المبدأ البيزنطي العسكري، ولا سيّما على ما يبدو في كتاب ‹[الاستراتيجيكون]›، الذي وضعه موريس.

لعلَّ المبادئَ البيزنطيَّة العسكريَّة بشأن المعسكر وموقعه أضافت إلى هفوةِ البيزنطيينَ (التي يصعب تفسيرها بغير هذا الأمر) في السَّماح لأنفسهم بأن يفرُّوا إلى وضع عسكري وجدوا أنفسَهُم وقعوا فيه في معركة اليرموك. ومن هنا، فإنَّ المؤرِّخ الأرمنيَّ غيفوند ينتقد البيزنطيين لتركهم مخيمهم منفصلاً عن القسم الأهم من فرقهم.[26] ومع ذلك، يتفق هذا التصرف مع نصيحة ‹[الاستراتيجيكون]›، الذي يرى فيه مؤلفه أنَّ من الخطرِ أنْ يقام المعسكر على مقربة كبيرة من مكان المعركة خشية أن يصبح فريسةَ للعدوّ، وأن يحول دون الفرسان والمكان المتسع للمناورة.[27] ويشير موريكيوس (موريس) ضمنًا إلى أن الممارسة الفارسية تتناقض مع ممارسة الرومان أو البيزنطيين. ربما كان قرار القوَّاد البيزنطيين في اليرموك إقامة معسكرِهِم على مسافةٍ من مسرح المعركة المنتظر، خاطئًا، ولكنَّهُم في عملهم هذا كانوا يسيرون على المبادِئِ البيزنطيَّة



الرئيسة. ومؤلف ‹[الاستراتيجيكون]›، ينصح أيضًا بإقامة المعسكر في جهة العدو حيثُ هناك جسر. هكذا كان موقع المعسكر البيزنطي وادي الرّقاد خلال مناورات معركة الجابية–اليرموك.[28] يبدو أن أحد البواعث لإقامة المعسكر البيزنطي قرب النهر والمسير كان تيسير منطقة آمنة حيثُ يمكن الجنودَ أنْ يريحوا.[29] لكنَّ العملياتِ الإسلاميَّةَ سنةَ (15 هـ/ 636 م) كما دلت عليها عملياتهم الأخرى، أزالت الفروق بين المقدَّمَة والمؤخرة. لم يكن ثَمَّ أيُّ منطقةٍ آمنة إلا أنْ يكون ذلك بترتيباتٍ صريحةٍ، شفويَّةٍ أو مكتوبةٍ، مع العدو.[30]

يروي المؤرخ العربي المسيحي يوتيخيوس أنه كان للجلبة دورٌ مبرّزٌ في معركة اليرموك. إنه يقرر أن منصورًا، الذي كان القائم على الشؤون المالية في دمشق، ادعى أنه لم يكن بإمكانه أن يجمع مبلغًا من النقود يكفي لإطعام هذا العدد من الفرق البيزنطية التي جاء بها فاهان. وقد كان أثار حفيظة الحكومة البيزنطية بسبب المبالغ الكبيرة التي دفعها من أموال الضرائب إلى الفرس في أثناء احتلالهم المنطقة. لقد جرَّبتْ أن تستعيد ذلك منه، وقد كانت حانقة عليه من تصرّفه السابق. جرت عادة الموظفين المحليين مدَّةً طويلةً أن يُقْصوا الجيوش البيزنطية والرومانية في الفترة المتأخرة عن مواقعهم بسبب العبء الذي يلقونه على السكان المحليين. ويتفق العمل الذي قام به منصور تمامًا مع القضية المشار إليها في القانون (130) [من أيام] جسطنيان الأول (Justinian I) مع الأسباب الموجبة بأن الموظفين المحليين، وليس المحافظ البريتوري ( praetorian prefecutre) هم الذين كانوا يجمعون ويوزعون الجراية على الجنود، ويقومون بإعالتهم. وقد جرَّب العثور على سبب يحوّل به الجيش البيزنطي عن دمشق. فجمع رجالاً يصخبون بأصوات الصنج والطبول التي أخافت البيزنطيين حيثُ ظنوا أنَّ المسلمين كانوا قادمين من تلك الجهة غير المنتظرة.[31]

تنصح الأبحاث العسكرية البيزنطية التي تعود إلى القرن السادس باستعمال الأصوات للتمويه على العدو،[32] ولتغطية أعمال الجواسيس،[33] على حساب ما رواه يوتيخيوس أن منصورًا لجأ إلى الأصوات لإرعاب الفرق البيزنطية وإقصائها عن دمشق. يمكن التصديقُ أنه كان لأعمال منصور تأثيرٌ سلبيٌّ مثلُ هذا في الجيوش البيزنطيّة كما يدعي يوتيخيوس. وكان الصوتُ يعدُّ

نوعًا من إشارة إنذار يمكن أن تحمل الرجل على التخلي عن مواقعهم. لقد جرت الأحداث الفاصلة في المعركة في الليل، على ما جاء في بضع الروايات. ويفهم من يوتيخيوس أن مظاهرة منصور الصوتية أصابت البيزنطيين بالرعب فهربوا تحت جنح الظلام.

## 6.6) المصادرُ الإخباريَّةُ

يبدو أنَّ أقدمَ رواية مدوَّنة موجودة عن أخبار المعركة هي رواية مختصرة للمؤرخ الإفرنجي فريديغاريوس، تعودُ إلى أواخر القرن السابع زُهاء سنة (658 م) الذي يتحدَّثُ، بغموض، عن ضربة إلهيَّة حاسمة نزلت بالبيزنطيين في الليل حيثُ إنهم أصبحوا راغبين عن القتال في اليوم التالي. ويروي فريديغاريوس روايةً صحيحةً أنَّ المسلمين كانوا تحت قيادة اثنين من قوَّادهم، ولو أنه لا يعرفُ هذين القائدين بالاسم:

> كان عدد الفريق الآخر على وجه التقريب (200.000) وكان يقودهم قائدان. عسكرتْ إحدى القُوَّتين على مقربةٍ منَ الأخرى، وكانتا على استعداد للاشتباك بالقتال في صبيحة اليوم التالي. لكن في تلك الليلة حصرًا ضرب سيف الرب جيش هرقل: فقتل منهم (25.000) في أثناء نومهم. فلما أصبح الصباح، وفي اللحظة التي كان القتال سيبدأ فيها، إذْ رأى رجالُه أنَّ جزءًا بهذا القدر من قواتهم سقط بسبب القضاء الإلهي، عادُوا لا يستطيعونَ الهجومَ على الشَّرقيين، وعادوا جميعُهُم من حيثُ أتَوا.[34]

من المحتمل أنْ تكونَ مصادرُ فريديغاريوس لروايته المقتضبة عن المعركة بيزنطية، أو لعلَّها، على الأرجح، مسيحيَّةً شرقيَّةً، ولكنْ على كلِّ حال، فإنها أقدمُ رواية موجودة، وهي التي تبدو فيها أعداد الجنود والإصابات بولِغ فيها كثيرًا.[35]

ورواية ابن عساكر المهمة تؤكد أيضًا أن المسلمين، على ما يبدو، أحاطوا بمعسكر البيزنطيين في الليل، وعندَ الفجر انكسرَ البيزنطيونَ وهربوا، أو قضي عليهم. كان هذا أمرًا غير عادي، إذ إنَّ البيزنطيين زعموا، بعد ذلك، أنَّ



العرب لا يرغبون في القتال ليلاً. كانت هذه مناسبة نادرة، لكنَّها حاسمة لجأ فيها أعداء البيزنطيين إلى طريقة غير منتظرة، أدت إلى نتائجَ لا تثمَّن.[36] وعلى أي حال، فإنَّ أحداث الليل زعزعتِ البيزنطيينَ، وأضافتْ إلى انهيار معنوياتهم وتماسكهم بما في ذلك انهيار إرادة القتال.

تتفق المصادر الأرمنية والعربية على أن البيزنطيين استخدموا المشاة في معركة اليرموك. ويؤكد سيبيوس أنَّ البيزنطيينَ المنهكينَ هاجموا المعسكر المسلم سيرًا على الأقدام، وعندها رد عليهم المسلمون الذين كانوا يتربصون بهم متخفين بقوة وبطريقة حاسمة. من المحتمل أن البيزنطيين لم يستخدموا المشاة حصرًا، على ما يدعيه المؤرخان الأرمنيان سيبيوس وغيفوند (وهو مؤرِّخ من القرن الثامن عاد إلى مادة سيبيوس، فأفادَ منها) ولعلَّهم استخدموا فرسانًا أيضًا، على ما ترويه بضعة مصادر عربية، بما فيها الطبري وابن عساكر.[37]

تعيد الأوصاف التي ترد عند الطبري وابن عساكر لبعض مناورات خالد ابن الوليد إلى الذاكرة أعمالاً وردت أخبارها في مؤلف موريس ‹[الإستراتيجيكون]›. ويبدو، تحديدًا، أنَّ البيزنطيين لجؤوا إلى ما يسمى التشكيل المختلط، أو التشكيل المحدَّب، لما غادروا مناطقهم الآمنة إلى جانب وادي الرقَّاد للحاق بمن بَدَوا لهم أنهم مسلمون فارون. إنَّ مؤلف ‹[الإستراتيجيكون]› يشير إلى تشكيل مختلط خاص يستعمل عندما تثار همة الفرق للقتال. ويقتضي التشكيل المختلط أن يناور المشاة على أسلوب مركب حيثُ يسمح للفرسان أن يمروا خلال صفوفهم بعدما يمكنُ المشاةَ أنْ يعودُوا إلى الالتحام ثانيةً. وكان يجبُ على المشاة أنْ يعودُوا إلى فتح ثغرة مؤقَّتة في صفوفهم عندَمَا يعودُ الفرسان. ويبدو أنَّ هذا هو الذي حدث.

باءت الهجمات البيزنطية على الجناح المسلم الأيمن أولاً ثم على الجناح الأيسر بالإخفاق على التوالي، لكنَّهَا حملتِ المسلمينَ على التراجع إلى معسكرهم. هنا جاء دفاع منتظم قام به المشاة المسلمون، ومن الممكن أنه كان يرافقه تهليلُ النساء اللواتي كُنَّ في المعسكر وعَونهنَّ، وهذا ما أقصى الفرسانَ عن دعم المشاة، ومكَّن فرسانًا مسلمين من هجوم معاكس، يؤيده

مشاة مسلمون كانوا متخفين، وأدّى إلى هرب الفرسان البيزنطيين وبعثرتهم. ينصّ الطبري (متبعًا في ذلك روايات سيف عن أبي عثمان يزيد بن أسد الغساني) أن خالدًا تمكن في نهاية المطاف من مناورة فرسانه بين الفرسان البيزنطيين الذين تفرقوا في السهل، والمشاة البيزنطيين الذين هاجمهم عندها وتغلب عليهم؛ وعندئذٍ اتجه نحو الهجوم على المخيم البيزنطي الأصلي. ويبدو أن مناوراته قضت على الخطر الكامن في استعمال البيزنطيين للتشكيل المختلط أو المحدّب الذي كان الاستراتيجيون القدامى أنذروا أنه قد يعرض مستخدميه إلى الفصل بين الفرسان والمشاة، وهو أمر يؤدي إلى عواقب وخيمة. يبدو أن هذا كان عنصرًا حاسمًا بين عناصر أخرى كثيرة، في إبادة المسلمين البيزنطيين. لقد كان التشكيل المختلط دومًا نظامًا صعبًا، ولم تكن الجيوش البيزنطية في سنة (15 هـ/ 636 م) الوحيدة في التاريخ التي عانته.[38]

إنَّ الإشارات العربية إلى حالات ربط جنود بيزنطيين ببعضهم كي يحل بينهم وبين الفِرار، كانت نتيجة خطأ في التفسير. قد لا تزيد هذه عن كونها عبارة شائعة في الأدب، لكنَّها قد تحملُ في طيَّاته بعضَ ما يمكنُ عدُّهُ رسومًا من حقيقة تاريخيَّة. ولعلها تشير إلى أن الجنود البيزنطيين كانوا يشبكون تروسهم شبكًا محكمًا، وذلك في سبيل أن يكوّنوا المقاومة الأكثر إحكامًا والأشد صلابةً لهجوم المشاة أو الفرسان. وهذه المناورات واردة في كتاب «[الاستراتيجيكون]». وتقر المصادر الإسلامية بأن الفرق البيزنطية قاتلت بشجاعة في القسم الأول من المعركة، وهبطت معنوياتها بعدئذٍ في أثناء المعركة فقط. إنهم لم يكونوا جبناء بأي معنى في بدء المعركة.[39]

إن معسكري الفريقين يشغلان مكانةً مبرّزةً في الروايات المتعلقة بالمعركة. لقد قامت النساء المسلمات بدور يفوق المعتاد أهميَّةً في تثبيت المقاومة تجاه البيزنطيين، إذ كن يخدعن أولئك المسلمين الذين يفرون، وكُنَّ يقمْنَ بقتالهم. والأوصافُ التي تشيرُ إلى اقتحام المسلمين معسكر البيزنطيين في اليرموك تبدو معقولة.[40] فالمصادر تبرز الدور النفسي والمعنوي والخوف والتطير في التأثير في نتيجة المعركة، وليس أعداد الإصابات التي أُوقعت بالعدو فقط. وكان كل



من الهدف والنتيجة التي حُقِّقت يرمي إلى تدمير القدرة القتالية للجيش البيزنطي، بقطع النظر عن العدد الحقيقي للذين وقعوا قتلى. ولا يبدو أن المسلمين أسروا أيًا من صفوف اليونان والأرمن، مع أنهم رحبوا بالفارين أو المنقلبين نحوهم من العرب. وقد وقع بعض البيزنطيين الذين فروا من مسرح المعركة إلى مناطق أخرى في الأسر حالاً، ولعل ذلك يعود إلى حنقهم بسبب خسائرهم في ضراوة القتال. كان هذا القتل يتكرر حدوثه في حالات متعددة بعد معارك يشتد فيها القتل.[41]

## 6. 7) الاستراتيجيَّةُ الإسلاميَّةُ

كانت استراتيجية الخليفة أبي بكر منذ بدء الحملات الإسلامية، كما يبدو، أن يؤدي الالتحام في القتال إلى إرغام البيزنطيين على إرسال أعداد كبيرة من المقاتلين إلى سوريَة حيثُ يتمكن المسلمون من إيقاع الهزيمة الفاصلة فيهم هناك.[42] وبعبارة أخرى، كان المسلمون، على عكس البيزنطيين، يسعون إلى الانتصار الحاسم في أرض المعركة. فكانوا هم، لا البيزنطيون، يسعون إلى المعركة. ويبدو أن وصف الاستراتيجية هذا كان صائبًا. فقد كان أمرًا لا بد منه أن تقع بالبيزنطيين الكسرة في الجابية–اليرموك. فقد جرّهم القادة المسلمون إلى وضع بدا فيه أن انتصار المسلمين انتصارًا ماحقًا أصبح محتملاً، لكن تلك النتيجة لم تكن أمرًا مؤكدًا عند بدء الحملات والمناورات.

يروي ابن عساكر أيضًا أن المسلمين تعمدوا أن يغروا البيزنطيين بمهاجمتهم بتقويض معسكرهم بصخب وانسحابهم.[43] في الوقت نفسه أخفيت جماعات من الجند لتهب للعمل في الوقت المناسب. وقد أُغري البيزنطيون بالانقضاض على معسكر المسلمين، لكنَّهُم لم يلبثوا أن بلغ بهم الاضطراب درجة كبيرة بسبب هجوم المسلمين المعاكس، وهذا ما كان قويًا جدًا على نحو عاقَهُم عوقًا حقيقيًّا عن إعادة التنظيم لدفاع ملائم. لقد اقتضت المعركة من المسلمين اللجوءَ إلى كثير من التخطيط والحيلة، والإفادةَ الجيِّدةَ من التضاريس، لا إلقاء كتلٍ بشريَّةٍ تجاه البيزنطيين بقصد التغلب عليهم.

لم تكن المعركة من النوع الذي يلتقي فيه جيشان، واحدهما مقابل الآخر

عشوائيًا، ومن ثَمَّ يلتحمان مصادفةً في صدام عنيف. هنا كان كلا الجيشين ناوَرَ مدّةً لا يستهان بها قبل المعركة، في منطقة تضاريسها معروفة جيدًا من حيثُ الارتفاعاتُ العامّةُ، أو كان يجب أن يعرفها الفريقان معرفةً جيدة. إضافةً إلى ذلك، كان البيزنطيون يسيطرون على الأرض الأكثر ارتفاعًا، ويمتلكون رقاعًا يبدو أنها تزودهم بمعالم صالحة للدفاع إذا ما نَشِبَتْ أزمةٌ. مع ذلك، أثبتَت الأحداثُ أنَّ السيطرةَ على الأرض المرتفعة، بما في ذلك مرتفعات الجولان، لم توافر للبيزنطيين نصرًا مؤكدًا. إن امتلاك أمكنة محددة، مع ما فيها مما يغري من أنحاء محمية جذابة، لم يقرر مصير ما كان من الممكن أن يكون معركة تقليدية من المناورات. إن كان ثمة ما يقل، فالبيزنطيون لم يقوموا بعمل عدواني في المراحل الأولى من المعركة. لقد قام القادة المسلمون بأكثر الخطوات الحاسمة في سبيل إغراء البيزنطيين بالتقدم من أرض القتل.

### 6.8) القيادة والإشراف عند البيزنطيين

من المستحيل النفوذ إلى عقل هرقل نفسه، الذي كان بعيدًا عن مسرح المعركة، المفروض أنه كان في أنْطَاكِيَة، مع أن بعض الروايات ترى أنه كان مقيمًا في حمص. لم تصلنا، من أيامه، أيّ مذكرة حربية متصلة بما حدث. وليس ثمة مذكرات لمستشاري هرقل، ولا أيّ مادة محفوظة أخرى ذات صلة بمعركة اليرموك. وليس ثَمَّةَ أيُّ مصدر بيزنطي يزوِّدُنا بالأخبار المفصلة كالتي نجدها في بعض المصادر المسلمة، مثل ابنُ أعثم الكوفي وابن عساكر والأزدي، ولو على نوع من الأسلوب المتضارب.

لا تفسر المصادر كيف خطط البيزنطيون تنظيمهم للمعركة في اليرموك. لم يكن لبيزنطة 'هيئة أركان' أو كلية عسكرية لصياغة استراتيجية حربية. في أرجح الأحوال، كان هرقل وأقرب المستشارين إليه، ولا سيّما أخيه ثيودور، وفئة قليلة من الجنرالات التي كانت تضم نيكيتاس ابن القائد الفارسي شهرباراز الذي تولى العرش فترة قصيرة، هم الذين أقروا بعض خطوط الاستراتيجية والعمليات. وكان منتظرًا من فاهان، كجنرال، أن يقوم بالعمليات حسب هذا الإطار الواسع، لكنَّهُ لم يكن على علاقة طيبة مع



تريثوريوس ونيكيتاس. وكان من المستحيل بالطبع أن يُخَطط للهجوم البيزنطي المعاكس بكل تفاصيله من مركز هرقل الرئيس في أنْطَاكِيَة. ولعل هرقل، السريع الغضب والقوي الإرادة، حاول أن يضبط العمليات على قدر كبير من المراقبة. ولعل البلاذري ونيكيفوروس ومتمم إيزيدور الإشبيلي يؤكدون صوابًا أن البيزنطيين قرروا أن يقاتلوا في اليرموك. كانت هذه مرةً نادرةً تصرفوا فيها على العكس من نزعتهم لتجنبها، على الأقل منذ انكسارهم في داثِن وأجنادَين.[44] وثمة رواية لاتينية تؤكد، على نحو مقبُول، أن ثيودور، أخا هرقل، ومن معه من البيزنطيين هاجموا المسلمين في نهاية الأمر، إذ إنهم لم يقدروا على الانتظار فترةً أطول، بينما كانَ المسلمونَ يتلقّونَ المزيدَ من التعزيزات.[45]

من المحتمل أن المسلمين كانوا يقدرون أن البيزنطيين يفضلون تجنب القتال في أشد أوقات اليوم حرًّا، ومن ثَمَّ، فقد قاموا بهجومهم في ذلك الوقت.[46] مثلُ هذه الأمور كانت في مصلحة المسلمين. والمصادر البيزنطية تشير إلى حَرّ ذلك اليوم، إضافة إلى العواصفِ الترابيَّةِ، في ذكر مشكلات الجنود البيزنطيين في معركة اليرموك.

حاول البيزنطيون الاتصال مع القادة المسلمين، من المحتمل رغبة منهم في الحصول على معرفة أوفى بهم، وأملاً في استنباط خطة هجومية وأسلوب قتال أشد فعالية، واحتمل إفسادهم وكسبهم إلى جانبهم.[47] هذه الأسبقيات كانت مما يمكن أن يفكر به القادة البيزنطيون في القرن السابع. لقد أخفقت محاولاتهم العامة، ولو أنه كان هناك بعض حالات فِرَار ذات أهمية. في نهاية المطاف كان البيزنطيون هم الذين بُلوا بالعدد الأكبر من الفارين، وبانعدام التناسق بين الوحدات العسكرية. يروي الطبري ما يمكن قَبُوله (عبر سيف وأبي عثمان يزيد بن أسِيد الغسّاني): إنَّ فاهان وقادته نصبوا معسكرهم في الياقوصة، ورغبوا في أن يعتاد رجالُهُم رؤيةَ العرب أو أنْ يألفوهُم. هذا القول يدل، بطبيعة الحال، على أن بعضًا من القوات، ولا سيَّما الوحداتِ الأرمنيَّةِ واليونانيَّةِ، لم يكن لها معرفة بالقتال مع العرب، أو لم ترهم من قبل.[48] لم يقتصر فاهان على أنه حاول تهدئة خوف قواته من مظهر العرب بانتظاره قبل

المعركة، بل حاول أيضًا أن يعرف على نحو أفضل عن قوة المسلمين وقدرتهم وقدرة قادتهم ونيَّاتهم وعن أي ضعف أو احتمل إفسادهم أو إفساد قواتهم. إن هذا كان أمرًا بيزنطيًا عاديًا في القتال مع البرابرة بعيدًا عن هذا المجال.

كان العرب عشية معركة اليرموك يقظين خشية أي مكيدة بيزنطية، مثل خدعة أو خطة حربية بارعة. إذاً كانوا يعرفون أن البيزنطيين يميلون إلى تجربَة وسائل بارعة للانتصار عليهم. وفي الواقع، فقد استنبطوا مخططات أكثر براعة كان لها في النهاية النصر على البيزنطيين.[49]

وقعتْ معركةُ اليرموك في منطقةٍ تبعُدُ قرابةَ يومين أو يوم ونصفٍ من دمشقَ.[50] ويحدد يوتيخيوس المسافة بأيام، الآن تقل، أو مسيرة (عسكرية) من دمشق. كانت منطقةً معروفةً منذ أيام الكتاب المقدس بما فيها من طرق متقاطعة. إن المَهْرب النهائي للبيزنطيين الذين فروا من معركة اليرموك كان، على ما روي، حمص، سواءً طريق وادي البقاع أم طريق دمشق. وليس ثمة ما روي عن تأثيرات مباشرة في فِلَسْطين، ولا سيَّما في الجليل، لكن من المحتمل أنه كان هناك ردود فعل مباشرة وعواقب. إن المسافات قصيرة، ولعل أخبار نتائج المعركة وصلت الجليل وبقية فِلَسْطين بسرعة فائقة.

إنَّ الإحصاءاتِ المتعلِّقَةَ بالمعركة مضللة، ولعلَّها لا تعتمد على أساس تجريبي. من الممكن أن البيزنطيين كانوا، في هذه المناسبة النادرة، يفوقونَ عددًا. وتختلف تقديرات عدد المقاتلين البيزنطيين اختلافًا عظيمًا، وهي مرتفعة ارتفاعًا بعيد الاحتمل. وعندما يذكر صغر الجيوش البيزنطية في الفترتين البيزنطيتين، المبكرة والمتوسطة، فيبدو بعيد الاحتمال إلى أقصى مدىً أن تكون أعداد البيزنطيين في المعركة بلغت (40.000) أو(80.000) وهما المستوى الأدنى الذي تذكره الإحصاءاتُ الإسلاميَّةُ للبيزنطيينَ. ومع أنه من الممكن أن يُسلَّم بتفوق البيزنطيين العددي، فإنَّ من الريبة أنْ تكون القوات البيزنطية، بمَنْ في ذلك القوَّاتُ الأرمنيَّةُ والمعاهدونَ من العرب المسيحيينَ، مشاةً وفرسانًا، تجاوزت (15.000) أو (20.000) من الجنود.[51] كان من الطبيعي أن يصف المؤرخون المسيحيون المتأخرون القوات المسلمة بأنها ضخمةٌ، وأنها كانت تتلقى المدد يوميًا رغبةً منهم في تسويغ الانكسار البيزنطي. إنَّ محاولةَ تقدير



الاحتمالات الخاصَّة بأي من صحة الروايات المسيحية والإسلامية المختلفة هي عملٌ لا يستحقُ المحاولةَ. إن الأعداد، بمنتهى السهولة، لا صلة لها بما يقبله المؤرخون العسكريون، على أنه مقْبُول في هذه الفترة من القوات البيزنطية. لقد كانت فرقهم تضم عربًا مسيحيين، ولا سيَّما أولئك الذين كانوا بقيادة الملك الغسَّاني جبلة بن الأيْهم، والأرمن، ويخص بالذكر أولئك الذين كانوا تحت إمرَة جرايس (جورج) وفاهان، كما كان بينهم يونان. وليس من الواضح عند البيزنطيين مدى الأهمية في أن تكونَ قوَّات تريثوريوس وفاهان اتحدت، أو أنَّ المعركةَ بدأتْ قبل أن تتحد. وعلى النحو نفسه، فمنْ غير الواضح: هل وصلتْ جميعُ القوَّات البيزنطيَّة مكانَ المعركة عبر وادي البقاع، أم أنَّ بعضَهَا جاء في الواقع عبر دمشق.

لقد قاتلت أقسام من الجيوش البيزنطية في معركة اليرموك من دون تنسيق جيد مع أجزاء أخرى من القوات. وقد أسهم هذا في انتصار المسلمين وإيقاع إصابات كبيرة عند البيزنطيين. وأصبحت مخاطر تنظيم جيش من عدد من العناصر المتباينة حقيقةً في أثناء مسيرة المعركة المتطاولة زمنًا. والمصادر لا تضع بين أيدينا وصفًا واضحًا مفصلاً لمكان القادة البيزنطيين في أثناء مراحل المعركة المختلفة، أو في حقيقة الأمر أي مرحلة خلالها. ثمة بعضِ الوصف لقيادات أجنحة مختلفة من الجيش، ولكنْ ليس ثَمَّةَ تعيينٌ دقيقٌ لموقع أيٍّ من الأجنحةِ.

### 6. 9) الاحتكاكاتُ داخلَ الجيوشِ البيزنطيَّةِ

كانَ ثَمَّةَ احتكاكٌ أو خلافٌ داخلَ الجيش البيزنطي في الجابية–اليرموك نشأ من انعدام الثقة فيما بين اليونان والأرمن والعرب المسيحيين. ففي صفوف القيادة الأعلى كان ثمة ريبة بين ترثوريوس وفاهان. وفي صفوف الأرمن انعدمت الثقة بين جرايس (Jarajis) وقناطِر (Qanatir) (هو قائد الفرقة).[52] بَلغَ هذا من الضَّرر الغايةَ على فعالية القتال البيزنطي النهائي، والترابط العسكري وسرعة القيادة والتخطيط وسهولتهما. ومن ثَمَّ، كان الخلل داخل الجيش البيزنطي متعدد الوجوه عشية تلك المعركة الكارثية. تلك لم تكن المناسبة الوحيدة التي نكبت فيها الجيوش البيزنطية بسبب النزاع بين القادة

والوحدات المختلفة. لكنَّ قيام هذا النزاع في زمن معركة الجابية–اليرموك كان مثقلاً على نحوٍ خاصٍ بالأخطار على خير الإمبراطورية.(53)

لا يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين انقسامًا عميقًا بسبب الخلافات الدينيّة في الطبيعة الواحدة والخلقيدونية، مع أن رجال دينهم كانوا مختلفين. مع ذلك، ما كان للنزاعِ في الكنيسة الأرمنية حول قضية الاتحاد وسياسات هرقل أن يرفع من معنويات الجنود. وعلى النحو نفسه، ليس ثمة ما يدل على أنه كان للصراع أثرٌ في القادة الأرمن. فالنزاع الكنسي كان، في المستوى الأدنى، قضية دائمة ومُعقّدة، تلقي بثقلها على الفرق الأرمنية المهمة في معركة اليرموك. وليس ثمّةَ من دليلٍ إذا كان هذا الأمر أدّى إلى أيّ مشكلة فيما يتعلق بتيسير الحصول على قُسُوسٍ أو أي رجال دين آخرين لتشجيع الجنود الأرمن وإقامة الصلاة لهم قبل المعركة أو في أثنائها أو بعدها. من المحتمل أن الأمر كان عنصرًا مزعجًا يكمن في الخلفية، لكن ليس هناك ما يمكن القول به حيثُ يكون على أي درجة من الثقة. وابن عساكر ينقل روايات عن نزاع بين صفوف القوات الأرمنية واتجاه نحو العصيان، مشيرًا إلى أن قناطِر (المرجح أنه كان قائد الفرقة، بحَسَب رأي دي غويه، وكان أرمنيًا) في الجناح الأيمن خاصم رئيسه جرايس (جورج) ورفض احترام أوامره. وتدعي رواية سيف بن عمر على نحوٍ خاصٍ أن قائدًا أرمنيًا يدعى جورج انتحل الإسلام قبل معركة اليرموك مباشرةً. يجب أن تعبر هذه الرواية عن أنها موضع شبهة كبيرة، لكنّها قد تكونُ صدًى للاضطرابِ الذي انتهى إلى قيام فاهان بعصيانه المزعوم. ويزعم أبو حُذَيْفة أن جورج خاصم قناطر. ولربّما كانت هذه ذكريات مرتبكة لاضطراب وقع بين القوات الأرمنية وقوادها في المعركة.(54) وهذه المصادر العربية لا تروي تحديدًا، أي عصيان أرمني وإعلان فاهان إمبراطورًا بيزنطيًا، لكنّها تشير إلى حدوث أنواع مختلفة من الفوضى، بما في ذلك هذا العِصْيان، وتصرف القوات البيزنطية الفوضوي، وإساءتهما للسُكّان المدنيين في سوريّة.

إن مصدر ثيوفانس ونيكيفوروس حاول أن يخفف أثر الانكسار البيزنطي القاصم، وتجنب إلقاء اللوم على هرقل، وذلك بادعائه أنه كان ثمة عصيان غادر لأوامر هرقل بتجنب قتال مكشوف مع المسلمين. شوّهت هذه الدعاية المبكرة



على يد ثيوفانس ومصدره إذْ إنهما لم تكتف بالقول: إنَّ بعض القوات البيزنطية خالفَ تعليمات هرقل، بل ثارت عليه صراحةً، ونادت، على نحو الإخفاق، بالجنرال فاهان إمبراطورًا، ومن ثَمَّ حطّمت الجهود البيزنطية في المعركة. إن الرواية المقتضبة التي ترد عند فريديغاريوس، التي يؤكد فيها إخفاق البيزنطيين في أن يقاتلوا، بعد أنْ قتل هذا العدد الكبير من الجند البيزنطيين في المعسكر في الليلة السابقة، فجأة وعلى نحوٍ غامض، لعلها تكون رواية محرّفة أو مشوّهة عن نزاع داخلي في الجيش البِيزنطي وعواقبه المدمرة للقدرة القتالية للبيزنطيين. والأزدي يخص الروايات المرتبطة بالتصرف التمردي مِسَاحَة واسعة. ويقوي التمرد الذي يذكره كل من الأزدي ويوتيخيوس انطباع أنَّ الجيش البيزنطي كان في سبيل التفكك عشية المعركة وفي أثنائها، لكن لم يدع أي شخص آخر أنه نودي بفاهان إمبراطورًا في مؤامرة فاشلة.(55)

ورد في الأخبار أن ثيودور، أخا هرقل، تجنب المعركة، لأن هرقل، في حالة حنق، أمر بحملة من سوريّة إلى القُسْطَنْطِينِية. وبعد إذلاله هناك يختفي.(56) لقد لوّث إخفاقه والقبض عليه وإذلاله سمعة الأسرة وعرّض للخطر الدفاع عن سوريّة، لكنها أيضًا جعلت من الصعوبة، على هرقل، أنْ يعثرَ على من يمكنه أن يعهد إليه بالمسؤولية العسكرية لإقامة وسائل دفاع حديثة أمام المسلمين.

لم يستخدم البيزنطيونَ العربَ المحالفين كجنودِ صدامٍ أو مقاومةٍ، في مواقع مفصلية، في معركة الجابية–اليرموك. والفِرَار الأوّلُ من العَرب قام به أولئك الذين أُقاموا قرب الجسر القائم على الرقّاد وبينه وبين قرية الياقوصة. ويبدو أن القوات اليونانية والأرمنية هي التي اشتبكت في القتل المبكّر العنيف، فرسانًا ومشاة. ومن الممكن أن البيزنطيين كانوا يفضلون أن يجنبوا الجماعات الإثنية المتجانسة مجابهة جماعتهم حصرًا في مجالات القتل (مع الحكمة التقليديّةِ في استعملِ العربِ على العرب).(57) يروي ابن عساكر أن البيزنطيين، إذ بلغهم أنَّ حلفاءهم العرب المسيحيين هزموا، صرخوا بذلك، وهربوا. وتؤكد هذه الحادثة دور الاستهتار والولاءات المتذبذبة في المعركة. مع ذلك، كانَ ثَمّةَ فِرَارٌ في الجانب المسلم كذلك، على ما تبديه جداولُ أسماء القبائل الخائنة.(58)

## 6. 10) اللوجستيَّاتُ

كانت معركة الجابية–اليرموك المناسبة النادرة التي اشتبك فيها البيزنطيون في معركة فاصلة. فقد كانوا عمومًا يحاذرون مثل هذه الاشتباكات. وقد أرغموا أخيرًا على وضع كان القتالُ فيه واجبًا عليهم، وفي أرض لم يكن القتال فيها لمصلحتهم. كان الاصطدام أساسًا في المعركة، على خلاف معارك أخرى أسهم فيها البيزنطيون. هذه كانت معركة نادرة يمكن التوصل فيها إلى بعض الرأي، على الأقل بحسب بعض المصادر المسلمة، عن تحركات القوات الواقعية. إنها معركة من الممكن درسها من نواحٍ عسكرية، مع أن هناك أيضًا نواحيَ بيِّنةً من سيكولوجيَّة ولوجستيَّات عسكريَّة [فنّ التعبئة العسكرية / الناشر] وشؤون مالية عسكرية تدخل في الأمر كذلك.

كانت مشكلة توزيع جراية الجنود سِلَعًا ذات علاقة ممكنة في معركة الجابية–اليرموك. واقتضت اللوجستية والنظام المالي البيزنطيين أن يكون تحرك الجيش البيزنطي في مناطق حيثُ يمكن مصادرة الحبوب والمواد الغذائية بأساليب تقليدية. وقد اقتضى هذا، أن تجتاز القوات عبر وادي البقاع، وأن تعسكرَ في المراعي الخصبة على مقربة من ينابيع مرتفعات الجولان.[59] ونجم عن ذلك احتكاكٌ بين الجيش البيزنطي مع سكان سوريَة ومنصور في دمشق، ومن هنا يبدو تململ الجيش حصرًا في الروايات المسلمة واليونانية.

إنَّ السلطة البريتورية البيزنطية، أو ما تبقّى منها في أربعينيَّات القرن السابع، وممثليها، وهم الموظفون المحليون، كانت التجربةَ الوحيدة التي لديهم في التخطيط للمؤن لأعداد كبيرة من القوات البيزنطية في تلك المنطقة سنة (614 م) إذ كان ثمة معركة رئيسة بين أذرعات وبُصرى. ولا يُعْرَفُ عددُ القوّات التي اشتركت يومَهَا البتَّةَ. لعلّها كانت إلى درجة ما متواضعة سنة (614 م) مع أنَّ ذكرى تلك المعركة تركت أثرًا كبيرًا في العرب بشبه الجزيرة العربيَّة، وقد وردت أخبارها في رواية إسلامية واحدة. إضافةً إلى ذلك، اقتضت تلك المعركةُ تزويدَ القوات البيزنطية التي كانت تنسحب من الشَّمَل نحو الجنوب. وفي سنة (15 هـ/ 636 م) كان على الإدارة البريتورية أنْ تعِدَّ موظفين محليين عديمي



الخبرة كي يزوِّدوا أعدادًا لم يسبقْ لها مثيلٌ من القوات البيزنطية وأحلافها العرب المسيحيين الذين كانوا يتوافدون من الشَّمَل نحو الجنوب.

تم القتالُ في معركة الجابية–اليرموك في أراض كانت جزءًا من ولايتين مختلفتين من ولايات الدولة الرومانية المتأخرة، العربية وفِلَسْطين الثانية. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ ولايتين أخريين، وهما فينيقيا البحرية وفينيقيا اللبنانية، كانتا تمتدان مصاقبةً إلى موقع القتال، ولعلَّهُما كانتا المكانين اللذين عبرهما بعض الجيوش البيزنطية. وكان من المفروض أن تقدم بعض المؤن إلى تلك الجيوش (الخارطتان 2 و4). إن هذا النظام المدني المعقد كان من الممكن أن تتجاهله مقتضيات عسكرية طارئة، ولكن لعله مع ذلك عقّد عملية الاتصال بالسكان المحليين في معالجته لخلافات متنوعة، وتوفير النقود والمؤن. من المستحيل أنْ نعرفَ إلى أيِّ درجةٍ أجاد هؤلاء الموظفون تنسيق أعمالهم لدعم الجيوش البيزنطية، ولكن هذا التنسيق كان، ولا ريب، تحديًا كبيرًا.[60]

إنَّ معظمَ المصادر المسلمة والمؤرِّخين المسلمين المتأخرين والمؤرِّخين البيزنطيين لا يَعُون حدودَ الولايات في الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المبكرة، ومن ثَمَّ يتجاهلونَ الأهميَّة المحتملة لهذه الحقيقة. والمرء يتساءل في الواقع: هلْ كانتْ محاولةُ تحديدِ مصير الولاية سببًا آخرَ لاختيار موقع المعركة. فمعركةٌ تحدث في هذا الموقع ستكونُ لها نتائجُ مباشَرة على كثير من الولاية، ولا سيَّما في أجزائها إلى الشَّمَل من وادي الموجب. ولأن أرض المعركة كانت جزءًا من بضع ولايات مصاقبًا لها، كان ثمة تعقيدات في تموين القوات البيزنطية. ويبدو أنَّ عددَ الاختصاصاتِ الإداريَّة التي كانت عليها التنظيماتُ المدنيَّةُ المختلفةُ عقَّدَ كثيرًا، تنسيق المؤن ومعالجة أيٍّ من الخلافات أو التظلّمات بين المدنيين والقوات المقاتلة.

## 6. 11) التأثيرُ العامُّ للانكسار

في ‹تاريخ› الطَّبري وفي ‹تاريخ مدينة دمشق› لابن عساكر روايةٌ غريبةٌ، لكنْ ليست مستحيلةً: لَمَّا أدرك بعض البيزنطيين، بمن فيهم ضبطٌ، أنهم كُسِروا استقروا في أمكنتهم، ورفضوا (ولعلَّهم لم يقدروا) أن يهربوا، وقد قتلوا في

مواقعهم على أيدي المسلمينَ. هذه، إنْ صحَّتْ، فهي دليلٌ على اليأس وتحطُّمِ المعنويَّات في الجيش البيزنطيِّ، وتتفقُ مع انحلال معنويَّات الكثيرينَ من أولئك الذين استطاعوا الفِرَار حتى حمص وما بعدها.(61) مثلُ هذه الظَّاهرة النفسيَّة حدث في معارك رئيسة في أمكنة أخرى في فترات سواها.(62) إنها ترمز إلى حجم الهزيمة الكبيرة. هذا التصرف عَرَض لهزيمة عميقة وكليَّة، ولاعترافٍ وقَبُول بها. مع ذلك، فثمَّة احتمالٌ قائمٌ دومًا هو أنَّ أولئك الذين جلسوا أمَّلوا في أن يُؤسروا كمساجين، ومن ثمَّ، فمن المحتمل أن يُفتدوا، وهو أسلوب لم يكن مستبعدًا. إذا كان الأمر كذلك، فقد غُشُّوا على نحو مرير وكارثي ومهلك. فالمسلمون لم يأسروا أحدًا في المعركة، ولو أنهم أسروا بعضًا في أثناء المطاردة الطويلة لاحقًا. ويبدو أنَّ السكان المحليين الذين خدموا في الجيوش البيزنطية في اليرموك كانوا من الغساسنة وسواهم من رجل القبائل العرب المسيحيين. مع أنَّ هرقلَ شجَّع السُّكَّان المحليين على أنْ يحاربوا للدِّفَاع عن أنفسهم، فمن المحتمل أنَّ قصدَهُ كان يتركَّز على توفير قدر كافٍ من المقاتلين للدِّفاع عن المدن المسوَّرة. ليس ثمَّة ما يدل، على سبيل المثل، أنَّ القَرَويين أو الفلاحين من الجولان، أو من الناقورة، أو أذرعَات، أو نَوى، أو أي من المدن القريبة مثل دمشق أو حمص أو بُصرى خدموا في الجيوش البيزنطيَّة التي قاتلت في الجابية–اليرموك. وليس ثمَّةَ من روايةٍ عن قَرَويين أو سُكَّان مدنيين من الجليل أو البلقاء كانوا في الخدمة كجنود بيزنطيين. من المحتمل أن تكون جيوش فاهان قد ضمت، على نحو ما يزعم بعض المصادر المسلحة، جنودًا أرمنَ ويونانيين، وهم الذين جُنِّدوا من مناطق نائية جدًا عن معركة الجابية–اليرموك نهائيًا،(63) وخدموا في تلك المناطق.

من المحتمل أن يكون هرقل تلقَّى التقاريرَ الأولى عن نتيجة المعركة على يد ساعٍ سريع خلال بضعة أيام.(64) وليس ثمة من دليل عن دور أي مدنيين، سواءٌ أمِنْ سكَّان المدن أم من الفلاحين، في جوار معركة اليرموك أثناء سير القتال. ولعل المدنيين الذين أصابهم شَرُّ الأذى كانوا من رجل القبائل الغسانيين الذين كانوا عادة ما يسوقون مواشيهم للرعاية في المنطقة.

إن نجاح الاستراتيجية البيزنطية في الاعتماد على المدن السورية كان يعتمد على أن تصمد حاميات المدن وسكان المدينة قدر الكفاية من الوقت إلى أنْ



تتمكَّن الجيوش المنجدة من الفرق المتحركة أن تضرب البدو ضربة قاسمة. كان ذلك هو الأسلوب المتبع في اضطرابات البدو السابقة التي جاءت على درجة أدنى. لقد عرّى إخفاق تلك القوة المتحركة في الجابية–اليرموك ضعف سياسة الاعتماد على المدن المسورة، التي يمكنُ الاستيلاء عليها واحدة بعد أخرى، إذا أخذ بالحسبان الانعدام الحقيقي لعدد القوَّات ذات الأهمية في المدن المنفردة، وصعوبة الاتصال بينها، مع تردِّي الأوضاع الحربية. وهذا الفصل عرَّض أيضًا الدعوى البيزنطية الخادعة بأنهم كانوا يتعاملونَ مع بدو ليسَ غيرُ، لا مع جيش منظم لدولة جديدة.(65) هذا هو سبب ما تلا من تسليم سريع لهذا العدد من المدن الباقية في سوريَة للمسلمين.

إنَّ دورَ نيكيتاس بن شهرباراز القائدَ الفارسيَّ في معركة الجابية–اليرموك ليس واضحًا، ويبدو أنَّهُ كان منافسًا لتريثوريوس وفاهان. فقد حاول أن ينضم إلى المسلمين لما ألقوا القبض عليه وعلى سواه من القواد والقوات البيزنطية الهاربة في جوار حمص. وولاءات نيكيتاس المتقلبة قد تشير إلى أنه لم يقاتل بعزم في معركة الجابية–اليرموك لكنْ مِنَ المنير بالخطر أنْ يُدّعى أنه خان البيزنطيين. وعلى نحو ذلك، فإنَّ أخلاقَ الجنود الذين قاتلوا تحت رايته ليست معروفةً.(66)

تتحدَّث بعضُ المصادر المسيحيَّة عن رملٍ أو رمل ناعم في معركة اليرموك.(67) من الممكن، في الواقع، أنَّ ثمَّةَ عاصفةً ترابيَّةً عنيفةً وقت المعركة. فدوامات الغبار أمور عادية الحدوث في الأردن وجنوب سوريَة.(68) لكن المنطقة المفترض أن المعركة وقعت فيها ليست صحراء، ولا تكسوها طبقة كثيفة من الرمل. ثمَّةَ تربةٌ، وهذه يمكنُ أنْ تكونَ شديدةَ الجفاف في شهر آب (أغسطس). ويجبُ على الواحد منَّا أن يكون حذرًا فيما يزعمهُ الرُّوَاة من أنَّ القوات البيزنطيَّة قهرتها الرمل. إنَّ الأرضَ هناك ليست من هذا النوع تمامًا. ولعل الرواة كانوا بسهولة يتخيلون نوع الأرض التي يفضلها العرب لمعركة ما، أو لعلَّهُم سمعوا قصصًا رواها البيزنطيونَ المنهزمونَ في محاولةٍ لتسويغ انكسارِهم بلومهم طبيعة الأرض والأحوال المحلية.

إنَّ ‹[البوكاليبس]› الملفَّق والمنسوب إلى ميثوديوس، الذي من المرجح أنه

وضـع في (ميزوبوتامـيا) العلـيا باللغة السريانية، وعلى كلٍّ ما بين سنتي (650 م) و(690 م) هـو واحـدٌ مـن أقدم النصوص التي تذكر في معركة اليرموك، مع أنه يشـير إلى غابيـثا أو الجابـية. إن مؤلفه السرياني "يتنبّأ" عن البيزنطيين «بأنهم سـيُدَمَّرون في جـبؤوت على يد إسماعيل، وحش الصحراء البري، الذي سيُرْسل غضـبًا عارمًـا عـلى [الأرض كـلها] البشـر والحـيوانات الوحشـية والحيوانات الأليفة والأشـجار والنـباتات».[69] هـذا يؤكـد قـول ابن عساكر: إنَّ المسلمينَ تجمعـوا أولاً في الجابـية. ويـبدو أن هـذا هـو السـبب في أن المعـركة يدعوهـا المؤلفـون المسـيحيون مـن أصـل سوري معركة جابيتا أو الجابية، ومثله مؤرخون آخرون مثل ثيوفانس الذين نقلوا عن روايات كهذه.

إنَّ قـولَ اليونانيِّ الملفّق ميثوديوس: إنَّ القواد البيزنطيين سيقعون فريسة في فـم سـيوف المسـلمين، قـد لا يعدو أنْ يكون جملةً أدبيَّةً، لكنْ "يقعون" هنا قد تعـني أنهـم سـيُجرّون إلى مصـيدة، وهـي التي يشير إليها ابن عساكر في تاريخ مديـنة دمشق. مع ذلك، إنَّ إشارة الملفّق ميثوديوس إلى المعركة قصيرة جدًا، ومن ثـمَّ، فـإنَّ الباحثَ الحديثَ يجبُ أنْ يتوخّى الحذرَ في استعماله هذا النصَّ المبكّرَ المعترَفَ به.[70]

## 6. 12) الفِرَارُ البيزنْطيُّ

كـان من الخطأ التفكيرُ باحتمال أنْ ينجوَ أيٌّ من البيزنطيين المكسورين من المثلّـث الأرضـي المحصور بين وادي العلان ووادي الرقّاد، أو أنْ يتمكّن أيٌّ ممن كـان عـلى مقـربة مـن الياقوصـة مـن أنْ يفـر مـن المسلمين الذين هاجموه من الشـرق. وكـان بوسـع أفـراد أن يتسـلقوا المـرتفعات، ويهـبطوا مـنها مـن كلا الجانـبين.[71] وكـان بوسـع بعـض الجنود البيزنطيين أن يفروا عبر الممر الضيق بعـد انحدارهـم مـن المـرتفعات. مـع ذلك لعلّهم عرفُوا أنه يمكن تسلقه نظريًا، لكنَّهُم لم يعوا مدى الخطورة في نقاطٍ أخرى أو في أثناء الليل.

في جمـيع الاحـتمالات، فقـد أولـئكَ الذيـن يمكن أن يفرّوا على هذا النحو ركائـبهم وأسـلحتهم ودروعهـم أو أي شـيء آخـر ثقـيل. لكـنْ إذا أصـبحَ المسـلمونَ عـندَهَا متمكّـنينَ كـلَّ الـتمكّنِ مـن غـدَرَة، فإنهم يجعلونَ الأمرَ من



الصـعوبة إذْ لا يمكـنُ إلا نفـرًا الفِـرَارُ عـبرَ ممـر اليرمـوك الضـيّق. ويـبدو أنَّ الكـثيرين لم يقعـوا في الشَّـرَكِ المثلَّـث، بـل هربوا، على نحو ما، في اتجاه حمص، أمـلاً في السـلامة، أو عـلى الأقـل في الوصـول إلى موقـع يمكـنهم الاتجـاه مـنه باطمئنان أكبر نحو الشَّمَال الذي كانوا أكثر صلة به.[72]

لا سـبيل إلى الشك في أن البيزنطيين منوا بأكبر الإصابات، التي من المحتمل أنهـا كانـت بـالآلاف، لكـن لائحـة القـتلى المسـلمين كانت أيضًا طويلة. وقد خلفـت صـفة المعـركة الدموية انطباعًا في ذاكرة كل من البيزنطيين والمسلمين. إنَّ السـبيلَ لـتقدير مـدى خطـر اليرموك يوجِبُ على المرءِ أنْ يأخذَ في الحُسبان عـددَ القـوَّاد البيزنطـيينَ الذيـن سـقطوا أو اخـتفوا، وتقديـرات الخسـائر في الـرجال. عـندها فقـط يعـود الواحـدُ إلى فحـصِ الوضـع الاسـتراتيجيِّ واقعيًا وتحوُّلِـهِ نتيجةً للمعركة.[73] ثمّةَ روايات متناقضة عن المصير الأخير لفاهان: هلْ قُـتل في أرض المعـركة، أم أنـهُ، إذْ لبسه الخزيُ والعارُ عند الهزيمة، لبس المسوح، وترهّـب في جـبل سَـيْناء، أو لوحقَ حتى حمصَ حيثُ ألقيَ عليه القبضُ وقُتِل؟ على كلِّ حالٍ، فإنّه لم يتولَّ قيادةً بعدَ ذلك.[74]

وقعـت بالبيزنطـيين الكـثيرُ مـن الإصـابات الرئيسـة في معـركة الجابـية- اليرمـوك لمّـا فقـدوا تماسـكهم، والذيـن تمكنوا من الفِرَار فعلوا ذلك في جهات مـتفرقة، مـن دون أن يحـافظوا على أي نظام أو ترتيب معقول. كانت هذه لحظة تمـت فـيها أكـبر الخسائر البشرية. لم يكن مثلُ هذه الخسائر الكبيرة غيرَ مألوفٍ في معـاركَ أخـرى؛ أي: كان أكبر قدر في الخسارة يقع عندما ينفرطُ عقدُ المقاتلين إثـرَ الهـزيمة، ويفـرّون عـلى غـيرِ هـدًى، إذ إنهـم عـندها لا يستطيعونَ المقاومة الجديّـة، ومـن ثـمَّ، فإنهم يعرضونَ أنفسهم لهجمات أعدائهم. والقوات المقاتلة تكـون في أكـثر أحوالهـا تعرضًـا لـلأذى عـندما تهـرب عـلى غير ترتيب ودون الحفـاظ عـلى مقاومة قوية، إذ إنها، وهي تنسحب، تستطيعُ حمايةَ نفسها، وتقليل خسائرها بحفظِ النظام والمقاومة.

كانـت الأسـباب الرئيسـة الـتي قادت إلى الحسم في معركة الجابية-اليرموك هـي السـرعةُ والدِّقّـةُ والشّـدَّةُ والقسـوةُ والعـزمُ الـتي أدّى بهـا المسـلمونَ

انتصارَهُم.[75] ولم يتسن للبيزنطيينَ، بحَسَب الرِّوَايات المسلمةِ، الوقتُ كي يعودوا إلى نظام ما بعد المعركة مباشَرة. لقد حافظ المسلمون على تنظيمهم، ولحقوا بالمنهزمين النَّعْلَ بالنَّعْل، وأوقعوا بأولئك الذين فروا في كل مكان، حتى إنهم لحقوهم إلى دمشقَ وما وراء ذلك إلى حمص. لم يكونوا يتوقفون بعد المعركة للراحة أوالتنازع على الغنائم. لقد ركزوا اهتماماتهم على أهداف قتالية صحيحة: القضاء على القوات البيزنطية الباقية كجيوش منظمة، وبعد ذلك فقط شغلوا أنفسهم باحتلال البلاد والمدن وتنظيمها. هذه الأفعالُ هي التي جعلت من معركةٍ، كانت انتصارًا كبيرًا، معركةً حاسمةً كبيرةً، وواحدة من أسوَأ النكبات الحربية التي مر بها البيزنطيون.[76] والبيزنطيون واتتهم الفرصة للبدء بتجميع ما تبقى من قواتهم المبعثرة في شِمَالي حمص فقط.[77]

لاحق رتل بقيادة عِياض بن غَنْم البيزنطيين حتى (ميليتين/ مَلَطْيَة) على بعد ثمانيمئة كيلومتر تقريبًا شِمَالي أرض المعركة، واحتلها. وتتمة الرواية أنه لما انكسر البيزنطيون بعث أبو عبيدة عياضًا بن غنم في أثرهم. فتابعهم مجيز الأعماق (ناحية قرب دابق، بين حلب وأنْطَاكِيَة في شِمَال سوريَة) حتى بلغ مَلَطْيَة. وقد عاهَدَ أهلَها على أنْ يدفعوا الجزيةَ، وعاد. فلمَّا بلغَ ذلك هرقلَ أبلغ قواته العسكرية وقائدها وأمرهم بالتوجه إلى مَلَطْيَة. وعلى ما أمر به هرقل، فقد أحرقت مَلَطْيَة. تدل مطاردة من هذا النوع على درجة الانهيار الكامل الذي لحق بالتنظيم البيزنطي الذي تلا معركة الجابية- اليرموك مباشَرة. مع ذلك، لم يتابع هذا الرتل المتقدم سيره، إذ جلا عِياضٌ بنُ غَنْم عن مَلَطْيَة بعد أن فرض عليها شروطه. وعندها أمر هرقل، الذي استشاط غضبًا لأنها سلَّمت، بهدمها عقابًا لأهلها، ومنعًا من تمكن المسلمين منها. هذه المطاردةُ جعلت الدِّفَاعَ عن مدن أخرَى في سوريَة وفِلَسْطين بعدَ معركة الجابية-اليرموك مباشَرة أمرًا صعبًا.[78]

أظهرتِ القيادةُ الإسلاميَّةُ وعيًا استراتيجيًا وعسكريًا؛ فقد التزمت بالأولويَّات الحربية. فالعملياتُ الحربيَّةُ التي تلت معركةَ الجابية-اليرموك مباشَرة، أو نشأتْ منها، كانت تقومُ على منطق عسكري وتتبعه.



### 6. 13) عِظَمُ الانتصارِ الإسلاميِّ

شهد القديس أنستاسيون السينائي، وهو من مراقبي القرن السابع، لأهمية معركة الجابية-اليرموك على «أنها كانت أول انهيار للجيش الروماني (البيزنطي) والأرهب والأكبر مصابًا، وأقصد بذلك إراقة الدماء في غابيثا [الجابية] واليرموك».[79] وبعد المعركة ببضعة عقود رأى فيها البيزنطيون نَكْصًا، أصبحَ الانتعاشُ التامُّ بعدَها مستحيلاً.

لم يكنْ لدى القوَّاد البيزنطيين موقعٌ صالحٌ للارتداد إليه بعدَ الجابية-اليرموك سوى معسكرِهم، الذي نُسِفَ في لحظة حاسمة في أثناءِ المعركة. إن هذا الأمر مثير للاستغراب، لأن الجميع يتفقون على أن جيوش الفريقين كانت متجمعة على مقربة من المعركة وقتًا قبل نشوب القتال. كان ثمة مجال كبير من الوقت للتفكير في الخيارات، بما في ذلك سبل النجاة. ويبدو أن القواد البيزنطيين لم يتوقعوا هذا الانكسار الكبير هنا، وهو أمر عادي، وإلا فإنهم ما كانوا ليسمحُوا لجنودِهم بالمجازفة بمعركةٍ في هذا المكان. لقد سارت المعركةَ على أبعادٍ لم تكن في الحُسْبَان.

تعفي الرواياتُ البيزنطية المتعلقة بمعركة الجابية-اليرموك هرقل ضمنًا من أي مسؤولية عن الكارثة. وعوضًا من ذلك تلقي بالمسؤولية على المُناخ أو على الأثنيات الأجنبية، كالأرمن مثلاً، أو على القواد البيزنطيين الذين أخفقوا في اتباع نصيحة هرقل الحكيمة. كانَ أمرًا ضروريًا أنْ يُقصى أيُّ لوم للإمبراطور القائم أو لأسرته. هذه النزعة عقَّدَت أمرَ تفهُّم المعركة في واقعها، والنتيجة التي تدرك من قراءة المصادر الإسلامية هي أنَّ المسؤولية تقع على عاتق القيادة العسكرية البيزنطية. وفي مقابل ذلك، تنسب هذه المصادرُ صفاتٍ كثيرةً لا مثيلَ لها إلى القيادة المسلمة، وإلى الحماسة والثبات اللذين أظهرهما الجنود والمدنيون المرافقون، ولا سيَّما النساءِ الشجاعاتِ.[80]

ثمة قدر من عدم التناسق بين وصف المصادر المسيحية والإسلامية للمعركة. فقد حاول المسيحيون أن يقللوا شأن المعركة على أنها نصر حربي عظيم للمسلمين، بل إنَّ النصرَ فيها كان بسبب التسلل والخديعة لا بسبب

نجاح حربي صادق. والمسلمون أكدوا أنها كانت معركة حاسمة، فقد استعمل فيها الذكاء، لكنَّ شجاعةَ المسلمينَ وخلقهم القويم كانا عاملين حاسمين فيها. إضافة إلى هذا، كان التفسيرُ المسيحيُّ المقتضب جزءًا من محاولة جاهدة للاعتذار من الكارثة، وإزاحة انتقاد العمل الحربيِّ للبيزنطيينَ، ولا سيَّما من حيثُ أيُّ مسؤولية للإمبراطور القائم هرقل حصرًا. لكنَّ الأمرَ لا يخلو من السخرية في هذه الحل، لأنَّه كان مفروضًا على البيزنطيينَ أنْ يتميَّزُوا باللجوء إلى البراعة في القتال، إذا كان ثمة من يتصف بذلك. لكنَّ الدَّرْسَ الذي يُتَوَصَّل إليه، إنْ كان ثَمَّةَ شيْءٌ من هذا القبيل، هو أنه لم يكن لدى البيزنطيين القدر الكافي من الذكاء والإدراك لرسم الخطط التي قاتلوا المسلمين على أساسها في معركة الجابية-اليرموك.[81]

ليس ثمة ما يدل على أن البيزنطيين جربوا أن يحوِّلوا أيًا من المسلمين أو قادتهم عن دينهم في أثناء المعركة، ولكنْ كانت ثَمَّةَ اتصالاتٌ الغايةُ المنتظرةُ منها إفسادُ القيادة الإسلاميَّةِ، أو حملُ المجموعات القبلية فيها على أن تتحلل بتشجيع التنافس بينها، أو الإفادة من الولاءات التبادلية. إنَّ المصادرَ الإسلاميَّةَ وحدَها هي التي تزوِّدُنا بأخبارٍ عن حواراتٍ دينيَّةٍ ترمي إلى كسب أيٍّ من القوم إلى جانبها. والإشاراتُ الواردة في المصادر إلى الجِداء الديني في معركة اليرموك، هي التي تذكرنا بعدم جواز التقليل من شأن العواطف الدينية ودرجة الالتزام الديني عند المسلمين. لقد كان كثير من المسلمين في تلك المعركة مندفعين بحماسة دينية. وقد ورد أن رهبانًا مسيحيين وسواهم من رجال الدِّين انضمُّوا إلى الجيوش البيزنطية، وجرَّبُوا أن يقوُّوا معنوياتهم.[82] لكنْ ليس ثَمَّةَ ما يدل على أنَّ الجنود البيزنطيين الذين أسروا أرغموا على انتحالِ الإسلام.

يبدو أنَّ البيزنطيينَ جرَّبُوا، خلالَ الفترة المتطاولة قبل أيِّ معركةٍ، اللجوء إلى الوسائل التقليدية لإفساد قادة البرابرة الذين يهددونهم وأتباعهم من حملة السلاح. ليس من الواضح المدى الجدِّيُّ الذي فهمه البيزنطيون لما كان لدى المسلمين وقيادتهم من حافز ديني قوي في ذلك الوقت المبكِّر إلى درجة ما.



إنهم، على ما روي، عرفوا ما فيه الكفاية عن هذا الأمر في معركة مؤتة، إذ حاول واحدٌ من القواد البيزنطيين الإفادة منه في توقيت الهجوم على المسلمين. لكنْ في معركة الجابية-اليرموك لم يجد البيزنطيون أيَّ مناسبةٍ لاستغلال النزاعات الإسلاميَّة لمصلحتهم الخاصَّة. وفي واقع الأمر، فإنهم لم يجدوا مثلَ هذه الفرصة في أي مكان البتَّة.

إنَّ انتقالَ الروايات المحليَّة عن معركة اليرموك في سوريَة والأردن مُبهَمٌ. هل كان ظهورها حديثًا استجابة محلية للأسئلة التي يطرحها زوار متعلمون أو جهلة على السُّكَّان، أو تقبلاً لروايات هؤلاء، أم هل كانت أصيلة حقًا؟ ثمة روايات أردنية في قرية حَرَثْتا تتضمن اعتقادًا بأنَّ ثَمَّةَ تلةً، في بلاد الأردن المعاصرة، هي الموقع الذي أشرف منه خالد بن الوليد على المعركة، كما أن تلة أخرى كانت مكان تجميع القوات. وثمة رواية سوريَة تقول: إنَّ تلةً تسمى (تل الجموع) يفْتَرضُ أنَّ المسلمين تجمعوا عندَها للمعركة مع البيزنطيين (وهي، على الأقل، تقع على مقربة من الطريق الروماني الذي يتجه نحو الجسر الخطير على وادي الرقَّاد). هذه الروايات حرية بأن تُجمع وتدوَّن وتُثمن في سبيل الحصول على أيِّ قيمةٍ تاريخيَّةٍ، لكنْ حالة الشكِّ أمرٌ مسوَّغ إلا إذا اتفقت هذه القيمة مع حقائق التضاريس، ومع الحقائق التي تنص عليها المؤرِّخات الأدبية.[83]

كانت معركة الجابية-اليرموك نقطة تحول في أساليب القتال البيزنطية. مع ذلك، فإنَّ التكتيكَ والفن والنهج البيزنطية التقليدية أخفقت في معركة سبقتها فترةٌ طويلة من الاستعداد، وكان المفروض فيها أنَّ مجالات الخيار للقيام بعمل ما متعددة، كما كانت مجالات العمل لدى أعدائهم حسب حسابها. وكان من المهم أن يبحث عن سبل أخرى للقتال لما أخفقت هذه إخفاقًا ذريعًا لافتًا للنظر. كان على البيزنطيين أن يبحثوا عن أساليب لكسر المسلمين، لكنْ لم يكن لديهم من الوقت ما يمكنهم من تطوير السبل لقتال المسلمين في الأرض المكشوفة أو ذات التلال من النوع الذي خسروا فيه معركة اليرموك. إنَّ هذه الأرضين، مع أنَّ أكثرَها كانت تُعْوِزُه المياهُ، كانَ يمتدُّ مسافة كبيرةً إلى الشَّمَال في سوريَة. هذا كله كان مكشوفًا إذْ أخْلِيَ من المقاتلين. لقد تقوَّت

لدى البيزنطيين رغبتهم في تغطية [عسكرية] قوية وأمكنة محددة، وهذا ما كان بَدَا في إصرارهم على الدفاع عن المدن المسوّرة.

ومما هو لافت للنظر في هذا الأمر هو أنهُ مع كلِّ التحذيرات في الأدب العسكريِّ المعاصر والسابق له، فيما يتعلق بالخطر الذي يمكن أن يتعرضوا له بإغرائهم بالوقوع في الشرَك بسبب تظاهر العدو بالهرب المزيف، فإن هذا حدث مرة ثانية في المعركة. لعل المراح المتسع إلى درجة ما، الذي تم فيه القتال في المعركة زاد نجاحَ شَرَك المسلمين. وكان هذا إيذانًا بنزول ضربة قاضية على العمليات البيزنطية المعروفة بالبحث والتدمير، وذلك مدّةً طويلةً. بعد هذا كان البيزنطيون يحاولون تجنب مثل هذه التجارب في المعارك، لسببين اثنين مجتمعين هما: أنه كان يُعْوِزُهم القوى القتاليَّة والإرادة لمثل هذا الصدام، وأنهم كانوا يفضّلُون سبلاً أخرى للجهاد من دون القتال. حدّدتْ نقطة تحول، وعدَّها الفريقان كذلك، كما فعل مؤرخو الفريقين بعد ذلك. ومع ذلك، فلم تظهر نتيجة لهَا من حيثُ التكتيكُ الحربيُّ، ولا من حيثُ الأسلحةُ، ولا من حيثُ التقنيةُ الجديدةُ. أمَّا إرغامُ البيزنطيينَ، مدَّةً طويلةً، على تجنُّب القتال في الأمكنة المكشوفة، كلَّمَا كان ذلك ممكنًا، فإنَّ ذلك القرار دعم أصلاً الرؤى المختلفة القائمة بين البيزنطيين. ولم يكتبْ مؤرِّخٌ مسلمٌ ولا بيزنطيٌّ وصفًا مفصلاً للمعركة والمناورات التي أدارها القوّاد في كل من الجبهتين حيثُ تصبح مثلاً لما يمكن عمله، أو لما لا يجوز القيام به لأيِّ معركة أو حملة في المستقبل.

كانت الجابية-اليرموك هي المعركةُ التي حددت الاتجاهات في سلسلة من معارك الفتح الإسلاميِّ. إن المصادر الإسلامية تحدد نواحي متعددة للفتح على أنها معارك (وقعات) وبذلك تزيد أهمية الأبعاد الحربية، وتؤكد أنَّ المعارك كانت ذات أهمية كبرى. لكنْ ثَمَّةَ نزعةً، في بعض المباحثات والتأريخات الحديثة، وبعضهُ يقتصرُ على أحاديثَ شفويَّةٍ من دون أن يكونَ ثَمَّةَ منشوراتٌ تأريخيَّةٌ تفترض أنهُ «لا بدَّ» من أنْ يكون ثَمَّةَ تفسيرٌ آخرُ أعمقُ من القتال فحسبُ لهذه الأحداث. ثَمَّةَ، إذًا، رفضٌ أو نفورٌ للحُسْبان الذي يُعطى لأهمية السببية الحربية. إن هذا الأمر هو ناحية من مجالات أوسع من الاتجاهات التأريخية التي تقع خارج نطاق التاريخ البيزنطي والإسلامي. مع ذلك، كان



مستقبل الحكم البيزنطي في سوريَة وفِلَسْطين، وربما في شرق الأردن كذلك، على كف عفريت. إن المؤرخين البيزنطيين والمسلمين على السَّواء مصيبون في أن يعزوا إلى المعركة أهمية بالغة، مع العلم بأنه كان ثمة بالضرورة عوامل أخرى كان من نتيجتها انعدام التلاحم البيزنطي الحربي في معركة الجابية-اليرموك، الذي زاده تأثيرًا التوتر مع السكان المحليين، وتنافس القواد البيزنطيون، والمشكلات (اللوجستية). هذا كله كان له أثر في النتيجة الكارثية النهائية للمعركة. ومع ذلك، فإنَّ القتل بذاته في ذلك الموقع، وليست العوامل الأخرى هو في التحليل النهائي الذي كان حاسمًا.

### 14.6) الاختراقُ وأهميَّةُ الانهيار

لقد أبعد الانهيارُ البيزنطيُّ في معركة الجابية-اليرموك مواقعَ الدِّفاع البيزنطيَّةِ واحدَهَا عن الآخر. مع ذلك، فكانت، في نهاية المعركة، أغنى المدن السوريَّةِ في أيدي البيزنطيينَ، إلى جانب المناطق الأكثر إنتاجًا، ومن ثَمَّ تلك التي كانت تدفعُ الضرائب إلى أبعد مدىً. كان أكثر سكان سوريَة في منأى عن السيادة الإسلامية. لقد كانت أكثر المراكز أهمية من حيثُ الثقافة، مثل أنْطَاكِيَة وإديسّا في الشَّمَال، بعيدة جدًا عن أرض المعركة. وكانت موانئ سوريَة وفِلَسْطين بعد في أيدي البيزنطيين. لكنْ لم يكن لدى سُكَّان هذه المناطق، المدنيينَ منهم والريفيين، دُرْبَةٌ حقيقيَّةٌ في الدِّفَاع عن أنفسهم. كَانت المصادرُ الماديَّة وافرةً، لكنَّ البيزنطيينَ كانت تنقصهم القوة البشرية، كما كانت تُعْوِزُهُم الإرادة لقلب الوضع العسكري لمصلحتهم.

اتبع أولئك الجنود والقواد البيزنطيون الذين نجوا من الهلاك في معركة الجابية-اليرموك واحدًا من الخيارات المتعددة: 1) أجر بعضُ القبائل العربيَّة المسيحيَّة مفاوضاتٍ أدَّتْ إلى انضمامه إلى القوَّات، مع أنَّ هذا لم يعنِ بالضرورة انتحالَهُ الإسلامَ؛ 2) كثيرون من الجنود والقواد اختاروا الفِرَار شِمَالاً، على جناح السرعة، متبعين الطرق الرئيسة المتجهة شِمَالاً نحو أنْطَاكِيَة وإديسّا وميليتين (مَلَطْيَة الحالية في تركيا)؛ 3) لجأ بعضُ القوَّاد الذين لحقهم العار، ومن المحتمل أنه كان معهم بعض الجند، إلى الأديرة؛ 4) بعض الجنود،

ولو من العسير تحديدُ وحداتهم ومنشئهم، ظلَّ هناكَ، أو لعلَّه لجأ إلى المدن السوريَّة، وانضمَّ إلى حامياتها، وهي الحامياتُ التي أبدت مقاومةً مؤقَّتةً، أو سَعَتْ في سبيل المفاوضة لتسليم مدنها المسوَّرة.

لقد أدى الانكسار الحربي في الجابية-اليرموك إلى هزيمة منكرة، ووضعٍ بلغَ من الميوعَةِ الغايةَ. فقد كانت كل التقديرات المعقولة في كف عفريت. لم تكن ثمة وسائل حديثة حاضرة لتسجل أبعاد الانهيار الحربي وتتقصاها. مع أنه قد رحل بعض السكان السوريين، ولا سيَّما من الملكيين، فليس ثمة ما يدل على جلاء جماعي للسكان الوطنيين السوريين. لعلهم أحسّوا بالهلع، لكنَّنا عندما نستنطق المصادر، فإنَّ الهلعَ الأشدَّ هولاً هو الذي أمسكَ برقاب العسكريين البيزنطيين. ليس ثمَّةَ من الوسائل ما مكَّننا من سبر ذلك في تقديرات دقيقة قابلة للقياس، لكنَّ العَرض البين في الدلالة على ذلك كان انعدام أي دفاع متماسك أو خط دفاع بعد معركة الجابية-اليرموك. من المحتمل أنَّ الأمرَ كان مزيجًا من الفزع والعجز.

لم يكن الجنود البيزنطيون وكانوا على حق راغبين في أن يجدوا أنفسهم، وقد حيل بينهم وبين النجاة، بعيدين عن أرض يعرفونها في شِمَال سوريَة وآسيا الصغرى. إذ إنهم، وقد فقدوا الفوائد (الطبوغرافية) لمنطقتي نهر اليرموك ومرتفعات الجولان، وتملك الفزع نفوسهم بسبب خسائرهم في الجابية-اليرموك، فمن المحتمل أنه كانَ عندَهُم مَيْلٌ ضئيلٌ إلى أن يجرِّبوا وقفة أخرى في جنوب سوريَة. والأهم من ذلك حقًا هو أن قوادهم لم يحاولوا إقامة خط دفاع آخر قبل دمشق أو شِمَالها مباشَرة. لكن هذا لم يكن أمرًا سهلاً على كلِّ حال. وكان مقدرًا لجهد المدن المسوَّرة المنفردة مثل دمشق وبَعْلَبَكّ في الصمود - بينما كانَ الرِّيفُ المحيطُ بها يُستولى عليه - أنْ يكونَ أمدُهُ قصيرًا.

عندما تتداعى جبهة عسكرية فمن الطَّبيعي أنْ تتبع القيادة العسكرية للجبهة المتداعية عدة مسافات للعمل: (1) التفاوض على وقف لإطلاق النار؛ (2) وتبديل آخرينَ جديرينَ وأبعد مقدرةً، أو على الأقل، من يمكن أن يعدَّهُم الجندُ والمدنيونَ والحكومةُ أهلاً للثِّقَة بالقوَّاد، (3) وإجراء تبديل في القيادة



السياسية؛ (4) وتوجيه الدعوة إلى عدد أكبر من الفرق والمجندين؛ (5) ولعله من المناسب أن تُصْدر مراسيم طوارئ في سبيل تثبيت الوضع؛ (6) وجمع أموال إضافية لمواجهة الطوارئ بأساليب متنوعة.

على أنَّ بيزنطةَ في سنة (15 هـ/ 636 م) والسَّنوات التي تلتها لم تستنم تمامًا، ولم تُصب بالخَدر بسبب الجابية-اليرموك. لقد كانت هزيمة كارثية تامة، لكنها لم تنته إلى انكسار كلي وسقوط. لقد مكّنَ العمق الأرضي البيزنطيين من أن يدفعوا ثمن الوقت أرضًا في سبيل إعادة الصفوف وتثبيتها، لكن ذلك لم يكن التفسير التام.

حتى المفاوضاتُ والمقاومةُ المتفرّقةُ التي قامت بها حاميات وسكان بعض المدن المسوّرة مثل قَيْسَاريَّة البحرية، كانت عاملاً في ربط القوات المسلمة ومنعها من التخطيط للحاق بالقوات البيزنطية إلى الشّمَال. لقد كانت تلك المقايضة ثمينَة جدًّا: مقايضة موانئ ثريّة ومدن وحقول سوريَة مقابل الوقت للبيزنطيين، كي يعيدوا تجميع جيوشهم، وإعدادها، وإقامة خطٍّ دفاع أو لهجوم معاكس.

### 15.6) الخاتمةُ

قامت بعض البلدات والمدن والريف في سوريَة وفِلَسْطين بعقد اتفاقات مع المسلمين بعد معركة الجابية-اليرموك. بعضُ المدن سقطَ بسرعة على نحو ما تم لدمشق. وقد صمدت أخرى وقتًا مثل عَسْقَلان وغزة وقَيْسَارِيَّة البحرية. وقد سقطت المدن الداخلية أولاً في أيدي المسلمين بعد المعركة. ليس ثمة وجود لتجديدات استراتيجية أو تكتيكية غير عادية، ولم يكن ثمة دفاع متماسك لسوريَة أو فِلَسْطين بعد الجابية-اليرموك.[84]

إنَّ تأريخًا، لا يمكن عدّه نهائيًا، لبعض من النواحي لاحتلال المسلمين بقيَّةَ فِلَسْطين وسوريَة يبحث في النقاط الرئيسة التالية: تسليم دمشق في وقت متأخر من سنة (15 هـ/ 636 م) أو مبكر من سنة (16 هـ/ 637 م). وقد سلمت القدس أيضًا للمسلمين في سنة (16 هـ/ 637 م) كما حدث لغزة في جمادى الآخرة (16 هـ)؛ أي: في أواخر حَزِيْرَان/ يونيو، أو في وقت مبكر من سنة (637 م). وقد يكون التسليم الأول لعَسْقَلان تم في صيف (16 هـ/ 637 م). وفي وقت

لاحق من سنة (16 هـ/ 637 م) توصل البيزنطيون والمسلمون إلى هدنة في قِنَّسْرِيْن (خلقيس) بعد انكسار الجنرال البيزنطي ميناس وموته. وعند نهاية تلك الهدنة، في سنة (17هـ/ 638 م) استولى المسلمون على الأجزاء المتبقية من شِمَال سوريَة بما في ذلك أنْطَاكِيَة وسيِّروس ومَنْبِج وحلب، من دون أن يلقوا أي مقاومة مسلحة. وفي وقت ما في سنة (17 هـ/ 638 م) زار الخليفة عمر بن الخطاب الجابية، ورتب شؤون البلاد التي فتحت، وأعاد تنظيم التركيبة الإدارية المسلمة في سوريَة. وقد استمرت الهدنة الإسلاميَّة البيزنطيَّة قائمة إلى ميزوبوتاميا/ ما بين النهرين، خلال سنة (17 هـ/ 638 م). وقد أحدث الأمر الصادر عن هرقل بالانسحاب البيزنطي من التحصينات في الشِّمَال الغربي من أنْطَاكِيَة بدء قيام منطقة شاغرة في سنتي (17 هـ/ 638 م) و(18 هـ/ 639 م). وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون يعيدون تنظيم تجمعاتهم في الأناضول. وقد انتهى الفتح الإسلامي لسوريَة البيزنطية لما احتل المسلمون المدن الساحلية بما فيها قَيْسَارِيَّة (19 هـ/ 640 م) وتبع ذلك احتلال بيروت وجبلة واللاذقية.

لم يرافق الاستيلاء على هذه المناطق أيُّ مشكلات خاصَّة. فلم يكنْ ثمَّةَ استراتيجيَّة بيزنطيَّة دفاعية متماسكة، باستثناء محاولة الاحتفاظ بما كان يمكن الاحتفاظ به. كانت هذه استراتيجيَّة معقولة إذا ما أتيح للنجدة العسكرية أن تصل، ولكن بسبب تغيبها خابت الأمل كما فقدت إرادة المقاومة. ليس ثمَّةَ مصادرُ بيزنطيَّةٌ أوَّليَّة لتزويدنا بتوضيح تاريخيٍّ عن هذه اللحظات الأخيرة للوجود البيزنطي في سوريَة. إن جدولة هذه الأحداث تؤكد درجة الحسم لمعركة الجابية–اليرموك.



# 7) القتالُ القصيرُ الأمدِ لإنقاذِ شِمَال سوريَةَ وميزوبوتاميا البيزنطيَّةِ

## 1.7) الانهيارُ البيزنطيُّ ومُعْضِلاتُ الدِّفَاع في شِمَال سوريَةَ وميزوبوتاميا البيزنطيَّةِ

كان الانهيار البيزنطي بعد الجابية – اليرموك أمرًا واضحًا. وعلى نحو ما لاحظ كلاوزِفِنس:

> عندما تُخسر معركة تتحطَّم قوة الجيش القوة المعنوية أكثر من القوَّة الطبيعيَّة. إنَّ معركة ثانية، من دون العون النَّاتج من عواملَ جديدةٍ وواعدةٍ، قد تعني الانكسار حالاً، وربَّما الدمار الشامل. هذه بدهيَّةٌ عسكريَّةٌ. ومن طبيعة الأشياء أنَّ التراجع يجب أن يستمرَّ إلى أن يستعادَ التوازن في القوى، سواءً بالنجدات، أم بحماية حصن قوي أو عقبات طبيعيَّة كبرى، أم انتشار العدوِّ انتشارًا واسعًا. إنَّ عظم الخسائر ومدى الانكسار، وما هو أكبر أهمية، طبيعة العدو التي تحدِّد الوقت الذي تعود فيه لحظة التوازن هذه.[1]

بين القضايا الكثيرة المتعلقة بالتفسير التاريخي للفتح الإسلامي البلادَ البيزنطيَّةَ في القرن السابع ثمَّةَ واحدة أهملت: وهي دور القوات البيزنطية في شِمَال سوريَة وميزوبوتاميا [مابين النهرين] البيزنطية بعد معركة الجابية–اليرموك.[2] إن ميزوبوتاميا تعني، في هذه الحال، مناطق تقع اليوم في شِمَال سوريَة شرقي الفرات، أو في تركيا شرقي الفرات، وبالطبع غربي دجلة، والمسماة عند العرب الجزيرة [الفراتية]. كانت هذه تضم ولايتي (أوزروني) [الرُّهَاء] وميزوبوتاميا نسبة إلى التسمية البيزنطية في القرنين السَّادس

والسَّابع،[3] وكانت فيها مدنٌ مثلُ كلينيكوم (الرَّقَّة) وإديسًا (أورفا، الرُّهَاء) ومونوكاتون وأميدا (ديار بكر) ودَارًا ومارداس (ماردين) كما كانت تضم طور عابدين (الخريطة رَقْم (3)).[4]

نقل الطبري، عن سيف بن عمر، أمرًا حريًا بالتصديق أن هرقل غادر سوريَة من طريق إديسًا ثم ساموتا (سُمَيْساط) قبل أن يتجه إلى القُسْطَنْطِينِيَة.[5] إن هرقل زار (أوزروني)؛ إذ إنَّ إديسًا كانت المدينةُ التي كان على هرقل أنْ يحتفظ بها وقتًا كي تتمكّن قواته الأرمنيّة من الانسحاب من سوريَة بطريقة منتظمة.[6] يرجح أن الخبر، الذي يسوقه الطبري بشأن مغادرة هرقل سوريَةَ من طريق إديسًا وسميساط، (وليس من طريق الأبواب الكيليكية مباشَرة من أنْطَاكِيَة) موثوق به. ويبدو أنَّ هرقلَ كأنه كان يحاول أن يرسّخ الوضع العسكري جنوبي جبل طوروس قبل الاتجاه نحو الهضبة الأناضولية ومنها إلى السواحل الآسيوية عند البوسفور؛ لم يكن هاربًا لا يلوي على شيء بعد انكسار جيوشه في اليرموك. وجدول تنقلاته يُعْوِزُه الوضوح.[7]

تشير الروايات التي تقول: إنَّ هرقلَ أمر باستعادة ميليتين (مَلَطْيَة) وتدميرها واتباع سياسة الأرض المحروقة قرب أنْطَاكِيَة وقيليقيا إلى أنه استمر في محاولة إقامة مراكز دفاع على أطراف آسيا الصغرى، وأنه لم يكن عاجزًا لا طبيعيًا ولا عقليًا بعد معركة اليرموك. إن غضب هرقل على جون كاتيا لاستعداده لعقد هدنة مع المسلمين، وعزله إيَّاه، وتعيين قائد عسكري أكثر فعّالية منه تتفق مع الجهود النشيطة التي قام بها في أمكنة أخرى في محاولة منه لتقوية المقاومة، أو القيام بهجمات معاكسة.[8]

لم يحاولْ هرقلُ أنْ يدافع عن أنْطَاكِيَة بقوة أمام المسلمين، مع أن بعضًا يرى أنه لو كان في نِيَّته أنْ يوقف تقدم المسلمين، فإنَّ مقاومةً تطول في أنْطَاكِيَة قد تؤدّي إلى تحقيق أغراضه أفضلَ من محاولته الاحتفاظَ بميزوبوتوميا المكشوفة. لكنَّ الاحتفاظَ بأنْطَاكِيَة ما كان ليؤدِّيَ إلى تجنب الأرمن وإرمينية الخطر. إضافةً إلى ذلك، ما كان بإمكان هرقل أن يخسرَ، بعد اليرموك، أعدادًا كبيرة من رجاله الأشداء في نضال دموي في سبيل الحفاظ على بعض المدن. هؤلاء الرجال كان



مِن الممكن أن يجازفوا، إذْ ثَمَّةَ احتمالُ الإحاطة بهم، وتجاوزهم، وأنْ يعجزوا في الدِّفاع عن الأناضول. لعلَّ الشلل البيزنطي السابق في مدن سوريَة الجنوبيَّة أقنعه، كما أقنع مستشاريه، بالمخاطر التي تلازم وضعه أعدادًا كبيرة من قواته، التي يتناقص فيها رفد الجنود الأقوياء، للدفاع عن هذه المدن الكبيرة في أوضاع عسكرية مكشوفة تقريبًا. لقد كانت الخسارة في الدفاع عن أنْطَاكِيَة إلى آخر رجل أكثر من الربح. لم يكن عنده رغبة في أن يجازف بمجابهة دموية أخرى إلى الجنوب من جبل طوروس وفَضَّل أن يتخلى عن المِسَاحَة الأرضية ليقلِّلَ درجةَ التآكل في قوَّاته، ويمكّنها من البقاء والتعافي.

بعد انهزام الجيوش البيزنطية في معركة اليرموك سنة (15 هـ/ 636 م) وانسحابها من سوريَة، ظلت ميزوبوتاميا فترةً وجيزةً تحت السيطرة البيزنطية، وتمدَّدت، على نحو توسعي، إلى مناطق كان المسلمون احتلوها في سوريَة والعراق، إلى أن غلب عليها المسلمون بقيادة عِياض بن غَنْم الفهري، بينما تغلَّبَ آخرونَ على العراق.[9] وبعدَ أنْ ظلَّت لدينا أسئلةٌ كثيرةٌ ترتبط بتفاصيل خسارة البيزنطيين فِلَسْطين وسوريَة ومصر وتأريخها، قد يسألُ الواحدُ منَّا: لماذا نُعنى بتفاصيل الدفاع عن المركز الإقليمي البيزنطي في أقصى الجنوب في الفترة المتأخرة من أربعينيات القرن السابع وخسارته؟ في الحقيقة، إنَّ قضية الدفاع البيزنطي عن ميزوبوتاميا تعين على إيضاح مسائل أكبر تتعلق بالأولويات البيزنطية في سبيل الإمبراطورية والبحث عن سبيل لإيقاف المسلمين، كما أنها تضع بين يدي القارئ المجال لفهم المسائل الأكبر المتعلقة بدوام السلطة البيزنطية في آسيا الصغرى، وانحلالها في أمكنة أخرى.[10]

كانت ميزوبوتاميا (الجزيرة حاليًا) واحدة من المناطق الأكثر إزعاجًا من حيثُ الاضطرابُ العسكريُّ في القرنين السادس والسابع. وبسبب أهميَّتها الاستراتيجيَّة للدفاع تجاه الهجوم من فارس، كانت دومًا تقيم فيها حاميات ضخمة، وكانت تبذل جهودًا خاصَّةً لضمان كميات من اللوازم العسكرية فيها.[11] وإذا كان هرقل اجتازها غيرَ مرَّةٍ في أثناءَ حملته على الفرس، وعند انتهائه منها، فقد أتيحتْ له مناسباتٌ كي يدرك أهميتها الاستراتيجية، وأي مشكلات محلية تقوم فيها.[12]

كـان نهـر الخـابور يعـيّن جـزءًا مـن حـدود بيزنطة مع فارس، لكنه لم يكن حاجـزًا لا يمكن اختراقه. ولم يُروَ أنه كان يخضع لمراقبة دقيقة، ولا تحصينَ له إزاءَ هجـوم إسـلامي مـن العـراق، ولكـنَّ هذا الأمر لم يحدث البتَّةَ. كانت كِركيبوم [قَرْقِيْسِيَاء] عـلى الحـدود الجنوبـية الشـرقية للإمبراطورية في مجاراة الفرات في الـنقطة الـتي صـب الخابور فيها. وكان الخابور مصدرًا ثمينًا للماء لأولئك الذين كـانوا يجتازون الفرات. فقد كان بإمكانهم أن يجاروه إلى منابعه حتى رأس العين (ثيودوسـيوبوليس) وبعـد ذلك. حتى الفرات كان حدًّا أكثر منه حاجزًا حقيقيًا، إذ كانـت فـيه مخاضاتٌ يمكن للرجلِ والخيولَ اجتيازُها. وعلى كلٍّ، فمن الممكن أنْ تنتشـر القـوّات عـلى طـول الجـزء المكشوف كليًا من الفرات والخابور: هذا الـنوع مـن الدفاع يمكن أن يكون معرضًا للهجوم بسبب الصعوبة في نقل أي احتـياطي مـتحرك بسـرعة إلى أي نقطة من نقاط اجتياز النهر: إن الأنهار يمكن أن تكون شَرَكًا للمُدافِع.(13)

كـان مـن الطبـيعيّ أنْ يرغب المسلمون، وقد احتلوا سوريَة والعراق، في أنْ يتخلصـوا مـن هـذا الـنتوء، أو الانـتفاخ مـن ميزوبوتاميا البيزنطية الذي كان، يهـدد، نظـريًا على الأقل، التواصل الأيسر والأسهل بين سوريَة والعراق. وكان الاسـتيلاء علـيه خطـوة حكـيمة في سـبيل تثبيت أوضاع إمبراطورية ما. وبرأي البيزنطيين كان منطقة زراعة خصبة وولاية غنية تستحق الاحتفاظ بها.

ثمـة حقـائق يسـهل إدراكهـا. أولاً: أرغـم احـتفاظ البيزنطـيين بميزوبوتامـيا المسـلمين، في سـوريَة والعـراق، عـلى تحويـل جـنود مـن هدف آخر محتمل، ولا سيّما في الأناضـول. ثانـيًا: أعـانَ الأمـر عـلى الاحتفاظ بقاعدة متقدمة كان من الممكـن أن تُـتخذ نقطـة انطـلاق لأي هجـوم معـاكس يقـوم بـه البيزنطـيون لاسـترداد الأراضـي الـتي استولى عليها المسلمون، أو لأيّ محاولة بيزنطية للقيام بهجـوم معـاكس مشـترك بالتنسيق مـع الفـرس الساسانيين، إذا تذكرنا علاقة هـرقل الجيـدة مع الفرس بعد انتهاء الحرب البيزنطية الفارسية الطويلة. وثالثًا: إنهـا كانـت تقـوم جزئـيًا بحمايـة الأراضـي الأرمنـية التابعة للإمبراطورية التي كانـت أرضًـا ثمـينة لتجنيـب جـنود هـرقل وقواده من هجوم واحتلال من قبل



المسـلمين. لم يكـن مـن الواضح إذا ما كان المسلمونَ يمكنهم أن يثبتوا قبضتهم عـلى سـوريَة. ويسّـر الاحتفاظُ بميزوبوتاميا للبيزنطيين نقطة يستطيعون منها أن يستطلعوا الأخـبار، ومكانًـا يمكـنهم منه أن ينشروا خبر هجوم أو خصومة بين سـكان الأراضـي المحـتلة حديـثًا. ورابعًـا: كان للاحتفاظ بميزوبوتاميا أن يؤثر في التجنـيد بـين رجـال القـبائل العـرب لجيوش هرقل؛ إذْ استخدمهم، على نطاق واسـع، في عشـرينيّات القـرن السـابع في استعادته الناجحة من الفرس. إضافةً إلى إزالـة النتوء البيزنطي أو الخطر الذي تتعرض له المواصلات الإسلامية، فإنَّ فـتح المسـلمين ميزوبوتاميا عمـل على القضاء على أيِّ مقاومة فارسية مزعجة موجـودة، وأعـان عـلى توطيد الإطباق على العراق، وأخيرًا، كان المقدمة اللازمة لأي جهـد للاسـتيلاء عـلى الولايـات البيزنطـية الأربـع في إرمينـية، ومـن ثَمَّ الحيلولة دون هرقل والوصول إلى المدد الأرمني.(14)

ثمَّـةَ حُسـباناتٌ إضـافيَّةٌ أنـتجها الوضع المعقد، شرقيِّ الخابور وغربه، بعد تسليم الفـرس سـنة (7 هـ/ 628 م). إنَّ الفرسَ لم يقاتلوا قتالاً متسع الميدان البيزنطيينَ في ميزوبوتامـيا البيزنطـية، عـلى حسـب مـا تشـير إلـيه المصادر المعروفة. ولعلَّ غيابَ معـركة حاسـمة هـناك زاد إهمـالَ هرقل تقريبًا لأهميتها الحربية بعد استعادته المنطقة إثـر انسـحاب الجـيوش الفارسـية مـن سوريَة وميزوبوتاميا البيزنطيتين. ويبدو أن الوضـع كـان مرتـبكًا، لوجـود رجـال محلـيين أقويـاء، لعلَّهُـم مـنحُوا سلطة واقعيَّة. والمصادرَ بشأن ذلك فقيرة، ولا يصحُّ الاعتمادُ عليها.(15)

### 7. 2) البيزنطيونَ في فارسَ، والفرسُ في بيزنطة

يحـتفظُ الـتاريخُ البيزنطيُّ للقرن السابع بالكثير من الأسرار، ومن بين هذه الـتي هـي الأجـدرُ بالبحـث: مـاذا كـان يفعلُ البيزنطيون في فارس؟ وبماذا كانَ الفـرسُ يقومُـونَ في الإمـبراطوريَّة البيزنطـيَّة بعـد سـنة (7 هـ/ 628 م)؟ قد لا تكـون بعـض الاسـتنتاجات مقـنعةً تمامًـا؛ أي: قـد لا يمكـن التوصل إلى أجوبة مقـنعة نهائـية وموثّقـة توثـيقًا كاملاً عن بعض هذه المشكلات، لكنَّهُ أمرٌ حَرِيٌّ بالمحاولـة. إنَّ المصـادر العربـية وسـواها من المصادر غيرِ اليونانية وحدَها تزوِّدنا بتلميح إلى وجود أي من هذه المشكلات.

لم يكن الحدُّ الشرقيُّ لبيزنطةَ مع الفرس حدِّد على نحو واضح كليًا بعد الانتهاء من حرب هرقل مع الفرس. والقضية لم تكن منبثقة من خلاف على موضع الحد، بل بسبب القلق البيزنطي من نشوب خلاف داخلي في ربوع الإمبراطورية الفارسية. من المحتملِ أن تكون بعض الوحدات الحربية احتفظت بمواقعها في الجزء الغربي بخاصّةً في الجزء الشّمَالي الغربي من الإمبراطوريّة الفارسيَّة بعدَ عودة هرقل إلى الأراضي البيزنطية. وبعض المصادر العربية تروي أنَّ المهاجين المسلمين على العراق اصطدموا ببعض الفرق البيزنطية هناك في أثناء حملاتهم.(16) ومن ثمَّ، فقد كانَ التسلطُ على الأراضي، وقت الفتوح الإسلامية، مشوشًا.

تشير اتفاقية بَعْلَبَكّ التي عقدت في وقت متأخر من سنة (15 هـ/ 636 م) كما تدلُّ إشارةٌ في الطَّبري، إلى عَجَم (فرس) على أنه كان هناك فرس خُلِّفوا، أو هربوا من الخلاف الداخلي الذي نَشِبَ في فارس بعد وفاة كسرى الثاني.(17) إنَّ الإشارةَ الواضحةَ إلى الفرس في ذكر الشروط التي أعطاها أبو عبيدة في بَعْلَبَكّ، على ما وردت عند البلاذري، قد تدل على أن هؤلاء الفرس الذين كانوا هناك في أواسط الأربعينيات من القرن السابع لم ينجحوا في الانضمام إلى الانسحاب الفارسي، أو أن الإشارة إليهم هي إشارة لا تمت إلى الزمن نفسه، ولكن المقصود بهم فرس آخرون أنزلوا بعد ذلك في وادي البقاع في العصر الأموي أو في فترة لاحقة. وتحليلُ الاتفاق البَعْلَبَكّي يضيف دليلاً على احتمال أن يكون نيكيتاس بن شهرباراز، قام بدور هناك مع ابن آخر من المحتمل وجوده، وبتمعن في تأكيد الروايات عن وجود فرس في ميزوبوتاميا في تلك الفترة المضطربة. من الممكن أنَّ عِياضًا ابنَ غَنْم طارد البيزنطيين حتى ميلِيتين [مَلَطْيَة].(18) إن المنطق البحثي الذي أدى إلى هذه الاستنتاجات يحتاج إلى إعادة نظر، لكنْ ثَمَّةَ ما يؤيِّدُ احتمال أنَّ احتلالَ عياض ميزوبوتاميا تمَّ من سوريَةَ.

بعض المصادر الإسلامية، وبخاصة ابن الأثير والطبري اللذان يفيدان من روايات نقلها سيف بن عمرو، تثيرُ قضيَّة ثورة أهل حمص على المسلمين تأييدًا



لهرقل. ويزعم أنَّ هرقل أيّدهم إذ أقنع فرقًا من ميزوبوتاميا البيزنطية بالتوجه إلى حمص لنجدتهم.(19) والرواية تقول: إنَّ هذا الجهد البيزنطي لنجدة حمص لم يتم، لأن المحالفين العرب، إذ علموا بخطر مسلم من جهة العراق، انسحبوا عائدين إلى مواطنهم في ميزوبوتاميا. إنَّ الوضعَ المضطربَ في ميزوبوتاميا وشِمَل سوريّة يعقّد أيّ محاولة لفهْمٍ قيام حدٍّ معين واضح بيزنطيٍّ إسلاميٍّ. ومع ذلك، ثمَّة إشارةٌ ليست وافية إلى تعيين طبيعي للحدِّ. ويبدو أن بعض المصادر الإسلامية يفترض وجود بعض الاتجار المحدود قرب الحدود أو عندها.

من الصَّعْب التأكُّد إلى أي مدى اعتمد هرقل على تجارب الفرس وسياساتهم ونصحهم بعد أن أقنعهم بالانسحاب من المشرق. منَ المحتمل أنه عُني بوجهات النظر والتجربَة الفارسيتين اللتين كسبوهما خلال احتلالهم عقدًا ونصفَ عقدٍ، مع أنه كَان يكرههم كثيرًا. لكنَّ الدلائلَ السابقة توضِّحُ أنَّ هرقلَ والمتنصرين البيزنطيين إلى جانبه حاولوا إعادة الوضع إلى ما كان عليه من قبل في المشرق.(20)

لقد استمر وجود بعض الفرق الرئيسة في ميزوبوتاميا البيزنطية بعد أن اتفق هرقل وشهرباراز على السلام. كان الوضع معقدًّا، ويبدو أن رأس العين (ثيودوسيوبوليس) كانت نقطة مراقبة أو قاعدة لأحد أبناء شهرباراز وهو شهرياد.(21) وثمَّةَ بعضُ الجنود الفرس، الذين نصروا شهرباراز في محاولته غير الناجحة لتسنم العرش الفارسي، وهو الذي حكم فترةً قصيرةً جدًّا قبلَ اغتياله، من المحتمل أنْ يكونوا نقلوا إلى الجنوب لمواجهة الخطر الإسلامي الداهم في ثلاثينيَّات القرن السَّابع. لعلَّهم كانوا عنصرًا مُهمًّا في الحرس الشخصي لنيكتاس بن شهرباراز.(22) ومن ثَمَّ، فقد كانت بعضُ فرق فارسية تقيم في أرض بيزنطية، ولم تكن تقاوم السلطة البيزنطية، أو المخططات لتخطيط الحدود بعد تسوية (7 هـ/628 م). وبعضُهم لم ينتهِ به الأمرُ، باختصار، إلى شيءٍ في النزاع الفارسي الداخلي، ولم يكن لهُ موضعٌ آمن في فارس، لكنَّ على ما يبدو كانَ ذا فائدةٍ لهرقلَ. فقد كانَ هؤلاءِ منفيينَ مسلحينَ على درجة عالية، لا سكنَ لهم. لم تكن أعدادُهُم ولا تسلسلُ قياداتهم واضحةً. وربَّما كان من الخطر محاولةُ نزع سلاحهم، وكانت قضية إطعامهم مرهقة، لكنَّهُم زَوّدوا

هرقل بقوَّةٍ إضافيَّة من الرجل حين كان التوصل إليها بالأساليب التقليدية صعبًا ومرهقًا ماليًا. إن الذكريات العدائية للاحتلال الفارسي لبعض المناطق في الولايات البيزنطية في سوريَة وميزوبوتاميا لا ريب في أنها قللت أهمية الجنود، ولكنْ مع هذا، فإنَّ تجربتهم ربَّما تكونُ ذاتَ نفع لهرقلَ. لكنَّهُم لا يمكن أن يفعلوا ذلك مجانًا.

كانت أيُّ محاولة بيزنطيَّةٍ، لإقامة دفاعات آنية لاتقاء خطر العرب داخل الحدود المضطربة لفارس الساسانية في محاذاة الفرات الأوسط الأدنى وتفرعات دجلة عند تَكْرِيْت وما فوقها، تقتضي تحمّل الحر، والحاجة إلى الماء، وسوى ذلك من المؤن، والتعامل مع نهرين كانَ اندفاعُ تياريهما أقوى ممّا يمكّن القوارب من التوجه إلى أعالي النهر. كان من الممكن أن تُركّز أعداد صغيرة من الجنود البيزنطيين، لكنَّهُم كانوا سيقومون بأعمالهم في أحوال جدٍّ مزعجةٍ. وكانت أغلبيتهم فرقًا من القبائل العربية المحالفة لبيزنطة منْ ميزوبوتاميا، يضاف إليهم عدد صغير من الضباط والجنود البيزنطيين. وكانت أي محاولة للدفاع عن خط يمتد من هِيْت إلى الفرات إلى تَكْرِيْت على دجلة تدل على رغبة صادقة، وكان لا بدَّ من أجل ذلك من أنْ يقامَ خط دفاع خارجي حيثُ ترتفع سلسلة من القمم التي تتوالى ارتفاعاتها فتقوم أولاً بتزويد دفاعات تضاريس صالحة عبر هذين الممرين المائيين الاستراتيجيين، وكان من الممكن، ثانيًا، أن تحول دون المسلمين والوصول عبر هذه الطُّرُق المنذِرَة بالخطر التي لا بدَّ منها للقيام بهجومٍ على ميزوبوتاميا البيزنطيَّة. وعلى كلٍّ، فقد كان تصوُّرُ خطِّ الدِّفاع هذا أسهَلَ من إقامته.[23]

التفسيرُ المنطقيُّ الأوفى هو أنه بعدَ أنْ قهرَ هرقلُ فارسَ سنةَ (7 هـ/ 628 م) خلَّف هناك ما يمكن تسميته بقوَّةِ احتلال من الجنود البيزنطيينَ في العراق الشَّمالي، ولا سيَّما في هِيْت وتَكْرِيْت والمَوْصِل، لكنْ من المحتمل أنَّ سلطَتَهُم لم تتجاوز بعيدًا شرقي دجلة.[24] إنَّ البيِّنة على ذلك تتألف، على كلِّ حال، من إشارة مقتضبة في المختصر الفارسي للطبري الذي حققه وترجمه زوتنبرغ، ورواية عن سيف أوردها الطبري، وإشارة في ‹نهاية الأرب› للنُّوَيْري وبضع إشارات وردَت في مصادرَ مسيحيَّةٍ سريانيَّةٍ وعربيَّةٍ متأخِّرة. ليس ثمَّةَ شهادةٌ بيِّنةٌ



مبكِّرةٌ بالعربيَّة، ولا باليونانيَّة، ولا بالأرمنيَّة. ومن المستحيل أن نحدد من المصادر المعروفة عدد أفراد الوجود البيزنطي العسكري المستمر في ميزوبوتاميا، وطبيعة هذا الوجود. والمفروض أن القائد البيزنطي في تَكْرِيْت كان يدعى أَنْطاق، ومن المحتمل جدًا أنْ يكونَ اسمُه الأصليُّ أنطيوخوس. إنه قدم من المَوْصِل إلى تَكْرِيْت: «كان مع هذا القائد، إضافةً إلى فرقتـ(ـه) البيزنطيَّة بعضُ رجال من قبائل إياد وتغلب والنمير، كما كان يرافقه بعض الوجهاء المحليين». ولم يرِد أي تعريف آخر به. إن أَنْطاق وبقية قواته البيزنطية في تَكْرِيْت هلكوا بعد حصار دام أربعين يومًا. كثيرونَ من رجال القبائل العرب نقلوا ولاءهم؛ وقام بعضُهم بدور المخبر للمسلمين الذين تلقَّوا عونًا إضافيًا من ماروبا، أسقف (مطران) تَكْرِيْت المونوفيزيتي (اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة). وقد روى أن مار إمّه (Mar Emmeh) الأسقف النسطوري في المَوْصِل دل المسلمين على دخول المدينة والقلعة. وقد هزمت قوات بيزنطية أخرى، وأكثرها من العرب أيضًا من ميزوبوتاميا العليا، أرسلها هرقلُ، بعدَ دفاع غير ناجح عن هِيْت. هذه الروايات المشوشة التي جاء تدوينها ضعيفًا قد تتضمَّن إشاراتٍ لفَهْم السِّياسة البيزنطيَّة مع فارس والمسلمين والعرب والمسيحيين المنشقين. وهنا يجدر بنا أن نتنبَّه ثانيةً إلى أنَّ صحَّة الرِّوَايات التي ينقلُها سيفُ بنُ عمرَ موضع نظر.[25]

من المحتمل أنَّ هرقلَ خلّف بعض الفرق البيزنطية في فارس، ولا سيَّما في العراق، في سبيل الاحتفاظ بتأثير بيزنطي في الفرس، ومحاولة إنشاء حاجز على حدوده الشرقية، وترسيخ الوضع الداخلي (الفارسي) على نحو يخدم المصالح البيزنطية. ولعل ذلك كان يؤدِّي دورَ السَّنَد للحكومة السَّاسانيَّة الضَّعيفة التي أقامها، لكنَّهَا صديقة، وكانت تجابه احتمالات اضطراب داخلي وخطر الفوضى.[26] لقد كان لمقدرة هرقل على التحكم بالأحداث والاتجاهات حدود حقيقية والمشكلة الرئيسة لدى البيزنطيين كانت تكمن في أن مثل هذا الوجود البيزنطي الموسع، مهما كانت طبيعته رمزية، كان مُرْهِقًا على نحو عامٍّ للمواصلات و(اللوجستيات) والقوى المقاتلة والمالية البيزنطية التي كانت

بدورها مُتْعَبَة ومُوسَّعة. كانتْ تستطيعُ أن تقاومَ المسلمين مقاومةً قليلةً صادقةً.

مع ذلك، فرض الوجودُ البيزنطيُّ في شِمَال العراق على هرقلَ رغبةً إضافيَّةً في محاولته الاحتفاظ بميزوبوتاميا العليا في ولايتي (أوزروني) و(ميزوبوتاميا) كي يمكنه الحفاظ على وسائل المواصلات والقدرة على تزويد الحاميات البيزنطية في العراق. ومن حيثُ إنَّ بعضَ القوى البيزنطية رسم لهُ أن يبقى في العراق، فقد كان يدور في الخلد افتراضًا، أنه من المحتمل أن يقوم عملٌ عسكري مبرمج تجاه المسلمين، يمكن أداؤه بنجاح. وبالطَّبع، هذا لم يحدث قط. والسؤال الأساس هو ثقة الروايات المتعلقة بالوجود البيزنطي في فارس، وبالوجود الفارسي في الأراضي البيزنطية. ثمة أعداد كافية من البيزنطيين مروية أخبارها حيثُ يمكن أن يُقَرِّر أن وجودًا متداخلاً كان قائمًا. ولعل الذين خسروا النزاع المدني في فارس وجدوا لهم أعمالاً عند البيزنطيين، ولعل هرقل كان يود أن يفيد من التجربَة الفارسية في إدارة سوريَة والدفاع عنها في مواجهة البدو. إن الواحد يود لو أنه كان أوثقَ معرفةً بنصِّ الاتفاقات بين شهرباراز وهرقل في أرابسّوس (يوليو) سنةَ (8 هـ / 629 م) وهي حاجةٌ ماسَّةٌ لتفهُّم المشكلاتِ.[27] من المحتمل أنَّ ثمَّةَ مصاعب في إخراج جميع القوَّات الفارسيَّة من شِمَال ميزوبوتاميا. ويبدو من الضروري أنْ يقومَ ثيودور بمحاصرتها في أديسًا، في سنة (8 هـ/ 629 هـ) أو (9 هـ/ 630 م). ويبدو أنَّ بعضَ الفرس بقيَ في سوريَة، في وادي البقاع في بَعْلَبَكّ، على سبيل المثال، بعد أنْ انسحبَ سواهُ من الفرس من مناطقَ احتلَّهَا من قبلُ، وفقًا للاتفاق الذي وقّع في تمُّوز (يوليو) سنة (8 هـ/ 629 م) مع شهرباراز في أرابِسّوس.

لا يمكن تحديد، على نحو مؤكَّد، عددُ القوَّات الفارسيَّة في الأراضي البيزنطيَّة، ولا عددُ القوَّات البيزنطيَّة في الأراضي الفارسيَّة، ولا نوعيَّةُ الفريقين. ولكنْ، ممَّا لا ريبَ فيه أنها ما كانت تستطيعُ البتَّةَ أنْ تنتهي إلى تطوير مقاومةٍ ناجحة في وجه المهاجمين المسلمين. ومع ذلك، فلم تعدّ ممتازة، حتى إنَّ هرقلَ سحبهما لاستخدامهما في مكان آخر، لما ازداد الضغط. ليس ثمة ما ينبئ عن هرب فرس إلى أراض بيزنطية بعد هجمات المسلمين أو في



أثناءها، مع أنَّه يقال: إن أحدَ أبناء شهرباراز انتقل إلى المسلمين، أو على الأقل فاوضهم، مدعيًا الفِرَار، لكنَّهُ أعدم في النهاية بحكم أنَّهُ مشتبهٌ به. وهناك عددٌ من المُعْضِلاتِ التي تنتظرُ المزيدَ من التقصي العلميِّ.[28]

وفي الختام، لقد خلفت الحرب الحديثة الطويلة مع الفرس آثارًا كثيرة في الحروب بين البيزنطيين والمسلمين. وتظهر صحَّةُ هذا خاصَّةً على ميزوبوتاميا البيزنطيَّة. إنَّ وجودَ موظفين بيزنطيين في جزء من شِمَال العراق، وكذلك وجود القوات هناك جعلا محاولة الاحتفاظ بميزوبوتاميا البيزنطية أمرًا مرغوبًا فيه كثيرًا، للحفاظ على خطوط المواصلات والمقدرة على تزويد الآخرين بالعون. لقد جعل هذا الوجود ميزوبوتاميا وشِمَال سوريَة وطرقهما ومدنهما أكبر أهمية. وقد عقّدا تعقيدًا جديًا اتخاذ القرار بشأن الدفاع عن سوريَة وميزوبوتاميا البيزنطيتين. لقد أصبح قرار الانسحاب من ميزوبوتاميا أصعب بكثير لما أصبحت لديهم التجربَة الجديدة في احتلال جزء من العراق. وقد نتج من هذا الوضع تلكؤ طبيعيّ بالتخلي عن هذا كله، مع أنَّ هذا كان القرارَ المعقول الذي يجب أن يُتَّخذ في تلك الأحوال. وإذا استثني التقليلُ من شأن الوضع الآني والمتفجر، العسكري والمدني والكنسي في تلك المناطق، فإنَّ التعرُّفَ إلى شخصيَّةِ القوَّات البيزنطيَّة في فارس السَّاسانيَّة، ووجود الفرس في أرض البيزنطيين قد لا يبدّل، في موازين الأمور، الكثير من الذي نعرفه. لكنه قد يزودنا بتفهم للتاريخ أوفى وأدق.

### 7. 3) ميزوبوتاميا في نظرِ هرقلَ

برأي معاصريه، لا بد من أن للانتصار الأخير الذي حقَّقَهُ هرقلُ على الفرس، مع الفروق الكبيرة السلبية في قوة الطرفين، أثرًا، على نحو قوي، في التصورات والتقديرات عن الاستراتيجية والعمليات الحربية بعد احتلال فارس. من وجهة النظر الإسلامية، يشير التصوُّرُ إلى أنَّ الحؤولَ دونَ العودة إلى التجنيد البيزنطيِّ الناجح بين الأرمن وسوى ذلك في القوقاز كان أمرًا منذرًا بالخطر، وهذا ما أثبت أهميته لهرقل في عشرينيات القرن السابع.[29] وفيما يخص المصالح الحربية للمسلمينَ، كان فتحُ ميزوبوتاميا، إضافةً إلى أنه يزيل هذا

النتوء البيزنطي أو التهديد للمواصلات، في الحقيقة الاستهلال الضروري لأي جهد للاستيلاء على الولايات البيزنطية الأربع في إرمينية، من ثَمَّ التفويت على هرقل الوصول إلى المدد الأرمني. ليس ثمّة إشارة إلى هذه الدوافع في المصادر الضئيلة الموجودة؛ إنها تطفو على السطح، على نحو سهل، من أيّ تدبر للوضع الحربي في ثلاثينيَّات القرن السابع وما سبق ذلك مباشَرة من الأحداث الحربيَّة التاريخيَّة التي يمكن أن تزود أولئك الذين قد يتخذون قرارات حربية بإطار إشارات توضيحية.[30]

لعل البيزنطيين، بمن فيهم هرقل ومستشاروه، كانوا يحدسون، ولو عبثًا، في احتمال أن يعود بعض ما كان من تعافٍ وحملات معاكسة درامية في عشرينيات القرن السابع. وقد نتج من ذلك أن بيزنطة، بعد تخليها عن القسم الأكبر من سوريَة، ظلت متمسكة بقوّات متوزّعة، على نطاق واسع، في مصر وموزوبوتاميا، إضافةً إلى حاميات معزولة تمامًا في موانئ فِلَسْطينية مثل قَيْساريَّة وغزة. وباختصار كانت القوات البيزنطية التي ظلت في المنطقة موزعة في جهات متباعدة جدًا، حيثُ إنها كانت علجزة عن التجمع في مكان واحد.[31] وقد كان للمسلمين موقعٌ مركزيٌ إذْ كانوا يستطيعونَ الضَّربَ منه بحريَّة، غربًا وشِمَالاً، وشِمَالاً في شرقٍ.

إنَّ استمرارَ الاحتلال البيزنطي لميزوبوتاميا في سنتي (16-17 هـ/ 637-638 م) والمحاولات التالية لإرسال قوات إضافية إلى هناك بقيادة الجنرالين داوت (دافيد) أُرطايا وتيطس في سنة (19 هـ/ 640 م) حولت المسلمين مؤقتًا من القيام بهجمات جدية على الأناضول أو على القُسْطَنْطِيْنِية، ولعلَّها يسَّرت أيضًا فسحة راحة إضافية مهمة لاتباع سياسة الأرض المحروقة في قيليقيا، ومثلها السياسة التي درست بعناية أكبر، وهي تحصين المواقع الرئيسة في آسيا الصغرى، بما في ذلك المجازات الجبلية وتوزيع القوات على هذه المواقع ذات الأهمية الدفاعية الخطرة. ومع ذلك، فإنَّ ميزوبوتاميا أفرغت مصر من قوات بيزنطية مهمّة، وأقصت عنها التفكير بحمايتها؛ ومصر كانت هدفًا أكثر إغراء للمسلمين ألقته المناسبة أمامهم.[32] كانت ميزوبوتاميا تقوم في نهاية خط



معقد من المواصلات عبر ولايتي إرمينية الأولى والثانية، وكانَ الحفاظُ عليه صعبًا بعد خسارة ما تبقّى من سوريَة الشَّمَالية (الولاية الفراتية وأَنْطَاكِيَة).

لم يكن القرارُ البيزنطيُّ محاولة الاحتفاظ بميزوبوتاميا جزءًا من أيِّ استراتيجيَّة ذكيَّة عظيمة. لقد كان بقية موضعية، تجاوزتها الحملاتُ المسلمة الرئيسة في حالات معينة، وكان هذا الاستمرار في البقاء لهذا النتوء [ميزوبوتاميا] يؤدّي إلى مضايقة الحكم الإسلامي لسوريَة، أو يكون تهديدًا خطرًا لذلك، ولتثبيت السُّلْطَة عليها وعلى العراق. وقد بدا حالاً بعد ذلك أنَّ الإمبراطورية البيزنطية كانت تنقصها الموارد اللازمة لعودة تشبه تلك التي تمت في ثلاثينيَّات القرن السابع بوجه الفرس؛ لكنَّ هذا الأمر يمكنُ أنْ يتأكَّدَ الواحدُ منّا منهُ بإعادةٍ للنظر في أحوال مريحة، لا في سنة (15 هـ/ 636 م).

يجب أن نتساءل: لماذا جرَّب هرقلُ أن يحتفظ بميزوبوتاميا بعد خسارةِ سوريَةَ؟ لماذا لم ينسحب منها في الوقت نفسه الذي تخلى فيه عن سوريَة؟ ولا سيَّما أنه انتشرَ هناك انتشارًا واسعًا؟ لقد عمل عربُ كعناصرَ كبرى في جيوش هرقلَ التي قاتلت في سبيل الدِّفَاع عن سوريَة وفِلَسْطين البيزنطيَّتين. إنَّ الجهدَ الذي بذله أبو بكرٍ وعمرُ للتحكُّم بالعرب جميعهم جرّد بيزنطة في الواقع من مصدر كبير للقوة الحَربية الجيدة التي كانت بديلة من الأرمن.

كان هرقل الإمبراطور البيزنطي الوحيد، بعد يوليان في القرن الرابع، الذي زار، في إبَّانَ حكمه، ولايتي أوزروني وميزوبوتاميا كلتيهما لما كانتا بعد تحت النفوذ البيزنطي (إنَّ احتمالَ حدوثِ اختراقات عسكريَّة سريعةٍ يقومُ بها أباطرةٌ يغزون في القرون الثَّامنِ والعاشرِ والحادِي عشرَ لا صلةَ لهُ بالموضوع هنا، ولا ينقصُ أهميَّةَ هذه المسألة). لقد أتيحت له الفرصة ليدرك أهميتها الحربية لما اجتازها في حملاته سنة (2 هـ/ 624 م) وعند عودته من فارس في سنتي (7-8 هـ/ 628-629 م) وأيضًا في أثناء إعادة بناء كنيسة أميدا [آمد – ديار بكر] زُهَاء سنتي (7-8 هـ/ 628-629 م) ومرَّةً أخرى في سنتي (10-12 هـ/ 631-633 م) عند تعيين الحدود البيزنطيَّة الفارسيَّة في ميزوبوتاميا بعد الانسحاب الفارسي، وخلال محاولاته تسوية الخلافات الدينيَّة المسيحيَّة. وكان أخوهُ ثيودور

سَلَخَ أيضًا وقتًا هناك في حصاره إديسّا والاستيلاء عليها من الفرس ومن اليهود المتمردين. لم يكن من اليسير أنْ يتخلَّى عن الجهد الذي بذله هو وأسرتُهُ في سبيل ميزوبوتاميا البيزنطيَّة.

يجب أن يتخلى الواحد منا عن الرؤية العالمية التي تنطلق من القُسْطَنْطِينِية، وقتًا، ويفكر من حيثُ أصولُ هرقل في إرمينية، أو، احتمالاً، في (ثيودوسيوبوليس) الأرمنية؛ أي: (إرزروم) الحديثة في تركيا. يجب على الواحد منا أنْ يتذكر والدَ هرقلَ، هرقل الأكبر، الذي سَلَخَ جزءًا مُهمًّا من حياته في ثيودوبوليس أخرى، تلك هي البيزنطية في ميزوبوتاميا وما حولها، حيثُ حقق مركزًا حربيًا ذا شأن في سنة (587 م). من المحتمل كثيرًا أن هرقل الأكبر بيّن لابنه، الذي أصبح الإمبراطور هرقل، ميزات ميزوبوتاميا البيزنطية وأهميتها.[33]

## 4.7) الهدْنَةُ في خلقيس / قِنَّسرِيْن

إنَّ الناحيةَ المفصَّلة الأكبر أهمية التي أهملت في دراسة لملمة الأمور في سوريَة الشّمَالية، وهي أنه لم يكن ثمة استسلام آني للمسلمين في سوريَة بعد معركة اليرموك مباشَرَةَ في (20 من آب / أغسطُس 636 م/ رجب 15 هـ) من المحتمل أنْ تكونَ فرقة سريعة بلغت ميليتين [مَلَطْيَة] بقيادة عياض بن غَنْم، لكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بها أمام الهجمات البيزنطية المعاكسة. والمعقل الحصين في شِمَال سوريَة، خلقيس، تم تجاوزه، وظل في أيدي البيزنطيين إلى أن فاوض باتركوس (Patricus) مع أبي عبيدة، وعقد معه هدنةً سنةً واحدةً، اشتُرط فيها تسليمه إلى المسلمين عند انتهاء تلك السنة كاملة. إن مصدر هذه الهدنة هو يوتيخيوس، الذي هو مصدر موثوق به. ويضيف كل من الواقدي، الذي هو، من المؤكد، مصدر أقل اعتمادًا وأغابيوس المنبجي أيضًا بعض التفاصيل. لقد كان للهدنة ملابسات بشأن ميزوبوتاميا.[34]

قال الرَّاويَة البيزنطي ثيوفانس، وكذلك ميخائيل السوري: إنَّ جون [يوحنا] كاتياس الحاكم (Curalor) البيزنطي لولاية (أوزروني) الذي كان يديرها من مدينة إديسّا جاء قِنَّسْرِيْن (خلقيس القديمة وقرية العِسّ الحديثة في سوريَة، المفروض أنَّ ذلك كان في سنةِ (16 هـ/ 637 م) (إلا إذا كان ثَمَّةَ التباسٌ مع سنة



(17 هـ/ 638 م) وعقد اتفاقًا مع القائد المسلم عياض بن غَنْم على أن يدفع (100.000) نوميسمات ذهبية سنويًا، وفي مقابل ذلك، ما دام المبلغ يدفع باستمرار، وافق عياض والمسلمون على «ألا يُجاز الفرات، سلمًا أوحربًا، مادام البيزنطيون يقومون بدفع المبلغ من الذهب». من المحتمل أن يكون النص اليوناني إعادة موثقة لأصل ضم الممنوعات العربية لعبور النهر صلحًا أو عَنْوَة؛ أي: إنَّ العرب وافقوا على سلام في سبيل ترتيب الهدنة. هذا الاتفاق الذي قبل به المسلمون ألا يعبروا الفرات حمى الأراضي البيزنطية في ميزوبوتاميا من أن تستخدم حركات التنقل الموسمي في سبيل إدخال عرب عبر النهر.[35] وربما يحار الباحثونَ في الشؤون العربيَّة: هل كانَ النصُّ، أي: المصدرُ الشرقيُّ لثيوفانس، يعودُ إلى زمن متأخِّر، وذلك بسبب من فرضيَّتِهم أنَّ تقليدًا (صلح عنوة) هو اختراعٌ متأخِّرٌ تقريبًا ؟ لما بلغ هرقل خبر هذا الاتفاق صرف جون [يوحنا] كاتياس، ونفاه، واستبدل به بطوليمايوس (جنرال من نوع معين) الذي رفض تمديد الهدنة على الأسس السابقة لما انتهى العمل بها.

أدَّى تعيين بطوليمايوس، ورفض دفع الضريبة حالاً إلى مهاجمة عياض ابن غَنْم المنطقة: وإذ عبر الفرات استولى على كلينيكوم [الرَّقَّة] وإديسّا، وبعدها فرض شروط تسليم مماثلة على جميع مدن المنطقة التي سقطت جميعها خلال عام واحد.[36] ويطلق الكوفيُّ على باتريس (Patrician) إديسّا اسم ميتولوس؟ وهو لا يعرفُ عنه سوى هذا.[37] ويؤكد الكوفيُّ أن هرقل، وهو في حالة غضب، وضع «أقياطًا» في كلينيكوم/ الرَّقَّة بعد استعادتها من الفرس. هذا القرار أثار حنق الباتريس بنتوس، الذي لا يرد اسمه إلا هنا، والذي فاوض عياضًا وسواه من النخبة المحلية على الشروط.[38] ولعلَّ العداء الذي يعود تاريخه إلى القضاء القاسي الذي أنزله هرقل وأخوه ثيودور لما استُردّت من الفرس الذين كانوا يمثلونها أدَّى إلى نفورِ فئات من أهل القيادات المحلِّيَّة، وهيَّأهَا للتفكير بالتفاوض مع المسلمينَ في سبيل التوصّل إلى اتفاق معهم. كان القليلُ من المدن فقط يحتاج إلى هجوم عنيف قبل أن يقع الباقي في أيدي المهاجمين المسلمين. ووقع الهجوم سنة (17 أو 18 أو 19 هـ)؛ أي: في سنة (638–640 م) ومن المحتمل أن عياضًا أتم الفتح سنة (19 هـ/ 640 م). لقد قاومت تِلاّ

وداراوراس العين (ثيودوسيوبوليس) بضراوة؛ وقد قتل بعض سكانها، لكنَّها جميعها سقطت.(39)

لقد احتاج فتح المسلمين ميزوبوتاميا إلى قليل من الزمن، ولم يقتض قيام معارك مهمّة أو تبديلاً ذا قيمة في التكتيك العسكري. لقد كان التفوق العددي على القوات البيزنطية كاملاً، ومن المؤكد أن قائدها، بطوليمايوس لم يرغب في تعريض ما تبقى من القوات القتالية لخطر الإبادة في قتل لا أمل فيه. ويؤكد أغابيوس هذه المعلومة، لكنه يسمّي الحاكم باول [بولس] الذي، على ما يؤكّده أغابيوس، نفي إلى إفريقيَّة.(40) من الخطأ أن يُحسب أن صغار الملوك والأمراء، الذين يُعْوِزُهم التأكيد المستقل في ذلك، كانوا يحكمون المدن المختلفة في ميزوبوتاميا البيزنطية عشية الفتوح الإسلامية: إن هذه الأحوال لا يمكن تصورها هناك بعد الاستعادة البيزنطية.(41)

يبدو أنَّ هرقلَ كان يرغبُ من جون [يوحنا] كاتياس في أنْ يحتفظَ بميزوبوتاميا دونَما قتل: «لا تسمح لأحد أن يُجَر إلى مزيد من القتال مع الطائيين [العرب] لكنْ دعْ كلَّ مَنْ يستطيع التمسك بموقعه أن يظل فيه».(42) هذا الأمر يتفق مع أمره السابق إلى ثيودور تريثوريوس قبل معركة اليرموك بوجوب تجنب معركة مكشوفة مع المسلمين. لعلَّ هرقلَ غضبَ على جون [يوحنا] لأنه عقدَ صلحًا دون ترخيص منه، أو لعله أراد أن يستمرَّ الضغطُ في كلِّ مكان، ومن ثَمَّ يحول دون المسلمين وسحبهم قوات من منطقة الفرات لاستخدامها بوجه المواقع البيزنطية المكشوفة.

لعلَّ الخلفيَّة التاريخيَّة أصابها التشويهُ بسبب عددٍ من المشكلات بما في ذلك انعدام الفَهْم الصَّحيح لأسماء البقاع في سوريَة، وبخاصة، خلقيس القديمة أصبحت قِنَّسْرِيْن في العصور الوسطى. لقد عاق الفهم المتضارب والمتناقض لتعرُّفِهَا الإدراكَ البحثيَّ للأهمية الصحيحة لخلقيس في رواية المصادر للأحداث.(43) لقد وقَّع جون [يوحنا] كاتياس الهدنة التي حفظت ميزوبوتاميا عند خلقيس لأجل مؤقت. والموقِّع المسلم كان عياضًا بن غَنم أو، كما يروي ذلك يوتيخيوس، أبا عبيدة الذي كان القائد الأعلى لعياض بن غَنْم.(44) ولم



يقتصر مداها على ميزوبوتاميا فحسب ولكن، كما يبدو، بعض شِمَل سوريَة أيضًا؛ في أيِّ حال، فإنها شملت المنطقة الاستراتيجية المحيطة بالمنطقة العُقْدية لخلقيس / قِنَّسْرِيْن.

لعلَّ فتحَ أبي عبيدة بَالِس وقاصرين الذي رافقه انسحابُ عددٍ كبير من اليونان إلى الإمبراطوريَّة البيزنطية وميزوبوتاميا وجسر منبج كان جزءًا من الهدنة نفسها، ومن ترتيب إجراءات الانسحاب التي أجراها أبو عبيدة في قِنَّسْرِيْن. ويبدو أن أبا عبيدة تقدم حتى الفرات في سنة (16 هـ/ 637 م) حيثُ توقف. وقد كان هذا سابقًا لأي اجتياز للمسلمين للفرات، كما أنه سبق الصلح الذي عقده البيزنطيون في قِنَّسْرِيْن في سبيل حماية ميزوبوتاميا البيزنطية، على رواية ثيوفانس. إن رواية البلاذري عن بَالِس وقاصرين فصلت في الذاكرة التاريخية عن الأحداث التي جرت في قِنَّسْرِيْن.(45) وكان ثمة هدنتان عقدتا في قِنَّسْرِيْن: واحدةٌ يشيرُ إليها يوتيخيوس سبقت تلك التي يذكرها ثيوفانس وميخائيل السورية وأغابيوس.(46) ومع ذلك، فلعلَّهُ لم يكن هناك سوى هدنة واحدة فحسب، وإن الأخطاء التأريخية أوجدت الأساس الملتبس لافتراض هدنتين اثنتين. ولعل الباتريسيان الذي عقد الهدنة في قِنَّسْرِيْن في سنة (16 هـ/ 637 م) أصلاً حصل على إذن من هرقل، أو أنه لم يحصلْ على ذلك لعقد هذا الاتفاق.

كان البيزنطيونَ يشرفون على خلقيس، على الأقل اسميًا، في وقت توقيع الصلح. وكان لا يزال في خلقيس باتريسيان بيزنطي مجهول الاسم، ومن المحتمل أنه كان شخصًا يختلف عن جون [يوحنا] كاتياس الذي جاء من أوزروني ليوقع اتفاقية الصلح، على ما يبدو واضحًا عند يوتيخيوس، الذي يظهر أنَّ روايته تخفي وراءها أنَّ الهدنة تنسحب على ميزوبوتاميا، وربما لأنَّ يوتيخيوس كان معنيًا مبدئيًا بأحداث سوريَة. وفي كلتا الحالتين، فإنَّ هاتين الهدنتين، أو لعلَّهما كانتا عنصرين من هدنة واحدة، ثبتتا مؤقّتًا وضعًا حربيًا كان متقلبًا، وبَلَغَ من الخطورة الغاية. لقد حَالَتَا دون المسلمين والإفادة من إمكان القيام بتغلغل واختراق عميقين. لقد تلقى المسلمون نقودًا، وأصبحتْ

لديهم فرصةُ تثبيت مكاسبهم، كما أصبحَ يمكنُهُم أنْ يتخلَّصُوا من فئاتٍ من السُّكَّان المحليين كانوا أعداء للحكم الإسلامي الجديد.[47]

لقيت الأهمية العسكرية لمنطقة خلقيس للدفاع البيزنطي المبكّر اعترافًا بذلك منذ مدة طويلة، هذا مع العلم أنَّ الباحثين لم يتمكَّنوا من أن يحلوا ألغاز المعاقل والأبنية التي تعود إلى فترات مختلفة على نحو مطلق في الوضوح.[48] وظهرت استنتاجات موتارد وبواديبار متأخرة جدًا حيثُ لم يتمكن كيتاني وسواه من المستشرقين من الرجوع إليها لما كانوا يحللون الفتوح الإسلامية. وكانت خلقيس مفترقًا حيويًا للطرق حيث سيطرت على تقاطع المواصلات الشرقيَّة الغربيَّة بين أَنْطَاكِيَة والفرات مع الطرق الشّمَالية الجنوبية بين حمص ودمشق ومدن سوريَة الداخلية، وإديسًا وميليتين [مَلَطْيَة] وسواهما في شِمَل سوريَة من معاقل عسكرية ونقاط تقاطع طرق. فقد كانت الموضع الأنسب منطقيًا لمحاولة إقامة خط دفاعي بيزنطي ثانوي لحماية جزء كبير من شِمَل سوريَة، بعد هزيمة اليرموك. لقد حفظ التحكم فيه للبيزنطيين، مهما كان ذلك مؤقتًا، مناطق زراعيَّة ثمينة وغنيَّة بإنتاج الزيتون هي (الهضبة الكلسية) في شِمَل سوريَة، كما أنها كانت أيضًا تحمي ميزوبوتاميا البيزنطيَّة.[49] فكانت محاولة الحفاظ عليها، بالهدنة، عملاً استراتيجيًا سليمًا.

مددت فترةُ شروط الصلح في الأراضي البيزنطية عبر الفرات؛ أي: ميزوبوتاميا وأوزروني، حتى سنة (18 هـ/ 639 م) لما قام المسلمون بالهجوم بدعوى أنَّ البيزنطيين قصروا في دفع الضريبة المعينة. هذه المقولة لهُ نواحيها السياسيَّةُ. لعلَّ المسلمين عرفوا أن طلب البيزنطيين الهدنة كان وراءه غرض خفي هو الرغبة في استدعاء رجل إضافيين بقصد القيام إما بصد معاكس أو بهجوم معاكس. لكنَّ خطوط الهدنة المؤقتة تقاطعت مع دروب كان العرب المتنقلون موسميًا غالبًا ما يجتازونها قبل الحملات الإسلامية. ومن ثمَّ، كان الحدُّ الذي اتُّفِق عليه في ميزوبوتاميا ذلك الذي قبلته السلطات البيزنطية بسبب خوفها من أن يجتازهُ العربُ سلميًا ثُمَّ يوقعوا الأذى في القوَّات البيزنطيَّة



والسلطات والمنطقة.

قوت خيبةُ أملِ هرقلَ في الجنرال مانول في مصر وفي حاكم أوزروني وميزوبوتاميا جونٍ [يوحنا] كاتياس تصميمه على أنْ يحتفظ بإشراف إمبراطوريٍّ مركزيٍّ دقيق على حدود الإمبراطوريَّة. وهو لم يكن راغبًا في أنْ يرى العلاقات الدبلوماسيَّة تقعُ في أيدي السلطات المحليَّةِ، ولا سيَّما إذا كانت هذه تقصر عن استشارته في أمور مهمة.[50] وكان يود أن يحتفظ لنفسه بتنسيقها والموافقة عليها. وعلى غرار ذلك، لما أصدر أمره إلى المسؤولين المحليين أن يصمدوا أمام المسلمين ما دامَ ذلك ممكنًا، على ألا يقابلوهم في المعارك المكشوفة، فإنَّهُ كان يحاولُ وضع الخطوط الرئيسة لسياسة عامَّةٍ، ولإرشاد المديرينَ المحليِّينَ كي يحولَ دون وضع ترتيبات محليَّة عشوائيَّة مؤذية مع المسلمين حيثما كان ذلك ممكنًا.[51] وكان هذا أيضًا جزءًا من خطة لوضع أسلوب واضح يمكن بموجبه أن تَصِلَ السلطة الإمبراطوريَّة مباشَرة إلى أطراف الحدود.

لقد منع اتفاق خلقيس الاتجار أيضًا، وبذلك، فقد اشتد الضغط إلى درجة ما، على الاقتصاد، ولا سيَّما التجارة. لقد كان ذلك متسقًا مع الاتفاق الذي تم في بَعْلَبَكّ، والذي أشار إليه البلاذُريُّ، وفيه أنَّه لا يجوز لليونانَ أنْ يتاجروا خارجَ المناطق التي عقدت صلحًا مع المسلمين. لقد فعلت الضغوطُ التجاريَّة والمواصلاتيَّة والاقتصاديَّة الدقيقةُ فعلها لمصلحة المسلمين، لكنَّهُم هم أيضًا تأذَّوْا بعض الشيء من هذه التمزقات. ومن المحتمل أنَّ القادةَ المسلمين كانوا يعون أهمية الدور الكبير للاقتصاد في الفتح. ففي أثناء فتح فِلَسْطين وسوريَة قطع المسلمون التجارة كي يضغطوا على المدافعين البيزنطيين.[52] وكان لأعمالهم هذه أثر في الاستيلاء على الأمكنة المحلية.

اشترطت معاهدة الخمسين سنة بين الإمبراطورية الفارسية وبيزنطة المعقودة سنة (561 م) على العرب أن يلتزموا بالشروط الأخرى: ألا يهاجموا البيزنطيين أو الفرس، وألا يتنقل التجار السراسينيون عبر طرق غريبة، أو أن يجتازوا إلى أراض أجنبية من دون إذن رسمي. وكان الغرض من هذه الشروط التحكم بتنقلات البدو على نحو شبيه بالشروط التي جاءت في معاهدة خلقيس بين المسلمين والبيزنطيين التي من المحتمل أنها كانت سارية المفعول في سنتي

(17-18 هـ/ 638-639 م). ومن ثَمَّ، فقد كانتْ ثَمَّةَ خلفيةٌ لهذه المفاوضات الدبلوماسية، وللجهود التي ترمي إلى تطوير أمان وتحكّم شاملين بشؤون البدو. والمنطقة التي هي موضوع البحث في سنتي (17-18 هـ/ 638-639 م) تداخلت، في الواقع، مع تلك التي شملتها المعاهدة البيزنطيَّةُ الفارسيَّةُ سنةَ (561 م).[53]

كانَ الصلحُ الذي عقدَهُ القائدُ أبو عبيدةَ في بَعْلَبَكّ مساويًا مُهمًّا، ولعلَّهُ تأكيدٌ محتمل للاتفاق في قِنَّسْرِيْن أو خلقيس. إنَّهُ لا يؤكِّد التاريخَ على نحوٍ محدَّد، لكنَّه يزودنا بتوثيق إضافي لفترات معينة وطويلة تقريبًا خلالها ربما كانَ اليونان [الروم] يُخلون البلاد سلميًا، وهذا هو صيغة مميزة للهدنة في قِنَّسْرِيْن، على ما ورد عند المؤلفين المسيحيين الوارد ذكرهم قبلاً. من المحتمل أن صَلح بَعْلَبَكّ عقد في وقت متأخر من سنة (15 هـ/ 636 م) بعد سقوط دمشق في (كانون الأول\ ديسمبر 636 م/ ذي القِعْدَة 15 هـ) وأذن لليونان أن يَشْتوا في منطقة بَعْلَبَكّ، وأن يتنقلوا فقط في (أيَّار وحَزِيْرَان / مايو ويونيو 637 م الموافق لشهري ربيع الآخر وجمادى الأولى سنة 16هـ). هذان التاريخان متفقان مع تاريخ لسنة (16 هـ/ 637 م) وهو تاريخٌ لصلح عقدَهُ أبو عبيدةَ أو عياضُ بنُ غَنْم مع باتريسيان قِنَّسْرِيْن البيزنطي لهدنة سنةٍ محدَّدةِ الخط كي يتمكن اليونان من الجلاء.[54]

جاء في عِداد الشروطِ الفصلُ بينَ اليونان (الروم) في منطقة بَعْلَبَكّ، وسواهم من بقية السكان المحليين. ولم يكن يجوزُ لهم أنْ يتنقلوا قرب المدينة، أو أن يرتحلوا حتى (أيَّار/ مايو سنة 637 م الموافق شهر ربيع الآخر سنة 16 هـ) أو أنْ يسكنوا أمكنة محصَّنَةً أو مأهولةً، إذا كان ثمة احتمل أن يتخذوا هذه الأمكنة للتحصن فيها. ومن المؤكَّد أنه لو أقفل الحد الشّمَالي دون تحركهم، فإنَّ هذا يحتّمُ على اليونان أنْ يظلوا مستقرين إلى أن يحين فتحه. لقد كان في السماح لهم بالحركة، ومعهم دوابهم، خطر قتال مع القبائل، ونزاع على موارد الغذاء وحقوق الرعي الموسمية. ويدل صلح بَعْلَبَكّ على أن المسلمين سمحوا لليونان (الروم) بأن يرحلوا بانسحابات متدرجة زمنيًا مع الاهتمام الصحيح بمصلحة أولئك السكان الذين كانوا يرغبون في الرحيل.[55]

لقد أذنت الاستراتيجيَّةُ الإسلاميَّةُ لمن رغب في ذلك من غير المسلمين بأنْ



يَخرجَ عن المناطق المفتوحة، ومعَهُ أملاكُهُ المنقولَةُ أحيانًا. وكانوا يستطيعونَ الانتقالَ حيثُ شاؤوا إلى الأراضي البيزنطية مثلاً. وأعطى خروجهم المسلمين فرصة، إذا رغبوا في ذلك، للاستيلاء على أملاكهم وتوزيعها في الريف والمدن. مثلُ هذه السّياسات لم يكن، بالضرورة، مستحدثًا فريدًا للمسلمين، بل كانَ تطويرًا لسياساتٍ كان الرُّومان المتأخِّرُونَ والبيزنطيونَ والفرس ساروا عليها في القرن الرَّابع.[56] كان هذا سبيلاً جيدًا للتخلص من هؤلاء، إذ إنَّ خروجَهُم أدَّى إلى إخلاء مناطق من قوم خصوم بقدر المستطاع، وكان خلفية مناسبة، فيما تلا من جهد، لإقامة (منطقة دمار) بين البيزنطيين والمسلمين. كان من الأفضل أن يسمح لخصوم الدولة من غير العرب الأشداء بأن يرحلوا، وبذلك يمكن تجنب أن يصبحوا طابورًا خامسًا متذمرًا خلف خطوط المسلمين. ويبدو أنَّ إجلاءَ اليونان عن المناطق المحتلة حديثًا عولج بكثير من العناية من جانب الفريقين في عدد من المواقع.

لم تكن المسألةُ هل أرادَ المسلمونَ أنْ يكونَ ثَمَّةَ حدٌّ دائمٌ مع البيزنطيينَ؟ من المؤكَّد أنهم لم يريدُوا ذلك الحدَّ الدَّائم، لكنَّ إشاراتٍ وردَتْ في عددٍ من المصادرِ الأوليَّةِ من كثيرٍ من الرّوَايات الإثنية المختلفة تشير إلى أنَّ المسلمين، لأسبابٍ متعدّدَةٍ، وافقوا على، أو لعلَّهُم رغبُوا في، نوعٍ من الحد المؤقّت بين المناطق المحتلة حديثًا، والتي يسيطر عليها المسلمون، وتلك التي كانت لا تزال تابعة للسلطة البيزنطية.

يبدو أن خط الهدنة بدأ في مكان ما جنوبي قِنَّسْرِيْن. وثمة تمثل لهرقل وهو جالس على حجر أو جذع أو عمود كان يشير إلى خط التحديد، والمفروض أنه أقيم، ولو أن المصادر لا تقول هذا بوضوح، على طريق أو درب تكثر عليه السابلة حيثُ يمكن الناسَ أنْ يروه. يبدو أنه كان تشخيصًا نُقِشَ على حجر، ولم يكن تمثالاً نصفيًا أو كاملاً، وضع في مكان ما في شِمَل سوريَة، ولم يكن مجرى نهر الفرات فحسبُ، وإلاّ، فالإشارةُ إلى موقع التمثل النصفي للإمبراطور لا معنى لها. مع ذلك، فإنَّ إقامةَ هذا الرسم على عمود هي معلومة تفصيلية ثمينة تؤكد حماسة البيزنطيين وإحساسهم لحماية شرف الإمبراطور ومنزلته، ولا سيَّما في حالات انسحاب عسكري مُربك، بل مُخزٍ في الواقع،

من أراضٍ ثمينة. يروي يوتيخيوس أنَّ مُسْلِمًا طمس عينَ هرقلَ على ذلك التمثال بينما كان يمارسُ الفُرُوسيَّةَ، لذلك أقدم أبو عبيدة، استجابةً للاحتجاج البيزنطيِّ، على أنْ يقامَ للفارس نفسِهِ تمثالٌ، وأنْ تُسْمَلَ عينُهُ.[57]

ثمَّةَ تماثلاتٌ تاريخيَّةٌ للقصَّة المروية أعلاه عن يوتيخيوس، وليس ثمَّةَ ما يدعو إلى عدِّهَا من نسج الخيال. أولاً: إنَّ الرَّاوية السوريَّ جون [يوحنا] مالاس، من أهل القرن السادس، يقرِّرُ أنهم في أيام ديو قليتيان: «أقاموا نُصُبًا للإمبراطور والقيصر على الحدود السوريَّة».[58] ويروي مصدرٌ آخرُ أنَّ إتلاف تماثيل والتماثيل النصفية الخاصة بقسطنطين الأول في منطقة الحدود في أمونا (ليويليلانا الحديثة في يوغوسلافيا) سنة (324 م) اتخذت حجة لإعلان قسطنطين الحرب على ليسينيوس.[59] وقد روى المؤرخ الكنسي من أتباع الطَّبيعة الواحدة، وهو من أهل القرن السَّادس، أنه كان، في فارس المعاصرة له، ثمَّةَ احترامٌ لتمثال الإمبراطور تراجان، وخوفٌ منه في فارس السَّاسانيَّة إلى درجة أنه لم يجرؤ أحد على المرور أمامَهُ وهو ممتطٍ جوادَهُ. وفي الحقيقة، أثار التمثال نزاعًا بيزنطيًّا فارسيًّا شديدًا على الاعتراف الضمني الفارسي للسلطة الرومانية؛ إلى درجة أنَّ كسرى الأوَّل أمر بأن يهدم التمثال.[60] وما هو أكبر أهمية، على ما يقوله مؤلف ‹[المذهب اليعقوبي]› في القرن السابع عن أعمدة أو حجارة حدودية من الرخام والملبسة بالنحاس لتعيين حدود الإمبراطورية المترامية.[61] كان ثمة سوابق لتعيين الحدود الإمبراطوريَّة، ولاحترام الفرسان تماثيل إمبراطورية بيزنطة بضعةَ عقودٍ قبلَ الحادثة المزعومة في خلقيس.

وأخيرًا، فهناكَ تقريرٌ عن سَلْخِ جلد اثنين من الموظَّفين حيَّين، وقتل سكان تفليس انتقامًا لكاريكاتير خبيث وتشويهِ تمثالِ خازار خان حليفِ هرقلَ،[62] الذي يبدو أنه شبيهٌ لرواية يوتيخيوس عن الهدنة في خلقيس. إنهما كليهما يضخِّمَان حساسية ملوك القرن السابع للإهانة التي كانت تلحق بتماثيلهم الخاصة بهم. وعلى كلٍّ، فإنَّ القصصَ تختلفُ واحدتُهَا عن الأخرى إلى درجة أنه لا يمكنُ عدُّها نَسْخًا فقط. في الرواية المتعلقة بتفليس ويبدُو التِّمْثَال وكأنه كاريكاتير متعمّد يثيرُ نوعًا من الانتقام العنيف بسبب الإساءة المقصودة، لا بنت المصادفة، لمقام خازار خان سنة (627 م). إن مصاب سكان تفليس الأخير



كان فظيعًا، وعلى خلاف كلي من النتيجة الإيجابية والسلمية للهدنة في خلقيس التي ظلت تحظى بالمحافظة عليها مع التمثيل الذي أصاب صورةَ هرقلَ، والذي جاء مصادفةً. من الممكن أنَّ أخبارَ النتائج الرهيبة التي نجمت من رسم كاريكاتير للخان أثارت رغبةَ المسلمين في تجنُّب إثارة حنق هرقلَ.[63] وإذا كان ثمَّة من أمر، فإنَّ الحادثةَ التي يرويها يوتيخيوس هي دليلٌ على أنَّ حرب البيزنطيين أمام المسلمين كانت أهدأ نبرةً من الحرب الأسبق إزاءَ الفرس وملكهم كسرى الثاني وحلفائه، وأصبحت حربًا كانت فيها إرادة المقاومة تدنَّت إلى النهاية. ويعكس الفرقُ الواضح في الحملتين صورة للموقفين البيزنطيين المختلفين نحو الخصمين المتواليين، الفارسي والمسلم، مع أنَّ الذين سخروا من الخان كانوا سكانَ تفليس في جورجيا.

تحمل معاهدتا خلقيس بعض أوجه الشبه لتلك التي ابتاعها سيروس، حاكم مصر البيزنطي، من أجل حماية مصر، على ما رواه ثيوفانس وأغابيوس. وقد غاب عن بال الذين يشكُون في تأريخية تلك الهدنية أن يتنبَّهوا على وجود تلك الهدن في مناطقَ أخرى كانت في طريق تقدُّم المسلمينَ. مع أنَّ من الصعب تصديقَ أنَّ المسلمين قد يقبلون هذه الهدن بنظرة منطقية، فربَّما كانتْ لديهم رغبةٌ أكيدةٌ في تثبيت مواقعهم، ثمَّ إنَّ ثمَّةَ الإغراءَ النقديَّ للضريبة الواقعيَّة الذي ربَّما أقنعهم بقَبُول ذلك. إنَّ الوصف الذي يرد عند أغابيوس وثيوفانس وميخائيل السوري ويوتيخيوس، ولعل الجميع استقوا من مصدر وحيد ذي أصل مسيحي سوري محتمل، يهدم، بكثير من الجدية، حجج المشككين في وجود أيِّ اتفاقية بين البيزنطيين والمسلمين على أمن مصر. ومن السُّخْف أن يُتغاضَى عن هذا كله. إنَّ بعض التفاصيل في الهدنة الخاصَّة بشِمَال سوريَة وميزوبوتاميا يصحُّ اعتماده، مع أنَّ أسئلةً كثيرةً تظلُّ غامضة. كانتْ ثمَّةَ هدنةٌ، بل في الواقع سلسلةٌ من الهدن، وقعتْ في حدودٍ مختلفة.[64]

### 5.7) القوَّادُ العسكريُّونَ يخلفونَ الحكَّامَ المدنيينَ

يقرِّرُ ثيوفانس وأغابيوس، أو على الأصح مصدرهما، أنَّ هرقل اغتاظَ من كلا الحاكمين البيزنطيين، من جون [يوحنا] كاتياس في أوزروني، ومن

سيروس في مصر. وقد جاء غضبه هذا نتيجة عدَّة أسباب، لعلَّ في مقدمتها الإنفاقَ والخسارةَ الملازمة له من الدخل الضرائبي للإمبراطورية البيزنطية في زمن المتطلبات المالية الكبيرة، إذ إنَّ الموظفين كليهما ابتاعا هدنتين مرتفعتي الثمن من المسلمين، وقد أزاح هذين الموظفين لأنهما قاما بهذه الترتيبات من دون استئذانه. استعاضَ هرقل عن جون [يوحنا] كاتياس بالقائد العسكريّ بطوليمايوس الذي كانَ يشغَلُ منصبَ قائد عسكري على غير تعيين قائد عسكري هي المقابل المألوف للكلمة اليونانية (ستراتيلانتس/ magister militum) ولكن لعلها، في هذا الزمن اللاحق، فقدت معناها الأصلي وأصبحت لقائد عسكري ما).(65) وعلى هذا النحو نفسه وضع مانويل مكان سيروس، وهو الذي كان يمتدح بأنه لم يكن «غير مسلح» بل كان «مسلّحًا». هنا قضيَّتان استبدل فيهما بالحاكمين المدنيَّين اثنان من الحكّام العسكريينَ، وهما تضيفان صدقًا لما أورده الكوفي والأزدي من أنَّ هرقلَ عيَّنَ حكّامًا عسكريينَ على مدن في وقت مبكّر في الجهود البيزنطيَّةِ لمقاومة المسلمينَ. يبدو أنَّ الاستياء الإمبراطوري الظاهر من اتصالات غير مأذونة قام بها موظفون مدنيون مع المسلمين كان وراء قيام هرقل بهذين التعيينين الخاصين، ويبدو أنه فعل ذلك مرة أخرى إذ أقام ميناس على خلقيس/ قِنَّسْرِيْن.(66)

لم يكن من المحتمل أن يحاول القواد العسكريون أن يتعاملوا مع المسلمين على نحو يتعارض مع مصالح هرقل. وقد ساعد تعيينهم على ضمان التوافق التام بين سلطة المدينة المحلية والسلطة العسكرية العليا والإمبراطورية. والموظَّفون المدنيُّونَ المستقلُّون قد لا يكونونَ مستعدِّينَ، على النَّحْو نفسه، لأنْ يخضَعُوا للقيادة العسكريَّة وللمصالح العسكريَّة. فقد كان ثَمَّةَ تاريخٌ طويلٌ في سوريَة، كما يبدو من تاريخ المحسوبية في الوظائف في جوار أنْطَاكِيَة، مثلاً، من تضارب بين الموظفين العسكريين والمحليين والنخبة.(67) من الممكن أنْ يُفْهَم استمراره زمن الحملات الإسلاميَّة في أربعينيَّات القرن السابع، لكنَّ ذلك كان شديدَ الضَّرَر بإقامة أيِّ مقاومة فعَّالة. ولعلَّ هرقلَ قرر أن دفع الضريبة للمسلمين، قد أدى عمليًا إلى رفع مقدرتهم على تجنيد عدد أكبر من الجنود الذين يجعلون مقاومتهم أصعب على البيزنطيين، وفي الوقت نفسه، زادت



النقودُ زيادةً واضحة في زخم المسلمين وهيبتهم. فقد بدت اتفاقيَّة سيِّئة.

تبقى هُويَّة البِطريق ميناس، الذي تولّى مرة قيادة خلقيس / قِنَّسْرِيْن، والذي هلك في قتل المسلمين على مقربة منها، مُهمَّة، ومع ذلك، غامضةً.(68) قد يكون متفقًا مع ستراتيلانتس ميناس الذي كان خاتمه القيادي منقوشًا عليه (عذراء نورمريكا، أعيني ميناس قائد القوات).(69) لعل أصله كان من نومِريكا، وهي بلدة ذات صلات عسكرية محتملة، ولعله يعود إلى القرن السابع.(70)

### 7. 6) أهميَّةُ اتفاقيَّةِ سنةِ (16 هـ/ 637 م)

من المحتمل أنَّ ولايتي أوزروني وميزوبوتاميا كانتا تابعتين يومها إداريًا لخلقيس/ قِنَّسْرِيْن، على ما يدعي الفقيه المسلم اليعقوبي. وقد يكونُ هذا هو السَّببَ الذي حمل جون [يوحنا] كاتياس الأوروني على أنْ يذهبَ إلى قِنَّسْرِيْن ليوقِّعَ على بنود اتفاقيَّة الهدنة. مع أنَّ المصادر لا تشير إلى هذا الأمر بوضوح، ولكنْ من المحتمل أنَّ الهدنةَ كانت تتألف على الأقل من جزأين، أحدهما خاصٌ بخلقيس وجوارها، ولعلَّهَا كانت تشمل أقصى حدود سوريَة الشَّمَالية، والآخر كان يحتوي الشروط التي تنطبق على أوزروني وميزوبوتاميا، والتي من أجلها وقَّع جون [يوحنا] كاتياس. ليس ثَمَّةَ من رواية تقول: إنَّ هرقلَ رفض أيًا من الشروط المتعلقة بسوريَة حصرًا، مع أنه عارض مشاركة جون [يوحنا] كاتياس في شأن أوزروني وميزوبوتاميا. تبقى الأسبابُ الدَّقيقة غامضةً، مع أنَّ المصادر التي وصلتنا قد تزودنا بفَهْمٍ غيرِ وافٍ للحقيقة كاملةً. ومن المحتمل أنَّ الهدنة أدِّيتْ في وقتٍ واحدٍ للمنطَقتَين كلتيهما. ويشير ثيوفانس إلى أنَّ ميزوبوتاميا كانت قابلةً للتجديد عند الدفع الكامل للضريبة المشروطة، في حين يصفُ بوتيخيوس الشُّرُوطَ المتعلِّقَةَ بجوار خلقيس بأنها محدَّدَة تمامًا بمدَّة نهائيَّة هي سنةٌ، من دون أي افتراض لاحتمل تجديدها. وليس واضحًا هل كانتْ ثَمَّةَ اتفاقيَّتا هدنةٍ متميِّزَتان، أو أنَّ هناك اتفاقيَّةً واحدةً بشروط مختلفة؛ وأنَّ من الصَّعْب أنْ يقرر أي البديلين هو الأكثر احتمالاً؟(71)

لا يعرف أي شيء عن الجنود والضباط الذين كانوا تحتَ إمْرَة بطوليمايوس. وعلى النحو نفسه، تبقى طبيعةُ الفرق البيزنطية الموجودة في

ميزوبوتاميا وعدَدُها ونوعيَّـتَها ليستْ معروفةً. إنَّ المنطقةَ يمكنها أنْ تزوِّد، فـترةً مديدة، حامياتٍ بيزنطيَّةً ضخْمةً للدِّفاع في مواجهة الفرس. لقد كانت محصنـة تحصينًا مكـثفًا، ويبدو أنها كانت تقومُ فيها مستودعات جيِّدة ودعمٌ لوجستي، إذا أخذ بالحُسبان التقليد المحلي المديد في أن تقيم هناك جيوش بيزنطية كبرى. تقول المصادرُ الإسلاميَّةُ: إنَّ عـددًا مُهمًّا من الفرق التي قاتلت المسلمين جاءت من القبائل العربية المسيحيَّة المقيمة في تلك المنطقة.[72] ليسَ من البيِّن عددُ الجنود من غيرِ العرب البيزنطيين الذين كانوا هناك. إنها واقعةٌ على مقربةٍ كبيرةٍ من إرمينية، حيثُ يصبح من اليسير تجنيدُ الأرمن الأشداء للقيام بالخدمة هناك.

من الممكن تصوُّرُ أنَّ هرقلَ إنما اتخذ من انعدام استشارة سابقة من الحكَّام حجةً لإلغاء اتفاقيات قَبِلَها ضمْنًا في وقت حَرِجٍ سابق. ولعلَّه ضَرَب بها عُرْض الحائط لَّما ساورَهُ الاعتقاد بأنَّ ذلك كان من المناسب القيام به. ومن الممكن أنه خطط لذلك قبل أن يسمح لموظفيه بأن يوقعوا على الاتفاقيات. وهناك بضع أسبقيات بيزنطية لمثل هذه التصرفات. وقد يكون سمح لمرؤوسيه بأن يعقدوا هذه الاتفاقيات: ذلك لأنه هو نفسه وإمبراطوريته نَعِمَا بفترةِ استجمامٍ هي التي تتضمَّنُها هذه الاتفاقيَّات، ثم ألغى الاتفاقيات، وأرسل حكَّامًا عسكريِّينَ ليحلوا محل المدنيين الذين قبلوا هذه الشروط. إن هذا ليس مستحيلاً، لكن مثل هذا التفسير يحمل في طَيَّاتِه الكثير من البراعة والتحاذق. المشكلة الكبرى في هذا التفسير أو السياسة، إذا ما كانت تلك خطته في الواقع، هي إخفاقها السريع والواضح في حماية الولايات التي شملتها أصلاً. لقد يسرت لهرقل ومرؤوسيه وقتًا لإعادة التجمع وإقامة خطوط دفاع ثانوية لتوفير حماية أفضل للأراضي البيزنطية الخلفية. مثل هذا الاستعمل الساخر للاتفاقيات يمكن أن يكون ذا معنى في هذه الحدود فقط.

كانت الهدنة في مصلحة البيزنطيين لأسباب عدة. فقد كانت خلقيس، في المقام الأول، مكانًا استراتيجيًا معقولاً للبيزنطيين كي يتمكنوا من وقف المسلمين عن التقدم أو إقناعهم بأن يقوموا بذلك، ولو مؤقتًا على الأقل، في



لحظة كانت خطرة جدًا على البيزنطيين. وقد أقصت، وقتًا، إمكانيَّة اختراق إسلامي. وهي أتاحَتْ للمسلمينَ الفُرصَةَ للحصول على ربح مالي وافِر، كما أنها يسَّرت لهم تركيز وجودهم في الأراضي التي احتلوها حتى ذلك الحين، ومن ثَمَّ، لم يكن قَبُولهم بالاتفاقيات قرارًا غبيًا من ناحيتهم. ويضع كتاب «فتوح الشام» للواقدي (المزعوم) وروايات لا تعتمد (وليس هو كتاب الأزدي [الذي يحمل الاسم نفسه]) بين أيدينا نصًا واحدًا لهذه الهدنة بتفاصيلها، لكنَّهُ يؤرِّخُها في وقتٍ أسبقَ في تاريخ الفتوحات، أي: قبل معركة اليرموك. في هذا المصدر يدرك أبو عبيدة ومستشاروه أن البيزنطيين يطلبون هدنة طويلة، وذلك ليكسبوا وقتًا يمكن فيه لنجدات بيزنطية أكبر من القدوم. ومن ثَمَّ، فإنهم، بحَسَب هذه الرواية، يضعون شروطًا تقييدية على هذه الهدنة المربحة التي يمنحونها للبيزنطيين في نهاية الأمر. مع ذلك، يؤكد الواقديُّ هذا القَبُول عند البيزنطيين برغبة أكيدة في كسب الوقت لهجوم آخر محتمل، وليسَ بسبب الرَّغبة في تخفيف آلام السُّكَّان المدنيِّين الذين أطبقَتْ المعمعةُ عليهم في وسطها وانزعاجاتهم.

### 7. 7) فِرَارُ جَبَلَةَ

كانت الرَّقَّة أو كلينيكوم أول مدن ميزوبوتاميا البيزنطية التي سقطت. إضافةً إلى الأسباب الاستراتيجية الواضحة التي جعلت احتلال ميزوبوتاميا أمرًا مرغوبًا فيه، أو ظاهرًا على نحو واضح، كما كان هناك إغراء النقودِ والضَّريبِ والغنيمَة والمجدِ الحربيِّ إلى درجةٍ ما. كان ثَمَّةَ سببٌ آخرُ أُهمِل أمرُهُ؛ إذْ إنَّ واحدةً من الرِّوَايات الإسلاميَّة تقولُ: إنَّ ملك الغساسنة، جَبَلَة بن الأيهم فر من الخليفة عمر إلى هرقل عبر الرَّقَّة: «إنَّ جَبَلَة بنَ الأيهمِ سار حتى دخل أرض الرَّقَّة، ووصل هرقل».[73] وتروي مصادر أخرى أن نحوًا من (30.000) من العرب (من قبيلة الغساسنة!) رافقوا جَبَلَة وانتهى بهم المقام على مقربة من خَرْصانة أو خرسيانون كاسترون في قبدوقيا، حيثُ يشير إليهم الجغرافي الاصطخري في القرن العاشر.[74] كان أحد الحوافز عند الذين كانوا يديرون الفتوح الإسلامية المبكرة هو تثبيت السلطة على القبائل العربية التي لم تكن

انتحلت الإسلام بعدُ.[75] وتؤكد قضية إهمال طريق الفِرَار التي اتبعها آخر ملوك الغساسنة حتى ذلك الحين، على نحو واضح، إلى أيِّ مدًى كان استمرارُ البيزنطيينَ في التسلط على ميزوبوتاميا أمرًا خطرًا على تثبيت سلطة الخلافة على القبائل.

يبدو أن طريق الملك الغساني المحدد كان عبر منطقة الرَّقَّة أو كلينيكوم إلى هرقل. إذا ما رافق جَبَلَة بن الأيهم يومَهَا عددٌ كبيرٌ من العرب الفارِّين من منطقة النفوذ الإسلامية، أو إذا ما انضمَّ هؤلاءِ العربُ الفارّون إليه في مكان ما ضمن الأرض البيزنطية، وتشير مصادرُ البلاذُري واليعقُوبي إلى أنهم فروا معه من بلاد الخلافة، فإنَّ طريقَ نجاته سنةَ (17 هـ/ 638 م) قد تغري عَرَبًا آخرين، ممن فتحت بلادهم حديثًا، على استعمالها طريقًا للهرب لأنفسهم، أو سبيلاً للحفاظ على المواصلات خارج سلطة الخلافة، أو من المحتمل استعمالها لإثارة العرب المسيحيين الذين ظلوا في بلاد الخلافة.

احتلت الرَّقَّة وميزوبوتاميا في تلك السنة (17 هـ/ 638 م) أو في السنة التالية (18 هـ/ 639-640 م) أو، من المحتمل، في سنة (19 هـ/ 640 م)؛ إذ إنه إلى حين احتلال الرَّقَّة وميزوبوتاميا، لم يمكنْ أن يُمْنَع داخلَ دولة الخلافة إقامة اتصال سهل مع السلطات البيزنطية التي كانت تبعث الخوف، والتي كثيرًا ما وثَّقت هذه القبائل الصلات معها في السابق. من أجل هذا السبب ما كان يجوز للرَّقَّة أنْ تظل في أيدي البيزنطيين. والأخبار التي تشير إلى تخوف الفاتحين المسلمين المبكرين من أن سكان سوريَة الشَّمَالية يزودون هؤلاء الفاتحين بمعلومات تتعلق بتحركات الفرق البيزنطية وسوى ذلك من المعلومات المفيدة، بينما كان هؤلاء الفاتحون المسلمون الحديثون يخشون البيزنطيين على وجه التأكيد، تؤكد مصداقية هذا التعليل. ثانيًا: ترد عند الطبري إشارات جليّة إلى أنَّ عُمَرَ وسواهُ من المسلمينَ طالبُوا بعودةِ أولئك العرب الذين فرُّوا إلى منطقة نفوذِ هرقلَ. لقد كان العرب الذين كانوا ينضمون إلى البيزنطيين، بعد خسارة سوريَة، مشكلة عند عمر.[76] وهرب الحليف العربي الأول للبيزنطيين عن طريق كلينيكوم / الرَّقَّة، ولو ضربنا صفحًا عن أنه رافقه (30.000) عربي،



أكَّد خطر ترك تلك المدينة وأوزروني وميزوبوتاميا في أيدي البيزنطيين. كان هذا سببًا وحافزًا على الهجوم الذي قام به عياض بن غَنْم. ويبدو أنَّ الرَّقَّة ونَصِيْبِين سقطتا في أيدي عياض بن غنم أولاً، وهو الذي استولى بعد ذلك على حَرَّان ورأس العين ودَارًا في سنة (19 هـ/ 640 م). وقد سقطت إديسًا سنة (18 أو 19 هـ/ 639 أو 640 م). ولعلَّ كركيسيوم [قَرْقِيْسِيَاء] تأخر احتلالها حتى سنة (22 هـ/ 641 / 642 م) بعد أن سيطر المسلمون على الخابور. ومن الممكن أن تَكْرِيْت وهِيْت والمَوْصِل سقطت في أيدي المسلمين القادمين من تيسيفون (المدائن) بقيادة عبد الله بن المُعْتَم.

إن الإجابة عن السؤال: هل تَمَّ الاستيلاءُ على ميزوبوتاميا من العراق أو من سوريَة؟ ليست سهلةً إجمالاً، لكنْ يبدو أنَّ عياضًا بنَ غنم قام بحملته الرئيسة من سوريَة، مع أنَّ هناك ثلاثَ رواياتٍ أخرى تدعي أنه جاء من العراق. لقد كان لا بد لكل من حرارة صيف العراق الشديدة، ومشكلات فيضان الفرات مرتين في السنة غالبًا، من أن تعقِّدا الجهود لاحتلال ميزوبوتاميا العليا من العراق، مع أنه كان ممكنًا نظريًا. إنَّ من الممكن، على ما ورد من قبلُ، أنَّ وحداتٍ صغيرةً من الفرق البيزنطية كانت في هِيْت وكركيسيوم (قَرْقِيْسِيَاء) لكنْ من المستحيل جدًا أنْ يمكنَ هرقلَ، بعدَ معركةِ اليرموك، استبقاءُ عددٍ كبيرٍ من الفرق لحماية هذه المدن غيرِ المحصَّنة، بَلْهَ المَوْصِل!!.

يوردُ الواقديُّ (المزوّر) روايةً مشكوكًا بصحَّتها كثيرًا عن مفاوضات واحتيالات متعددة ومعقدة هي التي أدت إلى سقوط عدد من المدن المختلفة البيزنطية بيد المسلمين،[77] ولا سيَّما دور يوقْنا المزعوم.[78] وهو يصفُ دفاعًا بيزنطيًا نشطًا بقيادة شهرياض بن فَرون صاحب رأس العين، وسواه من الزعماء المحليين. ليس ثمة تأكيد مستقل لأي من رواياته، ولا سيَّما أنَّ هرقلَ أجازَ لهؤلاء الزعماء المحليين أنْ يقيموا في ميزوبوتاميا، أو أنهم كانوا هناك أصلاً. وهكذا، فإنَّ روايات ثيوفانس المعترف وأغابيوس المنبجي هي أساس لفهم التسلسل الأصلي للأحداث المتعلقة بسقوط ميزوبوتاميا البيزنطية

عندما يقترن استعمالها بما عند الطبري والبلاذُري. أما رواية الواقدي المزعوم فتوهميَّة، ولا تحوي أي صلة معقولة بحقائق التاريخ التي وقعت في أواسط القرن السابع. لعل بعض السكان والسلطات في ميزوبوتاميا أيدت بعض الجهد البيزنطي لاستعادة إيميزا (حمص) من المسلمين، ولعلهم تلقوا عونًا من رجال القبائل العربية المسيحية المتلملمة في حمص ومنطقتها.

### 7. 8) تحدّي هجْرَةِ القبائلِ

يبدو أن هرقل كان على منزلة كبيرة عند رجال القبائل العرب المسيحيين. والمصادر العربية المتأخرة تتحدث عن رجل من هذه القبائل كانوا يرغبون في الفِرَار للانضمام إلى «هرقل». لعل المصادر كانت تبالغ في دور هرقل الشخصي في اجتذاب رجال القبائل هؤلاء بينما كانت السُّلْطة البيزنطيَّة تتهاوى في سوريَة، لكنَّ هذه هي الطريقة التي يصفون الأمور بها. كان ثمة حالات أخرى فيها هجرة رجال قبائلَ مسيحيّينَ إضافةً إلى أولئك الذين رافقوا جَبَلَة في سنة (18 أو 19 هـ/ 639 أو 640 م). فقبيلةُ إياد بن نزار خرجت بـ«الثقيل والخفيف من أحمالها» ودخلت الأراضي البيزنطية بعد احتلال المسلمين ميزوبوتاميا.(79) وأيضًا في سنة (20 هـ/ 641 م) هاجرت قبيلة بني تغلب العربية المسيحية بترك ضفاف الفرات السورية المجاورة إلى ملجأ آمن في الأراضي البيزنطية. فقد روي أنهم غضبوا بسبب محاولة المسلمين فرض ضريبة عليهم، إضافةً إلى أنَّ الضريبة كانت تُعَدّ مما ينال من كرامتهم. والمفروض أنهم عبروا النهر، ولعله كان الفرات، في طريقهم إلى الأراضي البيزنطية لما استبق الخليفة حركتهم بتعديل متطلبات الضريبة. وقد ركز المؤرخون المسلمون الذين رووا هذه الحادثة اهتمامهم على ما تقدمه من معلومات عن الضرائب الإسلامية المبكرة على غير المسلمين، لكنَّ الحادثةَ عند البيزنطيين تدلُّ دلالةً أكيدةً على الولاءات القبلية، إذ تبدُو إغراءً، أو على الأقلّ، بَدِيْلاً معقولاً من الرَّحيل إلى أرض بيزنطية، ورغبة الخليفة في أنْ يحولَ دونَ حركةٍ كهذه.(80)

ارتضى بعض المسيحيين من أتباع القائلين بالطبيعة الواحدة (المونوفيزيين)



بالفتح الإسلامي لأورزوني وميزوبوتاميا البيزنطية، لكن لم يكن هناك عصيان واسع النطاق للإمبراطورية البيزنطية. إنَّ بعضَ المدن فقط أبدى مقاومةً شديدة، غير أنَّ هذا قضي عليه. إنَّ القبائل العربيَّة المسيحيَّة التي فرت إلى هرقل، أو التي جاهدت، من دون أي نجاح، في الفِرَار إلى هرقل كانت مسيحيَّةً على مذهب الطبيعة الواحدة، ومع ذلك، فإنها لم ترغب في أن تصبح تابعة لسادة سوريَة الجدد. والخلافات المذهبية المسيحية لم تتسبب في إخفاق المقاومة البيزنطية، أو على كلٍّ، فإنها لم تكنْ، على وجه التأكيد، السَّببَ الأوَّل في ذلك.(81)

إن مشكلة الهجرة القبلية هي بُعد أساس في اتفاقية الهدنة الخاصة بميزوبوتاميا. ويجب فهم العبارة الواردة في تاريخ ثيوفانس عن اجتياز الفرات سلمًا . في الحدود المعمول بها بخصوص تنقل المجموعات القبلية العربية في المنطقة. المؤرخ لا يحتفظ بنص الاتفاقية الكامل، لكنْ من الممكن جدًّا أنَّ منعَ عرب عياض بن غَنْم من العبور إلى أوزروني وميزوبوتاميا البيزنطيتين يعني أن جميع العرب، بمن فيهم أولئك الذين كانوا تقليديًا أصدقاء لبيزنطة، حُظر عليهم اجتياز النهر. نحن لا نعرف، لأن النص لم يُعط لنا برمَّته. إنَّ هذا قد يفسِّر غضب هرقل على جون [يوحنا] كاتياس، إذْ وقَّع هذه الاتفاقية، إضافةً إلى دفع كاتياس المبلغ الكبير، وقيمتُهُ مئة ألف (نوميسمات) ذهبيَّة لمنع الهجوم.

على كلٍّ، لم يتح لعرب عياض أن يعبروا بسلامٍ على نحوِ ما كان للعرب في السَّنَوات السَّابقة. لو لم يكن العربُ اعتادوا أن يعبروا النهر إلى أوزروني وميزوبوتاميا، فلم تكن ثَمَّةَ حاجةٌ إلى إصرارِ عدمِ قدرتهم على العبور على طريقة عدوانيَّة ولا سلميَّة. والاتفاقيَّة لم تكن لتثبتَ مع الزمن. فإما أن تثار الغيرة القبلية بسبب السماح لبعض القبائل بعبور الفرات دون سواها، أو إذا كان يفهم من الاتفاقية أن يمنع جميع العرب من العبور، فإنها عندها تهدّم، من دون قصد، صداقات وصلات بالغة القدم مع قبائل معينة، وكانت سببت حرجًا لهرقل، وأوجدت سابقة سيئة للعلاقات البيزنطية اللاحقة مع ما قد يتبقى لهم من أصدقاء كانوا مرتبطين بهم بين القبائل العربية. إن نص ثيوفانس موضع تصديق.

إنَّ الصراع على ميزوبوتاميا لم يكن من أجل المراعي الغنية وطرق التجارة المهمة فحسبُ، بل دخل فيه أيضًا، في النهاية، هل يمكنُ بيزنطةَ أنْ تحتفظَ بسلطةٍ ذاتِ شأن على قبائلَ عربيَّةٍ صديقةٍ ومفيدةٍ، بحكم التقليد أو الإمكانيَّة، أو الوصول إليها، على نحو ما تمكَّنت منهُ منذُ القرن الرابع أو قبله؟ عندما تُلقى نظرة على ما حَدَثَ يبدو أنَّ هذا النزاعَ كان غبيًّا، وغير عملي أنْ يجرِّبَ هرقلُ القيام به. ومع ذلك، فإنَّ احتفاظَ البيزنطيين بالسلطة، مدَّةً تبلغ السَّنةَ أو السنتين بعدَ الانسحاب من سوريَة، مكّن فئةً مقاتلةً مُهمَّةً من العرب أن تخلص بنجاح إلى الأرض البيزنطية، بقيادة آخر الملوك الغسانيين جَبَلَة بن الأيهم، ومن غير الواضح هلْ يمكنُهُم الخروجُ بغير هذا السَّبيل؟ إذ من الممكن أنْ يتعرَّضُوا للمنع، وأن يقضى عليهم، على نحو ما أصاب سواهم من رجال القبائل العربيَّةِ الذين جربوا الفِرَار إلى هرقل عبر الممرات الجبليَّة إلى الشَّمَال الغربي من أنْطَاكِيَة.

### 7.9) ملابساتُ خسارة ميزوبوتاميا

أدَّتْ خسارةُ ميزوبوتاميا إلى فصل بيزنطةَ عن القبائل العربيَّة الصديقة وقوتها البشرية، وأسهمت على نحوٍ قويٍّ في الحاجة إلى تطوير مصادر جديدة للقوة البشرية العسكرية واستراتيجيات وتكتيكات لقتال العرب؛ فقد اتضح عندها، على عكس ما كان عليه الوضع في القرن الأسبق، أنَّ الإمبراطوريَّة لا تستطيع بعد ذلك أن تحارب العرب باستئجار عربٍ آخرينَ. كان على الإمبراطورية أن تبدل أساليب شن الحرب على العرب. والصورة التي يُحصل عليها من المصادر هي صورة وضع يتبدَّل بسرعة، وكان في حالة تقلُّب، لكنَّهُ كان يقيم صلة مختلفة اختلافًا عنيفًا بين بيزنطة والعرب. كانت بيزنطة وبعض حلفائها العرب الذين تربطهم بها فترة طويلة يجهدون مستقلين للحفاظ على الصلات القديمة أو استرجاعها، بينما كان السَّادةُ الجدد في الأراضي جنوبي الفرات وغربه مصممين، على الأقل إلى درجة مساوية، على قطع تلك الروابط القديمة بين بيزنطة وبعض العرب قطعًا نهائيًا. وأخيرًا، حالت خسارةُ ميزوبوتاميا دون بيزنطةَ والقيام بأي عمل إلى جانب الفرس المسلمين، كما



حالت دون القيام بعون بيزنطيٍّ لإنقاذ الإمبراطوريَّة الفارسيَّة المتداعية (لم يكن العونُ البيزنطي للحكام الفرس الأصدقاء مستحيلاً على نحو ما دلَّت عليه الأحداثُ في سنة (590 – 591 م) والسنوات (7 – 9 هـ / 628 – 630 م).

ثمَّة سؤالٌ منطقي يمكنُ أنْ يطرحَ: هل كانَ توفيرُ القوَّاد البيزنطيينَ هدنًا مع المسلمين سنة (16 هـ/ 637 م) أو بعدَها أمرًا ذا أهميَّة، على المدى البعيد، إذ إنَّ البيزنطيين لم يلبثوا أنْ خسروا تلك الأراضي على نحو لا يمكن تبديله (باستثناء استرداد جزئي لبضعة أجزاء في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر في وضع مختلف تمامًا). إنَّ الهدنَ لم تنقِذْ سوريَةَ أو ميزوبوتاميا أو مصر، لكنَّها منحَتْ هرقلَ وموظَّفيه وقوَّاده مهلةً لالتقاط أنفاسهم في لحظة بلغَتْ من القلقلةِ المنذِرَة بالخطرِ الغايةَ، وذلك كي يتمكنوا من إعداد الدفاع، الذي انتهى إلى النجاح، عما كان سيصبح الخلفية الإمبراطورية الأناضولية.

إن أولئك الذين غادروا تلك الولايات مع الجيوش البيزنطية، والمعروف عن التركيبة الاجتماعية والاقتصادية لغير العرب قليل، عدُّوا أنْ يدخلَ في عدادِهِم، أساسًا، أفرادٌ كانت أعمالهم وتطلُّعاتهم متَّصلةً اتصالاً وثيقًا بالكنيسة الأرثوذكسيَّة (الملكيَّة) والحكومة البيزنطيَّة منطقيًا، ومن المحتمل أنه كان بينهم بعض من الإثنية اليونانية وتجار أغنياء وصنَّاع. مع أنَّ بعض الأفراد الذين غادروا كانوا أصحاب مهارات ثمينة، فلا يبدو أن مغادرتهم عطلت المجتمع والاقتصاد في المدن والمناطق التي كانوا يقيمون فيها قبلاً. والمصادر اليونانية تتحدث قليلاً عنهم، باستثناء عدد ضئيل من اللاجئين من الرهبان وسواهم من رجال الكنيسة. وتشير المصادرُ الإسلاميَّةُ، على نحوٍ خاص، إلى لاجئينَ عربٍ مسيحيين، أفرادًا وقبائل أو أجزاء من قبائل، التجَؤُوا إلى الأرض البيزنطية. ليس ثمة، بطبيعة الحال، أيّ إحصاءات يركن إليها، مع أنَّ عددَ العربِ المسيحيينَ في قبيلة واحدة الذين فرُّوا مع جَبَلَة، كما رأينا، قيل: إنَّهُ بلغَ (30.000). ومن ثمَّ، فإنَّ توقيتَ الهدن كان على درجة من الأهميَّة لاستمرار الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، مع أنه لم يخدم بقاء السلطة البيزنطيَّة في سوريَة وميزوبوتاميا ومصر.[82]

## 10.7) ملابساتُ التطوُّراتِ المؤسَّسيَّةِ

لقضيَّة ميزوبوتاميا صلةٌ وثيقةٌ بتطوُّر المؤسسات البيزنطية في الفترة البيزنطية المتوسطة. لقد كان هرقل يقوم بمحاولة لعَسْكَرَةِ السلطة الحكومية. ويروي الأزدي أن هرقل «خلَّف أمراء من جنده على مدن الشام». هذه إشارة إلى إقامة مفاجئة لسلطات عسكرية طارئة معينة في مدن خاصة في سوريَة وفِلَسْطين.[83] كان يقوم بذلك لمواجهة الخطر الإسلامي المتنامي. ويتفق وصفُ أعماله في ميزوبوتاميا مع تلك التي ترد عند الأزدي والكوفي وابن عساكر (أو على الأصحّ في مصادرهم) إذ يقولون: إنَّهُ جرَّبها في سوريَة. من الممكن تتبُّعُ نُتَفٍ من هذه الخطَّة في المصادر العربية واليونانية والسريانية. وجزئيَّاتُ المعلوماتِ الواردةُ في هذه الرِّوَايات عن هذه الفترة، وتخص ميزوبوتاميا البيزنطية، ثمينةٌ جدًّا. إنها تُعين على تفسير جزء من الخطة التعسفية التي خلقتها أحوال تاريخية طارئة، والتي استخدمت فيها أساليب خاصة بالأحوال الخطرة الطارئة، وعلى أساسها تم تعيين قواد عسكريين بدل موظفين مدنيين رومانيين تقليديين من الفترة الرومانية المتأخرة، وهذا ما قوّى وسرَّعَ تحوُّلَ المؤسَّسات الرُّومانية المتأخرة إلى مثيلاتها من الفترة البيزنطية المتوسطة. هذه العملية من المستحيل أنْ تُفهم من دون تدبّر الأخبار الآتية من ميزوبوتاميا البيزنطية، مع ما هي عليه من كونها نتفًا متفرقة. لعل هؤلاء القواد كانوا وكلاء من قبل.

من رؤية تاريخية أخرى، كانت إقامة هرقل لهؤلاء القواد العسكريين هي تمامًا مَثَلٌ آخر من التجربَة شبه العشوائية التي وحّد فيها السلطتين المدنية والعسكرية في يد موظف واحد. ومثل هذا كان يجري في زمن يوستنيان.[84] هذه الإشارات الواردة عند الأزدي وسواه من المصادر هي نماذج نادرة لـ"عَسْكرة" يمكن أن نتابع على الأقل على نحوٍ نُتَفي، في الوقت الذي كانت تقام فيه تمامًا. كان ثمة أسباب واضحة للحاجةِ لسلطة طوارئ موحدة لتؤدّيَ، من غير ما تردُّدٍ، ما كان يرغب فيه هرقلٌ من تأكيد التناسق بين الاستراتيجيَّة والعمليَات المحليَّة والإمبراطوريَّة. إنَّ إنشاءَ هذه السلطات العسكريَّة الخاصَّة في



ميزوبوتاميا أمرٌ مُهِمٌّ على نحوٍ خاصٍّ، فقد كانت واحدةً من أكبر المناطق أهمية للبيزنطيين في الدفاع بوجه الفرس.

إنَّ الحقيقةَ الرَّاهنة، وهي أنَّ هرقلَ لم ينشِئْ هذه المنطقة العسكريَّة، أو لم يقم قائدًا عسكريًا خاصًّا عليها في أثناء حروبه ضد الفرس أو بعد الحرب مباشرة، أمرٌ بلَغَ من الأهميَّة الغاية، لأنَّ هذه هي المنطقة التي كانت يجب أن تنل العناية قبل سواها، وذلك بسبب أهميتها الكبيرة في الدفاع بوجه فارس. وكانت المنطقة الأكثر تعرضًا للأخطار، فقد كانت غنية، وكانت تقع على خط الهجوم المألوف. إذا كان الباعثُ على إقامة قوَّاد عسكريينَ الدفاعَ بوجه الفرس، فقد كان لميزوبوتاميا الحق في أنْ تتقدم سواها منذ البدء. ومع ذلك، هذا جاءَ في وقتٍ متأخِّر: لما كان الانسحابُ من سوريَة يوشكُ أنْ يحدثَ، قام هرقل بتعيين قائد عسكري هناك بدل الحاكم المدني، وهو بطوليمايوس.

ومع ذلك، فمن المحتمل أنَّ الحكم البيزنطي خلَّف آثارًا مؤسَّسيَّة في ميزوبوتاميا. ولعل فرض المسلمين ضريبة في ميزوبوتاميا، لسد حاجات الجيش، على سكان الريف، وليس على سكان المدن، وهذا ما يرويه أبو يوسف، استمرارٌ للإجراءات الضريبيَّة التي تعودُ إلى الزمن الروماني المتأخر والبيزنطي. وأقل ما يمكن أن يقال فيه: إنه مساو، على نحو مدهش، في المنطقة نفسها، لما ورد ذكره بخاصة في تشريع يوستنيانَ الأول،[85] الذي جعل سكان تلك المنطقة مسؤولين عن تزويد الجيش. إنَّ الذين فسروا هذا بعد ذلك من المسلمين لم يدركوا أصل هذه الضريبة من حيثُ إنها استمرارية لبعض التراتيب المؤسَّسيَّة في القرن السادس حتى نهاية الحكم البيزنطي.

## 11.7) استمرارُ العمليَّاتِ العسكريَّة

تحظى تفاصيل احتلال ما تبقى من المدن والمواقع في ميزوبوتاميا البيزنطية أو تسلمها باهتمام عدد من الروايات الإسلامية التي لا تبدو مصاعب خاصة في تفسيرها. لكن الأمر المستثنى هو روايات ملتبسة تشير إلى أن المسلمين القادمين من العراق قاموا بدور حاسم في فتح ميزوبوتاميا البيزنطية. وقد قامت محاولات حديثة في سبيل إثبات صحة هذه الروايات العراقية. ومن

المحتمل أن يمر وقتٌ قبل أن تُثمن هذه المشكلة برمَّتها ثانية. من المحتمل أنَّ ثمَّةَ بعضَ الغزوات إلى داخل ميزوبوتاميا البيزنطية من العراق، لكنَّ نقطة الانطلاق الرئيسة لفتح تلك المنطقة كانت سوريَة على وجه الاحتمال. وما هو أدعى إلى الحَيرة، والأصعب أن يرفض، الأخبار عن حملات بيزنطية مضادة في ميزوبوتاميا وشِمَالي سوريَة.(86) هذه تقتضي بحثًا جديًا، لكنه يجب أن يكون بحثًا منفصلاً ودقيقًا في مناسبة أخرى. إنَّ الأمرَ الواضحَ عدمُ وقوعِ قتل شامل على بعد من المدن المسورة في ميزوبوتاميا. ومع أن القواد العسكريين أُطاعوا أوامر هرقل بألا يحاولوا قتال المسلمين في البلاد المكشوفة هناك، بل يجب أن يحتفظوا بالمواقع القائمة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فإنَّ هذه الاستراتيجيَّة لم تنقذ ميزوبوتاميا البيزنطيَّة. وأثبتت الجهودُ في سبيل اتباع استراتيجية حرب دفاعية عن المواقع أنها لم تكن أكبر نجاحًا في الاحتفاظ بميزوبوتاميا مما كانت عليه في سوريَة.

ثمَّةَ مشكلةٌ تاريخية خلافية فيما إذا كانت هناك محاولة بيزنطية لاستعادة حمص من ميزوبوتاميا بعد أن خسرها البيزنطيون ثانية للمسلمين بعد معركة اليرموك. تدعي بعض الروايات العراقية أنَّ البيزنطيين اندفعوا نحو حمص من ميزوبوتاميا، أي: من منطقة عبر الفرات، وأنَّ هرقلَ أسهم في حملة برِّية كهذه. ومع ذلك، فليس ثمَّةَ مصدرٌ بيزنطيٌّ يؤيِّد هذه الرواية. لقد رفض فِلْهَوزن أصالتها بسبب نظرياته عن البواعث عند بعض جامعي الأخبار، الذين كانوا يلفقون حسب أهوائهم، وهو ما زعم أنه المدرسة العراقية. هذه الرواية تفترض ثورة حاضر أو مخيمًا للعرب من قبيلة تنوخ في قِنَّسْرِين لدعم محاولة بيزنطية لاستعادة حمص مع عون من قوات محاربة من ميزوبوتاميا. جديرٌ بالقَبُول أنه كان ثمَّةَ حاضرٌ في قِنَّسْرِيْن، لكنْ ليس من المؤكَّد هل بقي للبيزنطيينَ ما يكفي من القوَّة والعزيمة، بعد انكسارهم في اليرموك، ما يمكنهم من أن يفكروا، وأن يحاولوا القيام بحملة كبيرة لاستعادة نقطة حيوية وعُقْديَّة للمواصلات مثل هذه التي كانت حمص قلبها؟(87) وتؤكد مصادر إسلامية أخرى تأكيدًا تامًا أنه لم تقع معارك في سوريَة بعد معركة اليرموك، وهو جزم يحمل على الشك في صدق الروايات عن هجوم



بيزنطي غير ناجح لاستعادة حمص. وعلى كلٍّ، لا يمكن قبول هذه الروايات على عِلاتها من دون تفحُّص نقديّ. وأكثرُ ما يمكنُ أنْ يقالَ هو أنَّ كثيرينَ من سُكَّان شِمَال سوريَة، بمَن فيهم عربٌ لم يرحِّبوا بالمسلمين. واتفاقية خلقيس شجعت تذمرهم وآمالهم البعيدة عن التحقق، التي لعلها تحرضت بسبب بعض مكايد بيزنطية وإعداد لمراكز التوزيع العسكري وحركات محدودة في مناطق الحدود المتنازع عليها. وقد تشوهت تلك الأحوال في روايات متأخرة حيثُ بدأت حملات قوات بيزنطية كبرى لاستعادة حمص وسوريَة برًا أو بحرًا، وهي روايات ليست من التاريخ في شيء.

بدا عجز قوات بيزنطية في ميزوبوتاميا وسوريَة واضحًا في سنة (613 م) لما عجز نيكيتاس، ابن عم هرقل، عن مساعدة هرقل في قتاله مع الفرس قرب أنْطَاكِيَة في سوريَة.(88) لعل المحاولة البيزنطية قصيرة الأجل للاحتفاظ بميزوبوتاميا حولت بعض الانتباه وبعض الموارد البشرية والمادية عن مصر البيزنطية التي كانت معرضة للخطر الشديد، والتي لم تلبث أن سقطت، لكن هذا لم يكن السبب في خسارة البيزنطيين مصر. إن كان ثمة شيء ما فقد ساعد الاحتفاظ بميزوبوتاميا على تحويل نظر المسلمين عن آسيا الصغرى البيزنطية. وكانت النتيجة فترة التقاط أنفاس قصيرة، ولكن من المحتمل أنها كانت حيوية، وهي التي منحت هرقل والقواد البيزنطيين فرصة لإعادة تجميع جنودهم، ونشر حامياتهم، والتخطيط استراتيجيًا وتكتيكيًا، وترتيب أمر احتفاظهم بممرات طوروس الجبلية تجاه المسلمين.

بعبارة أخرى، فإنَّ انتباه حكام المسلمين الحديثين لسوريَة وجه، مدَّةً قصيرةً، إلى تثبيت مواصلاتهم مع العراق، وعزل أي احتمال لحملة عسكرية لاستعادة سوريَة، سواءً في ذلك حملةً بيزنطيَّةً كانت أم بيزنطيةً مع عرب مسيحيين، ومن ثَمَّ أجلت هجومًا إسلاميًا على آسيا الصغرى، وفي نهاية الأمر على القُسْطَنْطِيْنِية. إن تلك السنوات شديدة الغموض حتى إنه من الصعب أن يُتَوَصَّل إلى حكم قاطع، لكنَّ التخادع والتناور في ميزوبوتاميا البيزنطية وفي ساموساطا [سميساط] ومَلَطْيَة لا يجب أن يُسها عنهما في محاولةٍ كي نفهم كيف أن بعض المصادفات التاريخية كان لها أثر في بقاء آسيا الصغرى البيزنطية مع

الكوارث البيزنطية الحربية في فِلَسْطين وسوريَة. لقد كان الوقت أكثر ما كان هرقل ومستشاروه وقواده يحتاجونه بعد الكارثة في سوريَة. لقد كان للتشدُّدِ في محاولةِ المقاومةِ وفي الحفاظ ولو وقتًا كالبرق الخاطف، على خلقيس / قِنَّسْرِيْن وأوزروني وميزوبوتاميا ومدن في موازاة مجرى الفرات مثل ميليتين [مَلَطْيَة] حصة، سواءً قصدًا جاء ذلك أم لا، في تزويد بعض ذلك الوقت الثمين.

مع أن كلا الفريقين المتخاصمين، البيزنطي والمسلم كان على حق في استمرارية الاعتقاد بأهمية أوزروني وميزوبوتاميا في أواخر العقد الرابع من القرن السابع، متذكرين دورها في حروب الحدود في القرون الرابع والخامس والسادس، فإن الأحوال التي تولّدت منها وجهة النظر الاستراتيجية هذه كانت ستزول إلى الأبد. ومع أنَّ البيزنطيين استعادوا إديسّا، فترةً محدودةً، وما كان يعرف باسم أوزروني، فإنهم لم يستعيدوا قط ميزوبوتاميا بعد أن خسروها سنة (17–18 هـ/ 638–639 م). وبهذه الخسارة النهائية فقدت أيّ فكرة عن هذه المنطقة على أنها المحور الأساس للحرب، كما كانت عليه في الحروب البيزنطية/الفارسية (والرومانية–الفرثية) الطويلة. وقد استعيض عنها بالخصومة المضجرة وبالغة الصعوبة في سبيل ممرات جبل طوروس ونقاط النفوذ إلى الهضبة الأناضولية، وهو حد شرقي جديد.[89]



# 8) بيزنطةُ وإرمينيةُ والأرمنُ والفتوحُ الإسلاميَّةُ المبكِّرَةُ

## 1.8) الإطارُ

يمكن تفهم الحملات الإسلامية على إرمينية البيزنطية وفتحها في القرن السابع في ضوء الفتح الإسلامي لميزوبوتاميا البيزنطية، وإلى مدى أقل، فتح شِمَال سوريَة. لم تكن إرمينية البيزنطية هدفًا لا [داخل المخطط] ولا من أجلها حصرًا، مع أنها كانت تتميز ببعض الموجودات الثمينة. لقد كانت إرمينية غنية بالمراعي مع شتائها القاسي. وكانت تملك الحيوان والمعادن والأخشاب والقوة البشرية التي أصبحت أكبر قيمة بسبب خسارة ميزوبوتاميا التي كانت فيها مناطق التجنيد للأصدقاء العرب، كما أنها كانت تسيطر على بعض طرق التجارة الرئيسة وعلى جبل استراتيجية كذلك. ومن المحتمل أن الغنيمة لم تكن الغاية الأصلية في إرمينية، على الأقل على المستوى الاستراتيجي. إن نقل أخشابها على أساس نفقاتها كان أمرًا بَلَغَ من الصُّعُوبةِ الغايةَ. وكانت حملة المسلمين على إرمينية وفتحها نتيجة تثبيت القوة في ميزوبوتاميا ومرتبطين به ارتباطًا لا فكاك منه، وهذا كان له دلالة استراتيجية. وكانت الحملة على جورجيا واحتلالها تتمة لفرص أتاحها السير في خُطا فتح إرمينية.

إن الدليل على اهتمام هرقل بإرمينية وصحبه الأرمن مذهل. ومع أن مسقطه وتاريخ ميلاده الصحيح زُهَاء (575 م) ليسا مؤكدين، فإن والده، الذي كان يسمى هرقل أيضًا، قد يكون أصله من ثيودوسيو بوليس

(إرضِـروم أو إرزِروم).[1] وقد دعا هرقل إلى مجلس في [ثيودوسيو بوليس] في سنة (12 هـ/ 633 م) وحضره شخصيًا، بقصد توحيد الكنيسة الأرمنية مع كنيسته القائلة بالمشيئة الواحدة.[2] وقد جند الأرمن على نطاق واسع لحملاته على الفرس في عشرينيات القرن السابع،[3] ومنحهم دورًا مهمًا في حملاته على المسلمين. مع ذلك، فإنَّ هرقلَ لم يكن أرمنيًا أكثر منه بيزنطيًا. ومن المؤكد أنه وضع مصالح الإمبراطورية في درجة عالية، على نحو ما فهمها. وقد ظل الجنرالات والفرق الأرمنية ذوي شأن في النزاع على الخلافة الذي تلا موت هرقل.[4] لقد كانوا كتلة دعم مهمة لكن لم يكونوا كتلة الدعم المتفردة بذلك، ولا سيَّما من الناحية العسكرية، عند الأسرة الهرقلية وإلى جهود الدفاع عن إرمينية بوجه المسلمين.

لم يُولِ الأرمن هرقل دعمًا إجماعيًا. وسياساته الكنسية أثارت مقاومة قوية من كثيرٍ من رجال الدين والرهبان الأرمن.[5] لعله كان للأرمن محاولة للتأثير ببعض سياساته، مثل الرغبة في الدفاع عن ميزوبوتاميا، وعن مواقع عسكرية قوية على طرف شِمَال سوريَة، لكنْ من المؤكّد أنَّ نفوذهم لم يكن من غيرِ حدودٍ. فهو لم يقرر المسائل السياسية وفقًا للمعارضة أو القَبُول اللذين يبديهما الأرمن، سواءً داخِلَ إرمينيةَ كانَ ذلك أم خارجَهَا.

انتشرَ الأرمنُ في أوائل القرن السابع في مناطق مجاورة لإرمينية لكنها كانت بعيدة عن حدودها التاريخية. إن انعدام الإحصاءات السكانية يحول دون تحديد المقدار المئوي المحدد المعنية للسكان الذين كانوا إرمينيين في أي من الولايات أو المدن. مع أنَّ ثَمَّةَ إرمينيِّينَ أشدَّاء، فمن المستحيل أن نعرف عدد المؤهلين والجاهزين للخدمة في جيوش هرقل، أو في الواقع كم كان عدد القائمين على الخدمة، في أي وقت كان، في جيوشه، أو أيّ مقدار مئوي من جميع الأفراد العسكريين في الجيوش البيزنطية، المشاة أو الفرسان، في ذلك الوقت نفسه أو بعد ذلك، كانت إرمينية.[6] فالقوات البيزنطية لم تستطعِ الاحتفاظ بالسيطرة على المناطق الشرقية من إرمينية التي جعلها هرقلُ، فترةً قصيرةً، في وضع قد تخضع فيه للسيطرة البيزنطية على نحو ما. لكنَّهُم نجحوا في



الاحتفاظ ببضع مناطق كان يقطنها الأرمن، وعرفت نهائيًا باسم الثيمة الأرمناكيَّة [القضاء الأرمني]. وقد عاقت جغرافية المنطقة إيصال المعونة البيزنطية (أو فرض الهيمنة البيزنطية) وإنْ تم شيء ما، فقد كان في مصلحة المسلمين في ميزوبوتاميا، الذين من المحتمل أنه كان لهم مدخل أفضل إلى إرمينية مما كان لدى البيزنطيين.

حالت الخصومة بين الأرمن دون تنظيم دفاع فعال تجاه المسلمين. فقد وجد بعض الأرمن، على شاكلة ثيودور ريشتوني، أنَّ من مصلحته أن ينتقل إلى الجانب المسلم، أو يعين القوات الإسلامية على كسر المقاومة الأرمنيَّة. مع أنَّ الخلافات الكنسية المتعلقة بالخلقيدونية والمشيئة الواحدة كان لها بعض الأثر، ومع أنَّ زعيميهما الكنسيين الجاثليقيَّين، إزْر ثم نَرسيس، أثرا في الأحداث من غيرِ منازع، فإنَّ الدافع المحلي الأصلي، الذي جاء في مصلحة المسلمين كان الانقسام والصراع الداخليين بين الأرمن، الذي حال دون القيام بمقاومة موحدة تجاه المسلمين، سواءً مَعَ عونِ البيزنطيينَ كان ذلك أم من دونه.[7]

سَلَخَ هرقلُ جزءًا كبيرًا من حياته على مقربة من إرمينية والأرمن أكثر مما كان من الممكن أن يفعله أي إمبراطور آخر حتى القرن العاشر. وهو لم يقض شبابه محاربًا الفرس ومجنِّدًا، وداعيًا إلى مجلس كنسي هناك فحسبُ، بل إنَّ إقامته الطويلة في سوريَة، وهربه عبر إديسّا وسوماساطا [سميساط] حملاه على أن يظل قريبًا من إرمينية والمشكلات الأرمنيَّة، أكثر مما لو أنه بقي في القُسْطَنْطِينِية، على نحو ما فعل أسلافه مُدَّةَ قرنين من الزمان. بطبيعة الحال لم يكن يدرك القضايا القائمة في إرمينية إدراكًا تامًا، مع أنه عيَّن سنواتٍ كثيرةً، في ثلاثينيّات القرن السابع وأربعينيّاته، في مناطق من إرمينية أو مجاورة لها وعرف أرمنَ كانوا يروحون ويفدون من بلادهم أو إليها.

إن تفهم دور إرمينية والقلق على الأرمن أمر أساس لفهم سنوات هرقل المتضائلة، التي كانت أيام حكمه بلغ فيها بعضُ الأرمن، مثل أنياس السيراكي، قمَّة الحياة الفكريَّة.[8] لقد خدم الأرمن كفرسان للبيزنطيين، لكنهم على ما يبدو لم يكونوا فرسانًا فقط حيث كانوا يقدرون على استعمال أسلحة

متنوعة على نحو واسع. ومع أنهم كانوا مهمين عسكريًا، لم يكن لديهم دافع أصلي لقتال المسلمين في بلاد مكشوفة. إنْ صحَّ شيءٌ، فإن الفتوح الإسلامية جعلت الأرمن أكثر أهمية استراتيجيًا للبيزنطيين من ذي قبل.[9]

كانت إرمينية تختلف عن سوريَة وفِلَسْطين في أن الكثيرين من سكانها كانوا مسلحينَ، وقسمًا كبيرًا من أراضيها، ولكن ليس كلها، تمكِّن السُّكَّانَ من الدِّفَاع تجاه المهاجمين. ومن المحتمل أن الحكومة البيزنطية لم تنجح في فرض الأمر الذي يمنع حمل السلاح، شراءَهُ أو بيعَه، على أيدي أفراد غير رسميين، في أراضيها الأرمنية. ومن الممكن أن الأرض وبعد المنطقة، إضافةً إلى التقليد المحلي، حالت دون فرض المنع. ومن ثَمَّ، كان الأرمنُ أقدرَ من سكّان الولايات البيزنطية على تطوير مقاومة محلية مسلحة تجاه المسلمين، ومقاومة محاولة إرغامهم على انتحال الإسلام.

## 2.8) افتراضاتٌ كرونولوجيَّةٌ

هذا مختصر للجهود البيزنطية للدفاع عن إرمينية، والجهود الإسلامية التي نجحت في النهاية في احتلالها، وهو ليس سردًا مفصلاً وتثمينًا لتاريخ إرمينية. وتدل إرمينية هنا على شيئين: المناطق التي تقع تقليديًا داخل الحدود الرومانية/ البيزنطية، والتي يقع أكثرها غربي الفرات الأعلى، وتلك التي تقع إلى الشرق في منطقة النفوذ الساساني السابقة.[10] وسنعرض أولاً ما يعد الإطار الزمني، ولو أن بعضَ أجزائه لا يزالُ خلافيًّا.

اكتسح القائد اليقظ والمغامر عياض بن غَنم ميزوبوتاميا البيزنطية في سنة (18-19 هـ/ 639 - 640 م) بينما كان مسلمون آخرون بقيادة عمرو بن العاص بدؤوا حملتهم على مصر في ذي الحجة سنة (18 هـ/ ديسمبر\كانون أول 639 م). في السنة التالية (19 هـ/ 640 م) هاجم المسلمون إرمينية البيزنطية من ميزوبوتاميا بقيادة عياض بن غَنْم. وفي السنة نفسها (19 هـ/ 640 م) قام الجنرالان البيزنطيان داوت (داود) أرطايا وتيطس بحملة غير ناجحة في ميزوبوتاميا، ولعله كان ثمة نوع من غارة بيزنطية على حمص، ولو



أنه من المحتمل أن الرواية مكذّبة. وقد عرفت السنة (19 هـ/ 640 م) سقوط قَيْسَاريَّة فِلَسْطين. وفي الرابع من شهر ربيع الأول سنة (21 هـ الموافق 11 من شُبَاطَ/ فبراير 641 م) توفي هرقل. وتلا ذلك في الثالث عشر من جمادى الأولى، أو في 13-17 من جمادى الآخرة 21 هـ/ 20 نَيْسَان/ إبريل، أو 20-24 من أيَّار/ مايو 641 م) وفاة هراكليوس قسطنطين أو قسطنطين الثالث، وعقب ذلك ارتفاع درجة الخلاف البيزنطي في الخلافة. وفي أواخر سنة (21 هـ/ 641 م) (من المحتمل أن يكون في ذي الحجة / تِشْرين الثاني/ أكتوبر ( أسقط كل من مرتينا وابنها الوحيد هيراكلوناس، وبذلك أصبح كونستانس الثاني الإمبراطور البيزنطي الفريد. في وقت مبكر من سنة (22 هـ/ 642 م) ألمت بالإمبراطورية مصيبة بسبب الثورة غير الناجحة التي قام بها الجنرال فالنتينوس وخسارة مصر، وبدأت الحملة الإسلامية على بَرْقَة (سيرانيكا). وفي سنة (22-23 هـ/ 643-644 م) سُيِّرت الحملة الإسلامية الثانية على إرمينية. وقد شغلت الحكومة البيزنطية عن إرمينية في سنة (24 هـ/ 644 م) بسبب الحملة الإسلامية الأولى التي وجهت نحو أموريون [عَمُّوْرية] في سنة (27 هـ/ 647 م) بسبب الثورة غير الناجحة التي قام بها حاكم (exarch) إفريقيّة سنة (29 هـ/ 649 م) بالغارة المسلحة على قبرص ومهاجمتها. وفي سنة (30 هـ/ 650 م) جاءت الحملة الإسلامية الثالثة على إرمينية، التي انتهت بهدنة ثلاث سنوات تم التفاوض بشأنها بين الرسول البيزنطي بروكربيوس ومعاوية والي سوريَة. وفي سنة (32 هـ/ 652 م) كان ثمة مؤامرة قام بها بعض القواد والفرق الأرمنية في الجيش البيزنطي. وقد بلغت التطورات الأوج في سنة (33 هـ/ 653 م) لما تعهّد ثيودور رِشتوني بإلحاق إرمينية بمعاوية، والي سوريَة. في السنة نفسها غادر الإمبراطور كونستانس الثاني إرمينية بعد أن قام هناك بحملات لم يكن فيها حسم، وكان هذا تسليمًا منه بأنَّ فتح إرمينية سيتم على يد حبيب بن مسلمة. وفي سنة (35 هـ/ 655 م) تحول اهتمام السلطات البيزنطية بسبب المعركة البحرية (ذات الصواري). وفي السنة نفسها ثبّت المسلمون سيطرتهم على إرمينية، إذ احتلوا ثيودوسيبولويس (أرضروم) ونفوا ثيودور رِشتوني،

الذي قضى نحبه في سوريَة سنة (36 هـ/ 656 م). وبين سنتي (34 و 41 هـ/ 654 و661 م) كان هامازسب ماميكونيان القائد الأعلى للأرمن، واغتنم فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين، فجرب القيام بعصيان. وفي سنة (39 هـ/ 659 م) عقد الوالي معاوية هدنة مكلفة إلى البيزنطيين. وقاد حبيب بن مسلمة سنة (41 هـ/ 661 م) حملة على إرمينية. وأخيرًا في سنة (42 هـ/ 662 م) اعترف معاوية بغريغور ماميكونيان قائدًا للأرمن، ودفعت إرمينية ضريبة لمعاوية. وانتهت المرحلة الأولى من القتال البيزنطي الإسلامي للسيطرة على إرمينية بانتصار المسلمين.

### 3.8) بروزُ الأرمن في سوريَة وميزوبوتاميا

كان الأرمن معاصرين مبرِّزين، سواءً هادئينَ كانوا أم فعّالين في أحداث فترة الثلاثينيات [من القرن السابع] والأربعينيات [منهُ]. مع أنَّ هذه المناسبة ليست صالحة لفحص تام للمسائل البيزنطية الأرمنية في القرن السابع، تتيح المصادر المتيسرة الفرصة لنحو من إعادة النظر والتوصل إلى نتائج جديدة.[11] الأمر المهمّ هو اهتمام هرقل بالأرمن وإرمينية بعد انهيار جيوشه في اليرموك مباشرة.[12]

كان للأرمن دور مبرِّزٌ في سوريَة وفِلَسْطين ومصر بعد استعادة هرقل لهذه الولايات من الفرس. فقد كانت الأحوال السائدة في أنحاء من إرمينية مضطربة في أوائل الأربعينيات من القرن السابع. ولعل النزاع الأهلي الذي تلا اغتيال كسرى الثاني، والاضطرابات التي نشأت من تلكؤ الفرس في الانسحاب من الأرض البيزنطية التي احتلوها، كانا عاملين أُضيفا إلى ذلك الاضطراب. إن الكثيرين من الأرمن كانوا يزورون الأمكنة المقدسة في تلك المناطق كحجاج. يقرر القديس أنسطاسيوس السينائي أن الأرمن كانوا كبيري العدد على نحو خاصٍّ في سَيْناء قبيل الفتح الإسلامي. من المحتمل أن بعضَ هؤلاء الحجاج لم يقدم من إرمينية حصرًا، بل من مراكز في سوريَة وفِلَسْطين ومصر،[13] سواءً في ذلك العسكريَّةُ والمدنيَّةُ. يبدو أن هرقل كان يعتمدُ على



جماعته من الأرمن اعتمادًا كبيرًا في اختيار أعوانه، وعلى الأخص كبار الموظفين والقواد العسكريين.[14] وعلى كلٍّ، فإنَّ لائحةَ تعداد أديرة القدس في القرن السابع قد تكون غير موثوق بها.[15]

### 4.8) الفرقُ الأرمنيَّةُ في أثناءَ الفتحِ الإسلاميِّ لسوريَةَ

يبدو زعم أنَّ ثورةً قام بها أرمن لتأييد الجنرال فاهان في تطلعه إلى العرش الإمبراطوري، وثورة قامت بها فِرَقه الأرمنيَّة لتأييدها أدَّتا إلى نكبة اليرموك، كأنه محاولة زائفة للعثور على كبش فداء، وإقصاء اللوم عن أسرة هرقل. إن الروايات العربية تشير إلى تصرف غير نظامي في فرق فاهان، لكن لم تشر إلى أنه عصيان. من المحتمل جدًا أنَّ بعضَ أولئك الأرمن تمكَّنُوا من الهرب من المعركة، وأن يتجهوا شِمَالاً نحو الأوطان الأرمنية. والمؤرِّخ الأرمني سيبيوس يدَّعي أنه حصل على معلوماته عن الصدامات البيزنطية الإسلامية في سوريَة وأرمينية بالتحدث إلى مساجين سابقين.[16]

كان القسم الكبير من جهود هرقل التي تلت معركة اليرموك موجهًا نحو تثبيت الجبهة الحربية، وإعادة التنظيم، وكسب الوقت لإقامة خط دفاع جديد في مكان ما في الشَّمَال لكن، إضافةً إلى ذلك، كان ينوي كسب الوقت كي يتاح لأكبر عدد ممكن من الأرمن، من الجنود والمدنيين على السواء، مع رجال الدين والرهبان، أن يفروا إلى دار الأمان. ويدعي ابن إسحاق أن (12.000) أرمني قاتلوا في الجيوش البيزنطية في معركة اليرموك. لقد كانَ هذا بعض السَّبب في أنَّ هرقل أمر فرقه أن يقطعوا السبل ويستميتوا في سبيل استرداد ميليتين (Melitene) ثم يقوموا بهدمها. وإضافةً إلى رغبته في المحافظة على الأرض البيزنطية، كان يرغب في المحافظة على موطنه إرمينية وقوتها البشرية الثمينة من التدمير والرعب اللذين يرافقان الحملة.[17]

من المحتمل أن عددًا لا يستهان به من الفرق البيزنطية التي حاولت الدفاع عن ميزوبوتاميا البيزنطية تجاه المسلمين كان من أصل أرمني.[18] والقول إن قائدًا أرمنيًا مبرِّزًا في الدفاع عن ميزوبوتاميا ظَنَّ أنه روبيل الأرمني، مع أن المصدر، الواقدي المزعوم، هو موضع شك.[19] وروي أنه كان ثمة قائد آخر، هو

يورياك الأرمني، ولا يرد عنه شيء آخر، يقود (4000) جندي بيزنطي[20] المفروض أنه شارك في الدفاع غير الناجح عن كركيسيوم (قَرْقِيْسِيَاء) إزاءَ المسلمين. ويدعي الواقدي أيضًا أن كيلوك الأرمني صاحب إديسًا، ولكن ليس ثمة مصدر آخر لهذه المعلومة المشكوك فيها.[21] وثمة مقاتل آخر مشهور مفروض أنه غير ناجح في قتاله المسلمين، وفي الدفاع عن حَرَّان هذه المرة، هو أرجوك الأرمني.[22] وروي أن صاحب أخلاط أرسل (4000) فارس تحت إمرة ابنته تاريون إلى شهريار بن فَرون للدفاع عن رأس العين تجاه المسلمين.[23] وقد اجتازت هذه النجدة العسكرية عبر بِتْليس وحصن كَيْف (حصن كَيْفا) ومن ثَمَّ، أكّدت أهميتها العسكرية لشن الغارات في ميزوبوتاميا. إذا كانت هذه الأعمال الوارد ذكرها تحوي أيَّ حقيقة تاريخية، ما كان للمسلمين أن يتجاهلوا إرمينية.

إذا صحت الروايات المذكورة آنفًا، فمن الأسهل أن نتفهم كيف اضطُرَّت حملة المسلمين للاستيلاء على ميزوبوتاميا قوادهم العسكريين إلى فتح المناطق المرتبطة استراتيجيًا بإرمينية المجاورة للولاية، أو تحييدها. من المستحيل في هذا الوقت العثورُ على تأييد مستقل لحقيقة هذه الشخصيات تاريخيًا، لكنَّ روايات إسلامية متأخرة عزت للأرمن دورًا كبيرًا في الدفاع البيزنطي عن ميزوبوتاميا في اللحظات الأخيرة. ومع أن الأسماء الحقيقية والصفات قد يلفها التشويش، ومن المستحيل التأكد من أعدادهم أو نسَبهم في الجيش البيزنطي، فمِمَّا يمكنُ قَبولُه الافتراض أن الأرمن كانوا ذوي أهمية في الأدوار السياسية والعسكرية أيام تقلص الحكم البيزنطي في ميزوبوتاميا. ومن المحتمل أن أرمنَ قاتلوا في الدفاع عنها جنودًا، وأن أرمنَ آخرين اضطلعوا بدورٍ مبرَّز في السلطة السياسية والعسكرية.

لقد يسَّرت إرمينية والأرمن نقطة انطلاق لجهود هرقل الناجحة لتحقيق عودة بيزنطيّة عسكريّة على الفرس في عشرينيَّات القرن السابع. ولعل ملاحظًا عاقلاً كان له في الوقت المتأخر من أربعينيات القرن السابع كان يتوقع أنه بمقدور هرقل وبيزنطة أن يكررا هذه العودة على المسلمين، على الأقل ما



دام البيزنطيون يحتفظون بالسيطرة على ميزوبوتاميا. لكنَّ هذا كان مسألة أخرى لإعادة التاريخ نفسه، ولم تحقّق نفسها على نحوٍ كهذا من السذاجة.

## 5.8) إرمينيةُ عشيَّةَ الفتوحِ الإسلاميَّةِ

كانت السُّلطةُ البيزنطيَّةُ قبل الفتوح الإسلاميَّة، على عكس ما كانت عليه الحالُ في فِلَسْطين وسوريَة ومصر وميزوبوتاميا، محدودةً جدًا على المستوى المحلي في أجزاء كثيرة من إرمينية. وقد قاد هرقلُ حملاتٍ واسعةً هناك في عشرينيَّات القرن السَّابع، وبذل الجهد الكبير في سبيل ضمها كلها، لا الجهاتِ التي كانت من قبلُ ولاياتٍ رومانيَّةً في أيَّام الدَّولة الرُّومانيَّة المتأخِّرة فحسبُ، إلى الاعتماد عليه، والتماثل مع كنيسته وإمبراطوريَّته. وكان يتمتع بحميميَّة شخصية في قسم كبير من إرمينية. وقد حالت الحملات الإسلامية الأولى على فِلَسْطين وسوريَة دون السير في هذه الخطة التي كانت ترمي إلى البَيْزَنطَنَة ومَرْكَزَة السُّلطة، وذلك بتحويل انتباه هرقل عن تمكين قبضته على الأرمن، ولا سيَّما أولئك الذين كانوا يقيمون من قبل في مناطق تعتمد على الساسانيين. وفي واقع الحال، فلعلَّ الحملات الإسلامية ساعدت، على نحو مغاير، على الحفاظ على التميز الأرمني، وعلى كلٍّ أدَّت إلى التباطؤ في خطة البَيْزَنْطَنَة[24] طرية العود، ثم تحويلها إلى عكس مسارها. مع ذلك، زادت الحملات الإسلامية أهمية الأرمن وإرمينية لهرقل ولخلفائه الأدنين كمصدر للقوى البشرية، وبسبب قيمة تضاريسها الاستراتيجية. ولم يكن بوسع القابضين على السلطة في القُسْطَنْطِيْنِية في أواسط القرن السابع أن يخسروا قاعدة قوتهم بين الأرمن، على ما كانت عليه من وهن، وعلى كثرة ما خلقه الأرمن من مشكلات لهؤلاء القوم. ثمة أمور متوازية تاريخيًا بين الاتفاقية التي عقدها ثيودور رشتوني مع المسلمين، وواجبات الأرمن الطويلة الأمد نحو الحكام الساسانيين؛ إنَّ المتطلبات العسكرية المبكرة تبدو واضحة في تاريخ إليشي ‹The History of Elishç›، إن استمرار المتطلبات المألوفة هو الذي جعل قَبُول السيطرة الإسلامية أسهل على الأرمن ولا سيَّما أنَّ هؤلاء لم يخضعوهم لأي إجبار ديني على عكس فرض البيزنطيين الأرثوذكسية الخلقيدونية أو محاولات الساسانيين فرض الزواسترية

(الزرادشتية). وتتراوح تقديرات عدد الجنود الأرمن في إرمينية البيزنطية في العقود التي سبقت الحملات الإسلامية بين (15.000) و(30.000).[25] ومن المحتمل أنّ قائدهم كان قائدًا عامًا لإرمينية (Magister Militam per Armenia). وقد فرض المسلمون في مفاوضاتهم مع ثيودور رِشْتوني في سنة (33 هـ/ 653 م) تجنيد (15.000) جندي أرمني.

لم يكن السكان المحليون يحتفظون في أيّ منطقة في الإمبراطورية البيزنطية، على وجه التأكيد، ولا في منطقة أخرى كانت يومَهَا معرَّضَةً لخطر هجوم إسلامي، بتقليد التسلح التام، ونـزّاعين إلى الاعتمادِ على أنفسهم، وعلى التجمعات الأسرية والأعيان. كان الوضع استثنائيًا، وأوجد وضعًا مختلفًا عند المهاجمين المسلمين من جهة، وعند أولئكَ البيزنطيينَ الذين حاولوا أن يقيموا بعض تحصينات عسكرية صالحة، من جهة أخرى.

فرض فتح المسلمين ميزوبوتاميا سنة (18-19 هـ/ 639-640 م) على القائد المسلم لذلك الفتح، عياض بن غَنْم، أن يتخذ من الإجراءات ما يضمن سلامة البلاد التي احتلها حديثًا من هجوم من إرمينية. وإضافةً إلى ذلك، فإنّ إرمينية حصرًا تأذت كثيرًا من فتنة كبيرة حديثة، وأصبحت هي نفسها هدفًا للفتح. كان زعماؤها المحليون منشغلين في نزاع قاتل بينهم. وكان ثمة انشقاق بسبب جهود هرقل لإرغام الأرمن على القَبُول بالاتحاد مع كنيسته القائلة بالمشيئة الواحدة، وسلسلة من مؤامرات القصر في الأيام الأخيرة من حكم هرقل، وأزمة الخلافة، وتلاشي الاهتمام البيزنطي، وتحويل الانتباه أصلاً نحو الدفاع عن سوريَة، وأيضًا، بطبيعة الحال، الضعف والفراغ داخل الإمبراطورية الساسانية؛ هذه الأمور كلها هي التي شجعت فئة من الزعماء الأرمن المحليين وأسرهم القوية والمثقلة بالكبرياء على محاولة الاستقلال.

هذه الأوضاع جميعًا شجعت موجة من النزاع الأرمني الداخلي والنضل من أجل الاستقلال عشية الحملات الإسلامية. هذان زادا تضعضع إرمينية وحالة شلل مماثل في الجهد البيزنطي العسكري تجاه المسلمين هناك.[26] لقد فُقِدَ في سوريَة عدد كبير من الجنود البيزنطيين، وعُهد إلى عدد كبير بالدفاع عمّا تبقى من



الإمبراطوريَّة، أو الحفاظ عليها، لذا غَدَا غيرَ ممكنٍ أن يقوم دفاع بيزنطي سويّ عن إرمينية في بدء الأربعينيَّات من القرن السَّابع. وقد أدى النـزاعُ الهدَّام المتتالي على الخلافة، وصغرُ سنِّ كونستانس الثاني (إذْ كان في الثانيةَ عشرةَ يومَ تولى العرشَ في سنة 641 م) إلى تفاقم الوضع. وعلى ما كانت عليه الحال في ميزوبوتاميا، لم يكن الجيش البيزنطي في وضع يمكِّنه من أن يقوم بمقاومة مهمَّة في وجه المسلمين عند بدء حملاتهم على إرمينية سنة (19 هـ/ 640 م).

في أواخر حكم هرقل لم تكن الحكومة البيزنطية في القُسْطَنْطِيْنِية ذات سلطة تامة في إرمينية، مع أنَّ من المحتمل أنها كانت، في ذلك الوقت، أقدر على السيطرة على الأحداث المحلية هناك في أي فترة من أيامها السابقة. وأضعفت أزمة الخلافة، وشباب كونستانس الثاني، وكذلك النزاع المرتبط بطموحات الجنرال فالِنتَين، السلطة البيزنطية هناك في زمن الاختراقات الإسلامية الأولى. ويؤكد إلقاءَ نظرةٍ على وضع الإمبراطوريَّة الداخلي، في سنوات (19-22-23 هـ/ 640-642-643 م) القدرة المحدودة لكونستانس الثاني وحاشيته على تقرير مسيرة الأحداث. ومع ذلك، فقد أدرك أهميَّة إرمينية لسلطته، ومن ثَمَّ، فقد قاد الحملات بنفسه هناك في سنتي (32-33 هـ/ 652-653 م).

إن نظرة سريعة إلى بعض الشخصيات ستكون كافية. ساند هرقل قائد المنطقة اليونانية مزيز غنوني (بعد أنْ رقَّاه سنة 8 هـ/ 629 م إلى رتبة أمير) وهو الذي فقد حياته هناك على يد دافت سهاروني سنة (14 هـ/ 635 م) والذي حلّ محله بوصفه أميرًا من سنة (14 إلى 17 هـ/ 635 إلى 638 م) لما أرغمه زعماء أرمنيون آخرون على الفِرَار.[27] كما أيد هرقل أيضًا فارازتيروتس بَرغاتوني (برزبان) إرمينية، ومنافس ثيودور رِشْتوني. وكرّم فارازتيروتس بأن منحه قصرًا وتشريفًا على أعلى المستويات.[28] لكن فارازتيروتس تورط في مؤامرة قام بها أثالاريك، وهو ابن غير شرعي لهرقل، ومن ثَمَّ، فقد نفي مع زوجته وأولاده إلى جزيرة ما. عندها لم يبق أي قائد يمكن الأرمنَ أنْ يلتفوا حوله.

كان هرقل يحاول حكم إرمينية جزئيًا، بحمل كل من الزعماء المحليين

المبرِّزين على السعي وراء العطايا والتشريفات والحماية منه شخصيًا، ومن ثَمَّ يفيد هو من منافسات زعماء هذه الأسر لمصلحة قوته الإمبراطورية. كانت هذه اللعبة ممكنة ما دام يحتلُّ العرشَ إمبراطورٌ قويٌّ يفهم إرمينية والأرمن، لكنَّهُ كان يعتمدُ دومًا على قوَّته السياسيَّة، ووضع الإمبراطوريَّة العسكريِّ الخارجيِّ الذي أخذ بالانحدار السريع تحتَ وطأة الحملات الإسلاميَّة في سوريَة.[29]

عندها ظهر ثيودور رِشْتوني أميرًا وقائدًا عامًا للقوات الأرمنية، وهو مَنْ وحَّد القسمين الشرقي والغربي من إرمينية سنة (18 هـ/ 639 م) متخذًا من جزيرة أغْتمار مركزًا لسلطته، وكان ذلك في الوقت نفسه الذي كان المسلمون يفتحون الجارة ميزوبوتاميا. كانت أغتمار في منطقة أسرة رِشْتوني، ومن ثَمَّ، كان ثيودور يقوم بعملياته من القاعدة الخاصة بأسرته. لقد يسَّر هذا النزاع الداخلي برُمَّته للقوات المسلمة أن تحصل على الأخبار والعون والإفادة من انقسامات خصومهم.[30] لقد كانت إرمينية ممزقة، وكان التأثير البيزنطي فيها يتقلب على نحو جامح، وكان يومها في انحطاط كبير.

كانت إرمينية تمتلك بضعة مسارب خانقة تصلح لوقف مهاجم من الجنوب، ولكنْ لم تكن ثَمَّة تجربَة حديثة في إدارة دفاع في وجه هذه الحملة. الممرات كانت مهمة، وهذا ما كان يلزمه حاميات لسدها. والحاجةُ كانت ماسَّةً إلى الاحتفاظ بنقاط مراقبة للتحقق من الطريق الذي قد يسلكه فريق مهاجم وأهدافه. إن ممرات يِتْلِس وبالووس كاسترون وخاربرد (خاربرت، هاربوت) وكماشون: (كَمْخ العربية، وركماه الحديثة) هي بعض نقاط الدفاع المهمة تجاه المهاجمين من الجنوب في حال سقوط ميزوبوتاميا العليا بما في ذلك مَرتيروبوليس، وساموساطا وأساموساطا. وقد تأكد أن الحدود البيزنطية الفارسية كانت زُهَاء سنة (600 م) تمر تمامًا إلى الشرق من ثيودوسيو بوليس (أرضروم اليوم) ثم جنوبًا في مجاراة غونيكسويو، ثم جنوبًا محاذية لنيمفيوس (بتمانسويو اليوم) ثم شرقًا في محاذاة دجلة إلى نقطة تقع مباشرة بعد كيفة أو حصن كَيْفا، ثم إلى الجنوب في ميزوبوتاميا في مجاراة الخابور حتى كركيسيوم على الفرات.[31] ومع ذلك، فلم يكنْ ثَمَّةَ خطٌّ جنوبي ظاهر قابل للدفاع عنه.



لقد كانت مهمة الدفاع الصعبة تقتضي التنظيم والتعاون واليقظة والاستعداد للعمل بسرعة.

### 6.8) مشكلةُ الحملاتِ الإسلاميَّة على إرمينية

ثَمَّة خلافات بحثية جدية في صحة التأريخ الزمني (الكرونولوجيا) للحملات الإسلامية الأولى للمناطق الأرمنية البيزنطية، وكذلك في اتجاهاتها وطبيعتها وأسبابها. إن التقسيم الروماني المتأخر الواقعي للولايات الأرمنيَّة كان يعين إرمينية الأولى والثانية والثالثة والرابعة؛ لكنْ كان ثَمَّةَ أرمن يقيمون في ولايات أخرى بأعداد كبيرة أيضًا.[32]

لقد تم تأصيل التأريخ الأساس للحملات والفتوح الإسلامية على يد غازاريان[33] أولاً، ثم أيده مانَنْديان[34] ودِرنَرسِسْيان[35] وتِرغفنيدان[36] وكانار[37] وغارسويان.[38] إن هذا البناء التأريخي هو كافٍ أصلاً. والمراجعاتِ التأريخيَّةَ التي قام بها ستراتوس، برأي مانانديان، بلغت من البراعة الغاية، لكنَّها ليست مقنعة كليًا. مع ذلك، يؤكد ستراتوس أهمية ميزوبوتاميا على أنها نقطة الانطلاق للحملات الإسلامية على إرمينية. وينتهي الأمرُ به إلى القول: ثَمَّةَ حملتان إسلاميتان منفصلتان في سنة (21 هـ/ 641 م) وسنة (22 هـ/ 642 م) ويرفض حجة مانانديان في وضعه الحملة الأولى في وقت متأخر من سنة (19 هـ/ 640 م). مع ذلك، فإنَّ هذا التاريخ يتناسب مع حملة عياض بن غَنْم الأولى، وليس بالضرورة، على ما ارتأى مانَنْديان، بشأن دفِن بل على الأقل إلى يطلِس وأخلاط، وهما اللتان قبلتا شروط عياض.[39]

من المحتمل أنَّ إيادًا لم يتعدَّ يطليس وأخلاط في الحملة الإسلامية الأولى داخل إرمينية. ليس من المستوثق منه، ومع ذلك قد يكون من الممكن قَبُول أنَّ الحملة الأولى، التي لعلَّها بدأت كتعقب لقوات بيزنطية من أصل أرمني، وصلت حتى (دفِن). مع ذلك، لقي المسلمون المتاعب في أرض صعبة، ولعله كان لهم غرض أصلي محدد؛ أي: تأكيدُ السَّيطرة على ميزوبوتاميا، والحيلولة دون هجمات عليها. بالطَّبع كان عياض بن غَنْم ماهرًا في اقتناص الفرصة كي يفيد من الأحوال ليغني نفسه ورجاله بنهب المدن الأرمنية والريف أيضًا.

لم تأت الحملات المسلمة الأولى والأشد جدية من جهة فارس أو أذْرَبِيْجَان، أو من العراق، بل من سوريَة وميزوبوتاميا.(40) مع ذلك، حاربت بعض القوات الأرمنية في صفوف الفرس ضد المسلمين في القادسيَّة، حيثُ حققَّ المسلمونَ نصرًا حاسمًا في سنة (16 هـ/ 637 م). أما القوات الأرمنية التي خدمت في كلا الجيشين البيزنطي والفارسي فقد فرت من الاشتباكات مع المسلمين، وكانت تخشاهم. وكان من بين الأمور التي كانت تقلقهم شعورهم بأن المسلمين يتذكرون خدماتهم العسكرية حديثة العهد معهم.(41)

حدثت الحملة الأولى الثابتة روايتها لإرمينية سنة (19 هـ/ 640 م) تحت إمرة القائد المسلم الصامد عياض بن غَنْم، الذي أتم فتح ميزوبوتاميا منذ عهد قريب. ومن المحتمل أنه بدأ حملته في أواخر صيف سنة (19 هـ/ 640 م) على أنها استكمال لاستيلاء المسلمين على ميزوبوتاميا، ولا سيَّما ميزوبوتاميا البيزنطية، أو في الواقع لتثبيت هذا الاستيلاء. خرج عياض بن غَنْم من قاعدته، بينما كانت ميزوبوتاميا البيزنطيَّة سابقًا، وهاجم القوات الوحيدة الأرمنية التي كان يمكنها أن تهدد ما كان سابقًا ميزوبوتاميا البيزنطية. وقد اخترق المنطقة حتى مدينتي بِطْلِيس وأخلاط، اللتين أرغمهما على قَبُول شروطه. ويبدو أنه اخترق أيضًا منطقة تارون وبِزْنونِك وإليوفيت ووادي يرْكري ومنطقة أراراط. وفي أقل تقدير يمكن قَبُول رواية البلاذري عن اختراق عياض بن غَنْم أخلاط. ولعله سار بعد ذلك حتى منطقة أراراط، وإلى دفِن.(42)

وثمة رواية تزعم أن أرمنيًا مرتدًا، اسمه فارديك وهو أمير موكًا، أعان المسلمين المهاجمين على عبور نهر مِكامور إلى دفن، الذي يمكن أن يكونوا استولوا عليه في الثاني عشر من شَوَّال سنة (19 هـ الموافق السادس من تِشْرين الأول/ أكتوبر 640 م) وأسروا عددًا كبيرًا. هذه الرواية موضع شك. لقد ردَّ المسلمون المتربصين بهم من الأرمن بنجاح خلال عودتهم إلى ميزوبوتاميا. ولم يتمكن ثيودور رِشْتوني من تنظيم مقاومة فعالة. وليس ثمة ما يدل على أن القوات البيزنطيةَ قامت بمقاومة جادة لتلك الغزوة؛ وأيّ مقاومة فعالة تمت على أيدي الأرمن. هذه الحملة لم ينتج منها أي احتلال أرضي آني، أو فتح على أيدي المسلمين، مع أنها أظهرت مدى الضعف الأرمني.(43)



بعد هذا قصد عياض بن غَنْم ميزوبوتاميا، حيثُ مرَّ عبر الرَّقَّة، ثم ذهب إلى حمص في سوريَة إذْ كان عمرُ عيَّنه حاكمًا. وقد انتهت حملته في حمص إلى حيثُ سيعود بعدَ ذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بعد حملة على الأناضول. هذا يبدي، من غير لَبْس، رغبة السلطات المركزية في الاحتفاظ بالسيطرة على هذه القوات المحارِبة.(44) وقد توفي عياض بن غَنم مباشَرة بعد الفراغ من هذه الحملة في سنة (20 هـ/ 641 م). وقد عين كونستانتي الثاني ثيودور رِشْتوني قائدًا عامًا للقوات الأرمنية، ومنح لقب بطريق (بطريكوس). لكن هذا التسلسل التاريخي خلافي.(45) وتظهر الرواية المضطربة في أخبار ميخائيل السرياني عن اختراق بيزنطي غير ناجح في ميزوبوتاميا بقيادة داوت (داود) أورطايا، الذي من المحتمل أنه كان أرمنيًا، والجنرال تيطس أن خوف المسلمين من عودة بيزنطية قوية لم يكن من غيرِ ما مسوّغ البتّةَ.(46) ولعل الروايات الإسلامية عن محاولات بيزنطية غير ناجحة لاستعادة حمص مستقاة من تلك الحملة المخفقة التي ضخمت شهرتها الدراسات التاريخية الإسلامية.

بعد احتلال المسلمين المشرق انتقلت السلطة من مدن ساحل البحر المتوسط إلى مدن الداخل السوري.(47) وكان أي تهديد محتمل من إرمينية أشد خطرًا على دولة إسلامية يقع مركزها في الداخل، وأصبحت حماية ذلك الحد الشَّمَالي أمرًا أساسًا. إذا ما كانت إرمينية فتحت أم لا، فالأمر الأساس كان إضعاف القوة الأرمنية العسكرية أو تحييدها أو احتواءها.(48)

عين كونستانس الثاني أرمنيًا آخر، هو ثيودور، لقيادة قواته العسكرية، الذي نجح، بدوره، في الطلب إلى الأول أن يحرر الأرمن الذين نفوا إلى إفريقيّة ويعيدهم. وأرسل ثيودور أيضًا ثوما إلى إرمينية حيثُ ألقى القبض، على نحو غير شرعي، على ثيودور رشتوني وحمله إلى كونستانس الثاني، الذي أطلقَ سراحه مع ذلك.(49) وكذلك أُطلق من إفريقيّة سراح الناظر سْمباط، الذي رفض أن يقسم يمين الولاء للسلطة البيزنطية. وبعد مفاوضات شاقة قَبِل أن يقسم الولاء، لكنه مات. ورقّى كونستانس الثاني ابنَ سْمباط، سْمباط بَغرتوني إلى مرتبة ناظر وقائد فرقة عسكرية، ويبدو أنه عيَّن ثيودور رشتوني جنرالاً عامًّا في سنة (29 هـ/ 649 م).(50) وأرسل كونستانس الثاني

بروكوبيوس إلى دمشق لمفاوضة معاوية في سنة (30 هـ–650 م). وقد أصر معاوية على إرسال غريغوري، ابن ثيودور أخي هرقل رهينة.[51] وقد توفي غريغوري، وهو رهينة سنة (32 هـ/ 652 م) في هيرابوليس/ منبج، وأعيدت رفاتُهُ إلى القُسْطَنْطِينِية من أجل إجراء الطقوس اللائقة.

أعفى كونستانس الثاني ثيودور رِشْتوني من مهماته، لكنه استمر على الإفادة من عونه تجاه المسلمين. وقد أورد ثيوفانس رواية مشوشة كانت نتيجتها أن انتشرت فكرةٌ خاطئة أنَّ فاردك بن ثيودور رِشْتوني، باتفاق سابق مع أبيه ثيودور، دل الخصوم على جسر كان مفروضًا أن يدافع عنه.[52] وقد أوقعت مثلُ هذه الخيانة الرُّعب والهلاكَ في القوّات البيزنطيَّة على أيدي المهاجمين المسلمين.[53]

يحيط الغموض بالحدود الدقيقة بين السلطتين البيزنطية والمسلمة في إرمينية ، لكن يبدو أن مدينة دِرزين (ديزان أو ويغان أو بيزان التي هي تركان التركية الحديثة، أو درغان أو دَيْكان، إلى الجنوب الغربي من ثيودوسبوليس أو أرضروم) كانت تقع على نهايات لما كان يعدّه المسلمون السلطة البيزنطية المناسبة في إرمينية، إذ إنهم بعثوا، من هذا المكان، رسلاً سنة (32 هـ/ 652 م) إلى الإمبراطور كونستانس الثاني لتحذيره ألا يتجاوزَ ذلك.[54] وفي الواقع، حاولت هذه البعثة السياسية غير الناجحة أن تحصر السلطة البيزنطية في مناطق في إرمينية الصغرى التي كانت تحت الهيمنة الرومانية قبل سنة (387 م) مع أنَّ من المحتمل أنَّه لم تكن للرُّسُل درايةٌ بالسَّوابق التاريخيَّة هذه. ويبدو أن المسلمين رموا إلى أن يظل الفرات هو الحد الشرقي التقريبي للسلطة البيزنطية في تلك المنطقة التي كانت تبعد أكثر من خمسين كلم إلى الغرب من الحد البيزنطي الفارسي السابق الذي يعود إلى سنة (600 م).[55]

لعل المسلمين لم يسعوا إلى وضع حامية في الجزء الخاص بهم من إرمينية على مقربة من دِرزين، لكنهم جهدوا، على نحو ما كانت عليه الحل في شِمَل سوريَة، في إقامة رقعة خالية من السكان بين القوتين غير متنازع عليها، مهما كانت مؤقتة. كان المسلمون يدعون السلطة من الناحية الواقعية، على جميع ما كان من قَبْلُ ولاية إرمينية الأولى. وتدل الحادثة على أن كونستانس الثاني فقد السلطة عليها مؤقتًا، وكان يحاول، على نحوٍ واضح، أنْ يؤكِّدَ سلطته هناك من جديد. لكنْ ليس ثَمَّةَ نصٌ



صريحٌ، اللهمَّ إلا الرِّوايةَ التي يوردها سيبيوس، والتي تتعلّق بتعيين أيّ حدود بين منطقتي النفوذ البيزنطية والمسلمة في أواسط القرن السابع. في ذلك الوقت كانت ثيودوسبوليس تقع خارج منطقة الاحتلال البيزنطي إلى أن استعادها كونستانس الثاني. لكنَّ اللائحةَ الدقيقة للمدن والحدود الدقيقة لمنطقة السلطة تظل مبهمة. والبيزنطيون لم يلبوا رغبة المسلمين.

من المعقول أن يُقبل تاريخ الحملتين الثانية والثالثة على إرمينية على أنهما حدثتا على التوالي في السنوات (22-23 هـ/ 642-643 م) و(30 هـ/ 650 م).[56] وقد انطلقت هاتان الحملتان من منطقة أتروباتينه. وقد تم الفتح الإسلامي النهائي لإرمينية بعد نقض صلح سنوات (30-33 هـ/ 650-653 م). وقد تم ذلك الفتح نهائيًا سنة (34 هـ/ 654 م)[57] على يد حبيب بن مسلمة الفهري[58] الذي بعثه معاوية إلى إرمينية ردًا على أخبار عن تجمّع قوات بيزنطية هناك. وقد شُدَّ أزرُه وأزرُ قواته السورية بثمانية آلاف من الجنود الكوفيين، ثم تبعهم ستة آلاف بقيادة سلمان بن ربيعة بن عمر، الذي سقط قتيلاً في بَلَنْجار في إرمينية في سنة (29 أو 30 أو 31 هـ/ 649 أو 650 أو 651 م).[59] هذه الروايات، التي يحيط بها الشك، ترمي إلى تعظيم دور الجنود العراقيين. وقد نجح حبيب، بعون من سلمان، في أنْ يتغلَّبَ على القائد البيزنطيِّ موريانوس وقتله مع ثمانية آلاف (وقد أُدّعي أنهم كانوا (80.000) من البيزنطيين والترك/ الخزر) من الجنود الذين كانوا مصدر خطر على قوات حبيب المسلمة. ويبدو أنَّ موريانوس تعقب حبيبًا وقواته، وعثر عليها، فأطبقت هذه عليه ليلاً، ونجحت في ذلك. ومن المحتمل أنَّ هذا وقع قرب دفِن.[60]

لم يُسقط البيزنطيون، مع ما كان عليه وضع الإمبراطورية الصعب في حدود أخرى، مثل البلقان في الشَّمَل، إرمينية من حسابهم.إذْ كانت على درجة كبيرة من الأهمية. فقد عاد الشاب كونستانس الثاني، ومعه جيش كبير سنة (32 هـ/ 652 م) وسَلَخَ الشتاء في دفِن في (32-33 هـ/ 652-653 م) واستعاد السلطة البيزنطية وقتًا. وقد أحنقت محاولاته غير الناجحة في فرض عقيدة المشيئة الواحدة أو العقيدة الخلقيدونية رجل الدين والزعماء المحليين. لكن في سنة (33 هـ/ 653 م) أخرج ثيودور رِشْتوني والمسلمون القواتِ البيزنطيةَ التي تركها كونستانس الثاني في

إرمينية منها، وعندها عادت هذه للاعتراف ثانية بالسيطرة الإسلامية.[61]

بلغت شروط الاتفاقية بين ثيودور رِشْتوني ومعاوية، والي سوريَة، المعقودة سنة (33 هـ-653 م) من الأهميَّة الغاية. فقد قبل المسلمون بألا يقيموا أيّ قوات أو أي ضباط في إرمينية. وقبل الأرمن أن يُعِدّوا (15.000) فارس في إرمينية، لكنّهم لن يطلب إليهم أن يقوموا بالخدمة في سوريَة ويكون الأرمن مسؤولين عن تزويدهم بالمؤن. وقد وعد المسلمون ألا يفرضوا ضرائب سبعَ سنواتٍ مقابل هذه الاتفاقية. وارتضوا أيضًا أن يقدموا العون لإرمينية على الإمبراطور البيزنطي، بإرسال قوات حيثما يطلب الأرمن.[62] هذه الشروط حررت الأرمن نظريًا من تسلط مباشَر، إسلاميًا كان أم بيزنطيًا، مقابل خدمة عسكرية محدودة للمسلمين وحلف معهم، وكان من الطبيعيّ أنْ حالت هذه الشروط دون البيزنطيين وإرمينية، بما في ذلك قوتها البشرية وموقعها الاستراتيجي.

مع ذلك، كان الذي ناله المسلمون يومها سلطة محدودة، ولم يتم لهم ذلك على الهضبة المرتفعة إلا في وقت متأخر من القرن السابع. وقد قام موريانوس، القائد البيزنطي للقوات البيزنطية في ثيمة أرميناك بمحاولة غير ناجحة لاستعادة إرمينية بيزنطة.[63] وفي سنة (35 هـ/ 655 م) احتل المسلمون ثيودوسيو بوليس (أرضروم الحديثة، وهي قاليقَلا العربية، وكُرين الأرمنية) وحملوا أيضًا ثيودور رِشْتوني معهم إلى سوريَة سنة (35 هـ/ 655 م) حيثُ توفي في سنة (36 هـ/ 656 م).[64] وأقاموا مكانه هامازاسب ماميكونيان الذي فاجأهم بميله إلى بيزنطة.[65] وفي سنة (34 هـ/ 654 م) أصبح زعيمًا لإرمينية، واعترفت به بيزنطة حاكمًا لإرمينية، ومشرفًا على شؤونها العسكرية. وقد ظل أمير إرمينية من سنة (34 هـ/ 654 م) إلى سنة (41 هـ/ 661 م) حين خلفه أخوه غريغور ماميكونيان وحكم بوصفه أميرًا، معترفًا بسيادة المسلمين ولا سيّما معاوية، من سنة (42 هـ/ 662 م) إلى سنة (62 هـ/ 681 م).[66] هذا العمل كان الحد الفاصل في العلاقات الأرمنيّة مع بيزنطة والأمويين.[67]

### 8. 7) ملاحظاتٌ على الجهادِ من أجلِ إرمينية

كانت الحملات الإسلامية في إرمينية جزءًا لا يتجزأ من ملاحقة المسلمين



القوات العدوّة الفارّة. كان هذا أمرًا صحيحًا لّما لاحق المسلمون القوات البيزنطية، التي من الممكن أنها كانت أرمنية، حتى ميليتين (مَلَطْيَة) بعد معركة اليرموك مباشرة.[68] وقد لاحقت قوات مسلمة أخرى أثر الأرمن الذين قاتلوا مع جيوش الساسانيين المكسورة. وقد أعيد الأنموذج نفسه على يد عياض بن غَنْم سنة (20 هـ/ 640 م) لما قاد حملة على إرمينية، لعلها كانت دعمًا لجهوده لتثبيت السلطة في ميزوبوتاميا البيزنطية.[69]

كانت الحملات الإسلامية الأولى على أتروباتنه في أثناء اللحاق العنيف للبقية الباقية من القوات الساسانية التي كانت صفوفها تحوي أرمنَ.[70] وكان من المتوقع أن يهرب الجنود الأرمن إلى كل من الجيشين البيزنطي والساساني في طلب الأمان إلى بلادهم الجبلية وإلى أهلهم الأرمن. وعلى النحو نفسه كان من المتوقع أن يعنى القواد المسلمون بألا يمكِّنوا هذه القوات الهاربة من إعادة تجمعها حيثُ تكونُ مصدرَ خطرٍ جديدًا للدولة الجديدة.

إن الحملات الإسلامية على إرمينية حرية ببعض الملاحظات التاريخية للمقابلة. يروي البلاذري أن الفاتحين المسلمين في شِمَل سوريَة رسوا على بعض القرويين فرضًا أن ينهوا إليهم أخبار النشاط البيزنطي، والمفترض أن المقصود كان النشاط العسكري.[71] وقد أفادت السلطات الساسانية العسكرية من قبلُ من مثل هذه الأخبار عن تحرّك القوات البيزنطية، التي نقلها إليهم رجال الدين النساطرة المقيمون في المناطق الحدودية.[72] وأظهرت المطاردة ضعف تحصين المنطقة وما فيها من إغراء للفتح. كان المسلمون في أوائل خمسينيات القرن السادس أصلاً يلاحقون فلول الجنود البيزنطيين والأرمن، لما بدا لهم فجأة إمكانات إرمينية البيزنطية وأهميتها الاستراتيجية، وهذا ما لا يمكنهُم أنْ يتجاهلوه، أو أن يسمحوا للبلاد أن تبقى في قبضة أيدي خصوم أشداء.

كان سقوط إرمينية في أيدي المسلمين نتيجة أسباب سياسية وإثنية أكثر منه لأسباب عسكرية. وكان الموقف السلمي للسكان المدنيين نحو المهاجمين المسلمين الأنموذج الذي حدّد ردود الفعل في سوريَة وفلَسْطين وميزوبوتاميا.

يبدو واضحًا أنَّ الاختباراتِ العسكريَّةَ السَّابقةَ للانتصارات الإسلاميَّةِ والانكسارات البيزنطية في سوريَة وفِلَسْطين ومصر وميزوبوتاميا مهدت السبيل لخلق نوع من الاندفاع نحو المسلمين في إرمينية، الذي ثنى القوم عن المقاومة المحلية، إذ إنها لم تثبت قدرتها في تلك المناطق السابقة؛ وقد كانت إرمينية، في حقيقة الأمر، مثلاً أفضل للعداءات الأثنية المحلية والخلافات الدينية مع بيزنطة وللطموحات المحلية حيثُ أقعدت القوم عن مقاومة المسلمين إلى درجة أكبر من تلك الحالات التي كثيرًا ما يشار إليها في سوريَة ومصر. مع ذلك، لم ينتحل سُكَّان إرمينية، عمومًا، الإسلام، ولم يتمثلوا الحضارة الإسلامية والعربية.[73] وقد أثّر موقعها الهامشي وتمسكها القوي بالذاتية المحلية في عدم التمثل المشار إليه. ومع ذلك، كانت الكنيسة وإرادة البقاء كأرمنَ متميزين هما السببين الأقوى لعدم التمثل. ولما اشتد ضغط المسلمين بعد ذلك في سبيل انتحل الإسلام وفرض ضرائب مرتفعة اتحد الأرمن في الثورة. لكنْ قد يُشَكُّ بأن المسلمينَ كانوا أصلاً عُنُوا جديًا بانتحال الأرمنِ الإسلامَ، الذينَ يستطيعونَ أنْ يستمرُّوا في القيام بدورهم الطويل الأمد في استغلال موقعهم على أطراف إمبراطوريتين كبيرتين لمصلحتهم الخاصة.

لم يكن مُنَاخ إرمينية مما يجعله مناسبًا للمسلمين، الذين كانوا من المحتمل أيضًا، أقل معرفة بالتضاريس وبتفاصيل محلية أخرى. لم يتقبل الأرمنُ المسلمينَ بأذْرُع مفتوحةٍ. لقد كان الفتحُ الإسلاميُّ عنيفًا ومهدِّمًا. وكان عدد الأرمن الذين تعاونوا مع المسلمين صغيرًا منذ البدء، وذلك لدوافع مختلفة. لكنَّ رواة مثل سيبيوس يصفون الفتح بأنه نكبة، وليس تحريرًا.[74] على أن الذي يهمنا هو أنه مع هذه الرؤى السلبية الشائعة والخوف من المسلمين، لم تكن المقاومة الأرمنية العسكرية ذات أثر. ومع ذلك، لا تضفي المصادرُ الأرمنيَّةُ وغير الأرمنية على المسلمين أي تفوّق عسكري تقني أو تكتيكي في حملاتهم في إرمينية. والمصادر الأصلية المتوافرة لدينا لا تزودنا بوصف مفصل لعدد القوات المسلمة الزاحفة في إرمينية، ولا لطبيعتها.[75] ومن المحتمل أن عدد المهاجمين المسلمين كان على شيء من الأهمية، لكنَّهُ لم يكن مما لا يعدّ، لعلَّهُ كان يعدُّ بالآلاف، لكنْ لم يكن يعد بعشرات الآلاف.



لم تكن الأسبقيات في استيلاء المسلمين السريع على فِلَسْطين وسوريَة وميزوبوتاميا مما يشجع الأرمن على المقاومة العنيفة. لقد خلقت تلك الفتوحات قوة اندفاعها وتركت الأثر على أنه انتصار لا يقاوم. من غير الواضح هل وضع الأرمنُ أنفسُهُم خططًا محكمة للدِّفاع عن إرمينية، أو المدى الدقيق الذي عني به القواد البيزنطيون في تخطيط الدفاع عن إرمينية بعد موت هرقل؟ مع أنَّه مر على إرمينية حملاتٌ متعدِّدَةٌ في تاريخها، فإنَّ تاريخها الحديث يروي أمثلة عن حملات عسكرية عليها من ميزوبوتاميا. وما كان لانعدام مثل هذه الأسبقيات ليساعد أيًا كان في محاولته تخطيط دفاع تجاه أي هجوم إسلامي محتمل من ميزوبوتاميا. وليس ثمة أي دليل على أي محاولة جادة لتنسيق هذه الخطة ووضعها موضع الأداء.

لقد حال العداء الإثني بين الأرمن واليونان والخلافات الكنسية على السياسة ذات المشيئة الواحدة التي اتبعتها الأسرة الهرقلية دون جهود الأسرة في تعبئة الدعم الأرمني الكامل تجاه المسلمين. ولم يكن ثمة جيش بيزنطي قوي يحاول أنْ يوجه الدفاع إزَاءَ المسلمين، بعد سقوط ميزوبوتاميا وموت هرقل. كان حفيد هرقل، كونستانس الثاني، وحده الذي حاول أن يقوم بجهد كبير ليؤكد السيطرة البيزنطية، لكنَّهُ واجه أرمنَ فضَّلوا حكم المسلمين. وعلى وجه التأكيد، أوجد التقليدُ الأرمنيُّ الأقدم من حيثُ نقل الولاءات بين الإمبراطورية الرومانية/ البيزنطية والفرثية/ الساسانية عند بعضٍ نزعاتٍ لتفضيل دولة غير بيزنطة كسلطة اسميَّة عليها. إن تاريخ المنطقة اختلف كثيرًا عن تاريخ سوريَة وفِلَسْطين ومصر، فلم يكن غريبًا أن مصايرَها خلال الفتوح الإسلامية اختلفت عن مصائر تلك المناطق، التي كانت أقرب إلى مراكز السكان العرب وقوتهم. وقد كانت التحديات (اللوجستية) بطبيعة الحال، قائمة دومًا، أمام الجيوش البيزنطية التي كانت تقوم بالعمليات في إرمينية عند نهاية قلقة من خط طويل من المواصلات.

كانت إرمينيةُ تحظى بما فيه الكفايةُ من المواردِ البشريَّة والماديَّة ليمكِّنَها من الدِّفاع عن نفسها تجاه المسلمين، لكن التدابير الخاطئة للسياسة البيزنطية

والخصومات بين أسرها المبرِّزة وزعمائها أدت إلى استحالة تطوير مقاومة متماسكة. مع ذلك، قامتْ هناك مقاومة محلية عنيفة في إرمينية أكثر مما قام في سوريَة وفِلَسْطين، ومصر، ولكن لم يكن ثمة جيش بيزنطي من حيثُ القوة أو من حيثُ الموقعُ كي يتقدم إلى دعمها في السنوات المبكرة الحرجة من أوائل أربعينيات القرن السابع. وفي الوقت المبكِّر من خمسينيَّات القرن السابع، لما نجح كونستانس الثاني في سيطرة أقوى على الجهاز الحكومي والعسكري، فاتَ الوقتُ على بيزنطةَ حيثُ يمكنها أن تقوم بالكثير. كان المسلمون طوَّروا بما فيه الكفاية الروابط المحلية وإدراك الوضع المحلي، هذا إضافةً إلى تزايد عدد القوات المسلمة الجاهزة للقتل ولفتح إرمينية، حيثُ إنَّ الكفة رجحت أمام أيِّ إمكانيَّاتٍ لفرض سلطة بيزنطية متينة. مع ذلك، لم يؤد تنقل بعض الأرمن من جهة إلى أخرى، والتعامل مع العدو، إلى انتحال الأرمن الإسلامَ. وهنا نجد مرة ثانية أن تجاربهم اختلفت عن كثير من السكان المسيحيين في سوريَة وميزوبوتاميا ومصر.

## 8.8) الملابساتُ بشأن بيزنطةَ

لم تكن المعارك الكبرى التي تشترك بها جماعاتٌ كبيرة من القوات هي التي قررت قدر السلطة البيزنطية في إرمينية. لقد ظلت أجزاء من المساحات التي كانت تحت السلطة سابقًا، بيزنطية، وآلت، بطريقة ما زالت موضع خلاف في النظرة، إلى تكوين الثيمة الأرمناكية (Armeniak) أولاً.[76] لكنَّ المناطق التي خسرتها بيزنطة سقطت بسبب انعدام المقاومة المحلية المناسبة والدعم الناقص من القوات البيزنطية المتحركة والزاحفة. كانت ثمة محاولات للصمود في مواضع منيعة، كالحصون والمدن المسوَّرة، كما كانت ثَمَّةَ محاولاتٌ ارتجاليَّة لإقامة كمائن للمسلمين. لكنْ لا يبدو أنه كان هناك أي اختراع جديد في التكتيك، ولا في الفنِّ العسكريِّ لقتال المسلمينَ، على الأقلِّ لم يكن هناك ما أدَّى إلى أي نجاح. ومن الصعوبة أن يُقدِّر المدى الذي توصل فيه إليه الأباطرة الهرقليون وقوادهم ومستشاروهم إلى أيِّ استنتاجات أو دروس من تجاربهم العسكرية والسياسية في إرمينية، أو سبل توصلهم إلى أخبار عن العمل العسكري هناك.



في تلك السنوات المبكرة من الصراع البيزنطي الإسلامي في إرمينية لم يفز البيزنطيون باختبارات حاسمة على المسلمين. لعلَّهم اكتسبُوا خبراتٍ وإدراكًا من قتالهم المسلمين، لكن أيًّا من هذه النتائج لم يبنْ أثرُهُ في الصِّراع العسكري والسياسي هناك في أربعينيَّات القرن السَّابع وخمسينيَّاته. لقد كان الوضع متقلبًا، ولم يكن من الواضح هل نجحَ البيزنطيونَ في تطوير تكتيك فعال تجاه المسلمين، وفي كسب تأييد السكان في مقاومة المسلمين؟ وقد اتضح من سقوط معظم إرمينية في أيدي المسلمين الانحطاط والعطب المستمران للقيادة العسكرية والسياسية البيزنطية، واستمرار المظالم والشقاقات القديمة بين الأرمن.

ثَمَّةَ خلافاتٌ كبيرة في النظرة إلى أصل الثيمة الأرمناكية. يبدو أنَّ موريانوس كان قائدًا للوحدة الأرمناكية الناشئة في أواسط خمسينيات القرن السابع. لكن من المؤكد أن هذه الوحدة نشأت من رحم الجيش البيزنطي لإرمينية. وقد كان عدد أفرادها غير محدَّد، لكن بعيد إعادة السلطة البيزنطية وتعيين الحدود بين بيزنطة وفارس الساسانية بعد انتهاء الحرب، تولَّى مزيز غْنون قيادة جماعة من الأرمن. وقد أقيمت مستودعات واسعة من أجل دعمهم، وهذه كانت عبئًا بلغَ من الإزعاج الغايةَ عند السكان المحليين. ويبدو أنَّ أجزاءَ من النظام القديم؛ أي: الدفع عينًا، كانت قائمةً في إرمينيةَ الواقعة تحت السلطة البيزنطية بعد استعادتها قبيل الفتح الإسلامي.[77] ولم يرافق استعادة السلطة البيزنطية أي تطوير اجتماعي أو اقتصادي خلال العقد والنصف من حكم هرقل. والأمر الواضح في إرمينية البيزنطية هو أنه بقطع النظر عن حجم القيمة الذي كانت الفرقة الأرمناكية آخذة في تكوينها، أواخر الثلاثينيّات من القرن السَّابع، فإنَّ تركيبته المؤسّسيّة لم تمنحه عصًا سحريَّةً لتحدي الحملات الإسلامية. لم يكن تمَّ العثورُ على وسيلة بيزنطيَّة عسكريَّة جادَّة تنظيميَّة حين بدء الحملات الإسلامية المبكرة.

مع ذلك، لم تكن المشكلة البيزنطية في إرمينية تكتيكية واستراتيجية فحسب، فقد كانت سياسية وإثنية ودينية ولوجستية كذلك. ولم يعتمد أي نجاح أحرزه الأرمن تجاه المسلمين البنية العسكرية البيزنطية. ومما يمكن تفهمه، على

كلّ حل، هو أن التجارب الرومانية والبيزنطية السابقة في تطوير دفاع الممرات أمام الفرس، لعلها هي التي أوحت بفكرة الدفاعات المحلية تجاه البيزنطيين والمسلمين على السواء.

ليس من البين إلى أي مدى أثرت تجارِب هرقل الأصلية في تعيين قواد عسكريين كحالة طوارئ في سوريَة ومصر في سياساته في تنظيم قوة الأرمن العسكرية وفي إرمينية في السنوات الأخيرة من حكمه. وفي حقيقة الأمر، فقد جاء استعدادُ ثيودور رشْتوني النهائي في مفاوضة المسلمين وقَبُوله أن تخضع بلاده وقومه لهم تأكيدًا إضافيًا للخوف الذي كان يسكن هرقل من أن يقوم موظفون محليون بترتيب شروطهم الخاصة مع المسلمين. فقد تمكن ثيودور رشْتوني من القيام بما لم يتح لجون (يوحنا) كاتياس وسيروس، بطريق مصر وممثل الأغسطس، أنْ يقوما به في ميزوبوتاميا ومصر. فقد أمكنَ هرقلَ أنْ يصرفهما، ولكنْ لا هُوَ ولا خلفاؤه استطاعوا أن يصرفوا ثيودور رشْتوني حقًّا. كان ثيودور رشْتوني التقليد الأرمني القديم بأن يقبل بما لا يمكن دفعه أملاً في كسب بعض النفوذ في الحكم الذاتي السياسي والديني.

يجب عدُّ السياسة الإسلامية نحو إرمينية في خلافة عثمان (23-35 هـ/ 644 – 656 م) أنها سارت على غِرار ما تمّ لشِمَل سوريَة. لقد كانت رغبةُ المسلمين في إقامة منطقة مشاع أو فاصلة، على أن تكون صديقة وليست محايدة، بين المنطقة التي تقع تحت سلطانهم وتلك التي تتبع البيزنطيين. كان هذا سببًا آخر، إضافةً إلى صعوبة الأرضين وعناد الأرمن وشخصيتهم العنيفة، في وعد المسلمين ثيودور رشْتوني بألا يبعثوا أي جنود أو ضباط مسلمين (عرب) إلى إرمينية. وعلى ما كانت عليه الحال في أرابيسّوس (Arabissos) (ومن المحتمل في حال ميليتين (مَلَطْيَة) أيضًا) فقد أملوا في إقامة ترتيبات مع السكان المحليين للحصول على أخبار عن تحركات القوات البيزنطية وتعاون على البيزنطيين. ولا يمكن النظر في السِّياسة الإسلاميَّةَ في إرمينية، مثل تلك التي اتبعت في قبرص، منفردة. كانت ثمة صفات خاصة للوضع الأرمني، لكنْ كان هناك صفات عامة مرتبطة بمحاولة وضع سياسة إسلامية في مناطق حدودية أخرى تجاه



البيزنطيين. كانوا يرغبون في منطقة منزوعة السلاح، ولكن في الدور الأول من الفتوح فحسبُ. فبعد انتهاء هدنة السنوات الثلاث فقط في سنة (35 هـ/ 653 م) قام حبيب بن مسلمة، بأوامر من الخليفة عثمان ومعاوية، الذي كان والي سوريَة، بالهجوم على إرمينية وجورجيا والاستيلاء عليهما. وقد أوجد نجاح مسلمة وضعًا جديدًا وفرصًا جديدة أدت إلى تعديل في الاستطلاعات العسكرية المسلمة التي كانت أصلاً أكثر حذرًا، والسياسة، والترتيبات المالية المتصلة بها.

في مقابل ذلك لم يكن البيزنطيون، وعلى رأسهم كونستانس الثاني، يرغبون في قيام دويلة محايدة على حدودهم، ولا سيَّما إذا اقتطعت من أراضٍ بيزنطية سابقة. ولم يكن كونستانس الثاني وهرقل ينظران بعين الرضا إلى قيام سلطات محلية في طبيعتها طاردة عن المركز، سواءٌ في ذلك إرمينيةً كانت أم غيرَ ذلك. كان هذا الخطر الأكبر عند بيزنطة، إذ إنَّ هذه العمليَّة يمكنُ أنْ تتسارَعَ. وقد حاول كونستانس الثاني، من دون جدوى، أن يحول دون هذا التحرك في حالة إرمينية. لكنَّ الأرض والعداوات الإثنية والدينية والخطأ في تقدير السياسية أدّت جميعها إلى إخفاقه.

حفزت تجربةُ المسلمين في إرمينية الأملَ في أن يزداد عدد الحركات الانفصالية التي قد تُعين توسع المسلمين، وإضعاف الإمبراطورية البيزنطية. ومن المحتمل أن هذا الأمر رفع من آمال المسلمين في أن تقتنع وحدات أخرى عسكرية بيزنطية تنقل ولاءها إلى المسلمين. ومن المحتمل أنها شجعتهم، على نحوٍ خاصٍّ، على محاولة إقناع قواد الفرقة الأرمناكية الحديثة النشأة وجنودها بأن يخرجوا على الدولة، ويضعوا أنفسهم ومنطقتهم تحت نفوذ المسلمين.[78] يبدو أن ما اقترحَ عبدُ الحميدِ بنُ يحيى استعمالَهُ من أنواع الضغط على الخوارج في القرن الثاني/ الثامن كان شبيهًا بما عرضه المسلمون، ولا سيَّما معاوية، على الأرمن من الحاكميات والحفاظ على الأموال والهدايا والمشجعات في سبيل حملهم على الانفصال عن البيزنطيين في أواسط القرن الأول/ السابع وأواخره. كان هذا النوع من التصرف أنموذج الأساليب الخداعية التي أمّل

المسلمون، عادة من دون نجاح، استخدامها في أمكنة سوى هذه لتيسير خروج قواد مبرِّزين وجماعات من داخل الإمبراطورية البيزنطية.

لعل التجارب التي رافقت هذه الأحداث، مثل خروج ثيودور رِشْتوني وسواه من الأرمن إلى معاوية، زادت المخاوف في القُسْطَنْطِيْنِية وداخل القيادة العسكرية البيزنطية من تعرض القوات على الحدود الأرمنية لاحتمال القيام بخرجات أخرى. ومن المحتمل أنَّ تقديمَ ثيودور رِشْتوني ولاء إرمينية لمعاوية زادَ التوتر داخل القوة البيزنطية الأرمناكية، وحمَل بعضًا على إعادة النظر في الولاءات، وهذا ما وقع حقًّا في الثورة غير الناجحة التي قام بها القائد سابوريوس سنة (47 هـ/ 667 م).(79)

كانت إرمينية المثل الأول لخروج القيادة المسلحة لبعض المسيحيين، مع الجنود والمدنيين الذين كانوا تحت سلطتهم إلى السلطة المسلمة، من دون أن يكون ثمة أي تحسب آني لانتحالهم الإسلام. وعلى كلٍّ، فالقضيَّةُ التي ظلت موضع تفكيرهما هي هل كانتْ ثَمَّةَ فئةٌ أخرى من النخبة من داخل الإمبراطورية البيزنطية يمكن أنْ تحذوَ حذوَ هؤلاء الزُّعماء المحليين، فتُقْدِمَ على مفاوضات جديَّة مع السلطات المسلمة في دمشق أملاً في التخلي عن ولائهم لبيزنطة، ووضع قواتهم وبلادهم تحت السلطة المسلمة؟ إنَّ هذه التبدُّلات الصَّعْبة في الولاء يمكنُ أنْ تتحقق عندَ تعرُّض مصالح هذه النخْبَة، ولا سيَّما القوَّادِ العسكريين، لخطر جسيم بطريقة ما على أيدي السلطة المركزية في القُسْطَنْطِيْنِية.

من المحتمل أن المسلمين حصلوا على أخبار عن البيزنطيين من الأرمن. فقد كانت إرمينية مركزًا مهمًا لتتبع الأخبار عن الأهداف البيزنطية، وتحركات القوات، ونواحي القوة والضعف، والقدرات. إن احتلال المسلمين إرمينيةَ، والمفاوضاتِ مع الأرمن، لعلَّها، حسَّنَت كثيرًا، تفهُّم المسلمين الأساليب البيزنطية في قيادة الحروب.

كانت إرمينية حالة استثنائية ظهرت فيها القوات المحلية المبعثرة، ولو فترةً وجيزةً، حيثُ أدت إلى ترتيبات مختلفة مع المسلمين. لكنْ في هذه الحال كان الضُّبَّاط العسكريونَ المسلَّحُون، وليس الموظفون المدنيون التقليديون (في واقع



الأمر لم يكن ثَمَّةَ موظَّفون مدنيون تقليديون في المجتمع الأرمني يومها) هم الذين أنجزوا هذا التفاوض المستقل. من الناحية التاريخية، كانت هذه هي الحالة في إرمينية. ومن الطبيعي أن يثمن مؤرخو إرمينية هذه الأحداث كلية من رؤية التاريخ الأرمني وأسبقياته. لكنْ من الممكن أن تثمن هذه الأحداث من حيثُ ردُّ الفعل عند الموظفين الشرقيين في الولايات البيزنطية على المهاجمين المسلمين. في ضوء هذا، نجح ثيودور رِشْتوني حيثُ أخفق آخرون، وزود الحكومة في القُسْطَنْطِيْنِية بسببٍ آخرَ أيضًا كي تخشى الحكم الذاتي المحلي.

# 9) الخلافُ والثقةُ في أزمة القرنِ السَّابعِ

## 1.9) تحدِّي النـزواتِ المتبدِّلةِ

إن الـرؤى البيزنطـية التي تعود إلى القرن السابع، والتي نشأت من النتيجة المـنذِرَة بالخطـر للمصـائب الحقيقيَّة العسكرية والسياسية في آسيا وأوربَّة، تمَّت في إمـبراطورية هـزتها الخلافات الدينية. وتزودنا النصوص التي جاءت معاصرة، أو قريـبة مـن المعاصـرة، للفـتوح الإسلامية بإشارات للأمزجة والمواقف وردات الفعـل المعاصرة. ومصادر القرن السابع، من أيِّ نوع كانت، هي نادرةٌ، ومن بين الأكثر ندرة تلك التي تحاول أي تفسير أو عقلنة.

بعـيد خسـارة فِلَسْطين وسـوريَة ومصـر دوّن بيزنطيو القرن السابع بعض انطباعاتهم عـن هـذه النكبات. وقـد كـان لإشـاراتهم المقتضبة إلى الأحداث إسـهام في خلـق الـتأريخ المـتأخر لما حدث. وقد اعتقدوا بأن معارك حاسمة كانت علامـة عـلى المـراحل الرئيسة للخسائر التي لحقت بهم والتدمير النهائي على أيـدي المسـلمين. وقـد عبر عنها القديس أناستاسيوس السِّيْنَائي، توفي سنة (700 م) أو بعدهـا بقليل، بقوله: «إن أول سقوط للجيش الروماني (البيزنطي) والأشد هلعًـا، والـذي لا شـفاء مـنه، سـيل الدماء في غابيثا [الجابية] واليرموك وداثمون [داثِـن] الـذي تـلاه الاسـتيلاء عـلى [ولايـات] فِلَسْـطين وقَيْسَاريَّة والقدس، وحـرقها، ثـم تدمـير مصـر، ثـم، على التوالي، الاستيلاء على شبه جزر رومانيا وجـزرها كـلها[1] وتدميرها تدميرًا لا قيامةَ بعدَهُ». إنَّ ما وقر في ذاكرة المعاصرين عـلى أنـه الجـزء الأولي من النكبة البيزنطية كان المعارك الكارثية. لقد اعترفوا بـأن أوضـاعًا كارثـية أخـرى جـاءت إثْرَ هذه الهزائم في المعارك، وقد عزوا تلك

الانكسارات العسكرية، وسواها من المعارك الخاسرة، مثل الانكسار البحري في معركة فونيكس [ذات الصواري] إلى سياسة دينية خاطئة.[2] ولم تكن هذه، بطبيعة الحال، رؤًى فحسبُ. فالمعارك كانت ذات أهمية في إخراج البيزنطيين من فِلَسْطين وسوريَة ومصر. ومن المستحيل التأكُّدُ من مدى المعلومات الدقيقة المتعلقة بتلك المعارك التي وقعت في أيدي المعاصرين المتأخرين من القرن السابع عدا بقية الناجين أنفسهم.

كانت ثمة جهود، وهي التي يظل تعقبها أمرًا يبلغ من الصُّعوبة الغايةَ، لدفع المسؤولية في الانكسار العسكري عن الإمبراطور هرقل أو عن الجنود البيزنطيين العاديين. وبدلاً من ذلك، أُلقيت المسؤولية على كاهل قواد بيزنطيين آخرين هم الذين أخفقوا في اتباع إنذارات هرقل الحكيمة، أو أن المسؤولية ألقيت على خدع المسلمين في المعركة التي عُدَّت سببًا للنجاح لا القوة عند هؤلاء. كان ثمة عدم استعداد ورفض مؤكدان للقَبُول بأن المسلمين انتصروا بسبب قيادة عسكرية أرفع وتكتيك وقوة معنوية واستراتيجية. مع ذلك، فإنَّ الادعاء بأن المسلمين حققوا الفتح بالتسلل أعشى الملاحظين البيزنطيين عن أي درس كان من الممكن أن يُفاد منه من هذه النكبات. وإضافةً إلى ذلك، فإنهم، وهو ما يدعو إلى السخرية، يسلمون بتفوق المسلمين في مجال استعمالهم المقدرة العقلية في الحرب، وهو أمر كانوا عادة يحتفظون به لأنفسهم. وتزعم رواية لاتينية إسبانية من القرن الثامن: «إنَّ العرب، وقد وقعوا تحت تأثير زعيمهم محمَّدٍ (ﷺ) فتحوا سوريَة وبلاد العرب وميزوبوتاميا، ودمَّروها بالخديعة أكثر مما كانت الرجولة سبيلهم، ولم يكن الكثير منه بالهجمات المكشوفة بل على سبيل الغارات المختلسة. وهكذا هاجموا كل المدن المتاخمة للإمبراطورية بذكاء وخدعة، لا بالرجولة، ثم نفضوا النير عن رقابهم، وقاموا بثورة مفتوحة».[3] يزيح هذا المصدر أي مسؤولية عن هرقل، ثم إنه يقلل أهمية الإنجازات المسلمة بأن تعزى انتصاراتهم إلى خدعة عسكرية بدلاً من جدارة ورجولة عسكرية صادقتين، مع العلم بأن كتب الإرشاد العسكرية البيزنطية كثيرًا ما كانت تنصح القواد باللجوء إلى المخادعة العسكرية. إن المؤلف يفسر الانكسار البيزنطي والنجاح الإسلامي بأن المسلمين لم يقاتلوا على أساس قويم.



يحتوي الأدب الديني اليوناني الذي يعود إلى القرن السابع على بعض إشارات متفرقة إلى قضايا سياسية وعسكرية، لكن على الباحث أنْ يقرِّر: هل كانت هذه اللمحات الخاصة بالقرن السابع ترسُم صورةً أو نظرة عامَّة؟ ثمة بيِّنةٌ ضئيلة على أنَّ الأدب البيزنطي العسكري استوعب دروسًا أو عبرًا فيها تأمل في الانكسارات العسكرية للإمبراطورية البيزنطية على أيدي المسلمين. على الأقل لم يصلنا شيء في الكتب التي بين أيدينا التي تتناول التكتيك والاستراتيجية العسكريتين. والكتابة التاريخية المحفوظة في الكتب التي وصلتنا، لم تتناول الفتوح مع قصد عقلي لأمر عسكري بمنطق (تعليمي). ليس في هذا كله ما يدل على أنَّه لم يكن للانتصارات المسلمة آثارٌ دائمة في أساليب القتال البيزنطية، ولكنها لم تترك أثارًا ملاحظة في الأدب البيزنطي العسكري.

## 9.2) القلقُ العامُّ

بدا القلق على وضع الإمبراطورية البيزنطية مطلع القرن السابع، وتنامى خلال مساقه. وتحتوي "ترجمة" مجهولة المؤلف لحياة الإمبراطور السابق موريس على رواية تقول: إن مغتاله وخليفته، الإمبراطور فوكاس، استغل الامتعاض القائم منه باتهامه بأنَّ خصوم بيزنطة «انتزعوا جزءًا كبيرًا من ولاياتنا بسبب تهاونه وضعفه» وأنه ما لم يعزل موريس، فإنَّ الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة سيقضى عليها برُمَّتها، إذ إنها ستفقد قوتها ولن يمكن القضاء على خصومها.[4] وقد كان هذا وصفًا للكثير مما حدث في حقيقة الأمر. وقد ورد في ‹[حياة] Vita› القديس يوحنا المتصدق أن نيكتاس، ابن عم هرقل، أبدى ملاحظة جاء فيها قوله: «تتوالى على الإمبراطورية الضغوط، وهي تحتاج إلى النقود».[5] وقد كتب صفرونيوس المقدسي رثاء لتهديم القدس [على أيدي الفرس] وأمل بأنْ تحلّ النقمة الإلهية على الفرس حيثُ يقضى على إمبراطوريتهم.[6] وبدا أن مؤلف الرؤيا اليهودية ‹نبوءة زربابل وحلمه› تنبَّأ بدمار إمبراطوريَّة هرقل. وقد أشار كتَّابٌ متأخِّرون، بنوع من الكتابة اللاحقة، إلى علاماتٍ سماويَّةٍ للكارثة، لا ريب، قادمةٍ.[7]

كان القلق من الاستمرار المستقبلي للإمبراطورية مصدرَ إزعاج لبيزنطة أثناء الحملات الفارسية الساسانية. وما يدلُّ على ذلك نقشٌ على قطعة فضيَّة

سداسيَّة الشَّكْل «اللهمَّ، أعِنْ الروماني» اللوحة (1/ 1 و2)[8] ونبوءة تقول: «غُلبتِ الرُّومُ في أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهِم سيَغْلِبُون» وهذه ترد في القرآن الكريم؛[9] وثمة وصف معاصر لحصار الأفار الفرس للقُسْطَنْطِينية سنة (5 هـ/ 626 م).[10] وقد انقلبت الريب إلى شعور عميق بالثقة لما انتصر هرقل على الفرس انتصارًا ماحقًا. وادَّعى، في تقرير رسمي عن الانتصار، أنَّ انتصارَهُ كان دليلاً أكيدًا على صدق المسيحيَّة.[11] كما أكَّد جورج البيسيداني قيام صلة بين النجاح العسكري الإمبراطوريِّ والعون الإلهي.[12] ووصف المؤلف الذي شهد نقل رفات القديس أنستاسيوس الفارسي من فارس إلى القُسْطَنْطِينية بالـ«الفرح الأعظم والسُّرور الذي لا حدله» وذلك لمناسبة إعادة خشبة الصليب إلى القدس، والزيارة الأولى لإمبراطور مسيحي، وهو قائم على الحكم، إلى القدس.[13]

## 9.3) ردودُ الفعل الأولى

لم تعنِ الانتصارات العربية المسلمة المفاجئة في العقد الأخير من حياة هرقل احتلال ولايات بيزنطية وتشتيت جيوشها فحسب، ولكن، على ما بدا في عقول بعض الرجل، أثارت افتراضات بشأن ديمومة الإمبراطورية، والعون الآلهي لها وصحَّة العقيدة المسيحية. إن النصوص القليلة التي تعود إلى العقد الثالث من القرن السابع، والتي تشير إلى الانتصارات العربيَّة، تفسِّرُ الهزائم البيزنطيَّة على أنها نتيجة لنزع الحماية الإلهية عن المسيحيين البيزنطيين، أو بتعبير أوضح، الغضب الإلهي بسبب خطايا المسيحيين وإهمالهم. إنْ هذه إلا تردادٌ لأراء مسيحيَّة سابقة. على سبيل المثل رأي بطريرك القدس صفرونيوس الذي أبداه سنة (16 هـ/ 637 م):

> ماذا تثار الحروب علينا؟ لماذا تضاعف الحملات البربرية؟ لماذا تقوم جماعات العرب في وجهنا ؟ لماذا يتزايد الخراب واللصوصية؟ لماذا تسيل الدماء من دون انقطاع؟ لماذا تلتهم طيور السماء الأجسام البشرية؟ لماذا يتعرض الصليب للسخرية؟ لماذا تُجدَّف على المسيح نفسِه الأفواهُ البربريَّة، وهو الواهبُ لكلِّ الأمور الحسنة، والمانحُ النورَ لنا؟».



وينتهي صفرونيوس إلى القول: «ما كان للدنسيين أن يحققوا ذلك، أو أن يقووا إلى درجة أن يفعلوا هذه الأشياء، أو يتلفظوا بها، لولا أننا قمنا نحن أولاً بتدنيس المقدسات، وبذلك أسأنا إلى المسيح الواهب العطايا، وجلبنا هذا الغضب على أنفسنا».[14] برأي صفرونيوس كان العرب، أو السراسين، كما يدعوهم، «قاموا أمامنا فجأة بسبب خطايانا، ودمَّروا كل شيء بعنف واندفاع حيواني وبجرأة شريرة وآثمة».[15] وعلى النحو نفسه كان مكسيموس المعترف، وهو المقدم بين المدافعين عن الخريستولوجيا الأرثوذكسية، شجب نجاح العرب في الاستيلاء على الأراضي البيزنطية على أنه «جلي» و«رهيب» و«مما يُرثى له» و«مخيف».[16]

إن المصطلحات الواردة في الرسالة التوضيحية الموسومة (Doctrina Iacobi) والتي وضعت زُهَاء سنة (13 هـ/ 634 م) يبدو فيها القلق والعنف في الأحكام على وضع الإمبراطورية: فهي «"مخزية" "متناقصة، وممزقة ومحطمة" "متساقطة وعرضة للنهب"، "رومانيا متهاوية ومنقسمة"».[17] لكن المؤلف لم ييأس من الإمبراطورية نهائيًا، إذ إنه في مقطع من الحوار يسأل يعقوب الذي تعمَّد بالمسيح حديثًا: «وكيف تبدو لك رومانيا؟ [أي: الإمبراطورية البيزنطيَّة] هل تقف على رجليها كما كانت في البدء أم أنها انكمشت؟ ويجيب يوستوس [محاوره اليهودي الذي لم يعمَّد بالمسيح]: ولو أنها تقلصت قليلاً، فإننا نأمُل أن تنهض ثانيةً».[18] يستخدم المؤلف كلمات قوية قاسية جدًا لوصف الإمبراطورية. وقد استخدم المؤلف نفسه بكثير من التأسي لما بلغه خبر وفاة سرغيوس في داثِن سنة (13 هـ/ 634 م): «فقد قالوا: إنَّ القائدَ قتل! ونحنُ، اليهودَ عمَّنا السرورُ الكبير. قالوا: بدا أن النبي جاء مع العرب! وأُعلِنَ اقتراب مجيء الواحد المنتظر، المسيح». وقد ادعى المؤلف أن يوستوس الذي قبل بالإيمان استمر قوله: «وماذا عندك للقول عن النبي الذي ظهر بين العرب؟» وعندها أفرط في التأوّه وقل: «إنه كاذب. وهل يأتي الأنبياءُ يحملون السيف، ويعتلون مركبة القتل؟ إن هذه هي أفعل ارتباك اليوم .. ولما سُئِل إبراهيمُ سمعَ من أولئك الذين التقوا النبي: إنك لن تجد صدقًا عند النبي المشار إليه، إلا في إراقة دماء البشر. إذ إنه يقول: إنه يمتلك مفاتيح الجنة، وهو أمر كذب». هذه الملاحظات، على ما فيها من تشويه، تظهر بعض الانطباعات الشفوية التي تركت هذه الأحداث أثرها في بعض المعاصرين اليهود في شِمَل

فِلَسْطين سنةَ (13 هـ/ 634 م) بعيد معركة داثِن،[19] وهي أقدم إشارة بيزنطية للنبي محمَّدٍ (ﷺ).

من الممكن أنَّ ثيوفيلاكت سيموكاتا، مؤرخ بَلاط هرقل، كان يشير إلى انكسار الإمبراطورية الساسانية المتهاوية على يد العرب المسلمين لما أدخل خطبة منسوبة إلى سفراء كسرى الثاني إلى موريس في ربيع أو صيف سنة (590 م): «أي حظ طيب يمكن أن يصيب الإمبراطورية الرومانية [البيزنطية] إذا جُرِّد الفُرْسُ من قوتهم وسيادتهم، ونقلت هذه إلى جنس آخر؟».[20] من الممكن أن ثيوفيلاكِت كان يشير فقط إلى الرغبة في الحفاظ على فارس بعد أنْ كسرها هرقل سنة (7 هـ/ 628 م). إنهُ نصٌّ ذو معنى خطير، إذ إنه يمكِّننا من الحصول على وضوح رغبة البيزنطيين بإمبراطورية فارسيةٍ بعد الحروب الطويلة من سنة (603 م إلى 628 م) لكنْ ليس ثمّة إشارةٌ مؤكدة إلى العرب المسلمين. ومع ذلك، فإنَّ التنبُّؤَ: «وهكذا إذا جرد الفرس من قوتهم، فإنها ستنتقل حالاً إلى قوم آخرين» يدل دلالة واضحة على الهلع البيزنطي المعاصر (9-20 هـ/ 630-640 م).[21] إن ثيوفيلاكِت يبدي وعيًا وانزعاجًا فيما يتعلق بمصير فارس، وقلقًا إذا ما كان أمرُهَا كإمبراطوريّة سينتهي.

يشوب ما تحمله كتابات الثلاثينيات من القرن السابع غموض هَلَعٌ وخيف. لم يدَّعِ أيٌّ من أولئك المؤلفين أنه كان يعرفُ ما كان يجري على وجه الدِّقّة، أو ماذا يمكن أن تكون النتيجةُ النهائية للتوالي السريع للأحداث العسكرية التي كانت تأخذ مجراها.

والمصادر الأولية التي تعود إلى العقود التي تلت وفاة هرقل (21 هـ-641 م) مباشَرة هي أشد ندرة. فالراهب جورج، الذي وضع سيرة ثيودور من أهل سيكيون توفي (613 م) بعد سنة (21 هـ/ 641 م) بفترة ليست طويلةً، أورد وصفًا قاسيًا لأوضاع الإمبراطورية كنبوءةٍ للقديس ثيودور:

. أشياءُ كثيرةٌ وقاسيةٌ وخطرةٌ علينا. هذا يعني تقلُّبَ عقيدتنا، وردّةً، وهجومَ شعوبٍ بربرية متعددة، وإراقةَ دماءٍ غزيرة، وتدميرًا عامًّا، واستيلاءً على كنائسَ كثيرةٍ، وتدميرها، وانقطاعًا عن المديح الإلهي،



وسقوطًا، وتغلبًا على الإمبراطورية، وكثيرًا من الشك، وأزمةَ الإمبراطورية: إنه، إذًا، تنبُّؤٌ بأنَّ العدوَّ قريبٌ.[22]

يرد استعمل كلمة السقوط، على نحو قوي، أول مرة، مع أنَّ الكلمةَ "تسقط" استخدمت للإشارة إلى ضعف الإمبراطورية في مناسبات سابقة.[23] بعد بضعة عقود كتب أنطونيوس، وهو مؤلف سيرة القديس جورج من خوزيبا، وهو الناسك الذي عاش في البرية إلى الشرق من القدس، والذي توفي زُهَاء سنة (4 هـ/ 625 م) قال، واصفًا خوف القديس جورج وانزعاجه على لإمبراطورية البيزنطية ووضعها الآني والمستقبلي: «إنني، يا أبنائي، خائفٌ، وأنا أرتعشُ بسبب الشرور التي تنزل بالعالم».[24]

## 4.9) البحثُ عن كبشِ الفِدَاءِ في القرن السّابع

في العقود الحرجة التي تلت خسارة سوريَة وفِلَسْطين ومصر (وهذه خُسِرت نهائيًا في سنة 22 هـ/ 642 م) قامت شخصيات وفئات متباينة بمناقشات في مسؤولية الانهيار العسكري الكامل. ولم يكنْ غريبًا أنْ تتداخل الجهودُ في تحميل الخلافاتِ الدينية المعاصرة المسؤوليَّةَ فيما يتعلق بالمسيحيَّات؛ أي: بين أتباع العقائد المختلفة مثل المشيئة الواحدة أو الطبيعة الواحدة أو الخلقيدونية؛ (أي: الأرثوذكسية أو الكاثوليكيَّة). فالأحكام التي تمثل رأي أصحاب الطبيعة الواحدة نجدها في أخبار المؤرخ القبطي يوحنا أسقف نيكيو في مصر، وهو من أهل أواخر القرن السابع، الذي يفسر انتصارات العرب على أنها دليل على الغضب الإلهي بسبب خطايا المسيحيين البيزنطيين وحكامهم.[25]

وفي بلاد الغال القصية، وفي أواخر الخمسينيَّات من القرن السابع، عزا فريديغاريوس كذلك تدمير الجيش البيزنطي في اليرموك إلى "سيف الله" فيما ادعى أنَّ تمسك هرقل باليوخيانية، أي: نوع الطبيعة الواحدة، وإلى زواجه غير الأخلاقي بابنة أخيه (أو أخته) مارتينا الذي آذى وضع هرقل وإمكانياته.[26]

ونسب المؤرخ الأرمني سيبيوس، من أهل أواخر القرن السابع، ظهور العرب إلى نبوءات دانيل:

ولكن من يمكنه أن يصف الرعب من هجمة الإسماعيليين [العرب] التي طغت على البر والبحر؟ إنّ دانيال السعيد وعى ذلك، وتنبأ بشرور شبيهة بتلك التي ستحدث على الأرض. كانت الحيوانات الأربعة عنده رموزًا للممالك الأربع التي ستظهر على سطح البسيطة. أولاً الحيوان ذو الهيئة البشرية للمملكة الغربية، التي هي مملكة اليونان [الإمبراطورية البيزنطية]. وهذا واضح من قوله: «لقد سقطت أجنحتها وامّحت من وجه الأرض». إنه يشير إلى القضاء على الفسق الشيطاني. «وأعطي له أن يقف على قدمي بشر، ومُنِح قلب رجل». وهنا هو الحيوان الثاني الذي يشبه الدب. وقد نُصِّب على جهة واحدة، الجهة الشرقية. هذا يدل على العرب. «وثمة ما له ثلاث واجهات لفمه»؛ المقصود مملكة الفرس والماديّين والفرثيين. هذا واضح لأنه يُقال له في الحقيقة: «انهض، التهم بضعة أجسام». إضافةً إلى ذلك، فإنّ العالم يعرف أنه التهمها على نحو بلغ من الدِّقّةِ الغايةَ. والحيوان الثالث، على هيئة فهد وعليه أجنحة طائر وأربعة رؤوس حيوان. «هذا يعني مملكة الشّمَال ياجوج وماجوج وزميليهما اللذين أعطيا قوّة الطيران بقوة من الجهة الشّمَالية». «والحيوان الرابع مرعب، مخيف، أسنانه من الحديد ومخالبه من البرونز؛ أكل وطحن بأسنانه، وداس ما تبقى بأقدامه». إنه يقول: إنَّ مملكته الرابعة التي ترتفع من الجنوب [الشرقي] هي مملكة إسماعيل. وكما أوضح كبير الملائكة: «إنَّ حيوانَ المملكة الرَّابعة سيقوم، وسيكون أكبر قوة من كل الممالك، وسيأكل العالم كلَّهُ. إنَّ قرونَهُ العشرة تمثل الملوك العشرة الذين سيحكمون، وبعدهم سيقوم آخر يتجاوز في شَرِّهِ جميعَ الذين سبقوه».[27]

ينقل سيبيوس أيضًا رواية عن المطالب الإسلامية الأصلية من البيزنطيين قبل بدء فتوحهم فِلَسْطين البيزنطية والأراضي المجاورة: «إنَّ الله وهب هذه الأرضَ [أرضَ إسرائيل] إلى أبينا إبراهيم، ولنسله من بعده. نحنُ أبناءُ إبراهيم. لقد تملكتم بلادنا بما فيه الكفاية. اتركوها لنا سلمًا، ونحن لن نهاجم أرضكم. وإلا، فإنّنَا سنستردُّ منكم ذلك الذي استوليتم عليه بفائدة فاحشة».[28]



يزودنا سيبيوس، في هذه الفقرات، بشيء من النظرة العميقة إلى الحالة النفسية التي كانت سائدة لدى بعض المسيحيين في أواخر القرن السابع فيما يتعلق بالانتصارات الإسلامية العسكرية. إنه يلوم هرقل لأنه رفض هذا الطلب الإسلامي الأول بأن ينسحب سلمًا. ويدعي أن هرقل رد على طلب المسلمين بقوله: «إن البلاد بلادي، وما ورثتموه أنتم فهو الصحراء. اذهبوا بسلام إلى بلادكم».[29]

ويحتوي ‹أخبار ميخائيل السوري› الذي وضعه الأسقف اليعقوبي السوري في القرن الثاني عشر، أيضًا على بضعة أحداث طفيفة يبدُو أنها تزوِّدُنا بروايات موثوق بها عن ردود فعل أتباع الطبيعة الواحدة من أهل القرن السابع. قد تكوُن رواياته مستقاة من شائعات يعود انتشارها إلى ما بعد فتح العرب سوريَةَ مباشَرةً. إنه يؤكد، على سبيل المثل، أنَّ أخا هرقل، ثيودور، وعد، وهو مزهو بذلك، ناسكًا خلقيدونيًا عموديًا؛ [أي: من الذين يعيشون على عمود (المترجم)] أنه سيلاحق اليعاقبة (أتباع الطبيعة الواحدة) بعد عودته من حملة للقضاء على المهاجين العرب، زُهَاء سنة (15 هـ/ 636 م). ويروي ميخائيل أنهُ بعد انهزامه الشَّائن على أيدي العرب سخر منهُ جنديٌّ بيزنطيٌّ من أتباع الطبيعة الواحدة [اليعاقبة] وسأله: «ماذا جرى، يا فكتور، للوعود التي قطعتها للعمودي: أنك ستعود حاملاً اسمًا كبيرًا؟» ويروي أن فكتور خجل، وفرَّ مختفيًا.[30] وادَّعَى ميخائيل أيضًا أنه بعد أن أخلى هرقل أنْطَاكِيَةَ قام أحدُ قوّاده الخلقيدونيينَ المسمَّى غريغوري بإعدام أبيفانوس، وهو أسقف يعقوبي، لأنه رفض أن يقبل العقيدة الرسمية القائلة بالمشيئة الواحدة في قيليقيا (التي كانت تحت السلطة البيزنطية) وكانت النتيجة أنَّ غريغوري فقدَ حياته في قتل العرب في اليوم التالي.

من هنا يبدو أنَّ الفقرات المأخوذة من ميخائيل تشدّد على التوتر الخلقيدوني اليعقوبي؛ [أي: التبعية للطبيعة الواحدة] خلال الجهود البيزنطية لتطوير الدفاع تجاه العرب. قد يكون حكمه على الأحداث من عنده، أو قد يعكس آراء أتباع الطبيعة الواحدة في القرن السابع: «يبدو، برأي الذي يتصف بالذكاء أن العدالة أجازت ما حدث، إذ إنه بدل الصيام والتهجد وإنشاد التسابيح، سمح المسيحيون

لأنفسهم بالانغماس في إشباع الشهوات، والسكر، والرَّقص، وسوى ذلك من أنواع الفسق والرفاهيَةِ خلال أعياد الشهداء، فأنزلوا عليهم غضبَ الله. وبسبب ذلك، فإنه ضَرَبنا، وعاقبنا كي نصلحَ سبلنا».[31]

تتحدث الرِّسالةُ الموضوعة في القرن السابع، والمسمَّاة «رسالةَ الرُّسل الاثني عَشَرَ، عن المصاعب التي نشأت من الحملات الإسلامية، بل في الواقع تتنبأ بها ظاهريًا:

> هو [إسماعيل] سيحمل أسرى كثيرين من جميع شعوب الأرض، وهم سيمعنون في السلب، وستقوم جميع أطراف الأرض بخدمتهم؛ وسيخضع له الكثير من أصحاب النفوذ؛ وستكون يده فوق الجميع؛ وأيضًا سيظلم جميع الذين تحت يديه بضرائب باهظة: وسيظلم [حكام] أطراف [الأرض] ويدمرهم. وسيفرض ضريبة على [الأرض] من نوع لم يُسمع به البتَّة.. وذلك الذي له شيء سيعدّ في أيامهم كما لو أنه لم يملك شيئًا، وذلك الذي يبني، وذلك الذي يبيع على أنه لا يحصل على شيء.[32]

وبرأي إلى ميثوديوس الكاذب من أهل القرن السابع، فقد كانت الرؤية تشاؤمية جدًا:

> ستكون طريق تقدمهم من بحر إلى بحر [ومن الشرق إلى الغرب] ومن الشَّمال حتى صحراء يثرب. ستكون طريق فواجع؛ وسيسير عليها المسنّون من الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء، بينما يعاني الجميعُ الجوعَ والعطشَ، ويرسفون في القيود الثقيلة إلى النقطة حيثُ يباركون فيها الموتى. إذ إنَّ هذه هي العقوباتُ التي تحدَّث عنها الرسول.. سيضطهد الناس؛ وستنفق الحيوانات الوحشية والمواشي؛ وستقطع أشجار الغابات؛ وستتلف جميع النباتات الجميلة في الجبال؛ وستسوى المدن الثرية بالأرض؛ وسيستولون على الأمكنة، إذ لن يكون ثمَّةَ من يجتازها. إنَّ الأرض سينجّسها الدم، وسيحمل نتاجها بعيدًا عنها.[33]

وعلى النحو نفسه فسّر يوحنا باربنكابي، من أهل القرن السابع، النجاحات العسكرية الإسلامية على أنها غضب إلهي:



> لا يجوزُ لنا أن نفكّر بقدومِ [أولاد هاجر] على أنه أمرٌ عاديٌّ، بل إنه نتيجة للعمل الإلهي. قبل دعوتهم كان (الله) أعدهم سابقًا لاحترام المسيحيين؛ وكان لديهم أمر من الله فيما يتعلق بمركز الرهبنة، يجبُ عليهم أنْ تكون نظرتهم إليه باحترام. الآن، وقد جاء هؤلاء القومُ بأمر الله، واستولوا على كلتا المملكتين على ما هو بيّن، لا بأي حرب أو أيّ معركة، بل بأسلوب سهل، على نحو ما يحدث عندما تنقذ خشبة من النار، من دون استعمال أسلحة حرب أو أساليب بشرية، فقد وضع الله النصر في أيديهم على نحو يدل على أن ما جاء عنهم يمكن أن يكون أمرًا مقضيًا، أي: «إنَّ رجلاً واحدًا تعقّب ألفًا واثنين هزما عشرةَ آلاف». وإلا، فكيف يمكنُ قومًا عراةً، يمتطون الخيول من دون سلاح أو ترس، أن يربحوا لولا العونُ الإلهي، إذ دعاهم الله من أطراف العالم كي يُدَمِّر على أيديهم، "مملكة شريرة"، وليؤدي إلى القضاء، على أيديهم، على روح الفرس الرفيعة.[34]

ومرة أخرى: «كانت جماعات اللصوص منهم تذهب سنويًا إلى أمكنة بعيدة وإلى الجزر، ويعودون بأسرى من جميع الشعوب التي تغطيها السماء».[35]

> يمكن أن نقصّ أخبار المجازر التي قاموا بها في أرض اليونان، وفي كوش، وإسبانيا، وسواها من المناطق القاصية، حاملين معهم الأسرى من أبناء هؤلاء وبناتهم، مخضعيهم للاسترقاق والعبوديّة. إنَّ أولئكَ الذين لم يتورَّعوا، أيامَ السِّلْم والثَّراء، عن مخاصمة خالقهم، أرسل عليهم قومًا من البرابرة الذين لم يكن في قلوبهم شفقة عليهم.

ثم ثانية:

> وهكذا لما رأى الله أنه لم يحدث أي تحسّن، وجّه نحونا المملكة البربرية وأهلها الذين لا سبيل لهم لقَبُول أي معتقد، والذين لا يعترفون بمعاهدة أو باتفاقية، والذين لا يقبلون تملقًا أو مداهنة، والذين ترتاح نفوسهم إلى الدم الذي يراق من دون سبب، والذين يرون السرور في السيطرة على الجميع، والذين يرغبون في إلقاء القبض على الأسرى وفي النفي. إن الضغينة والغضب هما غذاؤهم؛ والذين لا يطمئنون إلى الرضا بما يقدم لهم.[36]

كان ثمة على الأقل محاولة واحدة مونولوثية، (أي: القَبُول بالمشيئة الواحدة) لإقصاء اللوم عن هرقل وأسرته وعن المونولوثية للخسائر الأرضية الحديثة. فقد اتهم المدير المالي في أيام حفيد هرقل، كونستانس الثاني، مكسيموس المعترف، المدافع الصامد عن الخلقيدونية، وذلك في دعوى قضائية في سنة (33 هـ/ 653 م) بأنه المسؤول عن خسارة بضع ولايات: «أنت وحدك الذي سلمت مصر والإسكندرية وبنتابوليس وطرابلس وإفريقيَّة إلى العرب». وقد فسر ذلك بالقول: إنه لما تلقى بيتر، قائد الجيش البيزنطي في نوميديا، أمرًا من هرقل بأن يقدم العون في الدفاع عن مصر تجاه المهاجمين العرب، استشار مكسيموس، «وأنت كتبت له الجواب قائلاً: لا تفعل ذلك، إذ إنَّ الله لا يبارك مساعدة الدولة الرومانية في أيام هرقل وأسرته».[37]

وإذ أنكر مكسيموس هذه التهمة، أثيرت تهمة أخرى ضده، وهي أنه أزاح السر عن حلم مؤذٍ، إذ سمع فيه الملائكة تصرخ في الشرق وفي الغرب على التوالي: «يا أوغسطوس قسطنطين، نصرك الله» و«يا أغسطُس غريغوري، نصرك الله»، وانتهى الأمر بأن الذين كانوا ينادون بغريغوري تغلبوا على الذين كانوا إلى جانب قسطنطين (مشيرًا بذلك إلى أنَّ غريغوري، الذي كان غاضبًا للحكم في إفريقيَّة، سينتصر على كونستانس الثاني).[38] كان غريغوري خلقيدونيًا، لكنَّهُ سقط في ميدان القتال أمام المهاجمين المسلمين في إفريقيَّة سنة (27 هـ/ 647 م).

مهما كان تصديق الواحد للتهم ولردود مكسيموس، فإنَّ ذلك دليل على أنه في أوائل خمسينيَّات القرن السابع كانت خساراتُ البلاد الحديثة العهد قضايا مؤلمةً في القُسْطَنْطِيْنِية. وكان البحث عن كباش فداء مستمرًا، وقد يكون الأمرُ أدعى إلى التيسير في القيام به إذا كان هؤلاء من خصوم سياسات الحكومة الدينية. وتثير التهم لمكسيموس سؤالاً، مع أن فقدان مصادر أخرى تحول دون أيِّ إجابة، أي مدًى من الفائدةِ كان الخلقيديون يمكن أن يحصلوا عليه من الهزائم العسكرية للحكومة المسيطر عليها المونوثوليون في القُسْطَنْطِيْنِية؟ لا تعيننا المصادر على أن نعرف هل كان افتقاد الحماسة عند



الخلقيدونيين أو الخيانة الكلية أدّى إلى تدمير الجهود الدّفاعية في تلك السنوات العصيبة؟ مع ذلك، فَمِمَّا يدعو إلى الاهتمام أن يلحظ أن موظفين وجهوا مثل هذه التهم لواحد من قادة الخلقيدونيين وهو مكسيموس.

وتشير النقود إلى الأزمة، وإلى الحاجة إلى عَون إلهي. فقد صك كونستانس الثاني فُلوسًا برونزية، وعليها النقش الكونستانسي «بهذا يغلب» (اللوحة (1) رَقْم (4)). ثمة مسألة محيرة مرتبطة بالأوضاع العقلية في أواسط القرن السابع تدور في قضية نقدية. ثمة نقش نادر أنانيوسيس (Ananeosis) أي: «تجديد» موجود على نقود برونزية من أيام كونستانس الثالث، أو حسب وجهة نظر بعض الباحثين كونستانس الثاني أو هيراكلوناس[39] (لوحة 1/ 3 و4). قد تعني الكلمة اليونانية (إحياء) أو (تجديدًا) لكنْ ليس من البيّن كيف يمكنُ أن تفهم في أواسط القرن السابع. إنها ليست عبارة عادية تخص النقود البيزنطية لأيام الحكم السابقة مباشرة. من الممكن أنها تذكير برغبة لعصر ذهبي في الأحياء، على نحو ما نقش على نقود من عصر قسطنطين الأول. ولعلها كانت، أو لعلها لم تكن، تحمل رسالة عَقِدية إلى معاصري القرن السابع.

## 5.9 صورةُ العالمِ في المجمع المسكونيِّ السّادسِ

ثمة مجموعة أخرى من الإشارات الدينية إلى أوضاع الإمبراطورية تتمحور زُهاء سنة (61 هـ/ 680 م) وهي السَّنة التي بدأ فيها المجمع المسكوني السادس اجتماعاته. ثمة بضع رسائل محفوظة في أعماله تؤكد الأمل المستمرة، والحاجة إلى الحماية الإلهية لخير الإمبراطورية العسكرية. وقد بدأ الإمبراطور قسطنطين الرابع رسالته سنة (610-680 م) إلى جورج، بطريرك القُسْطَنْطِيْنِية التي بموجبها صدرت الإرادة بالدعوة إلى المجمع في القُسْطَنْطِيْنِية على النحو التالي:

> مع أن عظمتنا مشغولة، برُمَّتها، بالشؤون العسكرية والسياسية، إذ إنَّ جميع القضايا المرتبطة بدولتنا المحبة للمسيح تحتل المحل الثاني بعد إيماننا المسيحي العميق، الذي هو درعنا في الحروب، والذي نحتفظ به من أجل جيوشنا المحبة للمسيح، فقد ارتأينا أنَّ من الضروري في حضورنا المقدس أن تفيد من رسالتنا إلى غبطتك الأبويَّة، وأنْ تعمل

> على أدائها، فإننا نأذن لغبطتك الأبوية أنْ تجمع جميع المقدّسين من المطارنة والأساقفة تحت عرشها الأقدس في هذه المدينة المحروسة من الله ومدينتنا الإمبراطورية.[40]

وفقت بعض تهليلات المندوبين للإمبراطور في المجمع بين خير الإيمان والسلطان، لكنَّ الذي كان أقوى من أي وثيقة يونانية توكيدُ البابا أغاثو في رسالته إلى قسطنطين الرَّابع:

> الناقوس الحي لرسل المسيح . . الذي يحمي الإمبراطورية المسيحية التي تنعم برعايتك، والذي يحمل النصر العظيم من رب السموات إلى جَلَدك البالغ القداسة، والذي يكلَؤك في المعارك وانتصارك على الأعداء، والذي يصون إمبراطوريتك، حفظها الله، كجدار لا يخترق من كل جهة، والذي يضرب الأمم المعادية بالرعب ويطرحها أرضًا بالغضب الإلهي، والذي يمنحك، في الحروب، سيوف النصر من السماء عبر طرح أعدائك وكسرهم، والذي يحرس في السلم دولتك في أمان وسعادة دومًا.[41]

وفي رسالة ثانية إلى قسطنطين وإخوته هرقل وطيباديوس (اللذين كانا يشار يومها كأنهما العرش) تؤكّد قدرة القوة الإلهية على إخضاع الأمم البربرية للإمبراطورية وللإيمان.[42] إذا كان هذا يدل على شيء ما، فإنَّ مراسلات أغاثو شجَّعَت قسطنطين الرابع ورجال الدين على أن يأملوا، مع الانكسارات العسكرية خلال العقود الماضية، بالمعونة الإلهية للدولة إذا ما تمسكت بالعقيدة والتصرف الصحيحين. لم يحدث، في أيِّ حالة، أنْ أخذت انتصارات الفرس أو الأفار أو العرب كل أمل في العون الإلهي للملوك المسيحيين الصادقي النيَّةِ والصَّادقي الفعل.

لم يُعنَ القسمُ الأغلبُ من مداولات المجمع المسكوني السادس بالوضع العسكريّ والسياسيّ للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. ومع ذلك، فقد كان ثمَّةَ إشارة مقتضبة ليست إلى الخسارة العسكرية التي وقعت على حد الإمبراطورية الجنوبي أو الشرقي مع العرب بل، بدلاً من ذلك، إلى ما حدث على حدها الشَّمَالي أو الدانوبي. ففي وقت مبكر من اجتماعات المجمع أصر كاهن



يتكلم بالسريانية، يدعى قسطنطين الأفامي (من سورية) أنْ يُصغى إليه، قال: «إنني قدمت إلى مجمعكم المقدس لأبلّغكم أنه لو أُصْغِي إلي، لما كنا خسرنا هذا العام ما أصابنا في الحرب البلغاريَّة». وبعد أن فحصه المجمع فحصًا قصيرًا صُرِخ في وجهه، وحُرِم، وطُرد بسبب محاولته العبثية للحيلولة دون الإحياء الوشيك للاهوت المسِيحي الخلقيدوني.[43] وقد حاول الكاهن قسطنطين الإفادة من الانتصار البلغاري على البيزنطيين قبل ذلك سنة (61 هـ/ 680 م) على أنه يعبر عن غضب إلهي على إحياء الخلقيدونية. كانت إشارة عابرة في أعمال المجمع، ولم تكن الحجة مقنعة، على ما يبدو، لرجال الدين والموظفين المجتمعين، ومع ذلك، حاول كاهن، ولم يكن بلقاني الأصل، أن يقيم قضية دينية من انكسار بيزنطي كبير على أيدي البلغار، وهو الذي أفسح المجال أمام البلغار للاستقرار جنوبي الدانوب.

## 6.9) قضيَّة الحِجاج مع اليهُودِ

تزودنا رسائل موجهة ضد اليهود، تعود إلى القرن السابع، ببعض ما يمكن عدّه طروحات بيِّنة عن الملابسات الدينية للانكسارات البيزنطية العسكرية. ويُعدُّ ‹المذهب اليعقوبي› أحدَ الأعمال التلفيقية التي كتبت في القرن السَّابع. وثمَّةَ رسالةٌ بعنوان: ‹[نصب الكنيسة الإلهية، وصحة الإله الذي لا يقهر التي تمَّتْ ضد اليهود في دمشق The Trophies of the Divine Church and the Truth of the Invincible God Acccomplished Against the Jews in Damascus ..› تصفُ حوارًا بين مسيحيين ويهود المفروض أنه وقع في السنة نفسها التي بدأ فيها المجمع المسكوني السادس؛ أي: (7 هـ/ 628 م) من المحتمل أنها كتبت في تلك السنة أو بعيدها.[44] مع أن أكثر المناقشات تتناول مسائلَ لاهوتيَّةً وكتابية، ثمَّةَ قسمٌ يشير إلى أن أحدهم، يهوديًا أو مسلمًا أو من أتباع الطبيعة الواحدة أو سوى ذلك (ليس من اللازم أن يظن أن حوارًا حقيقيًا حدث مع يهودي) كان يطرح أسئلة مقلقة عن العلاقة بين الانكسارات العسكرية الأخيرة وصحة الرسالة المسيحية.[45]

لعل المسيحيين الأرثوذكس، الذين بقوا في دار الخلافة، كانوا، في القرن

السـابع، يحـتاجون بشـدة لرسـالة تلفيقـية يمكـن أن تـردّ ردًّا بـليغًا على التهم الإسـلامية، أو الـتي من المحتمل أنْ تكون يهودية أو يعقوبية، (من أتباع الطبيعة الواحدة). ومن المزعوم أن المناقشين اليهود سألوا:

> إذا كانت الأمور كما تدعون، لماذا سقط منكم أسرى؟ بلاد من هي التي دمرت؟ وعلى من ثارت هذه الحروب الكثيرة؟ أي جنس آخر مرت به حروب مثل المسيحيين؟ ومن ثَمَّ، فمن الصَّعب علينا أن نقبل القول: إنَّ المسيح قد أتى. إذ إنه عندما يجيءُ، يعمُّ الأرض السَّلامُ، على ما جاء عند النبيين إشعيا وميخا.[46]

ويجيب المسيحي:

> إن السؤال ذو شقين، ويجب أن يكون الرد ذا شقين فيما يتعلق بقول النبيين: إنَّ مجيْءَ المسيح يؤدِّي إلى انتشار السَّلام في الأرض [إنه] ليس السَّلامَ كما تفهمونه أنتم، بل إنه يعني أن أكثر الناس يتخلصون من عبادة الأوثان ويعرفون الله. هذا جواب واحد؛ ومع ذلك، فإنَّ الكنيسةَ كانت تنعم بالسلام سنواتٍ كثيرةً، وكانت إمبراطوريتنا تنعم بالسلام التام، إذ إنه لم يمر بعدُ خمسونَ سنةً على قيام الحروب الحالية.[47]

ويختم المسيحي هذا القسم من الجدل بقوله:

> إن هذا هو الأمر الذي لا يمكن تصديقه، إن الكنيسة بعد هذا القتال ظلت لا تغلب، ولا يمكن تهديمها، ومع أنّ الجميع قاتلوها، فإن أساسها لم يتأثر. ما دام الرأس والإمبراطورية ثابتين، فإن الجسم كله يمكن تجديده، لكن شعبًا من دون رأس سينتهي أمره تمامًا.[48]

تدلنا نُصُب دمشق على أنه ظلت للمسيحيين، مع أنهم أُصيبوا بصدمة الانكسارات الإمبراطورية في القرن السابع، ثقة في صحة إيمانهم، وقدَّمَ بعضُهُم تفسيرًا إيجابيًا لأحواله المعاصرة.

### 9.7) ‹رسالةُ ضد اليهودِ›: أصالتُها وغرضُها

وثمة ما هو أوفى من حيثُ توضيحُ هذا التسويغ، وهو الذي طوّره



المسيحيون الأرثوذكس لتفسير هذه البلية التي أصابت الإمبراطورية البيزنطية والفرق المسيحية، نقع عليه في رسالة يونانية أخرى ضد اليهود كتبها مسيحيٌّ عاش في كنف الخلافة، وعلى غرار نُصُب دمشق، وضعت في وقت متأخر من القرن السابع. عنوانها اليوناني [يمكن أن يفسر بـ "مجادلة" أو "محادثة" أو "مكالمة" أو "حوار" "ضد اليهود"] ولو أنها كثيرًا ما يشار إليها باسمها اللاتيني: (Adversus Iudaoes Dispitatio). وتعين المخطوطات [الخاصة بها] مؤلفها باسم: أنستاسيوس الرئيس [أي: رئيس دير للرهبان] أو "أنستاسيوس" وينسبها الباحثونَ مبدئيًا إلى أنستاسيوس السينائي، الذي كان حيًا في النصف الثاني من القرن السابع، والذي توفي زُهاء سنة (81 هـ/ 700 م).[49] وعلى ما مر على سواها من الرسائل البيزنطية ضد اليهود، لقيت هذه الرِّسالة القليلَ من التحقيق العلمي مدَّةً تزيد على القرنين، كان الباحثون يشكون في أنها من وضع أنستاسيوس السينائي الذي يحيط به الغموض، والذي تعرَّضَ تأليفُهُ عددًا من الرَّسائل للرِّيبة؛ ذلك لأنه لوحظ أنه في مكانين من الرسالة ترد إفادتان بأنه قد مر (800) سنة أو أكثر منذ أيام المسيح ومنذ تدمير اليهود على يد تيطس وفسبسيان. وبسبب هذا، أرَّخَ العددَ القليل تقريبًا من الباحثين الذين فحصوا الرِّسَالة في أواخر القرن التاسع.[50] وحملت إشارة أخرى إلى إمبراطورية الفرس الذين ابتلعهم البرابرة "الأتراك" باحثَيْن آخرين في نسبتها خطأ إلى القرن الحادي عشر.[51]

مع هذه الحجج التي تبدو منيعة، فإنَّ قسمًا واحدًا على الأقل من هذه الرسالة يرجع إلى أواخر القرن السابع، ويصف أحواله. ومن المؤكّد أن القديس أنستاسيوس السينائي وضع ‹رسالة ضد اليهود› إذ إنه يشير إليها في رسالة أخرى (Hexaemeron) يرى جميع الباحثين في الواقع أنها أصيلة.[52] ليس من حاجة ماسة لأن يُحدَّد تاريخ الرسالة برُمَّتها وتأليفها على نحو قاطع هنا، لكنَّهُ أمرٌ حريٌّ بإيضاح السبب في أن بعض أقسامها، مع ما يمكنُ أن يكون دخلها من إضافات أو بطلان، يعود تاريخه إلى أواخر القرن السابع أو، على الأقل، إلى السنوات الأولى من القرن الثامن، والذي تظهره هذه الأقسام من آراء مسيحيٍّ واحدٍ من وجهات نظر في الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة.

بعـد أن يوضـح مؤلف ‹الرسالة› بضع نقاط لاهوتية، يطرح القضية، معتمدًا حقـائق تاريخـية: «اسمحـوا لنا أن نعرض عليكم هذا، لا بالكلمات فحسب، بل مـن الحقـائق، وهـذا مـا ملأ الأسماع وشهده العالم المسكون برمَّته».[53] ثم يقدم بضـع حجـج تاريخـية ضـد الـيهود، منها واحدة هي أنه لم يتغلب شعب بربري واحـد عـلى الإمـبراطورية.[54] ويرد بقوة على نقد الوضع المعاصر للمسيحيين الذين وقعوا تحت سيادة أجنبية:

> لا تقولـوا: إنـنا، نحـن المسيحيين، قد عمَّتنا البلوى، وحُمِلنا أسرى. إن الأمر المـبرِّز هـو أننا يقعُ علينا اضطهادُ الكثيرينَ، ويقاتلنا الكثيرونَ كذلـك. إنَّ إيمانـنا ثابـتٌ، ولن يقضى عليه، وإمبراطوريتنا لم يضعفها الوهـن، (ولم يُقـضَ علـيها) ولم تقفـل كنائسـنا. بـل إنـنا في وسـط الشـعوب الـتي تسـودنا وتضـطهدنا لا تـزال عـندنا كـنائس، ونقيم الصلبان، ونؤسس الكنائس.[55]

وتؤكـد التنقيـبات الأثرية بناء الكنائس داخل بلاد الخلافة في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن.[56]

ويضع مؤلف الرسالة أمامنا نقطة أخرى:

> ونحـن نـرى أنـه لا يمكـن العـثور، منذ بدء الزمان، على شعب قاتله الجميع لمـثل هـذا العـدد مـن السنين، ولم يقض عليه سوى الشعب المسيحي وحـده الـذي، مـع كـل ذلك، ما كان ليبقى تماسكه مع كثرة الشـعوب الـتي قاتلـته لـولا أن يـد الـرب تحرسـه، ولا تـزال تحفظـه متماسكًا.[57]

إن الحجـة التالـية تشـير إلى قريـنة تاريخـية لم يدرسـها، بقـدر ما وصل إليه علمـنا، مـؤرِّخٌ بـيزنطي البـتَّةَ، بالمقابلـة بالباحثين النصوصيين واللاهوتيين. إن الـنص الـتالي، مـا لم يكن شوَّهَهُ النقل (و هذا الأمر لا يترك للقرينة معنى) لا يمكن أن يكون نطق به أول مرة في أواخر القرن التاسع.

> وثمـة ناحـية أخـرى، لم يحـدث أنَّ إمـبراطورًا مسـيحيًا قتل على أيدي الـبرابرة البـتَّةَ، مع أنَّ جماعات بربرية متعددة حاربت الإمبراطورية. لم يقتصـر إخفـاقهم عـلى أنهـم لم يقضـوا عـلى الإمـبراطور، بل إنهم



> فشـلوا في إزالـة صـورته مـع الصـليب عن النومِسْما، مع أن بعض الطغـاة حاولوا ذلك. لا تحسبنَّ هذا أمرًا بسيطًا وعاديًا، وهو أنَّ الإيمان المحصـن قـائم ولا يذوي. إذ إنه لولا أن الله اختار أمتنا وأحبها، فإنه ما كان ليحميها من الأمم ذئبية الطبع.[58]

## 9. 8) الدليلُ النيميّائيُّ في ‹رِّسالةِ ضد اليهودِ›

لا كـتاب مكغفـرت ‹[حـوار بابيسكُس وفيلو] Dialogue of Papicus and Philo› ولا "المحـاورة" ولا "الأسـئلة" مـن وضـع أثناسـيوس الكـاذب (التاريخ غير محـدد) وهمـا اللـذان يكرران بعض الحجج التاريخية لكتاب ‹إزاءَ اليهود› المعزو إلى أنسطاسـيوس السـينائي، بلـغ مـن الكمـال ما بلغته ‹[رسالة ضد اليهود]›؛ ولعـلهما اعـتمدا علـيها.[59] إضـافةً إلى ذلـك، فـإنَّ الدلـيل المبني على النقود (النيمـيائي)هـو أكـثر تفصـيلاً في ‹رسالة ضد اليهود›. إلى هذا الحد على سبيل المـثل، تظهـر الأدلـة الـنقودية الـواردة في ‹الرسـالة ضد اليهود› عند أثناسيوس الكـذاب في "الأسـئلة"، بعـد ذلـك يـورد مؤلـف ‹الرسالة ضد اليهود›: مادة لم يوردها أي مؤلف يوناني في كتاب وضع ضد اليهود:

> كـيف لم يـبلغ أحـدٌ القـوة لـيزيلَ الخـتم الذهـبي عـنا؟ كم من ملوك الأمـيين والفـرس والعـرب حـاولوا ذلـك، ولم يتح لهم النجاح البتَّةَ. ذلـك لأن الله يظهـر بقدرتـه أنـه، ولـو أننا نحن المسيحيين اضطهدنا، فإنـنا نظـل نملـك فـوق الجميع. لأنَّ الشارة الذهبية لإمبراطوريتناَ هي رمـز المسيح نفسه. قل لي إذًا، إنْ لم تكن إشارة إلى أنَّ إيمان المسيحيين وإمـبراطوريتهم أبديـان لا يزولان ولا يقهران، لماذا خرجتم أنتم عنها، أنتم الذين تكرهون صليب المسيح، وتجدفون عليه؟.
>
> لمـاذا لا تسـتطيعون الـتخلي عن صليب الذهب، بل تتقبلونه بشوق، ومـع ذلك، فإنَّكم إذا رأيتم الذَّهب من دون الصَّليب لعنتموه، وأدرتم وجهكـم عـنه؟ لمـاذا تتمـنون ذلـك الذي تعلنون الحرب عليه؟، ولماذا تتقبـلونه أنـتم بشوق، [وبذلك] تكونون قد غُلِبْتم على أمركم على غـير انـتظار بمـا تلعنون؟ لو أنكم تملكون الحس والفهم لكانت هذه الشـارة تكفـيكم، جميعكم، كـي توضـح لكـم وتقـنعكم بأن الإيمان وصليب المسيح سيعلوان إلى الأبد عبر الدهور.[60]

هذه الفِقْرَة، التي أهملها علماءُ النقُود (النميات) تحتفي بأهمية قطعة النقد البيزنطية، النومسْما. وهي تعيد إلى الذاكرة فِقْرَة أخرى شهيرة عن أهمية النومِسْما، وهي الواردة عند كوزماس أنديكوبلوريش في كتابه ‹التضاريس المسيحية› الذي يشير إلى النومسْما على أنها «شارة إمبراطورية الرومان».[61] إن الترجمة اللاتينية القروسطية لـ‹الرِّسالة ضد اليهود› تؤكد الأهمية النميَّة (النقدية) لقطع النقد الذهبية والفضية المتعددة.

وثمة نص أدبي يعود إلى أواخر القرن السابع يضاف إلى تأريخ الإشارات المتعلقة بالنقد في ‹الرسالة ضد اليهود›. ثمة مؤرِّخ ماروني، تنتهي روايته عند سنة (44 هـ/ 664 م) يشير إلى أنَّ الخليفة الأموي معاوية قام بتجربَة غير ناجحة سنة (41 هـ/ 661 م) وهي سك نقود ذهبية لا تحمل الشارات التقليدية التي كانت تظهر على النقود البيزنطية. «وسك أيضًا نقودًا ذهبية وفضية، ولكن الجمهور لم يتقبلها لأنها لم تحمل شارةَ الصليب».[62] لعلَّ المؤرِّخ الماروني لم يكن يشير إلى النقود التي سكت حصرًا، لكنه يشير إلى امتناع سكان الخلافة حصرًا الذين أبوا أن يقبلوا تقليدًا للنقد البيزنطي على نحو ما ورد في ‹رسالة ضد اليهود›. إن المصدرين يتُمِمُّ واحدُهما الآخرَ، ويؤيده. إنهما يؤكدان وجود مقاومة شعبية بسبب تقليد المسلمين لنقود بيزنطية ذهبية، وهي التي كان ينقصها رمز مألوف هو الصليب، والتي كانت تنقصهم، في بعض الأحيان، صورةُ الإمبراطور كذلك بحَسَب رواية ‹الرسالة ضد اليهود›. من المستغرب أنَّ كموسْكو لم يُفِدْ من المؤرِّخ الماروني في بحثه عن فِقْرَة النقد الواردة في ‹رسالة إزاءَ اليهود› لكنَّها تعين حجته في أن هذا القسم من هذه الرسالة يرجع تاريخه إلى القرن السابع.

كما يشير أنسطاسيوس الكاذب، وهو نص مسيحي مصري يعود إلى سنة (81 هـ/ 700 م) تقريبًا أيضًا إلى تحطيم المسلمين الصليب على النقود الذهبية، لكن من دون القصد إلى إعلاء قضية الثبات المسيحي: «ستتلف تلك الأمة الذهب الذي يحمل صورة صليب مسيحنا وإلهنا، في سبيل أن تحمل جميع البلدان التي تخضع لها في أن تسك نقدها الذهبي، وعليه اسم حيوان، اسمه هو



رَقْم ستمئة وست وستون».[63] هذا النص تأييدٌ إضافي إلى التأثير القويِّ للتبديل النقدي، ولو في بعض الجمهور المسيحي، ولو أنه يبدو أنه يشير إلى تبديل للنقد مختلف عن ذلك الذي يرد في ‹رسالة ضد اليهود›.

يمكِّن التقدم في الدراسات المتعلقة بالنقود (دراسة النميات) مثل ذلك في الدراسات التاريخية البيزنطية والأموية، الباحث الحديث من فهم المضمون التاريخي للفِقْرَة المتعلقة بالنقود الواردة في ‹الرسالة ضد اليهود› فهمًا أوفى بكثيرٍ مما أتيح لباحثي القرن التاسعَ عشرَ والقرون السابقة له، وباحثي العقود المبكِّرة من القرن العِشْرين. لقد نجحت دراسةُ النقود (النميات) في تعرُّفِ تشكيلةٍ لتقليد عربي نقودًا بيزنطيَّةً ذهبيَّةً تعود كلها إلى القرن السابع المتأخر، مع أنَّه ليس ثمَّةَ إجماعٌ على الحدود الزمنيَّة لسكِّها.[64] بعض هذه المسكوكات يحذف منه الصليب البيزنطي المألوف عن الوجه المعاكس، والصليب المرسوم والإمبراطور يحمله بيده على الوجه المقابل، وذلك بإزالة قضيب الصليب. وقد وصَفَ علماء النميات هذه المسكوكات بأنها نماذجُ من «الصليب المحول» (اللوحات 1 / 5 و 2 / 6-9).

يشير مؤلف الفِقْرَة المتعلقة بالنقود (النمية) في ‹الرسالة ضد اليهود› إلى محاولة حديثة غير ناجحة لسك نقود أزيل عنها الإمبراطور والصليب معًا. ولا تعين الصياغة اللغوية المبهمة على تعرُّفِ أيٍّ من المسكوكات الإسلاميَّة التقليديَّة التي يدعوها الباحثونَ النقود (العربية البيزنطية). إن الإشارة النمية (إلى النقود) لا يمكن أن يكون لها دلالة تتعلق بأواخر القرن الثامن أو التاسع أو ما تلا ذلك من القرون، لأن الصليب ظهر على الوجه المعاكس لِـ(نومِسْما) فقط بين أيام طيباريوس الثاني وسنة (102 هـ/ 720 م). هذه النقود لا يمكنُ أنْ يكونَ استعمالُه استمرَّ إلى زمن متأخِّرٍ طويلاً. لقد كان مؤلف ‹رسالة ضد اليهود› يعي أنَّ ثمَّةَ نقودًا ساسانيَّةً ذهبيةً أسبقَ زمنًا (وهي التي فسَّرَها خطأً بأنها تقليدٌ للنَّماذج البيزنطيَّة) كما كان يعي وجود نقود عربية. من غير البيِّن هل كان يشيرُ إلى أيِّ أنموذج خاصٍّ من الإصدارات العربيَّة البيزنطيَّة؟.

يعتقد المتخصصون في دراسة النقد البيزنطي والعربي أنَّ تاريخ الفِقْرَة يعود قطعًا إلى أواخر القرن السابع أو بدء القرن الثامن على أبعد تقدير.[65] ومؤلف ‹الرسالة ضد اليهود› لا يشير على نحو قاطع إلى إصدارات إمبراطورية أو خليفة قائم في دمشق في تسعينيَّات القرنِ السابع؛ اللوحة (1) رَقْم (9). ومن حيثُ إنه يتحدَّث عن المرات غير الناجحة السابقة، فيبدو ممكنًا أنه وضع مؤلفه في وقت لم تكن فيه محاولة قائمة لإصدار نقود للخليفة القائم. إنه أمر سابق لأوانه أن يقرر أنه لم ينجح مغتصب بذلك ما دامت نقود الخليفة القائم تسكّ. إضافةً إلى ذلك، فمن الصَّعْب أن يدلي الواحد بالحجة في زمن كان فيه إصدار النقود الإمبراطورية بنقوش يونانية أو عربية قائمًا، إذْ لا يمكن أحدًا أن يعرف هل كانت تلك النقود تنجو حتى تصل إلى نهايتها؟ هذه حجج نمية (نقودية) لاحتمال أن يكون تاريخ النص قبل (73 هـ/ 692 م).

ليس الأمر واضحًا هل كانت الإشارةُ إلى المقاومة الشعبيَّة للتقليدات [النقدية] في ‹رسالة ضد اليهود› تؤكد التاريخ (41 هـ/ 661 م) الذي ورد في مؤلَّف نلدكه؟ لقد كتبت الفِقْرَة الواردة في ‹الرسالة ضد اليهود› بعدَ سنة (41 هـ/ 661 م) ولكنْ من المحتمل أنْ يكون تاريخُ كتابتها زُهاءَ سنة (72 هـ/ 690 م) (وهو التاريخ الذي يرى معظمُ الباحثينَ في الإسلاميَّات أنه الوقتُ التقريبي لسك الإصدارات 'العربية البيزنطية') أو مباشرة بعد أن أصدر عبد الملك سنة (77 هـ/ 696-697 م) نقده المصلح، لوحة (2) رَقْم (10) في وقت كانت فيه التقليدات العربية للإصدارات البيزنطية لا تزال مألوفة عند الجمهور تقريبًا.

إن نسبة القسم الذي يحوي المقولات التاريخية في ‹رسالة ضد اليهود› إلى القرن السابع المتأخر لا يعني بالضرورة أنها حلّت المشكلات الأكبر من حيثُ تاريخُ الكتب الخمسة برمَّتها وتأليفُها. لعله كان عملاً يعود تاريخه إلى القرن السابع، باستثناء بضع إضافات وإخلالات، وحريٌّ بالواحد منا أن يتذكر إن هذه هي الفترة التي برز فيها القديس أنستاسيوس السينائي. من الممكن أنَّ المؤلف كان أنستاسيوس السينائي نفسه، لكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك أبدًا.



مثلُ هذه الفرضيَّة يبسِّطُ مشكلاتٍ أخرى تتعلَّقُ بـ"مجموع" الكتابات المنسوبة إلى القديس أنستاسيوس السينائي، لكن ثمة عدد من المشكلات المتعلقة بالنصوص التي تحتاج إلى مزيد من البحث.

بالعودة إلى الموضع الأصلي فإن ‹الرسالة ضد اليهود› يزودنا على الأقل ببصيص من النور للحل التي شاعتْ في أواخر القرن السَّابع. فهو يوحي بحاجةَ المسيحيين إلى أنْ يزيحوا عن كاهلهم عبْءَ الشعور الناتج من انتصار العرب وخسارات البيزنطيين في ذلك القرن ويظهر أنه كان هناك على الأقل مسيحي أرثوذكسي واحد أمكنه أن يستكين إلى التجارب التاريخية حديثة العهد، وأن يجد سببًا لأن يثق في أبدية الإمبراطورية البيزنطية واستمرار الجماعات المسيحية تحت السلطة الإسلامية. إنها شهادة على استمرار الحُسبان للنومِسْما البيزنطية داخل البلاد التي يسيطر عليها المسلمون، وعلى المشكلات التي عانتها السلطات الإسلامية في محاولتها نزع الرموز المألوفة عن نقدهم، ومن ثَمَّ، فإنها تزودنا بخلفية إضافية للنزاع النقدي بين يوستنيان الثاني والخليفة عبد الملك. وهي تنظر إلى أن نجاح العرب العسكري قد يسبب إحراجًا مستمرًا للمسيحيين، ومع ذلك، فإنَّ الأخيرين كانوا يتصفون بالقدرة على خلق تسويغ، مهما كان ساذجًا أو غير مقنع، للحفاظ على اعتقادهم في صدق إيمانهم وأبدية الإمبراطورية البيزنطية.[66]

### 9.9) الوثوقُ الإمبراطوريُّ، وثورةُ سابوريوس المخفقة

تحوي (الكرونوغرافيَّة) التي تعود إلى ثيوفانس قصة، تعود إلى أواخر القرن السابع، قامت بدور تضخيم أهمية الإمبراطورية البيزنطية، وجلالة أباطرتها، في مجابهة النزاع الداخلي والتهديد الخارجي من جهة الخلفاء في عاصمة الأمويين دمشق. إن الثورة المخفقة التي قام بها سابوريوس حاكم أرميناكس/أرضروم أخفقت في سنة (58 هـ) (667-668 م) في المفاوضات مع الخليفة معاوية في دمشق.[67] حقًا إن سابوريوس سقط من على ظهر جواده مصادفةً، وقتل، وبذلك أخمدت ثورته، لكنَّ هذه ظاهرة نادرة.[68] وقد أعيد نشر هذه القصة في المدونات البيزنطية والسريانية التي ضخَّمَت الحظ السيِّئ الذي يتربص بأولئك الذين يحاولون

القيام بدبلوماسية خاصة، أو شخصية، مع معاوية أو من يليه من الخلفاء الآخرين في دمشق، في حين ترفع من شأن الفوائد التي يجنيها الجميع، بما في ذلك القيادة الإسلامية في دمشق، من الدبلوماسية المباشرة بين السلطة البيزنطية الإمبراطورية وسلطة الخلافة،[69] بحسب رواية ثيوفانس:

> إن الجنرال الذي كان يحكم أرميناكس سابوريوس، (والذي كان من الجنس الفارسي) ثار على الإمبراطور كونستانس. وقد أرسل جنراله سرغيوس إلى معاوية، قاطعًا له عهدًا على أن يسلمه رومانيا [الإمبراطورية البيزنطية] إذْ كان يحالفه على الإمبراطور. فلمَّا بلغ ذلك ابنَ الإمبراطور قسطنطين الرابع بعث هو بأندرو (Cubicalsws) إلى معاوية، ومعه هدايا كي يحولَ دون التعاون مع معاوية.

يروي ثيوفانس أن معاوية صرح بما يلي: «أنتما كلاكما عدوان، وإنني أعِين الذي يدفع أكثر». وأجابه أندرو: «ليس لك أنْ تشكَّ أيها الخليفة، الأفضلُ لك أنْ تنالَ القليلَ من الخليفة بدل الأكبر من ثائر. افعل هذا قبل كل شيء لأنكما في حال صداقة» ويُزْعَم أن معاوية نصح سرغيوس رسول سابوريوس بألا ينحنيَ لأندرو. وفي الاستقبال التالي أهان سرغيوس أندرو على أنه خصي. وقد رفض أندرو أن يضاهي وعد سرغيوس لمعاوية بأن سيده الثائر سابوريوس عرض أن يقدم إلى معاوية جماع الضرائب العامة التي تجمع من الإمبراطورية البيزنطية. ومن ثَمَّ، غادر أندرو دمشقَ دون أن يتاح له إقناع معاوية. لكنه نجح في الأمر بإلقاء القبض على سرغيوس في ممر جبلي قرب أرايسِسّوس، ثم قضى بخَصْي سرغيوس، وتعليقه على المشنقة. وتوفي ساباريوس في حادثة فيما تلا. ليشكر سابوريوس على ثورته التي مكنت المسلمينَ من احتلال أموريون [عَمّوْرِية] موقتًا والغزو حتى البوسفور، لكن في الشتاء التالي تمكن البيزنطيون منَ القضاء على الحامية الإسلامية برُمَّتِها واستعادة أموريون.[70]

تشدد قصة سابوريوس على التقنيات المتعددة التي استخدمتها الحكومة الإمبراطورية، بما في ذلك الخصيان الماهرون القسة، لفرض سلطة الإمبراطور في الحدود، ولمعاقبة أولئك الذين يحاولون الانفصل، والقضاء عليهم. ويبدو أن



المصادر العربية أهملت ثورة سوباريوس، أو تجاهلتها، لكن يبدي مؤلَّفَا ثيوفانس وميخائيل السرياني أنَّ ثورةَ سابوريوس كانت هي غايةَ ما توصَّلَت إليه الدبلوماسية الأموية السوريَة في سبيل الوصول إلى السيطرة على الإمبراطورية عبر التفاوض مع القواد البيزنطيين المحليين. على أن سابوريوس لم يكن حاكمًا مدنيًا، إنه واحدٌ من القوَّاد المولين حديثًا للثيمات. وبرأي البيزنطيين، فقد زودت القصَّة دروسًا وإنذارًا تجاه محاولات التعامل الإفرادي مع دمشقَ. لقد دعم قدر سابوريوس ومؤيديه اعتقاد بأنَّ الموت والدمار كانا هما ما تنتهي إليه الثورةُ على القُسْطَنْطِينية، أو المفاوضات المباشرة مع المسلمين.[71]

## 9. 10) الأوضاعُ الدَّاعيةُ للثِّقةِ في القرنِ السَّابع: نظرةٌ عامَّةٌ

إن الخطوط الكبرى للأوضاع السياسية والدينية للقرن السابع، أضحت أخيرًا، يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود. مع أن العقدين الأخيرين من النصف الأول من القرن السابع تخلَّلهما شكٌ وتبادل تهم عصبية الطابع، فإنَّ عددًا ضئيلاً من النصوص هي إمَّا معاصرةٌ لفترة المجمع المسكوني السادس، وإمَّا تاليةٌ لها مباشَرة، تظهر وجود ثقة بالإمبراطورية، وإيمان بها على المحن. وكان لا بد للقرارات التي صدرت عن المجمع، ومثل ذلك نجاح الإمبراطورية في صد الحصار العربي الأول للقُسْطَنْطِينِية، من أن يعينا على هذه الحالة النفسية، مع أنه كان من الطبيعي أن يبحث المعاصرون عن تفسيرات واقعية لتجاربهم وأحوالهم. ليس الأمر واضحًا هل كان مزاج المسيحيين العام، داخل الإمبراطورية وخارجها، اختلف أيام قسطنطين الرابع عن أيام أبيه كونستانس الثاني؟ ولو أن القديس أثناسيوس السينائي استشعر، في إحدى عظاته، تحسنًا في مصائر الإمبراطورية بسبب انتقالها إلى الوضع الخرستولوجي الصحيح، (أي: الخلقدوني).[72]

وليس ما يدعو إلى الاستغراب من أنَّ المصادر المتوافرة تخفق في أن تكشف عن أي محاولة معقدة لفهم التطورات السياسية والعسكرية الحديثة العهد، أو توضيحها، أو الكشف عن ملابساتها. إن الطابع الديني الأغلب للمصادر المتوافرة يوضح محاولات مؤلفيها لتفسير الأحداث على نحو يكاد يكون محصورًا في

إطـار ديـني، سـواءً في ذلـك الأرثوذكسـي، أم ذو المشـيئة الواحـدة، أم ذو الطبـيعة الواحـدة، أم الـيهودي. ومـع ذلك، تحتل الإشارةَ إلى الأحداث والأوضاع التاريخية في مجمـوع المجلـدات الـتي دونـت، موضـعًا جزئـيًا جدًا. وتظهر هذه الحججُ القليل من الابـتكار؛ وهـي تشـبه، في أجزاء منها، التفسيرات الدينية لوضع الإمبراطورية الذي ساد في أزمةٍ إمبراطوريَّة سابقة، تلك التي وقعت في القرن الخامس.[73]

لقـد كـان مـن الصـعب الغوص في دلالات الملابسات المتصلة بهذه الخلافات، عـند السـكان الأوسـع انتشارًا في الإمبراطورية، الريفيين منهم والمدنيين، بَلْهَ النسبة إلى السكَّان المسيحيين خـارج الإمـبراطورية وتحـت سلطة الخلافة. ومن حيثُ إنه لـيس هـناك مصـادرُ حقيقـيَّةٌ لـتحديد هل كان، أو كيف كان، لردود الفعل هذه عند النخبة مجـل للانتشار بين السكان المنتشرين في مدىً واسعٍ؟ وإذا كان ثَمَّةَ شيءٌ من هـذا، فـبأيِّ شكلٍ وبأيِّ نتائجَ؟. في هذه الحل، فإنَّ الواحدَ لا حولَ له إلا أنْ يلجأ إلى الحـزْر. ومـن غيرُ المؤكد أيضًا هل كان ثَمَّةَ أيُّ اتساق في انتشار ردودِ الفعل هذه بين فـئاتٍ أوسـعَ مـن السُّكَّان. فما كان للقرى الريفيَّةِ والجبليَّة أن تظلَّ جاهلةً تمامًا أمر الانتصـارات الإسـلامية وتدهـور الأمـن، وأمـنهم المحلـي حصـرًا. لكن المصادر لا تشـير، عـلى نحـو واضـح، إلى أنَّ القـرى تحاورت وعلَّقت على هذه الحوادث على نحـو يشـبه مـا كـان يـتم بين اللاهوتيين الذين كانوا أعمق ثقافةً وأكثرَ تنقُّلاً. ومثلُ ذلـك، فمـن الصـعوبة أنْ يُعـرفَ مـا الـذي كـان يـدورُ في خَلَد جماعاتٍ أوسعَ من السُّكَّان مـن غير رجل الدِّين في القُسْطَنْطِيْنِية أو تِسَلانوكي [سلانيك اليوم] عن هـذه الأحـداث أو إلى أي درجـة أثـرت هـذه الأمـور في الاعـتقادات المسـيحية والتصـرف اليومـيين. ولـيس مـن الممكن القيامُ بمسح سوقي أو استطلاع من نوع مـا يـتم في القـرن العشـرين للتأكد من مدى التبدل في الاستجابات العامة للأمور: إن المصـادر ليسـت مـتوافرة. حـتى تـراجم القديسـين والتواريخ المحلية والمراسلات نـادرة. والفجـوات تجعـل مـن الصـعوبة أن تُقـدِّر الحـيلة الروحـية عـند القـوم واسـتجاباتها للفـتوح الإسـلامية. وبعض وجهات النظر الإسطخولوجية التي تعود إلى أواخر القرن السابع استمرَّت صياغته، على نحوٍ أو آخرَ، في القرن الثامن.[74]



# 10) عَنَاصِرُ الإخفاق والصُّمُود

## 10. 1) إخفاق استراتيجيٌّ

تنـبأ الدبلوماسـي البـيزنطي بـيتر، البطريق الذي عاش في القرن السادس، بـأحداث القـرن السـابع، مسـتبقًا إياهـا، لمـا أنذر، في سنة (562 م) دولة شرقية أخـرى هـدَّدَت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة يومَها؛ أي: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، بقوله: «لقـد نلـنا شـبعنا مـن الحرب قبل أن تشبع الحرب منا.. ما دام الرجال يتغلبون عـلى خصـمهم عـلى نحـو واضح، فإن شجاعتهم تستمر الإفادة منها. لكن متى بـدا واضحًا للعِيَان أنَّ ثَمَّةَ عجزًا في التغلب على الخصوم، فإنهم ينفقون قوَّتهم سدى، وتكونُ النتيجةُ أن يخسروا أمامَ أولئك الذين لا يجوزُ أن يقهروهم».[1]

كـان لـدى هـرقل ثمانـيةَ عشـرَ عامًـا ليـتمكَّن خلالها من الوقوف على الاسـتراتيجية والتكتيك الصحيحين كي يحطم الفرس. لكنه لم يتح له متعة ثمانـية عشر عامًا أخرى ليخترع، أو يرتجل، التكتيك والدفاع والاستراتيجية المجابهـة للمسـلمين. فـالحملات الإسلامية الأولى فاجأت الحماة العسكريين والسـكان المدنيين، في سوريَة وفِلَسْطين، الذين لم يكونوا يتوقعون أي نشاط عسـكري مـن جهة الجزيرة العربية، ولو أنَّ المراقبين المحدثين، قد يعثرون، في اسـتعادة للماضـي، عـلى إشارات منذرة.[2] من المستحيل أن يُثبَت هل كان هـرقلُ قادرًا على استنباط استراتيجية فعَّالة تجاه المسلمين لو توافر له وقت مديـد؟ لقـد جـرب، مـن دون نجـاح، تطويـر مـا يمكـن أن يُدعـى نوعًـا من اسـتراتيجية الحـرب الموضـعية، وهـي الحـرب في العمـق.[3] وتعـتمد هـذه الاسـتراتيجيَّةُ عـلى السَّـيْطَرة عـلى نقاطٍ ثابتةٍ ومحصَّنَة، وعلى الحصارات،

وعلى مبدأ أساس هو السيطرةُ على الأرض والسُّكَّان في تلك الأرض. تلك الاستراتيجية لم تنجح. لم تكن المشكلة في المواقع الثابتة، ولكن في انعدام قوى متحركة كافية إلى جانب مخطط مناسب للعمليات والتدريب على التنسيق مع تلك القوى القائمة في المواقع الثابتة والحصون. والذي حدث هو أن هرقل توفي في وقت مبكر من سنة (21 هـ / 641 م) بعد نحو سبعِ سنوات من الظهور الجدي للخطر الإسلامي، أو أقل من اثنتي عشرةَ سنةً بعدَ أوَّل صدام جدي في مؤتة. ولا ينفي إخفاقه في ثلاثينيَّات القرن السَّابع إنجازاته في حروبه على الفرس بين سنتي (610-628 م). لكنَّ إخفاقه في ثلاثينيَّات القرن السابع كان استراتيجيًا.

قام هرقل عمدًا بتدمير المناطق الحدودية في مجاراة المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس في (16-21 هـ/ 637-641 م) إذ إنه بذل الجهد في خلق منطقة عازلة مهدمة فارغة لا تصلح للقتال على أساس أنها منطقة للدفاع العميق أمام العرب. وهذه المنطقة الحدودية لم تنتج أبطالاً بيزنطيين محليين ولا أسرًا في الفترة الأولى من إقامة الحدود. وليس ثمة مصادر تثير روحًا ثقافية لذلك الحد الذي كان آخذًا في التطور، والذي أصبح على درجة من الأهمية في القرون التالية.[4]

لم تكن الفتوح الأولى تتابعًا لمعارك أو صدامات أصغر، بل دخل في حسبانها اتصالات دبلوماسية مختلفة وهُدَن. فقد تقاطعت المفاوضات مع المعارك سواءً اندفاعًا صادقًا كانت أم خداعًا ونيةً للاستغلال لمقاصد أخرى، أو لأسْر القيادة المعاكسة، أو القضاء عليها. وكان ثَمَّةَ سلسلةٌ من الاتفاقيَّات المتباينة المدى تتعلق بالزَّمن والمدى الجغرافيِّ. لقد كان كل من البيزنطيينَ والمسلمينَ يتفقون على مثل هذه الهدن بقصد تعيين الحدود وكسب الوقت والدعوى (وأحيانًا كانت هذه الدعوى صادقة) بأن هذه كانت لتخفف الصعوبات عن المدنيين. فقد كانت هناك نوعية من الخداع في هذه الهدن التي كانت هي حصرًا جزءًا من الصراع الأكبر في سبيل الأراضي موضع البحث. فالقتال والتفاوض كان مألوفًا فيهما التبادلُ في بعض الحالات، يحدوها الأملُ



في أنه قد تؤدي المماطلات إلى تطورات جديدة، لعلَّها، لم تكن منتظرةً من دون إتلاف أعدادٍ من الحياة أو إنفاق الكثير من المال لتحقيق المقاصد الكبرى للحرب. كان تعليق القتال ومتابعة الاتصالات الرسمية أو غير الرسمية يخلق فرصةً أخرى لمتابعة القتال بأسلوب لا تكونُ فيه إراقةُ دماء غزيرة. وبلغ القتالُ درجةً غير متساوقة في القرن السادس على الجهة الشرقية، وهذا الوضع استمرَّ في أثناء الحروب البيزنطية مع المسلمين في ثلاثينيَّات القرن السابع وأربعينيّاته. قلَّما كانت رحى الحرب تدور على أعلى درجة من الشدة؛ فقد كانت تمر بها أوقات تصبح فيها حربًا بطيئة الحركة مع توان مقصودٍ، وحركة بليدة، ورغبة متعمَّدة في تجنب الخطر المتأتي من عمل فاصل في المعركة.[5]

كانت ثَمَّةَ من قبلُ خطوطٌ دفاعيَّةٌ ممكنةٌ مختلفة مبكرة خُسرت، ويمكنُ أنْ تقومَ بدور الحدود: وادي الحسا، ووادي الموجب (أو نهر أرنون) ووادي الزَّرقاء، وبطبيعة الحال، نهر اليرموك. لكنَّ المسلمين اجتازوا كلاً منها، وكان كلٌّ منها أخفق في القيام بدور حاجز لا يمكنهم أنْ يجتازوه. كانتْ ثَمَّةَ رغبةٌ لإقامة نقطةٍ لا يمكنُ أنْ يتجاوزها المقاتلونَ في الجهة الواحدة أو الأخرى، وهي التي كانت في صميم تلك الاتفاقيات الصلحية المبكرة (هذا إلى جانب المدفوعات النقدية والخوف والاحتمال القائم لاستعمال القوة العسكرية). ومن حيثُ المبدأُ كان ثَمَّةَ مواقعُ تصلُح للعودة إليها لإقامة خطوط دفاع ثانوية عدا تلك التي أقامها البيزنطيون حقًا. ومع ذلك، لم يعر البيزنطيون البتَّةَ حدودَهُم مع العرب الانتباهَ والتفكيرَ اللذين وجَّهاهما للحدود مع السَّاسانيين. ولما وصل المسلمون الجزء الشَّمَالي من سوريَة، عندها فقط، بدأ الجهد في إقامة خط دفاع ثانوي، والحاجة إلى العثور على نوع من خط مميز من نوع ما، سواءً في ذلك خطًا كان أم منطقةً في العمق. وكان يمكن للخطوط التي تصلح نقاط ارتكاز خلفية أن تكون في مجاراة جبل لبنان، مستبقين في ذلك الصليبيين، أو كان بالإمكان الحفاظ على جزء أكبر من شِمَال سوريَة، بما في ذلك أنْطَاكِيَة وجوارها، على نحو ما فعل البيزنطيون في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر، وعلى نحو ما تم للصليبيين فعله فيما تلا من الزمن. وقد

شملت أسباب الانسحاب حتى طوروس القوة البشرية البيزنطية المتوافرة، والرغبة في تجنب الكثير من القتل الدموي مع المسلمين بقدر الإمكان، ولو أنَّ هذه الانسحابات أجّلت إراقة الدماء فترةً قصيرةً ليسَ غيرُ، وإضافةً إلى ذلك، فقد زادت مصادر الثروة للمسلمين.[6]

إن محاولات هرقل في استعادة ميليتين (مَلَطْيَة) من المسلمين، وحنقه على السكان لتفاوضهم مع المسلمين، وأمره بتدمير المدينة، كل هذه لم تكن أعمالاً استثنائية، لكنَّها كانت متساوقةً مع سياسته الأوسع لمنع السكان والزعماء في المواضع المختلفة من القيام باتفاقاتهم وترتيباتهم الخاصة غير المرخص بها مع المسلمين. لقد جعل تهديمه ميليتين مثلاً لهم، كما أنها أعانت على إقامة منطقة خربة وحدودًا بين البيزنطيين والمسلمين.[7]

بدا الحدُّ البيزنطي المسلم واضحًا بعضه من أوضاع الفتح والاتفاقيات الصلحية التي تمت في سوريَة، وكذلك من تلك التي تمت في ميزوبوتاميا.[8] إن الحدود الزمنية هي تلك التي ارتبطت بفتح سوريَة، وما أعقبها مباشرة من كارثة؛ أي: مبدئيًا في ثلاثينيّات القرن السابع وأربعينيّاته، ولا سيّما في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب (13-23 هـ/ 634-644 م) وبعض العقود التالية. والمسلمون لم يسمحوا لخصومهم بالحصول على هُدَن إلا على شروط كانت في مصلحتهم إلى درجة قصوى. وكانت أساليبهم تحوي ضمًا معقدًا لمحاولات دبلوماسية وعسكرية وتهديدات، كانت متناسقةً، وكان يقصد منها أن يدعم العنصر الواحد العنصر الآخر فيها. وفي أثناء التفاوض على الشروط كان المسلمون يحاولون، في أغلب الحالات، تخطي قواد العدو وموظفيه. بدلاً من ذلك كانوا يحاولون الاتصال مع الموظفين والقواد المدنيين المحليين. وكانوا يرغبون في التفاوض على الشروط مع أولئك الذين كانوا مستعدين لتجنب الانتظار للموافقة الرسمية على مفاوضاتهم. كما كانوا أيضًا ينوون تشجيع الموظفين والسكان المحليين الذين كانوا مستعدين للانفلات، والذين كانوا يرغبون في قطع الصلات مع السلطة الإمبراطورية السابقة، وكانوا مستعدين للاعتراف بسيادة المسلمين، ولكن ليس بالضرورة أن يُسلموا. ويمكن للمرء



أن يصف هذه الاستراتيجية كأنها (تقطيع السجق) والغايةُ النهائيةُ منها هي التصغيرُ النهائي للخصوم أو إزالتهم.

ليس ثمة من داع للمماحكة اللغوية في تحديد "الحد" الذي قد يكون خطًا أو منطقة، ولو منطقة مدمرة. وقد لا يخدمُ الحدُّ حركاتِ العدوِّ الخارجي فحسبُ، بل خطر الحركات غير المرخص بها من داخل الحدود إلى أرض العدو أيضًا. إن التصور البيزنطي للحد سبق وجود التهديد الإسلامي، وفي الواقع كان قائمًا في العصور القديمة المتأخرة. وتتضمن الفكرة البيزنطية للحد أو أطراف المناطق الحدودية البلاد في أقصى حدود السيطرة البيزنطية أو الطرف الخارجي لها. وقد استعمل بروكوبيوس التعبير الأكثر ألفة، الأطراف، للإشارة إلى أقاصي الإمبراطورية. إن الفكرة الإسلامية المقابلة "ضواحي الروم" تعني «الأقضية اليونانية الأقصى».[9] أي: الأقضية الخارجية لليونان، أو، كما تدل عليه الكلمةُ اليونانيةُ، الأطرافُ.[10]

والمسلمون، من جهتهم، عملوا على الحيلولة دون الغزوات أو الغارات أو التجسس.[11] وكانوا يرغبون في منع أصحابهم العرب، الذين كانوا يثمنونهم كثيرًا جدًا، والذين قد يكونون غير مسلمين مثل (ولكن ليس بالضرورة) المسيحيين، من الفِرَار إلى الإمبراطورية البيزنطية. ولم ينجح أي من الفريقين في جعل ذلك الحد منيعًا تمامًا لا يُخترق. وقد رغب عمر وهرقل، على الأقل مؤقتًا، في إقامة حد عبر ممرات طوروس وأنتيطورس. ونجم من ذلك أنَّ معظمَ الاتصالات المقصودة التي لم تكن عسكرية الطابع بين الإسلام وبيزنطة كانت تتم عبر البحر، وليس عبر الحدود البرية، مع الغارات العرضيَّة المشهورةِ إلى دمشق.

### 10. 2) الممرَّاتُ

تقلصت الحدود الجغرافية للإمبراطورية البيزنطية إلى منطقة جبل طوروس عند الطرف الجنوبي الشرقي لقبدوقيا ومناطق فوقها وتحتها تمامًا، بما في ذلك ما يسمى تقليديًا شِمَال سوريَة، وقبرص كذلك. إضافةً إلى قبرص، ضمت منطقة الحدود في آسيا الغربية أراضي كانت تقع جنوبي أيكونيوم (قونية) وقَيْسَارِيَّة

(كيصري) شِمَالي حلب وأَنْطَاكِيَة، وهي على التوالي في شِمَالي سوريَة، وجنوب شرقي تركيا، وإلى الشِمَل أو الغرب من ميليتين (مَلَطْيَة التركية) وكذلك أراضي إلى الشرق كان يقطنها الأرمن. كانت هذه المناطق تخص الولايات الرومانية المتأخرة (اليوستنيانية) الأرمنية الأولى والثانية والثالثة والرابعة، وقيليقيا الأولى والثانية، وأيزوريا، والفرتية، وأوزروني، وميزوبوتاميا. وهي تضم جميع الولايات التركية الحديثة أو أجزاء منها: أديامان وأضنة وأنْطَاكِيَة والإزغ وإرزنكان وغازيانتاب وكيصري وقونية ومَلَطْيَة ومرش (مَرْعَش العربية) ومرسين ونِغْدا وسيفاس وأورفة والمحافظات السورية الحديثة: حلب والرِّقَّة والحسكة وإدلب وحماة. كل هذه المناطق انتابتها غارات وحملات إسلامية مباشرة ومتكررة، وتلك التي ظلت بيزنطية واجهت تهديدات غارات وحملاتٍ أكثر، وانعدام الأمن كذلك. كان من الصعوبة على السكان أن يناضلوا في سبيل البقاء وضمان الاستقرار. وكان ثمن البقاء لدى بعض الجماعات، ولا سيَّما من ثلاثينيَّات القرن السابع حتى القرن التاسع، تحمُّل أوضاعًا دقيقة تكاد لا تُحْتمل. (الخريطة رَقْم (5)).

تشمل الممرات المهمة عبر جبل طوروس وأنتيطورس البوابة القيليقية بين قيليقيا وقبدوقيا؛ وممر الحدث (أداتا) عبر أنتيطورس بين مَرْعَش (جرمانيكيا) والبتان ومنطقة أرابسّوس التي كانت تُيسر الانتقال إلى إرمينية وشِمَل سوريَة وكومّاجين وشِمَل ميزوبوتاميا؛ وثمة طريقان يعبر أولهما مجرى نهر بيراموس (تشيهان اليوم) والثاني ممر إربل بين كوكوسس في هضبة إلبِسْتان وجرمانيكيا (مَرْعَش) وممر مَزْغاتشيل من كوكوسُس إلى فالبياس (كادرلي). وكان ثمة طريق آخر يبدأ من كوكوسُس ويصل إلى ممر مِرْيَمتشلْيل، ومن ثمَّ عبر أنْديرين إلى كَسْتَبَلا (بودْرُم). والطريق الذي بلغ من الصعوبةِ الغايةَ هو الذي يبدأ في قَيْساريَّة قباوقيا إلى ميليتين (مَلَطْيَة) عبر جبل أنتيطورس، ولا سيَّما طريق قَيْساريَّة إلى أراساكسا إلى كومانا إلى أرايسّوس إلى بيكاندوس إلى أركا. وفي هذا الطريق كان يقوم ممر كارَهان غيتشيلدي بين ليكاندوس وبلاستا والطريق إلى أركادوكيرامِزيون وساما إلى ميليتين (مَلَطْيَة). وأخيرًا، فثمَّةَ طريقٌ آخرُ ذو أهميَّة كان يبدأ في دفيلي



إلى بَكِرْداغي، ثُمَّ عبر غِزْيِل إلى سايْمبيلي وفيك، ومن ثَمَّ إلى سيسون في قيليقيا. وهذه لا تعدو كونها اختيارًا لبعض أكبر الطرق والممرات أهمية، والتي تحظى بأوصاف جيدة.[12]

كان أحدُ المبادئ الرئيسة، في إقامة حدٍّ جديد مع المسلمين يمتد عبر أرض كانت من قبل رومانية وبيزنطية، هو السيطرةَ على هذه الممرات، واختراقها.[13] إنَّ هذا الفصل اختتم الدور الأول من الفتوح العربية، ومن مطاردة المسلمين فلول الفارين من البيزنطيين والعرب المسيحيين. وقد تم الاستيلاء على هذه الممرات مع أنها رمزٌ وواقعٌ على إقامة حدود جديدة لسلطة الناس وحريتهم في السفر، ومع أنها حواجزُ للعناصر العسكرية والمدنية على السواء على نحو قرار هرقل في إقامة منطقة مجردة بين الدولتين.[14] كانت الطلائع الإسلامية، بطبيعة الحال، هي الأولى التي دخلت حَلْبَة الصراع على الممرات، التي لم تكن، أصلاً، جزءًا من أي اتفاقية رسمية.

أصبح الصراع على الممرات حاجزًا وسبيلاً إلى الاختراق العدواني في كلتا الحالتين، وكان كذلك عثرة ومقصدًا.[15] وكان لهذا الصراع أسبقيات طويلة الأمد من الحروب الرومانية والبيزنطية مع الفرس في أعالي الفرات، وأساليب منع استعمل الطرق، والدفاع عن المرتفعات، وعلى النحو نفسه أعمل هرقل سنة (613 م) وفي عشرينيَّات القرن السابع، وقد كانت أكثر ارتباطًا بالصِّراع من التجربَة الرومانية الأسبق عهدًا مع العرب، التي لم تشمل حربًا جبلية.[16] مع أن الممرات الجبلية والأقضية العسكرية البيزنطية الواقعة على الحدود هي عناصر حاسمة لفهم هذه المشكلة، فممَّا يُغري الباحثَ بالقول، لكن من دون تأكد، إنْ كانت «الثغور الإسلامية» عملاً تم بإدراك على أنها مقابل ستوميا (أفواه، فجوات) البيزنطية، أو في مقابل الممرات الجبلية المذكورة، أو أي جزء من الحدود ثُبّت قبل خلافة هارون الرشيد (170-193 هـ/ 786 - 809 م). وفي أواخر القرن السابع كان منصب (حارس ممر) معروفًا.[17] ومع ذلك، فالمعلوماتُ المتيسِّرة عن الأوضاع الواقعية للطرق أو المضايق عبر المناطق الحدودية، لمن كان يرغب في استخدامها، كانت قليلة. وقد رغب هرقل في إقامة نوع من الحدود لم

يكن يتطلَّبُ اشتباكاتٍ ضخمةً في معاركِ البلاد المكشوفة. ولما فُقِدَت المدن المحصنة في سوريَة، فإنَّ الذي ظلَّ من المواقع التي يمكن الدفاعُ عنها هو ما كانَ على امتدادِ السَّلاسل الجبليَّة وممرَّاتها.

كان الاستيلاءُ على الممرَّات يقتضي إدراك الحقائق الجغرافيَّة، كما لزِمَهُ أيضًا الإدارة والتمرُّس بالحسِّ الزَّمني والاستعداد للمقاومة. والجغرافيَّة وحدها لا تفسر التوقف الإسلامي في أواخر أربعينيات القرن السابع. فقد كان باستطاعة المسلمين أن يقاوموا التهديدات المبهمة للهجوم البيزنطي المعاكس على قلب بلادهم؛ أي: دمشق، بينما كان من العسير على المقدرة البيزنطية أن تقوم بحملة عدائية إلى داخل شبه الجزيرة العربية. ولم ينجح العرب في استنباط أجوبة ذات قيمة لإقامة البيزنطيين دفاعًا في العمق في الممرات الجبلية في سلسلتي جبل طوروس وأنتيطورس في الطرف الجنوبي الشرقي للهضبة الأناضولية. لقد وقعوا فريسةَ أملهم في استراتيجيَّة جر الزعماء البيزنطيين الكبار الذين انتظروا منهم أن ينتقلوا إلى الخضوع السياسي لهم. إن تلك العملية لم تصل إلى درجة النجاح والقَبُول التي أملوها أصلاً، فكانت النتيجة أنهم أصبحوا أكثرَ اعتمادًا على الحلول العسكرية. ثم إنهم توغَّلوا أيضًا في مناطق لم يكن بعدها سكانٌ عربٌ يمكنُ أن يأملوا بإقامة ترتيبات خاصة معهم، و يمكن أن يحصلوا منهم على تعاون وإرشاد من نوع خاص تجاه البيزنطيين. لقد زادت هذه الجغرافية اللوجستيكية من صعوبة مهمتهم على نحو متوال.

أخذ المسلمون يقتربون من تحقيق أهدافهم في العقدين أو العقود الثلاثة في مطلع القرن الثامن، إذ أخذ توسُّعُهُم بالتباطؤ. فقد احتلُّوا الإمبراطوريَّة الفارسيَّة كليًا. وقد عوّقت الحروب الأهلية الثلاث بين السنوات (36-41 هـ/ 656-661 م) و(61-73 هـ/ 680-692 م) و(130-134 هـ/ 747-751 م) قدرة المسلمين الهجومية على نحو شديد، كما عوّقت مقدرتهم على متابعة مخططهم الاستراتيجي. لقد كان إخفاقهم ناشئًا من خلافاتهم الداخلية، ولم يكن بسبب تعافي قوات خصومهم، وتكيفهم العسكري في القرن السابع ومطلع القرن الثامن. لقد كانت الدرجة القصوى لتوسُّعهم العسكري باتجاه بيزنطة، ربما، في



حصارهم الأول والثاني للقُسْطَنْطِينِية (55-59 هـ/ 674-678 م) أو (98-100 هـ/ 717-718 م) مع أنَّ ثمَّةَ آخرينَ قد يرون أنَّ الذروة بلغت أيام عملياتهم شِمَالي البرانيس في أوائل القرن الثامن. على أيِّ حل، لقد أوقفت الحرب الأهلية الإسلامية الأولى الزخم العسكري المتنامي للمسلمين.

### 10. 3) سوابق المجابهةِ

أدى سقوط مدن مختلفة في سوريَة وميزوبوتاميا بالتفاوض في أيدي المسلمين، في ثلاثينيَّات القرن السابع وأربعينيَّاته، إلى قيام سكان أكثر تجانسًا داخل الحدود البيزنطية والإسلامية. ومع ذلك، لم يكن أولئك السكان يتجانسونَ البتَّةَ؛ فقد أصبحوا، بسهولة، أكثر تجانسًا مما كانوا قبلاً في سوريَة. ولعل الحملات المسلمة والبيزنطية جعلت الأناضول أقل تجانسًا بسبب إعادة إسكان لاجئين معينين.

وقعت الحملة الأخيرة في خلافة عمر في سنة (20 هـ/ 641 م) بقيادة ميسرة بن مسروق، وكانت الأولى على أرض الرُّوم التي اخترقت آسيا الصُّغرى. ويضيف اليعقوبي: إنَّ حبيبًا بنَ مسلمةَ الفهري تثاقل بسبب المرض، وبذلك سوَّغَ تصرُّفَهُ أمامَ عمرَ لما استفسر منه الخليفة عن سبب تأخره. وقد أثار هذا غضب الخليفة: «وكانَ عمرُ يقولُ: إذا ذُكِرَ الرُّومُ، والله لوددتُ لو أنَّ الدَّرْبَ جمرةٌ بيننا وبينَهُم، لنا ما دونَهُ، وللرُّوْم ما وراءَ ذلك».[18] هذه المقولة لعمرٍ منحها قيمة خاصة بسبب ما كان يتصف به من رفعة المنزلة.[19] وعلى كلٍّ، فقد كان ذلك القولُ توصيفًا موضحًا للحدود متداولاً في أواخر القرن التاسع (أيام وضع اليعقوبي كتابَهُ).

لقد حظيت العلاقاتُ مع بيزنطةَ أيام خلافة عمرَ (13-23 هـ/ 634-644 م) التي تلت الانتصارات الأولى، بالقليل من العناية.[20] وتشير ملاحظة عمر إلى تأييدٍ لإقامة حد كحاجز في الممرات. وهي تتفق مع رواية البلاذري أن عمرَ أمر بتدمير مدينة أرابسوس بسبب رفض سكانها تزويد المسلمين بأخبار عن البيزنطيين.[21] لقد كان عمر يرمي إلى إيجاد منطقة مدمرة، ولعلَّ قضيةَ أرابسوس كانت، في حقيقة الأمر، أحدَ الأمثلة التي حملته على هذا التصميم.

بحَسَب ما جاء عند اليعقوبي، فإنَّ حملاتٍ مسلمةً جديةً تابعت مسيرها بعد وفاة عمر. لكنْ كانت ثمَّةَ حملات عبر الممرات إلى آسيا الصغرى في سنة (23 هـ/ 643 م). إذاً، فتلك الرواية خطأ، ومقولة عمر المزعومة هي أيضًا تسويغ لإقامة منطقة عازلة مدمرة بين الإمبراطوريتين كانت ضرورية لتثبيت الوضع. فمن المحتمل أنَّ البيزنطيينَ والمسلمينَ كانوا يخشون غزوات من الجانب الآخر. ولعل كلا الفريقين رغب في رسم خط واضح منعًا للعدو من قضم البلدين. إذ المفروض أنَّ أي اعتداء، مهما، صَغُر أو لو جاء مصادفةً، سيبدو واضحًا، ومن ثَمَّ، فإنَّهُ يؤذن للمدافِع بأن يردَّ الضربة بمنتهى القوة.[22] ذلك يعكس العداوةَ العميقةَ الجذور التي يبدو أنه لا يمكن ردمها في نظرة كل فريق للآخر، والناجم منها ملابساتٌ مُهِمَّةٌ لفهْم النواحي العَقِدية للعلاقات بين بيزنطة والإسلام المبكر.[23]

يدعي اليعقوبي أنه لم يكن ثمة أيّ حملة برية على البيزنطيين في خلافة عمرَ بعد الحملة الأولى عبر الممرات التي وقعت سنة (20 هـ/ 640 م). مع ذلك، كان القصد من هذه الحملةِ الأولى وقف العرب الفارين عند الممرات، وقد نجحت في مهمتها.[24] إنها لم تكن حملة بقصد التوغل في الأناضول. لعل اليعقوبي كان يردد نظرة زمنه بدلاً من نظرة زمن خلافة عمر (13-23 هـ/ 634-644 م).[25] وقد كان ثمة تناقض قائم في الروايات عن خلافة عمر، إذ هناك روايات موثوق بها تمامًا، كما أنَّ هناك حملةً عبر الممرات، في الحقيقة حتى أموريون [عَمّورِية] ولعلها كانت بقيادة معاوية.[26]

تبقى أخبار الحملاتِ الإسلاميَّةِ المبكِّرةِ عبر الممرات إلى الأناضول البيزنطية غامضةً. فلم يدوِّنْ أيٌّ من الجغرافيين أو المؤرخين، على نحو واضح، وصفًا مفصلاً لتشكيلها أو أوقاتها (من حيثُ الفصولُ) أو عناصرها أو تنظيم سيرها، إنْ كان ثمَّةَ شيءٌ من هذا. ويبدو أنَّ بعض الحملات المبكرة كان فيها جنود أتوا من مكان قصي حتى مصر. وأصبح جند حمص مركزَ تجمُّعٍ مهمًّا لبعض الحملات المبكرة، على الأقل حتى وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد سنة (46 هـ/ 666 م). وبدأت حمص تكون نقطةً مركزيةً منذِرةً بالخطر أيَّامَ هرقل. لعلَّ



سكانها الكثر من المسيحيين كانوا السبب في خلق أوضاع من التوتر الديني أيام تجميع القوات للحملات، وزادوا احتمالَ وصول أخبارٍ عن الحملات الإسلاميَّةِ المعتزمِ إرسالُها إلى البيزنطيينَ بأي سبيل.[27]

لعلَّ الخليفةَ عمرَ بنَ الخطَّاب كان على صواب إذْ رأى أنَّ المسلمينَ يحتاجون إلى التوطد قبل العودة إلى الفتوح، مع روايات أنَّ: «السكان في إحدى قرى حمص كانوا يسمعون نباح كلاب [البيزنطيين] وصياح دجاجهم». ويبدو أن عمر كان يرغب في التوقف بعد التوسع الإسلامي الكبير في السنوات المبكرة من خلافته، وبسبب الأخبار المبالغ فيها عن أخطار البحر، فقد زُعِم أنه رفض السماح بحملات بحرية، قائلاً: «كيف يمكن أن أسمح للجند بركوب هذا البحر [البحر المتوسط] المتعب غير الأمين. وأقسم بالله: إنَّ مسلمًا واحدًا أثمنُ عندي من كل ما يملكه البيزنطيونَ». إن الروايات[28] التي تقول: إنَّ عمرَ منع معاوية من القيام بحملات مبكرة لفتح قبرص تتفق مع الرواية الواسعة الانتشار بأنَّ عمر حاول منع القائد العسكري المعروف بقدرته، عمرو بن العاص، من الهجوم على مصر.[29]

لقد استحسن الخليفة معاوية سياسةً أمعن في العدوانية تجاه البيزنطيين، ووضعها موضع الأداء، برًا وبحرًا، وذلك بعد وفاة الخليفة عمر لأنه أخذ بالحُسبان تقدير مصالحه، وتلك التي ارتأى أنها قد تتجمع شرعًا في مصلحة الإسلام. وفي ذلك الوقت ثبت المسلمون سلطانهم في سوريَة، ولكن البيزنطيين كانوا كسبوا وقتًا كان أثمنَ لهم كي يجمعوا أمرهم، ويطوروا أساليب جديدة لمقاومة المسلمين. لقد تمرَّس معاويةُ، والي سوريَة، وبعد ذلك الخليفة، بقتال البيزنطيين، وتعرُّف أرضَهُم. في سنتي (19-20 هـ/ 640-641 م) وقاد القوات المسلمة في حملة كان هدفها قيليقيا البيزنطية، التي كانت تمتد في نهاية الأمر حتى أوخاتيا.[30] وفي خُطْبَة ألقاها في قواته أشار إلى الأناضول بقوله: «إننا صاعدون إلى بلد مملوء بالذهب والثروات من كل صنف؛ إنَّ الله سيفتح بها عليكم بسبب زلات سكانها».[31] لم تكن المسؤولية عن الحملات الكبرى تدنت بعد على نحوٍ نهائي حيثُ وصلت إلى أيدي القواد المقيمين

على الحدود أو القريبين منها.[32]

إنَّ الأمرَ الأبرز في الغزوات المبكرة تلك الغزوة الكبرى التي قادها القائدان المسلمان عبد الأعور السُلَمي ووهب بن عمير سنة (23 هـ/ 644 م) على أموريون [عَمّوْرية] المدينة البيزنطية الفرنجية. كانت مقدمة لبدء حملات عسكرية إلى الهضبة الأناضولية، وكانت ذات أهداف استراتيجية ترافقها الرغبة في الأسلاب. أمّا هل انضمَّ معاويةُ شخصيًا إلى هذه الحملة أم لم ينضمَّ؟ فقد أسهم شخصيًا في حملات أخرى داخل الأناضول البيزنطية. وفي اللحظة نفسها التي بدأتْ فيها المقاومة البيزنطية تتصلب في مزامنة للجهود المهمة، ولو أنها غامضة، للإمبراطور البيزنطي كونستانس الثاني في تحصين مدن وحصون، وتطوير خطة متماسكة للمقاومة. لقد اكتسبَ معاويةُ، بسبب قتاله في الأناضول، خبرةً ذاتَ قيمةٍ في أسلوب قتل البيزنطيينَ والتفاوض معهم.

لعل معاوية تمكَّن من تفهم الأرض والمشكلات اللوجستية للأناضول. ولم يتح لأي خليفة آخر أن تكون له هذه الخبرة العسكرية الشخصية الكبيرة أمام البيزنطيين. كانت الشؤون عامة في حالة من التقلب لما كان معاوية واليًا على سوريَة وخليفة. من المعقول أن البيزنطيين كان يمكن أن ينهاروا، لكن ذلك لم يقع.

لم تؤد حملات معاوية العدائية على البيزنطيين إلى فتوح إسلامية دائمة في الأناضول (آسيا الصغرى) بين سنتي (23 هـ/ 643 م) ووفاته سنة (60 هـ/ 680 م). وكانت الغزواتُ أحيانًا، في حقيقة الأمر، خلال كلا الفصلين في السنة الواحدة، وكانت ثمة اختراقات إلى نحو ألف من الكيلو مترات في عمق الأناضول. وقد بدأ الكثير من هذه الغزوات من القاعدة السورية في حمص بينما كانت غزوات أخرى تبدأ مسيرتها من أنْطَاكِيَة الأبعد شمالاً. كان المستوى الأدنى لهذه الغزوات أنها رفعت منزلة معاوية، لكنها أثْرت المسلمين أيضًا، وجذبت عددًا أكبر من رجل القبائل للمشاركة في تلك الغزوات، وقد آذت خصومهم البيزنطيين بسبب تخريب أراضيهم وخسارة أملاكهم والنفوس، وتأذوا بسبب الأسر وتدني التجارة والزراعة كثيرًا. ولعل مجمل الإصابات المسلمة الكلية ظلت متواضعة. وقد أدت تلك العمليات إلى بقاء



البيزنطيين في موقف حذر، إذ حملتهم على توجيه انتباههم إلى الدفاع، وإزالة أي أمل في العمل على أي سياسة استراتيجية عدوانية تجاه سوريَة الإسلامية.

مع أن الغزوات الإسلامية في الأناضول لم تؤد إلى تحقيق أي أهداف استراتيجية دائمة، فقد أرغمت الخصوم على تخصيص الكثير من الوقت والجهد في تطوير هجومات معاكسة. وقد وسَّعت ولاية معاوية على سوريَة وخلافته مجال السيطرة الإسلامية الأرضية: فقد وقعت قبرص وأكثر إرمينية تحت النفوذ الإسلامي. إضافةً إلى ذلك، فقد كانَ لهما أثر استراتيجي، سواءٌ أقصْدًا جاء ذلك أم مصادفةً: فقد أصاب الحكومة البيزنطية شلل في القدرة إذْ لم تقم بالكثير للدفاع عن الأمكنة المشرعة تمامًا في شِمَال إفريقيّة، ولا سيَّما المناطقِ الساحليَّةِ قرب قَرْطَاجة والجزء الساحلي الضيّق بين الأخيرة ومضيق جبل طَارق. وبعبارة أخرى، مهّد الضغط الإسلامي على الأناضول وقبرص وسواهما من جزر البحر المتوسط الشرقية والجزر الإيجية السبيل أمام المسلمين للتوصل إلى هدف استراتيجي آخر، وهو الفتح النهائي للساحل الإفريقي الشَّمَالي الواسع والغني.

حاولت استراتيجية معاوية العدوانية استغلال عدد من نواحي الضعف البيزنطية. فقد استغل أمورًا مفاجئة بكشف ادعاءات كاذبة وفاضحة كان البيزنطيون يطلقونها على العرب. وانطلقت في الفترة بين السنوات (41-61 هـ/ 661 - 680 م) غالبًا حملات إسلامية شتوية إلى الأناضول البيزنطية وكان يحدث أحيانًا أنها، في الواقع، تقضي الشتاء برمَّته في الأناضول. إضافةً إلى الهدف البيّن من هذه الحملات وهو نقلُ القتال إلى قلب الأرض البيزنطية، فقد أفادت تلك الاستراتيجية أيضًا في دفع ادعاء بيزنطي فيه عجرفة مألوفة بأن العرب، على نحو الأنماط البيزنطية الدائمة والسابقة بشأن اتهامهم الفرس، لا يستطيعون القتال في الجوّ البارد، وأنهم يصبحون قليلي المبالاة بدلاً من القتال. لقد أدخلت هذه الحملات الشتوية في روع البيزنطيين مدى الخطأ الذي اعتقدته أنماطهم الدائمة هذه بعدم مقدرة المسلمين على القتال. وظهر بطلان آمالهم في سوريَة، على مقربة من حمص، من دون ذكر إرمينية وإيران.[33]

كانت الحملات الشتوية باهظة الثمن على الجهتين، لكنّها، من غير شكٍّ، أزعجت البيزنطيين وحملتهم على الاحتفاظ الدائم بالسلاح للدفاع. على كلٍّ، كانت المغامرة بحياة الجنود المسلمين في بيئة معادية تمامًا مدّةً طويلة استراتيجية خطرة. وإضافة إلى ذلك فمن المحتمل أن المسلمين أفادوا من القيام بما لم يكن منتظرًا منهم. ومع أنه لم يكن للعرب أو المسلمين تقاليد تتعلق بخوض البحر، كان ثمة حملات بحرية كبرى في سنة (29 هـ/ 649 م) (حملة بحرية على قبرص) وفي سنة (35 هـ/ 655 م) (الانتصار البحري في معركة ذات الصواري) وفي سنة (54 هـ/ 673 م) (فتح رُوْدِس) والحملة الطويلة غير الناجحة وحصار القُسْطَنْطِيْنِية البحري في (55-59 هـ/ 674-678 م). لقد بلغت البيزنطيين تحذيرات من بعض الاستعدادات الإسلامية لهذه الحملات، لكن القرار الإسلامي بالقيام باستراتيجيات مشتركة بحرية وبرية، ولا سيّما بإشراف معاوية، أكدت استعداد المسلمين للتكيف استراتيجيات وتقنيات عسكرية جديدة. في هذا التاريخ كان المسلمون يتقبلون الأشياء الجديدة، ويفاجئون خصومهم.

## 4.10) النضالُ في سبيلِ التحكّم بالسُّكانِ

كانت الترتيباتُ المرتبطةُ بتنقل السكان، التي اتفق عليها البيزنطيون والمسلمون أيام الفتوح، مقدمة للقضيةِ الأكبر، كما كانت جزءًا منها، وهي إقامةُ حدٍّ أو تطويره. وكانت إقامةُ حدٍّ تقتضي تحديد هُويّة الاتّباع، وبرأي المسلمين كانت تقتضي محاولة السيطرة على جميع العرب، على ما يجد الواحد في محاولات عمر طلب عودة العرب (من المحتمل أنَّ البدوَ هم المقصودونَ) الذين فرّوا إلى السيطرة البيزنطية أو إلى البَلاط البيزنطي على ما يبدو في حالة واحدة مبرّزة هي جَبَلَة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة الذين كانوا معاهدين بيزنطيين من قبل.[34] والحالات التي اجتاز فيها أفراد الحدود يبدو أنها كانت قليلة تقريبًا.

كتب عمر إلى هرقل يطلب عودة العرب. ومن الممكن أن المقصود كان قبيلة إياد، التي فرّت إلى الأرض البيزنطية. ويبدو أن هرقل أعاد هؤلاء، لكنه لم يُعِدِ العربَ الآخرين، مثل فلول الغساسنة الذين فروا إلى الأرض



البيزنطية. وقد وقعت هذه المراسلة في سنة (20 هـ/ 640-641 م). ويروي الطبري أن عمر طلب أن يعاد أولئك العرب من قبيلة إياد الذين فروا إلى الأرض البيزنطية، وإلا، فقد أنذر أنه سيؤذي المسيحيين المقيمين في بلاده أو يقضي عليهم. «وكتب عمر إلى ملك الروم: بلغني أنَّ حيًا من أحياء العرب ترك دارنا، فوالله لتعيدنَّه، أو لننبذنَّ عهدَنا مع النصارى الذين يعيشون تحت سلطتنا، ثم لنخرجنَّهُم إليك». وقد ادّعى الواقديُّ (المنحول) أنَّ عُمَرَ أنذر قبيلة تغلب: إنْ أنتم لجأتم إلى الرُّوم، فإنني سأكتب لهم عنكم، وإنني لآتي بنفسي وأقودكم إلى الأسر. هذا الذي أوردناه أشد قسوة من حيثُ وصفُ طلب عودة العرب مما أورده ابن سعد أو الطبري. ويقرر ابن سعد أن الخليفة عمر كتب إلى الإمبراطور قسطنطين (لعله كونستانس الثاني لا قسطنطين الثالث) مؤكدًا إطلاقَ سراح الأسير المسلم المبرِّز عبد الله بن حُذافة، الذي أُطلق سراحه في الواقع استجابة لطلب الخليفة. ويعيد ابن الأثير أيضًا فِرَار جزء من قبيلة إياد إلى هرقل، لكنَّهُ يقرر أن عمر طلب عودة العرب مقابل عودة البيزنطيين إلى الإمبراطور.[35] مع ذلك، فإنَّ فِرَار العرب إلى أرض البيزنطيين استمر.[36] لقد كانت ثمة اتفاقات واضحة، وأخرى ضمنية.

## 5.10) اتصالاتٌ دبلوماسيّةٌ وتبادلاتٌ مشروطَةٌ

يروي الطبري، ومن المحتمل أنَّ هذا جاء عبر روايات سيف بن عمر، أخبار تبادل لطيف في الهدايا بين زوج الخليفة عمر، أم كلثوم، والإمبراطورة البيزنطية، التي يفترض أنها كانت مارتينا، زوج هرقل. ولا يمكن أنْ يحدثَ قبل سنة (17 هـ/ 638 م) لما تزوج عمر أم كلثوم، ولا بعد وفاة هرقل سنة (21 هـ/ 641 م). لقد وقع الأمر في أثناء فترة إراحة في القتل لما "توقف" الإمبراطور البيزنطي عن القيام بغارات. بحسب رواية القصة أن أم كلثوم أرسلت، عبر سفير، عطرًا إلى الإمبراطورة البيزنطية التي ردت التحية بعقد. وقد أثارت الحادثة جدلاً في هذه المسألة: هل كان هذا العقد ملكها الخاص أم ملكًا للحكومة؟ في النهاية سُلّم العقد إلى بيت المال، وعوض الخليفة على أم كلثوم من ماله الخاص.[37] ويبدو أن الطبري نقل هذه الحادثة، إضافةً إلى قصص أخرى متعدّدة عن مراسلات بارعة

ولطيفة بين عمر وهرقل، من مجموعة روايات عن الصِّلات البيزنطيَّة الإسلاميَّة، وهذه تظهر تبادل سفراء بين الإمبراطوريتين في زمن مبكر.[38] هذا الأمر يمكن أن يصدق في حالة أن تكون المجموعة التي استعملها الطبري في رواياته كانت مدونة رسمية ودقيقة الرواية. وثمة عدد كبير من الروايات الكاذبة عن مراسلات بين الفريقين بشأن قضايا صغيرة. الحد لم يكن غير قابل للاختراق، لكن الحالات توضح أيضًا الحاجة إلى الاحتفاظ بالتبادل تحت أدق إشراف، بقطع النظر عن أهمية الأشخاص المعنيين.

لقد عقد البيزنطيون والمسلمون بينهم اتفاقيات منذ فترة الاتصالات الأولى، وهي التي صارت أسبقيات للعلاقات الدبلوماسية في القرون التي تلت، مع أنَّ وجودَ الدبلوماسية لم يعنِ الاختفاء التام لحالة الحرب بين الفريقين.

قلل تحديد التبادل التجاري احتمل التجسس على أيدي أولئك الذين يتزيَّوْن بزي التجار، ولو لدرجة أقل أهمية، فإنه كان يحدّ من احتمل تنقل الأسلحة أو سواها من الأشياء التي يكون الفريق الآخر يحتاج إليها. ومن ثَمَّ، حاول القانون البيزنطي أن يقلص التواصل عبر الحدود. وصنَّفت القوانينُ العسكريَّة عددًا من الممنوعات الرئيسة الرومانية الأقدم عهدًا المتعلقة ببيع أو إيصال الأسلحة والحديد إلى أعداء الإمبراطورية، ومثل ذلك تناول القضايا المرتبطة بفِرَار الجنود والمدنيين، واحتمل عودتهم عبر الحدود في أحوال مختلفة.[39]

أصبحَ الحدُّ بعد ذلك مكانًا لتبادل الأسرى والرهائن، ومن ثَمَّ صار مكانًا للعناصر الخارجية وجواسيس بزي التجار استطاعوا، أحيانًا بأساليبَ متنوِّعَة، أنْ يخترقوا الحدود حيثُ يمكنهم تتبع الأنباء عن خطط لحملات وشيكة وطرق سير المسلمين.[40] لكن ليس ثمة شاهد على هذا في أواسط القرن السابع. ومما يمكن التسليم به أنَّ بعضَ التجار الذين كانوا يعملون في التجارة والتبادلات التجارية قد يحملون معهم، بين الفَيْنة والفَيْنة، أشياءَ للمبادلة الطلبُ عليها غيرُ مقصود بذاته، مثل الثقافة وأخبار الأحداث والأوضاع والممارسات والأفكار الجديدة في المجتمع الآخر وما يجاوره من وحدات حكومية.



### 10. 6) إنشاءُ الحدِّ (السياسيِّ)

لم يتوقف اللجوء إلى الدبلوماسية مع انتهاء خلافة عمر. وثَمَّةَ روايةٌ تقولُ: إنه لما بلغ الخليفة معاوية أن البيزنطيين أعدُّوا جيشًا، وأن عاملاً من عمالنا هرب، وأنَّ مساجينَ فرُّوا، نصحه القائد عمرو بن العاص بألا ينزعج قائلاً: «فلا يكبرنَّ عليك ذلك، أمَّا الروم فأرْضِهم بشيءٍ تردُّهم به عنك، وأمَّا أهلُ السجن، فإنما خرجوا حفاةً عُراةً، فابعثْ في طلبهم يُؤتَ بهم، وأمَّا عاملُك، فأظْهِر أنك تركت له ما عليه، فإنَّهُ سيرجع، فإذا رجع، فطالبْهُ. قل، ففعل معاويَةُ ذلك».[41] قد تكون هذهِ الروايةُ مزعومةً القصدُ منها العيبُ على مزاج الأمويين المتهاون؛ وقد تعكس حقيقة عدم وجوب أخذ التهديدات البيزنطية مأخذ الجد، وأنه من الممكن التوصل إلى حل تفاوضي معهم، من دون اللجوء إلى المعركة. البيزنطيون لم يكونوا وحدهم الذين كانوا يرغبون في تجنب المعركة دومًا.

كانت القيادتان البيزنطيَّةُ والإسلاميَّةُ ترغبان في إقامة مراقبة شديدة على المواصلات وتنقل الأفراد أو الفئات بين أراضي الحكومتين. من حيثُ إنَّ الحدَّ كان يقوم بوصل كلتا الحكومتين في الفترة المبكرة، كان هناك أيضًا وسيلة لمراقبة دقيقة للمواصلات والانتقال تحت إشراف من السلطات المركزية وموافقتها، ولم تكن ترتيبات تتم عشوائيًا على أيدي السلطات المحلية. فالخليفة والإمبراطور أرادا مراقبة أعدائهما ورعاياهما حصرًا، وقد ظهر الحد يومها في جبل طوروس لأنَّ كلتا القيادتين أرادت قصدًا، ولو مؤقتًا، إقامته.

لا تزودنا المصادرُ المتيسِّرة، على نحو واضح بعيدٍ عن اللبس، بمعلومات عن الطريقة التي أدت إلى ظهور الحد. وعلى الباحث أن يعتمد على فتات الأخبار والآثار. مع ذلك، يظل ثمة غموض وأسئلة كثيرة. والعملية لم تتضمن أي علاقات سياسية واقتصادية سلمية عادية، بل كان ثمة ترتيبات أساسها حدود ذات مصالح نفعية متبادلة. فبرأي الفريقين كليهما أعانت هذه الترتيباتُ على تثبيت القوة والسلطة، والقضاء على وضع مضطرب جدًا، وتبدل عسكري سريع مع ما يرافق ذلك من عواقب اجتماعية واقتصادية وبشرية وآلام. وقد

أعانـت العمليـة علـى تحديـد رعايـا كلا الحكومتين، وأدَّتْ إلى التسارع في قيام تجانس غير كامل في سكان الحكومتين كلتيهما. ولعلَّ الحدَّ الخارجيَّ، مع تطاول الـزمن، آل إلى أنْ يكـونَ أقـلَّ أهمـيَّةً مـن الانقسـامات الداخلـية في المجـتمع البـيزنطي حصـرًا. ولعل الحد البيزنطي مع الإسلام أدى إلى تطور بعض القدر مـن التقلـيد قـام بـه الفـريقان وخفض في أهمية الحد حصرًا، لكنَّ العملية ذر قرنها في متأخِّر القرن السابع.[42]

لم يكـن إنشـاءُ الحـدِّ البـيزنطيِّ الإسلاميِّ ناشئًا من أيِّ قرار إمبراطوريٍّ أو خلـيفيٍّ البـتَّةَ: علـى الأقـل في الخطـوات المـبكرة كانتْ ثمة بداءاتٌ محليَّةٌ مهما كانـت تجريبيَّةً. ومهما كان الأمرُ، فقد اقتنعت السلطاتُ الإمبراطوريةُ البيزنطيَّةُ بأنـه كان هناك عمل محلي أكثر من اللازم كان يتم في الجهة البيزنطية، وأنه كان هـناك محـاولات أكـثر مـن الـلازم لإجراء اتصل أو إقامة ترتيبات عشوائية مع المسـلمين بهـدف تجنـب عـداوات جديـة. ومـن المحـتمل أنَّ الكـثيرَ مـن هـذه المحـاولات المحلـيَّة كـان متسـقًا مـع قيام القواد البيزنطيين والقادة المحليين الذين توصـلوا إلى اتفاقـيات كـثيرةٍ مـع الغـازين الفرس في الأزمة السابقة، عودًا، في الواقـع، إلى النصف الأول من القرن السادس. كان هرقل هو الذي لم يحب هذه الخطـوات التمهـيدية وتدخـل مـرات للإبقاء على الإشراف المركزي في مناطق كانت، ولو اسميًا، تحتَ السلطة البيزنطية.

مـع أنَّ عـددًا من الحكّام المحليينَ حاول إقامة الترتيبات الخاصة مع المسلمين، فـلم تقـمْ أيّ دول حاجـزة أو مسـتقلة أو شبه مستقلة بين الدولتين مدَّةً طويلةً. وقـد جـرَّبَ المسـلمونَ، إلى درجـة مـا، في خمسـينيَّات القرن السَّابق المبكِّرة اتخاذَ إرمينـيةَ مـنطقةً حاجـزةً بينهم وبين البيزنطيين، مع أنها كانت صديقة، ولم تكن محـايدةً. وقد لقي الجهد مقاومة عنيفة من قبل البيزنطيين، وحملت المسلمين على البحـث عـن ترتيـب بديـل لـتلك المـنطقة الصعبة. إن أقرب مَثَلٍ آخرَ لدولة منفصـلة أو حاجـزة كانت قبرص، لكنها لم تكن، في حقيقة الأمر، دولةً منفصلة. بحَسَـب روايـة الـبلاذري، عقـد أرخـون (حـاكم قـبرص) البـيزنطي صلحًا مع المهـاجمين المسـلمين، سنة (28 أو 29 هـ/ 648 أو 649 م) على أن يدفع لهم مئتين



وسـبعة آلاف (يقـول ابـن سـلام: سـبعة آلاف، ديـنار سـنويًا)، وهـو أمر يذكرنا بالترتيـبات الـتي تمـت بـين جـون (يوحـنا) كاتـياس ومـانول والمسـلمين في ميزوبوتاميا ومصر قبل ذلك بقليل.

إن اتفاقـية قـبرص سـنة (28 أو 29 هـ/ 648 أو 649 م) صـحيحة، وتظهـر أن هـرقل لم يـنجح في فـرض سياساته في منع مفاوضات محلية غير مرخصة. إضافةً إلى ذلـك، فهـي تظهـر أيضًـا الأخطـار الناشـئة مـن السـماح للموظفين المحليين بعقد اتفاقـات محلـية خاصـة مـع المسلمين.[43] ومن المحتمل أن يكون مصدر البلاذري أبا عبـيد القاسـم بـن سـلام (153-224 هـ/ 770-838 م) الـذي قـيل: إنَّـهُ من أصل بـيزنطيٍّ، والـذي كـان يقطـن في طرسوس على مقربة من الحدود بين سنتي (192-210 هـ/ 807-825 م). وهـو يـنقل عـن الأوزاعـي، توفي في سنة (157 هـ/ 774 م) الـذي يـروي أيضًـا أنـه كان ثمة معاهدة فرض بموجبها ضريبة على القبارصة في أيام معاويـة وقـبل خلافة عبد الملك.[44] يقول: إنَّ الجزيرةَ كانت تدفع ضريبة إلى كل من بـيزنطة والمسـلمين. إضافة إلى ذلك، لم يكن مطلوبًا من سكان قبرص أنْ يخفوا عن المسـلمين أيّ نشـاطات لخصـومهم البيزنطـيين، ولا أن يخفـوا عـن البيزنطـيين أيّ نشـاطات للمسـلمين. هـذا يذكـرنا، نوعًا ما، بما فرض على سكان دُلوك ورَعْبان في شِـمَالي سـوريَة وعـلى سـكان أرابسوس، بوجوب الإخبار عن البيزنطيين.[45] هذا مصـدر أسـبق زمنًا من البلاذري المتوفى سنة (280 هـ/ 892 م).[46] ومع تحفّظات[47] بعـض الـنقاد المحدثـين، تـبدو الـروايات الإسـلامية عـن معـاهدة حاكم قبرص مع معاويـة في سـنة (27-28 هـ/ 648-649 م) مقبُولة عندما تُستعرض في إطار الخلفية الأكـبر لمـا حـدث في مصـر وميزوبوتاميا: المحاولات المحلية للوصول إلى ترتيب مع المسـلمين. وهـرقل لم ينجحْ في الحيلولة دون مفاوضات محلية مستقبلية كهذه. إنْ كانَ الترتيـبُ في قـبرص (27-28 هـ/ 648-649 م) لقـي موافقة في القُسْطَنْطِينِية، فهذه قضيَّةٌ مهمَّةٌ، لكنَّها خلافيَّةٌ. فقد يكون الحاكم قام بترتيب محليٍّ غيرِ مرخَّصٍ به.

لم تكـن بـيزنطة أو القيادة الإسلامية ترغب في الكثير من الحكم الذاتي في الحـدود، والقـيادة القويـة الـتي كـان هرقل يتصف بها، في أواخر حياته، أعانت عـلى أن يُضـمن احـتفاظ الحكومـة المركـزية بدرجـة معقولة من السيطرة على

حدودها. وظهرت في وقت لاحق في العلاقات البيزنطية الإسلامية بعض الدول الحاجزة، ولكن لم يظهر أي منها في أواسط القرن السابع. وقد قبلت السياسة الإسلامية في إرمينية في خمسينيات القرن السابع بألا تحتل الأخيرة جيوشٌ إسلامية، لكنَّها تطلبت الاعتراف بخضوعها لدمشق، ومن المؤكد أنها لم تؤيد إقامة أي دولة محايدة أو مستقلة. وفي حقيقة الأمر، فقد أعان تدمير المناطق الحدودية الجديدة على إعاقة هذا الأمر. والحقيقة الواضحة هي أن عمر وهرقل وخلفاءه الأدنين تمكنوا من فرض السلطة المركزية على الحد الذي كان آخذًا في التشكل بين بيزنطة والإسلام. فقد رسخوا سوابق، ولو أنَّ الإشرافَ الدقيق الذي تصوَّروه ظلَّ بعيدًا عن الكمال، وتحدّد في النهاية تحتَ تأثير الضغوط والمناسبات والتبدلات التي تلت.

كان ثمة نوعٌ من التنازلات المؤقتة في وجود محدود وصعب، وفي هيكلية محدودة جدًّا، ومُشْرف عليها بدقة. وقامت ثمَّةَ اتصالاتٌ ومراسلاتٌ رسميَّةٌ استثنائيَّةٌ في أواخر الثلاثينيَّات من القرن السَّابع والأربعينيَّات منهُ. لكنَّ كلتا القيادتين الإسلاميَّة والبيزنطيَّة بذلت كلَّ ما في وسعها لتحول دونَ الأفراد والجماعات الخاصة، مثل القبائل، من القيام بأي نوع من الاتصل، محليًا كان أم شخصيًا، أو السفر سواءً شخصيًّا كان أم تجاريًّا أم عسكريًّا أم سوى ذلك. كان ذلك نوعًا من الوجود المؤقت المتعثر. ولم تمنع أيٌ من الحكومتين منذ بادئ الأمر اتصالات دبلوماسية عرضية نافعة أو ضرورية لحل مشكلات معينة أو تحييدها. ولم يقصد البتة من هذا التعايش المحدود والتبادل أو التناسب الآني في السياسات، ومن الخطأ افتراضُ الكثير منه، أيُّ تنازل تقدّمه إحدى القيادتين من مبادئَ وادعاءاتٍ نهائيَّةٍ، أن يمكن أو أنْ يمنعَ أو، على الأقل، يحدَّ من تطورٍ واقعيٍّ يسيرُ نحو وجودٍ أصيل.(48)

### 10.7) قسماتُ الحدِّ

مع الأخبارِ عن التعبئة البيزنطية، لم يكنْ ممكنًا أنْ يتكفَّلَ البيزنطيونَ بحملات عسكرية كبيرةَ العدد إلى سوريَة. كان يمكنُ للبيزنطيينَ أن يهددوا مَرْعَش ومَلَطْيَة،



وقد فعلوا ذلك، واستطاعوا أنْ يستخدموا الجراجمة أو المردة [المردائيين] حلفاءَ ذوي قيمة أو بدلاء. لكنْ كانت تُعْوِزُهم يومَها المواردُ الماليَّةُ والإرادةُ للقيام بمجازفات تكفي لمحاولة استعادة أنْطَاكِيَةَ أو سواها من الحصون الشَّمَالية المنيعة مثل قِنَّسْرِيْن، بَلْهَ مواقعَ إلى الجنوب من هذه المدن. لقد استطاعوا أنْ ينظموا غارات وانقضاضات على كل موقع على سواحل البحر المتوسط تقريبًا، وقد فعلوا ذلك، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بأي من هذه المواقع. وتدّعي بعض المصادر الإسلامية أن أهل حمص قاموا على المسلمينَ تأييدًا لهرقل، الذي زعم أنه يؤيدهم بإقناع قوات من ميزوبوتاميا البيزنطية بأن يذهبوا لمساعدتهم.(49) لم يُقيَّض لهذه المحاولة للنجدة البيزنطية لحمص من ميزوبوتاميا أن تتم لأنَّ البيزنطيين تراجعوا لما بلغتهم الأنباء عن تهديد إسلامي من العراق لمواطنهم في ميزوبوتاميا. لقد عقّد الوضع المضطرب في ميزوبوتاميا وشِمَال سوريَة أي جهد لفهم تكوين حد بيزنطي إسلامي معيّن وواضح.

من غير الواضح كيفَ بهتت معرفة البيزنطيين بسوريَة على هذه السرعة في القرن السابع بعد الجلاء عنها. فقد آلت الخرائط والقيود الأقدم عهدًا إلى الزوال تدريجيًا، لكن ليس ثمة سبيل لتحديد مدى تماسك الصورة التي كان البيزنطيون يحتفظون بها أصلاً لأحداث القرن السابع وأوضاعه في سوريَة. لعلَّ أحدَ الأسباب، التي كانت تدعو البيزنطيين إلى الحذر من العمليات العدائية من جانب سوريَة الإسلاميَّة، الضعفُ النوعيُّ لمعرفتهم إيَّاها.

إن قضية المردة [المردائيين] في أواخر القرن السابع لا تتناقض مع النماذج الأوسع؛ إنهم لم يقيموا دولة بيزنطية منفصلة. لقد خلقوا، بتشجيع حكومي بيزنطي، تهديدًا مزعجًا لحكومة الخلافة في سوريَة الشَّمَالية والساحلية كان فيه ما يكفي إذْ إنَّ هذه رأت أنَّ من الأفضل استنباطَ حلٍّ دبلوماسيٍّ مع الحكومة البيزنطيَّة للقضاء على المشكلة المردية [المردائية]. وفي الواقع، لم يكن نقلهم في أيام جسطنيان الثاني، على نحو أوضح، رغبةً ولا استعدادًا عند بيزنطة والخلافةِ الأمويَّة كلتيهما في السَّماح لدول حاجزة بأن تظهر وتستمر. وقد تمكنت الدولتان كلتاهما من التوصل إلى اتفاقيات دبلوماسية انتهت بإخماد حركة المردة [المردائيين].(50)

ظل الحدُّ بين بيزنطية والخلافة مزعزعًا ومريبًا وعدوانيًا. وقد جاء في حديث يعزى إلى النبي محمَّدٍ (ﷺ) ما معناه: «إنَّ الغطرسة قسمت عشرة أجزاء، تسعةٌ منها قائمةٌ عندَ البيزنطيين، وواحدٌ يخصُّ الشعوبَ الأخرى».[51] إنَّ الحدَّ الذي يخترق المناطق الأرمنيَّة كان طويلاً، وقد خبر أوضاعًا اختلفت عمَّا جرى في الجزء الأبعد في الجهة الجنوبية الغربية. وهذا كان استثناء مهما. إن تاريخه فيما تلا من القرون كان أحيانًا يصل إلى أوضاع كانت فيها السلطة أكثر انفلاتًا، والحكومات المركزية أمعن ضعفًا، والمبادرات والترتيبات المحلية أكثر عددًا، وهي من النوع الذي كان هرقل يبغضه. وفي خاتمة المطاف، فقد كان هو الذي ظهرتْ فيه التنظيماتُ الحاجزيةُ إثرَ تدهورِ سلطةٍ إسلاميَّةٍ قويَّةٍ.[52]

## 10. 8) تقويمٌ عامٌ للأرضِ البيزنطيَّةِ

تبقى النفقاتُ التي صرفت للدِّفاع البيزنطي غيرالناجح عن بلاد الشرق مجهولةً، لكنَّها كانت باهظة مقارنة بالمرتبات، والعلاوات، والمؤن، والسلاح، وسوقيَّات الجند، والنقل البحري. ومن الطبيعي أن الخسارة الدائمة للضرائب البيزنطية نتيجة الفتوح الإسلاميَّة، كانت هائلةً، وأدت بالضرورة إلى تبديل كبير في البنية المالية والإدارية في بيزنطة[53] وكانت إعادة تأهيل الدفاعات البيزنطية تحتاج إلى تمويل كاف. ومع ذلك، اقتضى الحصول على التموين الضروري للدفاع أمام المسلمين التأكد، عمليًّا تمامًا، ممَّا تبقَّى من الموارد المالية البيزنطيَّة بعد الخسائر في الأملاك في أوربَّة وآسيا. ويروي الجلدُ التاريخيُّ لثيودور سكوتاريوتس، الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، أن هرقل «أمر بأن يُجرى تخمينٌ ضريبيٌّ، وأنْ تمسحَ كل أراضي الإمبراطوريَّة الرومانيَّة [البيزنطية]، وأنْ يقوم بذلك فيلاغريوس الذي كان قائدًا ومديرًا للمل».[54] من المحتمل أن يكون هذا المسح الجديد للأرض حدث إثر الانكسار البيزنطي في سوريَة. لقد كان ضروريًا التحقُّقُ من المصادر الماليَّة الباقيةِ للإمبراطوريَّة بعد تلك الانكسارات العسكرية الكبيرة واستيلاء المسلمين وغاراتهم على الكثير من الأرض البيزنطية.

لعل هذا العملَ الذي لم يتوجّه إليه قبلاً، كانَ مسحًا تمَّ بعدَ خسارة جزءٍ كبير من الأرض للمسلمين. ومن الممكن أنَّ هرقلَ رغب في أنْ يتأكَّدَ ممَّا كان موجودًا



من الموارد الماليَّة لدعم حكومته بعدَ الخسائرِ التي ذهبت إلى المسلمين والسلاف (الصقالبة) والأفار (الخزر). من المستحيلِ القول: هل نتج من هذا المسح أيُّ تبديلات مؤسَّسيَّة خلافية واسعةٍ؟ من الممكن أنْ يكونَ الابتداءُ بهذا وقع في زمن بين أواخر (636 م) وكانون الثاني/ يناير سنة (641 م). مع أن الحدين الزمنيين المضبوطين لتولي فيلاغريوس عمله (مديرًا للمل) مجهولان، لكنه تولى هذا المنصب بعد ثيودور ترثوريوس الذي كان يشغل هذا المنصب في أيام معركة اليرموك في آب/ أغسطُس سنة (636 م). وقد استمر فيلاغريوس مديرًا للمل بعد وفاة هرقل في شهر ربيع الأول (21 هـ/ شُبَاط/ فبراير (641 م). وقد ظل في عمله حتى وقت مبكر من حكم كونستانس الثاني، إذ نفي عندها إلى شِمَال إفريقيَّة سنةَ (22 أو 23 هـ/ 642 أو 643 م).[55]

كان من الممكن أن تُحل مُبهمات كثيرة، بطبيعة الحال، لو أن القيود الرسمية لذلك المسح كانت موجودة. وثيودور سكوتاريوتس لا يمدنا بأيِّ تفاصيل أخرى. كلُّ ما يمكن صنعُهُ هو افتراضُ أن هذا المسح كان استجابة حكومية للأزمة العسكرية المتفاقمة في غرب آسيا ومصر والبلقان. وليس من الواضح مدى نجاحه وليس من البيِّن الزمنُ الذي استغرق لإتمام هذا المسح، أو ما النتائجُ التي تمخَّض عنها؟.

لا يربط ثيودور سكوتاربوتس بين إعادة النظر في هذه [للضريبة] وأيِّ إصلاحات عسكرية، مع أنَّ وضعَها موضعَ الأداء، ووضع البلدةِ في عهدة مدير المل، يؤكِّدان توطيدَ سلطة هذا المنصب [العسكري] وإضعاف السلطة البرتورية [المدينة]. وكان القيامُ بهذا الإحصاء (المسح) من الممكن أنْ يُيسّر منحَ الأرضِ الجنودَ، لكن ثيودور سكوتاربوتس لا يقول: إنَّ هذه الخطوة رافقَت إعادةَ النظر هذه أو تلتها مباشَرة. إنَّ وجود هذا المسح بعد الخسارة الفادحة في الأرضين في الشرق وفي البلقان كان يمكن أن يزودنا بمعلومات ذات قيمة بشأن كل أنواع القرارات المرتبطة بالنواحي المالية العامة، العسكرية وسواها، في السنوات الأولى التي تلت وفاة هرقل. وكان اتخاذ هذا الإجراء المعقول مناسبًا للأحوال القائمة. وكان التفكير به ووضعه موضعَ الأداء دلالة على أنَّ الحكومةَ لم تظلَّ مشلولةً، ولكنْ من الممكن أنْ يكونَ الشَّللُ هو حلَّ القوَّاتِ والقيادة العسكرية

في سوريَة. وهذه إشارةٌ أخرى إلى أنَّ هرقل كان فاعلاً نشيطًا في وقت متأخِّر من حكمه، وأنهُ كان مستعدًا لتحمُّل مسؤولياتٍ فاعلة، أو كان، على الأقل، قادرًا على تحمُّل المسؤوليَّة عن اتخاذ القرارات الإداريَّة الكبيرة ذات المبادرة. هذا يتفقُ تمامًا والمصادرَ الإسلاميَّة التي تزعم أنَّ هرقل ظل على درجة كبيرة من النشاط حتى أواخر حكمه. ولعلَّ مسح الأرض، الذي يبدو أنه كان الأخير في حكم هرقل، يسَّر تصريف الموارد المتيسرة للدفاع عما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية. إنه أمر فريد، إذْ ليس ثَمَّةَ قيدٌ للإمبراطوريَّة بأجمعها منذ أنْ قامَ ديوقليان بذلك بالمقابلة بإحصاءات محلية. وليس من المؤكد هل شملَ هذا المسحُ للأرض ميزوبوتاميا أو شِمَالي سوريَة؟ وذلك لانعدام معلومات أخرى، بما في ذلك تاريخٌ دقيقٌ، عن هذا المسح. ومن الممكن أنَّ هذا العمل أثار تسجيلاً مماثلاً عبر الحدود. فثيوفانس يروي أن الخليفة أمر في سنة (20 هـ/ 640 م) تخمينًا عامًا لـ«كل العالم الخاضع له»: «البشر والحيوان والشجر». ما لا يمكنُ تصوُّرُهُ أنَّ عمرَ ومستشاريه كانوا يجهلون أمرَ المسح البيزنطي الذي يبدو أنهم قلَّدوه.[56] هذا هو تأسيس سجل ضريبي إسلامي في الوقت الذي بدأ فيه فيلاغريوس بتنظيم سجل بيزنطي جديدٍ.

### 9.10) أخطاءٌ بيزنطيّةٌ

إن العلاقات بين هرقل والساسانيين في أثناء الفتوح الإسلامية مهمة، لكنَّها غامضة ومهملة تمامًا من المؤرِّخين. ومن المستحيل الجزم هلْ كان هناك أيّ محاولة لتنسيق مقاومة الإمبراطوريتين أمام المسلمين؟. لقد اجتمع البعد والاختلاف في اللغة والنظامين البيروقراطيين المختلفين والنظرة العامة والمصالح ليصبحَ من العسير التوصُّلُ إلى استراتيجيَّة وعمليات منسّقة. من اليسير التحدُّثُ عن درجة فعَّاليَّة هذا التضامن في السياسات التي كان من المحتمل أن تؤدي إليه، لكن الجهد ينتهي إلى حوارات تأملية.[57] فأي استنتاج معقول يكون الأمرُ الحاسمُ فيه هو تقديرًا لطبيعة أي وجود بيزنطي عسكري وإداري داخل الحدود السابقة للإمبراطورية الساسانية ولمداه، ولا سيَّما في شِمَالي العراق، بعد عودة هرقلَ إلى الأراضي البيزنطية وكسره الحاسمِ الفرسَ.



فإذا كان البيزنطيون يحتلون جزءًا من شِمَالي العراق، وإذا عيَّنوا حكامًا يتميزون بعلاقات ود في بعض أقضية العراق الشِّمَالية، والأمرُ يبدو ممكنًا، فإنهم كانوا، بالضرورة، يوافون تباعًا بالأخبار عن تقدم الفتح الإسلامي للعراق، وكان يمكنُ أن تكون إلى جانبهم وحدات يمكنُها أنْ تعين في الأعمال الحربية مع الفرس أو تنسق معهم في هذه الأمور. إنها كانت بالضرورة معنية مباشرة، سواءٌ رغبت في ذلك أم لا، في أحداث الفتوح الإسلامية للعراق. وكان ثمة فرصة أن يصل إلى بعض الضباط والجنود شيء من المعرفة بالإمكانات والاحتمالات والمصاعب ومجال الجهد لمساعدة الحكم الساساني على البقاء.[58] كل هذا يثير المساءلة عن موقف الحكومة البيزنطية من التبدلات المتقلبة في القيادات والأحزاب داخل الإمبراطورية الساسانية، وهل كانت الحكومةُ البيزنطيَّةُ تفضِّل سيروس ولم تكن مشغوفةً بسواهُ من الحكَّام الفرس؟.

من الممكن أنه لم يكن للانتصارات الإسلامية على الفرس الساسانيين كبير أثر في نتيجة القتال بين البيزنطيين والمسلمين في سوريَة. لقد وقعت معركة القادسية، وهي أحد أكبر الانتصارات الإسلامية، في العراق سنة (16 هـ/ 637 م) بعد معركة اليرموك الحاسمة. ولا يمكنُ أنْ يغفلَ البيزنطيونَ عن نجاح المسلمين في فارس، وهذا ما رفع من زخم انتصار المسلمين، ولعلَّهُ، ما أدَّى إلى تثبيط همة البيزنطيين في المقاومة في مصر وفي شِمَالي سوريَة وفي ميزوبوتاميا العليا. ومن الممكن أن الأرمن العاملين في الجيش الفارسي سربوا معلومات عن الانتصارات الإسلاميَّة في العراق إلى إخوانهم الأرمن في الجيوش البيزنطية في سوريَة وميزوبوتاميا وآسيا الصغرى.

أخفق البيزنطيون في تطوير استراتيجيَّة فعَّالة يمكنها من المجابهة، على نحو سريع وحاسم، في اتجاه المسلمين في تركيز هجماتهم من ناحية الجهات الضعيفة الحراسة وإزاءَ المواقع العُقديَّة، أو المواقع العُنقيّة، أو مواقع الضغط، بدلاً من مراكز التجمع السكاني حيثُ كانت تتمركز أكثر القوات وقياداتها. واحتفظ البيزنطيون بالسيطرة على مراكز السُّكَّان إلى أن تُظْهر معركة في مكان آخر أنَّ سيطرتهم على مراكز السكان عادَتْ غيرَ ممكنةٍ. إنهم لم

يستطيعوا استغلالَ سيطرتهم على جمهرة السكان لكسر المسلمين. ولعل مسؤوليتهم عن أعداد كبيرة من السكان أضعفت حريتهم للقيام بعمليات عسكرية في واقع الحال. ولم يكن السكان المدنيون مهيئين ولا مدربين نفسيًا لمواجهة الحملات. ولم يكن ثمة استراتيجية بيزنطية متماسكة، وكل ما يمكن أن يسمى استراتيجية لم يدخل المدنيين البيزنطيين في التصور الأوسع.

جرَّب البيزنطيونَ أن يحافظوا على الإشراف على القواد وتجنب المجازفات وخطر العمليات العسكرية إلى ما لا نهايةَ لهُ. وعلى نحو ذلك، تفادت الفتوح الإسلامية في سوريَة وميزوبوتاميا خطر العمليات المستديمة، بسبب الصلة القريبة إلى درجة ما مع القواد المسلمين الأرفع مقامًا. لقد كان القيد الأساس على العمليات الإسلامية المستمرة الباعث الإسلامي في كثير من الفتوح؛ كان ذلك اندفاعًا دينيًا، ولم يكن أنانيات وطموحات فحسبُ لمختلف زعماء عسكريين مغامرين.

## 10.10) حدودُ القوَّةِ البيزنطيَّةِ: غيابُ الخبرةِ العسكريَّةِ والسلاحِ بين السُّكان المدنيينَ

كلما أطال الواحد إمعان النظر في الوضع التاريخي بعد سنة (7 هـ/ 628 م) يبدو له أنَّ البيزنطيين كانتْ، بسهولة، تنقصهم المواردُ البشرية والمادية للإمساك بكامل الأفق المكاني (oikoumene) المكون من البيزنطيين والفرس معًا. كان أيُّ مجهودٍ لمحاولة القيام بذلك يقتضي، وهذا ما يدعو إلى السخرية، طلبَ المساعدةِ من القبائل والتجمُّعات العربيَّة الصَّديقة المختلفةِ. ولم تستطع الأجزاء اليونانية والأرمنية واللاتينية من السكان أن تزوّدَ ما يكفي من القوة البشرية والقيادة بيسر، عندما تذكر حاجات الإمبراطورية الأخرى الواسعة الانتشار. كانت استراتيجية هرقل أنسبَ للبلدات والمدن مما كانت عليه للأعداد الكبيرة من السكان الذين كانوا يقيمون في الريف خارج البلدات. وليس ثمة روايات عن جهود بيزنطية لتدريب السكان المدنيين، الذين كانوا حتى يومها عديمي الخبرة، على استعمال السلاح. وقد زُعم أن هرقل شجّع السكان المدنيين على المقاومة، فليس ثمة خبر عن الأمر الذي انتظر منهم أن يقوموا به في قتل المسلمينَ.



جهدت الحكومةُ الإمبراطوريَّة، في الواقع، في منع أفراد الشعب من امتلاك الأسلحة، وذلك من أجل النظام العام، ولمنع قيام جيوش خاصَّة، على نحو عامٍّ، على أيدي كبار الملاكين. وإذا كانت هذه السِّياسة ناجحة، فقد حالَتْ دونَ امتلاك الأفرادِ الأسلحةَ والتدرب عليها، وهذا ما يمكن أنْ يشجِّع هؤلاء على محاولة القيام شخصيًا بالمقاومة العنيفة تجاه المسلمين.[59] ولعلَّ الحكومة كانت غيرَ قادرةٍ على منع أفراد من امتلاك السلاح في أراضيها المصاقبة للحدود مع العرب والأرمن، ولكنَّ السياسةَ المتبعة، لعلَّها، قوّت عزوفَ السكان المحليين أو عجزهم عن تنظيم دفاع ذاتي محلي، ولعلَّ السياسة نفسها انتهت إلى نقص في الأسلحة لأن الحكومة عملت على حصر إنتاجها في مصانع للأسلحة كان عليها أن تحصل على موافقة الحكومة. ومع أنه ليس ثمَّةَ إشارةٌ خاصَّةٌ إلى أيِّ نقصٍ في الأسلحة من حيثُ التأثيرُ في نتائج القتال، فمن الممكن أن ينتجَ من هذه السِّياسة اهتمامُ عددٍ أقلَّ من المدنيين بامتلاك الأسلحة، أو معرفة استعمالها. إنه أمرٌ غيرُ واقعي أن يُنتظر، في هذه الأحوال، قيامُ السكان المدنيينَ بمقاومةٍ جماعيَّةٍ مسلَّحَةٍ حماسيَّةٍ فعَّالة أمام المسلمينَ.[60]

مع أنَّ الموارد الاقتصادية البيزنطيَّة، على ما أصابها من الوهن بسبب الحروب الحديثة والمتطاولة مع الفرس، وعلى ما تفاقمَ نتيجةً للغارات الآفارية [الخزرية] والسلافية، كانت أكبرَ بكثيرٍ من تلك التي في متناول المسلمين عند بدء الفتوحات الإسلامية، مع ذلك، لم يتمكن البيزنطيون من الإفادة منها أداةً عسكريَّةً حاسمةً. لقد حاولَ هرقلُ أن يتعامل، متحاذقًا، مع عددٍ كبيرٍ من الشؤون في أطراف إمبراطوريته لحظةَ الاختراق الإسلاميّ. لكنَّهُ لم يتمكَّنْ من التعامل مع التحدي. مع ذلك، فإنَّ المرء، إذْ يفحصُ الموازنةَ التجاريَّة والصناعيَّة والماليَّة للإمبراطورية، ما كان له أن يتنبَّأ بالإخفاق الحربيِّ البيزنطيّ.[61] إنَّ التفوق الكمي في الموارد الاقتصادية لم يضمن نصرًا عسكريًا نهائيًا، ومن حسن حظ البيزنطيين أنَّ واحدًا من المصادر المادية، العمق الأرضي، أعان على إمكانية الاستمرار في استرداد بعض العافية.

لا يفسِّر التباين التقني الانكسارَ البيزنطي. لقد حازَ البيزنطيون مهاراتٍ أكبرَ

من أساليبِ الحصار، وأفادوا من الإرث اليوناني الرُّوماني؛ من تجاربَ وآدابٍ عسكريَّة. ويعترف واحد من الكتب الإسلامية العسكرية التي تعود إلى القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بتفوُّق الأسلحة البيزنطية.[62] لقد كان الجمل مهمًّا للمسلمين، لكنْ لم يعزُ أي مصدر بيزنطي انتصارَ المسلمينَ إلى سيطرتهم عليه.

### 10. 11) دورُ المفاجأةِ التاريخيَّةِ

كانَ الأمرُ الحاسمُ الذي ثبَّتَ خسارةَ الأرض البيزنطية في المشرق أزمةَ الخلافةِ في آخر حكم هرقلَ، من (4) من تمُّوز / يوليو (638 م) (تاريخ تتويج هيراكلوناس أغسطًا) إلى تِشْرين الثاني / نوفمبر (تاريخ سقوط مارتينا وابنها الإمبراطور هيراكلوناس، لمصلحة كونستانس الثاني بن هراكليوس قسطنطين). وقد بلغت الأزمة ذُروتها بوفاة هرقلَ في شُبَاط / فبراير (641 م). وقد زادت ثورةُ الجنرال فالنتينوس على مارتينا وهيراكلوناس في مصلحة كونستانس الثاني الأزمةَ الداخليةَ تفاقمًا في وقتٍ دقيق. فقد تجمَّع زواجُ هرقلَ الثاني الخلافي ابنةَ أخيهِ (أو أخته) مارتينا، والمنافسةُ في سبيل خلافته بين أولاده من زواجه الأوَّل، ولا سيَّما المريضِ هراكليوس قسطنطين، الذي خلف هرقل من (11) من شُبَاط / فبراير حتى (24) من أيَّار / مايو (641 م) وابن هذا كونستانس الثاني، وأطماع مارتينا لتولي ابنيها هيراكلوناس ودافيدن، والمؤامرة غير الناجحة التي قام بها ابنُ هرقلَ غيرُ الشَّرعي أثالارك، كلٌّ ليصبحَ أيُّ اتخاذٍ لقرار معقول وهادئ صعبًا جدًا، إنْ لم يكن مستحيلاً. وقد حكم هيراكلوناس ومارتينا من (24) من أيَّار/ مايو حتى تِشْرين الثاني/ نوفمبر (641 م) حينما أقصيا لمصلحة الحكم الأسمى لحفيد هرقل وابن هراكليوس قسطنطين البالغ من العمر إحدى عشرة سنةً. لقد حولت هذه الخصوماتُ الداخليَّةُ، إضافةً إلى خلافاتٍ كنسيَّةٍ أخرى، انتباهَ كبارِ الموظفين عن الوضع العسكري الدقيق إلى مختلف الحدود المكشوفة. فلم تتمكَّنِ الحكومةُ يومَها من تركيز اهتمامها، أو تخصيص أفضل جنودها لوقف المسلمين في ذلك الوقت الحاسم.[63] لقد امتصت الأزمةُ الدَّاخليَّةُ الكثير من الانتباه إلى التهديد الإسلاميِّ خلال السَّنوات من سنة (16 هـ/ 637 م) حتى (21 هـ/ آخر 641 م)



واستمرَّت آثارها السلبية بعد قضاء الحكومة على ثورة أخرى قام بها الجنرال فالنتينوس في وقت مبكر من سنة (642 م).

وعلى قدر الضرر الذي ألحقته أزمة الخلافة، فإنَّ هذه كان من الممكن أن تترك آثارًا أسوأ. فلو أن وفاة هرقل حدثت قبل سنتين أو ثلاث سنواتٍ أو أربع من وقوعِها حقًّا، لأدَّت إلى خسارة الإمبراطورية إسهاماتِه الفعليَّة في محاولاته اليائسة لوقف التوسع الإسلامي، وإقامة نوع من الاستراتيجية الدفاعية والتكتيك الملائمين، وإعادة الرُّوح المعنويَّةِ الممزَّقَة إلى جنوده وقوَّاده. كانتْ ثمَّةَ فترةٌ باقيةٌ له من حياته بعدَ معركة اليرموك، وهي الفترة التي كانت أساسًا لاستمرار الدَّولة البيزنطية. وما كان يومها لخلفاءِ هرقل الأدنين، وهم على ما هم عليه من شباب وشقاق، أنْ يوافرُوا مثلَ تلك القيادة.

### 10. 12) عجزُ الفعَّاليَّةِ القتاليَّةِ البيزنطيَّةِ

أشد ما يوجِّهُ النظرَ هو عجزُ الجيوشِ البيزنطيَّة عن اتخاذ المبادرة والتحرك الآني وإبراز قوتها في أثناء العملياتِ العسكرية منذ البدايات الأولى للحملات الإسلامية. وقد غلبَ على البيزنطيينَ القيامُ بردِّ فعل للمبادرات الإسلامية، أو ربَّما، في أغلب الحالات، كانوا ساكنين. وكان لهذا التسليم بالمبادرة للمسلمين، سواءٌ عَنْ وعي كان أم عن سوى ذلك، أثر فعَّال في النتائج النهائية. لقد انتظر المسلمون أنفسهم مبادراتٍ بيزنطيةً أكثر مما حدث حقًا. ومن المحتمل أنَّ إخفاق السياسات البيزنطية بين العرب أظهرَ حدودها القصوى ونتائجها السلبيَّة.

إنَّ غيابَ المصادر الأصلية، أو ندرتها، أو قلة وفائها بالغرض، يجعل من الصعوبة محاولةَ تقويمِ القدرة القتالية، أي: العجز عن ذلك، للجنود البيزنطيين في العمليات العسكرية في سوريَة وميزوبوتاميا، بما في ذلك التماسكُ الجماعيُّ، ونوع الضباط، وولاؤهم. حتى في المعارك الحديثة الموثقة جيدًا كان من الصعب الوصولُ إلى أسلوب مقنع، عمومًا، لتقويم القدرة القتالية.[64] ولا تتضمن المصادر الإسلامية ما يشير إلى وقوعِ هزيمةٍ منذ بادئ الأمر. بدلاً من ذلك تشيرُ إلى أنه كانتْ ثمَّةَ صداماتٌ عنيفةٌ وقويَّةٌ في بعض

المعارِكِ المبكرة مثلِ أجنادين. وعلى كلٍّ، كانت الانتصاراتُ الإسلاميَّةُ عاملاً إضافيًا لاندفاع مؤاتٍ للمسلمين أنفسِهم، وللرُّوح الانهزاميَّة البيزنطية.

لم يظهر أبطالٌ مميَّزون أو قوَّادٌ عسكريونَ جددٌ ممتازونَ في الجهود البيزنطية للدفاع عن سوريَة وميزوبوتاميا. ولم يحاول عقلٌ استراتيجيٌّ كبيرٌ واحدٌ أنْ ينظِّم مسلكيَّة الانتصارات الإسلامية على مبدَأٍ واحدٍ إلا إذا رغب أحدُهم في أن ينسب شيئًا إلى النبي محمَّدٍ (ﷺ) نفسه. فوقَ ذلك، لم يعزِ الكتَّابُ البيزنطيون خساراتهم إلى أي عقلية لفرد مسلم كبير أو قائد. وكذلك لم تكن كتبت رسالةٌ تكتيكية مُهمَّةٌ حديثةٌ يمكن أنْ تزوِّدَ الفكر العسكري بما يعين على إدارة الفتح إدارةً ناجحة.

إنَّ معظم المصادر ذات الصبغة الروائية، المسيحي والإسلامي منها على السواء، تَصِفُ أحداث المعارك بعبارات تدور عن الشخصيات: مجابهاتٌ شخصيَّةٌ، وقرارات، وتغلبٌ على التحديات، وإظهارٌ للشَّجاعة والذَّكاء والتقوى. هذه كلُّها أعمالٌ فرديَّةٌ من الشجاعة والفضيلة.

بعدَ الاعتراف بفضلِ قوَّة الله، يُسلِّم الدور الفعل إلى القرارات والأفعال الفاضلة لزعماء خاصين أو قواد عسكريين. إنَّ هذه النظرة الموضحة والناقصة للحقيقة التاريخيَّة تلقي أكبرَ المسؤوليَّة عن النتائج على كاهل القيادة. إنها تبدي انتباهًا وحُسبانًا منقوصين إلى سوى ذلك من أصناف العوامل الأخرى، وهي تفرض ضمنًا حرية كبيرة للعمل والمسؤولية على كبار الرجال، ولا سيَّما القوادِ العسكريينَ ورؤساءِ الدُّوَل. وبطبيعة الحال، فإنها تطرحُ جانبًا أمورًا أخرى، ولا سيَّما التفسيراتِ السببيَّةِ لأمد بعيد، فتبقى هذه متجاهلة أو مقدرة دون أهميتها. إن نوعية القيادة البيزنطية في الميدان لم تكن مثالية، لكنْ يبدو أن فاهان وهرقل قد بذلا أقصى جهدهما لنيل الظفر، ومن المؤكد أنهما فعلا ذلك في سبيل تثبيت ما كسبته الإمبراطورية حديثًا. ولا يبدو أن الاستيلاء على المدن البيزنطية أدى إلى تجديد بيّن في الفن العسكري.

### 10. 13) خداعُ الدهاء وإخفاق الخداعِ البيزنطيِّ

لم يكن الجهودُ البيزنطيُّ للتفاوض مع المسلمين في أثناء سير القتال أمرًا



فريدًا. فقد قاموا بمثل ذلك في حروبهم مع الفرس في القرن السادس ومطلع القرن السابع، وقد حالفهم التوفيق أحيانًا، وأخفقوا في أحيان أخرى. مع ذلك، فإنَّ هذه المفاوضات اقتضت أحيانًا اتخاذ مِسودة أصليَّة رَسمية ورسل على مستوًى أرفعَ. إنَّ الذي حدث في ثلاثينيات القرن السابع كان شكلاً معدلاً عما حاول البيزنطيون القيام به في أحيان كثيرة: المفاوضة أثناء القتال.

لم تبدل الفتوحُ الإسلاميَّة، على نحوٍ قوي، النظرةَ العقلية التي تطوَّرت وتأصَّلت إذْ أصبحت صيغة دائمة قبل ذلك بزمان. لقد ثبتت الهزائم الكارثية التي أوقعها المسلمون بالبيزنطيين ما كان عند الأخيرين من رغبة في شن حربِ دهاء وخداع في محاولةٍ لتقليل الإصابات إلى المستوى الأدنى، ولو أنَّ مثل هذا، هو دومًا في الواقع، هدفٌ عسكريٌّ مرغوبٌ فيه. لقد عاد البيزنطيون إلى أمر واحد من تراثهم العسكري اليوناني الروماني وأكَّدُوه: البراعة. ولم يلجَؤُوا ثانيةً إلى الحملات العسكرية التي كانت أحيانًا تمثل القتال البيزنطي في العهود السابقة التي عرفها ليون الأول وجسطنيان الأول وهرقل.

إذا استطاعَ الواحدُ أنْ يثقَ برسائلَ عسكريَّةٍ مثلِ رسالةِ عبد الحميد بن يحيى، فقد جهد المسلمون كذلك باللجوء إلى الخداع والدهاء أكثرَ من اللجوء إلى صدمة المعركة، لإنجاز انتصارات عسكرية. يبدو واضحًا أن الخداع والتحايل، بما في ذلك اللجوء إلى الوعود لتشجيع الفِرار والنزاع في صفوف البيزنطيين وحلفائهم العرب، كانت تقنياتٍ إسلاميَّةً تُتَّبَعُ لبلوغ النصر في الفتوح الإسلامية. وعلى كلٍّ، بحَسَب ما توضِّحُه الرِّسَالة، فقد أصبحت هذه التقنيات، من غير شك، صيغًا رئيسة في شن الحروب خلال القرن الذي تلا الفتوح المبكرة.[65] والعودة إلى هذه التكتيكات [العسكرية] أدت إلى زيادة التسيب في القتل، ونتجت منها، في واقع الأمر، مكاسبُ كبيرةٌ، إضافةً إلى أنَّ الخسائر البشرية فيها تكون على أدناها، لأولئك الذين كانوا يتقنون الجمع بين الخداع والدبلوماسية والقتل. وقد تسابقَ الفريقان محاولَيْن النجاحَ في شنِّ القتل بالخداع، بدلاً من خوض معركة مكشوفة تكون فيها مجازفةٌ، كلَّما أمكنَهُما ذلك. هنا نقع على تماثل والتقاء عند نقطة واحدة بين الفريقين المتنازعين.

ربَّما كان من بين الأسباب التي أدت إلى انكسار البيزنطيين تقليلُهُم مقدرةَ المسلمين في اللجوء إلى تقنيات الخداع والمكر، واستعمالها استعمالاً فعّالاً. كان البيزنطيون يحسبون أنهم هم وحدَهُم الأقدر على حذقها. من المحتمل أن يتعلَّمَ المسلمونَ بعض هذه المواقف والتقنيات من البيزنطيين، لكنْ ليس من الضروري افتراضُ أنهم اعتمدوا الأمثلةَ البيزنطيَّةَ وحدَها لتطوير هذه الأنواع من المهارات واستغلالها. وانتحلُ الإسلام بنفسِه لم يوجِدْ نزعةً جديدة عند العرب للجوء إلى المكر والخداع، وتشجيع خصوم الفريق الآخر إلى الفِرار أو الانتقال من الجانب الواحد إلى الآخر.[66] لكنَّ المخططين العسكريين البيزنطيين تجاهلوا الآثار المنطقية لهذا الاتجاه: إن هؤلاء الخصوم قد يكونون خبراء في إغواء عناصرَ من القوَّات البيزنطيَّة في الانقلاب أو الفِرَار أو الانحلال. وكان استخدام المسلمين لهذه التقنيات ذا أثر كبير في تحطيم الجيوش البيزنطية وتفكيكها قواتٍ مقاتلةً فعَّالةً في سوريَة وميزوبوتاميا، على نحو خاص، وفِرَار الحلفاء العرب البيزنطيين، وإذكاء الخلاف والمنافسة بين القوات البيزنطية المتنوعة وزعمائها. وقد انتهى البيزنطيون إلى أن الدهاء كان مفتاح الانتصارات الإسلامية، وأن انعدامه كان مفتاح الانكسارات البيزنطية. وبسهولة، فقد عزز هذا الأمرُ النزعات البيزنطية القائمة، وكان متساوقًا مع انعدام الموارد البيزنطية التي يسَّرت صيغًا أخرى من العمل العسكري على أيِّ حالٍ.

## 10. 14) الحافزُ المسيحيُّ والأحوالُ الاجتماعيَّةُ

قد يكون انعدامُ الوازع الديني المسيحي، مقابل ذلك الذي كان قائمًا عند المهاجين المسلمين، عاملاً في خسارة البيزنطيين الولاياتِ الرئيسةَ في المشرق. وكثرةٌ من رجال الدِّينِ المسيحيينَ لم يعدُّوا الحملةَ الاختبارَ النهائيَّ للحقيقة المسيحيَّة أو البقاء المسيحي. كانتْ ثَمَّة مسودات رسمية عسكريَّةٌ مشحونةٌ بالشعور الديني في بيزنطة، لكنَّ رجال الدين لم يقوموا بواجبهم في إثارة العامة إلى القيام بمقاومة عنيفة حتى الموت تجاه المسلمين. لعلَّ غيابَ هذا الانغماس كان سببًا في إخفاق مقاومة المدن المسوَّرة، بالمقابلة مع دور رجال الدين في تقوية الدفاع عن القُسْطَنْطِيْنِية أمام الآفار [الخزر] والفرس وبعد



ذلك أمام المسلمين. لم تُروَ أي فصول مبرَّزة عن جهود للإفادة من الذخائر المسيحية المقدسة لإنقاذ مدن مختلفة من المسلمين. لعل أحدًا لم يُرد أن يبين ضعف الذخائر المسيحية.

لم يكن هناك قديس مثل ديمتريوس؛ (القديس الحارس لمدينة ثسالونيكا/ سلانيك، وهو الذي اشتُهر بأنه أنقذَ المدينة من محاصريها السلاف والآفار)[67] لينقذَ مدنَ المشرق من المسلمين، مع أنَّ سكان تلك المدن المشرقية كانوا معروفين بتقواهم، جماعاتٍ وأفرادًا على السَّواء. وكان صفرونيوس هو الوحيد المعترف به رجلَ دينٍ في سوريَة وفِلَسْطين، لكنْ، من الطبيعي، ألا يفقد حياته في قتاله المسلمينَ. وتحمل عِظَاته وسواها من كتاباته بعض الأثر لصوتٍ ملآنَ بالأسى لما كان يحدث يومَهَا. كان أمر سيروس الإسكندري واضحًا من حيثُ الحصولُ على اتفاقية مع المسلمين، وقد انتُقِدَ لتصرُّفِه هذا. ورجلُ الدِّين، من الخلقيدونيين وأتباع المشيئة الواحدة، لم يكونوا مقاومين عنيدين للجيوش الإسلامية، ومن البيِّن أنهم لم ينجحوا في بعث الإرادة والقوة المعنوية بين السكان المسيحيين، حتى أولئك الذين يقيمون في المدن المسوَّرَة، للمقاومة، فترةً طويلة.

إنْ كان أتباعُ الطبيعة الواحدة وسواهم من رجال الدِّينِ المنشقين أعانوا المسلمين عمليًا أم لم يفعلوا ذلك في حملاتهم في سوريَة وسواها من الولايات، فإنهم لم يشجعوا جماعةَ المؤمنين بحماسةٍ على مقاومة المسلمين حتى الموت. إنهم لم يثيروا أيَّ مقاومة تتَّسم بالتعصُّب والحماسةِ في المدن ولا في الرِّيف. قد تكون هناك أمثلةٌ متباعدة لرجال دينٍ نجحوا في تشجيع مقاومةٍ عنيفة، لكنْ لا يبدو أنهم تمكَّنُوا من بعث روح مقاومةٍ عنيفة من نوع الصُّمود إلى النهاية.

ثَمة رواياتٌ تقول: إنَّ هناك، على الأقل، مقاومةً محليَّةً متفرِّقةً شرقي البحر الميت حتى زُهَاء سنة (8 هـ/ 629 م) ولكنْ، هناك وفي سواها من المناطق، أخفقت في أن تتلاحم في حركة متماسكة وفعَّالة. وثَمَّة تقليدٌ واحدٌ عن مقاومة محليَّةٍ، لم ترضَ بالتسليم، ظلَّت حيَّةً في تذكار شهداء مسيحيين خلفوا أثرهم في قصص القديسين اللاتينية، لا اليونانية. إنها استشهادُ الحامية البيزنطية في غـزَّةَ سنة (16 هـ/ 637 م) التي قد تكون نشأت من غضبِ عمروٍ على القائد

البيزنطي بسبب محاولاته قبلاً أسره وقتله في أثناء المفاوضات. لعلَّ الاحتفاظ بذكرى هذا الاستشهاد ابتدأ مع رجال الدين الذين نَجَوا في غزَّة، أو منها. ومع ذلك، لم يكن رجالُ الدين المسيحيون في غزَّة أو إليوثروبوليس/ بيت جِبْرين الذين أقنعوا الحامية برفض انتحال الإسلام، محليين. وقد يكون رفضُهُم قرارًا مستقلاً. ولا يبدو أنَّ السكان المحليين أرغموا على انتحال الإسلام أو التعرض لمحن قاسية أخرى. مَنْ وضع أخبار شهداء غزَّة ما كان له أنْ يشير إلى المحاولة الغادرة لاغتيال عمرو وغيره من القوَّاد المسلمين على يد قائد غزَّة، لو كانت الروايةُ صحيحةً.[68]

في القرن السَّادس وفي مطلع القرن السابع كانت مدنٌ كثيرة في ميزوبوتاميا وسوريَة وفِلَسْطين ومصر فاوضت قوَّادَ الجيوش الساسانية الزرادشتية المهاجمة في سبيل التوصل إلى اتفاقيات. فليس ثمة من سبب يدعو للاستغراب في أن يكون زعماء عدد من المدن عادوا إلى التفاوض بشأن شروط تسليم مدنهم للمسلمين المهاجمين في ثلاثينيات القرن السابع، وبعد ذلك. لقد كانوا، من الناحية الواقعية الحقيقية، يتَّبعون أسبقيات تمَّتْ في المنطقةِ من قبلُ. ومن التجني، من ناحية النقاد الحدثين، أنْ ينتظروا من زعماء المدن البيزنطية هؤلاءِ المقاومةَ حتى الموت. إنَّ درجة الاندفاع إلى المقاومة لم تكن، في ثلاثينيّات القرنِ السّابع وأربعينيّاته، أقوى أو أضعفَ ممَّا كانت عليه أمام الفرس من قبلُ.

ولا يمكن عزو انعدام الرَّغبة في المقاومة الحماسيَّة، بالضرورة، إلى الميل عند أصحاب الطبيعة الواحدة من السكان، ولكنْ إلى سوابق أقدَمَ، بما في ذلك تفضيلُ القوَّات المحليَّة تجنُّبَ صدام حادٍ مكشوفٍ أمام الفرس، لمَّا كان ذلك يتيسَّر لها.[69] هذه السوابق مهَّدتِ السبيل لصمود السكان والجند البيزنطي في ثلاثينيّات القرن السابع وأربعينيّاته. وكان ثمَّةَ من قبلُ تفضيلُ الوصول إلى اتفاقية رغبةً في تجنُّبِ مجازفاتِ المعركة والخراب الذي يتلو اقتحامَ المدن. لم يكن ممَّا يثيرُ العجبَ أنْ يُرى تكرارها في هذا الزمن.

وكانت الحالة المعنوية والنواحي النفسيَّةُ أكبرَ أهميَّةً من الأمور العسكريَّة



في الانتصارات الإسلاميَّة، ولعلَّ الأمر كان على هذه الشاكلة فيما يتعلق بالانكسارات البيزنطية. مع ذلك، فإنَّ قياس الأبعاد المعنوية النفسيَّةِ ليس أمرًا يسيرًا. لقد تقوّى المسلمون بالأثر النفسي للانتصارات، حتى في الصّدامات الصغيرة. وهذه عزَّزَت خلق زخم نفسي، بينما تأذّى البيزنطيون من الظاهرة العكسية؛ أي: الزخم السلبي، إذ إنَّ الانكسارات، حتى الصغيرةُ منها، آذت الحالة المعنوية، وعززت خلقَ اندفاع نحوَ حتميَّةٍ وانكسارٍ، وكانت، عند بعضٍ، تأييدًا إلهيًا للمسلمين.

إنَّ اللجوء إلى الهُدَن، ومحاصرةَ المدن لإرغام القوم على التفاوض بسبب ضغط الجوع وإعاقة التجارة، لم تكن مما اخترع في فترة فتح سوريَة. لقد لجأ المسلمونَ، حتى النبيُّ محمَّدٌ (ﷺ) إلى هذه الأمور من قبلُ، وهذبوا حواشيَهَا في أثناء جهادهم النهائي المظفَّر في محاولتهم لفرض سلطانهم على القبائل المرتدَّة واليهوديَّة داخلَ شبه جزيرة العرب نفسِها.

ثمَّةَ أمثلةٌ عن تحاكٍّ مزعوم بين رجال الدين من أتباع الطبيعة الواحدة والقوَّاد العسكريين البيزنطيين، ولا سيَّما في شِمَالي سوريَة ودجلةَ الأعلى على ما نقلته مصادرُ متأخِّرةُ جدًا.[70] ومع ذلك، فمن المحتمل أن تكون هذه المصادرُ اعتمدت مصادرَ كانت معاصرةً للأحداثِ التي تصفُها. فاثنان من رجال الدِّين هؤلاءِ، هما ماروثا والنسطوري مار إمّه، سلَّمَا تَكْرِيْت والمَوْصِل إلى المسلمين على التوالي. ومع ذلك، كان هذان الموضعان في مناطقَ كان فيها الحكمُ البيزنطيُّ قصيرًا ومضعضعًا. إضافةً إلى ذلك، فقد كان ثمَّةَ تقليدٌ طويلُ الأمد لخياناتٍ مزعومة عن تسريب أسرار تتم على أيدي رجال الدِّين المسيحيين إلى أعداء البيزنطيين قبل خلقيدونية وقيام الخلاف الكريستولوجي؛ أي: في القرن الرابع. إنَّ الاستدلال بالخصومة لأتباع الطبيعة الواحدة للبيزنطيين على أنها سببٌ من أسباب إخفاق الأخيرين في مقاومة المسلمين، مع استثناء مهم لإرمينية إذْ كان تاريخُهَا المحليُّ وموقعُها عززًا كثيرًا دورَ الخصومة الدينيَّة، هو استدلالٌ محفوفٌ بالغموض. إنَّ التحاكَّ بين أتباع الطبيعة الواحدة وأصحاب المشيئة الواحدة المعترفِ بهم رسميًا، والخلقيدونيين لم يكن من شأنه أن يمهِّدَ السبيل لقيام مقاومة متناسقة وفعَّالة تجاه

المسلمين وتطويرها، لكنَّه لم يكن العنصرَ الحاسمَ في التسبب بالإخفاق البيزنطي والنجاح المسلم.[71]

يوجه الكتّاب المسيحيون المتأخِّرون النقدَ إلى رجال الدِّين والعامَّة من المسيحيين من أهل تلك الفترة من الفتوح الإسلامية بسبب إخفاقهم في إذكاء مقاومةٍ «إلى النهاية» للمسلمينَ. ليس من الممكن، في أيِّ حل، أنْ يعزى الانهيارُ البيزنطيُّ إلى أفعال رجال الدِّين، أو إلى انعدام الأفعال عندَهُم؛ ولو أنَّ بعضَ الجماعات المسيحيَّةَ المنشقَّةِ حاول أنْ يلصقَ النكبةَ، على نحو عامٍّ، بخطايا الإمبراطوريَّة، ولا سيَّما زعمائِهَا في أيام الفتوح، وهو أمرٌ يمكنُ فهمُهُ.

مع أن دورَ رجال الدِّين البيزنطيين في إثارة المقاومة أمرٌ محتمل، لكنْ ليس عليه دليلٌ في المصادر المتوافرة لدينا. وثمة مصادرُ إسلاميَّةٌ تدَّعي أنَّ رجالَ دينٍ ورهبانًا بيزنطيين رافقوا القوَّاتِ البيزنطيَّةَ وقوَّادَها في بعض المعارك، بما في ذلك معركةُ اليرموك. ومِنْ ثَمَّ لم يكونوا غائبين البتَّةَ. وجهودُهُم لم تؤدِّ إلى نجاح كبير، لكنْ لا يبدو أنهم جنَّدُوا أعدادًا كبيرة، أو أشخاصًا أصلاً، للدِّفاع البيزنطيِّ عن المنطقة.

إنَّ التساؤلَ عن الدَّرجة التي تمَّتْ على أيدي السُّكَّان في فِلَسْطين وسوريَة وميزوبوتاميا ومصر، أو لم تتمَّ، لبذل الجهد في الاعتماد على أنفسهم في مقاومة المسلمين هو نقطة حاسمة. لقد حفَّزت الاتجاهاتُ الطويلةُ الأمدِ إلى تحميلِ عبءِ الدِّفَاع المحليِّ أشخاصًا محليينَ ذوي مواردَ خاصَّةٍ ذاتِ قيمة، في أجزاءَ من سوريَة وبلاد اليونان الأصلية، فكان أنْ انتقلتِ الترتيبات من الاعتماد على السكان المحليين، إلى المسلمين، إلى جنودٍ محترفينَ مرتفعي الأجور.[72]

لقد كان دور رجال الدين المسيحيين في القرن السادس في إدارة الإشراف على المدن في أعقاب الحملات الفارسية متعدِّدَ الوجوه. ففي أحيان تدخَّلَ رجالُ الدين، والمقصودُ الأساقفةُ، في مفاوضاتٍ، وفي حالات أخرى كانوا يعرضون الذخائر، وأسهموا في إجراءاتٍ وقائيَّة لإنقاذ مدنهم من الفرس.[73] إنَّ دورَهم في ثلاثينيَّات القرن السابع لم يكن على هذه الدرجة من الأهمية أو الوضوح التام، ويعين إخفاقهم في إدراك جدِّية الإسلام على تفسير تصرُّفهم.



يستعين المؤرخون أحيانًا بالتركيبة الاجتماعية والأوضاع الاجتماعية في محاولةٍ لتفسير الأحداث والتبدُّلات الكبرى. ومعَ ما يثيرهُ هذا من الرَّغْبة في المحاولة، فلا يبدو مقنعًا أنْ يعزى إخفاق المقاومة البيزنطية إلى التركيبة الاجتماعية التي شاعت في بواكير القرن السابع في سوريَة وفِلَسْطين وميزوبوتاميا البيزنطية. إنْ صحَّ هذا، فإنَّ التركيبة الاجتماعية يمكن أن تعزِّزَ قيامَ الأوضاع التي أدَّت إلى تداعي المقاومة الأرمنيَّة. من الصحيح القولُ: إنَّ التركيبة الاجتماعيَّةَ القائمةَ ساعدت على تحديد الأوضاع والنظرة العقلية التي كانت سائدة بين البيزنطيين في لحظة الاختراقات الإسلامية. لكن العوامل الاجتماعية لا تكفي لتفسير الانهيار البيزنطي والنجاح الإسلامي، ولو أنها تعين على تفسيرِ الخصائص القائمة داخلَ سوريَة التي أعانت المسلمين على توطيد سلطانهم هناك على قاعدة طويلة الأمد. ولا يمكن الاستعانة بسبب واحد سهل لتفسير كليٍّ لنوع الاستجابة البيزنطية العسكريَّة للحملات الإسلامية وحظوظهاً. ومع ذلك، فقد أعانت الأحوالُ الاجتماعيَّةُ في سوريَة وفِلَسْطين وميزوبوتاميا على قيام الجوِّ الذي كان يجبُ فيه على الجيوش البيزنطية وقوَّادها أن يفعلوا فيه، ويقابلوا الأمورَ. ومن الحمق أن نُنكر على العوامل الاجتماعية أيَّ دور، لكنْ من اليسير أن نبالغَ فيها. ما كان من الممكن أن يُتَنبَّأ بيُسرٍ نجاحُ المسلمين بفحص الأحوال الاجتماعية في سوريَة في أواخر القرن السادس.

## 10.15) دورُ الإسلام

يشير الباحثونَ في الشؤون الإسلامية، باقتناعٍ، إلى أنَّ الإسلام كان العاملَ التوحيديَّ الذي جمع القبائل العربية معًا، ومن ثَمَّ، فإنه أضاف الكثير إلى تحقيق الفتوح الإسلامية، وتثبيتها، واستمرارها، وإلى دور الدِّين في تمتين «تصميم النخبة العمليِّ على القيام بتوسع»[74] وإلى أنه «كان عاملاً مُهمًا فيما أضافه إلى التوحيد الناجح للدَّولة الإسلاميَّة»،[75] وعاملاً في توحيد الجماعات القبليَّة والنخبة في أثناءَ الفتوح.[76] لم تكن ثمَّةَ عصياناتٌ كبيرة ضد القيادة الإسلامية في أثناء الفتوح. مثلُ هذه الملاحظات ليس لهُ أهميَّةٌ من حيثُ

الدِّرَاسَاتُ الإسلاميَّةُ فحسبُ، بل أيضًا من حيث الدراساتُ العسكريَّةُ في تلك الحملات. وقد غلب على القوّاد البيزنطيين أنهم حاولوا أن يتّبعوا سياسةَ: فرِّق وافتح، زارعين الخلافَ في صفوف أعدائهم وقيادتهم. إنَّ التوجُّه الدينيَّ نحو التماسك داخلَ الجماعات المسلمة، مع أنه لم يكن أمرًا عامًّا على وجه التأكيد، جعلَ الأمرَ أشدَّ صعوبةً عند البيزنطيين؛ أي: اللجوء إلى الأساليب التقليدية للتسبب في الفِرَار وتبديل الولاء أو الغدر داخل الفئات المسلمة. وفي واقع الأمر، فإنَّ البيزنطيين كانوا هم الذين تحمَّلوا خسائرَ أكبرَ بسبب الفِرَار مما أصابَ المسلمين، على ما يبدو من المصادر. ومع ذلك، فمن المؤكَّد أنَّ عددًا من رجال القبائل من المسيحيين العرب، وأبعدُهُم ذكرًا هو جَبَلَةُ بنُ الأيهم الذي كانَ آخرَ ملوكِ الغساسنة العرب، إضافةً إلى نيكيتاس بن شهرباراز، قد تخلوا عن المسلمين. بعضُ هؤلاءِ بدَّلَ ولاءَه، أو حاولَ القيامَ بذلك مراتٍ كثيرةً، وبعضُهم الآخرُ الذي فرَّ إلى المسلمين أولاً انتهى به الأمرُ إلى الهربِ إلى البيزنطيين أخيرًا. وهكذا، فقد كان للإسلام آثارٌ غيرُ مباشَرة في سير القتال ونتائجه النهائية. لقد فرض على القيادة البيزنطية أن تحاول الدخول في معاركَ، إذ كان من المستحيل اللجوءُ إلى الرّشوة، والمكر، والرسل لكسر طوق التماسك بين المسلمين.

ومع أنهم أكرهوا على ذلك، فإنَّ البيزنطيين خاضوا المعارك. وهذا ما رغبت القيادة الإسلامية في أن يقوموا به، إذا كان الواحدُ يثق بشهادة الأزديِّ البصريِّ في كتابه: «تاريخُ فتوحِ الشّام».[77] في الواقع، فقد اندلعت أكثرُ المعارك في المواقع التي اختارتها القيادةُ المسلمة. إنَّ البيزنطيين لم يقابلوا من قبلُ مثل هذه المصاعب في كسر طوْق تماسك خصومهم عبر المخاتلة، والمال، والوعود، والأنباء الكاذبة. لقد خلق فضل الإسلام على تماسك المسلمينَ عنصرًا جديدًا لا سابقةَ لهُ، وهو الذي جعل مهمَّة القيادة البيزنطية، على ما كانت عليه من النظرة المحافظة، والميل إلى البحث عن أمثلةٍ أقدمَ زمنًا للإرشاد، أكثرَ صعوبةً وغيرَ مؤكدة. إنَّ هذه الملاحظات لا تفترض (تعصُّبًا) دينيًّا عند المقاتلين المسلمين، ولا، في حقيقة الأمر، إدراكًا عميقًا للإسلام عندهم. الأمرُ المهمُّ كان



الباعثَ الدينيَّ عند زعمائهم مع كلِّ ما كان يمكن أن يُضمَّ إليه من بواعثَ ورغباتٍ أخرى.

لقد وحَّد الإسلام وحفَزَ العناصر في المجتمع العربي التي كانت ذلك الوقت متنافرةً، وخلق دولة حيثُ لم يقمْ شيءٌ مثلُ ذلك من قبل. ومن ثَمَّ، فإنَّ البيزنطيين لم يكونوا مستعدِّين لهجماتٍ تقومُ بها جيوشُ المجتمع الإسلامي الجديدِ لما قام قائمها، واتجهوا في بادئ الأمر إلى التقليل من أهميَّتها، وعدُّوها تقومُ بغزوات بدويَّة، ليسَ غيرُ، خبروها قرونًا خلَتْ. ويمكن تفسير فقدان البيزنطيين لموقعٍ يسندهم في عودتهم جزئيًا بالحقيقة السهلة في أنَّ البيزنطيينَ لم ينتظرُوا البتَّةَ هجومًا جديًا من هذه الجهة. لقد أضعف الهجومُ الجهود البيزنطية لإفساد العدوّ وتقسيمه، وأصبح صعبًا إفسادُ القيادة المسلمة وفق السبل البيزنطية المألوفة. ليس واضحًا هل أثرت الصعوبةُ في إفساد المسلمين أيضًا في التقنيات والسبل والجهود البيزنطية لإفساد خصومهم في الحدِّ الشرقيِّ في السنوات التي تلت الفتوح الإسلامية الأولى؟ وقد يكون البعدُ الديني الجديد أوجد عند البيزنطيين سببًا إضافيًا لمحاولة إعادةِ النظر في كيفية شنِّهم الحروبَ والدبلوماسية والاتصالات السرية، وكيف لجؤوا إلى الحيلة والخداع. بعضُ هذه التقنيات لن يكون لهُ إمكانية أن يعمل بفعالية جيدة مع قيادة المسلمين التي كانت مدفوعةً دينيًا، بمنْ فيهم القوّادُ المحليونَ الذين كانوا يشاطرونها هذا الإخلاص الديني.

ليس ثمَّةَ قيدٌ لذكريات أو قصص عن أبطال مسيحيين للفتوح بعد انتهاء القتال بوقت طويل. في الجهة الإسلامية ثمَّةَ رواياتٌ عن مشاركينَ في أحداث الفتوح مزعومين كانوا أم حقيقيين، لكنْ لا نجدُهُم في الجهة البيزنطية.

### 10.16) النتائجُ

لم ينجم من الدفاع البيزنطي والحملات الإسلامية الكثيرُ من الدَّمار المباشَر الطبيعي الدائم في أثناء القتال الحقيقي، ولا حتى في قَيْسَاريَّة في فِلَسْطين حيثُ احتلت المدينة اقتحامًا. لقد كانت النتائج الأكثرُ جديةً الإقامةَ المتعمدة لمنطقة عازلة مدمَّرة في سوريَة الشَّمَالية، التي أصبحت بعد ذلك

الثغور، وهي نوعٌ من منطقة حدودية محصنة.[78] إنَّ الأسبابَ التي أدّت إلى الانحطاط التدريجي الزِّراعي والسكاني في صحراء النقب [في جنوب فِلَسْطين] مركبة، ولا يبدو أنَّ الأمرَ حدث بالتلازم مع الفتوح الإسلاميَّة، مع أنَّ هذه الحملات زادت، على وجه التأكيد، تضعضعَ الأمن المحلي.[79] لقد استعادت المناطق الأخرى الزراعيةُ والمدنُ نشاطها، ولو أن بعضَ المؤلفين المسيحيين يدَّعي أن المسلمين أوقعوا الكثيرَ من الأذى والخسارة في الأرواح.[80]

كان في عداد التطوراتِ الاجتماعيَّةِ بعيدةِ الأمدِ تبدلُ تخطيط المدن، والنقلُ التدريجي، لأسباب أمنية جزئيًا، لأعداد كبيرة من السكان، والنشاطُ التجاري إلى الداخل بعيدًا عن المناطق الساحلية للبحر المتوسط. ولم تترك الفترة القصيرة تقريبًا للحروب الحقيقية حصرًا الكثير من التدمير الدائم، مع أنَّ التجارة تعثرت، وقد أُوذِيَ بعضُ المزارعين. لكنْ عمومًا، فإن الرِّوايات عن الفتح، حتى تلك التي خلَّفها الكتّاب المسيحيون، لا تضخِّم الإتلافَ الماديَّ للأبنية أو السكان أو الحيوانات، ولو أنَّ بعض هذه أُلقي عليه القبضُ، وأتلف في أثناءَ سير القتال.[81]

ولو أنَّ حجم التدمير المادي كان عاديًا، فإنَّ الخوف من التدمير العارم كان، في الأغلب، العاملَ الأكبر في قرار سكان المدن والريف لإجراء التفاوض مع المسلمين على تسويات. من هذه الناحية كان دورُ التدمير مهمًّا. كانت الإحساسات على الدرجة نفسها من الأهمية كالحقيقة. في الواقع، خلقت الإحساسات بعض الحقائق. ومن المحتمل أن التدمير كان يمكن أنْ يكون أضخمَ لو لم يقوموا بالمفاوضة حالاً على الشروط.

### 10.17) دورُ العربِ المسيحيينَ

لم يحسنِ البيزنطيونَ الإفادةَ من العرب المسيحيين لما استقروا على استراتيجية تعتمد المدنَ المسوّرة. تمكّنَ العربُ المسيحيونَ من أنْ يقوموا بالحماية، وقد فعلوا ذلك. والحرس المسيحي جُنّد من الحاضر؛ أي: المخيم القريب من المدن. لكنَّ أفضلَ استخدامٍ لهذا الحرس من البيزنطيين كان يصح



في الحرب الحركية تجاه عرب آخرين، لا في حراسة دفاعات ثابتة. وكان يمكن لهؤلاء العربِ أن يصبحوا، على المدى، استنزافًا، أو أكثرَ من ذلك، للموارد، ولا سيَّما الموادُّ الغذائيَّةِ، في المدن بدلاً من أن يكونوا عونًا على العرب المسلمين وسواهم من العرب المخالفين لهم.

من الممكن أن قبيلة إياد العربية هاجرت إلى أنكيرا/أنْقِرَةَ الأناضوليَّة في الفترة السابقة للفتح، وأن عربًا آخرين أقاموا في المدينة القبدوقية أرابسوس.[82] وكانت ذكرى وجود هؤلاء القبليين في الأناضول، ولو بأعداد، يمكنُ أن يُسهِّل هربَ القبائل العربية المسيحية المتعدِّدة إلى الأناضول في القرن السَّابع في أعقاب الفتوح الإسلامية.

مع أنَّ ثمةَ رواياتٍ عن ولاءاتٍ متقلِّبة بينَ بعض العرب المسيحيينَ، الذين روي أنهم انتقلوا من الإخلاص للبيزنطيين إلى المسلمين خلال المعركة، فإنَّ الخبرَ عن انتحال قوَّاتٍ بيزنطيةٍ الإسلامَ قليلٌ تقريبًا، ولا سيَّما غيرِ العربيَّة. حتى في معركة اليرموك التي تضرر فيها البيزنطيون كثيرًا، بسبب قرارَ العرب، ويبدو أنه أيضًا بسبب ثورة عسكرية قام بها بعض الأرمن. لم تقتصر القرارات كلها على البيزنطيين. إن قبيلتي لخم وجُذام، على ما يرويه الشعرُ العربي، تخلَّتا عن الجبهة الإسلامية خلال الأدوار المبكرة والأقل وضوحًا من المعركة.

لقد حاولت قيادةُ كلا الفريقين استغلال التقلب في القبائل وخطره على التماسك. وقد كانتا خبيرتين بهذه التصرُّفات. ومع ذلك، فإنَّ ابنَ عبدِ الحكم وابنَ دُقماق (الذي هو من غيرِ شك مصدرٌ متأخِّرٌ. ومن ثَمَّ، فإنه موضع ريبة، وهو لا يفصح عن مصدر معلوماته) يرويان أنَّ عمرو بنَ العاص حمل بعض جند الروم (البيزنطيين) الذين انتحلوا الإسلامَ "قبل اليرموك" إلى مصر، حيثُ استقرَّ بهم المقام.[83] هذه روايةٌ نادرة. إنَّ هؤلاء الجنودَ رافقوا عمرًا في فتحه مصرَ. إنَّ إعادة إسكانهم في مصر أزاح، بطبيعة الحال، خطرًا أمنيًا كامنًا عن سوريَة وفِلَسْطين المنفتحتين حديثًا، إذ إنَّ قربهم المتميِّزَ من الإمبراطوريَّة البيزنطية يثيرُ في نفوسهم الرَّغبةَ [في العودة] وإزعاجًا للسلطات الإسلامية. ومع ذلك، استمر عدم الثقة بالقوَّات في مصرَ على حاله، إذ رُوي أنه في سنة (41 هـ/ 661 م) تفاوض (15.000) جندي مصري مع الإمبراطور البيزنطي،

كونستاس الثاني، وفروا إلى ناحيته. وكثرةٌ منهم انتحلتْ المسيحيّةَ.[84]

كان من المحتمل أن يقدم العرب المسيحيّونَ، في العراق في زمن الفتح العربي، مساعدةً كبيرة في الدِّفاع عن شِمَل العراق أمام العرب المسلمين. في العراق الساساني قاوم العرب المسيحيّونَ المسلمين، لكنهم لم ينجحوا في وقفهم، بَلْهَ إخراجُهُم! وإذا كان بعضهم يستخدم حاميةً صديقةً لبيزنطة في العراق الساساني، فإنَّ هذا الأمر كان يدعو إلى انتشار ضعيفٍ لقوَّتهم، وكان يتيح لقلَّةٍ منهم أن تكون جاهزةً للخدمة في قتل المسلمينَ في سوريَة.

### 10. 18) التخطيطُ للعمليَّاتِ وفعّاليَّتُهُ

إن تواريخ الفتوح، بقطع النظر عن اللغة التي دونت بها، لا تزوِّدنا بفهْم جيِّد جدًا عن طبيعة القتال وحقائقه في تلك الفترة. ويسمح الوضع الناتج من قراءة المصادر باستنتاج الكثير من الإشارات، والمعلوماتُ التي تُزوِّدُنا بها خير من لا شيء، لكنَّ عددًا من المسائل يظلُّ مفهومًا أو مفسرًا على نحو غير واف. لماذا أخفقت هذه الحروب في أن تُنتج مؤرخًا كبيرًا أو، على الأقلِّ، راويةً من وزن بعض الذين ظهروا في القرن السادس؟ هذا أمرٌ ليس من اليسير تفسيرُه، ولكنْ في الحقيقة لم يظهر أي من هذا الوزن. ليس الأمرُ واضحًا هل أمل هرقلُ وبَلاطه أصلاً في العثور على مؤرِّخ أو مدَّاح رسمي، لكنَّ الاتجاهَ والتحوُّلَ الكارثيين للأحداث، لا بدَّ من أنهما، عاقا هذه المحاولة في أواسط ثلاثينيات القرن السابع.[85]

لم يكن قرارُ هرقلَ في إدارة العمليات العسكرية أو متابعتها من حمص أو أنْطَاكِيَة يبدو غريبًا. فمع أنه لم يشاهد أيَّ معركة شخصيًا، فقد كان قريبًا من أمكنة القتال على نحو معقول. وكانت تصرُّفاته في ثلاثينيَّات القرن السابع منسجمة مع محاولاته أنْ يكون على مقربة من العمليات العسكريَّة منذ سنة (612 م). ولم يكن قربه أو بعده المحدودان من المعركة القضيةَ البيزنطيةَ في ثلاثينيات القرن السابع. وفي الجانب الإسلامي لم يكن أبو بكرٍ أو عمرُ، بطبيعة الحال، حاضرين شخصيًا في موقع المعركة. لقد كانا يقيمانِ على بعدٍ أكبرَ من بُعْدِ هرقلَ، ومن ثَمَّ، لم يكن غياب رأس الحكومة عاملاً حاسمًا.



وإذا لم تكن ثمة جماعةٌ من الضباط لتدوين الأخبار، فقد كان النقل الشفويُّ للأخبار إلى الرؤساء العسكريين أمرًا بلغَ من الأهميَّة الغاية. وإنَّ عددًا من القادة البيزنطيين هلك، أو صفي بطريقة ما في أثناء القتال: سرغيوس وفاهان ونيكيتاس (أو ابن شهرباراز الآخر). ومن الواضح الجليّ أنه لم يكن بوسعهم أن ينقلوا تقاريرَ مفصَّلةً أو نصيحة عن اختباراتهم إلى هرقل وبطانته، حيثُ كانت أكثر الاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية تطوَّر وتُقيم منتقدة وتُبدَّل، حيثُ تدعو الحاجة. من المحتمل أن تكون الاتهاماتُ والتطهيرات التي أعقبت اليرموك أضيفت إلى صعوبة التوصل إلى استنتاجات معقولة من تلك التجارب. ومن المستحيل أنْ نعرفَ تمامًا مدى صحةِ التقرير الذي كان يتلقاه هرقلَ وحلْقَتُه في حمص وأنْطَاكِيَة عن الأوضاع في الجبهة. مع كلِّ ذلك، فإنَّ أفضل تقدير هو أنَّ القرارات الاستراتيجية الحاسمة والمسؤولية لإجراء التبديلات كانت تتم على مستوى هرقل ومستشاريه الأقربين.

كان جزء من مصاعب بيزنطة، من ناحية عامة، الاستخباراتِ الضعيفةَ عن المسلمين، والتقصيرَ في العمل بسرعة، والفصلَ على النحو المناسب، على أساس ما كان يُحصَل عليه من استخبارات عن المسلمين. مع أنَّ بعض البيزنطيين كانوا مدركين أصلاً أهميَّةَ العامل الإسلامي في اندفاع العرب، فإن البيزنطيين كانوا، عمومًا، يقلّلون من شأن الباعث الديني عند العرب كمسلمين، وكان فهمُهُم هذا الدِّينَ الجديدَ ضعيفًا جدًا. ومما هو غامضٌ مدى معرفةِ أصحاب القرار من البيزنطيين والمسلمين، على السَّواء، بجيوشهم وقوَّادهم وضعفهم وقوَّتهم، بما في ذلك المنافسات، والتقسيمات داخل صفوفهم، والأعداد الدقيقة وذلك بالمقابلة مع معرفتهم عن خصومهم.

ويبدو أن البيزنطيين لم يتمكنوا البتَّةَ من الحصول على رأي واضح على ما جرى في الفتوح الإسلامية. فكل ما كان يبعث منه من سوريَة كان شائعات وتخميناتٍ، وتنقصه صورةٌ أو فهم متماسك لتسلسلِ وتوقيتٍ دقيقين للأحداث أو لأعداد المقاتلين. ولعلَّ هذه الأخبار التي تلَقاها البيزنطيون في القُسْطَنْطِيْنِية لم تكن سوى أكبرَ بقليلٍ من خلطة أخبار لم تهضم.

وإذ تم للحدِّ البيزنطي الإسلامي ما يشبه التثبيت على مقربة من جبل طوروس، يبدو أنَّ المدن المسوّرة فقدت الأهمية التي كانت لها في الاستراتيجية البيزنطية، عمَّا كانت عليه في سوريَة. لقد ظلت المدن المسوّرة والحصون أمكنةً مهمةً للجوء، لكنَّ التضاريس الجبلية للأناضول لم تتطلَّب اعتمادًا كبيرًا على المدن المسورة، أو هربًا كبيرًا للسكان المدنيين من الريف إلى حماية المدن المسوّرة.[86]

## 10. 19) عودةُ النقصِ العسكريِّ إلى الظُّهورِ

إنَّ ما يبرز واضحًا في إخفاق الدفاع عن فِلَسْطين وسوريَة وميزوبوتاميا هو التشابهُ في الكثير من نواحيها، مع ضعف الدفاع الروماني في قرونٍ سابقة.[87] فرفضُ الجنود المجازفة العدوانية من المراكز المحصنة لمقاتلة المهاجم، وميلهم إلى البقاء خلف جدران المدن الثابتة والأكثر راحة، والفجوات المتعددة في نظام الدفاع في الشرق وفي الغرب في القرون: الرابع والخامس والسادس كانت نواحي خطرةً قبل ظهور الإسلام بوقت طويل. وأوجهُ الضعفِ تلكَ في ذلك الوقت لم تؤدِّ إلى خسائرَ أرضية دائمة. ومع ذلك، فقد انكشفت نواحيَ الضعف هذه، ولكنَّها لم تُصلح. لقد أخفى الاحتفاظُ بالحدود البيزنطية حتى أيام الإمبراطور فوكاس، على نحو من الخدعة، أعطابًا عسكرية كثيرة.

عادت بعض الأنواع نفسها من الدفاعات البيزنطية إلى الظهور ثانيةً في القرن السابع، وفي هذا الوقت لم يُكتب للإمبراطورية البيزنطية أنْ تنجوَ من خسائرَ أرضيةٍ كارثية. وقد عادت الكثيرُ من المشكلات القديمة والمألوفة إلى الظهور في القرن السابع. إن العناصر الجديدة في هذا الوقت، ضائقة مالية أشدّ، وجهات جديدة جاء منها الخطر، ودور الإسلام الكبير في دفع القيادة العربية وبعض المقاتلين العرب، إن لم يكن جميعهم، وعدد المهاجمين العرب الأكبر، كانت، من غير شكٍّ، كبيرةَ الأهميّة في تقرير النتيجة في مصلحة المهاجمين المسلمين. لكنَّ وهنَ وسائل الدفاع البيزنطية كان قائمًا وقتًا مديدًا. والغريب في الأمر أنه لم يقع انهيارٌ عظيم في وقت مبكر. وفي واقع الأمر، فإنَّ نكسة أكثر جدّيّة جاءت أبكرَ؛ كانت حفزت الحكومة البيزنطية على التخلص من أكثر نواحي الضعف الفاضحة في دفاعها. ليس من الضروري أن يعزى



الانهيارُ البيزنطي إلى الإخفاق في شن حرب مقدّسة أو فهمها.[88]

إنَّ الكثير من مشكلات الجيش البيزنطي في الدفاع عن الأرض تعود إلى وقت سابق لثلاثينيات القرن السابع. لقد عُرف الضعف على الحد الشرقي مدَّةً طويلةً، ولم يكن، بالضرورة، نتيجة شن المسلمين حربًا دينيَّةً. كان ثمة أبعادٌ دينية واضحة لحروب هرقل على الفرس. فاستعادة الصليب كانت علامةً مهمةً لإنهاء تلك الحملات والتسوية النهائية. ومع ذلك، فمهما كان هناك من دور ديني اتسمت به أبعاد الحرب البيزنطية على الفرس، فإنها لم تصبح قابلة للانتقال إلى المقاومة البيزنطية أمام المسلمين، التي جاءت بعد ذلك ببضع سنوات ليسَ غيرُ. ويُظهر «الاستراتيجيكون» الذي وضعه موريس أنَّ المسيحية وصلواتها العامَّة تأصّلت في الجيش البيزنطي إلى درجةٍ عميقةٍ في سنة (600 م). وكان الجيش البيزنطي يأمُل في عون إلهي لأنه كان يدافع عن إمبراطورية قائمة بحراسة الله وشعبها. على كلٍّ ليس ثَمَّةَ ما يدلُّ على أنَّ الإمبراطوريَّة كانت تنتظر حربًا دينية جديدة بعد أن كَسرت الفرس في حرب أصبحت فيها المتطلبات والدواعي الدينية مبرَّرَة.

لم يبدر من البيزنطيين دلالات على تطوير رد فعل عاطفي مباشَر للنجاح الإسلامي الذي كان يمكن أن تنتج منه مقاومةٌ كبيرة جماعيةٌ للمسلمين. كانت بيزنطةُ دولةً تسير نحو الضعف، ولكنَّها كانت تفكِّر مثلَ دولة عظيمة، وكانت دولةً كبرى، لكنَّها كانت يومَهَا أقلَّ مما كانت عليه قبلاً. لكن، من الجهة الأخرى، قد تكون هناك أخطارُ هبوط نفسي درامي لو أنَّ هذه الحركة الجماعيَّة الآنية أخفقت. ومع ذلك، كان ثَمَّةَ بعضُ صفاتٍ للبيزنطيين مكَّنتهم من المقاومة المديدة، ومزاجٌ نفسي مناسبٌ لهذا التطور. لم يكن هناك ردُّ فعل كبير للبيزنطيين تجاه المسلمين وقتَ الفتوح الأولى. وقد أظهر البيزنطيون في نهاية المطاف أنهم كانوا يملكون المرونةَ على التحمُّل، مع أنَّ ذلك كان على نحوِ مقلوب الثوب.

## 10. 20) الترابطُ مع الأحداثِ الأُخَرَى

مما هو من الأهمية الترابطُ بين تنظيف الساحل الفِلَسْطيني [من الخصوم] وفتح مصر. ما دام البيزنطيونَ يحتفظون بقَيْسَاريَّة، ومن المحتمل بعَسْقَلان أيضًا.

من المجازفة أن يهاجم المسلمون مصر، فقد كان ثمة احتمالٌ، ولو بدا بعيدًا من الحقيقة، أنْ تقوم حملة من قَيْسَاريَّة ما دام البيزنطيون يسيطرون على شرق البحر المتوسط، بما في ذلك الجزر مثل قبرص. ومع ذلك، فإنهم لم يلجؤوا إلى هذه الخطوات تجاه الساسانيين. ورواية البلاذُري في كتاب «فتوح البلدان» تشير إلى أن عمرًا سمح له بالهجوم على مصر فقط بعد إنهاء الاستيلاء على قَيْسَاريَّة. كان عمروٌ يعرف عن المناسبات والمجازفات التي ترافق العمليات العسكريةَ في مصر أكثرَ من أيِّ قائدٍ مسلم آخرَ. وقد يسَّر له احتلاله بيتَ جِبْرِيْن/إليوثيروبوليس ثم غزَّة بعدَها سنةَ (16 هـ/ 637 م) نقاطًا ممتازةً لتجميع قوَّاته للقيام بعمليات حقيقية تجاه مصر أو، بسبب موقعه الاستراتيجي، أن يرغم السلطات البيزنطية المذعورة في مصر على دفع أتاوات. كان عمروٌ يرغب منذ مدَّةٍ في مهاجمة مصر، لكنَّهُ لم يكن يمكنه أنْ يحصلَ على الموافقة على هذه الحملة قبل أنْ تسقط قَيْسَاريَّة.[89] كان هذا قرارًا عسكريًا وسياسيًّا قوامُهُ الحصافةُ والتعقُّلُ لتجنُّب هجومٍ متهور.

ليس ثمة ما يفيد أنَّ الدفاع البيزنطي عن مصر أفاد كثيرًا من التجربَة التي حصل عليها البيزنطيون من قتالهم المسلمينَ في فِلَسْطين وسوريَة. إنْ صحَّ شيءٌ، فلعلَّ النتائج السلبية التي جاءت من الانكسارات الحاسمة المتكررة أثرت في الروح المعنوية كثيرًا، إذْ إنها رجحت على أي تجربَة حصلوا عليها في كيفية مقاتلة المسلمين. ومن الواضح أنَّ النتيجةَ النهائيَّةَ لَم تتبدل في مصر. إنَّ الجنود والقوَّادَ البيزنطيين في مصر فعلوا القليل للدفاع عن سوريَة وفِلَسْطين. كما كان تنسيق الجهود ضعيفًا لحومخيف. فإلى درجة ما، لعلَّ المحاولات البيزنطية للاحتفاظ بالاتصال مع مصر انتهت إلى التنافس على المؤن والسفن مع المدن الساحلية المنكوبة في سوريَة وفِلَسْطين. وقد سقطت مصر في أيدي المسلمين بعد هجوم عمرو في شَعْبَان (8 هـ) كانون الأول/ ديسمبر سنةَ (639 م). كان الفتح عسكريًا، إذْ إنه أفاد من إدارة سيروس الحمقاء مصرَ، ولم يكن نتيجةً للنزاع الحزبي بين الزرق والخضر. [كان هذان اللونان شعارين لفريقين من اللاعبين المتخاصمين في الإسكندرية (المترجم)].[90]

أتاح الصلح مع مصر البيزنطية ومع القوات البيزنطية في قِنَّسْرِيْن، مع أنه



كان مؤقتًا، للمسلمين تركيز المستوى الأعلى من قواتهم في مكان آخر.[91] لقد أتاح الصلح المؤقت في مصر للمسلمين التركيز على العراق وفتح شِمَال سوريَة، كما أتاح لهم بذلَ الجهود لإنهاء أمر مدن كانت تحاول الصمود. وكان له بعض الكسب للمسلمين: لم تكن برأيهم اتفاقيةً سخيفة تعقد فترةً مؤقتةً. لم يكن لدى المسلمين ما يحملهم على تعريض كل ما كسبوه للخطر في سبيل إلزام أنفسهم حملةً على مصر سابقةً أوانَهَا. كان الأجدرُ بهم أن يثبتوا الأمر، على نحو ما، ببطء، ولكن على أساسٍ مؤكد. وقد جنَّبهم هذا توسعًا كبيرًا ومجازفة كبيرة محتملين. وعلى ما تبين بعدَ ذلك، فقد كان البيزنطيونَ ينقصهم قائدٌ مغامر كان يمكنه أن يستغل احتفاظ البيزنطيين لمواطِئ أقدام على الساحل السوري الفِلَسْطيني.

لم تستعمل بيزنطةُ قوتها البحرية بفعَّالية في أثناءَ الحملات في ثلاثينيَّات القرن السابع وأربعينيَّاته. إنَّ أسبابَ هذا الأمر غامضةٌ، مع أنَّ هرقل وأسرته استعملوا القوَّةَ البحريَّةَ بنجاح للاستيلاء على العرش سنةَ (610 م).

## 10. 21) صِيْتُ البيزنطيينَ

خلَّف البيزنطيون سمعةً سيِّئةً بشأن أخطائهم الأخيرة في سوريَة وميزوبوتاميا ومصر، إذا كان الواحدُ يثق بالتواريخ والروايات التي خلفها المسيحيون المنشقُّون والمسلمون، وهي معترفٌ بتحيُّزها. فقد تذكر القوم البيزنطيين أساسًا لضعف أحكامهم، لكنْ أهمُّ من هذا كلِّه لنهبهم المناطقَ قبلَ أنْ يغادروها، وإساءتهم إلى السكان المدنيين، في مقابل تصرف المسلمين المثالي الذين يتبعون الأوامر الصارمة الصادرة من أبي بكر في أنْ يعفوا عن السكان ومواشيهم. وقد تذكر القومَ البيزنطيين أيضًا لاتِّباعهم سياسات الأرض المحروقة، ولا سيَّما في شِمَال سوريَة. وبعبارة أخرى، أُلقي اللوم بشأن الكثير من الدمار الطبيعي الذي تم إثرَ الفتوح الإسلامية على الأفعال البيزنطية المقصودة أصلاً، وليس على حوادثَ جاءت مصادفةً أو نتائجَ ثانويَّةٍ، وليس على المسلمين.

ما كان لهذه الأفعال والذكريات أن تُحبِّب البيزنطيين إلى السكان المحليين

في الجزء الكبير من شِمَل سوريّة وميزوبوتاميا. بل إنها جعلت أيَّ أمل في دعم محلي حقيقي لعودة الجيوش البيزنطية، وأيَّ إحياءٍ لسلطة بيزنطيَّةٍ أمرًا أشدَّ صعوبةً وبعيدًا من الواقعيَّة. لعلَّهُ لم يكن البتَّةَ أمرًا عمليًا أنْ تنتظر عودة البيزنطيين، لكنَّ هذه الذكريات ساعدت على منع أي احتمل لذلك.

إن أحداث المشرق في ثلاثينيات القرن السابع لم تنجز حلولاً للكثير من المعضلات البيزنطية العسكريّة القديمة. إنْ صحَّ شيءٌ، فإنَّ مقدرةَ الجيوش الإمبراطورية على شنّ حروب حركية تآكلت جدّيًا بسبب الخسائر الفادحة التي كابدتها، وتوزيع الكثير من الجنود الذين بقوا على واجبات مختلفة ومتباعدة في إمبراطورية أصبحت تجابه خطرًا في كل منطقة تقريبًا. كانت الإمبراطورية تتلمَّس استراتيجية صالحةً للاتباع لم تكن طوَّرتها بعدُ. لقد كانت ترتجل مؤقتًا استراتيجية مسالة تنقصها الحركة تقريبًا، وجامدة إذْ إنها تسمح للمسلمين بالمبادرة. هذه الأمورُ المرتجلة تطوَّرت نتيجة التجارِب البيزنطية في سوريّة في ثلاثينيات القرن السابع.[92]

## 10. 22) وضعيَّةُ الأسرةِ الهرقليَّةِ

مع أن الخسائر البيزنطية كانت جسيمة، فإنها لم تؤدِّ إلى سقوط الأسرة الهرقليَّة التي استمرت في الحكم حتى آخر القرن، وتجاوزته قليلاً إلى سنة (711 م). فعلى نحو ما كان الولاءُ للأسرة والنجاحُ في إلقاء مسؤولية الكارثة على عواملَ أخرى وعلى أشخاص آخرين عونًا على إنقاذ الأسرة وتمكينها من الاستمرار.

إنَّ السؤالَ: هل تمَّ تطهيرٌ في صفوف الضباط البيزنطيين بعدَ الانهيار؟ أقلُّ وضوحًا. يحتمل أنَّ فاهان قتل في معركة اليرموك، أو أنه انسحب يجرجر خزيه إلى دير في سَيْنَاء.[93] وثيودور، المدير المالي، الذي كان قائدًا مهمًا ثانيًا هلك في تلك المعركة. وثمَّةَ قائدٌ مهمٌ آخرُ هو ثيودور أخو هرقل الذي زعم أيضًا أنه قتل في اليرموك، مع أنَّ من المحتمل أنه مات لاحقًا بعد استدعائه إلى القُسْطَنْطِينِيَة. إنَّ وجودَ ثيودور ودورَهُ أدّيا، على نحو ما، إلى توريط الأسرة، لكنَّ الشائعاتِ: «إنه أهمل نصيحة أخيه الإمبراطور» أعانت على إنقاذ هيبةِ



الإمبراطور والأسرة وسمعتهما. واستمر القائدَ الغساني جَبَلَة بنَ الأيهم مقيمًا في بيزنطة في وضع ممتاز، لكنَّ ظروفه كانت خاصَّةً. أما نيكيتاس بن شَهْرباراز، الذي كان يتحمَّل شيئًا من المسؤولية، فقد هرب إلى المسلمين في حمص حيثُ اغتالوه. ولا يعرف على أي نحو عُومِلَ الضباط والجنود الأحياء الآخرون، وعلى أي نحو تصرَّفوا، ولا الذي قالوه أو فكروا به بشأن تجاربهم في الانكسار. لعلَّ خدماتهم العسكريَّةَ كانت ضرورية في ذلك الوقت الخطر إذْ لم يكن تطهير الكثيرين منهم أمرًا عمليًا، ولا سيَّما في ضوء النقص المعاصر في القوة البشريَّة العسكريَّة والأموال اللازمة لاستئجار المرتزقة.[94]

## 10. 23) توضيحُ قضيَّةِ نُشوءِ (الثيم) البيزنطيِّ

ليس ثمة مصدر يوناني أو عربي أو أرمني يعزو مآتي الحملات الإسلامية إلى وضع المؤسَّسات البيزنطيَّة. إنَّ طبيعةَ المؤسَّسات الرُّومانية المتأخِّرة التي كانت قائمةً عشيَّةَ الفتوح الإسلاميَّة لم تجعل الخسائر البيزنطية أمرًا محتومًا. ومثلَ هذا الغرض يحملُ على القول: إنَّ ما يسمَّى «نظام الثيم» والثيم يعني الفيلق العسكري البيزنطي وأقضيته العسكرية،* لم يكن قائمًا في زمن الهجمات الإسلاميَّة. وعلى كلٍّ، فلو كان موجودًا يومَها، فمن المؤكَّد أنه لم يحل دون الفتوح الإسلامية.[95]

إن ما هو مُتضَّمن في هذا القول بشأن تطور التنظيمات البيزنطية للفترة المتوسطة مهمٌ جدًا. فإعادةُ قراءةٍ مفصلةٍ للمصادر الأصلية والبحثُ الحديثُ عن الثيمات وصفاتِ الجنود يؤدِّيان إلى القولَ: «من المحتمل أنَّ هرقل كان يرتجل (إن التعبير: لعله يقوم بتجربة، جدّ قوي) على أساس عشوائي، أمر قيادات عسكرية طارئة تضم مسؤوليات سياسية على أنها جزء من محاولته اليائسة للحصول على بعض الوسائل لوقف المسلمين وتقوية دفاعاته» إلينا.[96]

والأقربُ إلى الموضوع هو المصادرُ التي تتحدث عن أن هرقل عين قوادًا عسكريين على المدن، وهذا ما يدل على أنه كان يؤسس لنوع من عَسْكَرة السلطة الحكومية. وقد روى الأزدي أنَّ هرقل «خلّف أمراء من جنده على مدن الشام».[97] إنَّ كلمةَ (ثيما / thema) اليونانيةَ لا تستعمل بما يتعلق بهذه

التعيينات. على أيِّ حال، فإنها لا ترد في هذه المصادر.

وهـذه المناصب لا تُعطى تحديدًا ولو عامًا، على حدِّ ما نعرف، لكنَّها كانت نوعًا من العَسْكَرَة. ولم يكن لها ارتباطٌ البتَّةَ بأيِّ إصلاح اجتماعي أو اقتصادي، عـلى أنه ربما كانت لها ارتباطات بالاقتصاد والمالية والمجتمع. وهرقل لم يقم بهذه التعيينات كلِّهـا في وقـتٍ واحـدٍ، بل فعل ذلك عشوائيًا تحتَ ضغط تهديدات معيَّنة لمناطق محدَّدة. لم تكـن لديه خطةٌ شاملة لمثل هذه؛ على الأقل ليس ثمة ما نقعُ عليه في المصادر المعروفة.

مـن المستحيل أنْ يُقـرَّرَ عددُ هذه الارتجالات المؤسسية وأسماؤها الدقيقة. فقد كانـت عمليـة متدرجة تسـارعت تحـت ضـغط الأحـداث، أي: تـنامي الخطـر الإسـلامي، وتوالـي الضـعف في الوضـع البـيزنطي العسـكري. إنَّ طبـيعة هـذه التعييـنات ليسـت واضـحةً، بمـا في ذلـك تعيين هؤلاء القوَّاد المتعلِّقين بسلطات خاصَّـةٍ كانـت تـتبعهم هيـئات موظفـين مـن لون واحد. تتيح لنا المصادر نظراتٍ خاطفـةً لهـذه الارتجـالات بيـنما كانت تُجرى في صميم أزمة عسكريَّة للهجمات الإسـلاميَّة. فهـي، إلى درجـةٍ مـا، تضعُ بين أيدينا توثيقًا دقيقًا، مع تعديلات مهمَّة، لـبعض الـرؤى البحثـيَّة في الأفعـال الإداريَّة للإمبراطور هرقل. إنَّ السوابق التي تعـود إلى وقـت سـابق لتوحـيد السـلطات المدنـية والعسـكرية في أيدي موظف واحـد مـتعددة، وعـلى الأخـص مـن أيـام لسـتنيان الأول. هـذا كله يعزز الحجج البحثـية الـتي تم التوصـل إليها من قبل، والتي ترى أن الحملات الإسلامية كانت السـببَ الخارجيَّ في قفـزة كبرى نحو إقامة ما سيكون في النهاية (الثيمات) لكنْ لم يـرافقْ ذلـك إصـلاحٌ اجـتماعيٌّ واقتصاديٌّ من النوع الذي ارتأى بعضُ الباحثين أنه كان عنصرًا أساسًا لها. ومن المحتمل أنَّ القوَّاد كانوا وكلاء.

لقـد أضـافت أفعـال هـرقل النشـطة في أواخر حكمه، إلى إقامة (الثيمات) العسـكرية، ولكنْ على طريقة تختلف كثيرًا عمَّا ذهب إليه بعضُ الباحثين. لقد كانـت تعيينًا طارئًا لسلطة إدارية لمواجهة أزمة عسكرية على نحو ما كان يتطلبه الوضـع عـلى الجـبهة العسـكرية. وقد أقيمت بسبب الخوف من عجز المدنيين عـن معالجـة القضـايا، ولا سـيَّما الضـعفِ والميلِ للتسـليم أو للـتفاوض مع



المهـاجم بكـثير مـن السـهولة. هـذه التعييـنات الإداريـة الطارئـة لم تفسِّر، ولا سـببت، انتصـاراتِ هـرقلَ على الفرس. لقد كانت ضعيفة جدًّا إذْ إنها اختفت إثـرَ الفـتوحات الإسـلاميَّة. ولا تعدّ التقاليد التاريخية البيزنطية هذه الارتجالات أصـولاً لـنظام الثيم العسكري المتأخر. وفي الواقع، فإنَّ فيها نـزعةً لانتقاد هرقل لتشـجيعه مقاومةً عسكريَّةً تجاه المسلمين، محكومًا عليها بالإخفاق، وتنتقد طيشَ هـؤلاء القـوَّاد الذيـن اتـبعوا بحماسـة أوامـر هـرقلَ لمقاومة المسلمين بدلاً من محاولة التوصل إلى اتفاق معهم.[98]

مـن الجهة الأخرى، ما كانت إقامةُ هذه الوحدات الإدارية القانونية تحتاج إلى ذكـاء لَمّـاع لإيجادهـا. إنَّ الوضع الخطر ربَّما حمل أيَّ إمبراطور على محاولة تثبيت السـلطة المدنـية والعسـكرية في شـخص فـرد في مـناطق معرَّضـة للخطر. هذه الاسـتجابةُ لم تخـلُ مـنها مناطقُ أخرى في أوقات أخرى: إقامة مناطق أو سلطات يـتولاها قـوَّاد عسـكريونَ مـزوَّدون بسلطات مطلقة مدَّةَ الطارئة الحالية أو حتى إشعار آخرَ، شأن تاريخي عامٌّ معقول.

إنَّ ظهـور الأجـنادِ وأي صلة محتملة مع التنظيمات البيزنطية العسكرية هما مشـكلتان. إنَّ الأجـنادَ ذوو صـلة مـع بـيزنطة، لأنهـا لا توجـد في الأراضـي الساسـانية الفارسـية السـابقة. إنَّ قضـية رئيسة في افتراض وجودها أيام هرقل هـي غـيابها عـن النصـوص البيزنطـية المـتعلقة بواقع العمليات العسكرية في أثـناء الفـتوح الإسـلاميَّة. وبالمـثل، فليس هناك ما يؤيِّد ذلك من نقوش أو لُقًى فخاريَّـة [مـن أخـتام وسـواها] اكتشـفت حـتى الآن. إنَّ المصـادرَ تسـتمرُّ في اسـتعمال تسـمياتٍ رومانـيَّةٍ مـتأخِّرة بمعـنى: مدبـر المـال، والقـائد، وقائد فرقة، والأمـين، والمشـرف، وألقـابٍ قديمـةٍ في وصـف القـواد والوحـدات. لقد جرب هـرقل، في بعـض حـالات، سـلطةً عسكرية طارئة، يشير إليها الأزدي، ولكنه لا يعطـي الأسماء المعينة لهذه المؤسسات النظامية.[99] إن التجارب لم تحدث بضغط مـن الفـرس قـبل عشرينيات القرن السابع، بل تحتَ الضغط الواقعي للفتوح الإسـلامية. وعـدا ذلـك، فمـن الواضح من الانكسارات البيزنطية الكارثية في سـوريَةَ أنـه مهمـا كانت التجربَة التي كان هرقل يقوم بها، فإنه لم يكن اكتشف



أي صيغة لوضع نظام للنجاح العسكري. لعلَّ هذه التجربَة المبكرة غير الناجحة، مع كل ذلك، نجحت في النهاية في الحصول على نتائجَ في تطوير أنظمة عسكرية ودفاعات ناجحة إلى الشَّمَل من جبل طوروس. ومن المستحيل أنْ نعين عددَ القيادات الطارئة التي أقامها هرقل مؤقتًا، وما الذي كانت عليه الرتب الإدارية المتصلة بها. كذلك من المحال أن نعرف ما الاسمُ الذي أطلق على القيادات العسكرية، (ومن المؤكد أنْ ليس ثمَّةَ من دليلٍ إذا ما كان التعريفُ ثيمة، وجمعها ثيمات، استُعْمل) أو إذا ما استُعْملت التسميةُ الواحدة لها جميعها.

ليس ثمة من دليل على أنَّ هذه التجارب أخَّرت فتح سوريَة ومصر وميزوبوتاميا، لكنْ لعلَّ التجارب أعانت خلفاءَ هرقلَ على تطوير دفاع أفضلَ ممَّا بقي؛ أي: الأناضول. على أنه ليس ثمَّةَ شهادةٌ بيِّنة البتَّةَ لمثل هذا في المصادر المتوافرة باللغة اليونانية أو الأرمنية أو العربية.

لا يمكنُ تعريفُ الوحدات البيزنطية العسكرية التي قاومت المسلمين في سوريَة وفِلَسْطين وميزوبوتاميا ومصر بوضوح بأنها وحدات (ثيمية). لعلَّها، في النهاية، تطوَّرت إلى وحدات ثيميَّة، ولا سيَّما بعدَ انسحابها من سوريَة وميزوبوتاميا، وتجميعها ثانيةً في الأناضول، لكنَّ المصادر العربيَّة والأرمنية واليونانية لا تطلق على أي منها صفة (ثيمات) في ثلاثينيَّات القرن السابع.[100] والمؤرخ العربي الطَّبري ينقل روايةً أنه سنةَ (18هـ/ 638 - 639 م) كان البيزنطيون يقومون بإعادة تنظيم أنفسهم. فلنهاجم إذاً.[101] إنه أمرٌ مرهق أن يُفكَّر بمعنى دقيق لإعادة التنظيم وفق التقليد العربي، لكن من المحال التوصل إلى رأي يُطمأن إليه. كان ثمة نوعٌ من إعادة التنظيم البيزنطي العسكري يحدث في الأناضول في أواخر أيام هرقل. إنَّ هذا أمرٌ منطقي. من الممكن أن يكون شكلاً بدائيًا من ثيمة إرمينية بدأت بالتكوُّن في أربعينيَّات القرن السابع، لكنَّ هذا التعريف قوبل بالرفض.[102]

مهما كان هناك من منظمات بيزنطية عسكرية في ثلاثينيّات القرن السابع وأربعينيّاته، فلم تكن قوية في نفسها حيثُ تصد، بَلْهَ أنْ ترد المسلمين. ولو أنَّ



نوعًا من نظام الثيم البدائي البيزنطي كان في سبيل التشكل في ذلك الوقت، فقد كان، على ما يبدو من السجل، أضعفَ ممَّا يمكنُ أن يوقف المسلمين يومَها. قد يمكن معلوماتٍ أخرى أنْ تعدل هذه الاستنتاجات، لكن هذا هو أصوب حكم يمكن الوصول إليه على أساس المصادر المتوافرة حاليًا. لقد جاء التبديل الرئيس في تمويل الجيوش البيزنطية في ذلك في ختام عملية مديدة هو ظهور، لكنَّ توليه الإشراف على فرض الضرائب العامة، بين سنتي (15 هـ/ 636 م) و(20 هـ/ 640 م) لم يؤثر في نتيجة القتال مع المسلمين في سوريَة وميزوبوتاميا ومصر. ممَّا يمكن تصوره أنَّ ما كانَ، بعد ذلك، يعرف باسم (مِلكيات الجند) [من الأرض] وجد في ثلاثينيَّات القرن، فإنَّ الجنود الذين كانوا يملكونها في سوريَة وميزوبوتاميا انخرطوا في القتال على نوع أشدَّ مما فعلوا للحفاظ عليها، لكنَّ هذا أمرٌ تأملي ومعاكس للحقائق، إذْ لا يجوزُ أن يحظى بمناقشة تعدو هذا.

أثارت مشكلاتٌ ناجمةٌ عن توزيع عادل لدفعات عينيّة متساوية اضطرابًا عسكريًا في أثناء المحاولة البيزنطية لإقامة دفاع مؤات أمام المسلمين، لكنها لا يشار إليها في الإمبراطورية البيزنطية المنقوصة بعد خسارة فِلَسْطين وسوريَة وميزوبوتاميا البيزنطية ومصر.[103] إنَّ النظام (اللوجستي) والعسكري للتعويض الذي كان أساسُهُ الدفع عينًا، أو بُدُلًا، إلى درجةٍ ما في الجزء المتأخِّر من القرن السابع. ويبدو أنَّ هذه العملية زادت قوةً بسبب اختصار المسافات التي كان على الجنود البيزنطيين أن يجتازوها بعد أن أدّت تلك الخسائر الكبرى في الأرض إلى جعل التمويل أقلَّ اعتمادًا على توزيع المدفوعات عينًا. لقد كان لهذا التبديل آثار في دافعي الضرائب الإمبراطوريين والمالية الإمبراطورية.

إنْ كان ثمة ما يهمُّ، فمن شأن دراسةِ الدفاعات البيزنطية أمام المسلمين في سوريَة وميزوبوتاميا أنْ توضِّح القضايا المرتبطة بالبحث عن ظهور المنظمات البيزنطية وتطورها، وتهدي الباحث إلى أن يفترض، في أبعد الاحتمالات، تبدلات تنظيمية بيزنطية مهمّة ودائمة حتى آخر ثلاثينيَّات القرن السابع والسنوات التي تلت ذلك مباشَرة. فقد نتج التبدل التنظيمي البيزنطي من الآثار المدمّرة للفتوح الإسلامية المبكرة، ولم يبرز قبل تلك الحملات. لقد كان



حكم كونستانس الثاني (641-668 م) محفوفًا بالأخطار. والبحثُ في هذا المعنى أبعدُ ما يكون عن بلوغ النهاية. لقد أدت الضغوط المتنامية للأزمة العسكرية والسياسية الخارجية، في أواخر الثلاثينيات المبكِّرة من القرن السابع والأربعينيّات منه، إلى تسارع التبدل التنظيمي البيزنطي الذي كان من قبل بطيئًا جدًا. فجأة أصبحت شؤون كثيرة بحالة رخوة. لكنَّ هذا الوضع التنظيمي حصرًا ليس كافيًا لتفسير محنة المقاومة البيزنطية للمسلمين لو كان التفكير يدورُ في محنة سنة (13 هـ/ 634 م) أو (21 هـ/ 641 م) أو أي وقت لاحق. إن أمرًا معقدًا من حُسبانات أخرى، بما في ذلك قرارات بشرية، عززت هذه النتيجة.

ليس ثمة صلة سهلة لـ(ثيمات) البيزنطية بخسارة الولايات ذات الموقع الخطير في سوريَة وميزوبوتاميا. وليس ثمة دليل قطعي على أن نظام (الثيم) بلغَ من الجودة الغايةَ، إذْ إنه كان يمكن أن ينقذ تلك المناطق لبيزنطة لو أنه كان في زمن الفتوح الإسلامية. لم يكن ثمة مفتاح تنظيم سهل للاحتفاظ البيزنطي بتلك المناطق. إن التركيبة التنظيمية البيزنطية إنْ هي إلا عنصرٌ واحدٌ بين عناصرَ كثيرةٍ يجبُ تقويمها. والأخبار المبكرة للمقاومة (الثيمية) للمسلمين في الأناضول لم تكن مبرَّزة، ولا سيَّما فيما يتعلق بالمعارك الحامية المواجهة التي كانت عنصرًا لازمًا في أيِّ دفاع فعَّال عن سوريَة الأصلية.

لعل أحدَ الأسباب التي أدَّت إلى ظهور (الثيمات) كان التجاربَ السلبية للحكومة الإمبراطورية التي تتأتى من خطر محاولة الموظفين المدنيين المحليين أن يتفاوضوا مع المهاجمين المسلمين في فِلَسْطين وسوريَة ومصر وميزوبوتاميا. لقد جربت الحكومة تعيين أولئك الذين أمّلت في أن يكونوا قوّادًا أدعى للاعتماد عليهم وأشد حزمًا في المقاومة، واختير هؤلاء من أشخاص من القواد العسكريين الذين كانوا مرغمين على إطاعة إرادة إمبراطورهم، ولا يفاوضون المسلمين إلا بإذن صريح. وكانت الخطة المترابطة في إجراء هذه التعيينات على أساس عشوائي، مثل إقامة حكام (perfects) طارئين من الجيش لأسباب لوجستية وأمنية داخلية، جزءًا من إقامة (الثيمات) في أثناء الفتوح الإسلامية



ونتيجة رد فعل لها. فقد كانت هناك أيضًا مشكلات تتعلق بالموظفين المحليين أنفسهم الذين كانوا يعرضون الإمبراطورية للخطر عبر مفاوضات يقومون بها بأنفسهم مع المسلمين. هؤلاء الموظفون أنفسهم، على ما يبدو من قضية منصور المقضَّة المضاجعِ في دمشق سنة (15 هـ/ 636 م) كانوا يمنعون أو يمتنعون، بطرائقَ مختلفة، من جمع الكميات الضرورية من المؤن والإعانة للجنود وتوزيعها. وتشير نظراتٌ خاطفةٌ إلى الأخطاء اللوجستية والتعاون المحلي مع المسلمين إلى أنَّ الحكومة وجدت من الضروري تبديلَ نظام مُعطَّل. وكان ذلك الجزء من المشكلة يقع على عاتق الموظفين المدنيين الذين كانوا يجمعون الضرائب والموادَّ الغذائية ويوزعونها، وغالبًا ما كانوا يحتفظون بها لمنفعتهم الخاصَّة، وهي، أي: الضرائب والمواد الغذائية، التي كان يحاول ما تبقى من منصب المسؤول المالي جمعها. وتظهر حملات ثلاثينيات القرن السابع أنه آن للنظام أن يُبدَّل، وليس لأن الحكومة كانت تُعْوزُها الاعتمادات المالية. فالمشكلة لم تكن نقصًا في المال فحسبُ. لقد كانَ الاعتمادُ على الموظَّفين المحليين للولاء والمؤن نظامًا لا يعتمد عليه إلى درجة كبيرة، وكان معرضًا للعمل التخريبي. وقد أوجدت هذه الأوضاع الأسباب الموجبة لتجميع السلطات الجديدة في مَنْ أمَّلت الحكومة أن يكونوا قوادًا عسكريين يُعتمد عليهم. مع ذلك، احتاج الأمر إلى الوقت: إنَّ الاختفاءَ التدريجي للنظم الرومانية في الولايات الأقدم عهدًا، وظهور (الثيمات) البيزنطية، لم يكن بلغ الغايةَ في نهاية القرن السابع.[104]

إضافةً إلى القرارات الخاصة بحشد القوة البشرية والحد من النزف المالي في الدفوع النقدية إلى الجنود، كانت ثمة حاجةٌ إلى تقوية الضوابط البيزنطية المركزية كثيرًا من أجل وقف اهتراء المقاومة، على نحو ما حدث من قبلُ في سوريَة وفِلَسْطين. إنَّ (الثيمات) لم توفِّر البتَّةَ حلاً كاملاً للتحدّيات العسكريَّة الخارجيَّة. فقد كانت بعيدةً من الكمال. وبينت حالة سيروس في مصر أن الجمع بين السلطة المدنية والعسكرية حصرًا لم تضمن الاعتماد على السلطات المحلية وتقيُّدِها الدقيق بالقواعد التي استنَّها الإمبراطورُ ومستشاروه.

ومن المؤكد أنها لم تؤدِّ إلى مقاومةٍ ناجحة تجاه المسلمين، ولا ضمنت من ذلك. وانتهت الجهود المحلية للحفاظ على استمرار الحياة اليوميَّة والأنظمة السابقة بضغوطٍ على أعلى المستويات الحكومية، أي: على مستوى الأباطرة ومستشاريهم، لمنع توالي ترتيبات محلية غيرِ مأذون بها، كإجلاء السكان المحليين، أو ترحيلهم وتأسيس سيطرة إدارية عسكرية أدقّ، بما في ذلك سيطرة أشد على الحدود. إن الجهود المبذولة في تجنب التغيير أدت، على العكس من ذلك، إلى تقوية التغيير، وتسارعٍ في زوال البُنْيات الإدارية التي تعود إلى أيام الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وظهور سيطرات بيروقراطية بيزنطية جديدة.(105) لكنَّ المتأخِّرين من المؤرِّخين البيزنطيين ودارسي العاديات لم يروا في الأعمال المرتجلة في فترة الفتوح الإسلامية تأسيسًا لبنية (الثيم) الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر. إنَّ الأوضاع التي نجمت من انهيار التموين المحلي ونزوع الموظفين المحليين إلى التفاوض مع المسلمين لم تكنْ نقطةَ البدء في المسار الطويل لقيام (الثيمات) وهذا ما بدأ بطيئًا، لكنها أوجدت البواعث، بل الأحوال الملزمة، لتسارع عجلة التغيير.

### 10. 24) تصوُّرات مقابلة

إنَّ الفتوح الإسلامية لسوريَة تتناقض مع فتوح السلاف والآفار (الخزر) في البلقان التي كانت معاصرة لها تقريبًا. إن الهجمات السلافية كانت أبطأ وأقل تنظيمًا، ولم ترافقها عدة معارك مشهورة، على نحو ما حدث هناك. لعلَّ الحملات السلافية والآفارية نتجتا من تدمير طبيعي أضخمَ للمدن والزراعة، وخسارة بشرية، وتشريد للناس. لكنَّ صفاتِ الطبيعة لسواحل الأدرياتيكي واليوناني والأسود، بما فيها من الفجوات المائية وشبه الجزر والجزر، يسَّرت للجيوب اليونانية والبيزنطية البقاء على نحو أيسرَ وأكثرَ فعَّالية مما كانت عليه في السَّاحل السوري. لم يكن على الساحل السوري الفِلَسْطيني مونمفاسيا أو نين أو ميسمبريا. وبالمثل، لم ينتج من الحملاتِ السلافيَّةِ قيامُ إمبراطورية موحدة بالسرعة التي نشأت بها الخلافة الإسلامية من تلك الحملات. هذه الحقائق أضافت إلى إخفاق أي معقل بيزنطي في أن يقاوم، إلى ما لا نهايةَ له، المسلمين. فقد سلمت جميعها في



النهاية، على خلاف ما حدث في البلقان، إذْ كانت ثمة إمكانياتٌ لاسترداد كثيرٍ من الأراضي من العدو، والتي تم ذلك بشأنها.(106)

لقد بيّنت التجارب التي مرت بها الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بين سنتي (395 و410 م) كيف أن سلسلة من الأحداث الطارئة التي كانت في أغلبيَّتِها سياسيةً وعسكرية، ومثل ذلك قرارات بشرية، انتهت إلى تغيير جوهري في أحوال الإمبراطورية في الغرب على درجة لم تكن متوقَّعة في سنة (395 م). لقد بدَّل التوافق بين قرارات آنية وأحداث عسكرية طارئة خلالَ خمس عشرةَ سنةً وضعًا قائمًا وما يتصل به من حالات تنظيمية.(107) مثلُ هذا الشيء حدثَ بين عامي (13 هـ/ 634 م) و(21 هـ/ 641 م) في فِلَسْطين وسوريَة ومصر وميزوبوتاميا.

### 10. 25) عدمُ حتميَّةِ الفتوحاتِ

لم تكن الفتوحاتُ الإسلامية أمرًا محتومًا، ولا الخسارةُ البيزنطية أيضًا. كانت ثمة حيوية دينية واجتماعية واقتصادية في سوريَة وفِلَسْطين البيزنطيتين في أعقاب الانسحاب الفارسي من المشرق بعد عقد الصلح مع بيزنطة سنة (7 هـ/ 628 م). ولم تكن ثمة عملية لا يمكن تفسيرُها آخذةً في التطور يومها. من ناحية الإسلام، فقد وافرت الأحداث والتبدلات الدينية، بطبيعة الحال، الحافز الحاسم. من ناحية التاريخ البيزنطي كانت ثَمَّةَ أحداثٌ جاءت من الخارج، أي: الأحداث العسكرية التي كانت حاسمة، إذ إنها أطلقت سلسلة تراكمية من التبدّلات وتراكم من المؤثرات هي التي بدّلت وضعًا، كان، من غير ما شك، مزعزعًا متقلقلاً، ومن ثَمَّ أوجدت نقطة انعطاف. برأي البيزنطيين كانت هذه فتوحًا عربية وليست إسلامية. وبرأيهم لم يكن ثمة قَبول ضمني بأن الدين الإسلامي كان السبب في نجاح هذه الفتوح، بَلْهَ أيِّ نية في ترك أمر احتمالي متصل بذلك، وهو أنَّ الإسلام كان يتصف بصدق أو قوة في التحليل النهائي، فإنَّ العلّة والنتائج كانت معقدة.

إن الاشتباكات الأولى مع المسلمين شرقي نهر الأردن وشرقي البحر الميت أصابت القوات البيزنطية العسكرية في وقت بلغت فيه من التعثر

الغايـةَ في (8-9 هــ/ 629-630 م). فالسـلطة البيزنطـية كانـت تقوم بعملية إحـياء لمّـا التقـت القـوات البيزنطـية وحـدات إسـلامية أول مـرة. وهـذه الاشـتباكات الأولى، الـتي أتـيح فيها للبيزنطيين أن ينتصروا في بعض المعارك، لم تقـض عـلى الضـعف العسـكري المـتأزم. لم يكـن ثمـة مهلة مضمونة. فقد اختـلَّ الـتوازن داخـلَ القوّات البيزنطية من اللحظات الأولى لمحاولتهم إعادةَ السـلطة البيزنطية في الفراغ الذي خلّفه انسحابُ الفرس. لقد كانت حيوية الوضع، من الناحية العسكرية، مقلقلة.

لا يمكـن لأيِّ تفسير عسكريٍّ محدودٍ أنْ يكون مقنعًا. مع ذلك، فإنَّ الفريقينِ، المسـلم والبـيزنطي، وجّهـا إلى معـارك معينة على أنها انتصارات أو انهيارات. لكـنّهما رجعـا إلى التعلـيل الديـني لتوضـيح نـتائج تلـك المعـارك. لقد كانت القـرارات العسـكرية مهمـة في نـتائج الأحـداث عـلى نحو ما كانت المنظمات العسـكرية. من المحتمل أن بعض هذه كان يمكن أن ينتهي إلى نتائج مغايرة. وقد أضـافت القـرارات المغلوطُ فيها، والتقديراتُ الخاطئة، والمنافسات البشرية شيئًا لتفسـير مـا حـدث. مـع أنَّ من الممكن أن نتصوَّر الزمن المديد في تاريخ البحر المتوسـط، فإنَّ هذه السنوات من القرن السابع عرفت تسارعًا في عملية يقتضي تفهُّمُهَـا عنصـرين اثـنين؛ تفهُّمَ عناصرِ الزمن المديد واللحظة الخطرة. إنَّ البدء بإعـادة تخمـين الضـرائب العامـة على يد سابلاروس فيلاغريوس (Sabellarus) بـناءً عـلى تعليـمات هـرقل كـان دلالـة عـلى المرونة، إذ إنه عيّن أصلاً إحياء المنظمات، بينما كانت الإمبراطورية تترنح من تأثير الخسائر العسكرية.



# مُلْحَقٌ

## مؤلّف ‹رسالة ضد اليهود› وتاريخُها

قـبل مـا يـزيد على قرنين من الزمان، قال المؤرِّخ الكنسي ياكوب باسناج في مقـال له بعنوان (De Anastasio Observatio) ما مفاده أنَّ بعضَ ما جاء في ‹رِّسالة ضـد الـيهود› مـن حجـج يبدو بعيدًا عن أن يقنع اليهودَ المعاصرين،[1] وهو ما عبَّر عنه بقوله:

> إنـه [أي: مؤلـف الرسـالة] يدلـي بحجج مختلفة، تبدو متينةً إلى درجة قويَّةٍ، لإسـكات اليهود. وعلى كلٍّ، فإنَّ بعض الحجج التي ترد قد لا يوافق عليها المسـيحيون بيسـر، إذ مـن يقـبل بـالقول: إن الدلـيل عـلى أن المسـيحية مؤسسـة محمـية بالعـناية الإلهية هو أنه لم يحدث أنَّ إمبراطورًا مسيحيًّا وقعَ في أيـدي الـبرابرة فقـتلُوه ألبـتَّةَ؟ ألا يتذكر المؤلف فالنس أو نقفور الذي لقـي حـتفه على أيدي البلغار؟ ولو أن قوله كان صحيحًا، فهل له أنْ يؤثر في مـا يتبع ذلـك مـن أذى بالـيهود عـلى نحـو مـا يقصده منه؟ غريبٌ أنْ يضـيف في مناسـبات كـثيرة أنْ الأمـيين، [غير المسيحيين وغير اليهود]، لم يتمكَّـنُوا مـن إزالـة رسم الصليب، مع أنَّ بعض الطّغاة حاول ذلك، إذن، فهذه هي الحجة الأقوى على صحَّة ما نعتقده.

لم يتضـح لــِ(باسـناج) أنَّ الحجـج الدقـيقة التي بدت غريبةً له في القرن الثامن عشـر هـي حصـرًا الـتي تـزوِّد الإطار التاريخي لمقولته، أو على الأقل لهذا الجزء منها. يبدو من غير المتصور أنَّ مؤلف ‹الرسالة› وضع الحجج المذكورة آنفًا في زمن متأخِّر مـن القرن التاسع، دون الحَيْطة في أنْ يلحَظَ قتل الإمبراطور نقفور الأول على أيدي الـبلغار الذيـن لم يكونـوا مسـيحيين، وهـي حادثة كان لها وقعٌ مؤلم على البيزنطيين

المعاصرين.[2] من الممكن أنْ ينقل الواحد مثل هذه الحجة في القرن التاسع عن مؤلِّف أقدم عهدًا، لكنَّهُ لا يُنتَظر أنْ يختلق مثل هذا الرأي في ذلك الوقت.

يغلب علي الظن أن كاتب هذه الفِقْرَة في ‹الرسالة› كان يعيش في بلاد الخلافة.[3] ليس من الواضح هل كان يحاول الردَّ على حجج يهودية معاصرة إزَاءَ المسيحيين؟، لكنَّ مثلَ هذا الجدل ما كان يجوزُ أن يُتصور وقوعُه داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية. لقد وضع مؤلف ‹الرسالة› الأسس لآراء حول أوضاع الإمبراطورية وديمومة الإيمان، وهي التي كانت، في النهاية، ذات قيمة في تمتين ثقة المسيحيين إزَاءَ المسلمين واليهود على السواء.[4] إن الأحداث التي كانت تدور في ذهنه، (هذا إذا ما كان ثمَّةَ شيءٌ في ذهنه سوى انطباعٍ عامٍّ بأنَّ أحدَهُم حاولَ سكَّ نقودٍ ذهبيَّةٍ، ففشلَ) لعلَّهَا لم تعدُ النقد الساساني الذهبي، أو سكًّا" غيرَ رسمي على يد حكام مسلمين محليين. إنَّ آراءه تبدو كأنها تشير إلى حكمة عامة لا ترتبط بالزمان. ومن ثَمَّ، فإنَّ من الصَّعْب أن تضيف أي نتائج خاصَّة للأحداث التاريخية.

وقد نشر الباحث الشهير في تاريخ العصور الوسطى، تشارلز هومر هَسْكِنْز، مقالاً في مجلة ‹Byzantion› (التي لم يرد في عنوانها ذكر أنستاسيوس السينائي) تساءل فيه: هل كان يجبُ على العلماء أنْ يعتمدُوا إلى درجةٍ كبيرة على الإشارة إلى ثمانيمئة السَّنة التي مرَّت منذ أيام المسيح على أنها الزمن الدقيق ‹للرِّسالة›. وقد لاحظَ: «إننا بحاجة، بالنسبة إلى هذه المسألة حصرًا، إلى بينة إضافية تعتمد على نسخ أخرى، إذا لعله بدا لنساخي الترجمات اللاتينية أن يضعوا هذا القول في تاريخ مبكر، وقد يكونُ الناسخُ اليونانيُّ قام بمثل هذا التعديل». إن شك هَسْكِنْز في هذا التأريخ بالقرن لقي قليلاً" من الاهتمام.[5]

وقد أشار إم. كمُسكو، في مجلد تالٍ من ‹Byzantion› إشارة مقتضبة إلى الرسالة، وأبدى شكه، ولأسباب تختلف عما ذكرَ، في نسبتها إلى القرن التاسع. إنه لم يُعن بما تقدم به هَسْكِنْز من دليل، ولكنه لاحظ إشارة نميَة [أي: متعلقة بنَقد] في الرسالة التي كانت مؤرخة إلى قبل الزمن الذي صحح فيه الخليفة عبد الملك [بن مروان] النقد الإسلامي الذهبي (زُهَاء 694 م). وقد نفى كمُسكو حجة أخرى مما ورد في ‹الرسالة›. وفي القرن التاسع عشر، حرر إي. سي. مَكْغِيفرت الأمريكي، رسالة



يونانية أخرى إزَاءَ اليهود اسمها: ‹[الحوار بين بابيسكوس وفيلو] Dialogue of Papiscus and Philo›. وقد لاحظ أنَّ ثمَّةَ تشابهًا بين نصِّهِ ونصِّ ‹الرِّسَالة›، ولكنَّه انتهى إلى القول من حيثُ نسبةُ ‹الرسالة› إلى القرن التاسعَ عشرَ: إنَّ ‹الحوار› كان مصدر كثير مما جاء في ‹الرسالة›، مع أنه اعترف بأنَّ بعضًا قد يتوصل إلى نتائج مخالفة لذلك. أدرك كمُسكو أن الإشارات إلى النقد الذهبي في ‹الحوار› الذي حققه مَكْغِيفرت كانت مختصرةً ومضطربة حيثُ لا تمكنُ قراءَتها، في حينَ كانت تلك الواردة في ‹الرسالة› يمكن فهمُها، وهي صالحةٌ لأن تُعتمد في إطار تاريخي، وهذا ما لم ينتبه عليه مَكْغِيفرت الذي لم يكن مؤرخًا. وانتهى كمُسكو إلى القطع بأنَّ تاريخَ ‹الرِّسالة› يعود إلى القرن السابع.[6] وقد دفن نتائجه، على ما نحو فعل هسكنز في مقال في مجلة ‹Byzantion› التي لم يشر عنوانها إلى أنستاسيوس السينائي. وفي واقع الأمر، فإنَّهُ شرح استنتاجاتِه لمناسبة كشفه عن نصٍّ معقَّد لتاريخ لرؤية ميثوديوس/المكذوب الذي يعودُ تاريخه إلى القرن السَّابع وخلفيَّة تاريخيَّة لهَا، والذي يحوي فِقْرَة تظهر أيضًا في ‹الرسالة›، ولكنَّهَا معروفةٌ لدى قلَّة.[7]

يبدو أن دارسين آخرين للقديس أنستاسيوس السينائي كانوا يجهلون ملاحظات كمسكو إذ إنهم لم يتكلَّموا عليها. إنَّ الأمر يقتضي بذل جهد كبير، وقد لا يؤدِّي إلى نتائجَ نهائيَّةٍ. ثمَّة مخطوطة كاملة من ‹الرسالة›، ونسبتها الحالية إنما تعودُ إلى القرن الرابعَ عشرَ، لكنَّها في دير كَرَكَلّو في جبل آثوس وتنتظر من يحررها.[8]

إن لغة ‹الحوار› وأسلوبه يبدوان كأنهما يشبهان النسخة اليونانية التي لم تحرر بعد، وهي من نص (Hexaëmeron) للقديس أنستاسيوس، على ما ذهب إليه سرجيوس سكوس الذي اهتم بالمخطوطة. في النص المذكور يشير القديس أنستاسيوس إلى أمر خلق الإنسان الذي شرحه شرحًا وافيًا في (رسالته ضد اليهود). لكن في النص الموجود من ‹الحوار› تظهر الفِقْرَة الدقيقة في الكتاب الأول، وليس في الكتاب الثاني كما ارتأى. إن سَكّوس، الذي افترض أن الرسالتين تعودان إلى القرن التاسع بسبب التاريخ الوارد في ‹رسالة ضد اليهود› ارتأى أنه وضعهما مؤلِّف واحد، وأن القسم الأول من الرسالة الأصلية فُقِد، ونتج من ذلك أن الفِقْرَة المعني بها، التي من المفروض أنها كانت في الكتاب الثاني، ظهرت في الكتاب الأول من النص المعروف. إن هذه الملاحظة بحاجة إلى بحث أعمق.[9]

إن العلاقة بين ‹الرسالة› و‹الحوار› وإلى الأسئلة ( Quaestionis ad Antiochum Ducem) بحاجة أيضًا إلى البحث الجديد الدقيق. في حقيقة الأمر، إن الأعمال البيزنطية الموجهة إزاءَ اليهود أصابها إهمال عام.[10] إن الإشارة إلى الأتراك ليست إضافة أو تحريفًا متأخرين، لكنها جزء من الطريقة التي كان يشار بها في زمن متأخر من القرن السابع إلى الترك (السابقين للبلغار؟) والآفار. وعلى كلٍّ، فإنها تشيرُ إلى العلاقة المتبادلة بين ‹الحوار› ورسالة دينية يونانية أخرى هي رؤيا ميثوديوس/ المكذوبة، التي وضعت أصلاً بالسريانية في أواسط القرن السابع أو أواخره، ثم نقلت إلى اليونانية واللاتينية مع إضافات إليها. إن الإشارة إلى (الترك) والآفار واردة في النسخ السريانية واليونانية واللاتينية، لرؤيا ميثوديوس/ المكذوبة. إن الرؤيا المذكورة تزودنا بنص أطول للفِقْرَة نفسها، لكنها تشير إلى توركوي ( Turkoi – Toüpkoi) على أن الكلمة مرادفة للآفار والقبائل القريبة نسبًا. إنَّ هذا هو الاستعمالُ المألوف في أواسط القرن السابع لذلك الشعب. وهذا القسم يبدو على نحو مقتضب جدًا في الحوار الأنستاسيوسي، الذي لعل مؤلفه أخذه من رؤيا ميثوديوس/ المكذوبة، ومن الممكن أن نَسَّاخًا يونانيًا متأخرًا في الزمن،لم يتمكن من فهْم مصطلح القرن السابع للكلمة (الترك) استعملها لوصف الآفار الذين زالَ وجودُهم، ومن ثمَّ اختصر النصَّ، وبدَّله حيثُ أصبحَ يتَّفِقُ مع الأحوال المتأخرة. إن هذا لا يعدو كونَه تخمينًا لا يحتملُ الاهتمامُ به أبعدَ من ذلك. ومع أنَّ رؤيا ميثوديوس/ المكذوب تعود إلى القرن السابع، فمن غير الواضح هل كانت رؤيلهُ تسبق ‹الرسالة› زمنيًا؟.[11]

وأخيرًا، ثَمَّةَ مشكلةُ السَّنة (670) التي نعثرُ عليها في واحدة من نسختي ‹الحوار› يتعامل معهما إي. سي. مَكْغيفرت، ولكنْ لا توجَدُ في الأخرى: هل هذا التاريخ والتواريخ الأخرى في المخطوطات (670 و 800 و 1070) تعتمد على بعض نصوص أخرى نقل عنها مؤلف ‹الحوار› مادته، أم أنه أورد التاريخ الأصلي؟. إنَّ الباحثينَ الذين جاؤوا فيما بعدُ بدا لهم أنَّ تحليلَ مَكْغيفرت ‹الحوار›؛ أي: تاريخ المخطوطة، كان ينقصه الإقناعُ والصحَّةُ، ولكنهم لم يفكروا هل كان ثَمَّةَ ملابساتٌ تقتضي دراسة ‹الحوار الأنستاسي›؟. مما يكفينا بالنسبة إلى أهداف هذا التحقيق أنه أسس الاحتمال الأغلب لأن يكون القسم من ‹الحوار› الذي يشير إلى حوادث حديثة



تعود إلى القرن السابع المتأخر، ومن ثَمَّ، فإنه يسوِّغ الشك الذي أطلقه من قبلُ كلٌّ من سي. إتش. هَسْكِنْز وإم. كَمُسْكو.[12]

# الاختصارات

| | |
|---|---|
| *AABSC* | *Abstracts, Annual Byzantine Studies Conference* |
| *AB* | *Analecta Bollandiana* |
| *ADAJ* | *Annual of the Department o f Antiquities of Jordan* |
| *ANSMN* | *Museum Notes, American Numismatic Society* |
| *BAR* | *British Archaeological Reports* |
| *BASOR* | *Bulletin o f the American Schools o f Oriental Research* |
| *BCH* | *Bulletin de Correspondance Hellénique* |
| *BGA* | *Bibliotheca Geographorum Arabicorum* |
| *1983 Bilād al-Shām* | Proceedings of the Symposium on Bilad at Sham during the Byzantine Period *(1983 conference papers published* Proceedings *in 1986), ed. 6y Muhammad Adnan Bakhit and Muhammad Asfour. Amman: University of Jordan and Yarmuk University, 1986.* |
| *1985 Bilād al-Shām* | *Proceedings of the Second Symposium on the History of Bilad at Sham during the Early Islamic Period up to Proceedings 40 AH/640 AD. The Fourth International Conference on the History of Bilad at Sham (1985 conference papers published in 1987), ed. by Muhammad Adrian Bakhit. Amman: University of Jordan and Yarmuk University, 1987.* |
| *1987 Bilād al-Sbām* | *Proceedings of the Third Symposium, Fourth International Conference on the History of Bilād-al-Shām Proceedings during the Umayyad Period (1987 conference papers published in 1989), English section, vol. 2, ed. by Muhammad Adnan Bakhit and Robert Schick. Amman: University of Jordan and Yarmuk University, 1989.* |
| *BMGS* | *Byzantine and Modern Greek Studies* |
| *BSOAS* | *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London* |
| *ByzF* | *Byzantinische Forschungen* |
| *Byzsl* | *Byzantinoslavica* |
| *ByzStratos* | *Stεatos, Zia, ed., Βυζάντιον. Ἀφτιέρωμα στόνἈνδέα Στράο.* Byzance. Hommage à Andreas Stratos. Byzantium. Tribute to Andreas Stratos. *2 vols. Athens 1986.* |
| *BZ* | *Byzantinische Zeitschrift* |
| *BHB* | *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae* |
| *CC* | *Corpus Christianorum* |
| *CFHB* | *Corpus Fontium Historiae Byzantinae* |

| | |
|---|---|
| *CJC* | *Corpus Juris Civilis* |
| *CMH* | *Cambridge Medieval History* |
| *CSCO, SS* | *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Scriptores Syri* |
| *CSEL* | *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum* |
| *CSHB* | *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae* |
| *CT* | *Codex Theodosianus* |
| *DMA* | *Dictionary of the Middle Ages* |
| *DOCat* | *Grierson, P., Catalogue of the Byzantine Coins in the Dumbarton Oaks Collection and in the Whittemore Collection* |
| *DOP* | *Dumbarton Oaks Papers* |
| *DRBE* | *Freeman, Philip and David Kennedy, eds., The Defence of the Roman and Byzantine East* |
| *EHR* | *English Historical Review* |
| $EI^1$ | *Encyclopedia of Islam, first edition* |
| $EI^2$ | *Encyclopedia of Islam, second edition* |
| *EJ* | *Encyclopedia Judaica* |
| *EO* | *Echos d'Orient* |
| *HSCP* | *Harvard Studies in Classical Philology* |
| *IEJ* | *Israel Exploration journal* |
| *JAOS* | *Journal of the American Oriental Society* |
| *JÖB* | *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik* |
| *EJESHO* | *Journal of the Economic and Social History of the Orient* |
| *JRS* | *Journal of Roman Studies* |
| *JSAI* | *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* |
| *Just. Nov.* | *Justinian* 1, Novellae, *vol. 3, Th. Mommsen, ed.* Corpus Juris Civilis |
| *LA* | *Liber Annuus Studium Biblicum Franciscanum* |
| *MGH* | *Monumenta Germaniae Historica* |
| *NC* | *Numismatic Chronicle* |
| *ND* | *Notitia Dignitatum* |
| *OCP* | *Orientalia Christiana Periodica* |
| *PEF Palestine* | Palestine from the Surveys Conducted for the Committee of the Palestine Exploration Fund. *Compiled by George Armstrong and revised by Charles. W. Wilson and Maj. C. R. Conder. London: Stanford's, 1900* |
| *PG* | *Migne, Patrologia Graeca* |
| *PL* | *Migne, Patrologia Latina* |
| *PLRE* | *Prosopographia of the Later Roman Empire* |
| *PO* | *Patrologia Orientalis* |
| *RbK* | *Realexikon zur byzantinischen Kunst* |
| *RE* | *Paulys Realencyclopaedie der classischen Altertums-wissenschaft* |
| *REArm* | *Revue des Etudes Arméniennes* |
| *REB* | *Revue des Etudes Byzantines* |
| *ROC* | *Revue de l'Orient Chrétien* |
| *ROL* | *Revue de l'Orient Latin* |
| *Σύμμεικτα* | *Σύμμεικτα, Ἐθνικόν Κέντρον Βυζαντινῶν Σπουδῶν (Athens)* |
| *TAPA* | *Transactions of the American Philological Association* |
| *Theoph., Chron* | *Theophanes, Chronographia, ed. By De Boor* |
| *TM* | *Travaux et Mémoires, Paris* |
| *VV* | *Vizantiiski Vremennik* |



| | |
|---|---|
| *ZDMG* | *Zeitschrift der deutschen Morgenländischen Gesellschaft* |
| *ZDPV* | *Zeitschrift des Deutschen Palästinas-Vereins* |
| *ZRVI* | *Zborník, Radova Vizantološki Institut, Srpska Akad. Nauk., Belgrade* |

# الهوامش

## 1) مشكلة بيزنطة والفتوحات الإسلامية

01 Kekaumenos, Sovet'I I Razzkaz'I Kekavmena, ed. And trans. By G. G. Litavrin
(Moscow: Nauka, 1972) 298.

02 Most notably, the terse information in the Greek chronicles of Theophanes and Nicephorus, and those written in Syriac.

03 Sebēos, Histoire d'Héraclius, trans. By F. Macler (Paris 1904). R. W. Thomson and Nina Garsoian have discovered many errors in the old Macler translation ; there is a new critical edition of the Armenian text: Pamut'iwn Sebeosi, ed. By G. V. Abgarian
(Yerevan: Acad. Arm. SSR, 1979) .And a translation by Robert Bedrosian, Sebēos' History (New York : Sources of the Armenian Tradition , 1985). See : Mesrob K. Krikorian , "Sebēos, Historian of the Seventh Century," and Zaven Arzoumanian," A Critique of Sebēos and his history of Heraclius, a Seventh-Century Document, ' in : *Classical Armenian Culture : Influence and Creativity* , ed. By Thomas J. Samuelian (University of Pennsylvania Armenian Texts and studies), 4 {Philadelphia: Scholars Press, 1982} 52-67-, 68-78.

04 Sebēos, Hist. C. 30 (102 Macler); cf. Heinrich Hűbschmann,Zur Geschichte Armeniens und der ersten Kriege der Araber (Leipzig 1875) 18, n.3.

05 Ghevond or Levontius, History of Lewond the Eminent Vardapet of the Armenians, trans. And comment. By Zaven Arzoumanian (Wynnewood, PA 1982).

06 Levon Avdoyan, "Pseudo-Yvohannēs Mamikonean's" History of Taron': (Historical PH. D. diss., Columbia University, 1985) c. Lvii, pp. 212-20, 49-55.

07 Suda = Suida, s.v., " Traianos," ed. By A. Adler (Leipzig 1935) 4: 582 . Theophanes A. Proudfoot, "Sources of Theophanes" esp. 426-38; Cyril Mango , "Who Wrote the Chronicle of Theophanes? , " ZRVI 18 (1978) 9-18; P. Speck, Das geteilte Dossier (Bonn 1988) for an elaborate and complex analysis and most bibliography; Telemachos Loungis, (Athens 1981) 49-85, makes some useful points. Cyril Mango, Introduction to his edn of Nicephorus, Patriarch of Constantinople, *Short History* (Washington : Dumbarton Oaks, 1990) 8-18.

08 *Menander Rhetor,* ed. Trans., and comment. By D. A. Russell, Nigel Wilson (Oxford : Oxford University Press, 1981) esp. 84-7.

09 Michael Whitby, The Emperor Maurice and His Historian (Oxford: Clarendon, 1988), and David Olster, The Politics of Usurpation in the Seventh Century : Rhetoric and Revolution in Byzantium (Hakkert, 1993) on a conscious historiographical skewing of the respective reigns

of Maurice, Phocas, and Heraclius to the benefit of the last emperor and his dynasty. W.H.C. Frend, Rise of the Monophysite Movement (Cambridge: Cambridge University Press, 1972); Friedhelm Winkelmann, "Die Quellen zur Erforschung des monoenergetisch – monotheletischen Streites," Klio 69 (1987) 515-59 .

10 Kaegi, "Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest, 'ASRB (this edn preferred).

11 Fredegarius, Chronicon, ed. By Bruno Krusch, MGH Scriptores Merovingicarum, T. 2 (Hanover 1888) ; and Continuations Isidorianae Byzantia Arabica et Hispana, ed. By T. Mommsen, MGHAA, T. 11,CM2: 334-69 ; Cronica mozarabe de 754. Edicion critica y traducciÓn , ed. By Jose Eduardo López Pereira (Zaragoza 1980) ; Jose Eduardo López Pereira, Estudio critico sobre la cronica mozarabe de 754 (Zaragoza 35-6, 95-9.

12 Doctrina Lacobi nuper baptizati ed. By N. Bonwetsch, Abbandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenscgaften zu Göttingen, Philologisch-Historische Klasse n.s. vol. 12, no. 3 (Berlin 1910). Vincent Déroche, "L'Autenticité de l'Apologie contre les Juifs ' de Léontios de Néapolis," BCH 110 (1986) 661, rightly dates it shortly after 634, as does P. Crone, Hagarism (Cambridge 1977) 3-4: Sophronius," Weihnachtspredigt des soph-ronios," ed. By H. Usener, Rheinisches Museum fÜr philologie n.s. 41 (1886) 500-16.

13 Jones, LRE vi

14 Das Heerwesen der Muhammadener, ed. By F. Wüstenfeld (Göttingen 1880).

15 Die Apokalypse des Ps.-Methodios and Die dritte und Redaktion des Ps.-Methodios both ed. By Anastasios Lolos (Meisenheim am Glan :Verlag anton Hain, 1976, 1978). Translations of Syriac: P. J. Alexander , The Byzantine Apocalyptic Tradition (Berkeley 1985) 36-51; critical edn, trans., and comment. By Francisco Javier Martinez, "Eastern Christian Apocalyptic in the Early Muslim Period" (Washington, DC: Catholic University of America, 1985); Herald Suermann, Die geschichtheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7. Jahrhunderts (Frankfurt, Bern, New York : Peter Lang, 1985). Cf. David Olster, Roman Defeat, Christian Response, and the Literary Construction of the Jew (Philadelphia: University of Pennselvania Press, 1994). I look forward to the researches of Bernard Flusin on St. Anastasius the Persian.

16 Balādhurī, Kitāb Futuḥ al-Buldān, ed. By M. J. De Goeje (Leiden: Brill, 1866; repr), henceforth cited as Balādhuri.

17 Edition : Abū Ja'afar Muhammade b. Jarir al-Tabari, Ta'rikh al-rusul wa l'muluk (Annales), ed. By M. J. De Goeje et al., 15 vols. (Leiden: brill, 1879-1901; repr. 1964); basic is Franz Rosenthal, the History of al-Tabari, 1: General Introduction (Albany: State University of New York Press, 1989) 5-134, see translations in this and succeeding vols. Also, Ahmad b. Abi Ya'qub al-ya'qubi, Ta'rikh, ed. By M. Th. Houtsma , 2 vols. (Leiden: Brill, 1883). Literature: L. I. Contrad, s.v., "Ya'qubi, al-," DMA 12 (1989) 717-18.

18 Abu Muhammad Ahmad b. A'tham al-Kufi, Kitab al-futuh ("Book of Conquests"), ed. By M. 'Abdul Mu'id Khan, 8 vols. (Hyderabad 1968-75), but note wholly anachronistic reference to Malik al-Rusiya in 1:265; Muhammad Ibn Sa'd, Kitab al-Tabaqat al-Kabir, ed. By Eduard Sachau, et al., 9 vols. (Leiden: Brill, 1904-40), henceforth cited as Tabaqat; Ibn Khayyat al-'Usfuri, Ta'rikh, ed. By Akram Diya' al-Umari, 2 vols. (Beghdad: al-Najaf, 1967); Abu 'Ubayd al-Qasim b. Sallam, Kitab al-amwal, ed. By Muhammad Khalil Haras (Beirut: Dar al-kuttub al-Almiyya, 1986); al-fasawi {incorrectly listed as al-Basawi in the published book}, kitab al-ma'rifa wa'l ta'rikh, ed. By A. D. al-



Umari, 3 vols. (Baghdad 1974-6).

19 L. Caetani, Al. M. J. De Goeje, Mémoire sur la conquete de la Syrie, no. 2 in : Mémoires d'histoire et de géographie orientales, 2nd edn (Leiden: E. J. Brill, 1900), cited as Mémoire 2.

20 N. A. Miednikov, Palestina ot zavoevaniia eia arabami do krestov'ich pochodov po arabskim istochnikam. 2 T. in 4 vols. (St. Petersburg 1897, 1907); J. Welhausen, Skizzen und Vorarbeiten, vol. 6 (Berlin : Reimer, 1899).

21 Albrecht Noth, "Die literarisch Überlieferten Verträge der Eroberungszeit als historische Quellen für die Behandlung der unterworfenen Nicht-Muslims durch ihre neuen muslimischen Oberherren," Studien zum Mindeheitenproblem im Islam, 1: Bonner Orientalische studien n.s. 27/1 (1973) 282-314; Noth, Quellenkritische Studien zu Themen, Formen, und Tendenzen (frübislamischer Geschichtsüberlieferung (Bonn: Selbstverlag der Orientalischen Seminars der Universität Bonn, 1973).

22 A. A. Duri, The Rise of Historical Writing among the Arabs, trans by Lawrence I. Contrad (Princeton: Princeton University Press, 1983); Fred M. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton: Princeton University Press, 1981), and "The Problem of Early Arabic Historiography in Syria," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1: 1-27.

23 f. Rosenthal , A History of Muslim Historiography, 2nd edn (Leiden: Brill, 1968) esp. 30-197. F. Sezgin, Gesch. Der arabischen Literatur, vols. 1-2, and suppls. 1-3 (Leiden 1943-9); M. G. Morony, Iraq after the Muslim Conquest (Princeton 1984) 537-75; Morony, "Sources for the first Century of Islam, "Middle East Studies Association Bulletin 12, no. 3 (1978) 19-28; Marsden Jones," The Maghāzi Literature, 'in: Arabic literature to the End of the Umayyad Period. The Cambridge History of Arabic literature (Cambridge: Cambridge University Press, 1983) 344-51. I offer only limited reference to transmitters of Muslim traditions preserved in Arabic texts.

24 M. J. De Goeje, Mémoire sur le Foutouh's-Scham attribué à Abou Ismail al Bacri. Mémoires d'histoire et de géographie orientales, no. 2 (Leiden: E. J. Brill, 1864), henceforth cited as Mémoire1 .

25 Al-Azdi al-Basri, Ta'rīkh futuh al-Sham, Amir edn (Cairo 1970); older edn: William Nassau Lees, The Fotooh al-Sham, Being an Account of the Muslim Conquests in Syria, with a few Notes (Bibliotheca Indica, 84, 85, Calcutta 1854-7); I. Conrad. "Al-Azdi's History of the Arab Conquests in Bilād-al-Shām: Some Historiographical Observations, '1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1: 28-62.

26 Caetani, Al 2: 1149 ; 3: 205-10, 578-83.

27 Azdi 175. Tanukh: al-Tabari 2081 ; I. Shahid, BAFOC 455-9.

28 Azdi 28.

29 W. Pohl, Die Awaren (Munich: beck, 1988); P. Golden, Khazar Studies. Bibliotheca Orientalis Hungarica, 25/1-2 (Budapest: Akademiai Kiado, 1980) 1: 34, 36; G. Moravcsik, Byzantinoturcica, 2nd edn (Berlin: Akademie Verlag, 1958) 1:70-6; De Goeje, Mémoire1 29, 38-9; cf. Pseudo-Methodius 10, in: Martinez . "Eastern Christian Apocalyptic" 139.

30 Sebēos c. 30 (124 Bedrosian, 96 Macler) ; Azdi 28 ; Ghevond (29 Arzoumanian ; Kufi 1: 100-1).

31 Sebēos c. 30 (96 Macler, 124 Bedrosian) ; Azdi 29 .

32 Azdi 31; al-Tabari (sayf) I 2104 ; Ibn al-Athir 2:311, 317-18.

33 Azdi 28-9, 31 Kufi 1: 100-1; cf. Al-Tabari I 2086 ; Ibnal-Athir (2:311 Tornberg).

34 W.E. Kaegi, Jr., "Two Studies in the Continuity of Late Roman and Byzantine Military Institutions," ByzF 8 (1982) 87-113; R.-J. Lilie, "Die zweihundertjahrige Reform. Zu den Anfangen der

Themenorganisattion," Byzsl 45 (1984) 27-39; John Haldon, Byzantium 208-51.

35 Theoph., Chron., AM 6126, 6128 (338, 340 De Boor) Kufi 1:100-1.

36 Azdi 84. Wardan may be identical with Artabun in al-Tabari I 2398-400, and Ibn al-Athir 2:387. Syriac references to B{R}YRDN: Chronicon miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens, trans. By J. B. Chabot (CSCO, Script. Syri, ser. 3, T. 4 {Louvain 1903-5}, Versio114); "Extract from a chronicle finished in AD 641, "Palmer, Chronicles, part 1, text 2: AG 945; cf. Th. Nöldeke, Die ghassanischen Fursten (Berlin: Abhandlungen Preusse, Akad. D. Wiss., 1887) 45 n. 3; Caetani, AI 2: 1144-5.

37 Al-Ya'qubi, Kitab al-Buldan, ed. By M. J. De Goeje, Bibliotheca Geographorum Arabicorum (leiden : E. J. Brill, 1892 ; repr., 1967) : 323 ; William G. Millward, " A Study of al-Ya'qubi with Special Reference to His Alleged Shi'a Bias" ( unpub. Ph.D.diss., Princeton University , 1961 ) 7, 17-18. Ahmad Shboul, al-Masudi and His World (London: Ithaca Press, 1979) 227-83.

38 A. A. Vasiliev, M. Canard, H. Grégoire, Byzance et les arabes, 2 vols. (Brussels 1935-50 ).E.W. Brooks, "The Arabs in Asia Minor (641-750), from Arabic Sources," JHS 18 (1898) 182-208; J. Wellhausen, "Die Kampfe der Araber mit den Romaern in der Zeit der Umaijiden, 'Nachrichten d. Kgl. Ges. D. Wiss. (Gottingen 1901) 414-47; R-J. Lilie. Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber (Munich 1976); Hugh Kennedy, "From Polis to Madina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria," Past and Present 106 (1985) 3-27, and "The Last Century of Byzantine Syria: A Reinterpretation," ByzF 10 (1985) 141-84; Demetrios J. Constantelos, "The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and the Eighth Centuries," Byzantion 42 (1972) 325-57.

39 Ibn 'Abd al-Hakam, Futuh misr, ed. By C. Torrey (New Haven : Yale, 1922) 76.

40 Heraclius consults others e.g., Jabala b. al-Ayham, Kufi 1:126-32; cf 1:302-10. Others advise Heraclius : Kufi 1:218-21.

41 Heraclius yields to pressures: Azdi 92, 106, 139, 152. Ibn 'Asākir 1: 531-2. Cf. Baladhurī 123; al-Tabari (Sayf) I 2102 ; Kufi 1:218-21; but al-Tabari i 2152.

42 Azdi 44, 150-1; Ibn 'Asākir 1:477.

43 Al-Tabari (Sayf) i2103; al-Tabari (Ibn Ishaq) i 2349; Theoph. Chron., AM 6128 (337-8, 340 De Boor).

44 Unless the Muslims learned of Heraclius; role from Christian Arabs or prisoners who had served in the Byzantine armies, or from captured Byzantines, who were numerous, or from desedters such as the Persian Niketas, son of Shahrbaraz.

45 Heraclius wants to leave Syria: Kufi 1:219-20; Ibn 'Asākir 1:531; Histoire Nestorienne/Chronique des Séert c. 106, ed. By Addai Scher, PO 13: 627 ; al-Tabari (Sayf) I 2102.

46 Kufi 1:126-8, esp. 128.

47 Ibn 'Asākir 1: 473. Waqidi 3: 1018-19. Fredegarius, chron. 4.65 (153 Krusch).

48 Heraclius keeps distance from fighting: Baladhurī 113-15, 123; Azdi 29; Ibn 'Asākir 1:477, 531-2, 548-51. Ibn al-Athir (2:317-18 Tornberg) al-Tabari I 2086, 2103, 2104, 2395 . Kufi 1: 101.

49 Azdi 150-2, 234-6; Kufi 1:175,218-21, 305 Anbat spies for Muslims: Waqidi 990; their identity: Gérard Troupeau, "La Connaissance des Chrétiens syriaques chez les autres arabo-musulmans," Orientalia Christiana Analecta 221 (1983) 274-5. Ghassanid and others Arab spies: waqidi 1018-19; Ibn Askari 473 ; Azdi 39; Kufi 1:144. Samaritans: Baladhurī 158.



50 J. Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten 6: 85-9, criticizes reports of a vast role Mesopotamia and Syria for troops from Iraq; best on itinerary of Heraclius and Muslims is Caetani, Al vols. 2-4.

51 Waqidi 760, 990.

52 Heraclius orders closing of gates: Ibn 'Asākir 1:474. Cf. Chron. Ad 1234 pertinens c. 107 (Brooks, CSCO, Script. Syri, ser. 3, T.14, Versio, p. 188); Heraclius' warning to Christians to guard cities= Palmer, Chronicles, part 2, text 13: c. 48.

53 W. E. Kaegi, Jr., "The Crisis in Military Historiography," Armed forces and Society 7 (1981) 299-316.

54 Theoph., Chron., AM 6124 (ed. By C. De Boor {Leipzig 1883} 336); Bernard Lewis, "Usurpers and Tyrants: Notes on Some Islamic Political Terms," Logos Islamikos. Studia Islamica In Honorem Georgii Michaelis Wickens, ed. By Roger M. Savory, Dionysius A. Ahius (Papers in Mediaeval Studies, 6 [Toronto: Pontifical Institute of Mediaeval Studies, 1984]) 260, on Futuh, in Arabic. Theophanes may have indirectly taken his terminology from an oriental, even ultimately a Muslim, source.

55 John W. Jandora, "Developments in Islamic Warfare: The Early Islamic Conquests," Studia Islamica 64 (1986) 101-13, emphasizes the neglected positive martial qualities of the beduin, including their ability to fight on foot, yet he ignores much primary and secondary sources material.

56 Walter Kaegi, "Byzantine Egypte during the Arab Invasion of Palestine and Syria: Some Obser-vations," American Research Center in Egypt Newsletter 121 (Spring 1983) 1-15; Alfred Butler, The Arab Conquest of Egypt, revised by P. M. Fraser (Oxford: Oxford University Press, 1978).

57 A. Stratos, 6 vols. (Athens: Esria, 1965-77), which has an English translation, Byzantium in the Seventh Century, Trans. By M. Ogilvie-Grant et al., 5 vols. (Amsterdam and Las Palmas: hekkert, 1968-80). The original Greek text will normally be cited in this book: Shahid, BAFOC, BAFIC.

58 I basically agree with F. Donner, EIC 142-6. Too optimistic is Era Vranoussi, Byzantino-Arabica, (1979) 1-28. Cf. Michael G. Morony, Iraq After the Muslim Conquest 537-654.

59 Ibn 'Abd al-Hakam, The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain Known as the Futuh Misr of Ibn 'Abd al-Hakam, ed. By C. C. Torrey (Yale Oriental Series, Researches, III {New Haven: Yale, 1922}).

60 So Professor A. Voobus informed me before his death. Cf. S.P. Brock, "Syriac Sources for Seventh-century History," BMGS 2 (1976) 17-36; Brock, "Syriac Views on Emergent Islam," in: Studies on the First Century of Islamic Society, ed. By G. H. A. Juynboll (papers on Islamic History, 5 [Carbondale: Southern Illinois University Press, 1982 ]) 9-22.

61 Witold Witakowski, The Syriac Chronicle of Pseudo-Dionysius of Tel-Mahre. A Study in the History of Historiography (Acts Universitatis Upsaliensis. Studia Semitica Upsaliensia, 9 [Uppsala 1987]); Palmer, Shadow, General Introduction, and Note on Chronology.

62 Ella Landau-Tesseron, "Sayf Ibn 'Umar in Medieval and Modern Scholarship, "Der Islam 67 (1990) 1-26.

63 Donner, EIC; Michael Morony, Iraq after the Muslim Conquest; A. I. Kolesnikov, Zavoevaniye Irana arabami (Moscow : Nauka, 1982).

64 Ahmad 'Adil Kamal, Tariq Ila Dimashq (Beirut: dār al-Infāsh, 1982), contains unsubstantiated chronology; problems beset it and Mustafa Talas, Sayf Allah, Khaled ibn al-Walid (Damascus 1978). Both authors provide imaginative reconstruction's of events, but they make very little

use of non-Arabic sources and their perspectives are narrow.

65 Completely inadequate are M. Cheira, La Lutte entre arabes et byzantins. La Conquete et l'organisation des frontière aux VIIe et VIIIe siècle (University of Paris doctoral thesis publ. In Alexandria by Société des Publications égyptiennes, 1947); Fathi 'Uthman, al-ḥudud al-Islamiyya al-Bizantiyya, 3 vols. (Cairo1967).

## 2) الامبراطورية البيزنطية في زمن تطور متسارع

01 Chronicon Paschale, ed. By L. Dindorf ( Bonn: CSHB, 1832) 1:728.

02 Angelo Pernice, L'Imperatore Eraclio (Florence: galletti and Gocci, 1905); N. H. Baynes, "The Military Operations of Emperor Heraclius," United Service Magazine n.s. 46 (1913) 526-33, 659-66; 47 (1913) 30-8, 195-201, 318-24, 401-12, 532-41, 665-79; A. Stratos, -(Athens: Estia, 1965-9) vols. I-III.

03 Lawrence I. Conrad, "The Plague in Early Medieval Near East" (unpub. Ph.D. diss. In Near Eastern Studies, Princeton University, 1981) 83-166. The demographic effects of the Persian invasion in Palestine were uneven, but in Anatolia, they were traumatic: C. Foss, "The Persians in Asia Minor and the End of Antiquity," HER 90 (1975) 721-47; Wolfram Brandes, Die Stade Kleinasiens im 7. Und 8. Jahrbundert (Berlin: Akademie-Verlag, 1989) 44-52. Dissents: James Russell, "Transformations in Early Byzantine Urban Life: The Contribution and Limitations of Archaeological Evidence," Major Papers, The 17th International Byzantine Congress (New Rochelle, NY: Caratzas, 1986) 137-54; Frank Trombley, "The Decline of the Seventh-Century Town: The Exception of Euchaita," Byzantine Studies in Honor of Milton V. Anastos, ed. By Speros Vryonis, Jr. (Malibu 1985 )65-90; but A. P. Kazhdan, "The Flourishing City of Euchaita?," AABSC 14 (1988) 4.

04 Julius Beloch, Die Bevolkerung der griechisch-römischen Welt (Leipzig: Von Duncker und Humblot, 1886) 242-9; F. M. Heichelheim, in Tenney Frank, Economic Survey of Ancient Rome (Baltimore: Johns Hopkins, 1938 (4:158-9. I thank Richard Saller for help on demography.

05 High estimate: M. Avi-Yonah, s.v. "Palestina," RE, Suppl. 13: 430; cf. Magen Brochi, "The Population of Western Palestine in the Roman-Byzantine Period," BASOR 236 (1979) 1-10.

06 Collin McEvedy, Richard Jones, Atlas of World Population History (London: Allen Lane, 1978) esp. 110-12, 115,135-6,138-40, 143, 220, 226-7, whose estimate are only indications and cannot be accepted as rigorous figures.

07 Joshua Starr, "Byzantine Jewryon the Eve of the Arab Conquest," Journal of the Palestine Oriental Society 15 (1935) 280-93 ; A. Sharf, "Byzantine Jewry in the Seventh Century," BZ (Oxford 1978) lxiv-ixxviii, for bibliography; Lorenzo Perrone, La Chiesa di Palestina e le controuversite cristologiche. Dal concilio di efeso (431) al secondo concilio di Costantinopoli (553) (Brescia: paideia Editrice, 1980).

08 It is, of course, dangerous to argue from silence. Kaegi, BMU 64-88, on the situation in the fifth and sixth centuries.

09 Increased references to Armenians: Michael E. Stone, "Holy Land Pilgrimage of Armenians before the Arab Conquest," Revue Biblique 93 (1986) 93-110,; F. Nau, "Le Texte grec des récites du moine Anastase," Oriens Christianus 2 (1902) 81-2, also 78. Note a Musele among the last defenders of Gaza : H. Delehaye, " Passio Sanctorum LX Martyrum," AB 23 (1904) 303.

10 Evagrius, HE 3.41, ed. By J. Bidez and L. Parmentier (London 1898) 143-4.



11 Paul Goubert, Byzance avant l'Islam (Paris 19500 1:23-7, 269-72.

12 Kaegi, BMU 118-19. Too favorable to Maurice is Michael Whitby, The Emperor Maurice and His Historian (Oxford: Clarendon, 1988).

13 A. H. M. Jones LRE vi; Philip Freeman and David Kennedy, eds., DRBE, for various contributions; W. E. Kaegi, "Variable Rates of Change in the Seventh Century," in: Tradition and Innovation in Late Antiquity, ed. By Frank M. Clover and R. S. Humphreys (Madison: University of Wisconsin Press, 1989) 191-208.

14 W. E. Kaegi, Jr., "New Evidence on the Early Reign of Heraclius," ASRB esp. 319-30; David Olster, The Politics of Usurpation in the Seventh Century (Hakkert, 1993); Judith Herrin, The Formation of Christendom (Princeton 1987).

15 Theophylact 4.13.9 (121 Whitby); Whitby, The Emperor Maurice and His Historian esp. 39-51, 309-58.

17 Doctrina Lacobi nuper baptizati (63,77 Bonwetsch).

18 Nicephorus, Short History 6.42-3 (47 Mango).

19 Doctrina Lacobi nuper baptizati (70 Bonwetsch) ; Acta m. Anastasii Persa (12-12 Usener); Pantaleon, "Un discours inédit du moine Pantaléon l'élévation de la Croix BHG 427 p., "ed. By F. Halkin, OCP 52 (1986) 257-70; Mentality of victory and Triumph : Michael McCormick, Eternal Victory , Triumphal Rulership in Late Antiquity, Byzantium, and the Early Medieval West (Cambridge : Cambridge University, Press, 1986) , esp. 193-6.

20 Kaegi, "New Evidence on the Early Reign of Heraclius, " Pasim.

21 Continuity: George's Tate, "A propos des campagnes de la Syria du Nord (Iie-Vie siècles). Une tentative d'histoire sérielle," Géographie historique du monde méditerranéen, ed. By Hélène Ahrweiler (Paris: Sorbonne, 1988) 207-13.

22 M. Avi-Yonah, s.v. "Palestina," Reservation Dep., Suppl. 13 (1974) 321-454. Le Synekdèmos d'Hieroklès et l'Opuscule géographique de Georges de Chypre, ed. And trans. By E. Honigmann (Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae, forma Imprerii Byzantini, 1 [Brussels 1939]) 49-50, 66-8, for George of Cyprus, c. 600, and pp. 41-4, for the sixth-century synekdemos. F. Abel, Histoire de la Palestine (Paris: Librairie Lecoffre, 1952) 2: 388-93 on period of Persian invasion and occupation; 2:393-406 on Muslim invasion and conquest. Acta M. Anastasii Persae, Thaumata14 (26 Usener). Old nomenclature for provinces of Palestine : Baladhurī 109; Kaegi, "Notes on Hagiographic Sorces for some Institutional Changes and Continuities in the Early Seventh Century, " Byzantina 7 (1975) 59-70; Kaegi , "Some Seventh-century Sources on Caesarea , "IEJ 28(1978)177-81; repr., ASRB.

23 Patricius: al-Tabari 2081, 2088, 2108, 2112; see I. Kawar {Shahid}, s.v. "Bitrik,"EI2 1:1249-50. Cubicularius: Ibn Asākir 1:476 Munajjid; al-'Usfuri 1:87; al-Tabari I 2125, 2126 Zacos/Veglery, BLS contains a Baavns who is cubicularius (no. 566) and another (no 1086) imperial chartoularios. But another Seventh-Century Baanes has the title on a seal (no. 2381) (magister militum?) there is no conclusive identification here. It may be tempting to identify one of these Seventh-Century seals with the Vahan who commanded at Yarmuk, but that identification cannot be confirmed. Drungarius: al-Tabari I 2108, 2127 Azdi 107, 210; Buccinator (Ibn al-Qanatir): Azdi 210; Theoph., Chron., AM 6146 (345-6 De Boor). Sakellarios: Ibn 'Askakir 1:531; al-Usfuri 1:100; al-Tabari I 2158, 2347, 2349 Vicarius: al-Tabari I 2087; Ibn al-Athir 2:311 Tornberg; Theoph. Chron., AM 6123 (335 De Boor).

24 Kaegi, "Two studies in the Continuity of Late Roman and Byzantine Military Institutions," esp., 90-8. The reservations of J. Haldon in Byzantine Praetorians (Bonn 1984) 627-8 deserve rejection because of the improbability of the "Scouts" being entrusted with the meting down

of the bronze ox of Constantinople, where the excubitores normally were located; secondly the occupation of the site of the Forum of the Ox by the excubitores in official ceremonies, as cites in the De Ceremoniis of Constantine VII Prophyrogenitus, is important additional roof for their participation in the destruction of the bronze ox, which their ceremonial post memorialized, "Middle-Byzantine Provincial recruits: Salary and Recruits," in: Gonimos. Neoplatonic and Byzantine Studies Presented to Leendert G. Westerink at 75, ed. By John Duffy and John Peradutton (Buffalo, NY: Arethusa, 1988) 135 n. 38; Paul Speck, "War Bronze ein Knappes Metall?," Hellenika 39 (1988) 3-17.

25 Vie de Théodore de Sykéôn c. 152.4-9, ed. And trans. By A.J. Festugière 9 Subsididia Hagiographica, 48 {Brussels 1970} 1:121-2).

26 R.M. Price. "The Role of Mlitary Men in Syria and Egypte from Constantino to Theodosius II" (unpub. D. Phil., Oxford, 1974) 375, cf. P. 71; V. Chapot, La Frontière de l'Ephrate (Paris 1907).

27 Parastaseis Syntomoi Chronikai 42, ed. And trans. By Av. Cameron, J. Herrin, et al., Constantinople in the Eight Century (Leiden: brill, 1984 ) 114-17, 228-30 ; Kaegi , "Two Studies" 90-8, Kaegi, " late Roman Continuity " 53-61.

28 Roman soldiers already had begun to possess land in considerable quantities by the third century, although there is a debate whether they simply owned it or personally engaged in the labor of cultivating it : Lothar Wierschowski , Heer und Wirtschaft. Das romische Heer der Prinzipatenzeit als Wirtschaftsfaktor ( Bonn : Habelt, 1984 ) 74-88.

29 Theoph., Chron., AM 6125-6 (337-8 De Boor). Cf. N. Oikonomides, Les Listes de présénce Byzantine des Ixe et Xe siècles (Paris 1972) 312. Narses as sakellarios : Procopius, Bella 1.15.31, 6.13.16 Yet Oikonomides , "Middle Byzantine Provincial Recruits : Salary ans Recruits" 135.

30 See Literature in: W. E. Kaegi, "The Annona Militaris in the Early Seventh Century," Byzantina 13 (1985) 591-6, and "Variable Rates of Change" 196-200; Haldon, Byzantium 179, 223-32; Jean Durliat, Les Finances publiques de Diocletian aux Carolingians (Sigmaringen: Jan Thorbecke, 1990) 5-25.

31 Jones, LRE 207-8, 235, 254, 258, 326, 448, 460-1, 566; André Cerati, Caractère annonaire et assiette de l'impôt foncier au Bas-Empire (Paris: Librairie générale de droit et de jurisprudence, 1975) 153-89; Philip Mayerson, "The Beersheba Edict," ZPE 64 (1986) esp. 142-3. M. Hendy, studies in the Byzantine Monetary Economy, c. 300-1450 (Cambridge: Cambridge University Press, 1985) 646, argues that annonae and capitus "were by the sixth century largely adaerated according to customary rates," see also pp. 647-8, 165-7, 294-5. The drain on cash which Hendy believes, p. 647, to have been so heavy that emperor Maurice had to try to reduce it, could have been changed in several ways, one of which was simply to resort to less adaeration, and pay the ration in kind. This may not have been the general solution to the cash problem, but in the reign of Heraclius, to judge by Muslim sources, some actual payment in kind of ration allowances took place in some areas. The answer to the cash drain was not wholesale land grants at that time. N. Oikonomides, "Trade and Production in Byzantium from the Sixth to the Ninth Century," DOP 40 (1986) 35, n.12.

32 Carl. H. Becker, Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam (Strasburg 1902) 83-5.

33 J. Maspero, Organisation militaire de l'Egypte byzantine (Paris: Champion, 1912) 112, esp. n. 10; cf. Kosei Morimoto, The Fiscal Administration of Egypte in the Early Islamic Period (Kyoto : Dohosha, 1981) 40-113.

34 Monetary incentives for Byzantine troops: Azdi 152 (100,000 gold



pieces) Eutychius, Ann 278-9 (135-7 Breydy edn., 114-15 Breydy trans.) implied in the appointement of Theodore the sakellarios or treasurer to command Byzantine troops: Theoph., Chron., AM 6125-6 (337-8 De Boor); Nicephorus, Hist. 20 (68-9 Mango). Failure to pay Arab allies of Byzantium their expected stipends: Theoph., Chron., AM 6123 ( 335-6 De Boor).

35 Jean Durliat, "Moneta e stato nell'impero byzantino," in: La cultura bizantina Oggetti e messagio. Moneta ed economia, ed. By André Guillou (Rome: L'iErma di Bretschneider, 1986) 179-200; Durliat, "Le Salaire de la paix sociale dans les royaumes barbares (Ve-Vie siècles)," and Walter Goffart, "After the Zwettl Conference: Comments on the Techniques of Accommodation," in: Herwig Wolfram and Andreas Schwarcz, eds., Anerkennung und Integration 30-2, 35, and 73-6.

36 Assignment of the defense of the Barbalissos (medieval Balis region in northern Syria) to two brothers: Baladhurī 150; Ramsay MacMullen, Corruption and the Decline of Rome 122-97, on "privatization" of military defense and the negative consequences.

37 Syria: Baladhurī 125, 131. Mesopotamia : Baladhurī 125, 173, 178.

38 Miracula, Acta M. Anastasii Perse c. 13 (25 Usener) Cf. Excavations at Nessana, vol. III, no. 79, line 59 , on p. 230.

39 CT 7.4.4-11, 7.4.23; Cj 12.37.1; Vegetius, Epitome rei militaris 3.3. L. Foxhall and H. A. Forbes, "(Σιτομερεία): The Role of Grain as a Staple Food in Classical Antiquity," Chiron 12 (1982) 41-90.

40 Vexatious questions about the origins of Islamic taxation: C. Cahen, s.v., "Djizya," "Kharadj" in EI2 2: 559-62; 4:1030-4; Werner Schmucker, Untersuchungen zu einigen witchtigen bodenrechtlichen Konsequenzen der islamischen Eroberungsbewegung (Bonn 1972).

41 A. North "Die Literarisch uberlieferten Vertrage der Eroberungszeit," Studien zum Minderheiten-problem im islam (Bonner Orientalische Studien n.s. 27/1, 1973) 1: 297-301 .

42 Parastaseis Syntomoi Chronikai 42 (114-17 Cameron-Herrin); Theoph., Chron., AM 6113 (1:302-3 De Boor) W.E. Kaegi, "Two studies" and "Late Roman Continuity in the Financing of Heraclius Army," XVI. Internationaler Byzantinistekongress Akten II/2 (Vienna 1981 {=JOB 32/2}) 53-61; cf. Nicholas Oikonomides, "Middle Byzantine Provincial Recruits: Salary and Armament," Gonimos 135, and Speck, "War Bronze ein knappes Metall ?" 3-17.

43 John, Bishop of Nikiu, chronicle 119.12, trans. By R. H. Charles (Oxford: Oxford University Press, 1916) 190; Antonio Carile, "Giovanni di Nikius, cronista byzantino-copto del VII secolo," byzStratos 2:353-98.

44 Kaeigi, "Notes on Hagiographic Sources for some Institutional Changes and Continuities the Early Seventh Century," Byzantina 7 (1975) 61-70.

45 John of Ephesus, Hist. Eccl. 3.3, trans. By E. W. Brooks (CSCO, Scriptores Syri [Louvain 1936] 132). On this passage, also: E. Stein, Studien, zur Geschichte des byzantinischen Reiches vornehmlich unter des kaisern justinus II. und Tiberius Constantinus (Stuttgart 1919) 94.

46 Agathias, Hist. 5.13.7. other estimates: Jones, LRE 685; Hendy, Studies 168-9; Haldon, byzantium 152-3; MacMullen, Corruption and the Decline of Rome 173-5.

47 Most of the estimates here are my own. For problems in estimating size of later Byzantine armies: R.-J. Lilie, "Die byzantinischen Staatsfinanzen im 8./9. Jarhudert," Byzsl /48 (1987) 49-55; J. Haldon, Byzantine Praetorians 277-82, 546-8, and Byzantium 251-3; but W. Treadgold, Byzantine Revival (Stanford 1988) 535-4 and "On the Value of Inexact Numbers," Byzsl 50 (1989) 57-61: R. -J. Lilie, "Stellungnahme zu der Entgegnung W. T. Treadgolds," Byzsl 50 (1989) 62-3. Late Roman armies: R. MacMullen, "How Big was the Roman

Army?" Klio 62(1980) 451-60, and Jean-Michael Carrié "L'esercito: trasformazioni ed. By Andrea Giardina (Bari: Laterza, 1986) 457-8. William James Hamblin, "The Fattimid Army During the Early Crusades" (unpub. Ph.D. diss. University of Michigan, 1985) 296, estimated that the total Fatimid army in the twelfth century did not exceed 10 to 15,000 men, and its field armies ranged from 5 to 10,000. On praesental forces: John Haldon, Byzantine Praetorians esp. 103, 118, who argues that some elements of this force, under the comes Obsequii, accompanied Heraclius to Jerusalem (misdated to 629) : 173, 176, 178.

48 Jean Maspero, Organisation militaire de l'Egypte byzantine 117-18.

49 See Johan Haldon, Byzantine Praetorians esp. 103, 118.

50 Shahid, BAFIC 459-86, on Arab federates of Byzantium in the fifth century.

51 A. Stratos, "La Premiere Campagne de l'empereur Héraclius contre les Perses," JOB 28 (1979) 63-74, and Studies in Seventh-Century Byzantine Political History (London: Variorum, 1983).

52 Al-Tabari, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden aus der arabischen Chronik des Tabari, trans. By Th. Nöldeke (Leiden: Brill, 1879) 297-300, esp. n. 1 on p. 299f. Cf. Al-Diyarbakri, 1:298 ; Ibn Kathir, Tafsir al-Qur'an (Beirut: dar al-Andalus, 1983) 5:344.

53 Miracula, Acta M. Anastasii Persae c. 3 (21 Usener).

54 Vie de Théodore de Sykéôn c. 159. 45-7 (1:134-5 Festugière); Zacos/Veglery, BLS, no. 1136, vol. 1.2. p. 727, seal from seleucia, dated to about 617. Background: M. C. Bishop, ed., the Production and distribution of Roman Military Equipment (Oxford: Bar 1985) See ND Or. II.27-8, 32, ed. By O. Seek (Berlin 1876, repr.) for fabrica at Nicomedia. on factories: S. James, "The fabrica: State Arms factories of the Later Roman Empire," in: Military Equipment and the Identity of Roman Soldiers. Ed. By J.C. Coulson (Oxford : BAR, 1988) 257-331.

55 Joh. Malalas, Chronicon, ed. By L. Dindorf (Bonn 1831) 307-8. ND Or. II.20 (32 Seeck), Scutaria et armorun, Damasci; date of Notitia Dignitatum: D. Hoffman, Die spatromische Bewegungsheer (Dusseldorf: Rheinland-Verlag, 1969) 531. But see: J.C. Mann, "What Was the Notitia Dignitatum (Oxford: BAR Supplementary Ser., 15, 1976) 5-8; Michael Hendy, studies in the Byzantine Monetary Economy 629 .

56 Malalas, Chron. (307-8 Dindrof).

57 Yāqūt / Wustenfeld 4: 677.

58 Andreas Hauptmann, "Die Gewinnung von Kupfer: Ein Uralter Industriezweig auf der Ostseite des Wadi Arabah," Petra: Neue Ausgrabungen und Entdeckungen, ed. By Manfred Lindner (Munich : Delp Verlag, 1986) 31-43.

59 Some towns negotiated with Persians and received terms in Palestine, but Jerusalem suffered: Antiochus, Expugnationis Hiersolymae A.D. 614 Recensiones arabica 3.1-3, 5.30-2 (Ar., Textus A: 6-11-12; B:61-2,66; C:113, 118); trans. 4, 8, 42, 45, 75, 79. Michael G. Morony, "Syria Under the Persian 610-629 AD.," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1:87-95; Robert Schick, The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Muslim Rule (Princeton: Darwin, 1993).

## 3) المصاعب التي أحاطت باستنباط سبل الدفاع عن سورية

01 Procopius, Bella 2.20.19; the translation is from the H. Dewing Loeb Library edition, vol. 1: 435.

02 C.-P. Haase, Untersuchungen zur Landschftsgeschichte Nordsyriens in der Umayyadenzeit (diss., Hamburg, pub. Kiel, 1975) .



03 Amm. 18.4.1, 20.6.1-21.13.9.

04 Negotiated surrenders: Procopius, Bella 2.5.12-2.6.25; 2.7.3-9; 2.11.14-2.12.2; 2.13.16-28; G. Downey, "The Persian Campaign in Syria in AD 540," Speculum 28 (1953) 340-8. Little local reistance: H. Turtledove, "The Immediate Successors of Justinian" (unpub. Diss., UCLA, 1977) 212-20, 238-9, 243, 250; E. A. Thompson, "Barbarian Collaborators and Christians," in: Romans and Barbarians: The Decline of the Western Empire (Madison, WI 1982) 239-40; S. Johnson, Late Roman Fortifications (Totowa, NJ 1983 ) 80; H. Kennedy, "The Last Century of Byzantine Syria: A Reinterpretation," ByzF 10 (1985) 141-83; A. H. M. Jones LRE 1061-2.

05 Just. Nov. 85 (AD 539 ); Priscus, Hist., ed. By L. Dindrof, Historici Graeci Minores (Leipzeg: Teubner, 1870) 306; Denis Feissel, Ismail Kaygusuz, "Un mandement impérial du Vie siècle dans une inscription d'Hadrianoupolis d'Honoriade," TM 9 (1985) 410-15; Stein , HBE2 : 245, 465, 480.

06 F.M. Abel, "Inscription grecque de Gaza," Revue Biblique 40 (1931) 94-5, dated sometime between 614 and 634; cf. Carol A. M. Glucker, The City of Gaza in the Roman and Byzantine periods (Oxford: BAR, 1987) 141. Cf. No. 2828 from Baalbeck, c. 635/636, for repair of tower: Louis Jalabert, René Mouterde, Inscriptions grecques et Latines de la Syria, T. VI (Bibliothèque Archéologique et Historique), Institut Francais d'Archéologie de Beyrouth. T. 78 (Paris: Geuthner, 1967) 133.

07 W. Liebeschuetz, "The Defenses of Syria in the Sixth Century," Beibefte der Bonner Jahrbücher 38 (1977), 2: studien zu den Militärgrenzen Roms 491-3.

08 De rebus bellicis 20.1, ed. and trans. By Robert I. Ireland (Oxford: BAR Onternational Series 63,1979) part 2, pp. 19,36.

09 Baladhurī 150.

10 Ramsay MacMullen, Corruption and the Decline of Rome 122-97, on "Privatization."

11 The Muslim incursions surprised Patriarch Sophronius of Jerusalem and others in early 634: PG 87: 3197D ;Christoph von Schonborn , Sophrone de Jérusalem (Paris: Editions Beauchesne, 1972) 90.

12 I thank S. Thomas Parker and Fawzi Zayadine for good advice. Unpersuasive is A. Alt, "Beiträge zur historischen Geographie und Topographie des Negeb, V: das Ende des Limes Palestinae," Journal of the Palestine Oriental Society 18 (1938) 149-60; "Der Limes Palestinae im sechsten und siebenten Jahrhundert nach Chr.," ZDPV 63 (1940) 129-42.

13 Niketas attempted from Egypt to aid defense of Palestine against Persians: John of Barca was sent with troops to aid the defense of Egypt against the Muslims, according to John of Nikiu, Chron. C. 111.1-3 (178-9 Charles). Nicephorus, Hist. 23 (70 –1 Mango).

14 Al-Tabari 2081, I 2347, I Baladhurī, 135-6, 164, 181-3; Azdi 28, 111, 125, 152,174-7; Ibn al-Athir (2:308-381 Tornberg). Manpower problem: E, Stein, Studien (Stuttgart 1919) 117-29; R. MacMullen, "How Big Was the Roman Army?" Klio 62 (1980) 451-60; MacMullen Corruption 173-5, 185.

15 Rudolf E. Brunnow, Alfred v. Domaszewski, Die Provincia Arabia, 3 vols. (Strasburg 1904-9); G. W. Bowersock, Roman Arabia (Cambridge, MA: Harvard, 1983): Irfan Shahid, BAFOC, in which is also bibliography of his articles on Ghassānids, also his BAFIC, esp. his art. On "Ghassān," EI2 2; 1020-21; S. T. Parker, Romans and Saracens: A History of the Arabian Frontier (Winona Lake, in 1986) and Parker, The Roman, The Roman Frontier in central Jordan

(Oxford: BAR International Series 340, 1987); M. Sartre, Trois études sur l'Arabie romaine et byzantine (Brussels: revue d'Etudes Latine, 1982); M. Sartre, Bostra: des origines à l'Islam (Paris: geuthner, 1985) 99-139; Benjamin Isaac, Limits of Empire (Oxford : Clarendon , 1990).

16 John of Ephesus, HE 3.3.42 (Brooks, CSCO, Versio 132). Theophylact Simocatta, Hist. 2.10.4 (89 De Boor), Background: P. Goubert, Byzance avant l'Islam 1:249-60, "le Problème ghassanide à la veille de l'Islam," Actes, Vie Congrès International des Etudes Byzantines (Paris 1950) 1:103 –18, make an unconvincing defense of Maurice's Ghassanid policy. I. Shahid's advise was helpful on this problem.

17 Al-Tabari i 2081, 2109,2124-5, 2347; Baladhurī 135-6; Th. Nöldeke, Die ghassanischen fürsten 46-51. Ibn Asākir 1:531; al-Ya'qubi (2:160 Houtsma), J. Sauvaget, "Les Ghassanides et Sergiopolis," Byzantion 14 (1939) 115-30; H. Gaube, "Arabs in the Sixth Studies Bulletin 8 (1981) 93-8; René Dussaud, La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam (Paris: Geuthner, 1955); Henri Charles, Le Christianisme des arabes nomaes sur le limes et dans le desert syro-mésopotamien aux alentours de l'Hégire (Paris: Bibliothèque de l'Ecole des Haute-Etudes, 1936); J. S. Trimingham, Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times (London , New York : Longman , 1979).

18 Relative dégree of armed strife on the frontier before the Muslim conquest: E. B. Banning "Peasants, Pastoralists, and Pax Romana: Mutualism in the Highlands of Jordan," BASOR 261 (1986) 25-50; E.B. Banning, "De Bello Paceque: A Reply to Parker, "BASOR 265 (1987) 52-4; S. Thomas Parker, "Peasants, pastoralists, and Pax Romana: A Different View," BASOR 265 (1987) 35-51; Philip Mayerson," The Saracens and the Limes, "BASOR 262 (198) 35-47; Philip Mayerson, "Saracens and Romans: Micro-Macro Relationship," BASOR 274 (1989) 71-9.

19 C. J. Kraemer, Excavations at Nessana, 3 vols. (London: British School of Archaeology in Jerusalem, 1950-62) ; Philip Mayerson, "The Saracens and the Limes," BASOR 262 (1986)35-47.

20 Baladhurī 144 ; Shahid, BAFOC 401-4 ; Caetani, Al 3: 790-1.

21 Theoph., Chron., A.M. 6124 (336 De Boor).

22 Christian Arabs give Byzantines supplies at Ajnadayn : Kufi 1: 144. Donner, EIC 320.

23 Ἐπάμδος τού λειψάνου τού άγίου μάρτυρος Ἀναστασίου έκ Περσίδος εις τό μνστέριον ύτού, in Acta M. Anastasii Persae, ed. By H. Usener (Bonn 1894) 13b.31-7. Location of dastagert in Iraq: F. Sarre, E. Herzfeld, Archaologische Reise im Euphrat-und Tigris Gebiet (Berlin: D. Reimer, 1920) 2:87-9.

24 This phylarch [φύλαχος] was a tribal leader, but not necessarily a formal Byzantine federate, although this is not excluded. the auther also refers to "camps" or encampments or stages in using the term basic is I. Shahid, BAFOC 496 and BAFIC 181-91, 212-13. On φύλαχος, Shahid, BAFOC 514-19.

25 Procopius, de Aed. 2.9.4.-5 (my trans.) this dangerous asumption may have led to serious Byzantine miscalculations in the late 620s and early 630s, including overreliance on walledtowns. The repetition of this axiom by Procopius may have reinforced its seeming weight of authority. Evagrius, HE 5.20 (216 Bidez-Parmentier)

26 Menander Protector, frg. 9.1. Hist., trans. By R. C. Blockery (Liverpool: cairns,1985) 100-1. Theophylact Simocatta, Hist 3.17.7 (151 De Boor); trans. By Michael and Mary Whitby, the History of Theophylact Simocatta (Oxford :Clarendon Press,1986) 100.

27 F. Litsas, "Chrocius of Gaza: An Approach to his work: Introduction,



Translation, Commentary" (unpub. Ph.D. diss; University of Chicago, 1980).

28 F. Nau, "Le Texte grec des récits du moine Anastase sur les saints peres du Sinai," Oriens Christians 2 (1902) 65-6; Nilus, Narrations, PG 79:589, 597, 604, 637. Antoninus Placentius, Itinerarium 40.7, cf. 35-9, ed. By Celestina Milani (Milan: University Cattolica, 1977) 214, cf. 200-13, for problems in Sinai in late sixth century.

29 A. Pernice, l'Imperatore Eraclio 25-6; N. H. Baynes, "The Military Operations of the Emperor Heraclius," United Service Magazine n.s. 46 (1913) 526-33, 659-66; 47 (1913) 30-8. 195-201, 318-24, 401-12, 431-4. Gustav Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden in al-Hira; ein Versuch zur arabisch-persischen Geschichte zur Zeit der Sasaniden (Berlin 1899); repr. Hildesheim; Olms. 1968) 116-19 ; Irfan Shahid , "Lakhmids," EI2 5 (1986) 633-4.

30 Anonymous Byzantine Treatise on Strategy c. 33, ed. And trans. By George Dennis, Three Byzantine Military Treatises (Dumbarton Oaks Texts, IX {Washington, DC: Dumbarton Oaks, 1985}) 102-5. Cf. Menae patrici cum Thoma referendario De Scientia politica dialogus . ., ed. By C. M. Mazzucchi (Milan 1982), a contemporary sixth-century source, although it draws on earlier Graeco-Roman texts. Broader context: W. Kaegi, some Thoughts on Byzantine Military Strategy (hellenic Studies Lecture for Ball State University, published at Brookline, MA by Hellenic College Press, 1983).

31 Das Strategikom des Maurikios, ed. By G. T. Dennis and Ger. Trans. By E. Gamillscheg CFHB, (Vienna 1981); Eng. Trans. By G. T. Dennis Maurice's Strategikom: handbook of Byzantine Military Strategy (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1984); C. M. Mazzucchi, "dello 'Strategikom' di Maurizio," Aevum 55 (1981) 111-38; J. Witta, "The Ethnika in Byzantine Military Treatises " (unpub. Ph. D. diss., University of Minnesota, 1977); A. Kollautz, "Das Militarwissenschaftliche Werk des sog. Maurikios" Byzantika 5 (1985) 87-136.

32 Maurice, Strategikom 2.1; 7A pr.; 8.1.7; 8.2.8; 8.2.47; 8.2.80-1; 8.2.92.

33 Procopius, Bella 1.10. 1-2; cf. 1. 17.17.

34 Shahrbaraz: Ibn 'Abd-al-Hakam, Futuh misr (35-7 Torrey); Theoph., Chron., A. M. 6118 (323-4 De Boor) ; cf. Thomas Artsruni, History of the House of the Artsrunik (Detroit: Wayne State, 1985) 162-3; Stratos, 2: 635-42; Cyril Mango, "Deux études sur Byzance et la Perse sassanide," TM 9 (1985) 105-17.

35 Kaegi, BMU 120-49.

36 G. Downey, "The Economic Crises at Antioch under Julian the Apostate," Studies in Toman Economic and Social History in Honor of A. C. Johnson (Princeton 1951) 312-21. But, J. Liebeschuetz, Antioch (Oxford 1972) 80-117.

37 Joshua the Stylite, Chronicle, c. 92-5, ed. And trans. By W. Wright (Cambridge 1882) 71-73. Joh. Ephes. HE 3.3.6.28 (252 Brooks) ; S. Eutychii Patriarcae Constantinopoli Vita, PG 86 : 2344.

38 Kaegi , BMU 64-88.

39 Donner, EIC 85-9.

40 Theophylact Simocatta, Hist. 3.17.7 (151 De Boor ).

41 Samaritan poisoning of Byzantine soldier : Miracula, Acta M. Anastasii Persae c. 13 (25-6 Usener) But Samaritanis (allegedly 5,000) aided Byzantine defense : chronicon Anonymum ad annum Christi 1234 pertinens, trans. By J.-B. Chabot (CSCO, Scriptores Syri, ser 3, T. 14:189-90 Versio) ; Palmer Chronicles, part 2, text 13, sect. 49.

42 G. Downey, A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest (Princeton 1961) esp. 380-97.

43 Kaegi , BMU 20-3, 126, 146-8.

44 Earlier military memoranda: Kaegi: "Constantine's and Julian's Strategies of Strategic Surprise against the Persians," ASRB.

45 The final sections of Norman Baynes, "The Military Operations of the Emperor Heraclius," The United Services Magazine n.s. 47 (1913), and esp. 669-75, are weakened by the illness of the auther and by inadequate knowledge of place-names. F. Sarre and E. Herzfeld, Archaologische Raeise im Euphrat-und tigris Gebiet 2: 87-9, which appeared a few years later, provides much better although neglected topographic details on Heraclius ' campaign of 628.

46 Background : C. Toumanoff, "The Heraclius and the Arsacids," REArm 19 (1985) 431-4.

47 A. Pernice, L'Imperatore Eraclio (Florence 1905); G. Ostrogosky, History of the Byzantine State (New Brunswick 1969) 87-92; Stratos, 1:226-456, 2:491-643; N. H. Baynes, "The Military Operations of the Emperor Heraclius," United Service Magazine n.s. 46 (1913) 526-33, 659-66; 47 (1913) 30-5; I. Shahid, "On the Titulature of the Emperor Heraclius," Byzantion 51 (1981) 288-96; E. Chrysos, "The Title in Early Byzantine International Relations," DOP 32 (1978) 29-75; Kaegi, "New Evidence on the Early Reign of Heraclius," ASRB.

48 Theoph., Chron., A.M. 6124 (336 De Boor); cf. "Extract from the Chronicle of Zuqnin," Palmer, Chronicles, part 1, text 10, AG 937.

## 4) الاختراقات الإسلامية الأولى للمنطقة العربية

01 Azdi 29; Baladhurī 113. Al-Tabari I 2108. Sebeos (123-4 bedrosian , 96 Macler).

02 This chronology is a synthesis of my own analysis of Byzantine events with my interpretation of principal features of Islamic history. For the latter I owe a great debt to the researches of Leone Caetani, Al, and to Fred M. Donner, EIC, although my own selection of data may well diverge from their. H. Delehaye, "passio Sanctorum Sexaginta Martyrum," AB 23 (1904) 290-1; and J. Pargoire, "Les LX Soldats Martyrs de Gaza," EO 8 (1905) 40-3, provide important elements for the reconstruction of a chronology that is not dependent on Muslim or other oriental Christian historical traditions. See André Guillon," La Prise de Gaza par les Arabes au VII siècle," BCH 81 (1957) 396-404.

03 P. Speck, Das geteile Dossier (Bonn 1988) 317-77, is ingenious but does not persuade me to change my chronology.

04 Waqidi 755-69. Ibn 'Asākir, TMD 1: 392, 402-7, 466; Donner, EIC 101-10, also Moshe Gil, "The Origin of the Jews of Yathrib," JSAI 4 (1984) 203-24 ; S. Thomas Parker, "retrospective on the Arabian Frontier after a decade of Researches," DRBE 633-60, esp. Shahid, BAFIC 242-51, 271-89, 507-9.

05 Ibn Hishām 958, Ibn S'ad ½, 18, 31, 83. Donner, EIC n. 53, p. 304, wonders whether Farwa may have turned to Muslims during the period of Persian occupation because of the relatively favorable Muslim attitude to Christians, but this is unlikely because Persians appear to have been relatively tolerant to Christians except for the massacre of the inhabitants of Jerusalem after it was stormed in 614. Circumspect Persian policies: A. Pertusi, "La Persia nelle fonti bizantini del secolo VII" 605-28. Completion of dated mosaics from the 620s in areas of Persian occupation implies some Persian circumspection or tolerance to Christians : esp.. Noel Duval ,Jean-Pierre Gaillet, "Khan-Khaldé (ou Khaldé III). Les fouilles de Roger Saidah," and Jean-Paul Rey-Coquais, "Inscriptions grecques Roger Saideh" (Collection de la maison de l'Orient Méditerranéen, no. 12,



série archéologique, 9 [Lyon: maison de l'Homme, 1982]) esp. 360-7, 407-8, Michael Piccirillo chiese e mosaici della Giordania Settentrionale (Studium Biblicum Franciscanum, Collectio Minor, 30 [jerusalem: Franciscan Printing Press, 1981]) 73-4, 80-2 ; Janine Balty, Mosaiques antiques de Syrie 148-51 (Brussels: centre belgre de recherches archéeologiques à Apamée de archéologique de Syrie 11-12 (1961–12) 61-7; William Walddington, Inscriptions grecques et latines de la Syrie, no. 2412 (Rome : Bretschneider, 1968) 550-1.

06 Waqidi 755. Donner, EIC 96-108. Muhammad's letter to Heraclius : al-Tabari (Ibn Ishaq) I 1562-8; Ibn Hishām/Wüustenfeld, 971; also A. Guillaume trans. 654-7. Ibn S'ad, Tabaqat 1/2:16. this tradition fictious: M. Cheira, La Lutte entre arabes et byzantins 15-18.

07 Ibn Sa'd, Tabaqat 1/2:17. Al-Diyarbakri 1:298-9.

08 Tabari I 2102 ; Ibn Asākir , TMD 1: 439-40, 531.

09 Pseudo-Psellos, Historia Syntomos 76, ed. By W. J. Aerts (CFHB) ([Berlin : de Gruyter 1990 ]) 65.

10 The new inscriptions: Michael Piccirillo, "Le Iscrizioni di Umm er-Rasas-Kastron Mefaa , in Giordania (1986-7)," Liber Annuus Studium Biblicum Franciscanum 37 (1987) 184-6, 196, 219, photos 3,8. One of the most important probably dates to AD 718, according to Dr. Robert Schick, also ND Or. 37.19. Cf. Eusebius, das Onomastikon, ed. By E. Klostermann (GCS III.1 [Leipzig: J. C. Hinrichs, 1904]) 128; Jerome trans., p. 129. Al-Bakri, Das Handlung Maisonneuve, 1877) 569, where its inhabitants slew Ziyad b. 'Amr Nuqil, who wished to meet the Prophet Muhammad. Unpersuasive is Yoel Elitzur, "The Identification of Mefa'at in View of the Discoveries from Kh. Umm er-Rasas," IEJ 39 (1989) 267-77.

11 Ernst Axel Knauf, "Aspects of Historical Topography Relating to the Battle of Mu'ta and Yarmuk," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1:73-6.

12 Ibn Asākir, TMD (al-Ta'rikh al-Kabir) ed. By Abd al-Qadir Badran (Damascus: rawdat al-Sham , 1911) 1:397. I owe this reference to R. Schick.

13 Theoph., Chron., AM 6123 (335 De Boor). Waqidi 755-65. On Ma'ab, Yāqūt 4:377, 571, Caetani Al-2:84-5; De Goeje, memoire2 6-7. On the feast of sacrifice, Caetani, Al 2:85. Ma'ab as destination: Ibn Hishām/Wustenfield 793 and in general on Mu'ta, 791-7 Transmission: some Indications of Intercultural Transmission , ByzF 15 (1990) 22-3.

14 Late Roman detachment : ND Or. 37.14. (81 Seeck). Theoph., Chron., AM 6123 (335 De Boor).

15 F. Wustenfield, "das Heerwesen der Muhammedaner und die arabische Ubesertzung der Taktik des Aelianus," repr. From Abb. Der hist-philol. Cl., Konig. Gesell. Der Wiss. Zu Gottingen, vol. 26.1 (1880), text 11, trans. 42. But this is a thirteenth-century (eighth-century AH) military manual. Waqidi 755-69; Ibn Asākir, TMD 1: 440.

16 L. I. Conrad, "Theophanes and the Arabic Historical Transmission: some Indications of Intercultural transmission" 23-6.

17 Theoph., Chron., AM. 6123 (335 De Boor).

18 George of Pisidia, Hexaemeron Lines 1845-58, in PG 92:1575-6. David Olster, "The Date of George of Pisidia's Hexaemeron," DOP 45 (1991) 159-72.

19 Stratos, 2:647-85; cf. Paul Speck, Das geteilte Dossier 317-41. It was possible for Persian troops to remain Byzantine soil after Heraclius' vbictory in Persia itself in early 628.

20 Acta M. Anastasii Persae (12 Usener). A. Frolow revised that date to 630,

in an important article, "La Vraie Croix et les expéditions d'Héraclius en Perse," REB 11 (1953) 88-105. Grumel proposed 21 March 631, a date that has some logic but was persuasively rejected by Cyril mango, who prefers 630: V. Grumel, "La Reposition de la Vraie Croix à Jérusalem per Héraclius. Le jour et l'année," ByzF 1 (1966) 139-49; Cyril mango, "deux études sur Byzance et la Perse sassanide," TM 9 (1985) 112-13. P. Speck, Das geteilte Dossier (Bonn 1988) 355-77, unconvincingly argues that heraclius restores the cross to Jerusalem in 628.

21 Ibn Hishām 1: 192 ; al-Tabari I 1562.

22 Waqidi 760.

23 See remarks of John Haldon, Byzantine Praetorians 173-8.

24 Caetani, Al 2. 1: Ixvii, erroneously assumed that Heraclius visited Jerusalem in 629 and was restoring the cross there at the time of the battle of Mu'ta, which harmed his understanding of events, their sequence and interrelationships. Heraclius spent the winter of 628-9 at Amida, met with Shahrbaraz at Arabissos in July , 629, returned to Constantinople in September, 629, and brought the fragments of the cross to Jerusalem in March, 630. In 631/2 he participated in the synod at Theodosiopolis, in Armenia. Azdi 28-9.

25 Sophronius, PG 87: 3197D.

26 That staement of Azdi and Ibn 'Asākir is confirmed by Eutychius and by version "C"of the Antiochus threnody on the Persian capture of Jerusalem in 614.

27 Azdi 31, al-Tabari ( Sayf ) I 2104 ; Ibn al-Athir 2: 311-18.

28 W. E. Kaegi, Jr., "Two studies in the Continuity of Late Roman and Byzantine Military Instituations," ByzF 8 (1982) 87-113; R.-J. Lilie "Die zweihunderjahrige Reform. Zu den Anfangen der Themenorganisation," Byzslav 45 (1984) 27-39; survey of earlier literature in Haldon, Byzantium 190 n. 70.

29 Theoph., Chron., AM 6126, 6128 (338, 340 De Boor ) Michael the Syrian, Chronique 11.7, ed. And trans. By J.-B. Chabot (Paris 1901) 2: 424-5. But cf. Narses who was in command of Constantina, Theophylact Simocatta, Hist. 3.1.1.

30 Kufi 1;100-1; cf. "Extract from the Chronicle of AD 1234," Palmer, Chronicles, part 1, text 13:sect. 48

31 L.I. Conrad, " Azdi's History" 28-72.

32 Waqidi 760, 990. Ibn Asākir 1:439-40, 531; Azdi 84-5, 107, but esp. 111. Al-Tbari I 2081. Kufi 1:230-1. Tribes : Donner, EIC 101-10; Shahid, BAFIC 507-9.

33 Al-Tabari (Ibn Ishaq ) I 1611-12; cf. Waqidi, 760; Donner, EIC 101-10. In general, Mu'ta: Caetani, Al 2:80-9.

34 TMD I: 392. Theoph., Chron., AM 6123 (335 De Boor ).

35 The small numbers that Donner, EIC 221, cites, such as "perhaps 20,000 to 40,000" at Yarmuk, are more plausible than higher numbers estimated by others, but any number over 20,000 is very doubtful for any battle. Perceptive is LawrenceConrad," Seven and the tasbi 4, JESHO 31 (1988) 54-5; Lawrence I. Conrad, "Abraha and Muhammad: some Observations Apropos of Chronology and Literary Topoi in the Early Arabic Historical Tradition," BSOAS 50 (1987) 236-40.

36 Nicephorus, Hist 23 (68-9 Mango).

37 Waqidi 760, 990, 1015-18. Donner, EIC 107. important poetic reference to Muslim goal of Ma'ab cited by al-Tabari I 1612, reportedly in connection with Mu'ta campaign underlines Byzantine base at Ma'ab /Arepolis.

38 Azdi 43, 92, 106, 149, 151-2, 165.

39 Ibn Asākir 1:440; Ibn Sa'd Tabaqat II/1:137, 37 and II/1:93, 11, Heraclius was reported in the Balqa'. Ibn Hishām 1: 792, he is



reported at Ma'ab.

40 Byzantines use Arab spies; Waqidi 1018; Ibn Asākir 1:473, 474, 476, Heraclius inquires about Arabs: Ibn Qutayba, Kitab al-Uyun al-Akhbar (Cairo 1925) I 126-7.

41 Ibn 'Asākir 1:439-40. Waqidi 760 reports that Heraclius was in the Balqa, but no confirmation exists.

42 Waqidi 1031 (the identity of Yuhanna office is unclear); Yāqūt/Wustenfeld 1:422, Baladhurī 59-60; Ibn Sa'd, Tabaqat ½:28, 37; al-Tabari I 1702; Ibn Hishām 902; Donner, EIC 109; Caetani, Al 2: 253-6.

43 J. Sauvaget, "Les Ghassanides et Sergiopolis," Byzantion 14 (1939) 125-6, understimated the ability of the Byzantines to operate and recruit east of the Dead Sea and the Jordan River.

44 Adhruh: Waqidi 1031, 1032; Caetani, Al 2: 255-6; A. Alt, "Aila und Adora im spatromischen Grenzschutzsystem, "ZDPV 59 (1936) 92-111; Alistair Killick," Udruh and the southern frontier," DRBE 431-46. Local inhabitants showed me graves which they identified with Muslim martyrs from the time of the conquests.

45 Baladhurī 113. Al-Tabari (Ibn Ishaq) I 2108. Sebeos (123-4 Bedrosian, 96 Macler) .Azdi 28-9.

46 Waqidi 760, 990, cf. 1015, 1018.

47 Baladhurī 113; al-Tabari 2108 on Muslims at Ma'ab, including the encampment, but see Sebeos (124 Bedrosian, 96 Macler); Azdi 29. Caetani , Al 2:1147-8, criticizes Pernice, L'Imperatore Eraclio ( Florence 1905 ) 321-2. Caetani did not understand – nor did Perince – the identification of Ma'ab as Areopolis, or the significance of that identification in past Late Roman military history. Pernice wrongly supposed that Rabbath Moab and Ajnadayn were identical, but he was correct in assuming that there was a clash at Rabbath Moab, which is modern Rabba. Identification of Moab as Areopolis: Eusebius, Das Onomastikon, ed. By Erich Klostermann (GCS III. 1 leipzeg 1904) 10, line 17. Jerome's Latin translation is on opposite page, which is p. 11. A. Stratos, 2:63, n. 189, likewise failed to understand the identification of "Rabbath Moab" and its significance.

48 Former garrison strength: ND Or. 30.7.14, 17 (81 Seeck). Albrecht Alt unpersuasively argued to the contrary forty-five years ago and ignored the references to Ma'ab/Areopolis in the Arabic sources, He thought only of Mu'ta, Ayla and Adroa: Albrecht Alt, "Beiträge zur historischen Geographie und Topographie des Negeb, V: Das Ende des Limes Palestinae," Jornal of the Palestine Oriental Society 18(1938) 149-60; cf. Alt, ZDPV 1940, ZDPV 1942.

49 I visited modern Rabba and environs (including the village of Yarut, which has traces of ancient ruins) in the summer of 1984 and again on 22 October 1987. for the walls of Areopolis, see the mosaic reproduction in Piccirillo, "Iscrizioni" 177-239, esp. photo 9.

50 ND Or. 37.14.17 (81 Seeck) whether there was still a unit called Equites Mauri IIIyriciani in the seventh century is uncertain, but some Illiriciani still in Palestine in the early 630s: Miracula M. Anastasii Persae, c. 14 (26 Usener).

51 Yāqūt 4: 377, 571; see Caetani, Al 2:84-5, De Goeje, Mémoire 2 – 6-7. On Rabba / Ma'ab, see R. Brunnow and A.v. Domaszewski, Provincia Arabia (Strasburg 1904) 1:54-9.

52 Al-Tabari I 2108. The categories of Sulhan and 'anwatan may not be contemporary with the conquests: Albrecht North, "Some Remarks on the Nationalisation of Conquered Lands at the Time of the Umayyades," Land Tenure and Social Transformation in the Middle east, ed. By Tarif Khalidi (Beirut: American University of Beirut, 1984) 223-8; North, "Zum Verhältnis von Kalifaler Zentragewalt und Provinzen . . die 'Sulh 'Anwa' Traditionen," Die Welt des Islam 14

(1973) 150-62.

53 Al-Tabari I 2108; Azdi 28-9; Sebeos (123-4 Bedrosian, 94, 96 Macler) the more complete account of al-Tabari, albeit short, is decisive and permits making a choice between traditions. The Fustat is unidentified. it may have been part of the site of Areopolis, or the modern town of Qasr or the village of Yarut or some other site . I thank Dr. Fawzi Zaydine for advice.

54 Ibn Asākir 1:439-40. Cf. Azdi 28-9.

55 Sebeos c. (96 Macler, 124 Bedrosian); also Azdi 29.

56 Sebeos c. (123-4 Bedrosian, 96 Macler). It is true, however, that Theodore, brother of Heraclius, commanded at Ajnadayn, where he was defeated and compelled to flee ignominiously .

57 Ib Asākir 1:440.

## 5) التجارب المبكرة في جنوبي فلسطين

01 Sophronius, PG 87: 3197D, on the unexpected character of the Muslim " uprisings" or incursions.

02 Doctrina lacobi nuper baptizati 86, lines 13-14. The two mentions of Kandidatos in this very contemporary source leave no doubt about his identification. On candidatos, Haldon, byzantine Praetorians 129-30, 154-9; R. Guillard, "Etudes sur l'histoire administrative de l'empire byzantine. le titre de candidat," Polychronion, ed. By P. Wirth (Heidelberg 1966) 210-25. Sergios' relationship to Niketas: Nicephorus , Hist (68-9, 186-7 Mango).

03 Azdi 84, on Wardan; Th. Nöldeke, Die ghassanischen Fursetn . . 45, like Nöldeke, M. J. De Goeje believed that 'Les caractères . . B(r) jrdn doivent contenir le nom du patrice,' Mémoire[2] 32. A. Palmer, "Extract from a Chronic finished in AD 641," Chronicles, part 1, text 2:AG 945; liber Calipharum, ed. By J. P. N. Land, Anecdota Syriaca (Leiden 1862) 1:17 (original) and 1:116 (erroneous translation); Chronicon miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens, trans. By J. B. Chabot (CSCO, Script. Syri, ser. 3, T. 4 {Louvain 1903-5} Versio, 114), who corrects reading of Land; Caetani, Al 2:1144-5. Professors Nina Garsoian and the late Arthur Voobus gave me important advice in identifying B{R} YRDN as Wardan. P. Speck, Das geteilte Dossier (Bonn 1988) 348-9, also believes that Sergios is identical with the officer mentioned in Syriac sources who fell presumably at Dathin , but he does not clarify the location.

04 So I learn from Dr. John Nesbitt and Dr. Clayton M. Lehmann, who are respectively studying seals and inscriptions from Caesarea.

05 Nicephorus, Hist. 20 (68-71 Mango).

* انظر معنى المصطلح واشتقاقه في (دراسات قدمس 6)

06 Samuel of Ani, tables chronologiques, in: Collection d'historiens arméniens, ed. And trans. By Marii Ivanovich Brose (Brosser ) St. Petersburg 1876) 2: 403.

07 His manner of death is not out of question. Note that the cadaver of Muhammad b. Abu Bakr was reportedly inserted in the stomach of an ass and then burned, in 658, another nearly contemporary case of disgracing the death of someone who was much reviled (for his role in the murder of Caliph 'Uthman).

08 Death of Sergios, Doctrina lacobi c. 16 (86, lines 12-15 Bonwetsch). Oath of Justus, for Jacob, that even if Jews and Saracens cut him into pieces piece by piece, he will not deny Jesus Christ, Doctrina lacobi c. 17 (88, lines 5-7 , Bonwetsch). the manner of Sergios' recent death may have been an additional cause for such a subject and oath.

09 First quotation from Theophanes: Theophanes, Chron., AM 6123 (335-



6 De Boor); second: AM 6124 (336 De Boor ). location: Yāqūt 2:514-5. W. E. Kaegi, "new Perspectives on the Last Decades of the Byzantine Era," 1983 Bilād -al-Shām Proceedings 2: 84-5; L. I. Conrad, "Theophanes and the Arabic Historical Transmission" 30; cf. Philip Mayerson, "The First Muslim Attacks on Southern Palestine (AD 633-4)," TAPA 95 (1964) esp. 161-2. Lack of manpower, Sauvaget, "Les Ghassanides et Sergiopolis" 115-30. But A. Alt. "der Limes Palestinae und siebenten Jahundert n. Chr.," ZDPV 63 (1940) 129-42, argues that much of the old defenses survived.

10 Mayerson, "First Muslim Attacks " 185-8. W. Goffart, "From Roman Taxation to Mediaeval Seigneurie: Three Notes," Speculum 47 (1972) 177-8. Antonini Placentini, itinerarium 40, cf. 35-9, ed. By Celestina Milani (Milan 1977) 214, 200-13.

11 Miracula, Acta M. Anastasii Persae c. 3 (21 Usener) on. Heraclius; distribution of silver from a tower at Ctesiphon to his soldiers as booty: Hrabanus Maurus , PL 110 : 132-3.

12 John of Nikiu , Chronicle 119.12 (190 Charles).

13 It was not, as De Goeje supposed, a place-name Hira, Mémoire 2 34, nor, as Caetani supposed, a garbled reference to the famous Lakmid Hira far to the east: Al 2:1143.

14 On the hazira : Shahid, BAFOC 402-7, 426, 428, 469, 471, 481-5, 546, 548, Caetani, Al 3:790-1. Ibn al-Adīm. Zubdat al-Ḥalab min Ta'rikh Halab 1: 25-6.

15 Theoph., Chron., AM 6121 (332 De Boor)

16 P. Goubert, Byzance avant l'Islam (Paris 1951) 1: 249-60.

17 John of Ephesus 3.3.42 (131-2 Chabot trans.) Evagrius Scholasticus, HE 6.2. (223 Bidez-Parmentier) H. Turtledove, "The Immediate Successors of Justinian" 310-20; E. Stein studien(Stuttgart 1919) 40-3,51.

18 Muslims go to Ayla. Eutychius. Ann, 276 (131 Beydy text, 111 Bredy trans.) Baladhurī 59-60. 108; Caetani, Al 2:253-5. A. Alt, "Aila und Adora im spatromischen Grenz-Schutzsystem," ZDPV 59 (1936) 92-111. Ph. Mayerson, "The First Muslim Attacks on Southern Palestine (AD 633-4)," TAPA 95 (1964) 169-77.

19 Study of Ayla treaty, Caetani, Al 2:254-5. Important new excavations at Aqaba by Dr. Donald Whitcomb are revealing much about the medieval site.

20 Skirmish at "Ayn Ghamr: al-Tabari I 2108, 2125; Baladhurī 108-9 De Goeje, Mémoire 35-6. Already in 619 the road beyond Ascalon to the south had been blocked by Arabs, Pl 74:121. Michael Breydy in his German translation of Eutychius, Ann, 276 (p. 111, n, 5) erroneously identifies "Tadun" as a place in modern Jordan, although Eutychius expressly identifies it as a village of Gaza. Caetani , Al 2: 1138, 1141, has achieved a plausible identification of Dathin near Gaza, Breydy's identifications must be rejected ; cf. Yāqūt 2: 514-15.

21 Ibn Asākir on ' Amr not taking donkeys, sheep : TMD1 : 461; cf. Eutychius , Ann. 276 (131 Bredy). Misidentification of Heran – which is really Hira - in Theophane's narrative completely vitiates any thesis of some kind of a Muslim approach to Gaza by way of the inner Sinai, as argued by Mayerson 161-2.

22 See G. W. Bowersock, Roman Arabia (Cambridge 1983) 103-5. Nomad raids are: D.F. Graf, "The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier," BASOR 229 (1978) 1-26; Benjamin Isaac, limits of Empire 374-418, criticizes limes theories; cf. S. T. Parker, Romans and Saracens (Winona Lake, IN, 1985) ; Ph. Mayerson, "The Saracens and the Limes," BASOR 262 (1986) 35-47.

23 Cf. Choricius of Gaza, Or. 3.10-38, 4. 16-32, on Aratios, Stephanos,

and Summus, who stopped nomadic raids, brought peace, and fairly distributed tax assessements; s.v. "Summus," PLRE 2: 1038-9.

24 Nicephorus, Hist. 20 (68-71 Mango). theophanes, Chron., AM 6123 (335-6 De Boor). Doctrina Lacobi nuper baptizati c. 16 (86, lines 12-15 Bonwetsch). Date of Doctrina estimated to be written soon after 634 in Palestine : P. Crone, M. A. Cook, Hagarism (Cambridge: Cambridge University Press, 1977) 3-4. Michael the Syrian , Chron. 9.4 (2:413 Chabot).

25 Weihnachtspredigt des Sophronios, "ed. By H. Usener, Rheinisches Museum n.s 41 (1886) 506-7. Sophoronius," Epistola synodica ad Sergium Cp., PG 87: 3197 D.

26 Doctrina lacobi nuper baptizati c. 16 (86, lines 11-23, Bonwetsch).

27 Anastasius Sinaita, Sermo adversus Monotheletas 3.1.86-92, in: Anastasii Sinaitae Opera, ed. By Karl-Heinz Uthemann (CC, Ser. Graeca, 12 [Brepols-Turnhout: Leuven University Press, 1985]) 60. Theoph., Chron., AM 6121, 6123 (332, 335-6 De Boor), Eutychius, Ann. (131-2 Breydy text, 111 Bredy trans.) mentions it, apparently conflated with Ajnadayn.

28 Eutychius, Ann. 276 (131-5 Breydy text, 111-13 Bredy trans.) Cf. Al-Tabara/Sayf I 2398-400. Ibn 'Asākir 1:461-2. N. H. Baynes, "The Date of the Avar Surprise," BZ 21 (1912)10-128. Maurikios, Strategokon 9.2. 12 (306-7 Dennis-Gamillscheg).

29 Al-Tabari (Sayf) I 2398-400.

30 On Wardan's perception of the words and intentions of the Byzantine commandor: Eutuchius, Ann. (132 Breydy). Capture of al-Mundhir by means of an invitation to a parley: Goubert, Byzance avant l'Islam 1:249-57. Al-Nu'man was initially unsuccessfully sought to be seized at a meeting, Goubert, Byzance avant l'Islam 1:257-9; John of Ephesus, HE 3.3. 42-3, 56 (132-3, 135-6 Brooks, CSCO trans.) evagrius , HE 6.2 (223 Bidez-Parmentier).

31 Ibn Asākir, TMD 1:461-2. Sebeos c. 30 (124-6 Bedrosian, 96-7 Macler) of course Sebeos states, "We heard this [account] from men [who had returned] from captivity in Xuzhastan Tachkastan, who themselves had been eye-witnesses to the events described and narrated them to us" (131 Bedrosian 102 Macler), and claims to have gained his information from prisoners, which is plausible . but cf. Heinrich Hubschmann, Zur Geschischte Armeniens und der ersten Kriege der Araber (Leipzeg 1875) 18, n. 3. Bedrosian does not show awareness of Hubschmann's comments. Azdi 25, 26, 27; al-Tabri (Sayf ) I 2398-400.

32 Commander was that of Gaza: Eutychius, Ann. (132 Breydy). Martyrs of Gaza: Delehaye, "Passio sanctorum sextaginta martyrum," AB 23 (1904) 289-307; J. Pargoire, "Les LX Martyrs de Gaza," EO 8 (1905) 40-3. The remains of the executed garrison were probably buried in special church, that of the Holy Trinity, at Eleutheropolis (Beth Guvrin or Bayt Jibrin) see Bellarmino Bagatti, "Il cristianesimo as Eleuteropoli," libre Annus 22 (1972)116; Bagatti, Antichi villaggi cristiani di Giudea e Neghev (Studium Biblicum Franciscanum, Collectio Minor, 24 {Jerusalem 1983} 125. At present , no ruins have been thus far identified .

33 Delehaye, "Passio sanctorum sextaginta martyrum" 303 and explanations of Pargoire," Les LX Martyrs de Gaza" 40-3.

34 Kaegi, "Byzantic Egypt during the Arab Invasion of Palestine and Syria: some Observations," American Research Center in Egypt Newsletter 121 (Spring 1983) 11-15.

35 Theoph. Chron., AM 6126 (338 De Goeje) A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt. Rev. by P. M. Fraser (Oxford 1978 ) 481-3. See Stratos, Byzantium in the Seventh Century 2: 88-90, 214.

36 Corippus, In laudem Iustini, pr. 6-9 ; 3.230-407, ed. And trans. By



Averil Cameron (London: University of London Press, 1976) e. Stein, Studien (Stuttgart 1919), in general; E. Stein, HBE 2:486-92; Charles Diehl, Byzantium: Greatness and Decline (New Brunswick 1954) esp. 53-9.

37 Muslim sources often conflate Dathin and Yarmuk. Yet Byzantine sources such as Theophanes, Chron., AM 6121 (332 De Boor), and St. Anastasius the Sinaite, Sermo adversus Monotheletas 3.1. 86-92 (60 Uthemann), mention Dathin or "Dathesmon" and Yarmuk as separate battles in recounting lists of Byzantine military disasters at the hands of the Muslims. The references by St. Anastasius the Sinaite here are the earliest surviving references in Greek to the name of the site of the battle of Dathin (in contrast to still earlier, almost contemporary vague allusion by the author of the Doctrina lacobi nuper baptizati the defeat and death of the Candidatos Sergios) and to the battle of the Yarmuk , calling it a battle at the Yarmuk.

38 Ajnadayn is probably located approximately at latitude 31° 41, N. and longitude 34° 57' E. it is about 37 kilometers southeast of Jerusalem, 9 kilometers northeast of Bet Guvrin (Arabic Bayt Jibrin), 3 kilometers east of Agur, and 2 kilometers south of Zekharya. See Sheet 11-12, Israel Series 1:11,000 (Tel Aviv :Survey of Israel, 1981) ("Yerushalayim"), and for an older map, see sites of "Jannaba at Tahta" and "Janaba al-Fawqa" on sheet 10 "Hebron," in Survey of Palestine (1935), at scale 1:100,000. Caetani, Al 2:24-81, summarizes the previous scholarship and provides rather definitive treatment. I thank Professor Mordechai Gichon for giving me a personal tour of that battlefield, in the spring of 1979. H. A. R. Gibb, s.v., "Ajnadayn," EI[2] 1:208-9.

39 Fredegarius, Chron., 4.66 (153 Krusch)= (55 Wallace-Hadrill). Andreas Kusterning edn and trans., Quellen zur Geschichte des 7. Und 8. Jahrhunderis (Darmstadt: Wissemschaftliche Buchgesellschaft, 1982) 232-3; cf. 9-13; W. Goffart, "The Fredegar Problem Reconsidered," Speculum 38 (1963) 206-41, esp. 218; Alvar Erikson, "The problem of the Authorship in the Chronicle of Fredegar," Eranos 63 (1965) 76. Here Fredegarius is not referring to the battle of the Yarmuk, but to Ajnadayn: Ekkehart Rotter, Abendland und Sarazenen (Berlin: de Gruyter, 1986) 152-3; date: p. 149, Fredegarius is using directly or indirectly some oriental source, whether Syriac or Greek, for this is probably too early for direct use of an Arabic source. The other possibility is that this section of Fredegarius 'Chronicle was interpolated later. I thank Walter Goffart for advice.

40 Cf. Note 3. Above A. Kamal, Tariq ila Dimashq, makes unsubstantiated statements, among other places , esp. on pp. 196-259 , in establishing a chronology and itinerary for the Muslim invasions.

41 Al-Tabari 2125-6. Ibn Asākir, TMD 1: 447, 480-3., ibn Khayyat al-Usfuri 1:87; Baladhurī 113-14; al-Ya'qubi 2:134; Azdi 84-9.

42 Al-Tabari I 2125-6. Ibn Asākir, TMD 1: 447 , 480-3; Ibn Khayyat al"Usfuri 1: 87 ; Baladhurī, 113-14 ; al-Yaqubi 2: 134.

43 Theoph., Chron., AM 6125 (337 De Boor) ; Nicephoros, Hist 20 (68-9 Mango).

44 Christian Arabs supply Byzantines: Kufi 1:144.

45 Sophronius, PG 87: 3297D

46 Baladhurī (114 De Goeje), flight of Byzantine troops to cities: Baladhurī (115, 175, 177 De Goeje); Kufi 1:194: Azdi 165.

47 Sophronius , "Weihnachtspredigt" Esp. 506-15 Usener; Azdi 92; Baladhurī 114.

48 Walled towns, sieges: Procppius, Bella 2.5.12-33; 2.6.3-9; 2.11.14-2.12.4; 2.12.31; 2.13.16-29; Joh. Ephes, HE 3.3.42-3 (130-3 Chabot). stein, HBE 2;486-92; H. Turtledove, "Immediate Successors of

Justinian" 314-22, : Goubert, Byzance avant l'Islam 1:69-70.

49 Procopius, Bella 5.22.2-8, 5.27.6-15.

50 Ibn 'Asākir, TMD 1: 473-4; cf. "Extract from the Chronicle of AD 1234," Palmer chronicle, part 2,text 13, sect. 48.

51 Siege machinery in the Hijaz during the Prophet's lifetime: Ibn Hishām (Wüstenfeld 869, 872-3) catapults for use against walled towns. I learned much from a conversation with Professor Kister about this problem.

52 Azdi 28-9, 34. Ibn 'Asākir 1:440, and esp. 473-5. Ibn al-Athir (2: 414 Tornberg).

53 Azdi 28-9 ; al-Tabari I 2104. Cf. Ibn al-Athir, Chronicon (2:311 Torenberg).

54 Gaza: F. M. Abel, "Inscription grecque de Gaza," Revue Biblique 40 (1931) 94-6. Baalbeck: Inscriptions greques et latines de la Syrie no. 2828. (Bibliothèque Archéologique et Historique, T. 6 {Paris: Geuthner, 1967} 133. J. H. W. G. Liebeschuetz,. "The defenses of Syria in the Sixth Century," Beihäfte der Bonner Jahrbucher 38: studien zur Militagrenzen Roms 2 (1977) 461-71.

55 Piccirillo, "Le iscrizioni di Umm er-Rasas-Kastron Mefaa," Liber Annuus Biblicum Franciscanum 37 (1987) 185-6, 196, 219. One of the most important mosaics illustrating towns and their walls probably dates to AD 718, according to Dr. Robert Schick.

56 De Goeije, Mémoire1 esp. pp. 29-31.

57 Theoph., Chron., AM 6126, 6128 (338, 340 De Boor).

58 Ibn al-Adīm, Zubdat al-Halab min Ta'rikh Halab 1:25. This is another partial confirmation of Azdi al-Tabari 2094.

59 Sophronius, "Weihnachtspredigt " 508.

60 Doctrina Iacobi nuper baptizati (88 Bonwetsch).

61 Lawrence I. Conrad, "Abraha and Muhammad: Some observations apropos of Chronology and literary Topoi in the Early Arabic Historical Tradition," BSOAS 50 (1987) 236-40.

62 Baladhurī 113. On the controversy concerning the route of Khalid: Donner, EIC 119-27. P. Crone, s.v. "Khalid b. al-Walid ," EI1 4: 928-9; cf. Caetani, Al 2:1213-20.

63 Mari Rahit: Baladhurī 112; al-Tabari I 2109-10; De Goeje, Mémoire 2 39-41; Donner, EIC 124-5. Nearby obscure battle of Mari al-Suffar: Baladhurī 118; Donner , EIC 130-1; Caetani, Al 3:310-24.

64 Baladhurī 115, 118,135,140.

65 Nicephorus, Hist 20 (68-71 Mango). Continuatio {Isidoriana} hispana. ed. By T. Mommsen, MHAA, Chron. Min., 11:337-8=Cronica mozarabe de 754, ed. By Jose Eduardo Lopez Pereira (Zaragoza 1980) 30-1. Also a hint of heraclius' warning in Sebeos, Hist. C. 30 (96-7 Macler); Ibn Asākir 1:439-40. W. E. Kaegi, "The Strategy of Heraclius," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1:104-15.

66 Sixth-century admonitions of the Anonymous Byzantine Treatise on Strategy 33 (102-5 Dennis, three Byz. Mil. Treatises).

67 Michael the Syrian, Chronique 11.5 (2:418 Chabot).

68 Menander Rhetor, ed., trans., and comment. By D. A. Russell, Nigel Wilson (Oxford: Clrendon Press, 1981) 84-7.

## 6) مشكلات التماسك

01 P. Speck Das geteilte Dossier (Bonn 1988) 172-81, imaginatively criticizes and reconstructs Theophanes' account, but he does not understand the oriental sources and does not use Caetani, Al, or Donner, EIC, or other basic modern scholarship on the battle of Jabiya-Yarmuk and related campaigning.



02 Theoph., Chron., AM 6121 (332 De Boor); Anastasius the Sinaite, Sermo adversus Monotheletas 3.1.86 (60 Utheman); Pseudo-Methodius, Die Apokalypse des Ps. Monotheletas ZDMG 29 (1875) 78-80; Cont. Byz. Arab., MGHAA 11:337 Michael the Syrian, Chronique 11.6 (2:429 Chabot) see M. J. De Goeje, Mémoire2 119-20. On Ghassanids in the vicinity: al-Mas'udi, les Prairies d'or, ed. And trans. By Barbier de Meynard, Pavet de Courteille (Paris 1864) 3: 220.

03 Location of Jabiya: Sheet 7, PEF Palestine, Jabiya is located at approximately longitude 36 °E and latitude 32 °56' N, about 3 miles northeast of the district town of Nawa and about 8 miles northeast of the old Roman bridge over the Wadi Ruqqad, and about one mile north of Tell Jabiya, which is marked as "Tell ej Jabiyeh" on PEF Palestine, sheet 7. See G. Cornu, Atlas 3:6. I wish to thank Syrian authorities and civilians at Nawa for assisting me in my visit to Jabiya and vicinity in July 1984.

04 Date: palmer, "Record of the Arab Conquest of Syria, AD 637," shadow, part 1,1, line 21: cf. Theodor Nöldeke, "Zur Geschichte der Araber im. 1. Jahrhundert d.H. aus syrischen Quellen," ZDMG 29 (1875) 78-9; De Goeje, Mémoire 1 108-10; L. Caetani, Al 3:573. But Donner, EIC 140-6. I see no reason to reject the dating of Nöldeke and Caetani, assuming that one understands that military operations of the battle between Jabiya and the Wadi Ruqqad probably lasted several days and given date is that of the climactic final action.

05 Location: caetani, Al 3: 508-30; John Bagot Glubb, The Great Arab Conquests (London: Hodder and Stoughton, 1963) 141-51.

06 Kaegi, "The Strategy of Heraclius," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 109.

07 Al-Tabari/Nöldeke 297, 299-300. Qur'an, sura 30:1-3. See commentary of Husayn ibn Muhammad al-Diyarbakri on this passage, Ta'rikh al-khamis fi abwal anfas nafis (repr. Beirut 1970 of 1866 original edn.) 1:298.

08 John Bagot Glubb, The Great Arab Conquests (London: Hodder and Stroughton, 1963) 136, 140-3.

09 M. Avi-Yonah, s.v. "Naveh," EJ12 (1972) 897; F.Buhl-N.Elisseeff, s.v. "Adhri at," EL[2] 1:194; Claudine M. Dauphin, "Jewish and Christian Communities in the Roman and Byzantine Gaulanitis," Palestine Exploration Quarterly 114 (1982) 137. Ghassanid location: Nöldeke, Die ghassanidenischen Fursten 46-51; F.E. Peters, "Byzantium and the Arabs of Syria," Annales Archeologiques Arabes syriennes 27-8 (1977-8) 97-113; H. Gaube, "Arabs in Sixth-Century Syria: Some Observations," British Society for Middle Eastern Studies Bulletin 8 (1981) 93-8, esp 96-7, argues Ghassanid extension into Golan was "atypical" but at least two Golan place-names mention the Ghassanids (although it is possible that they derive from later settlers who claimed, rightly or wrongly, descent from the Ghassanids): Tell el Ghassaniye, Mumsiyye el Ghassaniye, in D. Urman, The Golan: A Profile of a Region during the Roman and Byzantine Periods (Oxford: BAR, 1985) 68, 192, no. 57, who does not discuss these problems.

10 Theophylact Simocatta, Hist. 5.7.9, trans. By Michael and Mary Whit by (Oxford: Clarendon, 1986) 142.

11 Ibn Hishām, Das Leben Muhammed's nach Muhammed Ibn Isbak bearbeitet von Adb el-Malik Ibn Hischam, ed. By Ferdinand Wustenfeld (Gottingen: Dieterische Universitats-Buchhandlung, 1859), vol. 1, part 2, p. 657; s.v. "Nadir," Ej 12 (1972) 754-5. Date: J.M.B. Jones, "The Cronology of the Maghāzi- A Textual Survey," BSOAS 19 (1957) 268. Eusebius, Onomasticon, GCS (Leipzig 1904) 136; Jerome's Latin version on p. 137 of same edn. Examples of

Jewish violent action against Christians north of Jerusalem, in Acre and Tyre, during the Persian invasions: Sargis of Aberga, Controverse Judeo-Chretienne, PO 13:84; Eutychius, Ann. 270 (1: 121-2 Breydy edn).

12 Expugnat. Hierosol. Arab. 24.10f-n (Garitte Versio 1:149-50). Eutychius, Ann. (Breydy 129 text, 109 trans.).

13 Expugnat. Hierosol. Arab. 24.10f-n (Garitte Versio: 149-50). Eutychius, Ann. (128 Breydy text, 108 Breydy trans.); cf. Michel Breydy, Etudes sur Said ibn Batriq et ses sources (GSCO vol. 450, Subsida, T. 69 [Louvain: E. Peeters, 1983]).

14 Sargis of Aberga, Controverse Judeo-Chretienne, PO 13: 84; Eutychius, Ann. 270 (1:121-2 Breydy edn).

15 Speck, Das geteilte Dossier 317-41, for a different chronology and excessive skepticism about alleged details of the life of Shahrbaraz.

16 The itinerary of Heraclius is obscure in primary and moder sources. Expugna. Hiersol. AD 614 Arab., 24.12, Version C, ed. And trans. By G. Garitte (GSCE, vol. 347 [Louvain 1974]) 102, translation, 150 Arabic Original, indicates Heraclius left Jerusalem by way of Damascus; and it is similar to Eutychius, Ann. 271 (127-9 Breydy).

17 On the earlier battle between Adhri at and Bostra, al-Tabari/Nöldeke, Geschichte der Perser und araber zur Zeit der Sasaniden aus der arabischen Chronik des al-tabari (Leiden: Brill, 1879) 297, 299-300. Ibn Kathir, Tafsir al-Qur'an (Beirut: Dar al-Andalus, 1983) 5:344. On Niketas: Michael the Syrian, Chronique 11.6 (2:421 Chabot); Nicephorus, Hit. 1-2, 5 (38-9, 44-5, Mango). Heraclius arranged the marriage of his son Theodosius to Nike, daughter of Nicketas, son of Shahrbaraz, probably in the abortive hope of inducing the conversion of Persia to Christianity: Nicephorus, Hist 17 (64-5, 184 Mango).

18 Nicephorus, Hist. 20(68-9 Mango); for the meaning of στρατηγόν τε ἀνατολῆς, see index of C.De Boor, Hist., who identifies the office as magister militum, p. 244.

19 Ibn 'Asākir, TMD 1: 535, via tranditions from Abu'Ali b. Sawwaf, from al-Hasan b. 'Ali al-Qattan, from Ismail b. Isa al 'Attāar from Abu Hudhayfa Ishaq b. Bishr, and Said b. 'Abd al-'Aziz; cf Caetani, Al 3: 557-8.

20 Maurice, Strategikon 12A.7 (133-6 Dennis trans).

21 Location of this old Roman bridge, see sheet 7, from maps in PEF Palestine. The approximate latitude is 39 53 E and the longitude is 32 52 N.

22 PEF Palestine, Sheet 7 Yaqusa is located about 12 miles southeast of the old roman bridge over the Wadi Ruqqad.

23 Caetani, Al 3:499-613; De Goeje, Memoire esp. 103-36. Glubb, The Great Arab Conquess 173-80. See Yusuf Ghawanma, Ma'arakat al-Yarmuk (Irbid: Dar Hishām l'il nashr w'al Tawzi, 1985) for a reconstruction of the battle. He has personal familiarity with much of the area, has read many of the relevant Arabic sources, but he ignores the researches of Leone Caetani, Annali dell'slam. He uncritically accepts statement from Pseudo Waqidi, such as, p. 35, the presence of Rus [sic] at the battle of the Yarmuk, which weakens his investigation. He provides a suggestive and ingenious reconstruction of five days of battle and a sixth of Muslim pursuit of the Byzantines. His reconstruction shows ignorance of Caetani's arguments for the decisive location of the principal Byzantine forces between the Wadi'l Ruqqad and the Wadi'l 'Allan; Ghawanma's reconstruction has serious topographical flaws. Ghawanma's reconstruction cannot be read alone. It requires critical comparison with other analysis of the topography and military operations. Poorly. Documented – with few references to sources and again none to the great work of Caetani – is



the otherwise plausible schema of M. Talas, Sayf Allab, Khalid ibn al-Walid (Damascus 1978) 387-431, whose maps at the end of his volume provide a more reasonable reconstruction of the battle. Yet he fails to give a critical assessment of the primary and secondary literature Ahmad 'Adil Kamal, al-Tariq ila Dimashq (Beirut 1982) 403-507 uses sources uncritically and again fails to consult Caetani. His maps, figures 29-33, which are located between pp. 476 and 492, are, however, not implausible reconstructins.

24 More bluntly put, many modern historians appear to have little or no knowledge of Italian and therefore have avoided using Caetani's weight tomes.

25 John W. Jandora, "The Battle of the Yarmuk: A Reconstruction," Journal of Asian History 19 (1985) 8-21; this provocative recent interpretation does not employ all of the modern bibliography or all of the primary sources, esp. n Byzantine strategy and tactics. The term "cataphract," for example, on pp. 14-15, is not very relevant to this period of Byzantine military history; cf. Lawrence Conrad, "Seven and the Tasbi," JESHO 31 (1988) 54-5.

26 Ghevond, History of Lewond the Eminent Vardapet of the Armenians, trans.by Rev Zaven Arzoumanian (Wynnewood 1982) 48-9; Histoire des guerres et des conquetes des arabes en Armenie trans. By Garabed Ghahnazarian (Paris: Librarie de Ch. Meyrueis et Compagnie, Editeures, 1856) 3-4. Sebeos, Sebeos' History trans. By Robert Bedrosian (New York 1985) 125, and Histoire d'Heraclius c. 30 (97-8 Macler) Sebeos (131 Bedrosian, 102 Macler) claims that his information derives from prisoners; cf. Heinrich Hubschmann, Zur Geschichte Armeniens und der ersten kriege der Araber (Leipzig 1875) 18, n. 3. Bedrosian does not show awareness of Hubschmann's remarks on the difficulties in interpreting this passage.

27 Strategikon 11.1.

28 Strategikon 5.3, for keeping baggage some distance from battle; esp. 9.1 (94 Dennis trans), 12.B22, on placing camp on enemy's side of river and the importance of securing bridges to permit unrestricted passing of Byzantine troops from battle areas where necessary. Yet Fredegarius, Chron. 4.66, ed. By Bruno Krusch (MGH Scriptores Rerum Merovingicarum, T. 2 [Hanover 1888; repr. 1984]) 153-4, states that both camps were located not far away from each other.

29 Roman manuals recommended placing the camp so that a river or stream bordered it on one side or the other: Pseudo-Hyginus, Des fortifications du camp c. 57, ed. And trans. By Maurice Lenoir (Paris: Les Belles Lettres, 1979) 22; cf Carl von Clausewitz, Vom Kriege, ed by W. Hahlweg (Bonn: Ferd. Dummlers Verlag, 1973) 525.

30 'Abd al-hamid b. Yahya, Risala 4: 521-3 = Schonig, Sendschreiben 62-4.

31 Just. Nov. 130.1-3. Eutychius, ann. 278-9 (135-7 Breydy edn., 114-15 Breydy trans.).

32 Anonymous Byzantine Treatise on Strategy, c. 29, ed. In: G. T. Dennis, Three Byzantine Military Treatises (Dumbarton Oaks Texts, 9 [Wahington, DC. Dumbarton Oaks, 1985]) 90-1.

33 Strategikon 7B.10 (71-2 Dennis trans.), 11.B22 (159 Dennis trans.); cf.Leo VI warned in his Tactica 19.112=PG 107: 972, that the Arabs or "Saracens" use cymbals and make sounds that upset their enemies. He repeats this, Tactica 18.141 (PG 107: 981), recommending that commanders accustom their horses to noises of drums and cymbals and to the sight of camels. Strategikon also advises that foragers are to flee in haste back to camp if certain signals are given. Byzantine troops indeed may have mistook the noise made by Mansur's men as an indication of the approach of the enemy, as the Strategikon says that it might be.

34 Fredegarius, Chron. 4.66 (153-4 Krusch)=(55 Wallace-Hadrill); Kusterning, Quellen 232-4; cf 9-13. The "sword" may mean Khalid.

35 Ekkehart Rotter, Abendland und Sarazenen (Berlin: De Gruyter, 1986) 153-70. But Rotter makes no use of Caetani, Al, on the battle; he onley uses Caetani's other volumes on Chronographia islamica. Rotter dates some material in the Fredegarius chronicle to c. 659: p. 149. Rotter fails to appreciate that Fredegarius is the oldest extand source, however garbled, on the battle.

36 Fredegarius, Chron. 4.66 (166 Krusch); Eutychius, Ann. 278-9 (136-7 Breydy); Ibn 'Asākir 1:534, 544, 550 on nigh-fighting, see Leo VI, in his Tactica, 17, 117 (PG 107: 973), who claims that "Saracens" fear night-fighting and nighttime attacks on their camps. Late Umayyad fears about fighting at night: 'Abd al-Hamid ibn Yahay, Risala 4:523-4,526=Schonig, Sendschreiben 64-6. It is likely that Muslims also harbored such fears in the preceding (seventh) century.

37 Byzantine use of infantry at the battle: Sebeos, Hist. C. 30 (125 Bedrosian, 97 Macler); cf. the derivative tenth-century history of Thomas artsruni, History of the House of the artsrunik, trans. By R. W. Thomson (Detroit: Wayne State, 1985) 167-8; al-Tabari 2089, 2099-100; Ibn 'Asākir 1: 538-9, 547. Recommendation for carefully drawn-up infantry formations against the Persians: Strategikon 11.1 (114 Dennis trans.).

38 Muslim historians report actions of Byzantine armies that appear to involve the so-called mixed formation of the Strategikon 12.1-7 (127-36 Dennis trans.): al-Tabari 2099; Ibn 'Asākir, TMD 1: 547. Difficulties with combining horse and foot: Arthur Ferrill, The Fall of the roman Empire: The Military Explanation (New York: Thames and Hudson, 1986) 63, on the battle of adrianople (378); Raimondo Montecuccoli, Memoire del General prencipe di Montecucculi . . (Colonia 1704) 37-8; cf. Monsieur le Comte Turpin de Crisse, Commentaires sur les Memoires de Montecucculi . .(Paris: Lamcobe, Lejay, 1759), 1:42, 102-3, 111-12, 190-1, 204-9, 231-6; yet Marshall De Saxe, Reveries, in: T. N. Phillips, the roots of Strategy (reps. Greenwood Press, 1985), 136-7.

39 Baladhurī 135, references to Byzantine soldiers being chained together probably denote the locking of shields in the standard Byzantine so-called mixed formation: Strategikon 12.7 (134 Dennis trans.); cf. Strategikon 12A.16 (146 Dennis trans.).

40 Bravery of Byzantine soldiers early in battle: Ibn 'Asākir 1:537; al-Tabari 2097-9; Azdi 222-3, 225-7. Camps: Fredegarius, Chron. 4.66 (153-4 Krusch) Ghevond [Lewond], Histoire des guerres et des conquetes des arabes, trans. By G. V. Ghahnazarian (Paris 1856) 3-4. Muslims storm Byzantine camp: Ibn 'Asākir, TMD 1: 534, 540-3; al-Tabari I 2088-100.

41 Richard Holmes, Acts of War: The Behaviour of Men in Battle (New York 1985) 381-92.

42 Azdi 15

43 Ibn 'Asākir, TMD 1:531-3.

44 Baladhurī 135

45 Cont. Byz. Arab., MGHAA 11:337-8 = Cronica mozarabe de 754, ed. By Jose Eduardo Lopez Perira (Zaragoza 1980) 30-1.

46 Strategikon 11.1 (113-14 Dennis trans.); 12B.23 (162 Dennis trans.); also 7.17 (78 Dennis trans.).

47 Byzantines probably tried to contact Muslim leaders to try to win at least some of them over to thir side: Ibn 'Asākir, TMD 1:533. The author of the Strategikon recommends that Byzantine commanders who must fight strange people give their men some time to accustom themselves to these new foes, so that the lose any fright about them:



7.11 (67-8 Dennis trans.). Thus the assertion of some Mustlim sources that Vahan deliberately gave his men some time to gain familiarity with the Muslims is very plausible and consistent with the recommendations of the prevailing Byzatine military treatise. In about AD 900, Emperor Leo VI recommended that Byzantine commanders accustom their horses, and presumably their men, to the noise of drums and cymbals and the sight of camels and the sight of camels, all of which the Arabs used in battle, he emphasized: Tactica 18.112 = PG 107: 972; 18.141 PG 107: 981. This including why they camped relatively close to the Muslims; cf. Polyaenus, Strat. 7.6.6, ed. By R. Vari (repr. Struttgart: Teubner, 1970) 317.

48 Al-Tabari I 2088. See F. Tuqan, "Al-Waqusah," 1985 Bilād-al-Shām Proceeding 2:323-31.

49 Ibn 'Asākir, TMD 1: 531-3.

50 Eutychius, Ann.(136 Breydy edn, 115 Breydy trans. = Cheikho 2:14).

51 Donner, EIC 221, estimates "perhaps 20,000 to 40,000," which is conceivable, but definitely on the high side of what is reasonable for Byzantine troops in that impoverished Heraclian era Unrealistically high are the estimates of Jandora, "the Batle of the Yarmuk" 14; cf. Lawrence Conrad," Seven and the Tasbi," JESHO 31 (1988) 54-5.

52 Friction between various Byzatnine commanders: Theoph., Chron., AM 6126 (637-8 De Boor), including the alleged revolt of Armenian troops in support of Vahan. Ibn 'Asākir, TMD I: 541.

53 W. E. Kaegi, BMU 64-88, 293-325.

54 Theoph., Chron., AM 6126 (3378 De Boor). Armenian ecclesiastical strife: G. Garitte, La narratio de rebus Armeniae, Diegesis 121, CSCO, Subsidia, T. 4 (Louvain 1952) 43, 302-4. Ibn 'Asākir, TMD 1: 541, 547; al-Tabari I 2097-9. There is no confirmation from Byzantine texts, except by a most libera reinterpretation of theophanes' account of Vahan and ascribing into "George.".

55 Friction among Armenian troops: De Goeje, Memoire 114-22. Ibn 'Asākir, TMD 1: 541. Later reports of friction between Monophysites and the presumable Monothelite brother of Heraclius, Theodore: Michael the Syrian, Chronique 11.5 (2: 418). Fredegarius implies friction in his account of un willingness of the Byzantine soldiers to engage the Muslims on the decisive morning of battle: Chron. 4.66 (153-4 Krushc); Azdi 176-7; Eutrychius, Ann. (131 Breydy edn, 111 Breydy trans.) on strict discipline of Muslims, under orders from Abu Bakr.

56 Theoph., Chron., AM 6125 (De Boor 337); Nicephorose, Hist. 20(68-71 Mango) . These events may have followed the battle of Ajnadayn. The accounts are muddled. But it appears that Theodore lost favor.

57 Azdi 176-7. Ibn 'Asākir, TMD 1:534; al-Tabari I:2347, reports desertion of Arab allies of Byzantines. The author of the Strategikon advises "Long before battle, troops of the same race as the enemy should be separated from the army and sent elsewhere to avoid their goin over to the enemy at a critical moment" 7.15 (69 Dennis trans.). But Lakhm and Judham abandoned the Muslims: De Goeje, Memoire 114.

58 Ibn 'Asākir, TMD 1:534. For stress on the encouragement of desertion of one's enemies: 'Abd al-Hamid b. Yahya, Risala 4:531=Schonig, Sendschreiben 71. This passage emphasizes the desirability of encouraging dissension and desertions and switching sides in the warfare of the mid-eight century, but its advice may hve some validity for the conduct of Muslim in encouraging desertion and switching by Arabs who had been allied with the Byzantines.

59 W.E.Kaegi, "The Annona Militaris in the Early Seventh Century," Byzantina 13 (1985) 591-6.

60 Provincial borders: Geoge of Cyprus, in: Le Synekdemos d'Hierokles et l'opuscule geographique de Georges de Ghypre, ed. And comment. By E. Honigmann (Corpus Bruxellense Historieae Byzantinae, Forma Imperii Byzantini, fasc. 1 [Brussels 1939] 41-5, 66-70 and background, 1-9, 49-50, map IV.

61 Al-Tabari (via Sayf, Abu 'Uthmān Yazīd b. Asīd al-Ghassāni) i 2099-100: Byzantine officers sit down, are slain. Widespread and far flight after the battle: Baladhurī 135.

62 Cf. the defeat of the Roman army of P. Quinctilius Varus at the battle of the Teutoberg Forest, in AD 9, Cassius Dio, Historiarum romanarum quae supersunt 56.22. 1, ed. By Ph. Boissevain (Berlin: Weidmann, 1898) 2: 534. broader reflections: Richard A. Holmes, Acts of War 213-29, 381-2.

63 Commposition of Byzantine armies at Yarmuk, disparate recruitment: al-Tabari, Ta'rkh I:2081, 2347, 2394; Baladhurī 135, 164, 181-3; Azdi 28, 111, 125, 152, 174-7; Ibn al-Ahir (2: 308, 381 Tornberg).

64 Azdi 235-7; c. L. I Conrad, "al-Azdi,s History of the Arab Conquestsin Bilād-al-Shām: Some Historiographical Observation," 1985 Bilād-al-Shām Proceeding 1: 28-62.

65 Donner, EIC 48-9.

66 Niketas fled to Hims, is slain: Michael the Syrian, Chronique 11.6 (2: 421 Chabot); C. Mango, "Deux Etudes sur Byzance et la prese Sassanide," TM 9 (1985) 105-18. But Speck, Das geteilte Dossier 317-50, for skepticism about Theophanes' account of Niketas and his father Shahrbaraz.

67 Sebeos, Hist. (125 Bedrosian) and c. 30 (97 Macler); Theoph., Chron., AM 6126 (337-8 De Boor). This may also be a distorting of a lost "eastern source" for both Muslim and Christian extant historical accounts, which may have spoken of a foggy day.

68 I have myself seen swirls of dust in late August (in 1984) near Ramtha, which is not far from the place of the battle.

69 Francisco Javier Martinez, "Eastern Christian Apocalyptic Tradition in the Early Muslim Period" (unpub. Ph. D. diss., Catholic University, 1985) 140, and comment. On pp. 186-7, accepts Kmosko's identification of Geb'ut Ramta with Jabiya, but does not understand how the entire region between Jabiya and Ramtha was the scene of the battlefield of the Yarmuk battle. The Syriac text correlates with information that Ibn 'Asākir gives, cf. Harald Suermann, Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7. Jahrhunderts (Frankfurt, Bern, New York: Peter Lang, 1985) 60-3; on p. 60, n. 322, he accepts indentification of Gabaoth with "Stadt Gabitha beim Flus Yarmuk"; Suermann, 159-61, dates Pseudo-Methodius between 644 and 674.

70 Pseudo-Methodius, Die Apokalypse, Llos edn., implies that the Muslims drew the Byzantines into a trap: 11.3 (96-7 Lolos); also, A. Lolos, ed., Die dritte und vierte Redaktion des Ps. Methodios 11.3, in: Beiträge zur klassischen philiologie, H. 94 (Meisenheim am Glan 1978) 40-2. Theoph., Chron., AM 6126 (337-8 De Boor). On Pseudo-Methodius, Paul J. Alexander, The Byzantine Apocalyptic Tradition (Berkeley 1985) 13-60; F. J. Martinez, "Eastern Christian Apocalyptic Tradition." On trapping the Byzantines: Ibn 'Asākir, TMD 1: 532-4, 549. al-Tabari i 2088. Michael the Syrian, Chronique 11.6 (2: 420-1Chabot).

71 Professor Yusuf Ghawanma, of Yarmuk University, who had done so as a child from the Jordanian village of Saham of the southern side of the Yarmuck gorge, so informed me.

72 I visited the Jordanian side of the gorge in October, 1983, with the generous assistance of Professor Ghawamma and Yarmuk University.



I again visited the southern heights overlooking he Yarmuk near the village of Hartha, which is slightly east of Saham, on 24 March 1985.

73 Bloodiness of the battle: Ibn 'Asākir, TMD 1:542, 544; Azdi 230-1; Theoph., Chron., AM 6126 (337-8 De Boor); al-Tabari I:2091-2099, 2104; Baladhurī 135; Fredegairus, Chron. 4.66 (153-4 Krusch). Anas. Sinait. Sermo Adversus Monotheletas 3 (60 Uthemann).

74 Ibn A'tham al-kufi 1; 269-70. Eutychius, Ann 279 (136-7 Breydy edn, 116 Breydy trans.).

75 Carl von Clausewitz, On War, book 4. ch. 12, P. Paret trans. (Princeton 1978) p. 267=Vom kriege 480-1 W. Hahlweg ed.; cf. Clausewitz, 265 Paret and 474 Hahlweg.

76 Proper pursuit of a fleeing enemy: 'Abd al-Hamid b. Yahya, Risala 4:526=Schoning, Sendschreiben 66.

77 Kufi 1: 270. al-Tabari I:2104, I:2349, Michael the Syrian, Chronique (2:421 Chabot). Baladhurī 135.

78 Al-Tabari (Ibn Ishaq) I:2349. C. P. Haase, Untersuchungen zur landschaftsgeschichte Nordsyriens in der Umayyadenzeit (diss., University of Hamburg, 1972, publ Kiel 1975) 27, accepts the genuineness of this tradition of the pursuit to Melitene, as does Nadine F. Posner, "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia: An introductory Eassay into its Historical Background and Historiography" (unpub. Ph. D. diss., Dept. Near Eastern Languages and Literatures, New York University, 1985) 249-51. Both Caetani, Al, and De Goeje thought that this tradition was plausible, although they did not discuss it in detail, or the implications of it for interpreting other aspects of the conquests.

79 Anastasius the Sinaite, Sermo adversus Monotheletas 3.186-8 (60 Uthemann); Theoph., Chron., AM 6121 (332 De Boor).

80 Ch. 1, above and Cnt. Byz. Arab., MGHAA 11:336-7 = Cronica mazarabe de 754 (30-1 Lopez Pereira); Theoph., Chron., AM 6126 (337-8 De Boor). Divine wrath: Fredegarius, Chron. 4.66 (154 Krusch).

81 Cont. Byz. Arab. Reports cautionary advice of Heraclius, apparently from some ultimate Byzantine or Syriac source: MGHAA 11:336-7=Cronica mozarabe de 754 c. 8 (stealth: 28-9, warning of Heraclius: c. 9, 30-1 Lopez Pereira)

82 Al-Tabari i 2089; Irfan Shahid, "Asrar al-nasr al-'arabi fi futuh al-Sham," 1985 Bilād-al-Shām Proceeding: 137-47.

83 I visited the village of Hartha in 1987. Caetani, Al 3: 512, mentions, without comment, the location of Tall al-Jumu'a; he does not place it on his maps with an identification, although he clearly shows it unidentified. "Tall al-Jumu'a" is marked as "Tell ej Jemuah" on Sheet 7, PEF Palestine. It is located about two and one-half miles southwest of Nawa. Thus it was known before Caetani visited the vicinity of the battlefield a few years later.

84 The exact chronology is admittedly controversial. I have synthesized Christian and Muslim sources in determining this sequence of dates. I have omitted detailed citation of primary sources here to save space.

## 7) القتال القصير الأمد لإنقاذ سورية وميزوبوتاميا البيزنطية

01 Clausewitz, On War, book 4, ch. 13 (271 Paret)=Vom Kriege (486 Hahlweg).

02 On region in later era: Michael Bonner, "The Emergence of the Thughur: The Arab-Byzantine Frontier in the Early 'Abbasid Age" (Unpub. Ph.D. diss., Princeton University, 1987).

03 L. Dillemann, Haute Mesopotamie orientale et pays adjacents.

Contribution a la geographie historique, du Ve s. avant l'ere chretinne au Vle de cette ere (Institut francais d'archeologie de Beyrouth, Bibliotheque archeologique et historique, T. 72 [Paris: Geuthner, 1962]) esp. pp. 129-94 on roads, and pp. 198-240; Isaac, Limits of Empire 249-68, on the history of frontiers during Roman rule.

04 For the situation in the year 600, best is George of Cyprus, Le Synekdemos d'Hierokles et l'opuscule geographique de George de Chypre, ed, trans., and comment. By E. Honigmann, 63-4; for Synekdemos, p. 40 E. Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071 (Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae, 3 [Brussels 1935, repr. 1961]) 22-37.

05 Al-tabria i 2390-1. Azdi 237. Ibn al-Athir(2: 384 Tornbergy)

06 J. B. segal, Edessa, the Blessed City (Oxford: Clarendon Press, 1970).

07 Donner, EIC 150 Kaegi, "Heraklios and te Arabs," Greek Orthodox Theological Review 27 (1982) esp. 119-29.

08 Al-Tabari i 2349, Baladhurī 164. Michael the Syrian, Chron. 11.7 (2:424 Chabot) On the route from Egypt to Melitene, see the schematization b K. Miller, Itineraria romana, ser. 98, on pp.680-4. Theoph., Chron., A. M. 6128 (340 De Boor). On alleged illness of Heraclius, Nicephorus, Hist. 24-5.27 (72, 77 Mango). Kaegi, "Heraklios and the Arabs" 119-21.

09 Baladhurī 172-7; al-Tabari i 2505-9. Caetani, AI 4: 36-48. M. Cheira, La Lutte entre arabes et byzantins. La Conquete et l'organisation de frontiers aus VIIe et VIIIe siecles (Alexandria 1947) 47-50, on the conquest of Mesopotamia.

10 On 'Iyad b. Ghanm's campaigns: Theoph., Chron., A. M 6128 (340 De Boor).

11 Just. Nov. 134.1. ND Or. 35 (75-6 Seeck) on dux Osrboenae; Or. 36 for dux Mesopotamiae(77-9 Seeck). Military unrest: kaegi, BMU64-88.

12 Sebeos, Histoire. C. 29 (116-17 Bedrosian, 91 Macler). Michael the Syrian, Chronique 11.3 (2: 410-12 Chabot). Ibn Khaldun, vol. 12: 461 (Beirut edn, 1956). Stratos, BvξάvΓιOv 2: 647-52, 749 Azdi 237; al-tabari i 2391. Background: H. Manadian, "Marshrut'I persidskichpochodov imperatora Irakliy," Vv 3 (1950) 144-6 Heraclius leaves for synod at the odosiopolis, La narratio de rebus Armeniae 121, ed. By Gerad Garitte (CSCO, Subsidia, T. 4 [Louvain 1952]) 43. date 632 or 633: Garitte, pp. 302-4; Stratos, BvξάvΓιOv 2: 750. stratos, BvξάvΓιOv 2: 685-7, for Heraclius' travels in Mesopotamia (Manbij, Aleppo, en Persae (12.21a-26b Usener). Heraclius passed through Amida (Diyarbekir) and probably via Samosata and the Taurus passes on returning from campaigning in 624: Stratos, BvξάvΓιOv 1: 436-49.

13 "Ein hochst gefahrliches Unternehmen," Carl von Clausewitz, Vom Kriege, ed. By Werner Hahlweg, 18th edn (Bonn: F. Dummlers Verlag, 1973) 735.

14 Byzantine recruitment of Arabs from Mesopotamia, and its conquest: al-Tabari i 2081, i 2347, i 2394; Baladhurī 135, 164, 181-3; Theoph., Chron., A. M. 6125-6 (337-8 De Boor); Azdi 28, 111, 125, 174-7; Ibn al-Athir (2: 308, 381-2 Tornberg).

15 Several works of dubious quality attributed to al-Waqidi narrate the Muslim conquest of Mesopotamia. In addition to the Pseudo-Waqidi Beirut edn of the Futuh al-sham, there is Libri Wakedii De Mesopotamiae expugnatae historia, ed. By G. H. A. Ewald (Gottingen: Dieterich, 1827), from a Gottingen manuscript, and Cod. Arab. CXXXVIII from the Kongelige Bibliotheca of Copenhagen. The latter manuscript appears to contain fabulous material, and must be used only with the greatest caution and reserve. Both appear to be late in



date, to judge from some terminology. The Copenhagen and Gottingen manuscripts contain similar, material, but they do not appear to contain reliable information about the Byzantine authorities and commanders in Mesopotamia at that time.

16 Al-Tabari i 2474-9; al-Tabari, Chronique, trans. By H. Zotenberg (Paris 1871) 3:420. Ibn al-Athir 2:407-10. Not analyzed much by Caetani, Al 3:753-6; Nadine F. Posner, "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" (unpub. Ph.D. diss., New York University, 1985), to whom I am very grateful for a copy of this important work; Posner, "Whence the Muslim Conquest of Northern Mesopotamia?," A Way Prepared, Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder, ed. By Farhad Kazemi and R. D. McChesney (New York: New York University Press, 1988) 27-52. Cf. Michael the Syrian, Chron. 11.5, 12 (2: 416, 513 Chabot); and J. M. Fiey, "Tagrit: Esquisse d'une histoire chretienne, Communautes syriaques en Iran et lrak des origins a 1552 (London: Variorum, 1979) esp. 309-11; Fiey, "the Last Byzantine Campaign into Persia and Its Influence on the Attitude of the Local Populations towards the Muslim conquerors," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1: 96-103; Fiey, "Les Dioceses du 'maphrianat' Syrien," Parole de l'Orient 5 (1974) esp. 138, 140-1.

17 Baladhurī 130. Nadine F. Posner, "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" 176-81, notes on 198-200, 316-17, 371, n. 24. Hill, Termination 84-99 On 'ajam, al-Tabari I:2508; Posner, "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" 271; Posner, "Whence the muslim Conquest of Northern Mesopotamia?" 32-48; A. I. Kolesnikov, zavoevaniye Irana arabami (Moscow: Nauka, 1982)

18 al-Tabari i 2349; M. J. De Goeje, Memoire[2] 134-5; Caetani, AL 3:788-9; 4:45. Broad reconstruction; Posner, "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" esp. 246-92. The situation was confused in Mesopotamia, because there apparently were some Byzantine troops in nominally Persian territory who resisted the Muslim invasion of Iraq: al-Tabari I:2474-7; Agapius, PO 8: 453; Caetani, Al 3:752-3.

19 Yāqūt 2: 73; al-Tabari I:2393-4, i 2498-503, 2594; al-Tabari, Chronique (Zotenberg) 3:425-30. Ibn al-'Adim, Zubdat al-Halab min Ta'rikh Halab 1:25-9; Baladhurī 149; Ibn al-Athir (2:413 Tornberg). Cf. L. I. Conrad, "he Conquest of Arwad," in: Cameron, L. I. Conrad, The Byzantine and Early Islamic Near East (Princeton: Darwin, 1992) 382-3.

20 W. E. Kaegi, "Notes on Hagiographic Sources for Some Institutional Changes in the Early Seventh Century," Byzantina 7 (1975) 61-70; reprinted in Kaegi, ASRB.

21 Yet the principal authority for this control of Ras al-'Ayn by Shahryad is the unreliable Libri Wakedii De Mesopotamiae expugnatae historia.

22 Paul speck, Das geteilte Dossier 317-41, 355-77, is too skeptical about Shahrbaraz, although I agree with his identification on p. 347-9 of Niketas as son of Shahrbaraz.

23 W. E. Kaegi, "Challenges to Late Roman and Byzantine Military Operations in Iraq (4th-9th Centuries)," Klio 73 (1991) 586-94.

24 J. M. Fiey, "tagrit: Esquisse d'une histoire chretienne," Communautes syriaques en Iran et Irak des origins a 1552 (London: Variorum, 1979) esp. 309-11; Fiey, "The Last Byzantine Campaign into Persia and Its Influence on the Attitude of the Local Populations towards the Muslim Conquerors," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 1:96-103; Fiey, "Les Dioceses du 'maphrianat' syrien," Parole de l'Orient 5 (1974) esp. 138, 140-1.

25 Takrit: al-Tabari (Sayf) i 2475-7; al-Tabari, Chronique (Zotenberg) 3: 420; al-Nuwayri, Nihayat, XIX, 236-8. Hit: al-Tabari I:2479. Mosul: mari b. Sulayman, Akhbar batarikat kursi al-mashriq, ed. By H.

Gismondi (Rome 1899) 1:62. Quotation: The History of al-Tabari, 13: The Conquest of Iraq, Southwestern Persia, and Egypt, trans. By gautier H. A. Juynboll (Albany: state University of New York Press, 1989) 54. Fiey was, however, primarily interested in the implications of this material for the understanding of the Nestorian and Monophysite churches, and did not pursue any investigation of the implications of these anomalies for the interpretatin of the reign of Heraclius or other aspects of Byzantine history. George Rawlinson, The seventh Great Oriental Monarch (New York: Dodd, Mead, n.d.) 2:230, n. 5, noting that a Roman [Byzantine] general "Antiochus?" defended Takrit, commented that "It is just possible that, on the collapse of the Persian power, Rome attempted to obtain a share of the spil." Plausible, but Byzantine concern for defensive security probably also was afactor, and one that weighed even more heavily in Byzantine calculations.

26 The clearest evidence for contemporary Byzantine anxiety about the Sassanian Empire, and the desirability of preserving it from falling into chaos, is Theophylact Simocatta's composition of speech, written anytime between 628 and 640, which he attribured to ambassadors of Chosroes II to Maurice (in 590): Theophylact Simocatta, Hist. 4.13.9, 4.13.13. But it helps to illuminate the mood at Heraclius' court that could have stimulated the decision to keep some troops in Persia to try to hold some kind of friendly government together.

27 Ibn 'Abd al-Hakam, Futuh misr (36-7 Torrey). On Arabissos: Friedrich Hild and Marcell Restle, Kappadokien (Kappadokia, Charsianon, Sebasteia und Lykandos): Tabula Imperii Byzantini 2 (Vienna 1981) 144-5.

28 Cyril Mango, "Deux etudes sur Byzance et la Perse Sassanide," TM9 (1985) 105-18. I thank Cyril Mango for helpful advice.

29 Possible additional confirmation is the hypothesis that the famous Mardaites of the late seventh century my have been (1) stationed earlier in various parts of Armenia IV, including Mards (Mardin) in upper Mesopotamia, and (2) originated near Theodosiopolis (Erzurum): Hratz Bartikian, "Ηλύση Τού αίνίγμαΤος Τώυ Μαρδαϊτών" Byzstratos 1:17-39. He makes a strong case.

30 On the Muslim conquest of Armenia, see the following chapter.

31 Wide dispersal of those who fled after the battle of the Yarmuk: Baladhurī 135.

32 Michael the Syrian, Chron. 11.7, 10 (2: 424, 441-3 Chabot). Julius Wellhausen, "Amr b. 'As in Agypten,'" Skizzen und Vorabeiten (Berlin 1899) 6: 93; C.H. Becker, Cambridge Medieval History 2: 349.

33 Herclius' Armenian consciousness: Henri Gregoire, "An Armenian dynasty on the Byzantine hrone," Armenian Quarterly 1.1 (1946) esp.6-17.

34 al–Tabari I:2349. Eutychius, Ann. 282 (141-2 Breydy text, 120-1 Breydy trans.). Pseudo-Waqidi, Futuh al-Sham (Beirut 1972) 1:114-5; reference to Malik al-Rusiya and to cavalry of the Saqaliba or Slavs,which is anachronistic, indeed chronologically impossible, thereby impugns the validity of all information in this printed text without rigorous verification from outside sources that are reliable: Pseudo-Waqidi, Futuh al-Sham (Beirut 1972) 1:162.

35 Theoph., Chron, AM 6128 (De Boor 340). Agapius, PO 8: 476-7. L.I. Conrad, "Theophanes and the Arabic Historical Tradition: Some Indications of Intercultural Transmission," ByzF 15 (1990) 1-45. D. Hill, termination 84-99. Transhumant movement was common in the region. The concepts of sulhan and 'anwatan may not be contemporary with the conquests: Albrecht Noth, "some Remarks on the



'Nationalisation' of Conquered Lands at the Time of the Umayyads," Land Tenure and Social Transformation in the Middle Eas, ed. By Tarif Khalidi (Beirut: American University of Beirut, 1984) 223-8.

36 Theoph., Chron., AM 6128 (340 De Boor). Michael the Syrian, Chron: 11.7 (2:426 Chabot). Agapius, PO 8: 476, wrongly calls him "Paul." Michel Kaplan, "Quelques aspects des maisons divines," Άφιέρωμα στον Νικο Σβορώνο esp. 79-96; occasionally, Kaplan, 89-90, this office of curator was combined with other offices including military responsibilities in Syria.

37 Kufi 1:331.

38 Kufi 1:326-9, esp. 328. Michael the Syrian, Chron. 11.7 (2: 426 Chabot). Posner, "Muslim Conquest" 336-8.

39 Michael the Syrian, Chron. 11.7 (2:426 Chabot).

40 Agapius, PO 8: 476-7.

41 Posner, "the Muslim Conquest ofNorthern Mesopotamia," wrongly asserted that such cities as Edessa, Harran, mardin, and Circesum "were ruled by local dynasts and kinglets" (p. 179).

42 Michael the Syrian, chron. 11.7 (2: 424 Chabot); cf. Agapius, PO 8: 471-2.

43 Caetani, Al 4: 46, where incorrectly indentified. But see 4: 814, where correctly identified.

44 Eutychius, ann. 282 (141-2 Brydy text, 120-1 Breydy trans.). Pseudo-Waqidi, Futuh al-sham (Beirut 1972) 114-15. There is reference to another one-year truce proposal for Ras al-'Ayn in the history of another false Waqidi, Libri Wakedii De Mesopotamiae expugnatae historia, ed. By G. H. A. Ewald (gottingen: Dieterich, 1827) 20. Again, the terms mentioned in this last proposal included a one-year delay, after which the Byzantines would either covert to Islam or withdraw to "bilad al-rum" – namely, to Byzantine Anatolia, an echo of the same treatry that Eutychius cites. But this is a late text of doubtful credibility.

45 Baladhurī 150

46 Theoph., Chron., AM 6128 (340 De Boor); Michael the Syrian, Chron. (2: 426 Chabot); Eutychius, Ann 282 (141-2 Breydy Arabic text, 120-1 Breydy trans.); Agapius, PO 8: 476-7. Pseudo-Waqidi, futuh al-Sham I (Beirut, 1972) 114-16. Consistent with the chronology of D. Hill, Termination of Hostilities (London: Luzac, 1971) 67, 81, 92.

47 Caetani failed to discuss the relationship.

48 R. Mouterde and A. Poidebard, Le Limes de Chalcis. Organisation de la steppe en Haute Syrie romaine (paris: Geuthner, 1945) 1:21-3

49 G. Tchalenko, Villages antiques de la Syrie du Nord, 3 Vols. (Paris 1953-8).

50 Theoph., chron., AM 6128 (340 De Boor); Michael the Syrian, chron. 11.7 (2: 425-6 Ghabot); cf. Agapius, PO 8: 476-8; cf. 8: 471-2, Theoph., Chron., AM 6126 (338-9 De Boor), on Egyptian peace, with 'Amr b. al-'As. But note the skepticism of P. Speck, das geteilte Dossier 182-5, 190, 398-403, 410-12. D. R. Hill, Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests (London: Luzac, 1971) 84-99.

51 Michael he Syrian, Chron. 11.7 (2: 424-5 Chabot).

52 Azdi 165. Lawrence I. Conrad, "Al-Azdi's History of the Arab Conquests in Bilād-al-Shām: Some Historiographical Observations," 1985 Bilād-al-Shām Proceedings 28-62.

53 Menander, frg. 6.1 (Blockley 70-3). Irfan Shahid [Kawar], "The Arabs in the Peace Treary of AD 561," Arabica 3 (1956) [repr. As VIII, in Shahid, BSOBRI]) esp. 192-200, explains why it was necessary to make explicit reference to Arabs in the treaty, to insure their uncontested and full compliance with its provisions in 561. The same concerns were valid in 639 along the Euphrates. There was no desire

to find beduin claiming exeption from provisions of the treaty of 638/9, as had happened in 539 when there was a dispute concerning whether the treaty of 532 explicity covered activities of Arabs: Procopius, Hist. 2.1.1-15.

54 Baladhurī 130. Date: L. Caetani, Al 3:435; N. A. Miednikov, Palestina ot zavoevaniya eie arabaye 1: 486-9.

55 A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt, rev. by P. M. Fraser (oxford: Oxford University Press, 1978) 207-9, 481-3. theoph., Chron., AM 6126 (338 De Boor). But al-Baladhurī and Byzantine source faild to mention the Qinnasrin arrangements that Eutychius, Agapius and Pseudo-Waqidi report.

56 Ammianus Marcellinus, Hist. 25.7.9-13.

57 Eurychius, Ann. 282 (141-2 Breydy text, 120-1 Breydy trans.). pseudo-Waquidi (Beirut 1972) 114-15.

58 Malalas, Chron. (Dindorf 308); cf. trans. Of Elizabeth Jeffreys, Michael Jeffreys, roger Scott et al., The Chronicle of John Malalas (Byzantina Austrliensia, 4 [Melbourne: Australian Association for Byzantine Studies, 1986]) 168.

59 Origo Constantini Imperatoris [Excerpta Valensiana} 15.

60 Joh. Ephes., Hist. II 3. 6 . 23 (245-6 Brooks).

61 στήλαι: Doctrina Iacobi nuper baptizati (62 Bonwertsch). No such markers have ben found, I believe. The reference to brass and marble ones may be a topos.

62 Movses Dasxurance, History of the Caucasian Albanians 2.11-12, 14, trans. By Charles J. F. dowsett (London: Oxford university Press, 1961) 86, 94-5; Eutychius, Ann, 282 (141-2 Breydy text. 120-1 Breydy trans.); C. Toumanoff, Studies in Christian Caucasian History (Washington: Georgetown University Press, 1963) 391, n. 7.

63 Siege at Tiflis: Baynes, "Militry Operations," United Service Magazine n.s. 47 (1913) 668. The story of Moves Dasxuranci contrasts very sharply with the efforts of the Muslim leadership to avoid any offense whatsoever to the prestige of Heraclius.

64 Major critic of the truce: A. J. Butler, The Arab Conquest of Egypt, rev. by P. M. Fraser (Oxford 1978) 202-3, 480-2. Note the Urku, of ἄρχον of Cyprus who negotiated a separate peace with Mu'āwiya in 648/9: Baladhurī 153.

65 Theoph., Chron., AM 6126, 6128 (338, 340 De Boor), first reference for Manuel's statements about now being armed. Cf. Agapius, PO 8: 471-2; Speck, Das geteilte Dossier 182-5, 190. Theophanes' information about the appointment of an armed commander gains credibility when compared with traditions reported by Azdi 28-9; al-Tabari I:2104; Kufi 1: 100-1.

66 Menas: Ibn al-'Adim, Zubdat al-Ḥalab min Tarikh Halab (Damascus 1951) 1: 25-6. al-Tabari I:2393-4. Baladhurī 130, 144-5. Caetani, Al 3:791-3.

67 Liebeschuetz, Antioch (Oxford 1972) R. M. Price, "Military Men" (unpub. Diss, Oxford 1974); G. Downey, History of Antioch (Princeton 1961) 422-3; L. Harmand, ed. And trans., Libanius, Discours sur les patronages (paris 1955)

68 Ibn al-'Adim, Zubdat al-Halab min Ta'rikh Halab (Damascus 1951) 1: 25-6; al-Tabari i 2393.

69 Zacos and a. Veglery, BLS, no. 934C (Basel 1972) 1: 637.

70 It was within Bithynia, but perhaps near its border with Galatia, at the beginning of the seventh century: Vie de Theodore Saint de Sykeon c. 152, ed. And trans. By al. J. Festugiere (Subsidia Hagiographica, 48 [Brussels 1970] 1: 122). Noumerika may refer to the numeri or military units (often 300-500 men), possibly even ones of the imperial guard, who may have been stationed in part in the outlying districts



away from but not too far from Constantinople; became bishopric in the ninth century: Mansi, Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio (Venice 1771) 16: 193; M. Le Quien, Oriens Christianus (Paris 1740) 1: 661-2.

71 al-Ya'qubi, Ta'rikh 1: 177; Theoph., Chron., AM 6126, 6128. disjointed is Caetani, AL 3: 789-92, 799-800, 814-15; 4: 32-48.

72 Muslim sources on Byzantine recruitment from Mesopotamia, presumable from the region's Christian Arab tribes: al-Tabari i 2393-4, 2498-504, 2594; Baladhurī 149; Azdi 152: Ibn 'Asākir 1: 531-2.

73 Bilad Raqqa: al-Asmai [attribution], Ta'rkh al-'Arab qabl'al-Islam, ed. By Muhammd Hassn al-Yasin (Baghdad 1959) 111-12. Yet the source in its present form may not date to the early Arab lexicographer Al-Asmai, who died in Ad 828 or 831, but to the tenth century, according to Jaroslav Stetkevych. Other references to Jabala's flight, without these details: al-Ya'qubi, Ta'rikh (2: 168 Houtsam).

74 Al-Istakhri, Viae regnorum, Bibliotheca Georaphorum Arabicorum, ed. By M. J. De Goeje (repr. Leiden: Brill, 1961) 1: 45 Charsianon Castron: Dejanira Potache, "Le Theme et le fortresse de Charsianon: recherches dans la region d'akdagmadeni, Geographica Byzantina, ed. By H. Ahrweiler et Collaborateurs (Paris 1981) 107-17; I. Beldicenu-Steinherr, "Charsianon kastron/Qal'e-I Harsanos," Byzantion 51 (1981) 107-17; and esp. F. Hild, kappadokien (Vienna: Akademie der Wissenschaften, 1981), 163-5.

75 Donner, EIC 116-19, 251-71.

76 Al-Tabari on 'Umar's demands for return of Arabs from Byzantium: I:2508-9.

77 Pseudo-Waqidi, futuh al-Sham (Beirut 1972) 2:104-64.

78 Another anachronism in Pseudo-Waqidi, Futuh al-sham is the reference to the name "Istanbul' as well as Constantinople: Pseudo-Waqidi, Futuh al-Sham (Beirut 1972) 2: 155.

79 Al-Tabari i 2507 (Juynboll trans. History 88).

80 Banu Taghlib Threaten to leave caliphal territory in aH 20: Baladhurī 181-3.

81 J. Moorhead, "The Monophysite Response to the Arab Invasions," Byzattion 51 (1981) 579-91; Stephan Gero, "Only a Change of Masters? The Christians of Iran and the Muslim Conquest," Transition Periods in Iranian History. Actes du Symposium de Fribourg-en-Breisgau (22-24 mai 1985) [Studia Iranica, book 5, 1987] 43-8; Friedhelm Winkelmann, "Die Quellen zur Erforschung des monoenergetisch-monotheletischen Streites," Klio 69 (1987) 515-59.

82 On the problem of the flight of refugees from Syria and elsewhere into Byzantine territory there is, surprising, no general study of satisfactory quality. Scattered references in the primary sources make research difficult although far from impossible: Baladhurī, 163-8 De Goeje; Ibn al-athir (2: 386 Tornberg). Melkite church: Hugh Kennedy, "The Melkite Church from the Islamic Conquest to the Crusades: Continuity and Adaptation in the Byzantine Legacy," Major papers, The 17th international Byzantine Congress (new Christian klerygman in Arabic in Ninth-Century Palestine," Journal of ecclesiastical History 36 (1985) 23-45; Griffith, "Theodore Abu Qurrah's Arabic Tract on the Christian Practice of Venerating Images," JAOS 105 (1985) 53-73; Robert Schick, Christian Communities of Palestine

83 Azdi 31; Ibn al-Athir 2: 311, 317-18; al-Tabari i 2104.

84 Ralph-Johannes Lilie, "Die zweihundertjahrige Reform. Zu den Anfangen der Themen-organisation im 7. und 8. Jahrhundert," Byzsl 45 (1984) 27-39; Haldon, Byzantium 209-10.

85 Abu Yusuf Ya qub, Kitab al-Kharaj, ed. By Ihsan 'Abbas (Beirut: Dar al-Shiruk, 1985) 136-8, allusion to taxes in kind which are reminiscent

of the annona, Just. Nov. 134-1.

86 Al-Tabari i 2501-2. J. Wellhausen, Skizzen und Vorabeiten (Berlin 1899) 6:81-8; cf. Nadine Posner, "The Muslim Conquest of Mesopotamia," passim.

87 Baladhurī 144-5. Wellhausen. Skizzen und Vorabeiten 6:81-8. N. Posner assumes the authenticity of this tradition: "Muslim Conquest" 258-82; 1. Shahid, BAFOC 402-7, 481-5. Byzantinists have generally ignored these Muslim reports, although a. Sraos . .3:84-6, is rightfully skeptical about these reports of a Byzantine recapture of Antioch, Aleppo, Qinnasrin, and other cities by Constantine, son of Heraclius.

88 Vie de Theodore Saint de Sykeon c. 166, lines 22-4 (1: 154 Festugier) Sebeos, Histoire c. 24 (95 Bedrosian, 67-8 Macler). N. H. Baynes, 'The Military Operations of the Emperor heraclius," United Services Magazine 47 (1913) 196.

89 John Haldon and Hugh Kennedy, "The Arab-Byzantine Frontier in the Eighth and Ninh Centuries: Military Organisation and Society in the Borderlands," ZRVI 19 (1980) 79-116. For one hostile Christian perspective from north Mesopotamia on the Byzantines: S.P. Brock, "North Mesopotamia in the Late Seventh Century. Book XV of John bar Penkaye's Ris Melle," JSAI 9 (1987) 51-75.

## 8) بيزنطة وإرمينية والأرمن والفتوحات الإسلامية المبكرة

01 Theophylact Simocatta, Hist. 1.1.1. I thank R. W. Thomson, R. Hewsen and R. W. Edwards for help. C. Mango, "Deux etudes sur Byzance et la Perse Sassanide," TM9 (1985) 114, remains unconvinced about the identification of the birthplace of Heraclius.

02 Narratio de rebus Armeniae 121-2, ed. By Gerad Garitte (CSCO, vol. 132, Subsidia, T. 4 [Louvain 1952]) 43, 302-11.

03 Baynes, "Military Operations"; Kaegi, "wo Studies in the Continuity of Byzantine and Late Roman Military Institutions," ByzF 8 (1982) 87-113.

04 Peter Charanis, "The Armenians in the Byzantine Empire," Byzsl 22 (1961) 196-20; repr. Calouste Gulbenkia Foundation, Lisbon.

05 Sebeos, Hist. C. 29-38 (115-78 Bedrosian, 90-149 Macler); Narratio de rebus Armeniae 121-50 (43-7, 258-350 Garitte).

06 Cf. A. P. Kazhdan, Armiane v sostov gospodstvviuschchego klassa Vizantiiskoiimperii v 11-12 vv (Yerevan: Akademii Nauk Armen. SSR, 1975); P. Charanis, 'The Armenians in the Byzantine Empire," and "How Greek was the Byzantine Empire?," both reprinted (V: 196-240; XXII: 101-16, esp. 13-15) in his collected essays: Studies on the Demography of the Byzantine Empire (London: Variorum, 1972).

07 It is inappropriate to review Byzantine-Armenian ecclesiasticl history during the reign of Heraclius here. Old is L. Brehier, in: Histoire de l'eglise depuis les origins jusqu'a nos jours (Paris: Bloud and Gay, 1938) 103-24, 131-43, 155-60; L. Duchesne, Eglise au VIe siecle (Paris 1925) 385-97; Jan Louis Van Dieten, Geschichte der Patriarchen von Sergios I. Bis Johannes VI. (610-715) (Amsterdam: Hakkert, 1972) 28, 35, 70. V. grumel, "recherches sur l'histoire du monothelisme," EO 27 (1928) 15-16, 277; C. Toumanoff, Studies in Christian Caucasian History (Washington: Georgetown University Press, 1963) 476-7, n. 171. Karekin Sarkissian, The Council of Chalcedon and the Armenian Church (London: SPCK, 1965), and N. Garsoian, "Some Preliminary Precisions on the Separation of the Armenian and Imperial Churches," . . 249-85, forsurveys of earlier background.

08 H. Berberian, "Autobiographie d'Anania Sirake' I," REArm n.s. 1



(1964) 189-94l; Paul Lemerle, "Note sur les donnees historiques de l'autobiographic d'Anania de Shirak," REArm n.s. 1 (1964) 195-202.

09 W. E. Kaegi, "al-Baladhurī and the Armeniak Theme," ASRB, which is a revised version ofarticle publ. In Byzantion 38 (1969) 273-7. On this, see Laurent, L'Armenie 566 n. 3.

10 The chronology is the composite of my own reflections on the sources and modern scholarship. I do follow some of the basic conclusions of H. Manandian about the dating of Muslim invasions: see below for details; cf. P. Speck, Das geteilte Dossier 44-50. On the borders, see Honigmann, Ostgrenze 16-37; Le Synekdemos d'Hierokles et l'opuscule geographique de Georges de Chypre, ed. Trans. And comment. By Ernst Honigmann(CBHB, Forma Imperii Byzantini, fasc. 1 [Brussels: Editions de l'Institut de Philogie et d'Histoire Orientales et Slaves, 1939]) p. 37 (nos. 702.9, 703.6), pp. 64-6.

11 Chr. [Hratz] M. Bartikian, Βυξάντιον εις τάς Αρμενικας. Byzantina Keimena kai Meletai, 18 (Thessaloniki: Center for Byzantine Studies, 1981). There is, unfortunately, no study of Byzantine images of the Armenians in the sixth and seventh centuries, except: S. Vryonis, "Byzantine images of the Armenians," in: The Armenian Image in History and Literature, ed. By Richard G. Hovannisian (Studies in Near Eastern Culture and Society, 3 [Malibu: Undena, 1981]) 65-81.

12 Depite the title, there is very little on the initial Muslim conquess of Armenia in Aram Ter-Ghewondyan [Ghevondian], "L'Armenie et la conquete arabe," Armenian Studies/etudes Armeniennes in Memoriam Haig Berberian, ed. By Dickran Kouymjian (Lisbon: Calouste Gulbenkian Foundation, 1986) 773-92. He accepts Manandian's chronology of Muslim invasions in the summer of 640, again in 642-3, and in 650 via Atropatene, p. 773. Broad survey: Gerard Dedeyan, Histoire des Armeniens (Toulouse: Privat, 1982) esp. 177-214.

13 Michael E. Stone, "Holy Land Pilgrimage of Armenians Before the Arab Conquest," Revue Biblique 93 (1986) 93-110; E. W. Brooks, "An Armenian Vistor to Jerusalem in the Seventh Century," EHR 11 (1896) 93-7. Stone convincingly redates the travels of Yovsep' and Mxit'ar from Armenia to Jerusalem and back via the Byzantine-controlled Taurus to the late or possible the early 630s, not the 660s as Brooks had done. Ther is no direct evidence that the troubles for travelers derived from Arabs, whether Muslim or otherwise. They could merely reflect chaos in Persia because of the internal strife about the royal succession after the death of Chosroes II: The History of the Caucasian Albanians by Mouses Dasxuranci, trans. By Charles Dowsett, c. 50, London Oriental Series, vol. 8 (London: Oxford University press, 1961) 181-3. also, Robert W. Thomson, "A Seventh-Century Armenian Pilgrim on Mount Tabor," JTS 18 (1967) 27-33.

14 F. Nau, "Le Texte grec des recits du moine Anastase," Oriens Christianus 2 (1902) 81-2, 78. Musele: "Passio LX martyrum," AB 23 (1904) 303; Henri Gregoire, "An Armenian Dynastry on the Byzantine Throne," Armenian Quarterly 1.1 (1946) 4-21; Cyril Toumanoff, "Caucasia and Byzantium," Traditio 27 (1971) 149, for a partial list of prominent Armenians in the imperial service in the reign of Heraclius.

15 On Armenian monasteries in Jerusalem, see The History of the Caucasian Albanian, by Movses Dasxuranci, book II, c. 52, trans. By c. J. F. Dowsett (London: Oxford University press, 1961) 184-5. List of seventh-century Armenian monasteries in Jerusalem: R. Nisbet Bain, "Armenian description of the Holy Places in the Seventh Century," Palestine Exploration Fund Quarterly Statement (1896) 346-9, which is a very questionable, indeed very legendary source: Avedis Sanjian, "Anastas Vardapet's List of Armenian Monasteries in Seventh-Century Jerusalem: A Critical Examination,' Le Museon 82

(1969) 265-92.

16 Sebeos, Hist. C. 30 (131 Bedrosian, 102 Macler). The prisoners probably were Armenian, not Greeks or Arabs or Persians, because that is the language that Sebeos could have most easily used to converse with them, Yet his phrasing is vague.

17 12,000 Armenians at the battle of the Yarmuk: al-Tabari (Ibn Ishaq) i 2347.

18 Libri Wakedii De Mesopotamiae expugnatae historia, ed. By G. H. A. Ewald (Gottingen: Dieterich, 1827) 19.

20 Pseudo-Waqidi, futuh al-Sham 106.

21 Pseudo-Waqidi, Futuh al-sham 129

22 Pseudo-Waqidi, Futuh al-sham 128

23 Pseudo-Waqidi, Futuh al-sham 131

24 A conclusion made by N. Garsoian and others.

25 Marius Ganard, revision of Joseph Laurent, L'Armenie entre Byzance et l'Islam depuis la conquete arabe jusqu'en 886 [henceforth cited as Armenie[2] ]. New revised and enlarged edn. Armenian Library of the Calouste Gulbenkian Foundation (Lisbon: Betrand, 1980) 93, 110 n. 23.

26 Rene Grousset, Histoire de l'Armenie des origins a 1071 (paris: Payot, 1973) 256-95.

27 Sebeos, Hist. c. 29 (118-20 Bedrosian, 93-4 Macler). A. Ter-Ghewondyan, "L'Armenie et la conquete arabe" 773. On the is an of Armenia, trans. By Cyril Toumanoff as "Presiding Prine," see Toumanoff, "Caucasia and Byzantium," Traditio 27 (1971) 118-21, 139-40. see Laurent, Armenie[2] 116-17.

28 Sebeos, Hist. c. 29 (118-19 Bedrosian, 92-3 Macler). Laurent, Armenie[2] 401.

29 C. Toumanoff, "The Heraclids and the Arsacids," REArm 19 (1985) 431-4, repudiates his earlier attribution of the Heraclids to the Armenian Mamikonian family, "Caucasia and Byzantium," Traditio 27 (1971) 157-8; cf. D. Kouymjian, "Ethnic Origins and the 'Armenian' Policy of Heraclius," REArm n.s. 17 (1983) 635-42; I. Shahid, "The Iranian Factor in Byzantium During the Reign of Heraclius," Dop 26 (1972) 293-321, esp. 308-11.

30 On the sparapet, Laurent, Armenie[2] 118n. 138. On Thedore Reshtuni: Laurent, L'Armenie 401-2.

31 See Armenian maps prepared by Robert Hewsen for Tubinger Atlas des Vorderen Orients; map I, 'Mesopotamia et Armenia Quarta," in: Honigmann, Ostgrenze. See Sebeos, Hist. c. 3 (27 Macler), for a description of the territorial cessions by chosroes II. Place-names, H. Hubschmann, "Die altarmenischen Ortsnamen," Indogermanische Forschungen 16 (1904)197-490.

32 Nina Garsoian, s.v., "Armenia, Geography," DMA 1 (1982) 470-4. Out of date is H. Hubschmann, Zur Gesshichte Aremniens und der ersten Kriege der Araber (Leipzig 1875). H. Thopdschian, "Armenien vor und wahrend der Araberzeit," Zeitshrift fur Armenische Philologie 2 (1904) 50-71. Caetani, A17:67-85. Useful material in the text ascribed to Moses of Chorene: Geographie de Moise de Corene d'apres Ptolemee, ed. And rans. By P. Arsene Soukry (Venice: Imprimerie Armenienne, 1881) 36-46, for Armenia.

33 M. Ghazarian, Armenien unter der arabischen Herrschaft (marburg 1903); E. Filler, "Quaestiones de Leontii Armenii Historia," Commentationes Philoloicae Ienenses,vol. 7, fasc. 1 (Leipzig: Teubner, 1903) 9-11.

34 Hacob A. Manandian, "Les Invasions arabes en Armenie," Byzantion 18 (1948) 163-92.

35 Accepted (without citation) by Sirarpie Der Nersessian, "Between East



and West: Armenia and its Divided History," in: The Dark Ages, ed. By David Talbot Rice (London: Thames and Hudson, 1965) 76, who dates Arab invasions to 640, 642/3, and 650.

36 Aram N. Ter-Ghewondyan, "L'Armenie et la conquere arabe," Aremnian studies/Etudes Armeniennes in Memoriam Haig Berberian 773-92. See also, Aram Ter-Ghewondyan, The Arab Emirates in Bagratid Armenia, rans. By Nina Garsoian (Lisbon: Bertrand, 1976) 1-31, 46-7

37 Laurent, Armenie[2] esp. 44, 55-6, 125, 236, 401-2. Also, Canard, "Arminiya," EI[2] (1960) 634-6. Grousset, Histoire de l'Armenie 296-8.

38 Nina Garsoian, s.v., "Armenia, History of," DMA 1 (1982) 478.

39 A. stratos, Bvξάντιον 4: 24-37, esp. 30-1, also his appendix IV, 276-8, used no untranslated Arabic sources. Gerard Dedeyan, Histoire des Armeniens, accepts, on p. 187, the date of 6 October 640 for the Muslim capture and pillage of Dvin.

40 No new information on Armenia in R.. Lilie, Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber (Munich 1976) 23-6, or elsewhere in his book, which has as its focus areas to the west. The text of vardan published and studied by Joseph Muyldermans, La Domination arabe en Armenie (Louvain, Paris: J.B. Istas, P. Geuthner, 1927), esp. 82-8, is a derivative chronicle.

41 Note Sebeos, Hist. c. 30 (126-7 Bedrosian, 98-9 Macler).

42 Sebeos, Hist. c. 30 (128-9 Bedrosian, 100 Macler). Manandian believes that this raid penetrated as far as Dvin, which he asserts that the Muslims captured: Manandian, "Les Invasions arabes" 176. 'Iyad may have led more than 5,000 troops.

43 Hacob Manandian, "Les Invasions arabes en Armenie" 168-9, 176-7.

44 Baladhurī 176. Sebeos, Hist. c. 30 (128-30 Bedrosian, 100-1 Macler).

45 Sebeos, Hist. c. 30 (101 Macler). Marius Canard, "Arminiya," EI[2] 1: 634-6; Caetani, Al 4: 49-53, 165, 510-14; 5:34; E. Dulaurier, Chronol. Arm. 357, 231. Asolik says 18 June 646/17 June 647: Dulaurier, Chron. Arm. 229. Dated to 642 by Thopdshian, "Armenien vor und wahrend der Araberzeit" 64-71.

46 Michael the Syrian, Chron. 11.10 (2:443-4 Chabot).

47 Hugh Kennedy, "The Last Century of Byzantine Syria: A Reinterpretation," ByzF 10 (1985) 141-85, and his "From Polis to Madina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria," past and Present 106 (1985) 3-27.

48 Arab occupation, see Kh. 'Athamina, 'Arab Settlement during the Umayyad Caliphate," JSAI 8 (1986) 194-5.

49 Sebeos, Hist. c. 32 (137-9 Bedrosian, 106-7 Macler). See Manandian, "Les Invasions arabes" 190-2

50 Sebeos, Hist. c. 32 (138-41 Bedrosian, 108 Macler). Date: Manandian, "Les Invasions arabes" 191-194.

51 Theoph., Chron., AM 6143 (344 De Boor). P. Peeters, "Πασαγνάθης-Περσογενής," Byzantion 8 (1933) 418-19.

52 Hacob Manandian, "Les Invasions arabes en Armenie" 168-9, 176-7.On the identification: paul Peeters, " Πασαγνάθης-Περσογενής, ," in: Byzantion 8 (1933) 416-17, who did not know the conclusions of Manandian.

53 Sebeos, Hist. c. 30, 35 (128-30, 158-9 Bedrosian, 100-1, 132-3 Macler). See also, Pseudo-Shahpuh, Istorija Anonymnogo Povestvovatelya, ed. And trans. By M. H. darbinyan-Melik'yan (Yerevan 1971) 96-100.

54 Sebeos, History c. 35 (160 Bedrosian, 134 Macler, 31 n. 5 Hubschmann); on the location, Nicholas Oikonomides, Listes de preseance Byzantines 267, but esp. 358; cf. Oikonomides, G.

Moravcsik and rans. by R. Jenkins (Washington: Dumbarton Oaks, 1967) 1: 284; Honigmann, Ostgrenze 19, 53 n. 6, 54 n. 8,64, 156, 181, and his maps. Joseph Laurent, L'Armenie 41. Derzene was in upper Armenia.

55 See map I, "Mesopotamia et Armenia Quarta," in: Honigmann, Ostgrenze.

56 Marius Canard, "Arminiya," El[2] 1: 636.

57 Caetani, Al 7: 379-87,453-4, 515; Johannes Kaestner, De imperia Constantini III (641-668) (diss., Jena, publ. at Leipzig: Teubner, 1907)

58 al-Tabari (Abu Mikhnaf) i 2806-7 misdates the invasion to 644/5; History 15: 8-11. Caetani, Al 7: 86-101, did not use Kufi 2: 108-16, whose own sources appear to try to emphasize the Iraqi role, in contrast to that of the Syrians, in the Muslim conquest of Although Khalifa b. Khayyat al-Usfuri, Ta'rikh (Baghdad 1967) 1: 130, mentions Habib b. Maslama al-Fihri, who replaced 'Iyad b. Ghanm as governor of Mesopotamia, and was given control of Mesopotamia together with Armenia and Azebaijan, under the year AH 33, he does not narrate in detail the conquest of Armenia.

59 Ibn 'Asākir, TMD Mukhtasar, ed. By Riyad Abd al-Hamid Murad (Damascus 19840 10: 56-8; Ibn Sa'd Tabaqat 6: 90. Ibn 'Asākir, TMD Mukhtasar 6: 189-92, on Habib b. Maslama b. Malik al-Akbar.

60 al-'Asākir, (Abu Mikhnaf) I:2808; Theoph. Chron., AM (345 De Boor); Baladhurī 199. Sebeos, Hist. c. 36, 38 (138, 145-6 Macler). Ibn Sa'd Tabaqat VII/2: 130, says that Habia died in Armenia in AH 42.

61 Sebeos, Hist. c. 35 (158-9 Bedroian, 132-3 Macler). A. Ter-Ghewondyan, "L'Armenie et la conquete arabe" 774-5.

62 Sebeos, Hist. c. 35 (133 Macler); Ghazarian, "Armenien unter der arabischen Herrschaft" 30-1.

63 Sebeos, Hist. c. 35 (166-7 Bedrosian, 138 Macler), c. 38 (177 Bedrosian, 145-6 Macler).

64 Sebeos, Hist. c. 38 (176-7 Bedrosian, 145-6 Macler)

65 Sebeos, Hist. c. 38 (180-1 Bedrosian, 146 Macler). J. Laurent, L'armenie 402.

66 Laurent, Armenie[2] 402

67 W. e. Kaegi, "Observations on Warfare Between Byzantium and Umayyad Syria," 1987 Bilād-al-Shām Proceedings 2: 49-70.

68 Al-Tabari i 2349.

69 Baladhurī 176, 197-8; Yāqūt 1: 206.

70 Nadine Posner,"the Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" 261-92, esp 346-8, 359-62

71 Baladhurī 150, 159. N. Posner, "Muslim Conquest of Mesopotamia" 364. This will also be a later obligation of the inhabitants of tiflis, and the region of the "Bab" [Bab al-Abwab, Darband], according to al-Tabari i 2665-6. See Laurent, L'Armenie 582-3, 647-8.

72 Histoire Nestorienne = Chronique de Seert PO 13: 438. See Nina Garsoian, "Le Role de l'hierarchie chretienne dans les relations diplomatiques entre Byzance et les Sassanides, REArm 10 (1973) 119-83.

73 Armenian understanding of Islam: R. W. Thomson, "Muhammad and the Origin of Islam in Armenian Literary Tradition," Armenian Studies / Etudes Armeniennes in Memoriam Haig Berberian, 829-58.

74 Sebeos, Hist. c.32 (134-6 Bedrosian, 104-5 Macler).

75 It is risky to project back from a description of an Arab camp organization in Armenia at the beginning of the ninth century to the situation in the seventh: Ibn 'Asākir, TMD 1: 261.

76 Lilie, Ralph-Johannes. "Die zweihundertjahrige Reform. Zu den Anfangen der Themen-organisation im 7. und 8. Jahrhunder," Byzsl 45 (1984) 27-39; W. E. Kaegi, "Al-Baladhurī and the Armeniak



Them," ASRB, 273-7.

77 Sebeos, Hist. c. 29 (117 Bedrosian, 92 macler); W. E. Kaegi, "Variable Rates of Change in the Seventh Century" 191-208.

78 Encouragement of desertion of one's enemies: 'Abd al-Hamid b. Yahya, risala 4: 531 = Schonig. Sendschreiben 71.

79 P. peters, " Πασαγνάθης-Περσογενής, ," in; Byzantion 8 (1933) 404-23; Kaegi, BMU 166-7 182, 201, 234, 302, 320.

## 9) الخلاف والثقة في أزمة القرن السابع

01 Anast. Sinait., Sermo adversus Monotheletas 3.1. 86-92 (60 Uthemann) . St. Anastasius the Sinaite probably wrote these words in the late seventh , well before 700, to judge from other evidence about contemporary events in this sermon. Influence on later historiography : Theoph., Chron., AM 6121 (332 De Boor).

02 Anast. Sinait., Sermo adversus Monotheletas 3.1.93-101 (60-1 Uthemann).

03 Cronica mozarabe de 754 c. 8 (28-9 Lopez Pereira)= Cont. Byz. Arab., MGHAA 11:336-7. See c.. 9 (30-1 Lopez Pereira) for Heraclius ' warning to Theodore to avoid battle with the Muslims.

04 F. Nau, "Histoire de Sainte Maurice, Empereur des Romains, " PO 5: 776.

05 Vie de Syméon le Fou et Vie de Jean de Chypre c. 10, line 5, ed. And trans. By A.-J. Festugière, L. Rudén (Bibliothèque Archéologique et Historique, Insitut francais d'Archéologie de Beyrouth), T. 95 (Paris 1974) 356.

06 Greek text and translation: A. Couret, " La Prise de Jérusalem par les Perses, en 614, " ROC, ser. 1, vol. 2 (1897 ) 140-3.

07 Brannon Wheeler, "Imagining the Sassanian Capture of Jerusalem: 'The Prophecy and Dream of Zerubbabel' and Antiochus Strategos' 'Capture of Jerusalem'," Orientalia Christiana Periodica, 57(1991 ); cf. Israel Lévi, " L'Apocalypse de Zorobabel et le roi de Perse Siroès," Revue des Etudes Juives 68 (1914) 129-60; 71 (1920) 57-65. Muslim apocalyptic texts about Byzantium: Wilfred Madelung, "Apocalyptic Prophecies in Hims in the Umayyad Age," Journal of Semitic Studies 31 (1986) 146, 155, 156 n. 64, 158-74, 180-1, 183-4; Lawrence I. Conrad , "Portents of the Hour," Der Islam, forthcoming; Jewish apocalyptic literature: Benjamin Z. Kedar, "The Arab Conquests and Agriculture: A Seventh-Century Apocalypse, Satellite Imagery and Palynology, "Asian and African Studies. Journal of the Israel Oriental Society 19 (1985 ) 3-5. Stars: Theoph., Chron., AM 6124 (336 De Boor ) ; Extract from the Chronicle of Zuqnin, in: A. Palmer, Chronicles, part 1, no. 10:AG 937.

08 Ph. Grierson, DOCat (Washington 1968) II, part 1: 270-4, nos. 61.1-68.

09 Qur'an , Sura 30:2-3.

10 L. Sternbach, "Analecta Avarica," Rozprawy, Polska Akademii Umiejetnosci, Wydzial Filologiczny, ser. 2, vol. 15 (Cracow 1900) 298-9, 308, 312, 317, 320.

11 Chronicon Paschale, ed. By L. Dindorf (Bonn 1832) 1: 729, lines 6-8.

12 George of Pisidia, Exp. Pers. 1. 13-16, 3. 385-461 and Heraclias 1. 1-79 (Poemi, 1: Panegirici epici, ed. By A. Pertusi {Ettal 1960} 84-5, 133-6, 240-3); D. F. Frendo, " Classical and Christian Influences in the Heracliad of George of Pisidia, " Classical Bulletin 62.4 (1986) 53-62.

13 Ἐπάνοδος τού λειψάνου του . . . , Acta M. Anastasii Persae (12.28a

Usener); cf. F. Halkin, "Un Discours inédit du moine Pantaléon sur l'élévation de la Croix , BHG 427 p.," OCP 52 (1986) 257-70; E. Honigmann, "La Date de l'homélie du pretre Pantaléon sur la fete l'Exaltation de la Croix (VIIe siècle) et l'origine des collections homiliaires," Bulletin de la Classe des lettres et des Sciences Morales et Politiques (Académie royale de Belgique, 5 sér, T. 36 {1950} 547-59, esp. 556-7 ).

14 Sophronius, . . , ed. By A. Papadopoulos-Kerameus (St. Petersburg 1898) 5: 166-7.

15 Sophronius, PG 87:3197D.

16 Maximus the Confessor, epost. 14, ad Petrum illustrem , PG 91:540.

17 Doctrina lacobi nuper baptizati (62, 63, 70 Bonwetsch). The Ethiopic text of Sergius of Abarga in PO 13 is derivative and not the best medium for understanding the original.

18 Doctrina lacobi (60 Bonwetsch) . V. Déroche edn. In TM 1 (1991) appeared too late to use.

19 Doctrina lacobi (86-7 Bonwetsch).

20 Theophylact Simocatta, Hist. 4. 13. 13, . . Peter Schreiner's assertion that the text alludes to the Persian defeat by the Muslims at the battle of Qadisiyya, Theophylaktos Simokates, Geschichte, trans. And comment. By Peter Schreiner (Bibliothek der griechischen Literature, 20 {Stuttgart: Anton Hiersemann, 1985} 303 n. 591), is possible but not certain.

21 Theophylact Simocatta, Hist. 4. 13. 9.

22 Vie de Théodore de Sykéôn c. 134, ed. By A.-J. Festugèere (Sibsidia Hagiographia, n. 48. {Brussels 1970 } 1:106) George the monk began to compile the biography while St. Theodore of Sykeon still lived : Vie c. 165, 170. George was born in the last decade of the sixth century. He wrote the final version of the biography after Emperor Heraclius died, because he knows the length of Heraclius' reign: Vie c. 166, lines 32-4 (1: 154 Festugière ) c. Cf. W. E. Kaegi, "New Evidence on the Early Reign of Heraclius , "BZ 66 (1973 ) 308-30.

23 W. E. Kaegi, Jr., "Gli storici proto-bizantini e la Roma del tardo quinto secolo, " Rivista storica Italiana 88 (1976 ) 5-9; repr. In ASRB 6: 5-9.

24 "Sancti Georgii Chozebitae Confessoris et Manchi Vita Auctore Antonio eius discipulo," AB 7 (1888) 117. This text may date approximately to 638, according to its editor, p. 95.

25 John, Bishop of Nikiu, Chronicle 120,200,201,202. See also the attribution to divine wrath of the Christian sufferings in the tract of Pseudo-Athanasius (c. 691-750), which Francisco Javier Martinez has edited and translated, "Eastern Christian Apologetic in the Early Muslim Period" (Ann Arbor , MI : University Microfilms, 1985) 510-31. On Pseudo-Methodius : P. J. Alexander, " Psevdo –Mefodii I Efiopii," and "medieval Apocalypses as Historical Sources," repr., with additions, in his Religious and Political Thought in Byzantium (London: Variorum, 1978), respectively, XI:21-7a; XII: 53-7 , and XIII: 1003, 1006-8.

26 Fredegarius, Chron., 4.66 (154 Krusch). perhaps sword of God is a double entendre for Khalid b. al-Walid and may be an indication of the eastern provenance of the source for this section of the chronicle.

27 Sebeos, Hist. C. 32 (104-5 Macler, see also trans. By Bedrosian, p. 135).

28 Sebeos, Hist. C. 30 (Macler, see trans. Of Bedrosian, p. 124) this passage is reminiscent of Muslim arguments. It is possible that Sebeos reproduces contemporary Muslim apologetical arguments that justified their conquests. Although a Monophysite, this arguments contains no special Monophysite pleading or point of view . for later Armenian



views on Muhammad : R. W. Thomson, "Muhammad and the Origin of Islam in Armenian Literary Tradition," Armenian Studies/Etudes Arméniennes in memoriam Haig Berbérian, ed. By Dickran Kouymjian (Lisbon: Calouste Gulbenkian Foundation, 1986 ) 829-58.

29 Sebeos. Hist. C. 30 (124 Bedrosian, 96-7 Macler).

30 Michael the Syrian, Chron. 11.5 (2:418 Chabot); Friedhelm Winkelmann, "Die Quellen zur Erforschung des monoenergetisch-monotheletischen Streites," Klio 69 (1987 ) 515-59.

31 Michael the Syrian, Chron. 11.6 (2: 422-3 Chabot).

32 The Gospel of the Twelve Apostles Together with the Apocalypses of Each One of Them, ed. And trans. By James Rendall Harris (Cambridge : Cambridge University Press, 1900) 36-7.

33 Pseudo-Methodius, in Marinez, "Eastern Christian Apocalyptic: 143-4; cf. Harald Suermann, Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7. Jahrhunderts 174, 190-2. G. J. Reinink, "Ismael, der Wildesel in der Wuste. Zur Typologie der Apokalypse des Pseudo-Methodios, " BZ 75 (1982 ) 336-44, date : 338.

34 John Bar Penkaye, in : S. P. Brock, "North Mesopotamia in the Late Seventh Century . book XV of John Bar Penkaye Ris Mellé," JSAI 9 (1987) 57-8.

35 John Bar Penkaye, in: S. P. Brock, "North Mesopotamia in the Late Seventh Century. Book XV of John Bar Penkay's Ris Melle," JSAI 9 (1987) 61.

36 John Bar Penkaya, in : S. P. Brock , "North Mesopotamia in the Late Seventh Century. Book XV of John Bar Penkaye's Ris Melle, " JSAI 9 (1987) 58, 60.

37 Relatio motionis factae inter dommum abbatem Maximum et socium ejus principes in sectetario, PG 90:112.

38 Relatio, PG 90:112-13. This accusation has some plausibility. the contemporary Egyptian historian John of Nikiu reports that another general, John of Barca, was ordered to move and did move, unsuccessfully, to resist the Muslims in Egypt; he fell in combat if Byzantine troops from Barca were sent against the Muslims in, it is probable that there was an attempt to commit those from Numidia as well: John of Nikiu, c. 111.1-3 (178-9 Charles); Nicephorus, Hist. 23 (70-1 Mango) also : John Haldon, "Ideology and the Byzantine State in the Seventh Century: The 'Trial' of Maximus the Confessor," in: from Late Antiquity to Early Byzantium, ed. By V. Vavrinek (Prague: Academia, 1985) 87-91; John Haldon, Barometer , "Klio 68 (1986) 139-90.

39 DOCat 2, part 1: 101, DOCat 2, part 2: 391-4, 396-8 (Heraclonas , no. 5a, 5c, 5d. 1-2, 5e. 1-4), p. 399, no. 9a; DOCat 2, part 2:406, 443-62, nos. 59a-93b. Léon Matagne, "La Succession d'Héraclius," revue Belge de Numismatique et de Sigillographie 122 (1976) 87-96, esp. 95-6. Bates, dating is the most convincing. George F. Bates, "Constans II or Heraclons . . An Analysis of the Constantinopolitan Folles of Constans II" ANSMN 17 (1971) 141-61. P. Grierson, in: J. Yvon and H. M. Brown, eds., A Survey of Numismatic research 1966-1971 II (Medieval and oriental Numismatics [New York 1973]) 8. Alois Wenninger, "InPER ConST- Ein Beitrag sur follisprägung des KonstansII.," . . {Vienna 1981}) 3:136-40, accepts the attribution to Constants II and believes on p. 136 that the issue does reflect a new ideology. Unnoticed but interesting and relevant is a quotation from Eusebius, Demonstratio evangelica . . This is the only instance in Eusebius' work of the Greek usage of . . In any sense as renewal (other than architectual renewal or renovation). I thank P. Grierson for the opportinity to discuss these issues with him in 1974, 1979 , and

1980.

40 J. D. Mansi, Sacrorum Conciliorum nouva, et amplissima collectio 11: 201.

41 Acclamation of Constantine IV : Mansi 11: 656. Letter of Pope Agatho : Mansi 11: 239E-242A, Trans. From K. F. Morrison, Tradition and Authority in the Western Church (Princeton 1969) 148 ; cf. Mansi 11:238B, 239B-C.

42 Mansi 11 : 286 C-D.

43 Proceeding: Mansi 11:617-20; quotation: Mansi 11:617. For the significance of the incident for Bulgarian history : G. Cankova-Petkova "Uber die bildung des bulgarischen staates," Beiträge zur byzantinischen Geschichte im 9-11. Juhrhundert , ed. By V. Vavrinik (Prague 1978) 473.

44 G. Bardy " Les Trophées de Damas. Controvers judéo-chrétienne du VIIe siecle "PO 15 (1927) 175-8. A. Scharf, "Byzantine Jewry in the Seventh Century, " BZ 48 (1955) 103-15 A. Scharf, Byzantine Jewry : from Justinian to the Fourth Crusade (London 1971) A. L. Williams, Adversus Judaeos (Cambridge 1935) ; Maryse Waegeman, "Les Traités Adversus Judaeos. Aspects des relations judéo-chritiennes dans le monde grec," Byzantion 56 (1986) 295-313. See also Anonymi Auctoris Theognosiae (saec, IX/X) dissertatio contra ludaeos, ed. By Michiel Hostens (CC, Series Graeca , 14 Brepols –Turnhout): Leuven University Press, 1986 })

45 David Olster, Roman Defeat, Christian Response, and the Literary Construction of the Jew (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1993) also, Vincent Déroche, "L'Autenticité de l'Apologie contre les Juifs' de Léontios de Néapolis," BCH 110 (1986 ) 655-69.

46 Trophées 3.1 (220 Bardy).

47 Trophées 3.2 (221 Bardy).

48 Trophées 3.4 (222 Bardy).

49 Adversus ludaeos Disputatio, PG 89:1203-72.

50 800 years since Christ. PG 89:1225D; since Vespasian and Titus : PG89:1237B. Scholarship in favor of a ninth-century date summarized by J. Kumpfmuller, De Anastasio Sinaita (diss., Wurzburg, 1865) 147-8, K. Krumbacher , Geschichte der byzantinischen litteratur (2nd edn Munich 1959) 443; esp. S. Sakkos, Περί Αναστασίων Σιναϊτών (Thessalonica 1964) 149-9, 188-9.

51 PG 89:1212B-C; cf. A. L. Williams, Adversus Judaeos (Cambridge 1935) 175, accepted by G. Podskalsky, byzantinische Reischatologie (Munich 1972) 44, n. 272.

52 PG 89 :933 ; Sakkos, Περί Αναστασίων Σιναϊτών , 196-8; J.B. Pitra, " Anastasiana, " Juris eccles. Graesorum hist. Et monum (Rome 1868) 2: 244, n.2.

53 PG 89:1220D.

54 PG 89:1223D.

55 PG 89:1221C-D.

56 Fr. S. J. Saller, " An Eighth-Century Christian Inscription at el-Quweisme, near Amman, Transjordan," Journal of the Palestine Oriental Society 21 (1948) 138-47 ; A. Graber, L'Iconoclasme byzantine. Dossier archéologique (Paris 1957 ) 53-7; Michele Piccirillo, " The Umayyad Churches of Jordan, "ADAJ 28 (1984) 333-41 ; Piccirillo, Chiese e mosaici della Giordania Settentrionale , Studium Biblicum Franciscnum , 30
(Jerusalem : Franciscan Printing House , 1981 ) , and especially the early eighth-century dated mosaic from Umm al-Rasas : Piccirillo, " Le Iscrizioni di Um er-Rasas-Kastron Mefaa in Giordania I (1986-1987), " Liber Annuus Studium Biblicum Franciscanun 37 (1987) 177-239 ; Robert Schick, Christian Communities of Palestine.



57 PG 89: 1224A ; cf. Trophées de Damas, PO 15: 222; Ps.-Athanasius, Quaestiones ad Antiochum , Dialogue c. 10, pp. 61-2 ; Pseudo-Athanasius, Quaestiones ad Antiochum Ducem , PG 28:624, A. L. Williams unpersuasively ascribes the Quaestiones to the sixth century, but he fails to note the poor quality and unintelligible character of the numismatic reference , in contrast to that of the "Anastasius" Disputatio : Adversus Judaeos 160. The tract has received virtually no study since Casimir Oudin argued that it was not a genuine work of St. Athanasius : Trias dissertationum criticarum . . Secundo, De Quaestionibus ad work Antiochum Principem . . (Leiden 1717 )73-135. McGiffert could not understand his text's reference to a "sign of Christ " and a "gold cross" : Whether these words refer to a specific golden cross, or whether . . I do not know " (Dialogue, p. 89).

60 PG 89: 1224C-1225A.

61 Cosmas Indicopleustes, Topographie Chétienne 2
.77, ed. And trans. By W. Wolska-Conus .(Sources Chrétiennes, 141 {Paris 1968} 1: 393-5. Also note , from a century earlier , Quodvultdeus , " aurean monetam cum eodem signo crucis fieri praecipit , " Livre des promesses et des prédictions de Dieu III.xxxiv (36), ed. And trans. By René Braum (Paris : Editions du cerf, 1964) 2: 558-60. But cf. Introduction , n. 1, 1:70. This is an indication of how old is the apologetic effort to argue proofs from alleged coins with the cross. The nomisma or solidus is the standard gold coin of the empire, weighing 1/72 of a Roman pound, approximately 4.5 grams, DOCat 1, part 1: 8-11.

62 Th. Nöldeke, " Zur Geschichte der Araber im 1. Jh. DH. Aus syr. Quellen, " ZDMG 29 (1875) 96. " Extract from the Maronite Chronicle, " in Palmer, Shadow, part 1: text 4, AG971.

63 Pseudo-Athanasius, in edition and translation by Francisco Javier Martinez , " Eastern Christian Apologetic in the Early Muslim Period" 529-30.

64 Basic : J. Walker , Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins (London 1956) p. xxv, and in general , pp. Xxii-xxvi. Also : P. Grierson, DO Cat 2, part 1: 60-2 ; Grierson Monetary Reforms of "Abd al-Malik, " JESHO 3 (1960) 242-4. The most convenient review of the Scholarly literature together with new arguments : G. C. Miles, "The Earliest Arab Gold Coinage , " ANSMN 13 (1967) 205-29. Important also is Cécile Morrisson , " Le Trésor byzantin de Nikertai, " Revue belge de Numismatique et de Sigillographie 118 (1972) 29-91 , esp. 58-64, concerning circulation of Byzantine gold in Muslim Syria; cf. William E. Metcalf, " Three Seventh-Century Byzantine Gold Hoards ," ANSMN 25 (1980) 96-101, who modifies the conclusions in the publications of C. Morrisson and G. Miles.

65 Professor Philip Grierson and Dr. Michael Bates both answered my descriptions and inquiries. Letter of Ph. Grierson to me, dated 14 August 1974 , and letters of Dr. Michael Bates, Curator of Islamic Coins, American Numismatic Society, dated 10 October 1975 and 29 September 1987 . correspondence with Dr. Bates in late 1978 and discussions in Paris with Dr. Cécile Morrison during 1978-9 have helped to clarify problems. See unpub. Paper by Dr. Michael Bates, " The Umayyad Coinage of Damascus , 692-750 , " lent to me by kindness of author, dated 5 December 1986 . see also Michael L. Bates " History , Geography and Numismatics in the First Century of Islamic Coinage, " Revue Suisse de Numismatique 65 (1986) 239-42, 250-3, ; Bates ,
"Coinage of Syria under the Umayyads, 692-750" 1987 Bilād-al-Shām Proceedingd 2 (Eng. Sect.) 195-228. For additional observations on

this text and evidence for its late seventh-century date, see appendix I of this chapter.

66 Michael McCormick, Eternal Victory. Triumphal Rulership in Late Antiquity , Byzantium, and the Early Medieval West 36-252.

67 Stratos , 4: 246-57 ; P. Peeters , " Pasagnathes-Persogenes, " Byzantion 8 (1933) 405-23.

68 Kaegi, BMU, esp. on Saborios: 166-7, 182, 201, 234; cf. John Haldon, " Ideology and Social Change in the Seventh-Century : Military Discontent as a Barometer, " Klio 68 (1986) 139-90.

69 Michael the Syrian, Chron. 11.12 (2: 451-3 Chabot); Theophanes, Chron., AM 6159 (348-51 De Boor).

70 Theoph., Chron., AM 6159 (350-1 De Boor) ; but cf. Al-Tabari ii 84-6 (AH 47-9).

71 Yet military revolts continued: W. E. Kaegi, BMU 186-208.

72 Anastasius Sinaita, Sermo adversus Monotheletas 3. 1. 67-112 (59-61 Uthemann) first Arab siege of Constantinople:M. Canard, "Les Expéditions des Arabes contre constantinople dans l'histoire et dans la légendre," Journal Asiatique 208 (1926) 67-80.

73 W. E. Kaegi , Byzantium and the Decline of Rome (Princeton 1968) , and L. C. Ruggini, " Pubblicistica e storiografia buzantine di fronte alla crisi dell'Impero romano, " Athenaeum n.s. 51 (1973) 147-83. John Haldon , Byzantium 281-443.

74 'Klaus Berger, Die griechisch Daniel 1-9 (Studia Post-Biblica, 27 ( Leiden: Brill, 1976) 12-14. H Schmoldt, Die Schrift ' Daniels letzte Vision' (Theol. Diss., Hamburg, 1972); Wolfram Brands, „Apokalyptisches in Pergamon," Byzst 48 (1987) 1 n. 2.

## 10) عناصر الإخفاق والصمود

01 Peter the Patrician, frg. 6.1, in : The History of Menander the Guardsman, ed., and trans. By R. C. Blockley ( ARCA, 17 {Liverpool : Francis Cairns, 1985}) 59. My own translation.

02 Sophronius, PG 87:3197D.

03 For an evaluation of alternative strategies: Archer Jones, The Art of Warfare in the Western World (Urbana: University of Illinois Press, 1987) 662-716.

04 H. Ahreweiler, A. Kazhdan, N. Oikonomides, and A. Pertusi , and others, Frontières et régions frontières du VIIe au XIIe siècle , Rapports, XIVe Congrès International des Etudes Byzantines (Bucharest 1971), II.

05 Abd al-Hamid b. Yahya, Risala 4: 473-533, esp. 495-533 – Schonig, Sendschreiben 38-73 ; and on his knowledge of Greek, p. 106. He emphasizes craft and winning over key elements within the opposing army ( instead of resort to open combat ) a little more than a century after the conquest ; the methods described were probably also prevalent among Muslims at the time of the conquests.

06 C.-P. Haase, Untersuchungen zur Landschaftsgeschichte Nordszriens in der Umayyadenzeit (diss , University of Hamburge, 1972, puble. At Kiel 1975) 1-32,

07 Al-Tabari 2349. Destruction, evacuation: Michael the Syrian , Chron., 11.7 (2: 424 Chabot ).

08 Michael Bonner, " The emergence of the Thughur : the Arab-Byzantine Frontier in the Early 'Abbasid Age" (unpub. Ph. D. diss., Princeton University, 1987) 4-12; E. Honigmann, Die Ostgrenze des oströmischen Reiches von 363 bis 1071 (Brussels 1935); Haldon,



Byzantium 215-51; R.-J Lilie, Die byzantinsche Reaktion auf die Ausbeitung der Araber (Munich 1976) 40-96, 287-360;R.-J. Lilie, „Die zweihundertjährige Reform. Zu den Anfängen der Themenorganisation im 7. und 8. Jahrhundert, „Byzsl 45(1984) 27-39. CF. W. Ekaegi, "The Frontier: barrier or Bridge? " Major Papers, The 17th International Byzantine Congress (new Rochelle, NY : caratzas , 1986) 279-303.

09 Edward William Lane, An Arabic-English Lexicon (repr. Beirut 1968) , part 5, Book 1, p. 1774. Procopius, De aed. 2.1.2, Anecd. 24.12 Benjamin Isaac, " The Meaning of the Terms Limes and Limitanei, " JRS78 (1988) 135-6; cf. Suda, Lexicon 2:432 Adler; Malalas, Hist. (308 Dindorf – 168 Jeffreys-Scott).

10 J. Wellhausen, "Die Kämpfe der Araber mit den Romäern in der Zeit der Umaijiden," Göttenger Nachbrichten, Philol.-Hist. Klassr (1901)415.

11 Duties imposed on Duluk, Ra'ban inhabitants by their Muslim conquesors : Baladhurī 150.

12 Friedrich Hild, Das byzantinische Strassensystem in Kappasokien(Vienna 1977) 84-103.

13 Al-Yaqubi, Tarikh 2: 161 Houtsma; Azdi 237.

14 Michael the Syrian, Chronique 11. 6-7 (2:422, 424 Chabot); Baladhurī 163-4. Al-Tabari I 2396. Yāqūt/ Wustenfeld 1: 928. Ibn al-Athir (2: 384, 386 Tornberg). Pseudo-Methodius, who apparently wrote in the late seventh century, emphasizes the significance of the Muslim seizure , "he will seize the entrances of the North , " i.e., the passes : in Francisco Javier Martinez, " Eastern Christian Apocalyptic" 142, cf. 58-205. For the Greek : AnastasiosLolos, Die Apokalypse des Ps.-Methodios, 1. Red. XI, 13, Beitrage zur Klassischen Philologie 83 (Meidenheim am Glan : Verlag Anton Hain , 1976 ) 104-5.

15 For broader perspectives on some problems of military fortification and use of passes in this region :Robert W. Edwards,The Fortifications of Armenian Cilicia(Washington : Dumbarton Oaks,1987) esp. 3-50.

16 N. H. Baynes, "The Military Operations of the Emperor Heraclius , " United Service Magazine n.s. 47 (1913) 36-8, 195-201. A. Stratos, "La Première Campagne de l'Héraclius imperatora Irakliy, " VV3 (1950) esp. 144-6.

17 Theophanes , Chron.,AM., 6159 (350 De Boor) . J. Ferluga , "Le Clisure Bizantine in Asia Minore, " ZRVI 16 (1975) 9-23, repr. Byzantium on the Balkans (Amsterdam: hakkert, 1976) 71-85; cf. F. Hild, Das Byzantnische Strassensystem in Kappadokien (Vienna 1977).

18 Al-Yaqubi (2:178-9 Houtsma) . an alternative interpretation of the text might render jamra as "White-hot coals " and lead one to believe that he means that the passes will be "hotly" contested , not that a zone of destruction is to be created . This report only exists in the history of al-Yaqubi , who does not give his source.

19 Yet it is possible that Umar was simply a favored peg upon which all sorts of anachronisms are hung. Such stories may simply involve projecting back from late 'Umayyad or realy 'Abbasid times, when much of this material was formulated.

20 E. W. Brooks omitted the passage from al-Yaqubi in "The Arabs in Asia Minor (641-750), from Arabic Sources" JHS 18 (1898) 182-208, esp. 182-3; Brooks, " Additions and Corrections, " JHS 19 (1899) 31-3.

21 Baladhurī 156-7.

22 For some late Umayyad military advice – but ostensibly for fighting against the Kharijites : 'Abd al-Hamid bin Yahya, Risala 4: 473-533, esp. 495-533. The author emphasizes the need for strong security

measures, watchfulness, protection against night attacks , the dangers of enemy espionage , and the need for the use of tricks rather than battle. For him the choice and securing of encampments is important , as is strict discipline, creation of a strong rearguard , avoidance of risky combat , use of cleverness, and selection of trustworthy officers.

23 Baladhurī 165,167.

24 Baladhurī 164.

25 Al-Yaqubi , Ta'rikh 2: 178-9. Moreover, it may not have been 'Umar II (ibn Abd al-Aziz ) who said something like that.

26 Ibn 'Abd al-Hakam, History of the Conquest of Egypt . . . , ed. By C. Torrey (New Haven 1922) 108; al-Tabari I 2594 , 2798 ; Ibn al-Athir (2: 444; 3:60 Torneborg) ; Baladhurī 136-7 ; Michael the Syrian 11.8 (2:431 Chabot ) for analysis : W. E. Kaegi , Jr., "The First Arab Expedition to Amorium , " BMGS 3 (1977) 19-22 = ASRB 14. For other references to this tradition, also from the traditionist Layth b. Sa'd (713-91 ) : al-Fasawi (wrongly entitled al-Bassawi, d. 277/890 ), Kitab al-m'arifa wa'lta'rikh , ed. By A. D. al-Umari (Baghdad 1976) 3: 307 ; Ibn Hajar al-Asqalani, Al-Isaba fi tamyiz al-Sahaba (Cairo 1939) 2: 53. On Layth b. Sa'd : A. Mérad, " Layth b. Sa'd , " Encyclopedia of Islam (2nd edn {1986}) 5: 711-12; R. G. Khory, "al-Layth b. Sa'd " Jornal of Near eastern Studies 40 (1981) : 189-202.

27 Al-Tabari ii 82-3 {AH 46=AD 666/667 } = The History of al-Tabari between Civil Wars : The Caliphate of of Mu'awiya, trans. By M. G. Morony (Albany : State University of New York Press , 1987) 88-9.Theoph. Chron., AM 6157 (348 De Boor). H. Lammens, "Etudes sur le règne du Caliphe Omaiade Mo'awia ler, " Mélanges de la Faculté Orientale, Université de Sainte-Joseph 1 (1906) 3, 14.

28 Al-Tabari (Sayf) , I 2820-1; trans. From History (R. S. Humphreys) 15:26,27; Baladhurī 152.

29 Baladhurī 212.

30 Michael the Syrian , Chron., 11.8 (2: 431 Chabot) ; Frank R. Trombley, " The Decline
of the Seventh-Century Town : The Exception of Euchaita, " Byzantine Studies in Honor of Milton V. Anastos, ed. By Speros Vryonis, Jr. (Malibu 1985 ) 65-90

31 Michael the Syrian, Chron. 11.8 (2: 431 Chabot).

32 On Muslim raids into Anatolia , see Wolfram Brandes, Die Stadte Kleinasiens im 7. Und 8. Jahrhundert (Berlin : Akademie-Verlag, 1989) 44-80

33 Al-Tabari I 2390-1 refers to Heraclius "attempt to take advantage earlier at Hims of the Arabs'dislike of cold. Leo VI, Tactica 18.124 = PG 107:976 , advises that the cold bothers Arabs and therefore one should attack them in cold weather. Sebeos, Hist. C. 38 (176 Bedrosian , 145 Macler), mentions the cold in Armenia because of which "The Arabs were unable to engage them {The Byzantines} in war "(176 Bedrosian). This passage from Sebeos' History helps to confirm that in the seventh century there were instances when the Byzantines did benefit from the Arab dislike of cold weather.

34 Baladhurī 136-7, 163-4; al-Yaqubi (2: 168 Houtsma) . al-Asma'I {attribution}, Tari'kh al'Arab qabl'al-Islam, ed. By Muhammad Hasan Al-Yasin (Baghdad 1959) 111-12. Al=Asma'I's detailed knowledge of Islamic traditions: N. Abbott, studies in Arabic Literary Papyri, III: language and literature (Chicago : University of Chicago Oriental Institue Publications {Chicago 1972} 99-107. Al-Tabari I 2508-9. Ps.-Waqidi, (Beirut 1972) 2:112. Al-Istakhri, ed. By De Goeje, Bibliotheca Geographorum Arabiocorum 1:45 Ibn al-Athir (2: 386, 414-15 Tornberg ). Abu'l Fida, Annales, ed. By Jo. Ja. Reiske (Copenhagen 1789) I: 234-6. Excellent background: Irfan Shahid,



BAFOC 2-4, 13-16, 18-24, 117, 382-3, 474-6, 499-500.

35 Al-Tabari, I 2508, trans. From Al-Tabari , The History of al-Tabari, 13: The Conquest of Iraq, Southwestern Persia, and Egypt, trans. By Gautier H. A. Juynboll (Albany : State University of New York Press, 1989 ) 89, 91. Pseudo-Waqidi 2:111-12 on flight of the Iyad.there is also, 2: 155, anachronistic reference to Istanbul. Cf. Bakri, Mu'jam ma ista'jam (Cairo 1945), p. 75 on "Umar writing to Heraclius: al-Tabari I 2508-9. Ibn Sa'd, Tabaqat IV/1:139-40, for reference to "Umar's successful effort to regain a captured Muslim commander 'Abd Allah b. Hudhafa in his correspondence with Emperor Constantine, son of Heraclius. "Umar's efforts to try to halt the migration of the banu Taghlib to Byzantine territory, Baladhurī 181-3; al-Tabari I 2509-11; Caetani, Al 4:226-31.

36 In Egypt in 661, reportedly 15,000 caliph soldiers negotiated with Constans II, converted to Christianity, and allied themselves with Byzantium : Sebeos, Hist. C. 38 (128 Bedrosian , 149 Macler ); "Now the army which was in Egypt united with the Byzantine emperor, made peace and was incorporated. The multitude of the troops, some 15,000 people, believed in Christ and were baptized.

37 Al-Tabari I 2822-3. This undated incident may involve the aftermath of an alleged and improbable Byzantine effort to attack Hims by sea, or by a raid from Byzantine Mesopotamia, or perhaps diplomatic negotiations to smooth events after the failure of the expedition, in order to prevent a major outbreak of new warfare.

38 Al-Tabari I 2820-30. Yet here again the Caliphat of 'Umar may merely have served as a convenient place on which to project later stories. Caution is essential in reading or intepreting any such anecdotal material, which reads very much like a later attempt to establish the distinction between a public and a private treasury. It could derive from the eighth or ninth century.

39 Νόμοι Στρατιωτικοί, 19,46, ed. By I. And J. Zepos, Jus Graeco-Romanum (repr. Aalen 1962) 2:83.123-6, esp. 87.242-7, on weapons, but concerning desertion and return: c. 9(2:82 Zepos ), and c. 24(2:84-5 Zepos );Leo III, Ecloga 8.2, 8.4.2, ed. By Ludwig Burgmann (Forschungen zur Byzantischen Rechtsgeschichte, 10 {Frankfurt: Lowenklau , 1983 }) 202.

40 "Skirmishing" 7,in three Byzantine Military Treatises, ed. And trans. By G. T. Dennis (Washington : Dumbarton Oaks, 1985 ) 162-3; = Le Traité sur la guérilla de l'empereur Nicéphore Phocas 7.2, ed., trans., and comment. By Gilbert Dagron, Haralambie Mishaescu (Paris: Edition du C.N.R.S., 1986 ) 51, 180, 249. Gilbert Dagron , " Byzance et le modèle islamique au Xe siècle . a propos des Constitutions tactiques de l'empereur Léon VI, "Comptes rendus, Académie des inscriptions et belles-lettres (1983) 219-43.

41 Baladhurī, Ansab al-Ashraf, ed. By Ihsan 'Abbas (Wiesbaden ; F. Steiner, 1979) IV.1:47;edn by Max Schloessinger and M. J. Kister(Jerusalem:Magnes ,1971)IVA:36.

42 G. Dagron"'Ceux d'en face'les peuples étrangers dans les traité militaires byzantins" TM 10 (1986) 211,222-7.

43 Baladhurī 153.

44 Abu 'Ubayd al-Qasim b. Sallam , kitab al-amwal, ed. By Muhammad Khalil Haras (Cairo 1968 ) 248, 253; Marius Canard, "Deux épisodes des relations diplomatiques rabo-byzantines au Xe siècle , " Bulletin d'Etudes Orientales de l'institut francais de Damas 13 (1949-1950) 62-3; repr. In his byzance et les musulmanes du Proche Orient (London : Variorum , 1973) . canard accepts the credibility of the account ; W. Barthold, "Al-Awza'I Der islam 18 (1929)244.

45 Baladhurī 150, 156-7. The Muslim tradition specifically compares the

case of Cyprus to that of Arabissos , a point which some modern historians of Cyprus have ignored. Yet the similarity in obligations increases the credibility of the terms that allegedly were imposed on the Cypriots by the Muslims.

46 H. Gottschalk ,"Abo'Ubayd al-Qasim b. Sallam, "El2 1 (1960)157.

47 See A. Stratos Βυξάντιον (Athens 1972) 4:46-8, who argues that Cyprus had no "ruler"at that time, that therefore Baladhurī must be incorrect. Stratos is wrong because the Taktikon Uspensky in the middle of the ninth century does list an άρχων for Cyprus : N. Oikonomides, listes 57,cf. 353-4, on a possible explanation of the post of άρχων was one involving naval responsibilities : H. Ahrweiler, byzance et la mer (Paris : Presses Universitaires de France , 1966) 54-61; cf. Judith Herrin, "Crete in the Conflicts of the Eighth Century ," Αφιέρωμα οτόν Νίκο Σβορ, ed. By Vasiles Kremmyadas Maltezou , Nikolaos Panayiotakis (Rethymnon : University of Crete , 1986) 1:113-26. A. I. Dikigoropoulos, " The Political Status of Cyprus AD 648-695, : Report of the Department of Antiquities (1940-8; publ.Lefkosia 1958) 94-114, alos questions the veracity of the tradition. But Costas P. Kyrres, "The Nature of the Arab-Byzantine Relations in Cyprus from the Middle of the 7th to the Middle of the 10th Century AD, " Graeco-Arabica 3 (1984) 149-76, repr. In abridged form in his history of Cyprus (Nocosia 1985) 176-85, agrees that a 648/9 date for such peace terms is conceivable. Excessively skeptical is A. Papageorgiou, " Les Premières Incursions arabes à Chypre et leurs conséquences,"Αφιέρωμα είς τόυ Κωνστανίνον Σπυριζάκιν (Lefkosia 1964) 152-8. Nikolas Oikonomakis,"Η έν Κύπρω κάτα τάς "Αραβικάς Πηγάς..." Πρατικα τού Πρώτου Διεθνούς Κυπρολογικού Συνεδριου (Lefkosia 1972)2: 193-4, apparently accepts the 648/9 date.

48 Ahmad Shboul, "Arab attitudes Towards Byzantium : Official, learned, Popular, " Καθηγητρία: Essays Presented to Joan Hussey for Her 80th Birthday (Camberley, Surrey : Porphyrogenitus , 1988) 111-28.

49 Notably Ibn al-Athir and al-Tabari , who use traditions that Sayf b. 'Umar transmitted : Ibn al-Athir (2:413 Tornberg) ; Yāqūt 2: 73; al-Tabari I 3393-4, I 2498-503, 2549; al-Tabari (Zotenberg, 3:425-30); also , al-Tabari , The History of al-Tabari, 13: The Conquest of Iraq , Southwestern Persia, and Egypt, trans. By Gautier H. A. Juynboll (Albany : State University of New York Press, 1989) 79-91; Ibn al-Adīm, Zubdat al-Halab min Ta'rikh Halab 1: 25-9; Baladhurī (149 De Goeje) . see N. Posner , " The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia" esp. 246-92.

50 Hratz Bartikian, ByzStratos 1: 17-39 .

51 Al-Tabari I 2516; trans. From the History of al Tabari , 13: The Conquest of Iraq , Southwestern Persia, and Egypt, trans.by Gautier H. A. Juynboll (Albany : State University of New York Press, 1989) 96.

52 Walter E. Kaegi ,"Observations on Warfare Between Byzantium and Umayyad Syria, "1987 Bilād-al-Shām Proceedings 2: 49-70.

53 Michael Hendy , Studies in the Byzantine Monetary Economy (Cambridge : Cambridge University Press, 1985).

54 Σύνοψις Χρονική{Synoposis Sathas }, ed. By Constantine Sathas, in; ????(Vienna, Paris 1894) 7: 110. On this thirteenth-century source, Karayannopulos-Weiss, Quellenkunde 2: 462-3, no. 443. It contains occasiionally valuable unique references to the seventh-century : Walter E. Kaegi, "New Evidence on the Early Reign of Heraclius , "BZ 66 (1973) 311, esp. n. 9.

55 Lead seals-Zakos-Veglery, BLS no. 1365, I, part 2: 831 ; V. Laurent , Le Corpus des sceaux de l'Empire Byzantin, T. 2:L'Administration centrale (Paris : Editions du C.N.R.S., 1981) 385-6, no. 740 – of



Philagrios are known , as well as his activities on behalf of Constantine III as successor of Hercalius , Nicephorus, Hist. 29 (78 Mango) , and his exile at the instigation of General Valentinus, Nicephorus, Hist. 30(80 Mango), and John of Nkiu 120. 2-3 (191 Charles). This is the only reference to this act.

56 Theoph. Chron. AM 6131 (341 De Boor) . AH 20=AD 640 : al-Ya'qubi (2: Houtsma) ; Ibn Sa'd Tabaqat III/1:213 (Muharam AH 20 or December 640 / January 641) . there may be Byzantine influence on the establishment of a general tax register, but the issue of the creation of a register or muster list of those soldiers entitles to stipends is a separate matter, for which see Gerd-Rudiger Puin, Der Diwan von 'Umar (Bonn 1970) 18, 27, 94. The word diwan , or treasury , had original associations with creating a register : Lane , Arabic-English lexicon , 1: 939, and that is precisely what Theodore Skutariotes and Theophanes are mentioning for both states in the final years of the reign Heraclius . last general census : Jean Durliat , Les Finances publiques 16.

57 Contemporary sentiments in favor of preservations of the Persian Empire and warnings about the potential danger of its replacement by some other race if it disappeared : Theophylact Simocatta , Hist. 4. 13. 9, 4. 13. 13. Theophylact is insufficiently explict about the identity of the race that might replace the Persians. Perhaps he means any other race, a grudging admission that only the Persians could be considered civilized and on a par with the Byzantine.

58 On the Muslim defeat of the Sassanians, A. I. Kolesnikov, Zavoevanie Irana Arabami (Moscow : Nauka, 1982).

59 Just. Nov. 85; Priscus, Hist., ed. By L. Dindorf, Historici Graeci Monores (Leipzig : Teubner , 1870) 306; Denis Feissel, Ismail Kaygusuz , " Un mandement impérial du Vie siècle dans une inscription d'Hadrianoupolis d'Honoriade, " TM 9 (1985) 397-419 , esp. 410-15; Stein, HBE 2: 245, 465.

60 For sensible emphasis on the ultimately important role of military force, not internal strife, in determining the fate of northern Syria: dennis Dean Hammond, "Byzantine Northern Syria, AD 298-610 : Integration and Disintegration " (Unpub. Ph. D. diss., UCLA, 1987 ) 326.

61 Limits of trade : Patricia Crone , Meccan Trade and the Rise of Islam (Princeton : Princeton University Press, 1987).

62 Abd al-Hamid ibn Yahya , Risala 4:512 – Schonig, Sendschreiben.

63 W. E. Kaegi , Jr., BMU 134-85, and, in more detail, Dionysia Misiu , Ηδιαθήκη τον Ηρακλείον Α καί τον (Thessaloniki 1984) . critical observations on the Greek sources : P. Speck, Das geteilte Dossier 44-50, 414-97 ; A. Stratos , Βυζάντιον (Athens 1969)3: 144-220. Note : Michael the Syrian , Chron. 11.8 (2:426 Chabot) ; Georgius Elmacinus (al-Makin), Historia Saracenia qua Res Muslimorum inde a Muhammade . . . , trans., by Thomas Erpenius (Leiden : Typographia Erpeniana, 1625) 36.

64 On problems in the subsequent eighth and ninth centuries : Friedhelm Winkelmann, Quellenstudien zur herrschenden Klasse von Byzanz im 8. Und 9. Jahrhundert (Berlin : Akademie-Verlag, 1987).

65 Abd al-Hamid bin Yahya , Risala 4: 473-533, esp. 495-533 = Schonig, Sendschreiben 38-73.

66 Theophylact Simocatta, Hist. 3.17.7 (De Boor 151)

67 Paul Emile Lemerle, Les Plus Anciens Recueils des miracles de Saint Démétrius et la pénétration des Slaves dans les Balkans, I, II(Paris : Editions du C.N.R.S., 1979,1981).

68 Hippolyte Delehaye, " Passion sanctorum sexaginta martyrum , " AB 28 (1904) 289-307 ; J. Pargoire, " Les LX soldats martyrs de Gaza ,

"EO 8 (1905) 40-3.

69 Destructiveness : Banjamin Z. Kedar , " The Arab Conquests and Agriculture : A Seventh- Century Apocalypse , Satellite Imagery , and Palynology, " Asian and African Studies, journal of the Israel Oriental Society 19 (1985) 1-15.

70 Michael the Syrian, Chron., 11.5 ( 2:418 Chabot) . Ammianus 20.7.9.

71 John W. Jandora, " Developments in Islamic Warfare : The Early Conquests , " Studia Islamica 64 (1986) 101-13, who argues with excessive enthusiasm for the positive role of Muslim military science in the accompleshment of the various conquests. On Monotheletism and Monophysitism, Friedhelm Winkelmann , " Die Quellen zur Erforschung des mono-enegetisch-monotheletischen Streites, " Klio 69 (1987) 515-9.

72 Procopius, Anecd. 26.31-3.

73 Glaville Downey, "The Persian Campaign in Syria in AD 540,"Speculum 28 (1953)342-5, cf. Also 348.

74 Donner, EIC 270

75 Donner, EIC 256

76 Donner, EIC 255

77 Azdi 15.

78 Michael Bonner, "The Emergence of the Thughur : The Arab-Byzantine Frontier in the Early'Abbasid Age" (unpub. Ph. D. diss., Princeton University , 1987).

79 Baladhurī 163-72; Hasse, Untersuchungen 33ff. Kenneth Holum and Professor Yoram Tsafrir believe, however , that there is evidence for destructiveness at the site Rehovot ba-Negev.

80 On the Negev, esp. Philip Mayerson," The Agricultural Regime, "Excavations at Nessana, vol. 1, ed. By H. Dunscombe Colt (London : British School of Archaeology in Jerusalem , 1962); A. Negev, " Eboda , " in : Encyclopaedia of Archaeological Excavations in the Holy Land (New York , Jerusalem : Prentice Hall, Massada) 2: 343-55.

81 The Pirenne Thesis is now obsolete : Dietrich Claude , Untersuchungen zur Handel und Vekeher der vor-und fruhgeschichtlichen Zeit in Mittel-und Nord-Europa, II (Gottingen : Vandenhoek und Ruprecht , 1984) and, R. Hodges, D. Whitehouse, Mohammed, Charle-magne and the Origins of Europe (Ithaca, NY:Cornell University Press, 1983) see Fred M. Donner, s.v., "Islam, Conquests of, " DMA 6 (1985) 566-74.

82 Shahid , BAFIC 274-6, 327-8.

83 Ibn 'Abd al-Hakam, Futuh misr (129 Torrey). Ibn Duqmaq, al-Intisar li-Wasitat'Iqd al-Amsar, ed. By Karl Vollers (Beirut : al-Maktab al-Tijari Tiba a wa al-Nashr wa al-Tawzi', 1966) 5; Waldyslaw Kubiak, Al Fustat. Its foundation and Early Urban development (Warsaw : Wydawnictwa Uniwersytetu Warsawskiego, 1982)95.

84 Sebeos , Hist.c . 38 (182Bedrosian, 149 Macler). The case underscores continuing volatility in military loyalties. In the siege of Constantinople in 717-18, there are reports of the unreliability and desertion of Christian sailors from the Muslim fleet that was blockading and besieging Constantinople: Theoph., Chron., AM 6209 (397 De Boor). Rejection of allegations that Christian troops from the Banu Taghlib participated in the campaign for Marwan : Gernot Rotter, Die Umayyaden und der zweite Burgerkrieg (680-692) (Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes {Wiesbaden : deutsche Morgenlandische Gesellschaft, Kommissionsverlag Franz Steiner , 1982 }) 150 n. 261.

85 W. E. Kaegi Byzantine Reactions to the Arab Conquest, " Church History 38 (1969) 11, reprinted with corrections in ASRB, Also,



Telemachos Lounghis,
4 (Athens 1981) 49-85.

86 Role of Towns, villages, and topography in the tenth century : Le Traité sur la guérilla (De velitatione) de l'empereur Nicéphore Phocas, ed. By G. Dagron, H. Mihaescu
(Paris : Editions du C.N.R.S., 1986).

87 Ramsay MacMullen, Corruption and the Decline of Rome 177-97.

88 Judith Herrin, The Formation of Christendom (Princeton : Princeton University Press, 1987) 211, probably exaggerates the consciousness of "holy war " in most tribesmen. Albrecht Noth argues that "holy war "was not characteristic of Islam at the earliest period of the conquests, Heiliger Krieg und Heiliger Kampf (Bonner historische Forschungen , 28 {Bonn : Rohrscheid, 1966} 41-2, 87-8, and esp. 139-48, although at that era the foundation was being laid for such a latter concept of "Heiliger Kampf." Wilfred Madelung, s.v. "Jihad," DMA 7: 110-11.

89 Baladhurī (212-13 De Goeje).

90 Jacques Jarry, "L'Egypte et l'invasion musulmane," Annales Islamologiques 6 (1966 ) 1-29, is hopelessly confused in ascribing social, political, and religious significance to the circus factions in Egypt and interpreting the entire Byzantine defense of Egypt and its fall to the Muslims in the light of these false theories; cf. Alan Cameron, Circus Factions : Blues and Greens at Rome and Byzantium (Oxford:Clarendon Press, 1976 ).

91 Muslim conquest of Iraq : Donner, EIC ; Morony, Iraq after the Muslim Conquest
(Princeton : Princeton University Press, 1984 ).

92 Gilbert Dagron , " Byzance et le modèle islamique au Xe siècle . a propos des Constitutions tactiques de l'empereur Léon VI, " Comptes rendus, Académie des inscriptions et belles-lettres (1983 ) 2319 –43; Dagron, '" Ceux d'en face' : les peuples étrangers dans les traité militaires byzantins," TM 10 (1986) 222-8; Le Traité sur la guérilla (De velitationne) de l'empereur Nicéphore Phocas, ed. By G. Dagron H. Mihaescu ( Paris : Editions du C.N.R.S., 1986 ).

93 Eutychius, Ann. 279 (136-7 Breydy) Kufi 1: 269-70.

94 Eutychius, Ann. 279 (136-7 Breydy text, 116 Breydy trans.); Michael the Syrian, Chron., 11.6. ( 2: 421 Chabot ).

95 Ralph-Johannes Lilie , "Die zweihundertjahriege Reform. Zu den Anfangen der Themen-organisation im 7. Und 8. Jahrhundert , " Byzsl 45 (1984 )27-39, 190-201.

96 The maximalist case for evidence from Arabic sources on the existence of districts with "theme-like" characteristics in Syria before the Muslim conquest: Irfan Shahid,
" Heraclius and the Theme System : New Light from the Arabic,"Byzantion 57 (1987) 391-403 ; and Shahid, " Heraclius and the Theme System : Further Observations , : Byzantion 59 (1989) 208-43. These are important and welcome contributions to the debate on the emergence and nature of themes. I shall avoid discussion until I have the opportunity to discuss these papers in detail elsewhere. It is important for any connections between Byzantine and Muslim military institutions to receive scholarly examination, including comparative study, and there is some evidence that Heraclius was engaged in some kind of creation of emergency military government jurisdictions to cope with the critical situation that existed in the face of the Muslim invasions. The question is , what was the precise character and aim of that improvisation ? I likewise suspend judgement on the Ph. D. dissertation of Alan G. Walmsley. Ph. D. diss., University of Sydney , Australia, 1987 ). In contrast to Shahid , he asserts that the ajnad originated in the caliphate of 'Umar , without any direct Byzantine

origins . I must also suspend judgment on his thesis until I can study the details of his logic and documentation. As I understand it, he has attempted to use extensive archaeological and numismatic evidence to support his conclusions, and if well done it will be an important contribution to our knowledge.

97 Azdi 31: Ibn al-Athir 2:311, 317-18; al-Tabari I 2104.

98 Niceph., Hist. 23 (70-3 Mango) ; Theoph., Chron., AM 6128 (De Boor 340).

99 Azdi's information, on pp. 28-31 of the Amir edition of al-Azdi al-Basri's Ta'rikh futuh al-Sham, coupled with that of Kufi 1: 101, and al-Tabari / Sayf I 2104 , and Ibn al-Athir (2:311 Torberg), is the most complete.

100 M. De Goeje, Mémoire 2 73, citing al-Tabari I 2087 (Sayf) , believed that the "Daraqis " mentioned at Fahl, in 635, was possibly the " Thrakesios " or commander of the Thrakesian Theme, but he was not certain . it is not possible to be more certain about his identification even today. But the reading in al-Tabari I 2087 inDe Goeje's own edition is " Duraqis" it probably refers to the Thrakesios not as thematic commander, but in the traditional sense of magister militum per Thraciam or commander of Thracian forces, whose troops unsuccessfully defended Egypt a few years later. It may even be an inaccurate rendering of drungarios ( δρουγγάιος), not "Thrakesios" ??? The drungarios is mentioned in other Arabic texts. The scribe may have made an error in copying or transcribing drungarios. But even if it is " Thrakesios ," there is no evidencethat it is thematic unit already at that time instead of some military unit before it became a " theme". De Goeije wrote his conjecture before much research had taken place on the Byzantine ' Themes." At best, De Goeije's Hypothesis is a possible explanation , but no more than that. No additional confirmation of his surmise has been found . no other scholars have been commented on De Goeije's hypothesis, Kaegi, " al-Baladhurī and the Armeniak Theme," ASRB, for possible Arabic source on the problem of thematic origins.

101 Al-Tabari, I 2572-3; the English translation is from The History of al-Tabari , 13:The Conquest of Iraq, southwestern Persia, and Egypt, trans. By Gautier H. A. Juynboll (Albany : State University of New York Press, 1989 ) 154.

102 Walter E. Kaegi, Jr., "al-Baladhurī and the Armeniak Theme, "Byzantion 38 (1969) 273-7; but see Ralph-Johannes Lilie, " Die zweihundertjahrige Reform. Zu den Anfangender Themenorganisation im 7. Und 8. Jahrhundert," Byzsl 45 (1984) 27-39, 190-201.

103 Kaegi, BMU 148-53. Eutychius, Ann. C. 278 (135-6 Breydy text); Azdi 151-2, 175-7.

104 Survival of the old provinces: heinrich Gelzer, Die Gensis der byzantinischen themenrverfassung (Leipzig 1899 ; repr. Amsterdam : hakkert, 1966) 64—72 ; J, Karayan-nopoulos, Die Entstehung der byzantinischen Themenordnung (Munich : beck, 1959) 35, 57-8, 70; Haldon Byzantium 196-200, 212.

105 Kaegi, " Observations on Warfare between Byzantium and Umayyad Syria," 1987 Bilād-al-Shām Proceedings 2:49-70; Kaegi, "Changes in Military Organization and Daily Life on the Eastern Frontier, " Ηκαθημιν Ζωή στό Βυζάντιο ,ed. by Chrysa Maltezou (Athens: Hellenic Center for Byzantine studies, 1989) 507-21.

106 Maria Nystazopoulou –Pelekidou , " Les Slaves dans l'empire byzantin ," Major Papers, The 17th International Byzantine Congress ( new Rochelle, Ny Caratzas , 1986 ) 345-67.

107 Emilienne Demougeot, de l'unité à la division de l'empire romain



(395-410) (Paris: Geuthner, 1951). Cf. Walter E. Kaegi, Byzantium and the Decline of Rome (Princeton: Princeton University Press, 1968).

## هوامش الملحق

01 Jacobus Basnage , de Anastasio Observatio , in his Thesaures Monumentorum Ecclesiasticorum et Historiocorum sive Henrici Canisii Lectiones Antiquae (Antwerp 1725) II. Part 3: 10-11. The translation is my own .The italics appear in the original Latin.

02 Dujcev, "La Chronique byzantine de l'an 811, " TM 1 (1965) 205-54, collects the data.

03 J. Kumpfmuller, De Anastasio Sinaita 147-8; cf. Disputatio, PG 89:1221B-C, 1221D, 1236A.

04 B. Blumenkranz, Juifs et Chrétiens dans le monde occidental, 430-1096 (Paris, The Hague : Mouton, 1960) 68-84, argues for the actual use of polemical literature in debates and discussions in the west ; cf. Also, B. Blumenkranz, Les Auteurs Chrétiens latins du moyen ôge sur les juifs et le judaisme (Paris , The Hague 1963).

05 C. H. Haskins, " Pascalis Romanus, Petrus Chrysolanus , " Byzantion 2 (1925) 232.Dr. Otto Kresten has also suggested this explanation (in a letter to me) for the date in the extant Advanced Study in the Autumn Term, 1984, observed that the scribe could simply have made a mistake.

06 M. Kmosko, " Das Ratsel des Pseudomethodius , " Byzantion 6 (1931) 293-5; Dialogue between a Christian and a Jew , ed. By A. C. McGiffert (diss. Marburg, publ. At New York 1889) 17, 35-7. For garbled numismatic passage, Dialogue c. 10, p. 61.

07 I did not discover his remarks until I had independently reached the same conclusion.

08 One fourteenth-century manuscript of the Κατά has received little attention for establishing the text : Lampros no. 1573 = Karakallou no. 60, subs. 3, Lampros , Cat. Greek Mss. Mt. Athos 1: 134. Examination of a microfilm copy revealed no new evidence about the author or his date.

09 Sakkos, theorized that the writings that manuscripts ascrible to St. Anastasius the Sinaite really belong to seven different authors, pp. 38-43 and passim. G. Weiss negatively reviewed the analysis of Sakkos did examine the still unpublished Greek text of the Hexaemeron and concluded that its vocabulary and style are identical to the Adversus Iudaeos Disputatio, 196-8. He concluded that the disputatio must be the anti—Jewish tractmentioned by the author of the Hexaemeron even though the subject which the Hexaemeron states will be treated in the second book of the Treatise Against the Jews appears in the present first book; Sakkos hypothesizes that part of the original text may have been lost ; cf. E. Chrysos, "1 (1969 ) 121-44.

10 Except for A. L. Williams, Adversus Judaeos, which is inadequate. Robert Wilken, John Chrysostom and the Jews: Rhetoric and Reality in the Fourth Century (Berkeley : University of California Press, 1983) ; David Olster , Roman Defeat , Christian Response , and the Literary Construction of the Jew.

11 In the Disputatio, reference to Turks appears at PG 89:1212, which corresponds for unknown reason to a passage concerning Turks and Avars which is found in the Syriac Pseudo-Methodius apocalypse: Martinez, " Eastern Christian Apocalyptic " 76, 139 ; Latin : E. Sackur, Sibyllinische Texte und Forschungen (Halle 1898) 79 n. 4 and 5, , and in the actual text, lines 2-4 on p. 80; Greek text , Antonios Lolos, Die Apokalypse des Pseudo-Methodios, 1. Red. X, 5, p. 94.

Date: 20-2. It is an old apologetical reference to Khazars and Avars in the sense of Italic European steppe nomads, not to eleventh Seljuk Turks. It does not relegate the disputatio or Pseudo-Methodius to the eleventh century.

12 A. C. McGiffert, Dialogue 41-4. G. Bardy, in his thorough introduction to his edition of the Trophées de Damas, PO 15:185-8, notes the deficiencies and incompleteness of McGiffert's researches. Cf. John Haldon, " The Works of Anastasius of Sinai, " in : A. Cameron, L. I. Conrad, The Byzantine and Early Islamic Near East (Princeton : Darwin , 1992) 107-47. Also: G. Dahan, " Paschalis Romanus. Disputatio contra Judaeos," Recherches Augustiniennes 11 (1976) 161-213.



# ثبت المراجع

## SELECTIVE BIBLIOGRAPHY OF PRIMARY SOURCES: GREEK

### ANONYMOUS WORKS


Doctrina lacobi nuper baptizati, ed. By N. Bonwetsch. Abhandlungen der Königl. Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse, n.s. vol. 12, n. 3. Berlin 1910.

La narratio de rebus Armeniae, ed. And comment. By Gérard Garitte. CSCO, Subsidia, T. 4. Louvain 1952.

Vie de Théodore Saint de Sykéôn, ed. By A. J. Festugière. Subsidia Hagiographica, 48. 2 vols. Brussels 1970.

Three Byzantine Military Treatises, ed. and trans. By G. T. Dennis. Washington: Dumbarton Oaks, 1985.

Trophées de Damas, ed. by G. Bardy. PO 15 (1927) 189-275.

Die griechische Daniel Diegese: Eine altkirchliche Apokalypse, ed. by Klaus Berger. Studia Post-Biblica, vol. 27. Leiden: Brill, 1976.

Pseudo-Methodius, Die Apokalypse des Ps.-Methodios, ed. and trans. By A. Lolos. Beiträge zur Klassischen Philologie, part 83. Meisenheim am Glan: Verlag Anton Hain, 1976.

Die dritte und vierte Redaktion des Ps.-Methodios, ed. and trans. By A. Lolos. Beiträge zur Klassischen Philologie, part 94. Meisenheim am Glan: Verlag Anton Hain, 1978.

Παραστάσεις Σύντομοι Χρονικαί. Constantinople in the Eighth Century, ed. and trans. by Av. Cameron, Judith Herrin, et al. Leiden: Brill, 1984.

"Sancti Georgii Chozebitae Confessoris et Monachi Vita Auctore Antonio ejus discipulo." AB 7 (1888) 95-144.


### OTHER WORKS


Agathias, Historia, ed. by R. Keydell. CFHB. Berlin: De Gruyter, 1969.

Anastasius the Persian, Acta M. Anastasii Persae, by H. Usener. Program, Bonn 1894.

Anastasius the Sinaite, Adversus Judaeos Disputatio. PG 89: 1203-72.

Anasasii Sinaitae Opera. Sermones due in constitutionem hominis secundum imaginem Dei necnon Opuscula adversus Monotheletas, ed. by Karl-Heinz Uthemann. CC, Series Graeca, 12. Brepols-Turnhout: Leuven University Press, 1985.

"Le Texte grec des récits inédits du moine Anastase sur les saints Pères du Sinai," ed. by F. Nau. Oriens Christianus 2 (1902) 58-89.
"Le Texte grec des récits utiles à l'âme d'Anastase (le Sinaïte)," ed. by F. Nau Oriens Christianus 3 (1903) 56-90.
Constantine VII Porphyrogenitus, De administrando imperio, ed. and trans. by G. Moravcsik, R. Jenkins. 2nd edn. Washington: Dumbarton Oaks, 1967.
De thematibus, ed. by A. Pertusi. Studi e Testi. Rome 1952.
Evagirus Scholasticus, HE = Ecclesiastical History, ed. by J. Bidez, L. Parmentier. London: Methuen, 1898; repr., Amsterdam: Hakkert, 1966.
Georgius Cedrenus, Historiarum compendium, ed. by I. Bekker. CSHB. 2 vols. Bonn 1838.
Georgius Cyprius, Le Synekdèmos d'Hieroklès et l'opuscule geographique de Georges de Chypre, ed., trans. and comment. by Ernst Honigmann. CBHB, Forma Imperii Bizantini, fasc. 1. Brussels: Editions de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, 1939.
Georgius Monachus, Chronicon, ed. by C. De Boor. 2 vols. Leipzig: Teubner, 1904. Jalabert, Louise and René Mouterde, eds., Inscriptions grecques et latines de la Syrie, Bibliothèque archéologique et historique, T. 12, 32, 46, 51, 61, 66, 78, 89, 104. Paris: Geuthner, 1929-80.
Johannes of Antioch. FHG 4: 535-622; 5 : 27-39.
Johannes Malalas, The Chronicle of John Malalas, trans. by Elizabeth Jeffreys, Michael Jeffreys, Roger Scott. Byzantina Australiensia, 4. Melbourne: Australian Association for Byzantine Studies, Sydney: University of Sydney, 1986.
Chronographia, ed. by L. Dindorf. CSHB. Bonn 1831.
Johannes Zonaras, Epitome historiarum, ed. by L. Dindorf. 6 vols. Leipzig 1868-75.
Leo III, Ecloga. Das Gesetzbuch Leons III. Und Konstantinos' V, ed. by Ludwig Burgmann. Forschungen zur byzantinischen Rechtsgeschichte, vol. 10. Frankfurt: Löwenklau, 1983.
Leo VI, Tactica, ed. by R. Vári. 2 vols. Budapest 1917-22.
Tactica. PG 107 : 699-1120.
Leontios of Neapolis, Vie de Syméon le Fou et Vie de Jean de Chypre, ed. and comment. by A. J. Festugière, Lennart Rydén. Institut Français d'Archéologie de Beyrouth, Bibliothèque Archéoloogique et Historique, T. 95. Paris: P. Geuthner, 1974.
Mansi, Joannes Dominicus, Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio, repr. Graz: Akademische Drück- und Verlagsanstalt, 1960.
Mauricius, Strategikon, ed. by G. T. Dennis, trans. by E. Gamillscheg. CFHB. Vienna: Akademie, 1981.
Maurice's Strategikon: Handbook of Byzantine Military Strategy, trans. by George T. Dennis. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1984.
Maximus the Confessor, Opera. PG 90-1.
Menander Protector, The History of Menander the Guardsman, ed. and trans. by R. C. Blockley. ARCA, 17. Liverpool: Francis Cairns, 1985.
Nicephorus, Hist. = Nicephorus, Short History, ed. by C. Mango. Washington: Dumbarton Oaks, 1990.
Nicephorus Phocas, Le Traité sur la guérilla (De velitatione) de l'empereur Nicéphore Phocas, ed., trans., and comment. by Gilbert Dagron, Haralambie Mihaescu. Le Monde Byzantin. Paris: éditions du Centre National de la Recherche Scientifique, 1986.
Pantaleon, "Un discours inédit du moine Pantaléon sur l'élévation de la Croix BHG 427 p.," ed. by F. Halkin. OCP 52 (1986) 257-270.
Propopius of Caesarea, Opera omnia, ed. by J. Haury, G. Wirth. 4 vols. Leipzig; Teubner, 1905-13; repr., 1962-4.
Sargis d'Aberga, Controverse Judéo-Chrétienne, ed. and trans. by Sylvain Grébaut. PO 3: 551-643; 13 : 5-109.
Sophronius, Sermones. PG 87.3 : 3201-364.
"Weihnachtspredigt des Sophronios," ed. by H. Usener. Rheinisches Museum für Philologie. n.s. 41 (1886) 500-16.



Theodore Skutariotes, Σύνοψις Χρουική, ed. by Constantine Sathas. Μεσαιωυική Βιβλιοθήκη, vol. 7. Repr., Venice 1894.
Theophanes, Chronographia, ed. by C. De Boor. 2 vols. Leipzig 1883.
Theophylact Simocatta, Historiae, ed. by C. De Boor. Leipzig: Teubner, 1887; repr., 1972.
The History of Theophylact Simocatta, trans. by Michael Whitby and Mary Whitby. Oxford: Clarendon Press, 1986.
Theophylactos Simokates, eschichte, trans. and comment. by Peter Schreiner. Bibliothek der griechischen Literatur, 20. Stuttgart: Anton Hiersemann, 1985.
Zosimus, Historia nova, ed. by L. Mendelssohn. Leipzig: Teubner, 1887.

## SELECTIVE BIBLIOGRAPHY OF PRIMARY SOURCES: LATIN

### ANONYMOUS WORKS

Codex Theodosianus, ed. by Th. Mommsen, Paul M. Meyer. Berlin: Weidmann, 1905.
Continuationes Isidorianae Byzantia Arabica et Hispana, ed. by T. Mommsen. MGH, AA, T. 11, CM, 2: 334-69.
Corpus Juris Civilis, ed. by T. Mommsen, P. Krueger, R. Schoell, W. Kroll. 3 vols. Berlin: Weidmann, 1928.
Crónica mozárabe de 754. Edición critica y traducción, ed. by Jose Eduardo López Pereira. Textos Medievales, 58. Zaragoza 1980.
De rebus bellicis, ed. by R. I. Ireland. Leipzig: B.G. Teubner, 1984.
Notitia Dignitatum, ed. by O. Seeck. Berlin 1876; repr., Frankfurt: Minerva, 1962.
Sibyllinische Texte und Forschungen, ed. by Ernst Sackur. Halle 1898.

### OTHER WORKS

Fredegarius, Chronicles, ed. by Bruno Krusch. MGH Scriptores Rerum Merovingicarum, T. 2. Hanover 1888; repr., 1984.
The Fourth Book of the Chronicle of Fredegar with Its Continuations, trans. by J. M. Wallace-Hadrill. London: Thos. Nelson and Sons, 1960.
Johannes Monachus, Liber de miraculis. Ein neuer Beitrag zur mittelalterlichen Mönchsliteratur, ed. by Michael Huber. Sammlung Mittellateinischer Texte, 7. Heidelberg: Carl Winters Universitätsbibliothek, 1913.
Vegetius, Epitoma rei militaris, ed. by C. Lang. Leipzig: Teubner, 1885; repr., 1967.

## SELECTIVE BIBLIOGRAPHY OF PRIMARY SOURCES: ARABIC

### ANONYMOUS WORKS

Muslim Military Manual [thirteenth century AD], ed. by Heinrich Ferdinand Wüstenfeld, "Das Heerwesen der Muhammadaner," Abhandlungen d. Königl. Gesell. D. Wiss. Zu Göttingen. Hist.-Philol. Classe 26 (1880) = Das Heerwesen der Muhammadener und die arabische übersetzung der Taktik des Aelianus. Göttingen: Dieterich, 1880.
Pseudo-Wāqidī, Futūh al-Shām. Beirut 1972.
Libri Wakedii De Mesopotamiae expugnatae historia, ed. by G. H. A. Ewald. Göttingen: Dieterich, 1827.

### OTHER WORKS

'Abd al-Hamīd bin Yahyā, Risāla = 'Abd al-Hamīd bin Yahyā, Risāla... 'an Marwān ilā ibnihi 'Abd Allāh ibn Marwān, Jamharat rasā'il al-'arab, ed. by Ahmad Zakī Safwat, 4: 473-533. Cairo 1937.

'Abdl al-Hamīd bin Yahyā / Schönig, Sendschreiben = Das Sendschreiben des 'Abd al-Hamīd bin Yahyā (gest 132/750) an den Kronprinzen 'Abdallāh b. Marwān II., trans. and comment. by Hannelore Schönig. Akademie der Wissenschaften und der Literatur, Mainz, Veröffentlichungen der orientalischen Kommission, 38. Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1985.

Abū al-Fidā', al-Mukhtaṣar fī akhbār al-bashar. Beirut: Dār al-Fikr, 1956.

Abū 'Ubayd al-Qāsim b. Sallām, Kitāb al-amwāl, ed. by Muhammad Khalīl Harās. Cairo Maktabat al-Kullīyāt al-Azhariyya, 1968; Beirut; Dār al-Kuttub al-'Almiyya, 1986.

Abū Yūsuf, Ya'qūb b. Ibrāhīm, Kitāb al-kharāj. Cairo: Maktabat al-Salafiyya, 1933/4.

Kitāb al-kharāj, ed. by Ihsān 'Abbās. Beirut: Dār al-Shirūk, 1985.

Agapius, Kitāb al-'Unvān, ed. by A. A. Vasiliev. PO 5.4 (1910) 557-692; 7.4 (1911) 457-91; 8.3 (1912) 399-547.

Antiochus, Expugnationis Hierosolymae AD 614 Recensiones Arabicae, ed. by Gérard Garitte. CSCO, SA, T. 26-9. Louvain 1973-4.

al-Aṣma'ī [attributed], ta'rīkh al 'arab qabl' al-Islam, ed. by Muhammad Hasan Āl-Yāsin. Baghdad 1959.

Azdī = Muhammad b. 'Abdullāh Abū Isma'īl al-Azdī al-Baṣrī, Ta'rīkh futūh al-Shām, ed. by 'Abd al-Mun'im 'Abdullāh 'Āmir. Cairo: Mu'assasat Sijill al-'Arab, 1970; ed. by William Nassau Lees. Bibliotheca Indica. Calcutta 1857.

al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā, Ansāb al-Ashrāf I, ed. by Muhammad Hamīdullāh. Cairo: Dār al-Ma'ārif, 1959.

Ansāb al-Ashrāf IVA, ed. by Max Schloessinger and M. J. Kister. Jerusalem: Magnes, 1971.

Ansāb al-Ashrāf V, ed. by Shlomo D. F. Goitein. Jerusalem: Hebrew University Press, 1936.

Balādhurī [ = al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā], Futūh al-Buldān, ed. by Michael Jan De Goeje. Leiden: Brill, 1866; repr.

Balādhurīm Ahmad b. Yahyā, The Origins of the Islamic State, Trans. by Philip K. Hitti, F. C. Murgotten. New York: Columbia University Press,1916, 1924.

al-Dīnawarī, Abū Hanīfa Ahmad b. Dā'ūd, al-Akhbār al-tiwāl, ed. by 'Abd al-Mun'im 'Abdullāh 'Āmir. Jamal al-Dīn al-Shayyāl. Cairo: Dār Ihyā al-Kutub al-'Arabīyya, 1960.

Kitāb al-Akhbār al-tiwāl, ed. by Vladimir Guirgass. Leiden: Brill, 1888.

al-Diyārbakrī, Hussayn ibn Muhammad, Ta'rīkh al-akhāmis fī ahwāl anfas nafīs. 2 vols. In 1. Repr., Beirut 1970, of 1866 original.

Eutychius, Das Annalenwerk des Eutychios von Alexandrien, ed. and trans. by Michael Breydy. CSCO, vol. 471-2. Scriptores Arabici, T. 44-5. Louvain: E. Peeters, 1985. Now standard.

Annales, ed. by L. Cheikho, B. Carra de Vaux, H. Zayyat. 2 vols. CSCO, Scriptores Arabici, ser. 3, vol. 7.

Ibn 'Abd al-Hakam, Futūh miṣr, ed. by Charles C. Torrey. New Haven: Yale University Press, 1922.

Ibn al-'Adīm, Kamāl al-Dīn 'Umar b. Ahmad, Zubdat al-Halab min Ta'rīkh Halab, ed. by Samāal-Dahhān. 2 vols. Damascus: Institut français de Damas, 1951-68.

Ibn 'Asākir, Mukhtasar Ta'rīkh madīnat Dimashq, ed. by Ruhiya al-Nahhas, Riyād 'Abdl al-Hamīd Murād, Muhammad Mutī' al-Hāfiz, et al. Damascus: Dār al-Fikr, 1984.

Ibn 'Asākir, TMD = Ibn 'Asākir, 'Alī b. Al-Hasan, Ta'rīkh madīnat Dimashq I, ed. by Salah al-Din al-Manujjid. Damascus: al-Majma 'al-'Ilmī al-'Arabī, 1951.





Ibn al-Athīr, 'Izz al-Dīn, al-Kāmil fī-l Ta'rīkh, ed. by C. J. Tornberg. 13 vols. Repr., Beirut: Dār Sadir, 1965.

Ibn Hajar al-'Asqalānī, Ahmad b. 'Alī, al-Iṣāba fī tamyīz al-ṣahaba. 4 vols. Cairo: Matba'at al'Sa'ada, 1910; repr., Beirut: Dār Ṣādir, n.d., but probably c. 1960.

Ibn Hishām, 'Abd al'Malik, al'Sīra al-nabawīyya, ed. by Heirich Ferdinand Wüstenfeld. Sīrat Rasūl Allāh = Das Leben Muhammeds...2vols. Göttingen: Dieterischen Buchhandlung, 1858-60.

Ibn Hubaysh, Ta'rīkh. Mss. Berlin, Leiden. Microfilm. No complete printed text.

Ibn Kathīr, Tafsīr al-Qur'ān. 7 vols. Beirut: Dār al-Andalus, 1983.

Ibn Khaldūn, Ta'rīkh. 2 vols. In 3. Cairo 1936.

Ibn Khayyāṭ al-'Uṣfurī, Khalīfa, Ta'rīkh, ed. by Akram Diyā al-'Umarī. 2 vols. Baghdad: al-Najaf, 1967.

Ibn Qutayba, Kitāb al-'Uyūn al-Akhbār. Cairo 1925.

Ibn Sa'd, Muhammad, Kitāb al-Ṭabaqāt al-kabīr, ed. by Eduard Sachau, et al. 9 vols. Leiden: Brill, 1904-40.

al-Iṣtakhrī, Viae regnorum.BGA, ed. by M. J. De Goeje. Repr., Leiden: Brill, 1961.

Kūfī = Ibn A'tham al-Kūfī, Abū Muhammad Ahmad, Kitāb al-futūh, ed. by Muhammad 'Alī al-'Abbasī and Sayyid 'Abd al-Wahhāb Bukhari. 8 vols. Hyderabad: Da'irat al-Ma'arif al-'Uthmānīyya, 1968-75.

al-Nuwayrī, Ahmad ibn 'Abd al'Wahhāb, Nihāyat al-'arab fī funūn al-adab, ed. by Ṭabarī = al-Ṭabarī, Abū Ja'far Muhammad b. Jarīr, Ta'rīkh al-rusūl wa'l-mulūk (Annales), ed. by M. J. De Goeje, et al. 15 vols. Leiden: Brill, 1879-1901. Cited by De Goeje pagination.

Ṭabarī, History = al-Ṭabarī, Abū Ja'far Muhammad b. Jarīr, The History of al-Ṭabarī, ed. by Ihsan Abbas, C. E. Bosworth, et al. Bibliotheca Persica. SUNY series in Near Eastern Studies. Albany, NY: State University of New York Press, 1985-. Publication in progress.

Wāqidī = al-Wāqidī, Muhammad b. 'Umar, Kitāb al-maghāzī, ed. by Marsden Jones. 3 vols. Oxford: Oxford University Press, 1966.

al-Ya'qūbī, Ahmad b. Abī Ya'qūb, Ta'rīkh, ed. by M. Th. Houtsma. 2 vols. Leiden: Brill, 1883.

Yāqūt, Jacut's Geographisches Wörterbuch, ed. by Heinrich Ferdinand Wüstenfeld. 6 vols. Leipzig 1866-73.


## SELECTIVE BIBLIOGRAPHY: OTHER ORIENTAL SOURCES


### ANONYMOUS WORKS

Chronica Minora, ed. by Ignatius Guidi. CSCO, SS, ser. 3, T. 4, parts 1-3. Paris. Leipzig 1903-5.

Chronicon ad A.D. 819 pertinens, ed. by J. B. Chabot. CSCO, SS, ser. 3, vol. 14, 1937; repr., 1952.

Incerti auctoris, Chronicon anonymum Pseudo-Dionysianum vulgo dictum, ed. by J.-B. Chabot, E. W. Brooks. CSCO, SS, ser. 3, T. 1-2. Paris 1927-49.

The Gospel of the Twelve Apostles together with the Apocalypses of Each One of Them, ed. and trans. by James Rendall Harris. Cambridge: Cambridge University Press, 1900.

Pseudo-Methodius, "Eastern Christian Apocalyptic in the Early Muslim Period," by Francisco Javier Martinez, incl. Ed. Ph.D. diss., Catholic University, 1985, for Syriac text, trans., and comment. pp. 58-205.

Antiochus Strategius, La Prise de Jérusalem par les Perses en 614, ed. and trans. by Gérard Garitte. CSCO, vol. 202-3, Scriptores Iberici, T. 11-12. Louvain 1960.

### OTHER WORKS

Bar Hebraeus, The Chronography of Bar Hebraeus, trans. by E. A. Wallis Budge, 2 vols. Oxford: Oxford University Press, 1932; repr., Amsterdam: Philo Press, 1976.

Ghevond/Lewond, History of Lewond The Eminent Vardapet of the Armenians, trans. by Zaven Arzoumanian. Philadelphia 1982.
Johannes, Bishop of Ephesus, Historiae pars tertia, ed. and trans. by E. W. Brooks. CSCO, SS, ser. 3, T. 3, vols. 105-6. Louvain 1935, 1936; repr., 1952.
John, Bishop of Nikiu, Chronicle, trans. by R. M. Charles. Oxford: Oxford University Press, 1916.
Joshua the Stylite, Chronicle, ed. and trans. by W. Wright. Cambridge: Cambridge University Press, 1882.
Michael the Syrian, Chronique, ed. and trans. by J.-B. Chabot. 4 vols. Paris: E. Leroux, 1899-1910.
Moses of Chorene, Géographie de Moïse de Corène, ed. and trans. by P. Arsène Soukry. Venice: Imprimerie Arménienne, 1881.
Movses Dasxuranci, A History of the Caucasian Albanians, by Movses Dasxuranci, trans. by Charles J. Dowsett. London Oriental Series, 8. London: Oxford University Press, 1961.
Palmer, Chronicles = Palmer, Andrew, Andrew, ed. trans. The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles, Liverpool, Philadelphia: Liverpool University Press, University of Pennsylvania Press, 1993.
Samuel of Ani, Tables chronologiques, in: Marii Ivanovich Brosse [Brosset], ed. and trans., Collection d'historiens, vol. 2, pp. 339-483. St. Petersburg: Imprimerie de l'Académie Impériale des Sciences, 1876.
Sebēos, Histoire d'Héraclius, trans. by F. Macler. Paris 1904.
Pamut'iwn Sebeosi, ed. by G. V. Abgarian. Yerevan: Acad. Arm. SSR, 1979.
Sebēos' History, trans. by Robert Bedrosian. New York: Sources of the Armenian Tradition, 1985.
Sebēos, Zur Geschichte Armeniens und der ersten Kriege der Araber Aus dem Armenischen des Sebeos, trans. and comment. by Heinrich Hübschmann. Habilitationsschrift, Universität Leipzig, 1875.
Thomas Artsruni, History of the House of the Artsrunik', trans. and comment. by Robert W. Thomson. Detroit: Wayne State University Press, 1985.

## SELECTIVE BIBLIOGRAPHY: SECONDARY SOURCES

**(Includes frequently cited titles only, including shortened references)**

Abel, F.-M., Géographie de la Palestine. 2 vols. Paris: Librairie Lecoffre, J. Gabalda, 1933-8.
Histoire de la Palestine depuis la conquête d'Alexandre jusqu'à l'invasion arabe. 2 vols Paris: J. Gabalda, 1952.
"Inscription grecque de Gaza." Revue Biblique 40 (1931) 94-6.
Alexander, Paul J., The Byzantine Apocalyptic Tradition, ed. by Dorothy de Ferrante Abrahamse. Berkeley: University of California Press, 1985.
Religious and Political History and Thought in the Byzantine Empire, London: Variorum, 1978.
Alt, Albrecht, "Die letzte Grenzverschiebung zwischen den römischen Provinzen Arabia und Palästina." ZDPV 65 (1942) 68-76.
"Der limes Palästinae im sechsten und siebenten Jahrhundert nach Chr." ZDPV 63 (1940) 129-42.
Armées et fiscalité dans le monde antique. Paris 14-16 octobre 1976. Colloques nationaux du Centre National de la Recherche Scientifique, 936. Paris: Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, 1977.
Bakhit, Muhammad and Ihsān 'Abbās, ed., Proceedings of the Second Symposium on the History of Bilād al-Shām during the Early Islamic Period



up to 40 A.H./640 A.D. 5 vols. Amman: University of Jordan and Yarmouk University, 1987.
Bakhit, Muhammad Adnan and Muhammad Asfour, eds., Proceedings of the Symposium on Bilād-al-Shām During the Byzantine Period. 2 vols. Amman: University of Jordan and Yarmouk University, 1986, 1987.
Bartikian, Chr. [Hratz] M., Τὸ Βυζάντιου εἰς τὰς 'Αρμενικὰς Πηγάς. Byzantina Keimena kai Meletai, 18. Thessaloniki: Center for Byzantine Studies, 1981.
Basnage, J., Thesaurus Monumentorum Ecclesiasticorum et Historicorum sive Henrici Canissi Lectiones Antiquae. 2 vols. Antwerp: apud... Wetstenios, 1725.
Bates, Michael L., "History, Geography and Numismatics in the First Century of Islamic Coinage." Revue Suisse de Numismatique 65 (1986) 231-62.
Baynes, N. H., "The Military Operations of Emperor Heraclius," United Services Magazine n.s. 46 (1913) 526-33, 659-66; 47 (1913) 30-8, 195-201, 318-24, 401-12, 532-41, 665-79.
"The Successors of Justinian," Cambridge Medieval History 2: 263-301. Cambridge 1913; repr., 1926.
Beck, Hans-Georg, Kirche und Theologische Literatur im byzantinischen Reich. Munich: Beck, 1959.
Bowersock, Glen W., Roman Arabia. Cambridge, MA: Harvard, 1983.
Brandes, Wolfram, Die Städte Kleinasiens im 7. und 8. Jahrhundert. Berliner Byzantinische Arbeiten, 56. Berlin: Akademie-Verlag, 1989.
Brock, S. P., "North Mesopotamia in the Late Seventh Century. Book XV of John Bar Penkāyē's Rīš Mellē." JSAI 9 (1987) 51-75.
"Syriac Sources for Seventh-Century History." BMGS 2 (1976) 17-36.
"Syriac Views of Emergent Islam." Studies on the First Century of Islamic Society. Papers on Islamic History, vol. 5, pp. 9-22, ed. by G. H. A. Juynboll. Carbondale: Southern Illinois University Press, 1982.
Brockelmann, Carl, Geschichte der arabischen Litteratur. Supplementbäde. 2 vols. And 3 suppl. Vols. Leiden: Brill, 1936-49.
Brooks, E. W., "The Arab in Asia Minor (641-750), from Arabic Sources." JHS 18 (1898) 182-208.
"The Successors of Heraclius." CMH 4: 119-38. Cambridge 1923.
Brünnow, R. and A. von Domaszewski, Die Provincia Arabia. 3 vols. Strasburg: Trübner, 1904-9.
Buchwald, Wolfgang, Armin Hohlweg, and Otto Prinz., eds., Tusculum-Lexikon griechischer und lateinischer Autoren des Altertums und Mittelalters. 3rd edn. Munich, Zurich: Artemis, 1982.
Bury, LRE[1] = Bury, John B.,History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene (395 A.D. to 800 A.D.). 2 vols. London: Macmillan, 1889; repr. Amsterdam: Hakkert, 1966.
Butler, Alfred, The Arab Conquest of Egypt, revised by P.M. Fraser. Oxford: Oxford University Press, 1978.
Caetani, Al = Caetani, Leone, Annali dell'Islam. 10 vols. in 12. Milan: U. Hoepli, 1905-26; repr., Hildesheim: G. Olms, 1972.
Cameron, Averil, "Images of Authority: Elites and Icons in Late Sixth-Century Byzantium." Past and Present 84 (1979) 3-35.
Canard, Marius, Byzance et les musulmans du Proche Orient. London: Variorum, 1973.
Miscellanea Orientalia. London: Variorum, 1973.
Chapor, Victor, La Frontière de l'Euphrate de Pompée à la conquête arabe. Bibliothèque des Ecoles française d'Athènes et de Rome, fasc. 99. Paris: Albert Fontemoing, ed., 1907.
Charanis, Peter, "The Armenians in the Byzantine Empire." Byzsl 22 (1961) 196-240.
Charles, Henri, Le Christianisme des arabes nomades sur le limes et dans le désert syro-mésopotamien aux alentours de l'Hégire. Paris: Librairie Ernest Leroux, 1936.
Christensen, Arthur, L'Iran sous les Sassanides. 2nd edn. Copenhagen, 1944; repr., Osnabrück: O. Zeller, 1971.

Clausewitz, Carl von, On War, trans. by P. Paret and M. Howard. Princeton: Princeton University Press, 1976.
Vom Kriege, ed. by Werner Hahlweg. 18th edn. Bonn: Ferd. Dümmlers Verlag, 1973.
Clover, Frank M. and R. S. Humphreys, eds., Tradition and Innovation in Late Antiquity. Madison: University of Wisconsin Press, 1989.
Conrad, Lawrence I., "al-Azdī's History of the Arab Conquests in Bilād al-Shām: Some Historiographical Observations." 1985 Bilādal-Shām Proceedings 1: 28-62. (1985 papers publ. In) Amman: University of Jordan and Yarmouk University, 1987.
"The Plague in the Early Medieval Near East." unpub. Ph.D. diss., Princeton, 1981.
"Theophanes and the Arabic Historical Transmission: Some Indications of Intercultural Transmission." ByzF 15 (1990) 1-45.
Constantelos, Demetrios J., "The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and Eighth Centuries." Byzantion 42 (1972) 325-57.
Cook, M. A. Muhammad. Oxford: Oxford University Press, 1983.
Couret, Alphonse, La Palestine sous les empereurs grecs. 326-636. Grenoble: F. Allier, 1869.
"La Prise de Jérusalem par les Perses en 614." ROC 2 (1897) 125-64.
Crone, Patricia, "Islam, Judaeo-Christianity, and Byzantine Iconoclasm." JSAI 2 (1980) 59-95.
Crone, Patricia and Michael A. Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World. Cambridge: Cambridge University Press, 1977.
Dagron, Gilbert, "Byzance et le modèle islamique au Xe siècle. À propos des Constitutions tactiques de l'enpereur Léon VI." Comptes rendus, Académie des inscriptions et belles-lettres (1983) 219-43.
"'Ceux d'en face': Les peuples étrangers dans les traités militaires byzantins." TM 10 (1986) 207-32.
Dédéyan, Gérard, et al., eds., Histoire des Arméniens. Toulouse: Privat, 1982.
De Goeje, Mémoire[1] = De Goeje, M. J., Mémoire sur le Fotouh's-Scham attribué à Abou Ismail al-Baçri. Mémoire d'histoire et de géographie orientales. no. 2. 1st edn. Leiden: Brill, 1864.
De Goeje, Mémoire[2] = De Goeje, M. J., Mémoire sur la conquête de la Syrie. 2nd edn. Leiden: Brill 1900.
Delehaye, Hippolyte, "Passio sanctorum sexaginta martyrum." AB 28 (1904) 289-307.
Déroche, Vincent, "L'Autenticité de l''Apologie contre les juifs' de Léontios de Néapolis." BCH 110 (1986) 655-69.
Dillemann, Louis, Haute Mésopotamie orientale et pays adjacents. Contribution à la géographie historique de la région, du Ve s.avant l'ère chrétienne au VIe de cette ère. Institut français d'archéologie de Beyrouth, Bibliothèque archéologique et historique, T. 72. Paris: P. Geuthner, 1962.
Dölger, F., Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565-1025, facs. 1-5. Munich, Berlin: Verlag R. Oldenburg, 1924-65.
Donner, EIC = Donner, Fred M., The Early Islamic Conquests. Princeton: Princeton University Press, 1981.
"The Problem of Early Arabic Historiography in Syria," 1985 Bilād al-Shām Proceedings 1: 1-27.
Downey, Glanville, A History of Antioch in Syria. Princeton University Press, 1961.
"The Persian Campaign in Syria in AD 540." Speculum 28 (1953) 340-8.
Duri, Abd al-Aziz, The Rise of Historical Writing Among the Arabs , ed. and trans.
Durliat, Jean,"Le Salaire de la paix sociale dans les royaumes barbares (Ve-VIe siècles)," in: Herwig Wolfram and Andreas Schwarcz, eds., Anerkennung und Integration 21-72.
Dussaud, René, La Pénétration des arabes en Syrie avant l'Islam. Paris: Geuthner, 1955.
Topographie historique de la Syrie antique et mediévale. Paris: Geuthner, 1927.
Excavations at Nessana. 3 vols. Colt Archaeological Institute. Princeton: Princeton University Press, 1950-62.



Fahd, Toufic, ed., L'Arabie Préislamique et son environnement historique et culturel. Université des Sciences Humaines de Strasbourg. Travaux du Centre de Recherche sur le Proche-Orient et la Grèce Antiques, 10. Leiden: Brill, 1989.
Fiey, J. M., Communautés syriaques en Iran et Irak des origines à 1552. London: Variorum, 1979.
"The Last Byzantine Campaign into Persia and its Influence on the Attitude of the Local Populations Towards the Muslim Conquerors," 1985 Bilād al-Shām Proceedings 1: 96-103. 1985 papers publ. in Amman: University of Jordan and Yarmouk University, 1987.
Foss, Clive, "The Persians in Asia Minor and the End of Antiquity." EHR 90 (1975) 721-47.
Freeman, Philip and David Kennedy, eds., The Defence of the Roman and Byzantine East, British Institute of Archaeology at Ankara, Monograph No. 8. Oxford: BAR International Series 297 (i and ii), 1986.
Fries, Nikolaus, Das Heerwesen der Araber Zur Zeit der Omaijiden nach Tabari. Tübingen 1921.
Frolow, A., "La Vraie Croix et les expéditions d'Héraclius en Perse." REB 11 (1953) 88-105.
Garsoïan, Nina, Armenia between Byzantium and the Sasanians. London: Variorum, 1985.
La Géographie administrative et politique d'Alexandre à Mahomet. Actes du Colloque de Strasbourg, 14-16 juin 1979. Strasburg: Brill, 1981.
Gerö, Stephen, Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III with Paritular Attention to the Oriental Sources. Louvain 1973.
Ghawanmā, Yūsuf, Ma'rakat al-Yarmūk. Irbid 1985.
Giardina, Andrea, ed., Società romana e impero tardoantico. 4 vols. Rome, Bari: Edizioni Laterza, 1986.
Gibb, H. A. R., "Arab-Byzantine Relations under the Umayyad Caliphate." DOP 12 (1958) 219-33.
Gichon, M., "The Negev Frontier," in: Israel and Her Vicinity in the Roman and Byzantine Periods. Tel Aviv: Tel Aviv University, 1967.
Glubb, John Bagot, The Great Arab Conquests. London: Hodder and Stoughton, 1963.
Glucker, Carol A. M., The City of Gaza in the Roman and Byzantine Periods. Oxford: BAR International Series 325,1987.
Goffart, Walter, "After the Zwettl Conference: Comments on the 'Techniques of Accomodation'," in: Herwig Wolfram and Andreas Schwarcz, eds,m Anerkennung und Integration 73-85. Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1988.
Barbarians and Romans A.D. 418-584. Princeton: Princeton University Press, 1980.
Goubert, Paul, Byzance avant l'Islam. 2 vols. in 3. Paris: Geuthner, 1951-65.
Graf, David F., "The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier." BASOR 229 (1978) 1-26.
Graf, Georg, Geschichte der christlichen arabischen Literatur. 5 vols. Studi e Testi 118, 133, 146, 147, 172. Vatican City: Biblioteca Apostolica Vaticana, 1944-53. Grierson, Philip, Catalogue of the Byzantine Coins in the Dumbarton Oaks Collections and in the Whittemore Collection, vol. 2, parts 1 and 2. Washington: Dumbarton Oaks, 1968.
Gutwein, Kenneth, Third Palestine. Washington: University Press of America, 1981. Haase, C.-P., Untersuchungen Zur Landschaftsgeschichte Nordsyriens in der Umayyadenzeit. Diss. Hamburg. pub. Kiel 1975.
Hage, Wolfgang, Die Syrisch-jakobitische Kirche in Frühislamischer Zeit. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1966.
Hahn, Wolfgang, Moneta Imperii Byzantini. 3 vols. Österreichische Akademie der Wissenschaften, Denkschriften, Philosophische-Historische Klasse, 109, 148. Vienna: Verlag der Akademie, 1973-81.
Haldon, John, Byzantine Praetorians: An Administrative, Institutional, Social Survey of the Opsikion and the Tagmata, c. 500-900. Ποικίλα Βυζαντινά, 3. Bonn: R. Habelt, 1984.

Byzantium in the Seventh Century. Cambridge: Cambridge University Press, 1990. "Recruitment and Conscription in the Byzantine Army c. 550-950," Sitzungsberichte. Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophische-Historische Klasse, 357. Vienna: Verlag der Akademie, 1979.
Haldon, John and Hugh Kennedy, "The Arab-Byzantine Frontier in the Eighth and Nineth Centuries: Military Organisation and Society in the Borderlands." ZRVI 19 (1980) 79-116.
Hendy, Michael, Studies in the Byzantine Monetary Economy, c. 300-1450. Cambridge: Cambridge University Press, 1985.
Herrin, Judith, The Formation of Christendom. Princeton University Press. 1987.
Hild, Friedrich, Das Byzantinische Strassensystem in Kappadokien. Vienna: Verlag der Akademie, 1977.
Hild, Friedrich and Marcell Restle, Kappadokien (Kappadokia, Charsianon, Sebasteia und Lykandos). Tabula Imperii Byzantini 2. Vienna: Verlag der Akademie, 1981.
Hill, D. R., "The Role of the Camel and the Horse in the Early Arab Conquest," in: V. J. Parry and M. E. Yapp, eds., War, Technology and Society in the Middle East, pp. 32-43, New York: Oxford University Press, 1977.
The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests A.D. 634-656. London: Luzac, 1971.
Honigmann, Ernst, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071. Brussels: Editions de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales, 1935; repr., 1961.
Isaac, Benjamin, Limits of Empire. Oxford: Clarendon, 1990.
Jandora, John W., "Developments in Islamic Warfare: The Early Conquests." Studia Islamica 64 (1986) 101-13.
Jones, LRE = Jones, A. H. M., Later Roman Empire. Oxford: Blackwell, 1964.
Jones, Marsden, "The Maghāzi Literature," in: Arabic Literature to the End of the Umayyad Period, ed. by A. F. L. Beeston, T. M. Johnstone, et al., pp. 344-52. Cambridge: Cambridge University Press, 1983.
Juynboll,G. H. A., ed., Studies on the First Century of Islamic Society. Papers on Islamic History, 5. Carbondale: Southern Illinois University Press, 1982.
Kaegi, Walter, "The Annona Militaris in the Early Seventh Century," Byzantina 13 (1985) 591-6.
Kaegi, ASRB = Kaegi, Walter, Army, Society and Religion in Byzantium. London: Variorum, 1982.
Kaegi, BMU = Kaegi, Walter, Byzantine Military Unrest, 471-483: An Interpretation. Amsterdam and Las Palmas: Hakkert, 1981.
Kaegi, Walter, Byzantium and the Decline of Rome. Princeton: Princeton University Press, 1968.
"Changes in Military Organization and Daily Life on the Eastern Frontier," in: 'H Καθημεριυή Ζωή στὸ Βυζάντιο. Τομές καί συνέΧειες στήν έλληυιστική καί ρωμαϊκή παράδοση. Πρακτικά τοῦ Α' Συμλοσίου. 15-17 Σελτεμβρίσυ 1988 [Daily Life in Byzantium], ed. by Chrysa Maltezou, pp. 507-21. Athens: Hellenic Center for Byzantine Studies, 1989.
"The Frontier: Barrier or Bridge?," in: Major Papers, The 17th International Byzantine Congress, pp. 279-303. (New Rochelle, NY: A. D. Caratzas, 1986). "Heraklios and the Arabs." Greek Orthodox Theological Review 27 (1982) 109-33.
"Late Roman Continuity in the Financing of Heraclius' Army." XVI. Internationaler Byzantinisten-Kongress, Akten = JÖB 32/2 (1982) 53-61.
"Obsevations on Warfare Between Byzantium and Umayyad Syria." 1987 Bilādal-Shām Proceedings (English section) 2: 49-70.
Some Thoughts on Byzantine Military Strategy. Ball State University Hellenic Studies Lecture. Brookline, MA: Hellenic College Press, 1983.
"The Strategy of Heraclius." 1985 Bilād al-shām Proceedings 1: 104-15.
"Two Studies in the Continuity of Late Roman and Byzantine Military Institutions." ByzF 8 (1982) 87-113.



"Variable Rates of Change in the Seventh Century," in: Tradition and Innovation in Late Antiquity, ed. by Frank M. Clover, R. S. Humphreys, pp. 191-208. Madison: University of Wisconsin Press, 1989.
Καθηγητρία: Essays Presented to Joan Hussey for Her 80th Birthday. Camberley, Surrey: Porphyrogenitus, 1988.
Kamāl, Ahmad 'Adl, Ṭarīq ilā Dimashq. Futūh bilād al-Shām. Beirut: Dār al-Nifash, 1982.
Karayannopulos, Johannes, Dar Finanzwesen des frühbyzantinischen Staates. Munich: R. Oldenbourg, 1958.
Karayannopulos-Weiss, Quellenkunde = Karayannopulos, Johannes and Günter Weiss, Quellenkunde zur Geschichte von Byzanz (324-1453). 2 vols. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1982.
Kawar, I. see Shahid.
Kennedy, D. L., Archaeological Exploratioins on the Roman Frontier in North-East Jordan. The Roman and Byzantine Military Installations and Road Network on the Ground and From the Air. Oxford: BAR International Series 134, 1982.
Kennedy, Hugh, "From Polis to Madina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria." Past and Present 106 (1985) 3-27.
"The Last Century of Byzantine Syria: A Reinterpretation." ByzF 10 (1985) 141-85.
Kmosko, M., "Das Rätsel des Pseudomethodius." Byzantion 6 (1931) 273-96.
Kolias, Taxiarchis G., Byzantinische Waffen. Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1988.
Köpstein, Helga and Friedhelm Windelmann, eds., Studien zum 7, Jahrhundert in Byzanz. Probleme der Herausbildung des Feudalismus. Berliner Byzantinische Arbeiten, 47. Berlin: Akademie-Verlag, 1976.
Kremmydas, Vasiles Chrysa Maltezou and Nikolaos Panayiotakis, eds., 'Αφιέρωμα στὸν Νίκο Σβορώνο. 2 vols. Rethymnon: University of Crete, 1986.
Krivov, M. V., "Nekotor'ie vopros'i arabskogo zavoevaniya Sirii i Palestin'i." Viz-Vrem 46 (1986) 88-89.
Krumbacher, Karl, Geschichte der byzantinischen Litteratur. 2nd edn. Munich 1897.
Kumpfmüller, J., De Anastasio Sinaita. Diss., Würzburg, 1865.
Kyrris, Costas P., History of Cyprus. Nicosia 1985.
Lapidus, Ira, "The Arab Conquests and the Formation of Islamic Society." In: Studies on the First Century of Islamic Society, ed. by G. H. A. Juynboll, pp. 49-72. Carbondale: Southern Illinois University Press. 1982.
Laurent, Arménie[2] = Laurent, Joseph, L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. 2nd edn., rev., enlarged by Marius Canard. Armenian Library of the Calouste Gulbenkian Foundation. Lisbon: Librairie Bertrand, 1980.
Liebeschuetz, J. H. W. G., Antioch. City and Imperial Administration in the Later Roman Empire. Oxford: Clarendon, 1972.
"The Defenses of Syria in the Sixth Century." Beihefte der Bonner Jahrbücher 38 = Studien zu den Militärgrenzen Roms II (1977) 461-71.
Lilie, Ralph-Johannes, Die byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber. Miscellanea Byzantina Monacensia, 22. Munich 1976.
"Die zweihundertährige Reform. Zu den Anfängen der Themenorganisation im 7. und 8. Jahrhundert." Byzsl 45 (1984) 27-39, 190-201.
McEvedy, Colin and Richard Jones, Atlas of World Population History. London: Allen Lane, 1978.
MacMullen, Ramsay, Corruption and the Decline of Rome. New Haven: Yale, 1988.
Manandian, H. A., "Les Invasions arabes en Arménie." Byzantion 18 (1948) 163-92.
Mango, Cyril, Byzantium: The Empire of New Rome. New York 1980.
"Deux études sur Byzance et la Perse Sassanide." TM 9 (1985) 91-118.
"Who wrote the Chronicle of Theophanes?" ZRVI 18 (1978) 9-18.
Martinez, Francisco Javier, "Eastern Christian Apocalyptic in the Early Muslim Period." Unpub. Ph.D. diss., Catholic University, 1985.

Mayerson, Philip, "The desert of Southern Palestine According to Byzantine Sources." Proc. Am. Philos. Soc. 107 .2 (1963) 160-72.
"The First Muslim Attacks on Southern Palestine." TAPA 95 (1964) 155-99.
"Saracens and Romans: Micro-Macro Relationships." BASOR 274 (1989) 71-81.
Miednikov, Nikolai A., Palestina ot zavoevaniia eia arabami do krestov'ich pochodov po arabskim istochnikam. 2 vols. in 4 St. Petersburg: V. Kirshbaum, 1902, 1897.
Miller, Karl, Die peutingersche Tafel oder Weltkarte des Castorius. Stuttgart 1916.
Miller, Konrad, Itineraria Romana. Römische Reisewege an der Hand der Tabula Peutingeriana. Stuttgart: Strecker and Strecker, 1916.
Mitchell, Stephen, ed., Armies and Frontiers in Roman and Byzantine Anatolia. British Institute of Archaeology at Ankara Monograph no. 5. Oxford: BAR International Series 156, 1983.
Moravcsik, G., Byzantinoturcica. 2 vols. 2nd edn. Berlin: Akademie Verlag, 1958.
Morony, Michael, Iraq after the Muslim Conquest. Princeton: Princeton University Press, 1984.
Morrisson, Cécile, "Le Trésor byzantin de Nikertai," Revue belge de Numismatique 118 (1972) 29-91.
Mouterde, R. and A. Poidebard, Le Limes de Chalcis. Organisation de la steppe en Haute Syrie Romaine. Paris: Geuthner, 1945.
Musil, A., Arabia Petraea. 3 vols. Vienna: Holder, 1907.
The Northern Hegaz. New York: American Geographical Society, 1926.
Nicolle, David C., Early Medieval Islamic Arms and Armour. Madrid 1976.
"The Military Technology of Classical Islam." Unpub. Ph.D. diss., University of Edinburgh, 1982.
Nöldeke, Theodor, "Die Ghassanidischen Fürsten aus dem Hause Gafna's." Abbandlungen der Königl. Preuss. Akad. D. Wiss. Zu Berlin, Philosophische-Historische Klasse 2: 1-63. 1887.
"Zur Geschichte der Araber im 1. Jahrhundert d. H. aus syrischen Quellen." ZDMG 29 (1875) 76-85.
North, Albrecht, "Abgrenzungsprobleme zwischen Muslimen und Nicht-Muslimen. Die 'Bedingungen 'Umars (aš-šurūt al-'umariyya)' unter einem anderen Aspekt gelesen." JSAI 9 (1987) 290-315.
"Die literarisch überlieferten Verträge der Eroberungszeit als historische Quellen für die Behandlung der unterworfenen Nicht-Muslime durch ihre neuen muslimischen Oberherren." Studien zum Minderheitenproblem im Islam, 1: Bonner Orientalische Studien n.s. 27/1 (1973) 282-314.
Quellenkritische Studien zu Themen, Formen, und Tendenzen Frühislamischer Geschichtsüberlieferung. Bonn: Selbstverlag der Orientalischen Seminars der Universität Bonn, 1973.
Oikonomides, Nicholas, Les Listes de préséance byzantines des IXe et Xe siècles. Paris 1972.
"Middle-Byzantine Provincial Recruits: Salary and Recruits," in: Gonimos. Neoplatonic and Byzantine Studies Presented to Leendert G. Westerink at 75, ed. by John Duffy and John Peradutto, pp. 121-36. Buffalo, NY: Arethusa, 1988.
"Les premiers Mentions des thèmes dans la Chronique de Théophane." ZRVI 19 (1975) 1-8.
Olster, David, The Politics of Usurpation in the Seventh Century: Rhetoric and Revolution in Byzantium. Amsterdam, Las Palmas: Hakkert, 1993.
Roman Defeat, Christian Response, and the Literary Construction of the Jew. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1994.
Ostrogorsky, George, History of the Byzantine State. New Brunswick: Rutgers, 1969.
Oudin, Casimir, Trias dissertationum criticarum...Leiden: Luchtmans, 1717.
Papadopoulos-Kerameus, A., 'Ανάλεκτα 'Ιεροσολυμιτκής Σταχυολογίας. 5 vols St. Petersburg 1898.
Pargoire, J., "Les LX Soldats Martyrs de Gaza." EO 8 ( 1905) 40-3.
Parker, S. Thomas, "Peasants, Pastoralists, and Pax Romana: A Different View." BASOR 265 (1987) 35-51.



The Roman Frontier in Central Jordan. Oxford: BAR International Series 340, 1987.
Romans and Saracens: A History of the Arabian Frontier. Dissertation Series 6, ASOR. Winona Lake, IN, 1986.
Parry, V. J. And M. E. Yapp, eds., War, Technology and Society in the Middle East. New York: Oxford, 1977.
Pernice, Angelo, L'Imperatore Eraclio. Saggio di storia bizantina. Florence: Galletti and Cocci, 1905.
Pertusi, Agostino, "Ordinamenti militari, guerre in Occidente e teorie di guerre dei Bizantini (secc. VI-X)." Settimane di Studio del Centro Italiano di Studio sull' Alto Medioevo. 15: Ordinamenti Militari in Occidente nell'Alto Medioevo, pp. 631-700. Spoleto 1968.
"La Persia nelle fonti bizantini del secolo VII." Atti del convegno internazionale sul tema: La Persia nel Medioevo. Problemi attuali di Scienze e di Cultura, Quaderno 160: 605-28. Rome: Accademia Nazionale dei Lincei, 1971.
Piccirillo, Michele, "Le iscrizioni di Um er-Rasas-Kastron Mefaa in Giordania I (1986-1987)." Liber Annuus Studium Biblicum Franciscanum 37 (1987) 177-239. Chiese e mosaici della Giodania settentrionale. Studium Franciscanum. Collectio Minor, 30. Jerusalem: Franciscan Printing House, 1981.
Pohl, Walter, Die Awaren. Munich: C. H. Beck, 1988.
Poidebard, A., Le Trace de Rom dans le désert de Syrie. 2 vols. Paris: Geuthner, 1934.
Posner, Nadine F., "The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia: An Introductory Essay into its Historical Background and Historiography." Unpub. Ph.D. diss., New York University, 1985.
"Whence the Muslim Conquest of Northern Mesopotamia?," in: A Way Prepared. Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder, ed. by Farhad Kazemi and R. D. McChesney, pp. 27-52. New York: New York University Press, 1988.
Proudfoot, Ann S., "The Sources of Theophanes for the Heraclian Dynasty." Byzantion 44 (1974) 367-439.
Rosenthal, Franz, A History of Muslim Historiography. 2nd edn. Leiden: Brill, 1968.
Rothstein, Gustav, Die Dynastie der Lakhmiden in al-Hira: ein Versuch zur arabisch-persischen Geschichte zur Zeit der Sasaniden. Berlin 1899; repr., Hildesheim: Olms, 1968.
Rotter, Ekkehart, Abendland und Sarazenen. Das Okzidentale Araberbild und seine Entstehung im Frühmittelalter. Studien zur Sprache, Geschichte und Kultur des islamischen Orients n.s. vol. 11. Berlin, New York: Walter de Gruyter, 1986.
Sartre, Maurice, Bostra des origines à l'Islam. Paris 1985.
Trois études sur l'Arabie romaine et byzantine. Collection Latomus, vol. 178. Brussels: Latomus, 1982.
Schick, Robert, The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Islamic Rule: A Historical and Archaeological Study. Princeton: Darwin, 1995.
Schwarzlose, F. W., Die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt. Leipzig 1886.
Segal, J. B., "Syriac Chronicles as Source Material for the History of Islamic Peoples," in: Historians of the Middle East, ed. by Bernard Lewis and P. M. Holt, pp. 246-58. London: Oxford University Press, 1962.
Sezgin, Fuat, Geschichte des arabischen Schrifttums. 9 vols. Leiden: Brill, 1967-84.
Shaban, Muhammad Abdulhayy, Islamic History, A.D. 600-750 (A.H. 132). A New Interpretation. Cambridge: Cambridge University Press, 1971.
Shahid, BAFIC = Shahid, Irfan, Byzantium and the Arabs in the Fifth Century. Washington: Dumbarton Oaks, 1989.
Shahid, BAFOC = Shahid, Irfan, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century. Washington: Dumbarton Oaks, 1984.
Shahid, BSOBRI = Shahid, Irfan, Byzantium and the Semitic Orient Before the Rise of Islam. London: Variorum, 1988.
Shahid, Irfan, "Heraclius and the Theme System: New Light from the Arabic." Byzantion 57 (1987) 391-403.

"Heraclius and the Theme System: Further Observations." Byzantion 59 (1989) 208-43.
Rome and the Arabs. Washington: Dumbarton Oaks, 1984.
Shboul, Ahmad, "Arab Attitudes Towards Byzantium: Official, Learned, Popular," in: Καθηγητρία: Essay Presented to Joan Hussey for Her 80th Birthday, pp. 111-28. Camberley, Surrey: Porphyrogenitus, 1988.
Shoufani, Elias S., Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia. Toronto: University of Toronto Press, 1972.
Speck, Paul, Das geteilte Dossier. Beobachtungen zu den Nachrichten über die Regierung des Kaisers Herakleios und die seiner Söhne bei Thophanes und Nikephoros. Ποικίλα Βυζαντινά, 9. Bonn: Habelt, 1988.
Starr, Joshua, "Byzantine Jewry on the Eve of the Arab Conquest." Journal of the Palestine Oriental Society 15 (1935) 280-93.
Stein, Ernest, Histoire du Bas-Empire. 2 vols. Paris: Desclée de Brouwer, 1949-59.
Sternbach, Leo, Analecta Avarica. Rozprawy, Polska Akademii Umieketnosci, Whydzial Filologiczny, ser. 2, vol. 15, pp. 297-365. Cracow, 1900.
Stratos, Βυζάντιον = Stratos, Andreas, Τὸ Βυζάντιον στὸν Ζ' αἰῶνα. 6 vols. Athens: Estia, 1965-78.
Stratos, Zia, ed., Βυζάντιον. 'Αφιέρωμα στὸν 'Ανδρέα Στράτο. Byzance. Hommage à Andreas Stratos. Byzantium. Tribute to Andreas Stratos. 2 vols. Athens 1986.
Suermann, Harald, Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7. Jahrhunderts. Europäische Hochschulschriften, ser. XXIII, Theology, vol. 256. Frankfurt, Bern, New York: Peter Lang, 1985.
Ṭalās, Muṣṭafa, Sayf Allāh, Khālid ibn al-Walīd. Damascus 1978.
Tchalenko, Georges, Villages antiques de la Syrie du Nord: le massif du Belus àl'époque romaine. 3 vols. Bibliothèque Archéologique et historique, Institut Français d'Archéologie de Beyrouth, T. 50. 1953-8.
Ter-Ghewondyan, Aram, The Arab Emirates in Bagratid Armenia, trans. by Nina Garsoïan. Lisbon: Livraria Bertrand, 1976.
[Ter-Gevondian] Armeniya i arabskii Khalafat. Yerevan 1977.
[Ter-Ghévondian] "L'Arménie et la conquête arabe," in: Armenian Studies / Etudes Arméniennes in Memoriam Haïg Berbérian, ed. by Dickran Kouymjian, pp. 773-92. Lisbon: Calouste Gulbernkian Foundation, 1986.
Thomson, R. W., "Muhammad and the Origin of Islam in Armenian Literay Tradition," in: Armenian Studies / Etudes Arméniennes in Memoriam Haïg Berbérian, ed. by Dickran Kouymjian, pp. 829-58. Lisbon: Calouste Gulbenkian Foundation, 1986.
Toumanoff, Cyril, Studies in Christian Caucasian History. Washington: Georgetown University Press, 1963.
Treadgold, Warren, Byzantine State Finances in the Eighth and Ninth Centuries. Boulder: East European Monographs, 121. Byzantine Series, 2. New York: Distributed by Columbia University Press, 1982.
"The Military Lands and the Imperial Estates in the Middle Byzantine Period." Harvard Ukrainian Studies [OKEANOS] 7 (1983) 619-31.
Trimingham, J. S., Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times. London, New York, Beirut: Longman, Librairie du Liban 1979.
Turtledove, Harry, "The Immediate Successors of Justinian: A Study of the Persian Problem..." Unpub. Ph.D. diss., UCLA, 1977.
Urman, Dan, The Golan: A Profile of a Region During the Roman and Byzantine Periods. Oxford: BAR International Series 269, 1985.
Vasiliev, A. A., Byzance et les arabes, trans. by H. Grégoire, M. Canard, et al. Corpus Bruxellense Historiae, 1, 2. 2 vols. in 3. Brussels 1935-50.
Walmsley, Alan G., "Administrative Structure and Urban Settlement in Filasṭīn and Urdunn." Unpub. Ph. D. Diss., University of Sydney, Australia, 1987.
Wellhausen, Julius, "Die Kämpfe der Araber mit den Romäern in der Zeit der Umaijiden." Nachrichten der Königl. Gesellschaft der Wissenschaften in Göttingen, Philol.-Hist. Klasse, pp. 414-47.



Skizzen und Vorarbeiten. 6 vols. Berlin: Reimer, 1884-99.
Whitby, Michael, The Emperor Maurice and His Historian. Oxford: Clarendon Press, 1988.
Williams, Arthur Lukyn, Adversus Judaeos: A Bird's Eye View of Christian Apologiae until the Renaissance. Cambridge University Press, 1935.
Winkelmann, Friedhelm, "Ägypten und Byzanz vor der arabischen Eroberung." Byzsl 40 (1979) 161-82.
ed., Byzanz im 7. Jahrhundert. Untersuchungen zur Herausbildung des Feudalismus. Berliner Byzantinische Arbeiten, 48. Berlin: Akademie-Verlag, 1978. Quellenstudien zur herrschenden Klasse von Byzanz im 8. und 9. Hahrhundert. Berlin: Akademie-Verlag, 1987.
"Die Quellen zur Erforschung des monoenergetisch-monotheletischen Streites." Klio 69 (1987) 515-59.
Wirth, Eugen, Syrien. Eine geographische Landeskunde. Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1971.
Wolfram, Herwig and Andreas Schwarcz, eds., Anerkennung und Integration. Zu den wirtschaftlichen Grundlagen der Völkerwanderungszeit 400-600. Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1988.
Wroth, W., Catalogue of the Imperial Byzantine Coins in the British Museum. London 1908.
Zakos, Veglery, BLS = Zacos, G., A. Veglery, and J. Nesbitt, Byzantine Lead Seals. Basel, 1972-85.

# ثبت الفهارس

# ثبت أسماء الأعلام

# ثبت أسماء المواقع الجغرافية

## ب







## ت



## ث



## ج



## ح

## و



## ي

# Byzantium

## and the early Islamic conquests

WALTER E. KAEGI